كتاب

النسق الغالي والنفس العالي

شرح نصيحة أبي العباس الهلالي

للشيخ العالم العلامة السيد

عبد الصمد التهامي كنون

رحمه الله ونفع به

لله در ولد المؤلف الأستاذ عبد الله إذ يقول في هذا الكتاب :

النسق الغالي غدا معربا   عن نفس عال لمن كتبا

إن نصيحة الهلالي به   قد طلعت في أفقنا كوكبا

خطبة الافتتاح :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى شرح صدر من أراد به خيراً لقبول نصيحة إخوانه ، وجعل ثواب بذلها والامتثال لها الخلود فى نعيمه وجنانه .

أحمده حمد مقترف من بحور إحسانه ، ومستمطر وابل جوده وامتنانه ، واستوهبه جزيل عفوه وغفرانه ، واقتطف ثمار رحماته ورضوانه ، والشكر له شكر من غلبت عليه مشاهدته فى جنانه ، وعلم عظيم سطوته وجبروته وسلطانه .

وأصلى وأسلم على سيدنا محمد واسطة عقد أكوانه ، وأساس خيراته وفيض معارفه وعرفانه ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأعوانه ، ماخطت فى الصحف أقلام وأمسكها كاتب ببنانه .

وبعد فيقول غريق أوزاره وخطاياه فى كل أزمانه ، ورهين كسبه وذنوبه فى كل أوقاته وأوانه ، الملتجىء لخالقه فى كل حركة وسكون ، عبد الصمد ابن التهامى بن المدنى بن على كنون ، أناله مولاه بمنّه سره المكنون ، وأولاه بفضله ووالديه والمسلمين أجراً غير ممنون ، وختم له ولهم بالحسنى يوم المنون :

طالما تشوفت النفس لوضع ألفاظ مختصرة وجيزة وجمع كلمات وفوائد وتنبيهات منتخبة عزيزة ، على نصيحة الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام ، ذى التحريرات العجيبة والتقريرات النفيسة والفوائد الغريبة ، من له القدم الراسخة فى العلوم والمعالى أبى العباس سيدى أحمد بن عبد العزيز الهلالى ، أولاه رضاه ورحمته المتكبر المتعالى ، وحشرنا فى زمرته والمسلمين الأرقاء والموالى ، تكون بحول الله كالشرح لما انغلق من معانيها ، وتوضح ما خفى واستتر من مبانيها .

وكنت أنتظر فى كل وقت وزمان ، تيسير السعى فى ذلك من ذى الجود والامتنان ، وفى هذا الحين قوى عزمى على ذلك ، واشتد شوقى إلى سلوك تلك المسالك ، فألهمنى من له القدرة الباهرة ، والإرادة النافذة القاهرة ، أن أمسك بيدى القلم ، وأشرع فيما به الخاطر ألم ، فشرعت فى ذلك مستعيناً بالله ، قائلا :

لا حول ولا قوة إلا بالله ، سائلا الله سبحانه بمحض جوده الغزير ، وفضله الواسع العميم الكثير ، كما ألهم الافتتاح وهدى إليه ، أن يمن بالتمام ويعين عليه ، ويرشد فيه لاقتفاء الصواب والسداد ، وتيسير أمره فى البدء والأثناء والختام حتى يتم المراد ، إنه لا يخيب رغبة الراغبين ، ولا يرد دعوة القاصدين ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى الجليل .

وحين تم له النظام والجمع وراق منه الصنيع والوضع سميته «النفس العالى والنسق الغالى، فى شرح نصيحة الهلالى» وأرغب من الله جل اسمه أن يكسى جلباب القبول، ويجعله سلماً ترتقى به مقامات الوصول، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير .

الكلام على البسملة :

قال رحمه الله :

(بسم الله الرحمن الرحيم) ابتدأ رحمه الله بالبسملة لما هو مقرر شهير ، مسطر فى غير ما ديوان كبير وصغير ، ومعلوم أن الكلام عليها ليس له غاية ، ومن رام حصره عجز بداية ونهاية، ولكن ما لا يمكن كله لا يترك بعضه أو جله، ولغالب الفنون العلمية تعلق بها ، فلنقتصر هنا على بعض ما يتعلق بالفن المشروع فيه فنقول ، ومن الله نطلب الإعانة والإمداد والتوفيق والقبول :

لا شك أن هذه النصيحة الجليلة ، التى هى بأبلغ النصح وأنفعه كفيلة قد ألمت بجملة وافرة من علم طهارة القلب ، والإرشاد إلى ما يحصل مرضاة الرب ، فهى إذن من المؤلفات فى التصوف الذى هو طريق السالكين ، وعمدة العارفين ، وإذا كان كذلك فلنثبت هنا شيئاً مما أبداه العارفون فى معناها ،

وأبرزوه من أسرارها وغرائب خفاياها ، عسى أن تنالنا بفضل الله بركتهم ، وتشملنا بحول الله وقوته عطفتهم .

روى سيدنا على الرضا ، عن أبيه موسى الكاظم ، عن أبيه جعفر الصادق أنه قال فى بسم: الباء بقاؤه ، والسين أسماؤه ، والميم ملكه ؛ فإيمان المؤمن ذكره ببقائه ، وخدمة المريد ذكره بأسمائه ، والعارف فناؤه عن المملكة بالمالك لها .

وقال بعض الصوفية : الباء بابه ، والسين سلامه ، والميم إنعامه .

وقال آخر : الباء بركته ، والسين ستره ، والميم معرفته .

وقال آخر : الباء بره للعموم ، والسين سره للخصوص ، والميم محبته لخصوص الخصوص .

وقيل فى بسم الله : بهظهرت الأشياء وبه فنيت ، وبتجليه حسنت المحاسن ، وباستتاره قبحت المقابح .

وقال بعض العارفين ، فى اسم الجلالة من البسملة : إن الألف إشارة إلى الوحدانية ، واللام الأولى إشارة إلى محو الإشارات ، واللام الثانية إشارة إلى محو المحو فى كشف الهاء .

وقال آخر : الإشارة فى الألف قيام الحق بنفسه وانفصاله عن جميع خلقه فلا اتصال له بشىء من خلقه ، كامتناع الألف أن يتصل بشىء من الحروف ابتداء ، بل تتصل الحروف به ؛ على حد الاحتياج إليه واستغنائه عنهم .

وقال بعضهم : فى اسمه تعالى الرحمن حلاوة المنة ، ومشاهدة القربة ، ومحافظة الحرمة ، وعونه ونصرته .

وقال آخر : باسمه الرحيم ترحم على أوليائه بتعريف نفسه حتى عرفوا به أسماءه وصفاته ، وجلاله وجماله ، وبه خرجت الكرامات للأبرار والصديقين ، وتهيأت أسرار المقامات للأصفياء والمقربين ، وتجلت أنوار المعارف للأولياء والعارفين ، وفيه ترويح أرواح الموحدين ، ومريد أفراد العارفين ، وتربية أبحر أشباح العالمين ، ونزهة المحبين وبهجة الشائقين وفرحة العاشقين ، وأمان المؤمنين

ورجاء الخائفين ، وفي اسمه الرحيم موهبة الخاص لأهل الخاص ، وهو مستند ذوي المثرات ، ومسرة أهل القربات ، وحبل الحق المجذوبين يجذبهم إلى جمال الوصلة .

وقال جعفر الصادق ، رضي الله عنه ، في الرحمن الرحيم: إنه واقع على المريدين والمرادين فاسم الرحمن المرادين؛ لاستغراقهم في أنوار الحقائق ؛ والرحيم للمريدين لبقائهم مع أنفسهم واشتغالهم بالظاهر .

وقال بعضهم : باسمه الرحمن آمنهم من العقاب، وباسمه الرحيم آثرهم من نفائس الثواب؛ الأول مفتاح المكاشفة ، والآخر مرقاة المشاهدة ، باسمه الرحمن فتح لهم الغيوب ، وباسمه الرحيم غفر لهم الذنوب .

وقال آخر : بالرحمن سبقت رحمته غضبه ، وبالرحيم حجب كرمه سخطه .

وقال إبراهيم الخواص ، رضي الله عنه : من عرف أنه الرحمن الرحيم ألزمته معرفته له بالرحمة الثقة به في حياته ومماته ، والعطف بالرحمة على الخلائق أجمعين في الدنيا بالموافي والأرزاق ، وفي الآخرة بالمغفرة والرحمة .

هذا وقد ورد : «أن سيدنا عيسى عليه السلام ، لما أسلمته أمه إلى المعلم ليعلمه، قال له المعلم : أكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال له عيسى : وما بسم الله؟ قال له المعلم : لا أدري ، فقال له عيسى : الباء بهاء الله ، أي جماله . والسين سناؤه ، أي علوه ومجده ، والميم مملكته . والله إله الآلهة أي رب الأرباب . والرحمن : رحمان الدنيا والآخرة . والرحيم : رحيم الآخرة » . رواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً .

وعن ابن عباس: أول ما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال له : بسم الله يا محمد يقول: اقرأ بذكر الله؛ والله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

والرحمان : الفَعْلان من الرحمة . والرحيم : الرفيق بمن أحب أن يرحمه ، والبعيد الشديد على من أحب أن يضعف عليه العذاب .

وقيل: الله علام الغيوب . الرحمن : كشاف الكروب ، الرحيم: غفار الذنوب الله مجيب الدعوات ، الرحمن منزل البركات ، الرحيم يعفو عن السيئات.

قال البيضاوى، رحمه الله: وخصت البسملة بهذه الأسماء الكريمة ليتنبه العارف إلى أن الذى يستحق أن يستعان به فى الأمور كلها ، ويتبرك بأسمائه فى كثرتها وقلتها ، هو المعبود بالحق المدلول عليه بأولها ، المنعم بجميع النعم الجليلة والرقيقة ، المختص بذلك فى الدارين فى الحقيقة ، المدلول عليه بثانيها وثالثها ؛ فيقبتل العارف بكليته إليه ، ولا يشغل سره فى غيره ، ولا يتكل فى شيء من أمور الدنيا والآخرة إلا عليه .

وقال الناظم رحمه الله ، فى «ضوء البصر» ، عقب نقل كلام البيضاوى المذكور مانصه : وفى ذكر الوصفين بعد العلم ترغيب وترهيب ، أما الترغيب فواضح وأما الترهيب فمطوى فى ضمن ثانيها ، على القول بأنه مختص بالمؤمنين ، وفيها إشارة لجميع الأسماء الحسنى ، لأن من له النعم كلها عامها وخاصها لا يكون إلا فى غاية الكمال ، وفى هذا القدر كفاية ، والله ولى التوفيق والهداية .

الحمد والشكر والفرق بينهما :

قال رحمه الله :

[حمداً لمن يُوقظُ مِن بَعْدِ الوسَنْ   بفضله الجمِّ وصُنْعِهِ الحسَنْ]

ابتدأ بالحمد ثانياً اقتداء بالكتاب المسطور ، وعملا بما فى الخبر المشهور ، واغتناما لما ورد فى الحمد من الثواب والأجور ، والكلام عليه مشحونة به الدواوين كباراً وصغاراً ، مملوءة به الآذان إطنابا واختصاراً .

وقول الناظم : حمدا . هو مصدر بدل من التلفظ بفعله محذوف عامله وجوبا

لقول ابن مالك : « والحذف حتم مع آت بدلا من فعله » إذ هو عوض عنه ولا يجمع بين العوض والمعوض عنه ، وليس هو مؤكدا لعامله لامتناع حذف عامل المؤكد كما قال ابن مالك أيضا : « وحذف عامل المؤكد امتنع » إذ التأكيد يقتضي مزيد الاعتناء بالمؤكد ، والحذف يقتضي قلة الاعتناء به ، فتنافيا .

قال أبو حفص الفاسي ، في « بغية الأريب على مغنى اللبيب » : واللام في لمن لتبيين المفعول وهي متعلقة بالمصدر المذكور على ما اختاره الصبان عند الكلام على لام التبيين ، ومَنْ موصول مشترك هنا ، واقع على الله .

ويوقظ : مضارع أيقظ من الإيقاظ وهو التنبيه . يقال كما في المختار : أيقظه من نومه نبهه فتيقظ واستيقظ فهو يقظ ، والاسم اليقظة بفتحتين ، ومن : جارة ومجرورها بعد ، التي هي أحد الظروف الخمسة التي لا تجر إلا بمن ، المشار إليها بقول القائل :

من الظروف خمسة قد خصصت　　بمن ولم يجرها سواها
قبل وبعد ولَدُنْ عند ومع　　شرح الإمام الاورقى جواها

وبعد : ظرف مبهم لا يفهم معناه إلا بالإضافة لغيره وهو ضد قبل ، وأصلهما أي قبل وبعد ، الإضافة ؛ فإذا حذف المضاف إليهما لعلم المخاطب به ، بنيا على الضم كما هو شهير .

والوسن ، قال في المصباح : الوسن ـ بفتحتين ـ النعاس .

قال ابن القطاع : والاستيقاظ أيضاً أي فهو مشترك بينهما . قال : وهو مصدر من باب تعب . والسنة بالكسر النعاس أيضاً ، ثم قال : ورجل وسنان وامرأة وسنى بهما سنة ، وجاء وسن ووسنة أيضاً .

والفضل : أصله في اللغة الزيادة ، وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان . والفاضل الزائد على غيره في خصال الخير . والفضل أيضاً : إعطاء الشيء بغير عوض ، وليس ذلك إلا لله تبارك وتعالى .

والجم الكثير . قال فى المصباح : جم الشيء جماً من باب ضرب كثر ، فهو جم تسمية بالمصدر ، ومال جم أى كثير (انتهى المراد منه) .

والصنع بضم الصاد : مصدر قولك : صنع إليه صنعاً أى معروفاً .

والحسن ضد القبح ، صفة مشبهة .

ثم قال :

[وَيُوزِعُ الشكرَ على نُعْماهُ   المقتضى لِلْمَزِيدِ من رُحماهُ]

هــــذه جملة معطوفة على جملة يوقظ الصلة فكأنه يقول : حمداً لمن يُوزِع الشكر . . الخ .

ويوزع مضارع أوزع بمعنى ألهم . قال فى المصباح : وأوزعه الله الشكر بالألف ، ألهمه . وفى المختار : وأوزعه بالشيء أغراه به ، واستوزعت الله شكره فأوزعنى أى استلهمته فألهمنى .

والشكر : الثناء على المنعم بما أولى من المعروف ، وإن شئت قلت : الشكر له معنى لغة وعرفاً . فمعناه لغة : فعل ينبيء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعما ، ومعناه عرفاً ، أعنى عرف الصوفية ، كما عليه جمع وهو التحقيق : صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من سمع وبصر وغيرهما إلى ما خلق لأجله ، وهو بهذا المعنى المعبر عنه بالتقوى والاستقامة ، وهو المراد فى آية «وقليلٌ مِنْ عبادى الشكورُ» وهو الذى أشار له الجنيد، رضى الله عنه، حين سأله خاله سرى السقطى، وبين يديه جماعة يتكلمون فى حقيقة الشكر ، بقوله : يا غلام ما الشكر ؟ وكان وقتئذ ابن سبع سنين ، بقوله : الشكر أن لا يعصى الله بنعمه . فقال له السرى : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيد : فما زلت متخوفاً من هذه الكلمة ولا أزال أبكى عليها . اهـ وحيث تخوف وانكسر جعله الله إمام الصوفية من أهل السنة.

والحمد فى عرف الصوفية أيضاً : هو الشكر لغة ، وأما هو لغة ، فالوصف بالجميل

على الجميل الاختيارى على جهة التعظيم والتبجيل ، والكلام على شرح هذه التعاريف والنسب التى بين الشكرين والحمدين اللغويين والعرفيين مشحونة به الدواوين فلا حاجة للتطويل به . وقد كنت أفردت بعضه بتقييد فلينظره مبتغيه.

نعم قال المجد الفيروز بادى فى « كتاب البصائر » ما نصه: وتكلم الناس فى الفرق بين الحمد والشكر أيهما أفضل، وفى الحديث : «الحمدُ رأسُ الشكرِ فمنْ لم يَحمِدِ اللهَ لم يشكرْه». والفرق بينهما أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته ؛ والحمد أعم من جهة المتعلقات ، وأخص من جهة الأسباب ، ومعنى هذا أن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافاً وبالجوارح طاعة وانقياداً؛ ومتعلقه المنعم دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه ، وهو المحمود بها كما هو محمود على إحسانه وعدله . والحمد يكون على الإحسان والنعم فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد باللسان .

وقال ثعلب : الفرق بين الشكر والحمد ، أن الشكر لا يكون إلا عن يد والحمد يكون عن يد وعن غير يد ، فهذا الفرق بينهما . وقد استدل ابن سيده على هذا بقول أبى نخيلة :

شكرتك إن الشكر حبل من التقى   وما كل من أوليته نعمة يقضى

قال : فهذا يدل على أن الشكر لا يكون إلا عن يد ، ألا ترى أنه قال : « وما كل من أوليته » أى ليس كل من أوليته نعمة يشكرك عليها .

ونعماه — بضم النون — قال فى المصباح : والنعمى وزان حبلى ، والنعماء وزان الحمراء مثل النعمة . وفى المختار: النعمة اليد والصنيعة والمنة وما أنعم به عليك، وكذا

النعمى ، فإن فتحت النون مددت فقلت : النعماء ، ومثله فى القاموس والصحاح ونعم الله على عباده لاتحصى ، قال تعالى : (وإنْ تَعدُّوا نعمةَ اللهِ لا تحصُوها) . وقال : (وأسبغَ عليكم نِعمهُ ظاهرةً وباطنةً) ، وأعظم النعم على الإطلاق نعمة الإيمان والإسلام ، ثم نعمة السكون من أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

والمقتضى: اسم فاعل من الاقتضاء بمعنى الاستلزام، صفة للشكر أى يلهم الشكر على نعمه، المستلزم للزيد أى الزيادة، فقوله: «للزيد» متعلق بالمقتضى . والزيد مصدر زاد يقال : زاد الشيء يزيد زيداً وزيادة ، واللام فيه للتقوية ، لأن العامل وهو المقتضى فرع فى العمل ، فضعف لذلك فقوى باللام .

ومن رحماه متعلق بالزيد ورُحْمَى مثل رُحْماً مصدر رحم، قال تعالى: (وأقربَ رُحماً). يقال ، كما فى المصباح: رحمت زيداً رحما بضم الراء ورحمة ومرحمة إذا رققت له وحننت . فمعنى من رحماه : من رحمته ، أى إنعامه، إذ إضافتها إلى الله تعالى تعين أن المراد بها لازمها الذى هو الإنعام أو إرادته على ماهو شهير ، لاستحالة معنى الرحمة الأصلى فى حقه تعالى .

وقد قال الفخر: إذا وصف الله بوصف ولم يصح حمله على حقيقته، حمل على غايته ولازمه .

وفى كلام الناظم إشارة لقوله تعالى : (لَئِن شكرتم لَأزيدَنَّكمُ) الآية .

وفى الحكم العطائية: من شكر النعم فقد قيدها بعقالها ومن لم يشكرها فقد تعرض لزوالها . وقيل :

الشكرُ قيدٌ للنعم مستجلبٌ دفعَ النِّقَم
وهوَ على ثلاثةٍ ، قلبٌ ، يدٌ ، فاعْلم ، وفَم

وقال آخر :

من شَكَرَ النعمةَ قد صانها ... بقيدِ شـكر ، يَا له من عِقَالِ !

ومن يَغِبْ فى زَهوِهِ غافلا ... عن شُـكرِها عرَّضَها للزَّوَال

ومن الحـكم الجامعة قول بعضهم : الشكر صيد للمفقود ، وقيد للموجود .

وقال آخر : النعم إذا شكرت قرت ، وإذا كفرت فرت .

وفى الحـكم : من لم يعرف قدر النعم بوجودها ، عوقب بوجود فقدانها .

وسيأتى قول الناظم :

ولازم الشكر على الأيادى ... لتجتـنى الظفـر بازدياد

التوفيق والمتاب :

[ويَهبُ التوفيـق للمَتابِ ... الخالِص المُنْجى من العِتابِ]

هذه الجملة أيضاً كالتى بعدها معطوفة على جملة الصلة فـكأنه يقول: حمداً لمن يوقظ ، ولمن يوزع ولمن يهب : ولمن يلهم .

ويهب : مضارع وهب بمعنى أعطى بغير عوض . وفى التنزيل : « يهبُ لمن يشاء إناثاً ويهبُ لمن يشاء الذكورَ » أى يعطى فضلا منه وكرماً التوفيق .

والتوفيق لغة : التأليف بين الشيئين فأكثر ، وشرعاً : خلق الطاعة فى العبد ، كذا عرفه إمام الحرمين ، وعلامته تيسير الطاعة على العبد وصرف المعصية عنه مع السعى فيها ؛ ويقابله الخذلان ، وعلامته تعسر الطاعة عليه مع السعى فيها ، ودخول المعاصى عليه مع الهروب منها .

وقال بعض الشيوخ : كل أمر محمود تـكرر وقوعه فى القرآن كالذكر والفـكر والصبر والشكر ، إلا التوفيق فلم يقع إلا فى آية واحدة وهى قوله تعالى: حكاية عن سيدنا شعيب عليه السـلام : « وما توْفِيقِى إلاّ بالله» إشارة إلى قلة المتصفين به .

وأما قوله تعالى: (إنْ يريدَا إصلاحاً يُوفِّق الله بينهما) (إن أردْنا إلا إحساناً وتوفيقاً) فالمراد به التوفيق اللغوى، والله أعلم.

والمتاب بالمثناة، قال الجوهرى: التوبة. وقال فى المصباح: تاب من ذنبه يتوب توباً وتوبة ومتاباً: أقلع. والخالص: صفة للمتاب، وهو اسم فاعل خلص كقعد، قال فى المصباح: خلص الشىء من التلف خلوصاً من باب قعد وخلاصاً ومخلصاً سلم، وخلص الماء من الكدر صفا. والمراد هنا هذا الأخير والله أعلم.

فمعناه للمتاب الخالص أى الصافى مما يكدره من عدم الإقلاع، أو عدم العزم على عدم العود، إذ التوبة لا تعتبر حينئذ لفقد أركانها.

وفى الحديث: «التائبُ من الذنبِ كمنْ لا ذنبَ له، والمستغفرُ من الذنبِ وهو مقيمٌ عليه كالمستهزىء بربِّه، ومن آذى مسلماً كان عليه من الذنوبِ مثلُ منابتِ النخلِ». وأركانها الإقلاع عن الذنوب فى الحال، والندم على ماسلف منه فى الماضى، وتلافى ما يمكن تلافيه من الحقوق.

وتوبة من كل ذنب يجترم   تجب فوراً مطلقاً وهى الندم
بشرط الإقلاع ونفى الإصرار   وليتلاف ممكناً ذا استغفار

وفى الحديث: «الندمُ توبةٌ» أى معظم أركان التوبة الندم.

ولا يخفى أن التوبة الخالصة المذكورة فى النظم، هى التوبة النصوح التى ورد الحض عليها والأمر بها فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وسيأتى بعض ذلك عند قول الناظم:

وافزعْ إلى المتاب فوراً عندما   تَجْنِى ولا تمهلُ به فَتندَما

وسئل الحسن البصرى، رضى الله عنه، عنها فقال: هى الفزع بالقلب، والاستغفار باللسان، والترك بالجوارح، والإضمار على أن لا يعود.

وسمع سيدنا على، رضى الله عنه، أعرابياً يقول : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : ياهذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين ، فقال : وما التوبة ؟ قال : إن التوبة يجمعها ستة أشياء : على الماضى من الذنوب الندامة ، وللفرائض الإعادة يعنى القضاء ، ورد المظالم واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لاتعود وأن تذيب نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى معصيته ، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصى .

ثم إن التوبة بالصفة المذكورة هى المنجية لصاحبها من العقاب واللوم على سالف الذنوب كما قال الناظم : المنجى من العتاب . يشهد له قوله عليه السلام ، فيما أخرجه ابن عساكر عن أنس : « إذا تابَ العبدُ أنسى اللهُ الحفظَةَ ذنوبَهُ ، وأنسى ذلك جوارحَه ومعالمه من الأرضِ ، حتى يلقى الله تعالى وليس عليه من اللهِ شاهدٌ بذنبٍ » .

والمنجى : اسم فاعل أنجى بمعنى خلص . قال فى المصباح : نجا من الهلاك ينجو نجاة : خلص ، والاسم النجاء بالمد وقد يقصر فهو ناج والمرأة ناجية ، ثم قال : ويتعدى بالهمز والتضعيف فيقال : أنجيته ونجيته .

والعتاب : مصدر عاتب ، يقال : عاتبه عتاباً ومعاتبة أى لامه .

وقال الخليل : حقيقة العتــاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة .

الرضا والتوكل :

ثم قال :

[ويُلْهِمُ الرضَى بمــا قضــاهُ   معَ التوكل الذى يَرْضَاهُ]

يلهم : مضارع ألهم ، والإلهــام : إلقاء شىء فى القلب بطريق ينشرح له الصدر ويطمئن ، وإطلاقه على الفجور فى آية : (فألهَمَها فُجورَها وتقواها) تسامح ، والله أعلم .

والرضى : طيب النفس لقضاء الله تعالى ، قاله فى الإحياء .

قال ابن جزى : هو سرور النفس بفعل الله وهو صادر عن المحبة ؛ وكل ما يفعل المحبوب محبوب . ا هـ .

وقد اختلف فيه هل هو من الأحوال أو من المقامات ، فمنهم من قال : هو من المقامات أعنى مقامات اليقين وهو نهاية التوكل ، ومعناه يئول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه ، ومنهم من قال : هو من الأحوال وليس هو باكتساب العبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب ، كسائر الأحوال . ويجمع بينهما بأن بدايته مكتسبة للعبد وهى من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة ، فالراضى بالله هو الذى لا يعترض على تقديره .

قال أبو على الدقاق : ليس الرضى أن لا تحس بالبلاء ، إنما الرضى أن لا تعترض على الحكم والقضاء ، ذكر ذلك القشيرى رحمه الله ، وهو منتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم بأن لا فاعل إلا الله وأن كل شىء بقدره ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، يثمر حالا ، وهو انشراح القلب وانفساحه بالتسليم والتفويض للمولى فى قضائه وعدم السخط والضجر ، المتضمن للفناء فى لذة اختيار محبوبه على اختيار نفسه . ونقل المنوى عن بعض الأكابر : من أيقن بحسن اختيار الله لم يسره أن يكون على غير الحال التى يمر عليها .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه فقال : « ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون ، قال : ما علامةُ إيمانكم ؟ قالوا : نصبرُ عند البلاء ونشكرُ عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء ، فقال : مؤمنون وربِّ الكعبة » . وفى رواية أنه قال : « حكماء وعلماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » .

وقال عليه السلام : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً ابتلاه ، فإن صبرَ اجتباه ، فإن رضى اصطفاه » .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، لقى رجلا من أصحابه ، وقد أجهده المرض والحاجة ؛ فأنكره النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : « ما الذى

بلغ بك إلى ما أرى ؟ فقال : المرضُ والحاجةُ يا رسـول الله . فقال له : أفلا أُعلمك كلاماً ، إن أنت قلتهُ أذهَبَ الله عنك المرض والحاجة ؟ فقال : والذى بعثـك بالحق ، ما يسرنى بحظى منهما ، أنى شهدت معك بدراً والحُدَيبِيةَ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهل لأهل بدرٍ والحديبية ما للقانع الراضى؟» .

وقيل للحسن : من أين أتى الخلْق؟ فقال : من قلة الرضى عن الله عز وجل . فقيل : ومن أين قل رضاهم عن الله تعالى ؟ فقال : من قلة المعرفة بالله .

وفى الحديث القدسى : «أولُ ما كتَب القلمُ فى اللوحِ المحفوظِ : بسم الله الرحمن الرحيم «أنا اللهُ لا إله إلا أنا، محمدٌ رسولى، من استسلم لقضائى وصبرَ على بلائى وشكرَ نعمائى ورضىَ بقضائى ، كتبتُه صديقاً وبعثتُه مع الصديقين . ومن لم يستسلمْ لقضائى ولم يصبرْ على بلائى ولم يشكرْ نعمائى . فليتخذ إلهاً سوائى » .

وقال تعالى أيضاً : « قدرتُ المقاديرَ ودبرتُ التدبير وأحكمتُ الصنيع ، فمنْ رَضِىَ فله الرِّضَى منى ، ومن سَخِط فله السُّخْطُ منى حتى يلقانى» .

وفى الخبر : « يقول الله تعالى : « خلقت الخيرَ والشرَّ ؛ فطُوبَى لمن خلقتُه للخير وأجريتُ الخير على يديه ؛ وويلٌ لمن خلقتُه للشرِّ وأجريتُ الشرَّ على يديه وويل لمن قال : لمَ وكيفَ ؟ » .

وفى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى : « عبدى تريدُ وأريدُ ولا يكونُ إلا ما أريدُ ؛ فإن سلمتَ لى فيما أريد أعطيتك ماتريد ، وإن نازعتنى فيما أريد أتعبتُك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد » . ذكره فى « التحبير » .

وقال ابن مسعود : لأن ألحسَ جمرةً أحرقتْ ما أحرقتْ وأبقت ما أبقت أحبُّ إلى من أن أقول لشىء كان : ليتَه لم يكن ، أو لشىء لم يكن ليتَه كان .

وعن ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء .

وقال الثورى يوما ، عند رابعة : اللهم ارض عنى . فقالت : أما تستحى من الله تعالى أن تسأله الرضى وأنت عنه غير راض ؟ فقال : أستغفر الله .

فقال جعفر بن سليم الضبعى : فمتى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة .

ثم الرضى بالمعنى المتقدم عزيز الوجود ، إذ هو ثمرة قوة الإيمان ، فإنما يحصل من الأولياء وخاصة عباد الله ؛ وأما الرضى بالمعنى الأعم وهو ترك الاعتراض فهو قدر واجب على المكلفين كلهم ، وهو يسير على كل أحد ولا خصوصية فيه لأهل الذوق . وأكثر عوام المؤمنين إنما يتألمون من المقضى فقط ، وأما التوجه إلى جهة الحق بالتجوير ، فهذا لا يكاد يوجد إلا نادرا من الفجرة المردة .

وقوله : «بما قضاه» أى بالذى قضاه ، وقد اختلف فى القضاء ، هل هو مرادف للقدر أو مغاير له ؟ والأكثر على تغايرهما ، والأكثر من هؤلاء على أن القدر سابق على القضاء ؛ فالقدر تعلق العلم والإرادة فى الأزل بالأشياء على ما هى عليه فيما لا يزال ؛ والقضاء إبراز الكائنات فيما لا يزال على وفق القدر السابق فهو حادث .

وقيل : عكسه وعزى للأشاعرة فينعكس تفسيرهما .

وقيل : حادثان والقضاء سابق وهو حصول الأشياء فى اللوح المحفوظ مجملة ، والقدر إبرازها لأوقاتها ، وإلى هذا أشار المقرى فى «الإضاءة» إذ قال :

فى اللوح قد تجمّلتْ أشياء بقلم وذلك القضاء
إبراز ما برز للعيان من ذا هو القدر بالبيان

وقيل : عكس هذا ، والله اعلم .

والتوكل . قال الأكثر من الصوفية وغيرهم : هو الثقة بأن حصول المطلوب وإن فعل سببه ، ليس إلا من الله عز وجل ؛ فاتخاذ الأسباب ليس بمناف للتوكل فيتكسب ، ويغلق الباب عن السارق ، ويتحصن من العدو ، واثقا بأن الرزق والحفظ

من الله عز وجل لا من السبب ؛ وإنما اتخذه جرياً على عادة الله عز وجل فى ربطه الأسباب بمسبباتها ، راضياً إن لم يحصل المسبب إذ لا يدرى فى أى شىء الخيرة . ورجح هذا المتأخرون ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم رأس المتوكلين وتوارى من العدو وخندق على نفسه ، وظاهر بين درعين ، وادخر قوت عياله سنة ، وقال للأعرابى الذى أهمل بعيره : اعقلها وتوكل .

قال سهل رضى الله عنه: من طعن فى الكسب طعن على السنة ، ومن طعن فى تركه طعن فى التوحيد. والكسب غير المنافى على هذا القول ما كان قدر الحاجة.

وفى الرسالة : التوكل محله القلب ، والتحرك بالظاهر لا ينافى توكل القلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من فعل الله : فإن تعسر شىء فبتقديره ، وإن تيسر شىء فبتيسيره ، وهو — أى التوكل — حال تصدر عن التوحيد ويظهر أثرها على الأعمال ؛ فالتوحيد أن يثبت فى نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن تعتقد مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية بجملة العباد وبالآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة .

وفى الإحياء: التوكل ينبنى على التوحيد الذى يترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ وعلى الإيمان بالقدرة الذى يترجمه قولك: له الملك ؛ والإيمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك: وله الحمد؛ فمن قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير؛ فقد تم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول لازماً لقلبه غالباً عليه .

وأما الحال والعمل فأن تكل أمرك إلى الله عز وجل، ويثق به قلبك وتطمئن بالتفويض إليه نفسك، ولا تلتفت إلى غير الله أصلا، ويكون مثالك مثال من وكل فى خصومة فى مجلس القاضى من علم أنه أشفق الناس عليه، وأقواهم فى كشف الباطل

وأعرفهم به وأحرصهم عليه؛ فإنه يكون ساكنا فى بيته مطمئن القلب، غير متفكر فى حيل الخصومة، غير مستعين بآحاد الناس لعلمه بأن وكيله حسبه وكافيه فى غرضه وأنه لا يقاومه غيره . فمن تحققت معرفته بأن الرزق والأجل والخلق والأمر بيد الله تعالى، وهو منفرد به لا شريك له، وأن وجوده وحكمته ورحمته لا نهاية لها ولا توازن بها رحمة ، اتكل قلبه ، بالضرورة عليه وكان منه خوفه، وإليه رجاؤه وانقطع نظره عن غيره ، لأن ماسواه تعالى إنما هو مسخر بأمره، ولا استقلال له بتحريك ذرة فى السماوات والأرض ، ثم هو درجات ثلاث كما فى ابن جزى :

الأولى : أن يعتمد العبد على ربه كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده الذى لا يشك فى قيامه بمصالحه والنصيحة له .

الثانية : أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه فإنه لا يعرف سواها ولا يلجأ إلا إليها .

الثالثة : أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير ، قد أسلم إليه نفسه بالكلية .

فصاحب الدرجة الأولى عنده حظ من النظر لنفسه ، بخلاف صاحب الثانية وصاحب الثانية له حظ من الاختيار ، بخلاف صاحب الثالثة ، وبالله التوفيق .

ثم لا شك أن التوكل بمراتبه المذكورة مرضى عند الله تعالى ، ولذلك قال الناظم : « الذى يرضاه » والرضى فى حقه تعالى : الإنعام أو إرادته فهو صفة فعل على الأول ، وصفة ذات على الثانى ، وهو أعلى من العفو لأن العفو محو الذنب وعدم العقوبة عليه ، وإن لم يكن معه إنعام ، ولذا قال ابن الشجرى :

اللهم ارض عنا ، فإن لم ترض عنا فاعف ؛ فإن المولى يعفو عن عبده وهو غير راض عنه .

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه ، على حديث : «أولُ الوقتِ رضوانُ اللهِ

وآخرُه عفوُ الله» : رضوان الله للمحسنين، وعفو الله المسيئين . ويرحم الله القائل في المعنى :

وهبك وجدت العفوَ عن كل زلةٍ فأين مقامُ العفو من مقعد الرِّضَا ؟
وما دنسٌ تبغي زوالَ سـوادهِ كثوبٍ جديدٍ لم يزلْ قط أبيضا

الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم :

ثم قال :

[ثم الصلاةُ والسلامُ سَرمداً على النبي العربيِّ أحمـدا]
[شمسِ القلوب غُرَّة الوجُودِ بَدْر الهداية وبَحْر الجُودِ]
[قدْوَة كل صالح مُربٍّ عُمْدة كل سالك للربِّ]
[أجلُّ مَن داوَى القلوب فشَفا مَن كان مِن هلاكه على شَفا]

لما حمد الله تعالى على نعمه العظيمة ، وآلائه الجسيمة ، أتبع ذلك بالصلاة والسلام على من وصلت لنا تلك النعم على يده ، سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبده ، أداء للبعض من حقه صلى الله عليه وسلم، وامتثالا لأمر الله تعالى لنا بذلك، وللحديث الوارد بالأمر بالابتداء بها بعد ذكر الله تعالى في مهمات الأمور ؛ وهو قوله عليه السلام: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبتَدأ فيه بذكرِ اللهِ ثمّ بالصلاة عَليّ فهو أقطعُ» ، وفي رواية: «فهو أكتعُ» . وهو وإن كان ضعيفا يعمل به في فضائل الأعمال نظرا إلى الأدلة العامة الدالة على مضمونه .

قال الناظم رحمه الله في «نور البصر» ما نصه : والصلاة من الله تعالى الإنعام ومن العباد طلبه من الله سبحانه ، كانت على نبي أو غيره ، صدرت من ملك أو غيره ، وكل ما ذكروه فيها يرجع إلى ما ذكرته ؛ فاعلمه . وهو اسم مصدر لصلى كالزكاة لزكى ؛ وهل يجوز أن يؤتى بالمصدر المقيس وهو التصلية كالتزكية وإن كان اللفظ مشتركا بين الإنعام والإحراق نحو: «وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ» لوضوح القرائن الدالة على أن المراد التعظيم وهو الأظهر ، كما وقع في عبارة كثير من الأئمة

أو لا يجوز ، ولو اتضح المراد احتياطا ومبالغة فى الأدب؟ خلاف .

والسلام من الله تعالى إنعامه بالسلامة من المكاره ، ومن العبد طلبه منه سبحانه . ويكون أيضا اسم مصدر سلم عليه تسليما ، أى حياه تحية كالكلام اسم مصدر لكلم تكليما .

وقال القشيرى : صلاة الله على نبيه تشريف وزيادة تكرمة .

وقال السنوسى : سلام الله على نبيه زيادة تأمين ، وطيب تحية وإعظام .

وجمع الناظم بين الصلاة والسلام لأمر الله بهما جميعا حيث قال : « يَأَيُّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما » ولكراهة إفراد أحدهما عن الآخر على مذهب الإمام الشافعى ، وقد أنكر النووى إفرادها لما ذكر ، لكن تعقب بأنهم نصوا على أن الواو لا تدل إلا على الجمع المطلق ولا دلالة فى القرآن ، فى الذكر على القِران فى الفعل بدليل « أَقِيمُوا الصلوٰةَ وآتُوا الزَّكوٰةَ » وكذلك ذهب غير واحد من العلماء إلى أنه لا يكره ذلك .

قال الناظم رحمه الله فى «نور البصر» ما نصه : ولا يكره إفراد أحدهما عن الآخر على ظاهر المذهب ، وهو الذى يدل عليه الحديث وعمل الأئمة .

نعم هو خلاف الأَوْلى ، لكن المعتمد هو القول بالكراهة . قالوا : وتنتفى بالنطق بالسلام حال كتابة الصلاة ، أو بالتسليم مرة والترك فى غيرها ، كما يفعل الإمام البخارى ، والله أعلم .

وقال فى «نور البصر» أيضا : ويستحب لقارىء اسمه صلى الله عليه وسلم فى حديث أو غيره ، أن يصلى ويسلم عليه صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يكونا مكتوبين فى كتابه ؛ ولكاتبه أن يكتبهما ، وينهى عن اختصارهما بكتب بعض حروفهما وترك الباقى ، وإن كان فى أصل الكتاب صلى الله عليه دون وسلم كما يقع فى بعض نسخ البخارى ، فينبغى أن يزيده كلما مر ، وإلا فاته خير كثير كما

أفاده النووى فى شرح صحيح مسلم . وإلى هذا المعنى أشار العراقى فى « ألفية الاصطلاح » بقوله :

واكتب ثناء الله والتسليما   مع الصلاة للنبى تعظيما
واجتنب الرمز لها والحذف   منها صلاة أو سلاما تكفى
وإن يكن أسقطافى الأصل وقد   خولف فى سقط الصلاة أحمد
وعله قيد بالرواية   مع نطقه كما رووا حكاية

وقال فى «نور البصر» أيضا قبل ما تقدم : وحكم الصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم ، الوجوب مرة فى العمر على المشهور ، ويتأكد ندبها فى الزائد على الواحدة، ويشتد تأكيدها عند ذكره أو سماعه صلى الله عليه وسلم، وفى أزمنة وأمكنة وأحوال ذكرها الرصّاع وغيره ؛ وفضلها كثير جدا ألفت فيه التآليف ولو لم يرد إلا أن من صلى عليه،صلى الله عليه وسلم،مرة،صلى الله عليه عشرا ، لكفى.

ثم قال أيضا : وتكره الصلاة فى مواضع رمز لها بعض بالأحرف الأوائل من كلمات بيت وهو :

على عاتقى حملت ذنب جوارحى   تعبت بها ، والله للذنب غافرُ

فالعينان للعثرة والعطاس، والحاء لحاجة الإنسان، والذال للذبح، والجيم للجماع والتاء للتعجب، والباء للبيع، وباقى البيت تكميل. والظاهر أن السلام فيها كالصلاة ويقاس عليها كل موطن ينافى التعظيم كاللعب فى الأعراس وغيرها ، والبدعة التى يسمونها بالحضرة بالآلات ، والمقاصد الفاسدة .

قلت : وأشار العلامة الزقاق رحمه الله إلى المواضع التى تتأكد فيها؛ وبعض التى تكره فيها بقوله :

صل وسلم عند ذكر أحمد   ولأذان ودخول مسجد
بدء كتاب ودعاء ختم   جمعة تشهد وبسم
لا بيع أو ذبح خلا أو غضب   جماع أو عطاس أو تعجب

وذيل بعضهم الأبيات بزيادة موضع آخر تكره فيه بقوله :

كذاك عند عثرة وكرهت في هذه الثمان فاحفظ ما ثبت

وذيلها سيدنا الوالد حفظه الله وأدام النفع به بقوله :

كذاك عند الأكل والحمام وموضع الأقذار خذ تمامي

لكن في ذكر العطاس والتعجب شيء؛ إذ قد ورد ما يَدُلُّ على طلبها فيهما ففي « تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد عليه السلام » ما نصه : اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، الذي يخلق الله من عطاس العبد ، إذا صلى عليه طائراً ، يستغفر له ولأبويه .

وعن ابن عباس مرفوعا «من عطس فقال: الحمدُ لله على كل حال ما كان من حال ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته» أخرج الله من منخره الأيسر طيراً أكبر من الذباب وأصغر من الجراد، يرفرف حول العرش ويقول: اللهم اغفر لقائلي.

وفي رواية : «من عطس فقال: الحمد لله على كل حال ما كان من حال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته الكرام ، أخرج الله تعالى من منخره . إلخ.

وروى أن ابن عمر رضي الله عنهما ، عطس عنده رجل فحمد الله فقال له : بخلتَ هلاَّ حمدت الله وصليت على نبيه صلى الله عليه وسلم ؟

وقد رجح البيهقي استحبابه الصلاة عند العطاس وذهب إليه جماعة . وحكى الإمام السيوطي قولا باستحبابها عند التعجب .

فائدة : سئل العارف بالله أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي رحمه الله ، عما اشتهر على الألسنة من أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مقبولة قطعا، وأن أهل التباعات لا يرجع ثوابها لهم، وأنها حبس على فاعلها. فأجاب رحمه الله : الحمد لله والصلاة على رسول الله . إن فضائل الصلاة على رسول الله لا حصر لها، وناهيك أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه عشرا ، وليس ذلك لغيرها من الطاعات ؛ وأما كونها مقبولة قطعا ، وكونها مقصورة على صاحبها

بحيث لا تؤخذ فى التباعات ، فلا أعرف لذلك دليلا قاطعا ، ولا مستندا واضحا إنما فى ذلك ما يفيد قوة الرجاء لا القطع فى خصوص شخص بعينه ، وإن كان يقطع بقبولها فى الجملة؛وكذلك لا تؤخذ فى التباعات لمن شاء الله أن يعوض عنه فى الجملة . نعم جاء أن الإيمان لا يؤخذ فى التباعات ، لا غيره من الأعمال الصالحة كما أنه لا يؤخذ من المفلس ما هو ضرورى له ولعياله من قوت وكسوة معتادة وكذلك ما هو شرط فى الإيمان من محبة الله ورسوله والقدر الضرورى فى ذلك لا يؤخذ فى التباعات جزماً .

والسائل له هو العلامة سيدى أحمد بن على المشتكى ولما ذكر الجواب قال بعده : نعم يظهر والله أعلم أن من جعل صحيفة صلاته على النبى صلى الله عليه وسلم للنبى صلى الله عليه وسلم لا تؤخذ صلاته فى تباعة لأحد ، لأنها صارت فى صحيفته عليه السلام ، ولها حكم الهدية من الفقير إلى الغنى الجواد ، ومن المسكين الذى يسعى فى مآرب السيد الأشرف الكريم ، ألا يترك خديمه وصاحب منزله لأهل التباعات بل يقضى عنه ويوسع عليه . وعلى هذا يدل ظاهر قول أُبَيّ رضى الله عنه : «أرأيت أن جعلت لك صلاتى كلها ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله : إذن يغفر ذنبك وتكفى همك» . فهو يدل إن شاء الله لهذا المعنى ، والله سبحانه أعلم .

قوله : «سرمداً» أى دائماً ، تأبيد للصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم بالأبد أى بقاء الدنيا ، وعلى للاستعلاء المعنوى ، والنبى كالرسول علمان بالغلبة على نبينا صلى الله عليه وسلم ، والمشهور أن النبى إنسان أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول إنسان أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فكل رسول نبى ولا عكس وإنما قال : النبى دون الرسول لأن النبى أكثر استعمالا ، ولفظه بالهمز من النبأ أى الخبر لأن النبى مخبر عن الله وبلا همز وهو الأكثر ، قيل : إنه مخفف المهموز بقلب همزته ياء . وقيل : إنه الأصل من النبوة بفتح النون وسكون الباء أى الرفعة لأن النبى مرفوع الرتبة على غيره من الخلق . والعربى نسبة إلى العرب ،

وهم أهل فصاحة اللسان وإبانة الكلام وهم خلاف العجم . والعرب جيل من الناس يستوطنون المدن والقرى . والأعراب هم أهل البدو منهم ، وهم فى الجملة أفضل من العجم ، وأفضلهم ولد إسماعيل عليه السلام ، لقوله صلى الله عليه وسلم : «إنّ الله اصطفى من ولد آدمَ إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيلَ بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشمٍ» .

وقال عليه الصلاة والسلام : «إن الله خلق السموات سبعا، فاختار العليا منهن فأسكنها من شاء من خلقه ، وخلق الأرضين سبعا فاختار العليا منها فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلقَ فاختار من الخلقِ بنى آدم ، واختار من بنى آدم العربَ ، واختار من العربِ مُضَرا واختار من مضرٍ قريشاً ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم ؛ فأنا خيار من خيار إلى خيار» . رواه البيهقى وأبو نعيم عن ابن عمر .

وروى الطبرانى فى الكبير والأوسط بسند حسن مرفوعا : «إن الله تعالى اختار خلقَه ، فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختار منهم مضرا ، ثم اختار مضراً فاختار منهم قريشا ، ثم اختار قريشا فاختار منهم بنى هاشم ، فاختارنى منهم ، فلم أزل خيارا من خيار . ألَا من أحب العربَ فبحبى أحبهم ، ومن أبغضَ العربَ فببغضى أبغضَهم» .

وروى الديلمى عن على مرفوعا : «خيرُ الناس العربُ ، وخيرُ العرب ، قريشٌ وخير قريش بنو هاشمٍ» .

وروى الطبرانى والحاكم عن ابن عباس مرفوعا : «أُحِب العربَ لثلاثٍ : لأنى عربىٌّ والقرآنُ عربىٌّ وكلامُ أهل الجنة عربىٌّ» .

وأحمد : بدل من النبى على قاعدة إعراب المعرفة التى تقدم عليها نعتها كما فى

قوله تعالى: «صراطِ العزيزِ الحميدِ اللهِ» في قراءة الجر لاسم الجلالة وهو من أسمائه صلى الله عليه وسلم، منقول من الصفة التي معناها التفضيل. فمعنى أحمد: أحمد الحامدين لربه، وكذلك هو في المعنى لأنه يفتح عليه في المقام المحمود بمحامد لم يفتح بها على أحد قبله فيحمد ربه بها، وكذلك يعقد له لواء الحمد.

وفي الشفاء: وأما اسمه أحمد فأفعل مبالغة في صفة الحمد، ومحمد مفعل مبالغة من كثرة الحمد؛ وهو صلى الله عليه وسلم أجل من حمد، وأفضل من حمد، وأكثر الناس حمداً؛ فهو أحمد المحمودين وأحمد الحامدين ومعه لواء الحمد يوم القيامة، ليتم له كمال الحمد، ويشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقاما محمودا كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم، ويفتح عليه فيه من محامده مايشاء مما لم يعط غيره، لقوله: «فيلهمني مِنْ محامده مايشاء». وسمى أمته في كتب أنبيائه بالحمادين فحقيق أن يسمى محمدا وأحمد.

ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يكن محمدا حتى كان أحمد، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس، وكذلك وقع في الوجود، فإن تسميته أحمد وقعت في الكتب السابقة، وتسميته محمدا وقعت في القرآن.

وقول الناظم: «شمس القلوبِ». هو كما بعده بالجر نعوت لأحمد ويصح فيها الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، والنصب على المفعولية لمحذوف، بل هما أولى لأن المقام مقام مدح وثناء فينبغي فيه تكثير الجمل كما هو معلوم. ومعنى شمس القلوب: نورها وضياؤها أي سبب نورها وضيائها، إذ هو صلى الله عليه وسلم السبب في تنوير القلوب بالإيمان والمعرفة؛ فأطلق الناظم المتسبب وأراد السبب ففيه مجاز مرسل، كما أن في كلامه أيضاً استعارة تصريحية حيث شبه النور الحاصل في القلوب بسببه صلى الله عليه وسلم بالشمس بجامع إبانتها والاهتداء في كل، واستعار المشبه به للمشبه وإضافته للقلوب تجريد. ففي كلامه رحمه الله تركيب الاستعارة على المجاز المرسل.

وقد يكونان بلفظ اتحد نحو على العرش استوى الله الأحد

والله أعلم .

«وغرة الوجود» أى سيدهم. قال فى المختار: الغرة بالضم بياض فى جبهة الفرس فوق الدرهم ، يقال : فرس أغر ، والأغر أيضاً الأبيض ، وقوم غر ، ورجل أغر أيضا أى شريف ، وفلان غرة قومه أى سيدهم .

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم سيد العالمين على الإطلاق، وأفضل الخلائق بالإطباق :

نبينا أفضل بالإطباق من كل مخلوق على الإطلاق

وانعقد الإجماع أن المصطفى أفضل خلق الله ، والخُلفُ انتفى

وما انتحى الكشافُ فى التكوير خلاف إجماع ذوى التنوير

* * *

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

فاق النبيين فى خَلْق وفى خُلُق ولم يدانوه فى علم ولا كرم

وقوله: «بدر الهداية» البدر فى الأصل الهلال ليلة كماله ، أعنى ليلة الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر، إذ الشهر فى ليلة ظهوره يسمى هلالا وكذا فى الليلتين بعدها ، وفيما بعد يسمى قمراً ، وفى الليالى المذكورة يسمى بدراً، سمى بذلك لأنه يبدر الشمس بالطلوع كأنها يعجلها المغيب ، والمعنى : أنه عليه السلام بدر الهداية أى كالبدر فى الهداية ، أى الاهتداء فهو تشبيه بليغ بحذف الأداة ، والجامع الاهتداء فى كل ، وهذا التشبيه للتقريب ؛ وإلا فالاهتداء به صلى الله عليه وسلم أشرف وأعلى وأعظم بما لا حصر له ، من الاهتداء بالبدر ، لأن الاهتداء به صلى الله عليه وسلم منجى من الهلاك الأخروى ومن الخلود فى النار، ومن الدنيوى كالحدود والتعازير ، بخلاف الاهتداء بالبدر فهو منجى من الهلاك الدنيوى كهلاك النفس والمال بسبب خطأ الطريق .

وقوله : بحر الجود» . البحر فى الأصل ضد البر . قال فى المختار : البحر ضد البر . قيل : سمى به لعمقه واتساعه والجمع أبحر وبحار وبحور ، وكل نهر عظيم بحر ، ويسمى الفرسُ الواسع الجرى بحرا . ومنه قول النبى عليه الصلاة والسلام فى «مندوب» فرس أبى طلحة : «إنْ وجدْناه لبحْراً» ، إلى أن قال: وتبحر فى العلم تعمق فيه وتوسع .

والمراد هنا أنه صلى الله عليه وسلم كالبحر فى الجود ، فهو تشبيه بليغ ، أى فكما أن البحر لا حصر لما فيه من المياه وغيرها من العجائب ، ولا عد لما اشتمل عليه من الغرائب ، فكذلك هو صلى الله عليه وسلم لا حصر لجوده، أى و لغيره من الحلم والعلم وغير ذلك من الأخلاق الزكية والصفات العلية ، كيف وقد أثنى عليه مولاه بقوله : «وإنَّكَ لَعلى خُلُقٍ عَظيمٍ» .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وفى «الشفاء» من ذلك مايشفى . ولله در القائل :

له راحة لو أن مِعْشارَ جودها على البر ، كان البرُّ أندى من البحر
له همَمٌ لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر

وإن بكسر الهمزة وضمها ماض مبنى لما لم يسم فاعله معناه صُبَّ ومعشار بالرفع نائب الفاعل وقال القائل :

يا أجود الأجواد يا من له بين النبيين المقام الأغر
الجود بيت أنت مالكه مفتاحه فى الكف منك استقر
جد لى بما أرجوه يابغيتى فإن كل الخير منك ظهر

وما أحقه عليه الصلاة والسلام ، بقول الفرزدق فى زين العابدين :

ما قال : لا قط إلا فى تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وقال برهان الدين الحلبى فى قصيدة له فى مدحه عليه السلام :

قط ما قال : لا ، لسائلٍ فضـلٍ   جاء يسألُ جُودَه النَّبويَّا

وقوله : «قدوة» . القدوة مثلثة القاف الأسوة ، يقال كما فى المختار : فلان قدوة يقتدى به ، وقد يضم . فيقال : لى بك قدوة وقدوة وقدوة . وفى المصباح : القدوة اسم من اقتدى به إذا فعل مثل فعله تأسيا وكان قدوة أى يقتدى به ، والضم أكثر من الكسر ، قال ابن فارس : ويقال القدوة الأصل الذى يتشعب منه الفروع .

والمعنى أنه عليه السلام أسوة وأصل كل صالح مرب ، إذ منه يرد الجميع والكل جداول من بحره :

وكلهم من رسول الله ملتمس   غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

والصالح من صلحت أحواله فأطاع الله ورسوله بامتثال الأوامر واجتناب النواهى ظاهرا وباطنا .

وبعبارة : الصالح من استوت سريرته وعلانيته فى الخير ، أو من اعتقاده صواب وعمله فى سنة وطاعة ، أو من لا يعصى الله ولا يفعل معصية ولا يهم بمعصية .

والمربى هو من توفرت فيه شروط الشيخوخة وكانت فيه الأهلية لها ، بأن يكون عارفا بالطرق الموصلة إلى الله تعالى ، قد فرغ من تهذيب نفسه وتخلص من هواه ، وذلك أن الأصل فى باب المشيخة والاقتداء قوله تعالى : «واتبعْ سبيلَ من أنابَ إلىَّ» .

قال الشيخ زروق : والإنابة لا تكون إلا بعلم واضح ، وعمل صحيح وحال ثابت ، لا ينقضه كتاب ولا سنة ، لا بالدعاوى الكاذبة والأمانى المخالفة والرعونات الغالبة ، كما هو حال أكثر المشيخة فى هذه الأزمنة .

وقال الإمام الخفاق فى كتابه «الإخبار بفوائد الأخيار» : وأما الكبير الذى يجب الانقياد له ، والتسليم لأمره وترك الاعتراض عليه ، فهو الذى علم وعمل بما علم ، فألهم علم مالم يعلم من المعرفة بمكايد العدو ، وجزع النفس وغرور الدنيا وآفات العلم ، ومن العجب والرياء والشرك الخفى الذى جاء الحديث فيه أنه أخفى من دبيب النمل ، والمعرفة بعلم الآلاء والنعماء ، وعلم المواجد التى بين العباد وبين الله

من علوم الأحوال بعد التهذيب للنفوس ورياضتها ، وتهذيب الأخلاق فيما بينه وبين ربه من الرضى بمر القضاء ، والشكر على النعماء، والصبر على البلاء، والثقة بما وعد، والتوكل على الله والاستسلام لأمر الله ؛ وفيما بينه وبين خلق الله من تحمل أذاهم، وترك الأذى لهم ، والشفقة عليهم والرحمة لعامتهم والنصح لكافتهم، والبذل لهم ودفع مؤنتة عنهم . هذه أوصاف الكبراء فى ظاهر أمورهم . وما بينهم وبين الله من أسرار القلوب لا يطلع عليها إلا الله عز وجل .

وقوله : «عمدة كل سالك» العمدة بالضم ما يعتمد عليه ، يقال كما فى المصباح : أنت عمدتنا فى الشدائد أى معتمدنا .

الكلام عن السلوك والجذب :

والمعنى أنه عليه السلام عمدة كل سالك ، أى معتمده فى السلوك إلى مولاه إذ لا وصول للمولى إلا من بابه صلى الله عليه وسلم ، ومن طلب الوصول من غير بابه شقى وضل ، فهو باب الله الأعظم ، وحبل الاعتصام الأقوم ، وذلك باتباع سنته واقتفاء هديه وطريقته . وبعبارة : وذلك بامتثال أوامره ظاهراً وباطناً ، واجتناب نواهيه ظاهراً وباطناً .

والسالك هو الذى تنصرف همته لله ، فيريد انفراد قلبه بمولاه ، فيعمل على تصفية قلبه من العيوب التى تحجبه عن الله ، وتصرفه عن باب مولاه ، ويتأدبه بآداب العبودية ، حتى يتأهل بذلك لحضرة الربوبية ، وهى أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، وبالتخلق بها امتاز الصوفية عن غيرهم ، كما قيل :

تبعه العالم فى الأقوال والعابد الناسك فى الأفعال
وفيهما الصوفى فى السباق لكنه قد زاد بالأخلاق

وما أحسن قول الشيخ زروق رضى الله عنه :

السالك هو المتوجه لطلب الحق على سبيل التدريب والتهذيب .

وفى بعض تقاييد أبى الحسن الحرالى ما نصه : وظيفة المريد السالك لطريق

الصوفية وآدابه ، التمسك بعزائم السنة والكتاب والأخذ بالأحوط فى كل حالة وتفريغ القلب من كل شاغل عن الله سبحانه ، وتوديع نفسه فى كل عمل يعمله بتقريب أجله وقصر أمله ، مفتقراً إلى الله تعالى فى كل أحواله وأعماله ليتولى الحق تعالى سياسته ورعاية حفظه .

ثم هو أى السالك المريد ويقابله المجذوب عن إرادته وهو المراد . والمريد عند القوم هو المتجرد عن إرادته ، المخالف لأحكام عادته . وقيل : هو ناهض القلب فى طلب الرب ، وهو تتولاه سياسة العلم ، والمراد تتولاه عناية الحق ، والمريد يسير ، والمراد يطير .

وقال أبو العباس المرسى ، حسبما فى لطائف المنن فى الباب الثامن منه : الناس على قسمين : قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله ؛ وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله ، قال الله سبحانه : « اللهُ يجتَبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من يُنيب » .

قال فى لطائف المنن : ومعنى كلام الشيخ هذا ، أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه ، فصار يطوى مهامه نفسه وبيداء طبعه ، إلى أن وصل إلى حضرة ربه ، يصدق على هذا قوله تعالى : « والذين جاهدُوا فينا لِنهدِيَنَّهم سُبُلَنا » ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد ، ويشهد لذلك قوله تعالى : « يَختَصُّ برحمته من يشاء » فالأول حال السالكين ، والثانى حال المجذوبين ؛ فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة ، ومن كان مبدؤه المواصلة رد إلى وجود المعاملة . ثم قال : ولا تظن أن المجذوب لا طريق له ، بل له طريق طوتها عناية الله له ، فسلكها مسرعاً إلى الله عاجلا . قال : ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه ، وإنما فاته متاعبها وطول أمدها .

قال : والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة ، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا ، خلافاً لقولهم : إن السالك أتم حالا من المجذوب لأنه عرف

طريقاً بها توصل إليه بخلاف المجذوب . ويقال المجذوب محبوب ، وللسالك محب ، وكل منهما محب ومحبوب ، فهما متلازمان ويوصف كل واحد بالوصف الغالب عليه .

قال سيدى عبد الله العثمانى : المجذوب هو الذى سقاه خالقه كأس شراب محبته ، سدل الحجاب فيما بينه وبين الكون ، واستخلصه لنفسه وأفناه عن دائرة حسه،وصان سره عن الاستئناس بجنسه «الله يجتبى إليه من يشاء» وهو المجذوب خصوصية منه إليه ، وغيرة منه عليه « ويهدى إليه من يُنِيبُ » وهو السالك رحمة منه عليه ووصلة منه إليه . هذا المجذوب لما كان مطلوباً من الحق تعالى وتقدس،مأخوذاً إلى حضرته،لو طلب الحجاب ما أعطيه،وفيه يقال:يقطع فيواصل ويأبى فيراسل ، بخلاف الأول فإنه يطلب الوصال ورفع الحجاب ؛ وإن كان فى الحقيقة كل واحد منهما مطلوباً لما خص به .

وفى « ابتهاج القلوب » لأبى زيد الفاسى ما نصه : وليس معنى الجذب خاصاً بفقد الحس والتمييز ، كما يفهمه كثير ممن لاعلم عنده ؛ بل مرجعه إلى ما ذكر من الاصطفاء والاجتباء ، ومفاجأة الحق من غير تعمل ولا تكسب ؛ بل موهبة محضة فيختطف ويطاف به على المقامات كما وقع لكثيرين ، وكما هى طريقة النبوءة والولاية الكبرى .

ثم اعلم أن أقسام السالك والمجذوب أربعة؛لأنهما إما أن يكونا فى البداية أو فى النهاية أو مختلفين . والمراد ببداية السالك شهود الأثر ، لأن السلوك ترق من شهود الأثر إلى شهود المؤثر . وبداية المجذوب شهود الذات المقدسة ، إذ الجذب اختطاف الروح من شهود الكون إلى شهود المكون ؛ وهما فى النهاية على العكس ؛ فنهاية السالك الكشف عن شهود الذات العلية ؛ ونهاية المجذوب الرجوع من رؤية الحق إلى رؤية الخلق ، وهذه الأقسام الأربعة أحكامها

مختلفة ، وقد أشار إليها سيدى عبد القادر الكوهن بقوله :

ورجح السالك فى النهاية   على الذى جذب فى البداية
وفضل المجذوب مطلقا على   سالك فى بداية قد حصلا
وفى مساواتهما نهاية   خلف جرى ، دامت لك الرعاية

ومن الناس من يجمع بين الجذب والسلوك أول قدم ، فيسير بين جذب وسلوك ، وحقيقة وشريعة ، وسكر وصحو ، وهذا هو الغالب على الشاذلية ، جعلنا الله من حزبهم .

وحاصل هذه الأقسام الأربعة أن السالك فى نهايته أتم وأكمل من المجذوب فى بدايته ، لأنهما وإن اشتركا فى شهود الذات المقدسة ، زاد السالك بتحقيق المقامات وقطعها على أتم وجه وأبلغه ؛ والمجذوب فى بدايته أتم وأكمل من السالك فى بدايته ، لأن الأول يشهد الأشياء بالله ، والثانى يشهدها بنفسه لله ، وشتان ما بين المجذوب فى نهايته والسالك فى بدايته ؛ واختلف فيما إذا كانا معاً فى النهاية . أيهما أكمل مع اشتراكهما فى الكمال والصلاحية للخلاف والتربية ؟ فذهب الأكثر إلى أن من تقدم جذبه على سلوكه بأن رجع إلى سلوك المقامات أفضل وأعلم ؛ وعليه صاحب « العوارف » وصاحب « بداية السلوك » حيث قال :

وأفضل الرجال دون ريب   من سلك الطريق بعد الجذب

ووجهه الشيخ أبو على الفرغانى بكونه فى عبوره على المقامات والتحقق بها على بصيرة وسنة من ربه .

وذهب جمع من المحققين إلى أن من تقدم سلوكه على جذبه ، بأن ترقى من سلوكه إلى الجذب ، أعلى وأكمل فى التربية ، وعليه قول بعضهم من قصيدة :

والجذب لمن جاء من بعد السلوك له   فضل عن الجذب مما السعى تاليه

لأنه قطع المقامات وسلكها، وأقام فى كل مقام برهة ما من الزمان وقاسى شدائدها وعرف معاطبها وآفاتها وعلاج تلك الآفات ، فمعرفته بها أشد وأكمل من معرفة من تقدم جذبه على سلوكه ، لأنه وإن سلك المقامات فى حال تدليه لكن مر بها سريعاً، لأنه كان محمولا فلم تقو معرفته بها قوة معرفة الأول ، وليس معنى التربية إلا نقل المربى مريده من حالة إلى حالة وترقيته له من مقام إلى مقام، وذلك فرع عن معرفة ما نقله عنه وإليه ، فكل من كان بذلك أعلم كان بالتربية أجل وأتم ومن هذا التوجيه تعلم أرجحية هذا على الأول . على أن تقدم الجذب على السلوك إنما يتفق للنادر من الناس والغالب السلوك ثم الجذب ، والله أعلم .

وقال فى «الرسائل الكبرى» : وأما مسألة السالك المجذوب والمجذوب السالك وتقدم أحدهما على الآخر فى استحقاق الشيخوخة ، فالذى يظهر لى صحة ما قاله السهروردى، رحمه الله تعالى، لأن المجذوب السالك أنجح تربية من السالك المجذوب ، يتصل به المريد فى أقرب مدة لأن سلوكه كان على بينة وبعد تقدم مشاهدة ، فالسالك على يديه يتزايد له منه ما يستمرىء به مرارة سلوكه ويوجد حلاوة فيه ، لأن سلوك شيخه كان على هذه الوتيرة ، والارتباط بين حال الشيخ وحال التلميذ أمر متحقق، فبهذا النظر يترجح للشيخوخة من ذكرناه على الآخر . وأما ما رجحتم به من كون المجذوب بمنزلة من أخذه الملك وخلع عليه خلعة عناية به ومحبة له ، والسالك بمنزلة من قيل له سر إلى موضع كذا وأعطيك كذا، فليس بمناسب لما ادعيتموه وهو ناقص حتى يتمم بما ذكرناه ، أى من حصول السلوك له ثانيا .

وما احتج به المناظر لكم فى تقديم السالك المجذوب فهو بعيد المناسبة فيما يرجع للشيخوخة والتلمذة، لأن الأجر الذى ترتب للسالك المجذوب على مجاهداته ومكابداته لا أثر له فى ترجيح حاله على حال الأخير فى الأمر الذى ذكرناه

وذكر الأجر ها هنا ثقيل ، لا ينبغى أن يتكلم به كل من ينتسب إلى طريقة التصوف لأن القوم لم يلاحظوه ولم يعملوا عليه ؛ بل يعدون نظرهم إليه ذنباً من الذنوب لأن ذلك راجع إلى حظ النفس،وهم إنما يعملون فى طريقهم على إزالة كل حظ لهم حتى تتحقق بذلك عبوديتهم ، وهذا هو حال أهل القرب السائرين إلى الله تعالى بالقلب ، وأما الالتفات إلى الأجر فهو شأن الأبرار العاملين بظواهر الطاعات الموظفة على الجوارح المحسوسات ، ولا مدخل لهؤلاء فى هذا الأمر ، وقولكم فى الرد عليه : ليس من شأن المتصوف النظر إلى مجاهداته ومكابداته ولا لما يصح له عليها ، صحيح مليح؛من أين لكم هذا لولا مساعدة الريح ؟ فاحمدوا الله تعالى الذى هداكم ، واشكروه على ما أولاكم ، وتهيئوا بذلك لازدياد المعارف ، وإضاءة أنوارها ، وتهنوا على ما آتاكم من فضله ، ودعوا الشمعة تحرق بنارها .

وقال رضى الله عنه ، فى موضع آخر : وهذا كله صحيح بالنظر إلى تقديمه للشيخوخة ، ومع قطع النظر عن ذلك وادعاء أفضلية أحدهما على الآخر فى أنفسهما ربما يظهر ببادىء الرأى ما ظهر لكم من تقديم المجذوب السالك على السالك المجذوب ؛ وليس يظهر لى فرق بينهما من جهة الحقيقة ، لأنهما اشتركا جميعاً فى كون كل واحد منهما غير ناظر إلى عمله ولا طالب به حظاً لنفسه ، وحاصل أمرهما أن المجذوب السالك ووجه باللطف ، وهو تعرف يؤدى إلى معرفة تامة بما يتدارك به من الجذب ؛ وكلاهما محبوبان قد خلع عليهما خلعة العناية والمحبة ، والمكابدة التى لزمت أحدهما دون الآخر بعد تحقيق وصوله لا تنقصه كما أن الراحة التى هى من شأن الآخر بعد تحقيق وصوله لا تكمله ، فمن أين يقع تفضيل أحدهما على الآخر ؟ فإذا تقرر هذا ظهر أن ما مثلتم به حال الشخصين غير موف بالغرض فى تقديم المجذوب السالك على السالك المجذوب . وكلام السهروردي

لم أذكره ولم أقف عليه ولم يقع بيدى كتابه ، وهذا كله منى فضول ؛ الله تعالى يخلص منه ، وقد كنا منه فى خلاص لولا القدر الذى ليس للعبد منه ملجأ ولا مناص .

وقال رضى الله عنه فى رسالة أخرى : وأما المسألة التى جرت بينكم وبين فلان فى السلوك والجذب ، فالذى يظهر لى أن السلوك لا بد له من جذب يتقدمه والجذب لا يلزمه أن يكون له سلوك يتقدمه ، بل يكون الجذب ابتداء ثم يأخذ فى السلوك ثانياً ، فإن عنى بقوله : «لا بد فى الجذب من سلوك» السلوك الذى فى ثانى حال فصحيح ، وأما فى الابتداء فلا يصح للزوم التسلسل .

والكلام على السالك والمجذوب كثير ، وفى المذكور منه كفاية ، وبالله التوفيق .

والرب له معان نظمها بعضهم بقوله :

قريب محيط مالك ومدبر مرب كثير الخير والمولى للنعم
وخالقنا المعبود جابر كسرنا ومصلحنا والصاحب الثابت القدم
وجامعنا والسيد . احفظ فهذه معان أتت للرب فادعُ لمن نظم

وقوله : «أجل من داوى» أى أنه صلى الله عليه وسلم أجل ، أى أعظم طبيب داوى القلوب ، أى عالج أدواءها فحصل لها الشفاء الكامل حيث انقادت له وآمنت به وبما جاء به عن ربه ، وكذلك قال : «فشفى» عليه الصلاة والسلام بدوائه ، الذى هو الإيمان ، «من كان على شفا» من الهلاك بسبب ما كان عليه قبل من الكفر والعناد ، فتبدل عناده بالانقياد ، وغيه بالصلاح والسداد ، فياله من طبيب أذهب بدوائه ظلمة الإلحاد ، وأنتج بمعالجته نور الإيمان والرشاد .

وشفى معناه أبرأ ، يقال : شفاه الله من مرضه يشفيه شفاء أبرأه . والشَّفا : حرف الشيء وطرفه .

الآل والأصحاب رضي الله عنهم :

ثم قال :

[وَآلهِ المَورُثين من شَرَفْ   نسبتِه الشمَّا أعالِيَ الغُرَفْ]
[سُبَّاق حَلْبة السَّباق في الكرمْ   والفضل والمجد الصميم المحترمْ]

لما أثنى على الله بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم،عطف بعد ذلك بالصلاة على آله،امتثالا لقول النبي صلى الله عليه وسلم ، حين قالوا له: كيف نصلي عليك؟قولوا: «اللهم صَلِّ على محمدوعلى آل محمد». ولقوله صلى الله عليه وسلم: « إياكم والصَّلاةَ البتراء ! قالوا : وما هي الصلاةُ البتراءُ يا رسُولَ الله ؟ قال : أن تُصَلوا عليَّ دونَ آلي» .

والآل : أهل الرجل وعياله ، وأيضاً أتباعه وأولياؤه .

ومنه الحديث « سَلمانُ منا آلَ البيتِ » قال الله عز وجل : (كدأبِ آلِ فِرْعَونَ) .

وقال ابن عرفة : يعني من آل إليه بدين أو مذهب أو نسب. ومنه قوله تعالى (أدخِلُوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذابِ) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تحلُّ الصدقةُ لمحمدٍ ولا لِآلِ محمد » .

قال الشافعي رحمه الله : دل هذا على أن النبي صلى الله عليه وسلم وآله هم الذين حرمت عليهم الصدقة ، وعوضوا منها الخمس ، وهم صبية بني هاشم وبني المطلب .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم : من آلك ؟ فقال : آلُ عليٍّ وآلُ جعفرٍ وآلُ عقيلٍ وآلُ عبّاسٍ .

وكان الحسن رضي الله عنه، إذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم،قال:اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل أحمد،يريد نفسه . ألا ترى أن المفروض من الصلاة ما كان عليه خاصة لقوله تعالى : «يَأَيُّها الذين آمنوا صَلّوا عليه وسَلّموا تَسْلِيما » وما كان الحسن ليخل بالفرض .

وقال أنس رضي الله عنه: سُئِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ آلُ محمد؟ قال: «كلُّ تقيٍّ».

ولا يستعمل الآل إلا فيما فيه شرف غالبا، فلا يقال: آل الإسكاف كما يقال أهله. وخص أيضا بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات والأمكنة والأزمنة، فيقال: آل فلان. ولا يقال آل رجل، ولا آل زمان كذا، ولا آل موضع كذا؛ كما يقال أهل بلد كذا وموضع كذا. وأصله أهل أبدلت الهاء همزة فصارت أأل توالت همزتان فأبدلت الثانية ألفاً فصار آل، وتصغيره أويل وأهيل.

ثم إن الآل له معان باعتبار مقامات، ففي مقام ذكر الفضل والمآثر كهذا المقام: سيدنا الحسن والحسين وأمهما وبنوهما من حيث كونهم بضعة منه عليه الصلاة والسلام، وهو محل ماورد من الأحاديث في فضل الآل. وفي مقام المدح: أتقياء الأمة لقوله عليه السلام: «أنا جَدُّ كلِّ تقي. آلُ محمد كلُّ تقِي». وفي مقام الدعاء: كل مؤمن ولو عاصيا لأن الدعاء، إذا كان أعم كان إلى الإجابة أقرب. وفي مقام حرمة الزكاة المشهور عندنا: أقاربه المؤمنون من بني هاشم، وهو مذهب الإمام أحمد. ومقابل المشهور: أقاربه المؤمنون من بني هاشم والمطلب وهو مذهب الشافعي، وعليه درج في المختصر في باب المصرف على ما في بعض نسخه حيث قال: وعدم بنوة لهاشم والمطلب. (ا. هـ ورجح).

والمبوئين: أي الساكنين أعالي الغرف أي الغرف العالية فهو من إضافة الصفة للموصوف. والمراد المراتب العلية، والمآثر الزكية.

من شرف نسبته الشماء: أي من أجل الشرف الحاصل لهم بنسبته صلى الله عليه وسلم التي ينتسبون إليها الموصوفة بكونها شماء أي مرتفعة القدر عظيمة الجناب والخطر.

وسباق بضم السين وتشديد الباء جمع سابق.

وفُعُلٌ لفاعِل وفاعِلة وَصْفَين نحو عاذل وعاذلة

ومثله الفُعَّال فيما ذكر

وحلبة بوزن سجدة ، قال فى المصباح: والحلبة وزان سجدة خيل تجمع للسباق.

من كل أوب: أى من كل فج ولا تخرج من وجه واحد يقال: جاءت الفرس فى آخر الحلبة أى فى آخر الخيل .

والسباق بكسر السين مصدر سابق ، يقال سابقه ، مسابقة وسباقاً .

وهذه صفة ثانية لآله أى هم رضى الله عنهم الغالبون خيل السباق فى الاستباق إلى الكرم : بفتحتين ضد اللؤم ، ويطلق على النفاسة والعز ، وعلى الصفح ، ويصح إرادة الجميع هنا . والفضل: ضد النقص وهو الخير أى الفضائل والأعمال الصالحة .

والمجد أى العز والشرف .

الصميم أى الخالص .

المحترم أى المعظم المهاب الذى لا ينتهك :

* * *

[وصَحْبِه شُهبِ الدُّجا الوُقادة قادة الأبرار ونِعْـم القَادة]

[الباذلِى نُفوسَهم فى ذات مولاهم والهاجِرى اللذَّات]

أتى بالصحب بعد الآل أداء لبعض ما وجب لهم علينا ، لأنهم المبلغون لنا شريعة نبينا الناقلوها إلينا . وشكر الوسائط واجب بالشرع فكما يجب علينا حمد من أظهر سبحانه جميع النعم على يده ، وأفاضها ببركته على الخلق دنيا وأخرى وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكذلك أصحابه رضى الله عنهم .

وفى الحديث : « مَنْ لم يشكر الناسَ لم يشكرِ اللهَ » .

وفى الحكم : إن كانت عين الحقيقة تنظر إلى أن الله واحد فى منته ، فالشريعة تقتضى أن لا بد من شكر خليقته « أَنِ اشكرْ لى ولِوَالدَيك »

وروى الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « مَنِ استعاذَ

بالله فأعيذوه ، ومن سألَ بوجه اللهِ فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبُوه ، ومن صنَع إليكم معروفاً فكافئُوه ، فإن لم تجدوا ماتكافئُونه به فادعوا له حتى ترَوْا أنكم قد كافأتموه » .

وصحب : اسم جمع لصاحب على التحقيق ، وهو ما لسيبويه ، لاجمع خلافاً للأخفش لأنه ليس من أبنية الجمع ، قاله الأشمونى .

فإن قلت :اسم الجمع يقولون فيه:لا واحد له من لفظه ، وهذا له واحد من لفظه وهو صاحب،فالجواب،أن قولهم ذلك خلاف التحقيق أوهو بالنظر للغالب.

وإلى الصحب كالصحابة بالفتح والكسر للصاد مع تشديدها،الذى هو اسم جمع أيضا ، ينسب الصحابى بمعنى الصاحب،وهو فى الأصل:الملازم للشىء ومعناه فى العرف ، إذا أضيف للنبى صلى الله عليه وسلم ، كل من اجتمع به صلى الله عليه وسلم ، مؤمنا،رآه أم لا . كابن أممكتوم الأعمى،روى عنه أم لا . طال اجتماعه به أم لا . اجتماعا متعارفا ، ومات على ذلك .

ثم وصف الصحب بأوصاف منها قوله : «شهب الدجا» ،والشهب بضمتين ويخفف بتسكين ميمه كما فى النظم جمع شهاب ، ويجمع أيضاً على شهبان كحسبان وهو أى الشهاب : شعلة نار ساطعة .

والدجا : شدة الظلمة .

والوقادة : كثير الوقود ، فالصيغة للمبالغة والتاء لتأكيدها . والمراد تشبيه الصحابة رضى الله عنهم بالشهب الوقادة فى الدياجى بجامع الاستضاءة والاهتداء بكل ، وإن كانت الاستضاءة بالصحابة أعلى وأجل ، والاهتداء بهم أرفع وأكمل .

ومنها قوله : « قادة الأبرار» وقادة جمع قائد اسم فاعل من القود والقيادة والمراد هنا المقتدى بهم .

والأبرار : جمع بر اسم فاعل بر وليس جمعاً لبار لأن جمعه بررة ، والمراد بالأبرار هنا المطيعون .

والمعنى أن الصحابة رضى الله عنهم قادة الأبرار ، وقدوة المطيعين الأخيار فلا يخرج عن نهجهم إلا مطموس البصيرة ، مخذول السريرة .

وقوله : «ونعم القادة» : مبالغة فى مدحهم أى نعم المقتدى به هم رضى الله عنهم . كيف وقد قال عليه الصلاة والسلام . «أصحابى كالنُّجُوم بِأيهمُ اقتديتمْ اهتديتم» .

وجاء فى بعض الأخبار أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل الرب تعالى فيما يختلف فيه أصحابه ، فقال : « يا محمدُ أصحابك عندى كالنجوم فى السماء بعضها أضوأ من بعضٍ ، فمنْ أخذَ بشىء مما اختلفوا فيه فهو على هَدى ٍمنى (بفتح الهاء وسكون الدال) .

وقال عليه السلام : «عليكم بسنتى وسنَّةِ الخلفاء الراشدين من بعدى عَضُّوا عليها بالنَّواجِذ» .

وقال عليه السلام : « اقتدُوا بالذين من بعدى من أصحابى أبى بكرٍ وعمرَ اهتدوا بهدْى عثمان ، وتمسكوا بهدْى عبدالله بن مسعود » إلى غير ذلك .

ومنها قوله «الباذلى نفوسهم» . والباذلى : جمع باذل اسم فاعل بذل الشىء أعطاه وجاد ، وحذفت نونه للإضافة .

والنفوس: جمع نفس ، والنفس تطلق على الروح ، كما يقال: خرجت نفسه، وعلى الدم كما يقال : سالت نفسه ، وعلى الجسد ، وهذا هو المراد هنا .

وقوله : «فى ذات مولاهم» الظاهر أن الذات فى كلامه بمعنى الطاعة والسبيل . كما اختاره ابن السبكى والكرمانى فى قول سيدنا خُبَيب رضى الله عنه :

ولستُ أبالى حينَ أُقتَلُ مسلماً على أىِّ جنب كان لله مصرَعى
وذلك فى ذات الإلٰهِ وإنْ يَشَا يُبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمزَّعِ

والمولى له معان ، أنهاها المجد الفيروزبادى فى كتاب القاموس ، إلى أحد وعشرين ، المناسب منها هنا : الناصر والسيد والمنعم والمالك .

والهاجرى : جمع هاجر اسم فاعل من هجر كقتل : ترك وأعرض حذفت نونه للإضافة .

واللذات جمع لذة : المستلذات من المطعم والمشرب والملبس .

ولا شك أن الصحابة رضوان الله عليهم هم الباذلون ، أى الذين جادوا بأنفسهم ، أى أجسادهم وذواتهم فى طاعة مولاهم ، وسبيل سيدهم ، وخدمة بارئهم الذى خولهم نعمه وأولاهم ، وهم الذين هجروا لذات الدنيا سعيا فى مرضاة المولى . وتحصيل لذات الأخرى . فمنهم من هجر المنام ، ومنهم من أدام الصيام ، ومنهم من ترك الالتفات إلى النساء بكل حال ، ومنهم من جاهد فى الله حق جهاده فى الحال والمآل ، ومنهم ومنهم ... رضى الله عنهم ، ونفعنا ببركاتهم ، وأعاد علينا من نفحاتهم بجاههم عند ربهم .

فائدة : ورد أن رجلا حلف لا يطأ زوجته حينا ، فأفتاه أبو بكر بأن الحين الأبد ، وأفتاه عمر بأنه أربعون سنة ، وعثمان بأنه سنة واحدة ، وعلى بأنه يوم وليلة ؛ فعرض الرجل ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فقال لأبى بكر : ما دليلك على أن الحين الأبد ؟ قال قوله تعالى ، فى حق قوم يونس : (ومتّعناهم إلى حِينٍ) .

وقال لعمر : ما دليلك على أن الحين أربعون سنة ؟ قال قوله تعالى : (هَلْ أتى على الإنسان حينٌ من الدهْرِ) الإنسان آدم ، أبقيت طينته على باب الجنة أربعين عاماً .

وقال لعثمان : ما دليلك على أنه عام ؟ قال قوله تعالى : (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ) .

وقال لعلى : ما دليلك على أنه يوم وليلة ؟ قال قوله تعالى : (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ، وحِينَ تُصْبِحُونَ) .

فقال صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وأمر الرجل أن يأخذ بقول علىٍّ تخفيفاً له .

ومذهبنا موافق لما أفتى به عثمان ، ذكره الشبرخيتى فى شرح الأربعين ،

النصيحة : معناها وشروطها ووجوبها :

ثم قال :

[هذى نصيحةٌ لنفسى ولمنْ   فى غفْلة مثلى من أبناء الزمنْ]

هذا شروع من الناظم رحمه الله فى مقصده ، وأخذ فيما هو بصدده .

والإشارة فى كلامه لما زوره فى ذهنه من الكلمات ، وانتخبه للجمع من الجزئيات ، منزلا لذلك منزلة المشاهد المحسوس بالبصر ، ومقدراً له كالمرئى المعاين بالنظر .

والنصيحة كالنصح : نقيض الغش والخديعة ، وهما لغة : الإخلاص والتصفية من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع ، شبه تخليص القول والفعل من الغش بتخليص العسل من الشمع ؛ أو من نصح الرجل ثوبه ، إذا خاطه بالمنصح بكسر الميم وهى الإبرة التى يخاط بها . والنصاح بكسر النون وتخفيف الصاد . الخيط . والناصح الخياط . شبه فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح ولم شعثه بلمِّ الخياط خلل الثوب وإلصاق بعضه ببعض . ومنه التوبة النصوح كأن الذنب يمزق الثوب ، والتوبة تخيطه . ونصح له : أفصح من نصحته . وشرعاً : إخلاص الرأى من الغش للمنصوح وإيثار مصلحته . وإن شئت قلت : بذل المودة والاجتهاد فى المشورة .

وقال الخطابي : النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الخير المنصوح له.

وفى الحديث : النصيحة من الإيمان .

وروى مسلم عن تميم الدارى مرفوعاً : « الدينُ النصيحـةُ ، قلنا : لمنْ يارسولَ الله ؟ قال: لله ولـكتابهِ ولرسولهِ ولأئمةِ المسلمين وعامّتهم» . فقوله عليه السلام : الدين النصيحة ، هو على حذف مضاف ، أى عماد الدين وقوامه أى معظمه . «النصيحة» على وزان : «الحجُّ عرفةُ » ، ويدل عليه رواية الطبرانى: « رأسُ الدين النصيحةُ » ، ويحتمل أن يكون على ظاهره ، إذ النصيحة لم تبق من الدين شيئاً لأن من جملتها الإيمان بالله ورسوله وطاعتهما ، والعمل بما قالاه من كتاب وسنة ، وليس وراء ذلك من الدين شىء .

وقوله : « لله » : النصيحة لله بالإيمان به ونفى الشريك وإخلاص الاعتقاد فى الوحدانية ، ووصفه بصفات الألوهية ، وتنزيهه عن النقائص والقيام بطاعته واجتناب معصيته ، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه ، والاعتراف بنعمه وشكره عليها ، والإخلاص فى جميع الأمور .

وفى الحديث القدسى: « أحبُّ ما تعبد به عبدى النصحُ لى » رواه الإمام أحمـد .

وروى الثورى عن على : قال الحواريون لعيسى : يا روح الله من الناصح لله ؟ قال : الذى يقدم حق الله على حق الخلق .

ثم حقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد فى نصحه نفسه فإنه سبحانه غنى عن نصح الناصحين وعن العالمين .

وقوله : « ولـكتابه » ، مفرد مضاف لمعرفة فيعم جميع كـتبه المنزلة ؛ والنصيحة لها بالإيمان بأنها منزلة من عنده ، ويميز القرآن بأنه لا يشبهه شىء من كـلام الخلق ، ولا يقدر أحد منهم على الإتيان بمثل أقصر سورة منه ، وتلاوته خشوع ، وإقامة حروفه فى التلاوة ، والتصديق بما

فيه وتفهم ، علومه وإكرامه والاعتناء بمواعظه ، والتفكر فى عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه،والبحث عن ناسخه ومنسوخه ، وعمومه وخصوصه وسائر وجوهه،ونشر علومه والدعاء إليه.

وقوله : « ولرسوله » . النصيحة لرسوله بتصديق رسالته ، والإيمان بجميع ما جاء به،والتزام طاعته فى أمره ونهيه،ونصرته حيا وميتا،وإعظام حقه وإحياء سنته والتفقه فيها والذب عنها وإجلال أهلها لانتسابهم إليها ، والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ، ومحبة آل بيته وأصحابه ، وتجنب من تعرض لأحد منهم .

وقوله : « ولأئمة المسلمين » المراد بهم الأمراء والعلماء . فأما نصيحة الأمراء فبمعاونتهم على الحق وأمرهم به ، وتذكيرهم بلطف ورفق وإعلامهم بما غفلوا عنه من أمور المسلمين وحقوقهم،والدعاء بالصلاح لهم وترك الخروج عليهم والجهاد معهم وأداء الزكاة إليهم . وامتثال أمرهم فى غير المعاصى :

ولا تحل طاعة الإمام   فى أمره بالظلم والحرام

وأما نصيحة العلماء فبقبول مارووه وتقليدهم فى الأحكام ونشر مناقبهم وإحسان الظن بهم .

قال سهل بن عبد الله : لايزال الناس بخير ماعظموا السلطان والعلماء،فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم ، وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم .

وليس المراد بالعلماء من تزيا بزيهم وادعى العلم وليس من أهله ، وأكل الدنيا بالدين ، فإن نصحهم نصح عامة المسلمين .

وقوله : « وعامتهم » النصيحة لعامة المسلمين بإرشادهم إلى ما يصلح أخراهم ودنياهم ، وكف الأذى عنهم ، وتعليمهم ما جهلوه : وستر عورتهم وسد خلتهم ومحبته لهم ما يحب لنفسه وعدم غشهم ؛ وإذا رأى من يفسد وضوءه أو

صلاته أو غير ذلك ولم يعلمه فقد غشه وعليه الإثم، إلا أن يعلم أنه لا يسمع منه . قاله الأقفهسى فى شرح « الرسالة » ، وظاهره سواء كان هناك من يقوم بالنصح سواه أم لا .

وقال الحطاب فى شرحها ما نصه الشاذلى : اختلف إذا كان هناك من يشارك فى النصيحة ؛ فهل تجب عليك النصيحة سواء طلبت منك أم لا كمن رأيته يفسد صلاته ؟ .

فقال الغزالى : يجب عليك النصح .

وقال ابن العربى : لا يجب .

قال بعض شيوخنا : والذى أقول به ما قاله الغزالى .

فوائد: الأولى: ينبغى أن يكون النصح برفق وليس بتعنيف لأنه أقرب للقبول، ولذا قال الشافعى : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه .

ومن ثم قال الفضيل : المؤمن يستر وينصح ، والفاجر يهتك ويعير .

ويحكى أن الحسن والحسين رضى الله عنهما، أقبلا على شيخ يفسد وضوءه ، فقال أحدهما للآخر : تعال نرشد هذا الشيخ . فقال له أحدهما : ياشيخ إنا نريد أن نتوضأ بين يديك حتى تنظر إلينا ، وتعلم من يحسن منا الوضوء ومن لا يحسنه ، ففعلا ذلك ، فلما فرغا من وضوئهما ، قال : أنا والله الذى لا أحسن الوضوء ، وأما أنتما فكل واحد منكما يحسن وضوءه ، فانتفع بذلك منهما من غير تعنيف ولا توبيخ .

الثانية : فى كلام الشيخ محيى الدين: أن من شروط الناصح إذا أراد أن ينصح أحدا أن يمهد له بساطا قبل النصح ، وأن يرى نفسه دون المنصوح ، وأن يوطن نفسه على تحمل الأذى الحاصل من جهة النصح فى العادة .

الثالثة : من السلف رضى الله عنهم ، مَنْ بلغت به النصيحة إلى الإضرار بدنياه ، كما ورد عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه ، أنه اشترى فرسا بثلثمائة درهم، فقال لصاحبه : فرسك خير من ثلاثمائة درهم ، أتبيعه بأربعمائة درهم ؟ فقال : هو لك يا أبا عبد الله. فقال : هو خير من أربعمائة درهم ، أتبيعه بخمسمائة درهم ؟ فقال : نعم . فلا يزال يزيد مائة بعد مائة حتى أوصله ثمانمائة درهم فكلم فى ذلك ، فقال : عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم .

الرابعة : كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصى أصحابه وينصحهم بوصايا تنفعهم ونفعت من بعدهم ، وكذا أفاضل الصحابة والتابعين والأولياء والعارفين :

جملة من وصاياه عليه الصلاة والسلام :

فمن وصاياه صلى الله عليه وسلم : ما ورد عن أنس رضى الله عنه ، قال : أوصانى رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال لى : «أسبغ الوضوء يزدْ فى عمرك ، وسلمْ على منْ لقيت تكثر حسناتك ، وإذا دخلت على أهل بيتك فسلم يكثر خيرُ بيتك ، وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاةُ الأوابين قبلك ، وارحمْ الصغيرَ ووقِّرْ الكبير تكنْ من رفقائى يوم القيامةِ » .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : «أحكم السفينة فإنَّ البحر عميقٌ ، واستكثر الزاد فإنَّ السفرَ طويلٌ ، وخففْ ظهرك فإن العقبة كئود ، وأخلصْ العمل فإن الناقد بصير » .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم ، ما ورد عن أبى ذر أيضا ، قال : «أوصانى خليلى محمدٌ صلى اللهُ عليه وسلم بثلاث ، قال : «اسمعْ وأطع ولو لعبدٍ مجذوعٍ ، وإذا صنعتَ مرقةً فأكثرْ ماءها ثم انظُر إلى أهل بيتٍ جيرانك فأَصِبهُم بِمغْرَفتِك وصلِّ الصلاةَ لوقتها » .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم : ماورد عن أبى ذر رضى الله عنه أيضا ، قال : «أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بسبع لم أتركهن ولا أتركهن، أوصانى بحب المساكين والدنو منهم ، وأن أنظر إلى من هو أسفل منى ولا أنظر إلى من هو فوقى ، وأن أصل رحمى ، وإن أدبرت وقطعت ، وأن أستكثر من قول : لا إله إلا الله فإنها كنز من كنوز الجنة ، وأن لا أسأل الناس شيئاً ، وأن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأن أقول الحق وإن كان مُرًّا » .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم ماورد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بثلاث : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد » .

ومثله عن أبى الدرداء، فإنه قال : «أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بثلاث: بصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، والوتر قبل النوم ، وركعتى الفجر » .

وعن أبى هريرة أيضا : « علمنى رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم ثلاثَ خصال لا أَدعهن حتى أموتَ : لا أنامُ إلا على وضوء، وأن أصوم مِن كل شهر ثلاثة أيام ، وأنْ لا أدعَ صلاةَ الضحى » .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم، قوله لعائشة: «إن أردت اللحوق بى فليكفكِ من الدنيا كزاد الراكب ، وإياكِ ومجالسةَ الأغنياء ، ولا تستخلفى ثوباً حتى ترقعيه » .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم ، ما ورد عن أنس رضى الله عنه قال : «خدمت النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنا ابن ثمان سنينَ ، فكان أولَ ما علمنى أنْ قال: أَحْكم وضوءك لصلاتك يحبَّك حَفَظَتُك ويزدْ فى عمرك ، يا أنسُ يابنى اغتسلْ من الجنابةِ وبالغْ فيه ، فإنَّ تحت كل شعرةٍ جنابةً ، قال قلت : يارسول الله كيف أبالغُ فيها ؟ قال: يا أنسُ أدلك جميع بدنك ، وأفضْ الماء حتى يبلغ إلى جميع

بشرتك ، وَروِّ أصولَ الشعر ، وأنق بشرتك تخرجْ من مُغتسلك وقد غُفر ذنبك يا بنى لا يفوتنك ركعتا الضحى فإنها صلاة الأوابين، وأكثِرْ الصلاة بالليل والنهار فإنك مادمت فى الصلاة فإن الملائكة يصلون عليك ، ياأنس إذا قمت إلى الصلاة فانصب نفسك لله تعالى ، وإذا ركعتَ فاجعلْ راحتيك على ركبتيك وفرِّج بين أصابعك وارفعْ عضديك عن جنبك، وإذا رفعتَ رأسك فقم حتى يعود كلُّ عضو إلى مكانه ، وإذا سجدت فألزق وجهك بالأرض ولا تنقر نقر الغراب ولا تبسط ذراعيك بسْطَ الثعلب، وإذا رفعت رأسك من السجود فلا تقع كما يقعى الكلبُ وضعْ إليتك بين قدميك، وألزق ظاهر قدميك بالأرض فإن الله تعالى لا ينظرُ إلى صلاةٍ لا يتم ركوعها وسجودها ، وإن استطعت أن تكونَ على الوضوء فى يومك وليلتك فافعل فإنه إن يأتك الموتُ وأنت على ذلك لم تفتك الشهادةُ . يا أنس إذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك تكثر بركتك وبركة بيتك ، فإذا خرجت لحاجةٍ فلا يقعن بصرُكَ على أحد من أهل قبلتك إلا سلمت عليه تدخل حلاوة الإيمانِ فى قلبك ، وإن أصبت ذنباً فى مَخرجك رجعت وقد غفر لك . يا أنس لا تبيتن ليلة ، ولا تصبحن يوماً ، وفى قلبك غشٌّ لأحد من أهل الإسلام ، فإنَّ هذا من سنتى ، ومن أخذ سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى فهو معى فى الجنة. يا أنس إذا عملتَ هذا وحفظتَ وصيتى فلا يكونُ شىء أحبَّ إليك من الموت فإن فيه راحتك » .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم، قوله لمعاذ بن جبل: «اتقِ اللهَ حيث كنتَ ، وأتبع السيئةَ الحسنة تمحُها ، وخالقْ الناسَ بخلقٍ حسن » .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم، ما روى عن العرباض بن سارية رضى الله عنه ، قال : «وعظنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم موعظة وَجلتْ منها القلوبُ ، وذَرفتْ منها العيون . فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع ، فأوصنا ، قال:

«أوصيكم بتقوى الله والسمعِ والطاعةِ وإن تأمَّرَ عليكم عبدٌ. وإنه من يعشْ منكم فسيرَى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنةِ الخلفاءِ الراشـدين المهديين من بعدى ، عَضوا عليها بالنواجذِ ، وإياكمْ ومحدثاتِ الأمور ، فإن كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ » .

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم ، ماروى عن معاذ بن جبل ، قال : «قلت يارسولَ اللهَ أخبرْنى بعمل يُدخلنى الجنة ويباعدُنى عن النار . قال : لقد سألتَ عن عظيم وإنهُ ليسير على من يسره اللهُ عليه: تعبدُ الله لاتشركْ به شيئاً . وتُقيم الصلاةَ ، وتُؤتى الزكاةَ ، وتصوم رمضانَ ، وتحج البيتَ . ثم قال : ألا أدلكَ على أبواب الخير : الصومُ جُنَّـةٌ ، والصدقةُ تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النارَ ، وصلاةُ الرجل فى جوف الليل . ثم تلا « تتجافى جنوُبهم عن المضاجعِ » حتى بلغ « يعملون» ثم قال : ألا أُخبركَ برأس الأمر وعموده ، وذروةِ سنامهِ ؟ قلتُ : بلى يارسولَ اللهِ : قال: رأسُ الأمرِ الإسلامُ ، وعمودهُ الصلاةُ ، وذروةُ سنامه الجهادُ . ثم قال: ألا أخبركِ بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يارسولَ الله . فأخذَ بلسانه وقال : كفَّ عليكَ هذا . قلتُ : يارسولَ اللهِ وإنا لمؤاخذون بما نتكلمُ به؟ فقال : ثكلتكَ أمك، وهل يكب الناسَ فى النار على وجوههم ـ أو قالَ : على مناخرهم إلاحصائدُ ألسنتهم ؟ »

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم لبعض أهله : « لا تشرك بالله شيئاً ، وإن قطعتَ أو حرقتَ ، ولا تتركن صلاةً مكتوبةً متعمـداً ، فإنه من تركَ صلاةً مكتوبةً متعمداً ، فقـدْ برئتْ منهذمة اللهِ ، وإياكَ والمعصيةَ ، فبالمعصيةِ يحلُّ سخطُ الله .

ووصاياه صلى الله عليه وسلم ونصائحه لا تحيط بها الدواوين ، ولاتستقصيها أقلام الكاتبين .

وقد اقتفى على ذلك النهج القويم والصراط السوى المستقيم ، الصحابة والتابعون والعلماء الأجلة العاملون ، فكم بذلوا للخلق من النصح الأتم ، وكم حضوا على ما فيه النفع الأعم .

ومنهم الناظم رضى الله عنه،فقد والله بذل المجهود فى هذه النصيحة،وأرشد فيها لما فيه رضى الملك المعبود ، فجزاه الله عن أمة النبى صلى الله عليه وسلم خيراً ، وأولاه على ذلك مثوبة وأجراً .

فأشار رحمه الله إلى أن المقصود بهذه الكلمات والجمل الآتية النصيحة لنفسه ولمن اتصف بصفته ، وكان مثله من أهل وقته وغيرهم فى الغفلة والذهول والاغترار ، عما هم بصدده من الانتقال لدار القرار .

وبدأ بنفسه لأن النصح للغير لا يؤثر ولا ينفع ، إلا إذا استقام الناصح فى نفسه وارتدع .

وقد كتب الإمام الغزالى رضى الله عنه . إلى الشيخ أبى الفتح بن سلامة : قرع سمعى أنك تلتمس منى كلاماً وجيزاً فى معرض النصح والوعظ ، وإنى لست أرى نفسى أهلا له ، فإن الوعظ زكاة نصابها الاتعاظ ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ .

وقد أوصى الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام: يا ابن مريم عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحى منى .

وقال بعض العارفين : من علم فليعمل ، ومن جهل فليسأل ، فاليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ، والعلم إمام والعمل تابعه ، ومن لم يمش على الجادة ، ولا سلك بنفسه سبيل الاستقامة ، كيف ينصح سواه ويعظ غيره ؟ وإن نصح أو وعظ لا تنفع موعظته ، ولا تقبل نصيحته ، فقلما ينتفع بوعظ

الواعظ ونصح الناصح ، إذا لم يكن متصفاً بنفسه بالصفات الجيدة المرضية التي ندب الشارع إليها وحض عليها ، فالموعظة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب .

وقد علق الشارع الوعيد الشديد على من أمر بالمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن المنكر وفعله .

ومن صفاته عليه الصلاة والسلام : أنه كان لا يأمر بشيء إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له .

وقال تعالى : « أَتأمُرُون الناسَ بالبرِّ وتَنْسَوْن أنفسكُم ؟ » .

روى أنها نزلت في اليهود كانوا يحضون على الصدقة ويبخلون . وفي الآية وعيد شديد لمن اتصف بصفاتهم وفعل مثل فعلهم . وقوله : « أفَلَا تعقِلون ؟ » توبيخ عظيم وتشنيع ذميم .

والمعنى : أفلا تتفطنون لقبيح ما ارتكبتم وشنيع ما تعاطيتم ؟ كأنه جعلهم مسلوبي العقول لأن العقل يأبى هذا .

وقال البزار عن أبي برزة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذي يُعلمُ الخيرَ للناسِ وينسى نفسه، مثلُ الفتيلةِ تضيء على الناس وتحرقُ نفسها » .

وفي رواية للطبراني : « كمثل السِّراجِ يُضيء للناسِ ويحرقُ نفسهُ » .

وقال عليه السلام : « مَن أرادَ أن ينصبَ نفسه إماماً، فعليه بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ؛ وليكنْ تأديبُه بسيرتهِ قبل تأديبهِ بلسانه ، ومؤدِّبُ نفسه ومُعلمها أحقُّ بالإجلالِ من معلمِ الناسِ ومؤدِّبهم » .

وقد حكى أن رجلا كان يجلس قريبا من محمد بن واسع ، فسمعه ابن واسع يوما يعظ أصحابه ويوبخهم وهو يقول : مالي أرى القلوب لاتخشع ؟ ومالي أرى العيون لاتدمع ، والجلود لا تقشعر ؟ فقال له ابن واسع : ياعبد الله ماأرى

القوم أتوا إلا من قبلك ، إن الذكر إذا خرج من القلب استقر فى القلب .

وقيل لحمدون القصار : ما بال كلام السلف الصالح أنفع من كلامنا ؟

قال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضى الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق .

وروى أن عبد الملك بن مروان خطب يوما ، فلما انتهى إلى موضع الوعظ فأحسن كل الإحسان ، قام إليه رجل من الحاضرين فقال : إنكم أيها الملوك تأمرون فلا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون . أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم : اقتدوا بسيرتنا فى أنفسنا فأنى وكيف ؟ وأين المصير من الله ؟ وما الحجة غداً بين يديه ؟ وإن قلتم :أطيعوا أمرنا واقبلوا نصيحتنا ، فكيف ينصح من يغش نفسه ؟ وإن قلتم : خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا الموعظة ممن سمعتموها ؛ فعلام قلدناكم أزمة أمورنا وحكمناكم فى دمائنا وأموالنا ؟

وروى أن سفيان الثورى رحمه الله ، كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله تعالى ويرغبهم فى ثوابه ويحذرهم من عقابه ، وكان الناس يختلفون إليه ، فصعد يوماً منبره على عادته ؛ فلما استقر به الجلوس وأراد أن يتكلم ، رفعت إليه امرأة رقعة ، فلما قرأها تغير لونه ، وبكى بكاء شديداً ، ثم نزل ولم يتكلم ، فسأله أصحابه ومن يعز عليه ، أن يخبرهم بما فى الرقعة ، فقرأها عليهم فإذا فيها مكتوب :

يأيها الرجلُ المعلمُ غيره   هلا لنفسك كانَ ذَا التعليمُ ؟
تصفُ الدواءَ لذى السقام وذى الضنا   كيما يصحّ به ، وأنتَ سقيمُ
ونراك تلقحُ بالرشادِ عقولنا   أبداً وأنتَ منَ الرشادِ عديمُ
فابدأْ بنفسك فانهها عن غيها   فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ

فهناكَ يقبلُ ما تقول ويقتدَى بالقول فيه ويَنفعُ التعليمُ

فلما قرأ ذلك بكى بكاء شديداً حتى أغمى عليه، فلما أفاق، قالوا: له ياسيدى أنت كلامك موزون وعرضك مصون، تشفى القلوب بوعظك وتسلى المحزون؛ فكيف يؤثر فى قلبك هذا الكلام، وأنت إمام وأى إمام؟ فبكى وقال: أنا ما أصلح أن أتكلم على رؤوس الناس. فأنا أعرف بنفسى من غيرى، ثم فاضت عيناه، واشتغل بوجده وجواه. وما عاد أحد بعد ذلك اليوم يسمع كلامه ولا يراه، حتى مات رحمه الله.

ولله در القائل فى المعنى:

مواعظُ الواعظ لن تقبلا حتى يعيها قلبه أولاَ
ياقومُ من أظلمُ من واعظ خالفَ ما قد قالهُ فى الملاَ
أظهرَ للعالم إحسانَه وخالفَ الرحمنَ لما خلاَ

وقال أبو العتاهية:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذْ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
كملبس الثوب منْ عرى وعورته للناسِ بادية ما إن يُواريها
وأعظم الإثم بعد الشركِ تعلمه فى كلِّ نفس عماها عن مَساويها
عرفانها بعيوب الناسِ تبصرُها منهم؛ ولا تبصر العيبَ الذى فيها

وقال أيضاً:

إذا عبت أمراً فلا تأته وذو اللبِّ مجتنبٌ ما يعيبُ

وقال غيره:

ما أقبحَ التزهيدَ من زاهد يزهد الناسَ ولا يزهدُ
لو كانَ فى تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيته المسجدُ
إنْ رفض الدنيا فما باله يستمنح الناسَ ويسترفدُ

الرزقُ مقسومٌ على قدرٍ يسعى لهُ الأبيضُ والأسودُ

وقال غيره :

لا تلمِ المرء على فعله وأنتَ منسوبٌ إلى مثله

ودخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة : فقال يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب ، قال : فأخبرنى كيف القدوم على الله ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أما المحسن فيقدم على الله كالغائب يقدم على أهله وأما المسيء فيقدم على الله كالعبد الآبق لسيده ، يأتى مولاه خائفاً حزيناً . قال : فأى الأعمال أفضل ؟ : قال : أداء الفرائض واجتناب المحارم ، قال : فأى الدعاء أفضل ؟ قال : دعاء الملهوف لمن أحسن إليه . قال . فأى الصدقة أوفى ؟ قال : أن لا تعلم يسراه ما أنفقت يمينه . قال : فأى القول أفضل ؟قال : كلمة حق عند من يخاف . قال : فأى الناس أعدل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ودل الناس عليها . قال : أى الناس أجهل ؟ قال:من باع آخرته بدنياه . قال:عظنى وأوجز . قال : نزه ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك ، فبكى الأمير : فقال رجل من جلسائه : أبكيت أمير المؤمنين أو أحزنته ؛ أو كلمة تشبه هذا . فقال : قد أخذ الله الميثاق على الأنبياء لتبيننه للناس ولا تكتمونه . ثم خرج ، فبعث إليه بحلى : فرده ، وقال : لا أرضاه لكم ، فكيف آخذه منكم . اهـ .

تنبيه : قال الأبيرى رحمه الله فى شرح البردة : فإن قلت : فما يعمل العالم إذا سئل عن مسألة من العلم ، وهو يعلم حكم الله فيها ، إلا أنه عاص لا يعمل بذلك الحكم فى خاصة نفسه ، إذا نزلت تلك النازلة ؟

قلت : يجب عليه الفتوى بحكم الله فيها ، وإن أفتى بما هو عامل به فيها

فقد غش وخادع وخالف حكم الله فى قوله وفعله ، وأضاف معصية عظيمة إلى معصية أخرى أعظم منها ، حيث افتات على الشرع وكذب على الشارع ، وتعاطى معصية يعظم شرها ويسرى فى الناس العمل بها ، فيضر بها خلق كثير . اهـ .

هذا ، وقد روى البخارى ومسلم وأحمد ، عن أسامة بن زيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتنزلق أقتابه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون له : يافلان ماشأنك ؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« رأيتُ ليلة أسرى بى أقواماً تقرض شفاههم بمقاريض من النار ، كلما قرضت ردت . فقلت : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء علماء أمتك وقراؤها ووعاظها ، يقولون ولا يفعلون ، ويعلمون ولا يعملون ، وينهون عن المنكر ولا ينتهون » .

وروى الطبرانى فى الكبير عن الوليد بن عقبة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنّ أناساً من أهل الجنةِ ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : لم دخلتم النار ؟ فوالله مادخلنا الجنةَ إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقولُ ولا نفعلُ » .

وقول الناظم : « فى غفلة مثلى » . الغفلة . قال فى المصباح : غيبة الشىء عن بال الإنسان وعدم تذكره له ، وقد استعمل فى من تركه إهمالا وإعراضا ، كما فى قوله تعالى : « وهم فى غفلة معرضون » . اهـ . المراد منه .

وقوله : « من أبناء الزمن » . المراد بهم المتصفون بالغفلة عن ما ذكر فى كل وقت لا خصوص أهل زمانه كما لا يخفى .

القول فى الغفلة والاستعداد للمصير :

ثم قال :

[يأيها الإنسان هب من كراك   واصح من السكر الذى قد اعتراك]

هذا نداء للغافل المقصود بالنصيحة، وتنبيه للمستغرق فى نوم القطيعة ، الخامد القريحة . والنداء فى الأصل طلب الإقبال .

والمراد به هنا التنبيه . وأى : مبنى على الضم فى محل نصب والهاء للتنبيه . والإنسان: نعت لأى على اللفظ وحركته إعرابية وحركة أى بنائية، وفيه أنه رفع التابع مع عدم عامل الرفع ، تأمل .

ثم إن النداء على سبع مراتب: نداء مدح، ونداء ذم، ونداء تنبيه، ونداء إضافة ونداء نسبة ، ونداء تسمية ، ونداء تضيف.

فالأول كقوله تعالى : « يأيها النبى » و « يأيها الرسول » .

والثانى كقوله : « يأيها الذين هادوا » و « يأيها الذين كفروا » .

والثالث كقوله : « يأيها الإنسان » و « يأيها الناس » .

والرابع كقولهم : « ياعبادى » .

والخامس كقولهم : « يابنى آدم » ، « يابنى إسرائيل » .

والسادس كقوله : « يا داوود » ، « يا إبراهيم » .

والسابع كقوله : « يا أهل الكتاب » .

والإنسان : اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع .

وقد اختلفوا فى اشتقاقه مع اتفاقهم على زيادة النون الأخيرة، فقال البصريون : من الإنس فالهمزة أصلية ووزنه فعلان ، وعليه قول القائل :

وما سمى الإنسان إلا لأنسه   ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقال الكوفيون : مشتق من النسيان فالهمزة زائدة ووزنه إفعان ، وأصله إنسيان ، ولذلك يرد إلى أصله فى التصغير فيقال أنيسان .

وعليه قول القائل :

لا تنسين تلك العهود فإنما ... سميت إنسانا لكونك ناسى

قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنما سمى إنسانا لأنه عهد إليه فنسى .

وهب: أمر من الهب وهو الاستيقاظ ، يقال : هب من نومه هبا من باب قتل استيقظ ، قاله فى المصباح .

وكرا ، وزان عصا : النعاس .

واصح: أمر من الصحو وهو ذهاب السكر ، يقال كما فى المصباح: صحا من سكره يصحو صحوا : زال سكره .

والسكر بالضم : غيبوبة العقل بشرب المسكر .

واعترى : أصاب ، يقال عراه أمر ، واعتراه : أصابه .

والمعنى : تنبه أيها الإنسان لما يلقى عليك من النصائح السنية ، واستيقظ من نعاس غفلتك المغيب لك عن شهود ما يحل بك من البلية ، واصغ لما يملى عليك من المواعظ والتذكير ، وعض بالنواجذ على ما ينفعك فى المصير ، وأفق من سكر غفلتك الذى أصابك واعتراك ، واستولى عليك ودهاك ، ورحم الله من قال :

ألا أيها المغرور مالك تلعب ... تؤمل آمالا وموتك أقربُ
وتعلم أن الحرص بحر مبعد ... سفينته الدنيا فإياك تعطبُ
وتعلم أن الموت يأتيك مسرعا ... تذوق شرابا طعمه ليس يعذبُ
كأنك توصى واليتامى تراهم ... وأمهم الثكلى تنوح وتندبُ
تعض يديها ثم تلطم وجهها ... يراها رجال بعد ما هى تحجبُ
وجاؤوك بالأكفان نحوك قصدا ... وصبوا عليك الماء والعين تسكبُ

* * *

أما والله لو علم الأنام ... لما خلقوا لما غفلوا وناموا
لقد خلقوا ليوم لو رأته ... عيون قلوبهم ساحوا وهاموا

مـمـات ثم نشر ثم حشر وتوبيـخ وأهـوال عظامُ
ليوم الحشر قد عملت أناس فصـلوا من مخافته وصاموا
ونحن إذا أمرنا أو نهينا كأهل الـكهف أيقاظ نيامُ

وقال إبراهيم بن عبد الله بن الحسن فى بعض خطبه : أيها الناس كل كلام فى غير ذكر فهو لغو ، وكل صمت فى غير فـكرفهو سهو، والدنيا حلم والآخرة يقظة ، والموت متوسط بينهما ، ونحن فى أضغاث أحلام .

وقال الحسن رضى الله عنه : واعجباً لأقوام أمروا بالزاد ، ونودى فيهـم بالرحيل ، وحبس أولهم لآخرهم ، وهم قعود يلعبون .

وكان مولانا رسول الله،صلى الله عليه وسلم، يقول كثيرا فى خطبته، كما رواه القاضى أبو نصر الموصلى عن أنس :

« أيها الناس كأن الموت فى الدنيا على غيرنا كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب ، وكأن الذى يشيع من الأموات سفر ، عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم،ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم،قد نسينا كل واعظة،وأمنا كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس،طوبى لمن ذلت نفسه وحسنت خليقته وطابت سريرته،وعزل عن الناس شره ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة».

وروى ابن عدى فى الـكامل،والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « عجبتُ لطالب الدنيا والموتُ يطلبه ، وعجبتُ لغافل وليسَ بمغفول عنه، وعجبتُ لضاحك ملء فيه ولا يدرى أرضى عنه أم سُخط » .

وعن أبى ذر رضى الله عنه ، قلت : «يارسول الله ما كانت صحفَ موسى عليه السلام ؟ قال : كانت عبراً كلها . عجبتُ لمن أيقنَ بالموت ثم هو يفرح ، وعجبتُ لمن أيقنَ بالنار ثم هو يضحك ، عجبتُ لمن أيقنَ بالقدر ثم هو ينصب ، عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئنُ إليها ، عجبت لمن أيقنَ بالحساب غدا ثم لا يعملُ » .

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : ياعجبا من ضاحك ومن ورائه النار، ومن مسرور ومن ورائه الموت .

وروى أنه رضى الله عنه مر بشاب وهو يضحك، فقال له : يابنى هل جزت على الصراط ؟ قال : لا. فقال: هل تبين لك إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قال : لا. قال : هل تدرى أن ربك راض عنك أم ساخط عليك ؟ قال : لا . قال : ففيم هذا الضحك ؟ فما رئى الفتى ضاحكا بعده قط .

ويرحم الله الفقيه الصالح سيدى محمد بن عبد الرحمن الدلائى حيث يقول :

ياعجباً للعبد كيف يضحك ... وهو لا يعلم كيف المسلك !
فيما مضى من حسنات العمل ... هل قبلت بالفضل أم لم تقبل ؟
وفى ذنوب سلفت فى العمر ... هل غفرت بالعفو أم لم تغفر ؟
وكيف حاله الذى لا ينضبط ... هل رضى الاله عنه أم سخط ؟
وما بقى من عمره مغيب ... والنفس لا تدرى غدا ما تكسب
أعظمها خاتمة القرار ... لجنة يصير أم لنار ؟
فنسأل الله صلاح العمل ... والختم بالإيمان عند الأجل
بجاه كل مقتد ومهتد ... وبالنبى سيدنا محمد
عليه أفضل الصلاة والسلام ... وآله الغر وصحبه الكرام

لكن ورد : لولا الغفلة لحفر كل واحد منكم قبره ، وجلس على شفيره ينتظر الموت .

وكان الحسن البصرى رحمه الله ، يقول : الغفلة والأمل نعمتان عظيمتان على ابن آدم ، ولولاهما ما مشى المسلمون فى الطريق ، وتعطلت الأسباب على أهلها ، وأدى ذلك إلى ضرر عظيم ، لعدم من يقوم بأمر معاشهم .

وورد أن الله تعالى لما مسح على ظهر آدم عليه السلام فاستخرج ذريته ،

قالت الملائكة : يارب لاتسعهم الأرض . فقال تعالى : إنى جاعل موتاً ، فقالت الملائكة : يا رب لا يهنأهم العيش : فقال : إنى جاعل أملا .

وروى مرفوعاً : «أن الله قد وكل بمن يتبع الجنازة من أهل الميت ملكا ، إذا رجعوا من دفنها وخف حزنهم أن يأخذ كفاً من تراب ويرمى به ، ويقول لهم: ارجعوا أنساكم الله موتاكم ، فينسون ميتهم ويأخذون فى أكلهم وشربهم وضحكهم وبيعهم وشرائهم ، كأنهم لم يكونوا منه ولم يكن منهم » .

وكان مطرف بن عبد الله يقول : لو علمت وقت أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ، ولكن الله تعالى يمن على عباده بالغفلة عن الموت فى بعض الأوقات ليهنئوا بالعيش ، ولولا ذلك ما تهنئوا به ولا قامت بينهم أسواقهم .

والحاصل أن الغفلة وطول الأمل نعمة ورحمة من الله تعالى للناس . تنتظم بذلك أسباب معايشهم ، وتستحكم لهم الأمور ، ويتقوى به الصانع على صنعته والعابد على عبادته ، ولولاه لتفسخت عزائم الناس ، ولم يتم لهم عمل .

وأما المذموم من ذلك فهو الذى ينسى العبد أمور آخرته ، ويقسى قلبه ويثبطه عن الأعمال الصالحة . والله أعلم .

ما جاء فى الموت وهوله :

[إن الرحيل يا أخى قريب   وكلنا مسافر غريب]
[والموت لا يفوته عريب   فكيف لا يزود الأريب]
[فيا له من سفر ما أطوله   ويا له من هائل ما أهوله]
[كفى الحمام واعظاً لمن عقل   فانظر فكم من قاطن قد انتقل]

يقول أيها الإنسان ، وكلنا ذلك الإنسان : إن الرحيل أى الانتقال بالموت من دار الفناء إلى دار البقاء قريب ، إذ كل ما هو آت قريب لا يخطئ بل يصيب ، وكل واحد منا مسافر لا محالة للآخرة ومغرب عن أهله ووطنه بتجارة رابحة

أو خاسرة ، فيا سعادة من كان رابح التجارة ، ويا خسارة من أغواه الشيطان واستهوته الأمارة ، وإن الموت لا يفوته أحد ولا يعجزه والد ولا ولد ، فيا عجباً لك أيها الأريب العاقل ، كيف لا تتزود لهذا السفر بل أنت عنه غافل ، مع أنه لك بالمرصاد ، لا يرده عن اغتيالك راد ! ويا عجباً لهذا السفر ما أطول مدته ! ولهذا الهائل المفزع ما أعظم فزعه وصولته : ولو لم يكن للعاقل ذى التدبير سوى الموت والحمام ، لكان كافياً عن غيره من بليغ النثر والنظام . فتأمل أيها العاقل وتدبر فيما تشاهده وتراه ، من انتقال العدد العداد من القاطنين ومن اخترام ذوى الثروة والجاه .

والرحيل : مصدر رحل بمعنى انتقل ويتعدى بالتضعيف ، فيقال رحلته مثلا .

وأخى : المراد به الإنسان الموجه له النصح المذكور ، قيل : ناداه بالأخ استعطافاً فى قبول ما يلقيه عليه ، وعدم الأنفة مما يتوجه منه إليه .

والغريب : اسم فاعل غرب بالضم غرابة بعد عن وطنه وانفرد عن أهله وقرابته ، فهو فعيل بمعنى فاعل وجمعه غرباء .

والموت : ضد الحياة ، وهو عند أهل السنة : صفة وجودية قائمة بالميت ، يمكن رؤيتها . تمنع اتصافه بالإدراك . ويدل له قوله تعالى : « الذى خلقَ الموتَ والحياةَ » إذ الخلق إنما يتعلق بالموجود . وقيل : الموت عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حيًّا . وأجاب أصحاب هذا القول عن الآية : بأن المراد بالخلق فيها التقدير ، وهو يتعلق بالوجودى والعدمى . أو فيها حذف مضاف أى خلق أسباب الموت . وقيل : الموت عدم الحياة مطلقا ، فالجماد يوصف بالموت على هذا القول دون الأولين .

ويفوته : مضارع فات بمعنى أعوز ، يقال : فاته الشىء يفوته فوتا وفواتا ، أعوزه وأعوز مثل أعجز وزنا ومعنى .

وعريب : أحد وهو من الأسماء اللازمة للنفى ، والإشارة بهذين الشطرين لقوله تعالى : « كلُّ نفس ذائقةُ الموت » ، وقوله : « كلُّ شىء هالكٌ إلا وجهَهُ » ، وقوله : « كل من عليها فان » .

وقال صلى الله عليه وسلم : «أتانى جبريلُ عليه السلام فقال : يا محمد عشْ ما شئتَ فإنك ميت ، وأحببْ من شئت فإنك مفارقهُ ، واعمل ما شئت فإنك مجزىٌّ به ، واعلم أن شرفَ المؤمن قيامُه بالليل ، وعزَّه استغناؤُه عن الناس» .

وقال سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه :

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعرى بعد الموت ما الدار ؟

وقال غيره :

الموت أفنى من مضى والموت يفنى من بقى
يا محسنا فيما مضى كن محسنا فيما بقى

وقال آخر :

إنما الدنيا فناء ليس للدنيا ثبوت
إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت
ولقد يكفيك منها أيها العاقل قوت
ولعمرى عن قريب كل من فيها يموت

* * *

لدوا للموت، وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب

وفى الصحيح أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وقال آخر :

الموت ، لا والدا أبقى ولا ولدا هو السبيل إلى أن لا ترى أحدا
كان الرسول فلم يخلد لأمته لو خلد الله حيا قبله خلدا
للموت فينا سهام غير مخطئة من فاته اليوم سهم لم يفته غدا

وقد خطب سيدنا على كرم الله وجهه ، فقال فى خطبته :

عباد الله . الموت الموت ! ليس منه فوت ، إن أقمتم له أخذكم ، وإن فررتم

منه أدرككم . الموت معقود بنواصيكم ، فالنَّجَا النجا والوحا الوحا ، فإن وراءكم طالبا حثيثا ، وهو القبر . ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة وحفرة من حفر النار . ألا وإنه يتكلم فى كل يوم ثلاث كلمات فيقول : أنا بيت الغربة ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الديدان . ألا وإن وراء ذلك اليوم يوما أشد منه ، يوم يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه الكبير ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. ألا وإن وراء ذلك اليوم يوما أشد منه فيه نار تتسعر ، حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليها حديد ، وماؤها صديد ، ليس لله فيها رحمة . قال:فبكى المسلمون بكاءا شديدا . ثم قال : ألا وإن وراء ذلك اليوم جنة عرضها السماوات والأرض أعدت المتقين .

وفى الحديث : «ما من ميت إلا وملكُ الموت يقفُ على بابه كل يوم خمسَ مراتٍ ، فإذا وجد الإنسانَ قد نَفدَ أكله وانقطع أجله، ألقى عليه غم الموت فغشيته كرباته وغمرته سكراته . فمن أهل بيته الناشرةُ شعرها والضاربة وجهها والباكية بشجوها والصارخة بويلها .فيقول ملك الموتِ عليه السلام : ويلكم مم الفزع ؟ وفيم الجزع ؟ والله ما أذهبت لواحد منكم رزقا ، ولا قربت له أجلا ، ولا أتيته حتى أمرتُ ولا قبضتُ روحه حتى استؤمرت ، وإن لى فيكم عودةً ثم عودة حتى لا أبقى منكم أحدا» .قال النبى صلى الله عليه وسلم: «فوالذى نفسُ محمد بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، وبكوا على أنفسهم ، فإذا حمل الميت على نعشه رفرفت روحه فوقف النعش وهو ينادى بأعلى صوته : يا أهلى يا ولدى لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بى ولا تغرنكم كما غرتنى جمعت المال من حله ومن غير حله ثم خلفته لغيرى فالمهناةُ لكم والتبعةُ علىَّ فاحذروا مثل ما حل بى» .

وروى عن سيدنا على كرم الله وجهه،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

رأى ملك الموت عند رجل من الأنصار : وقال له النبى ، صلى الله عليه وسلم :

«ارفق بصاحبي فإنه مؤمن» ، فقال : أبشر يا محمد فإني بكل مؤمن رفيق ! والله يا محمد . إنى لأقبض روح ابن آدم ، فإذا صرخ صارخ من أهله ، قلت : ما هذا الصراخ ؟ فوالله ما قبضناه ولا سبقنا أجله ، ولا استعجلنا قدره ! فما لنا فى قبضه من ذنب ، فإن ترضوا بما صنع الله تؤجروا ، وإن تسخطوا أو تجزعوا تأثموا وتؤزروا ؛ وما لكم عندنا من عتبة ، وإن لنا عليكم لبغتة وعودة ، فالحذر الحذر ! وما من أهل بيت من شعر ولا مدر ، فى بر ولا بحر ، إلا وأنا أتصفح وجوههم فى كل يوم وليلة خمس مرات ؛ حتى إنى لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد . لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك ، حتى يكون الله تعالى هو الآمر بقبضها » .

وأنشدوا :

عجبت لجازع باك مصاب ... بأهل أو حميم ذى اكتئاب
شقيق الجيب ، داعى الويل جهلا ... كأن الموت كالشىء العجاب
وساوى الله فيه الخلق حتى ... رسول الله ، منه لم يحاب
له ملك ينادى كل يوم : ... لِدُوا للموت وابنوا للخراب

وأنشدوا أيضا :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا ... ونحن فى غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وزينتها ... ولو توشحت من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا ؟ ... أين الذين هم كانوا لنا سكنا ؟
سقاهم الموت كأسا غير صافية ... فصيرتهم لأطباق الثرى رهنا

* * *

أيا من له فى باطن الأرض حفرة ... أتأنس بالدنيا وأنت غريب ؟
وما الدهر إلا كر يوم وليلة ... وما الموت إلا نازل وقريب

وروى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال فى بعض خطبه :

« أيها الناسُ . الأيامُ تُطْوَى والأعمارُ تفنى ، والأبدانُ فى الثرى تَبْلَى ، وإنَّ الليلَ والنهارَ يتراكضان تراكضَ البريدِ ، ويقرِّبان كلَّ بعيدٍ ، ويُخلِقان كلَّ جديدٍ ، وفى ذلكَ — عبادَ اللهِ — مَا أَلْهَى عنِ الشهواتِ ، ورغَّبَ فى الباقياتِ الصالحاتِ » .

قيل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل إلى الآخرة كل يوم مرحلة .

وقال داود الطائى : إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة . يعنى : حتى ينتهى ذلك بهم إلى آخر سفرهم .

وقيل :

وما هذهِ الأيامُ إلا مراحلٌ تمُرُّ وتُطْوى ، والمسافرُ قاعدُ

* * *

نسيرُ إلى الآجال فى كلِّ لحظةٍ وأيامُنا تطوَى ، وهُنَّ مَراحلُ
ولمْ أرَ مثلَ الموتِ حقًا ، كأَنهُ إذا ما تخطتْهُ الأمانىُّ ، باطلُ

وقول الناظم : «فكيف لا يزود الأريب ؟» أى : وإذا كان الأمر كما علمت ، وأن الرحيل قريب ، وكل أحد منا مسافر غريب ، وأن الموت لابد منه لكل حى . «فكيف» .. فالفاء فاء الفصيحة كما لا يخفى . وكيف : كلمة يستفهم بها عن حال الشيء وصفته ، وتأتى للتعجب والتوبيخ والإنكار . والمعانى الثلاثة صحيحة هنا .

وَيزَوِّد : مضارع أزوَّدَ ، أعد الزاد .

والزاد : طعام المسافر يتخذه لسفره ، ويجمع على أزواد .

والأريب : العاقل .

وفى هذا الشطر الحث على التزود لسفر الآخرة ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية . قال تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » .

وخَيرُ جميع الزادِ ، ما قالَ ربُّنا فكُنْ يا أخى لله ممتثلَ الأمرِ

* * *

إذا أنتَ لمْ ترحَلْ بزادٍ من التّقى ولاقيْتَ بعدَ الموت من قَدْ تزَودا
نَدِمتَ على أن لا تكون كمثلهِ وأنك لم تُرْصدْ كما كانَ أرْصَدَا

وقيل :

تأهبْ للذى لا بُدَّ منهُ فإن الموتَ ميقاتُ العِبادِ
أترضى أن تكونَ رفيقَ قومٍ لهمْ زادٌ ، وأنتَ بغيرِ زادِ

وقيل :

يا لاهياً غافلاً عما يُرَادُ بهِ عندَ الرحيل، فما أعددتَ منْ زَادِ
تظنُّ أنكَ تبقى سَرمداً أبَداً هيهاتَ! أنتَ غَداً فيما مضى غادِ

ويأتى قول الناظم أيضاً : فاعْدُدَنْ للرحيلِ الزاد .

وقول الناظم : «فيالهُ» : يا لَهُ كلمة تعجب ، مثل قولهم : يالكَ من رجل ! وقول الشاعر :

فيا لَكَ من ذى حاجَةٍ حِيلَ دُونَها

وقوله : يَا لكِ منْ قُبَّرَةٍ بِمَعْمَرِ

والسفر : قطع المسافة وجمعه أسفار .

وما أطوله : تعجب من كثرة طوله وامتداده .

وهائل : اسم فاعل هال ، بمعنى أفزع . يقال : هالنى الشىء هولا من باب قال : أفزعنى فهو هائل وموضع مهيل ومهال : أى مخوف ذو هول .

وما أهوله : تعجب من شدة هوله وفزعه وخوفه .

وكفى : من الكفاية وهى الاستغناء عن الغير . يقال : كفى الشىء يكفى كفاية فهو كاف إذا حصل به الاستغناء عن غيره .

والحمام ، بكسر الحاء : قدر الموت الذى لا محيد لمخلوق عنه .

وواعظا : اسم فاعل وعظ يعظ وعظا وعظة ؛ أمر بالطاعة ووصى بها . ومنه قوله تعالى : « قلْ إنما أعِظُكمْ بواحدةٍ » . أى أوصيكم وآمركم .

وعقل : معناه تدبر ، يقال : عقلت الشىء عقلا من باب ضرب : تدبرته . ويطلق العقل المصدر على الحجا واللب .

وأشار الناظم بهذا الشطر ، إلى ما صح من قوله ، صلى الله عليه وسلم : « كفى بالموتِ واعظاً » . ومن قوله ، صلى الله عليه وسلم : « منْ أراد صاحِباً فاللهُ يكفيهِ ، ومنْ أرادَ مؤْنساً فالقرآنُ يكفيه ، ومنْ أراد كنزاً فالقناعةُ تكفيه ، ومنْ أراد موعظةً فالموتُ يكفيه ، ومنْ لم يرضَ بهذه الأربعةِ فالنارُ تكفيه » .

وفى حديث عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه قال : لما دنا فراقُ رسولِ اللهِ ، صلى اللهُ عليه وسلمَ ، جمعنا فى بيت أمنا عائشة ثم نظر إلينا فدمعتْ عيناه وقال :

« مرحباً بكم ، حيَّاكم الله ، رحمكمُ الله ، أُوصيكم بتقوى اللهِ وطاعتهِ ، قد دنا الفراقُ ، وحانَ المنقلبُ إلى اللهِ تعالى ، وإلى سِدْرةِ المنتهى وجَنَّةِ المأوى . قال : فلما سمِعُوا فراقَه صاحُوا وبكوْا وقالوا : يارسول اللهِ ، أنتَ رسولُ ربِّنا ، وبُرهانُ ربنا ، إذا ذهبْتَ عنا فإلى منْ نرجعُ فى أُمورِنا ؟ قال : تركتكم على المحجَّةِ البيضاء ، ليلُها كنهارها ، ولا يزيغُ عندها إلاَّ هالِكٌ ، وتركتُ لكمْ واعظينِ ، ناطقاً وصامتاً : فالناطق القرآنُ ،

والصامتُ الموتُ ، فإذا أشكلَ عليكم أمرٌ فارجعوا إلى القرآنِ والسُّنَّةِ ، وإذا قست قلوبكم فليِّنوها بالاعتبار فى أحوالِ الأمواتِ » .

وورد : « منْ لمْ يتعظْ بالموْتِ ، لمْ يتعظْ بغيْره » .

قال العلماء ، رضى الله عنهم : وقد جعل الله الموت من أعظم المصائب . وقد سماه تعالى مصيبة فى قوله : « فأَصابَتْكم مصيبةُ الموتِ » وذلك لأنه تبدلٌ من حال إلى حال ، وانتقالٌ من دار إلى دار ، وهو المصيبة العظمى ، والرزية الكبرى ، وأعظم منه الغفلة عنه ، والإعراض عن ذكره ، وقلة التفكير فيه وترك العمل له ، فهو العبرة لمن اعتبر ، والفكر لمن تفكر .

وفى الحديث :

« لوْ أنَّ البهائمَ تعلمُ من الموتِ ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً » .

وفى الحديث :

« لوْ أنَّ ألمَ شعرةٍ واحدةٍ من الميتِ ، وضعَ على أهلِ السماوَاتِ والأرضِ لماتوا جميعاً » .

ويرحم الله القائل :

أذكرُ الموتَ ولا أرهبهُ   إن قلبى لغليظٌ كالحجرْ
أطلبُ الدنيا كأنى خالدٌ   وورائى الموتُ يقفو للأثرْ
وكفى بالموتِ ـ فاعلمْ ـ واعظاً   لمنِ الموتُ عليهِ قدْ قُدِرْ
والمنايا حوْلهُ ترْصدهُ   ليسَ يُنجى المرء منهن المفرْ

وروى أن أعرابيا كان يسير على جمل له ، فخر الجمل فنزل ميتا ، فنزل الأعرابى عنه ، وجعل يدور به ويتفكَّرُ فيه ، ويقول له : مالك لاتقوم ؟ مالك

لا تنبعث ؟ هذه أعضاؤك كاملة ، وجوارحك سالمة ، ما شأنك ؟ ما الذى كان يبعثك ؟ ماالذى صرعك ؟ ماالذى عن الحركة شغلك؟ ثم تركه وانصرف عنه متفكرا فى شأنه . ومتعجبا من أمره .

وأنشد :

جاءتهُ منْ قِبلِ الإلهِ إشارةٌ　　فهَوَى صريعاً لليدينِ وللفمِ
ورمى بمحكم درعهِ وبرمحهِ　　وامتدَّ ملقىً كالفنيقِ المعظمِ
لا يستجيبُ لصارخ إنْ يدْعهُ　　أو قام ، لا يرَجى لخَطْبٍ معظمِ
ذهبت بسالته ، ومر مرامهُ　　لما رأى خيل المنيةِ ترتمى
يا ويلهُ من فارسٍ ! ما بالهُ　　ذهبتْ مروءتهُ ، ولم يتكلم !
هذِى يداهُ ، وهذهِ أعضاؤهُ　　ما فيه من عضو عدا متثلمِ
هيهاتَ ما خيلُ الردَى محتاجةٌ　　للمشرفىِّ ولا البنانِ المقدمِ
هى مُحكمٌ ، أمرُ الإلهِ وحكمهُ　　واللهُ يقضى بالقضاء المحكمِ
يا حسرةً لو كانَ يُقدَرُ قدرُها　　ومُصيبةٌ عظمتْ ولمّا تعظمِ
خَبَرٌ علمنا كلنا بمكانه　　وكأننا فى حالنا لم نعلمِ

وروى الحكيم الترمذى ، أن آدم عليه السلام ، لما مات له ولد ، قال : يا حواء قد مات ابنك . قالت : وما الموت؟ قال : يصير الشخص لا يأكل ولا يشرب ، ولا يقوم ولا يقعد ، فرنّتْ حواء عليها السلام عند ذلك . فقال : عليك الرنةُ وعلى بناتك ، وأنا وبنىَّ منها برءاء .

وقول الناظم ، فانظر : هو أمر من النظر بمعنى التدبر .

وكم : اسم مبنى مبهم على السكون ، وتكون استفهامية ، نحو : كم رجلا عندك ؟ فينصب ما بعدها على التمييز ، وخبرية كما فى كلام الناظم ، نحو : كم درهمٍ أنفقت ، تريد التكثير ، فيجر ما بعده كما يجر برُبَّ ، لأنها فى التكثير ضد رب فى التقليل .

ومن قاطن : تمييز لِكَمْ .

وقاطن : اسم فاعل قطن بالمكان يقطن قطونًا . من باب قصد : أقام به .

وانتقل : معناه تحول . يقال : انتقل فلان من موضع إلى موضع إذا تحول .

القول فى الغفلة واستماع الملاهى :

ثم قال :

[يا عجبًا لِغَافِلٍ بَطَّالِ مِثْلِى حَلِيفِ لَهْوِهِ المُطَالِ]
[لو ظَلَّ يخشى ضَرْبَ صاحب أميرِ كَدُرَ عَيْشُهُ وغصَّ بالنَّمِيرِ]
[ولَمْ يكُنْ عن حُزْنِهِ بِلاَهِي ولا بمُصْغِى الأُذُنِ لِلْمَلاَهِى]

يقول : يا للعجب ، وحق للعاقل أن يعجب للغافل التارك للأعمال النافعة له فى الأخرى مثلى ، ومن هو فى ميدان الغرور وحلبة الآثام والشرور ، يتجارى على شاكلتى وشكلى ، قد عاهد هواه على ترك مخالفته ، بمداومته ومزايدته ، ولم يخش عقاب سيده ومولاه ، ولا راعه أليم عذابه المعد لمن غفل وأطاع هواه ، ولو أوعده من له سلطنة عليه من البَرِيَّات ، بضرب أو سجن أو نحو ذلك من العقوبات ، لصدور مخالفة منه لبعض أمره ، وعصيان منه له فى سره أو جهره ، وظل نهاره أجمع فى ارتقابه ، مرتهب القلب خائفًا من حلول عقابه ، لتكدرت عليه معيشته ، وتنغصت عليه شهواته ولذته ، ولشرقَ بشُرْبِ الماء العذب الزُّلال ، وغاب عن الالتفات لما له من الأهل والمال ، ولما ترك الحزن والنحيب ، ولا تسلى عنه بمشاهدة حبيب ، ولا أصغى بأذنه الملاهى الملهية ، والأصوات المطربة المسلية ، مع أنها من أعظم دواعى الهوى ، وأشهى

للنفس من المن والسلوى كيف وآيات الوعيد تنادى عليه جهراً ، وأحاديثه تملأ الآذان خَبَراً وخُبْراً ؟ ومع ذلك هو غريق فى بحر الغفلة والاغترار ، ورهين فى اكتساب الخطايا والأوزار ، فى أذنه وقْرٌ عن سماع ذلك ، وفى عينيه عمى عن رؤية ما هنالك ، إن هذا العمى من قبيل الأمن من مكر الله ، ولا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون ، الجاهلون بشدة انتقام الله .

وقول الناظم : « يا عجباً » : يا للنداء والمنادى محذوف .

وعجبا : منوّن منصوب على المفعولية المطلقة بعامل محذوف ، والتقدير : يا قومى أو يا سامعين اعجبوا عجبا .

والعجَبُ العُجَاب ، بالضم : الأمر الذى يتعجب منه .

والبطَّال : كثير البطالة بكسر الباء ؛ وهى ترك العمل .

وعن سيدنا عمر ، رضى الله عنه : إنى لأكره أن أرى أحدكم سَبَهْلَلاً لا فى عمل دنيا ، ولا فى عمل آخرة .

وورد : «إنّ اللهَ يحبُّ العبدَ المحترفَ ، ويكره العبدَ البطَّالَ ، لا هو فى عملِ الدنيا ، ولا هُو فى عملِ الآخرةِ » .

والحليف : المعاهد . يقال منه : تحالفا أى تعاهدا وتعاقدا على أن يكون أمرهما واحد فى النصرة والحماية ، وبينهما حِلْف ، بالكسر : أى عهد .

واللهو : مصدر لهوت به لهواً من باب قتل أولعت به .

وقال الطرطوشى : وأصل اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة .

وألهانى الشىء ، بالألف : شغلنى .

والمُطَال أى المطول : اسم مفعول أطال ، وأصله المُطْوَلُ فنقلت حركة حركة الواو إلى الطاء وقلبت ألفا لتحركها فى الأصل وانفتاح ما قبلها الآن .

وظل ، بالظاء المشالة : معناها ثبوت مضمون الجملة مقترنا بالنهار كله .

ويخشى من الخشية : وهى الخوف يقال : خشى ، بالكسر يخشى، خشية : أى خاف .

وكدّر ضد صفى : معناه نغص .

وعيشه : حياته ومعيشته .

وغصّ ، بفتح الغين المعجمة من بابى تعب وقتل : شَرِقَ .

والنَّمير ، بوزن سمير : الناجع عذبا كان أو غير عذب . قاله فى المختار لكن الظاهر أن المراد هنا العذب كما لا يخفى .

والحزن مصدر حَزِن من باب تعب : ضد السرور .

ولاهى : اسم فاعل لهى عنه من باب تعب لهواً معناه : سَالٍ عنه وتاركٌ له .

ومصغى : اسم فاعل أصغى بمعنى أمال . يقال : أصغيت سمعى ورأسى لكذا ، أى : أملته له .

والملاهى : ما يلهى من الآلات والأصوات . ولقد تقرر أن الإصغاء لها والاستماع حرام ، كما عول عليه من يُعْتمد من العلماء الأعلام .

ففى جواب لخاتمة المحققين ، وحامل لواء العلماء المدققين ، شيخ الشيوخ ، ومعدن الثبات والرسوخ ، عمنا الفقيه سيدى محمد بن المدنى كنون ، رحمه الله ورضى عنه ، ما نصه :

قال فى « الرسالة » : ولا يحل لك سماع شىء من الملاهى والغناء .

وقال فيها أيضا : ولا تحضر من ذلك « أى الأعراس » ما فيه لهو من مزمار أو عود وشبهه من الملاهى الملهية ، إلا الذى فى النكاح . وقد اختلف فى الكَبَر .

وقال فيها أيضا : ولتجب إذا دعيت إلى وليمة العرس ، إن لم يكن هناك لهو مشهور .

قال الشيخ زروق :

الملاهى نوعان : ملهية كالعود من جميع ذات الأوتار ؛ وغير ملهية ، وهو ما كان مزعجا كالبوق والدف والزمارة ، والكل ممنوع إلا ما استثنى لوليمة العرس ونحوها .

وقال فى شرح الوغليسية : ما وقع لبعض المباركين من السماع بهذه الآلات محمول على أنهم فيه أصحاب حال ، وصاحب الحال له حكم المجنون فى جميع الأحكام ، ويسلم له ولا يقتدى به .

وقال الشهاب فى شرح « الشفاء » : واعلم أن المعازف حرام فى ملتنا ، للنهى عنها فى الأحاديث المشهورة .

قال : واختلف فى بعضها ، فمنهم من جوز الدف فى العرس ، ومنهم من جوز ضرب العود لتسلية الأحزان كالماوردى ، وهو قول ضعيف ، ومحله إن كان مفرداً ، ففى «المدخل» عن الإمام ابن الصلاح : أن الإجماع منعقد على أن آلات الطرب ، إذا اجتمعت فهى محرمة . ومذهب مالك ، رحمه الله : أن الطّار الذى من الطراطر محرم ، وكذلك الشّبّابة .

وفى رسالة القشيرى : سئل أبو على الروذبارى ، رحمه الله ، عمن يسمع الملاهى ، ويقول : هو لى حلال ؛ لأنى قد وصلت إلى درجة لا يؤثر فى اختلاف الأحوال ، فقال : نعم قد وصل ، لكن إلى سقر .

والذى يتحصل من كلام الأئمة ، رضى الله عنهم ، أن الملاهى الملهية ، وهى ذوات الأوتار حرام فى الأعراس وغيرها ، كما فى باب الشهادة من «التوضيح» ، نقلا عن المازرى ، ونحوه لابن عرفة وصاحب « المدخل » ، وهو المشهور فى مذهب الشافعى وأبى حنيفة وابن حنبل ، ومقابلُه الإباحةُ أى عند الانفراد ، وإلا فالإجماع على الحرمة كما مرّ .

وابن حزم إن ثبت عنه أنه يجيز اجتماع آلة اللهو : لا يعتد بخلافه ، ولا يجوز تقليده ؛ فقد قال إمام الحرمين : إن المحققين لا يقيمون للظاهرية وزناً ، وإن خلافهم لا يعتبر .

وقال تاج الدين السبكي : ومحله عندي ابن حزم وأمثاله ، وأما داود ، فمعاذ الله ، أن يقال : إن خلافه لا يعتبر . على أن العمل بالراجح واجب لا راجح ، كما في « جمع الجوامع » وابن عرفة ، والله أعلم .

وأنشد الشهاب في شرح « الشفاء » قول الإمام الضرير ، رحمه الله :

وَنَغَماتُ العُودِ في الأحيان   قالوا : تُزِيلُ أثرَ الأحزان
فاجزِمْ على التَّحْرِيم أيَّ جَزْمِ   والحزْمُ أن لا تتَّبع ابنَ حَزْمِ
فقد أُبيحت عنده الأوتارُ   والعودُ والطُّنبورُ والمِزمارُ

ثم قال عمنا ، رحمه الله ، في الجواب المذكور : وأما الملاهي الغير الملهية ، فقال في « المختصر » مخرجاً من الكراهة : إلا الغِرْبالُ ولو لرجل ، وفي الكَبَر والمِزْهر ثالثها : يجوزُ الكَبرَ ابن كنانة ، وتجوز الزمارة والبوق .

والغربال هو البندير . وخص بعضٌ الجوازَ بما لا أوتارَ فيه . والكَبَر هو أكوال . والمزهر هو المغشّى من وجهيه .

والحاصل : أن الغرْبال جائز في العرس باتفاق ، واختلف : هل يقاس عليه الكَبر والمزهر ؟ واختلف : هل يقاس على العرس غيره من الأفراح ؟

وأما سماع الغناء بدون آلة ، ففيه كلام ، كما قال ابن البناء :

وللأنامِ في السَّماع خَوْضُ   لكنْ لهذا الحزبِ فيه روْضُ
قال العراقيون بالتحـــــريم   كما الحجازيون بالتســـليم
وإنّمـا أُبيـــح للزهادِ   وندْبُه إلى الشيوخ بادِ
وهو على العوامِّ كالحـــرام   عند الشيوخ الجِلّةِ الأعلام

وقال القسطلانى ، فى « المواهب » بعد كلام :

والحق أن السماع إذا وقع بصوت حسن ، بشعر متضمن للصفات العلية ، أو النعوت المحمدية ، عاريًا عن الآلات المحرمة . وضبط السامع نفسه ما أمكنه . بحيث لا يرفع صوته بالبكاء ، ولا يظهر التواجد ، وهو يقدر على ضبط نفسه ما أمكنه ، مع العلم بما يجب لله تعالى ولرسوله وما يستحيل ، كيلا ينزل ما يسمعه على ما لا يليق ، كان من الحسن فى نهاية ، ولتمام تزكية النفس غاية .

نعم ، تركه والاشتغال بما هو أعلى منه ، أسلم غالبًا .

ونقل عن الشافعى ومالك وأبى حنيفة وجماعة من العلماء ألفاظ تدل على التحريم ؛ ولعل مرادهم ما كان فيه تهييج شيطانى . اهـ .

قال فى «المدخل» : والسماع المعروف عند العرب هو رفع الصوت بالشعر ليس إلا ، فإذا فعل أحدهم ذلك ، قالوا : عمل السماع ؛ وهو اليوم على ما يُعهَد ويُعلَمْ .

ولأجل هذا المعنى ، قال الشيخ الإمام رزَين ، رضى الله عنه : ما أُوتى على بعض العلماء المتأخرين إلا لوضعهم الأسماء على غير المسميات ، وها هو ذا بيِّن ، ألا ترى أن السماع كان عندهم على ما تقدم ذكره ، وهو اليوم على ما نعانيه ، وهما ضدان لا يجتمعان؟ ثم إنهم لم يكتفوا بما ارتكبوه حتى وقعوا فى حق السلف الماضين ، رضى الله عنهم أجمعين ، ونسبوا إليهم اللهو واللعب ، فى كونهم يعتقدون أن السماع الذى يفعلونه اليوم ، هو الذى كان السلف ، رضوان الله عليهم ، يفعلونه ، ومعاذ الله أن يظن هذا بهم ! ومن وقع له ذلك يتعين عليه أن يتوب ، ويرجع إلى الله تعالى ، وإلا فهو هالك . اهـ .

قال : وعن الجنيد ، أن السماع لا يرجع مُباحًا إلا بعشرة شروط :

منها : أن يكون القوّال هو الذى يعدهم ؛ وأن لا يحضره أحد من أبناء الدنيا .

قال : وحيث كان مباحاً بهذه الشروط ، إن اتفق اجتماعها ، هو إذن كان السماع المعروف عند العرب ، وهو إنشاد الشعر برفع الصوت كما مر .

قال : فإن قيل : أليس قد أنشد الشعر بين يدى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟

فالجواب : إنا لا ننكر إنشاد الشعر ، وإنما ننكره إذا لُحِّن وصيغ صيغة تورث الطرب ، وتزعج القلب ؛ وهذا لا يمكن نقله عن النبى صلى الله عليه وسلم.

قال : ومعنى حديث البخارى عن عائشة : « دخلَ علىَّ أبو بكر وعندى جاريتان تغنيان ترفعان أصواتهما إنشادِ الشعر » . ونحن لا نذمه ، وإنما يصير الشعر غناء مذموماً ، إذا لُحِّن وصيغ صيغة تورث الطرب وتزعج القلب ؛ وهى الشهوة الطبيعية ، ولم يعقل من هذا الحديث أن صوتهما كان ملذاً مطرباً ؛ وهذا هو سر المسألة ، فافهمه . ولذا قالت عائشة ، رضى الله عنها : « وليْستا بمُغنِّيتَين » فأثبتت لهما أولا الغناء اللغوى ! ونفت عنهما الغناء العرفى ! وعلى اللغوى يحمل كلام الأئمة ، والله أعلم .

على أن صاحب السماع على خطر ، فقد كان النصراباذى كثير الولوع فى السماع ، فعوتب فى ذلك ، فقال : هو خير من أن تقعد وتغتاب الناس .

فقال له أبو عمرو بن نجيد ، وغيره من إخوانه . هيهاتَ يا أبا القاسم ، إن زَلَّة فى السماع شر من كذا وكذا سنة تغتابُ الناس . وذلك أن زلة فى السماع إشارة عن الله تعالى ، وترويح الحال بصريح المحال .

قال صاحب العوارف : وفى ذلك ذنوب متعددة .

قالوا : من علامة الخسران كون الإنسان يقتدى بفلان ، فى السماع بآلة أو بغيرها ، إن صح عنه سماعه ، ولا يقتدى به فى تركه لأكل الحرام ، وترك المعاصى ، وفى قيام الليل والزهد وغير ذلك من التحلى والتخلى .

وقد كان رجل مصاحباً لسيدى جسُّوس ، ولمولاى أحمد الصقلى ، نفعنا الله بهما ، فقال له : يا سيدى ! مولاى أحمد يسمع العود وأنت لا تسمعه ، وأنا لا أدرى ما أصنع ؟ فقال : لا تسمعه هو حرام عليك ، ومباح له ، يشير إلى أنه من أهل الأحوال ، والله تعالى أعلم . (انتهى الجواب المذكور)

ومن أراد استيفاء الكلام على ما يتعلق بالمسألة فعليه بتأليف الشيخ المجيب المسمى « بالزجر والإقماع ، بزواجر الشرع المطاع ، لمن كان يؤمن بالله ورسوله وبيوم الاجتماع ، عن آلات اللهو والسماع » وبالله التوفيق .

* * *

ثم قال :

وكيف يَلهُو وهو كلَّ حال ... منتظرُ الموتِ والارْتِحالِ
وفتنةِ القبرِ وهَوْلِه الشديد ... ومَوْقِفِ الحشرِ ويومه السديد
وكلُّ هَوْلٍ بعده ممـا يَذوب ... له الصفَا الصُّمُّ فكيف بالقلوب
وكيف يَنْسَى سكراتِ الموت ... وهولَهُ وحسراتِ الفَوْتِ
وكيفَ يَلْهُو ويَلَذُّ مَطعمَا ... مع علمِ ذاكَ ، إنَّ ذا منَ العمَى
فاعْدُدَنْ للرَّحيـــلِ الزادْ ... وافتقِدْ المِزْوَدَ والمزاد

يقول : عجباً للإنسان كيف يلهو ويسلو ، ويتمتع بالشهوات وله اللذات تحلو ، وهو فى كل حال من أحواله ، على أهبة ارتحاله ؟ يترقب نزول قضاء الموت به ، ولقاء ما وعد به من ربه ، من فتنة القبر وسؤاله ، وضغطته الشديدة وأهواله ؟ وموقف الحشر وفصل قضائه ، ويومه الطويل وامتداد بلائه ؟ وغير ذلك من الأهوال العظام ، التى تذوب لها الصفا الصم ؟ فكيف بقلوب الأنام ؟

ويا عجباً للإنسان ! ينسى سكرات الموت وشدائده ، وأهواله التى تتقدمه وعوائده ، وما يلحقه من الحسرات والتلهفات ، والندم على ما سلف له من الخطايا ، وارتكاب الرزايا ، وكفران النعم .

ويا عجبا له ! يلهو ويستلذ المطعومات ، وهو عالم ماهو بصدده من هجوم هذه البليات ، إن هذا لمن عمى عين بصيرته ، وانطماس قلبه وفساد سريرته ، فعليك أيها العاقل المتيقظ من سنة الغفلات ، أن تعد الزاد للرحيل للآخرة قبل نزول عرض الممات ، وتتعاهد نفسك في سائر الأوقات ، بزجرها عن ارتكاب المعاصي والزلات ، إذ هي مزود زادك الممدود ، ومزادة سفرك الموعود فمتى أرسلتها في اتباع هواها وأغفلتها ، أضعت المزود والزاد ، وخاب سعيك ، وضل رأيك ، وأسخطت رب العباد .

وقول الناظم : «وكيف» : تقدم أن كيف تأتى للتعجب والتوبيخ والإنكار وهذه المعاني كلها مناسبة هنا كما لا يخفى .

ويلهو ، مضارع لها : معناه يسلو .

وكل : منصوب على إسقاط في .

والحال : صفة الشيء يذكر ويؤنث . يقال : حال حسن وحسنة : وقد يؤنث بالتاء فيقال : حالة .

ومنتظر : اسم فاعل انتظر ، بمعنى ارتقب .

والارتحال : مصدر ارتحل بمعنى انتقل .

والفتنة «بكسر» الفاء : المحنة والابتلاء جمعها فتن .

والقبر معروف جمعه قبور ، وهو كما في الحديث ، عن سيدنا عثمان ، رضي الله عنه : أول منزل من منازل الآخرة ، فإن ينج منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه .

روى ابن ماجة أن عثمان ، رضي الله عنه ، كان إذا وقف على قبر يبكي حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكرُ الجنةَ والنارَ فلا تبكي ، وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنَّ القبرَ أوَّلُ منزلٍ من

منازِلِ الآخرةِ ، فإنْ نجا منهُ فما بَعدهُ أيسرُ منه ، وإن لمْ ينجُ منه فما بعدَه شر منه » .

وروى الترمذى أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، كان يقول :
« ما رأيتُ منظراً قطُّ ، إلاَّ والقبرُ أفظعُ منه » .

وكان عثمان ، رضى الله عنه ، إذا رأى أحداً يُنزَلُ فى قبره ، ينشد :

فإنْ تنجُ منها تنجُ من ذِى عَظيمةٍ وإلاَّ فإنى لا إخالُكَ ناجِياً

وروى ابن ماجة عن أنس عن البراء بن عازب ، رضى الله عنه ، قال : كُنا مع النبى ، صلى اللهُ عليه وسلم ، فى جِنازَةٍ فجلس على شفيرِ القَبْرِ فبكَى وأبكَى ، حتى بلَّ الثرَى ، وقال « يا إخْوانى لِمثلِ هذا فأعدُّوا » .

وكان يزيدُ الرقاشى ، رحمه الله ، يقول : مَنْ مَرَّ على قبرٍ ، ولم يعتبِرْ به ، فَهُو منَ البَهائم . وكان إذا رأى قبرا صرخ كما يصرخ الثور .

وروى الترمذى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، دخل مصلاه فرأى أناساً يكثرون الكلام ، فقال :

« أمَا إنكمْ لو أكثرْتُم من ذِكْرِ هادِمِ اللذات (يعنى الموْتَ) لشغلكم عما أرَى منكم ، فإنهُ لم يأتِ على القبرِ يومٌ إلا تكلمَ فيه فيقول : أنا بيتُ الغربةِ ، أنا بيتُ الوحدَةِ ، أنا بيتُ العذابِ ، أنا بيتُ الدودِ ، فإذا دُفن العبدُ المؤمنُ قالَ له القبرُ : مرحباً وأهْلا ، أما إنكَ كنت لأحبُّ من يمشى على ظهرى ، فإذا آويتكَ اليومَ . وصرتَ إلىَّ ، فسترَى صُنعى معك ، فيتسع له مدَّ بصره ، ويفتحُ له باب إلى الجنةِ . وإذا دُفنَ العبدُ الكافرُ أو الفاجرُ ، قال لهُ القبرُ : لا مرحباً ولا أهلا ، أما إنكَ كنتَ لأبغضُ من يمشى على ظهرى ، فإذا آويتكَ اليومَ ، وصرتَ إلىَّ ، فسترى صنعى بك ، قال : فيلتئِم عليه حتى يلتقِى وتختلفُ أضلاعُه » .

وقال ، صلى الله عليه وسلم : بأصابعه فأدخل بعضها فى جَوْف بعض . قال : «ويقيّض له تسعة وتسعون تنيناً ، لو أن تنيناً واحداً منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا ، فينهشه حتى يُفضى به إلى الحساب » . ثم قال رسولُ الله ، صلى الله عليه وسلم : « إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حُفرة من حُفر النار » .

وعن عبد الله بنُ عمر ، رضى الله عنهما : يجعلُ الله للقبرِ لساناً ينطقُ به فيقولُ : يا ابنَ آدمَ ، كيف نسيتنى ، أما علمتَ أنى بيتُ الدودِ ، وبيتُ الوحْدَةِ ، وبيتُ الوَحْشةِ .

وفى رواية أخرى عنه : إن القبر ليكلمُ العبدَ إذا وُضعَ فيه فيقولُ : يا ابنَ آدم ماغرك بى ، أما علمتَ أنى بيتُ الظلمةِ ؟ ألمْ تعلم أنى بيتُ الحق ؟ فإن كانَ مُفلحاً ، أجابَ عنه مُجيبُ القبرِ ، فيقول : أرأيتَ أنْ كان ممن يأمرُ بالمعروفِ ، وينهى عن المنكرِ ؟ قال : فيقولُ القبرُ : فإنى أعود عليه خضراء ويعودُ جسدهُ نوراً ، وتصعدُ رُوحُه إلى رب العالمين ، رواه الحاكم .

وفى الحديث : « إن العبدَ إذا وُضع فى قبره فقال أهلهُ : واسيداهُ ، وا أميراه ، واشريفاه ! قال الملكُ : اسمع مايقولون ، أ كنتَ أميراً ؟ أ كنتَ شريفاً ؟ فيقول الميت : ليتهُم سكتُوا عنى ، قال : فيضغطُ ضغطةً فتختلفُ فيها أضلاُعه » .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « للقبرِ ضغطة لو نجا منها أحدٌ لنَجَا منها سعدُ بنُ مُعاذٍ » .

وقال عليه السلام : ما عُفى أحدٌ من ضغطةِ القبر إلا فاطمة بنت أسدٍ ، فقيل يارسولَ الله : ولا ابنُك القاسمُ ؟ قال : ولا إبراهيمُ الذى هُو أصغرمنه» .

وروى النسائى أن النبىّ ، صلى اللهُ عليه وسلم ، قال فى سعدِ بنِ معاذ : « لقدْ تحركَ له العرشُ ، وفتحتْ له أبوابُ السماءِ ، وشهدَهُ سبعونَ ألفاً من الملائكةِ ، ولقدْ ضمهُ ضمةً ثم فرّجَ عنه » .

وروى الحافظ أبو نعيم : أن رسولَ اللهُ عليه وسلم ، شيعَ جنازةَ فاطمةَ بنتِ أسدٍ . وكان مرةً يحملُ ، ومرةً يتأخر ، ومرةً يتقدم ، ثم نزلَ قبرها ، ونزعَ قميصهُ ، وتمعكَ فى لحدِها ثم خرجَ ، فسألوهُ عنْ قميصهِ وتمعكهِ فى لحدِها . فقال : أردتُ أن لا تمسها النارُ أبداً ، إنْ شاءَ اللهُ ، وأنْ يوسع عليها قبرُها » .

وكان يزيدُ بن عبدِ اللهِ بن الشِّخِّير ، يروى عن رسولِ اللهِ ، صلى اللهُ عليه وسلم ، أنه قال : « منْ قرَأَ « قلْ هوَ اللهُ أحدٌ » فى مرضهِ الذى يموتُ فيه ، لم يضقْ عليه قبرهُ ، وأمِنَ من ضغطةِ القبرِ ، وحملتهُ الملائكةُ بأكفها حتى تجيزَهُ على الصراطِ إلى الجنةِ » .

وفى رواية : «من قرأ : « قلْ هوَ اللهُ أحد » مائةَ مرةٍ فى مرضهِ » إلخ .

وروى البخارى عن أنسٍ ، مرفوعاً : « إن العبدَ إذا وضعَ فى قبره ، وتولى عنهُ أصحابه ، وإنه ليسمعُ قرْعَ نعالهم ، أتاه ملكانِ فيقعدانهِ ، فيقولان له : ما كنتَ تقولُ فى هذا الرجلِ محمدٍ ، صلى اللهُ عليه وسلم ؟

فأما المؤمنُ فيقولَ : أشهدُ أنهُ عبدُ اللهِ ورَسوله . فيقالُ له : انظرْ إلى مقعدِكَ من النارَ ، قد أبدلكَ اللهُ به مقعداً فى الجنةِ فيراهُما جميعاً . وأما المنافقُ أو الكافرُ ، فيقالُ له : ما كنتَ تقولُ فى هذا الرجلِ ؟ فيقولُ : لا أدرى ، كنتُ أقولُ مثلَ مايقولُ الناسُ . فيقالُ له : لادَرَيتَ

«ولا تليتَ ، ويضربُ بمطراقٍ من حديدٍ فيصيحُ صيحةً يسمعها من يليه إلا الثقلين» .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : سألت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ما أولُ ما يلقى الميتُ إذا دخلَ قبره ؟ فقال : «يا ابن مسعود ما سألني عن ذلك أحدٌ قبلكَ . أول ما يناديه ملكٌ اسمه رُومان يجوس خلالَ المقابر فيقول : يا عبد الله أكتبْ عملك . فيقول : ليس معى دواةٌ ولا قرطاس . فيقولُ : هيهات ! كفنُك قرطاسُك ، ومدادُك ريقك وقلمك إصبعك . فيقطعُ له قطعة من كفنهِ ، ثم يجعلُ العبدُ يكتبُ . وإن كان غير كاتب فى دارِ الدنيا ، فيذكرُ حينئذ حسناتهِ وسيئاتهِ كيوم واحد ، ثم يطوى الملكُ القطعةَ ويعلقها فى عنقهِ» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وكل إنسانٍ ألزمناهُ طائرَهُ (أى عمله) فى عُنقِهِ» . الآية . ذكره الغزالى .

وكان سفيان الثورى ، رضى الله عنه يقول : إذا سئل الميت : من ربك ؟ تزيا له الشيطان فى صورته مشيرا إلى نفسه : إنى أنا ربك .

ولهذا المعنى كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يدعو للميت ، إذا أخذوا فى تسوية اللحد عليه ، بقوله :

«اللهُمّ أجِرْهُ من الشيطانِ ، ومن عذابِ القبرِ ، وثبتْ عندَ المسألةِ منطقه ، وافتحْ أبوابَ السماء لرُوحِه» .

قال الحافظ أبو نعيم : ويكون الدعاء للميت بعد الدفن بالتثبيت ، والإنسان مستقبل وجه الميت ، ويقول الداعى : اللهمّ هـذا عبدُك وأنتَ أعلمُ به منا ولا نعلمُ به إلا خيراً ، وقد أجلستَه لتسألَه ، فنسألك اللهم أن تثبّته بالقول الثابت فى الآخرةِ ، كما ثبته فى الدنيا . اللهمّ ارحمه وألحِقْه بنبيه محمدٍ ، صلى الله عليه وسلم ، ولا تُضلنا بعدَه ، ولا تحرِمْنا أجرَه .

ولهذا المعنى أيضا استحب العلماء تلقين الميت بعد الدفن .

ويشهد له مافى الحديث ، من قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا ماتَ أحدكم وَسَوَّيتُم عليه الترابَ ، فَليقم أحدُكم على رأسِ قبره ثم يقول : يا فلانُ يا ابنَ فلانة ، فإنه يسمع ولا يجيبُ ، ثم لِيَقل : يا فلانُ يا ابنَ فلانة . فإنه يسمع ولا يجيبُ ، ثم لِيَقل : يا فلان يا ابنَ فلانة ، الثالثة : فإنه يقول : نَعَمْ أرشِدْنا رحِمَكَ الله ، ولكنكم لا تسمعون ، فيقول : اذكر ما خَرَجتَ عليهِ من الدنيا : وهيَ شهادة أن لا إلهَ إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأنكَ رضيتَ بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآنِ إماماً . وَأن الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها ، وأن اللهَ يَبعثُ مَنْ فى القبور ، فإن منْكرًا ونَكيراً يأخذ كلٌّ واحدٍ منهما بِيَد صاحبه ويقول : انطلقْ بنا ، مايُقعِدنا عندَ هذا ؟ وقد لُقِّنَ حجتَه ، ويكون الله تعالى حجيجهما دونَه . فقال رجلٌ : يا رسول اللهِ فإن لم يعرِف أمه ، قال : ينسبه إلى أمهِ حَوّاء »

ولكن وردت أحاديث بعدم سؤال أشخاص ، أشار إليهم سيدنا الوالد ، حفظه الله وأدام النفع به . بقوله :

مرابطٌ كذا شهيد مبطونْ   طفلٌ صدّيق كلهم لا يُسألون
كذلك من يقرأ كلَّ ليلة   تباركَ الملكِ ، وميتُ الجمعة
وزيد من مات غريباً وكذا   من مات مطعونا ، فحقق وخذا
ومن قرأ «الإخلاص» فى مرضه   كذاك من مات مريضاً فمه
ومن يصلِّ ليلة الجمعة   صلاة يقرأ فيها بالزلزلةِ

عـدديهِ وكذا من يدفنُ بالحرم الشريف ليس يفتنُ
ومن قـرأ البسملة متصلة بأم القرآن رواه النقلة

فائدة :

كان الشيخ السنوسى ، رضى الله عنه ، كثيرا ما يكتب لأصحابه ما هذا نصه :

ومما يستحسن فى جواب الملكين الكريمين فىالقبر: نسأله سبحانه الثبات بالقول الثابت فى الدنيا والآخرة : أن يقول فى جوابهما : الله ربنا وحده لا شريك له ، وسيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، نبينا ورسولنا ، بعثه الله ، سبحانه ، بالآيات البينات ، والبراهين الواضحات ، إلى الثقلين كافة ، فأظهره الله تعالى بفضله على الدين كله ، ولو كره المشركون، رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا ، وبسيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، نبيا ورسولا ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على هذه الشهادة حييت، وعليها مت، وعليها أبعث ، بفضل مولانا ، جل وعلا ، بغير حول منى ، ولا قوة ، ولا استحقاق ، والحمد لله رب العالمين ، والشكر لله رب العالمين .

فليكرر العبد حفظ هذه الكلمات ، حتى تجرى منه مجرى الدم واللحم ، لعل الله يطلق اللسان بها فى جواب الملكين فى القبر ، والله سبحانه المستعان ، وبه التوفيق ، وعليه التكلان . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله عدد ما خلق الله وعدد ما هو خالق .

بشارة عن عطاء الخرسانى ، رضى الله عنه، أنه كان يقول: أرحم مايكون الرب، جل وعلا، بعبده إذا دخل فى قبره ، وتفرق عنه أهله ، وجيرانه ومعارفه.

ويشهد له ما رواه الديلمى عن أنس ، مرفوعا : « إنّ أرحمَ ما يكونُ اللهُ بالعبدِ إذا وضع فى حفرته » .

وكان لأبى أمامة الباهلى جار بالشام ، وله ابن أخ مسرف على نفسه ، فحضرته الوفاة ، فصار عمه يقول له : « ياولدى أما نهيتك عن كذا وكذا فلم تسمع نصحى ؟ فقال له : ياعم لو أن الله دفعنى إلى والدتى كيف كانت صانعة بى ؟ فقال : تدخل الجنة . فقال : الله تعالى ، أرحم بى من أمى » : فلما قبض ودفن نزل عمه فى قبره ، ثم صاح وفزع ؛ فقيل له : مالك صحت وفزعت ؟ فقال : رأيت القبر قد انفسح وامتلأ نورا .

فهذا كله من فتن القبر وأهواله ، وشدائده وعظيم أحواله ، أعاذنا الله من جميعها ، بجاه سيد الأمة وشفيعها ، وهو المشار إليه بقول الناظم : « وفتنة القبر وهوله » :

والهول : الفزع .

والشديد : القوى ، اسم فاعل شد يشد من « باب ضرب» شدة ، قوى .

وموقف : موضع الوقوف .

والحشر : الجمع مع سَوْق .

والمديد : الممتد أى الطويل المنبسط .

أخرج الحاكم عن مجاهد فى قوله تعالى : «قاعاً صفصفاً» قال : مستوياً «لاترى فيها عوجاً » أى : منخفضاً ، « ولا أمتا » ، مرتفعاً .

وفى حديث جابر : « تُمَدُّ الأرضُ يومَ القيامةِ مدَّ الأديمِ ، ثم لا يكونُ لابنِ آدمَ فيها إلا موضعُ قدمَيه .

وروى ابن أبى حاتم عن سهل بن سعد فى تفسير قوله تعالى : « فإذا هُمْ بالسَّاهِرَةِ » قال : أرض بيضاء عفراء ، كالخبزة من النقاء .

وفى الصحيحين عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« يُحشرُ الناسُ يوم القيامةِ على أرض بيضاء عفراء كقرصة النَّقى ، ليسَ بها علمٌ لأحد » .

والعفراء (بالعين المهملة) أيضاً : البيضاء إلى حمرة . ولهذا شبهها بقرصة النقى ، وهو الخبز الجيد البياض الفائق ، المائل إلى حمرة ، كأن النار ميّلت بياض وجهها إلى الحمرة ومعنى ليس فيها علم لأحد ، ليس فيها علامة لأحد لتبديل هيئتها وزوال جبالها ، وجميع بنائها ، فلا يبقى فيها أثر يستدل به .

وكذلك قال تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرْضُ غيرَ الأرْضِ والسَّموات » .

قال المفسرون فى معنى هذا التبديل قولان :

أحدهما : أنه تبدل صفة الأرض والسماء لا ذاتهما ، فأما تبديل الأرض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها ، وهو أن تدكدك جبالها ، وتسوى وهادها وأوديتها ، وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها ، لا يبقى على وجهها شىء إلا ذهب ، وتمد مد الأديم .

وأما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها ، وتطمس شمسها وقمرها ويكوران ، وكونها تارة كالدِّهان وتارة كالمُهل . وبهذا القول قال جماعة من العلماء .

ثانيهما : أنه تبدل ذواتها . ثم اختلفوا فى معنى هذا التبديل :

فقال ابن مسعود : وتبدلُ الأرضُ بأرضٍ كالفضة بيضاء نقية ، لم يسفك بها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة .

وقال على بن أبى طالب : تبدل الأرضُ من فضة ، والسماء من ذهب .

وقال أبى بن كعب : تصيرُ الأرضُ نيراناً ، والسماء جناناً .

وقال أبو هريرة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظى : تبدلُ الأرضُ خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « تـكونُ الأرضُ يوم القيامة خبزة واحدةً يتـكفؤها الجبّار بيده ، كما يتـكفـأُ أحدكم خُبزَتَه فى السّفر ، نُزُلا لأهل الجنةِ » .

قال النووى فى شرح هذا الحديث : أما النُزُلُ فبضم النون والزاى ، ويجوز إسكان الزاى : وهو ما يعـد للضيف عند نزوله ، وأما الخُبزة فبضم الخاء .

وقال أهل اللغة : هى الظلمة التى توضع فى الملة فيتـكافؤها بالهمز بيده أى يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتسوى ، لأنها ليست منبسطة كالرقاقة :

ومعنى الحديث : أن الله سبحانه وتعالى يجعل الأرض كالظّلمة : أى الرغيف العظيم وتـكون طعاماً نزلا لأهل الجنة ، والله على كل شىء قدير .

وروى مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها : أنها سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراة غُرلا ، قلت : يا رسولَ الله ؛ الرِّجال والنساء ينظرُ بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة : الأمرُ أشدُّ من أن ينظُر بعضهم إلى بعض ، لِـكلِّ امرئ منهم يَومئذِ شأنٌ يُغنيه » .

وفى حديث ابن عمر :

« يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ كما ولدتهُم أُمهاتُهم حُفاة عُراة غُرلا ، قالت عائشة : ينظرُ بعضهم إلى بعض؟ قال : « شُغل الناسُ يومئذ عن النظرِ ، وسَموا بأبصارِهمْ إلى السماءِ ، موقوفون أربعين سنة لا يأكلون ولا يشربون » .

وروى الطبرانى من حديث أم سلمة :

« يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ عُراة حُفاة. فقلت : يا رسول الله. واسوأتاه ،

ينظرُ بعضنا إلى بعض؟ فقال: شُغل الناسُ. فقلت: ما شغلهم؟ قال: نشرُ الصحائف فيها مثاقيلُ الذرِّ، ومثاقيلُ الخردل».

وفى الصحيح: «يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ أجوعَ ما كانوا قط، وأعْرى ما كانوا قط، وأنصبَ ما كانوا قط. فمن أطعم لله أطعمهُ اللهُ، ومن سقى لله سَقاهَ اللهُ، ومن كسا لله كساهُ اللهُ، ومن عَمِلَ لله كفاهُ».

وفى حديث مسلم، رفعه: «يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ ثلاثة أصنافٍ: صنفٌ مُشاة، وصنفٌ رُكباناً، وصنفٌ على وجوههم».

وفى حديث أبى ذر: «الناسُ يُحشرون على ثلاثة أفواج: فوجٌ طاعِمِين كاسِين راكبين، وفوج يَمشونَ، وفوجٌ تسحبُهُم الملائكةُ على وُجوههم وتحشُرهم، الناس من ورائهم».

وفى حديث معاذ بن جبل، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن قوله تعالى. «يَومَ يُنْفَخُ فى الصُّورِ فتأتُونَ أفْواجاً». فأرسل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عينيه بالبكاء، ثم قال: يا مُعاذ ـ لقد سألت عن أمر عظيم، تُحشَرُ عشرة أصناف من أمتى أشتاتا، وقد ميزهم الله من جماعة المسلمينَ وبدَّل صُورهم:

فمنهمْ من هُو على صورة القِردةِ.

ومنهم: من هو على صورة الخنازير.

ومنهم: مُنكَّسون؛ أرْجلهم أعلاهمْ، يُسحبون على وجوههم.

ومنهم: من يُحشر أعمى يُقاد.

ومنهم: من يُحشر أصمَّ أبكم لا يعقل.

ومنهم: من يُحشر يمضغُ لسانَه وهو مدلى على صدْرِه، يَسيل القيحُ من فِيه، يقذره أهل الجمعِ.

ومنهمْ: من يُحشر مقطع اليدين والرِّجلين.

ومنهم: مَن يُحشر مصلوباً، على جذوعِ نخلٍ منَ النار.

ومنهم : من يحشر أشد نتناً من الجيف .

ومنهم : من يُحشر وهو لابس جلاليب من قطران .

فأما الذين على صورة القردة فهم النمامون .

وأما الذين هم على صورة الخنازير فأكلة السُّحت والحرام .

وأما المنكسون رؤوسهم ووجوههم فأكلة الربا .

وأما العُمى فهم الذين يجورون فى الحكم .

وأما الصم البكم فهم الذين يُعجبون بأعمالهم .

وأما الذين يمضغون ألسنتهم ، وهى مدلاة على صدورهم ، فالقصاص الذين تخالف أقوالهم أفعالهم .

وأما المقطعة أيديهم وأرجلهم ، فهم الذين يؤذون جيرانهم .

وأما المصلبون على جذوع من نار ، فالسعاة بالناس إلى السلطان الجائر .

وأما الذين هم أشد نتناً من الجيف ، فهم الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ، ويمنعون حق الله فى أموالهم .

وأما الذين يلبسون الجلابيب من القطران ، فهم أهل الكبر والفخر والخيلاء » .

وفى حديث مسلم ، رفعه :

« تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق ، حتى تكون منهم كمقدار ميل » فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً » .

وروى أبو يعلى من حديث ابن مسعود : أن الرجل يلجمه العرق يوم القيامة ، حتى يقول : يارب أرضى ولو إلى النار » .

وفى حديث عقبة بن عامر ، مرفوعاً :

« تدنُو الشمسُ من الأرض يومَ القيامَة فيعرق الناس ، فمنَ الناسِ من يبْلغُ عرقه عَقِبَه ، ومنهم من يبلغُ نصفَ سَاقه ، ومنهم من يبلغُ ركبته ، ومنهم من يبلغْ فخذَه ، ومنهم منْ يَبلغُ فاهُ ، وأشار بيده فألجمها فاهُ ، ومنهم من يغطيهِ العرقُ وضربَ بيدِه علىَ رأسهِ هكذا . »

وعن كعب الأحبار وقتادة فى تفسير قوله تعالى : « يَوْمَ يقوم الناسُ لربِّ العالمين » قالا : يَقومونَ مِقدارَ ثلاثمائةِ عامٍ .

وعن حذيفة قال : يقومُ الناس على أقدَامهمْ يومَ القيامة مقدارَ ثلاثمائة سنة .

وروى ابن مردويه من حديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لبشير الغفارى : « كيفَ أنتَ صانعٌ فى : « يوْمَ يقومُ الناسُ لرب العالمين » مقدار ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا ، لا يأتيهمْ خبر من السماء ، ولا يؤمَرُ فيهم بأمر ؟ فقال بشير : المستَعَانُ باللهِ ، يا رسول الله » .

وفى حديث عبد الله بن عمر : تَلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، هذه « يَوْمَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمينَ » ثم قال : كيف بِكم إذا جمعكمْ الله كما تجمعُ النبْلُ فى الكنانَةِ خمسينَ ألفَ سنة لا ينظر إليكم ؟ » .

وقال الحسن البصرى ، رضى الله عنه : ماظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة . لا يأكلون أكلة ، ولم يشربوا فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً ، واحترقت أجوافهم جوعاً . انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية ، قد آن حرها . واشتد نفحها ، فلما بلغ الجهد منهم ما لا طاقة لهم به ، طلب بعضهم بعضاً ، فى طلب من يكرم على مولاه ، يشفع فيهم ، فلم يتعلقوا بنبى إلا دفعهم ، وقال : دعونى نفسى نفسى ، شغلنى أمرى عن أمر غيرى ، فاعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى ، وقال : قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، حتى

يشفع نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، لمن يؤذنُ له فيهم ، « لا يملكون الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن وَرَضِيَ له قولا » .

وها هنا تنبيه وبشارة ماتقدم ، من قوله عليه السلام : « يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراة » ، محمول على من لم يكسُ أحداً فى دار الدنيا ، بدليل الحديث الصحيح المار أيضاً وهو قوله عليه السلام : « يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ أجوَعَ ما كانوا قط ، وأعرَى ما كانوا قط » إلى أن قال : « ومَن كَسَا لله كساه الله » .

وذكر الإمام الغزالى فى كتاب « كشف علوم الآخرة » أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « بالِغوا فى أكفانِ مَوْتاكم فإن أمّتى تحشرُ بأكفانها ، وسائرُ الأمم ، حُفاة عراة » .

وروى البَغَوى عن أبى سعيد الخُدرى قال : قيل لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم فى يوم كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة : ما أطولَ هذا اليوم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« والذى نَفْسِى بيدِه ، إنه ليُخَفَّفُ على المؤمِنِ حتى يكونَ عليه أخف مِن صلاة مكتوبةٍ يصلّيها فى الدنيا » .

وفى حديث أبى هريرة : « يَهونُ ذلك على المؤمن كتولِّى الشمسِ للغروب إلى أن تغرُب » .

وفى لفظ آخر : « إن اللهَ ليخفِّفُ ، على مَنْ يشاء مِن عبادِه ، طولَ اليومِ كوقتِ صلاة مفروضة » .

وعن قتادة : « يُخففُ اللهُ ذلك اليوم ، ويقصِّره على المؤمن كمقدار نصفِ يوم ، أو كصلاة مكتوبة » .

وعن ابن عباس : « يومُ القيامةِ يَكونُ على الكافر مِقدارَ خمسين ألفَ سنة » .

وقال الكلبي في معنى قوله تعالى : « في يَوْمٍ كان مِقْدارُه خمسين ألفَ سَنَة » . يقول الله تعالى : لو وَلِّيتُ حِسابَ ذلك اليومِ الملائكةَ والجن والإنسَ ، وطَوَّقتُهم مُحاسبتَهم لمْ يَفرُغوا منه في خمسين ألفَ سنة » وأنا أفرغ منه في ساعةٍ مِن نَهار » .

ونحوه ورد عن ابن عباس فإنه قال : معناه لو ولى محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة .

وقول الناظم : « وكل هول » . . الخ هو تعميم بعد تخصيص .

ويذوب : مضارع ذاب ضد جمد ، يقال : ذاب الشيء يذوب ذوباً وذوباناً سال، فهو ذائب ويتعدى بالهمزة والتضعيف فيقال : أذبته وذوبته .

والصفا (بالقصر) جمع صفاة : وهى الصخرة الملساء وتجمع أيضاً على أصفاء وصفى .

والصم : الصلب الصامتة جمع أصم ، يقال : حجر أصم أى صلب مصمت .

وكيف : المراد بها الاستفهام عن حال الشيء أى إذا كان يذوب لذلك الهول الشديد الصفا الصم ، فكيف حال القلوب اللحمانية اللينة التى لا صلابة فيها ؟ فذوبانها لذلك مما لا يتوقف فيه .

والقلوب : الأفئدة جمع قلب وهو الفؤاد .

وأهوال القيامة كثيرة ، وعقباته شديدة خطيرة .

وقد ذكر ابن الجوزى ، رحمه الله : أن جبريل عليه السلام خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم من يوم القيامة حتى أبكاه ، فقال : « يا جبريل . ألم يغفر الله لى ما تقدم من ذنبي وما تأخر ؟ » فقال : يا محمد . لتشهدن من هول ذلك اليوم ما ينسيك المغفرة .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر ، مرفوعاً : « إنّ الطيرَ لتضربُ بمناقيرها على الأرض وتحرك أذنابها من هَوْل يوم القيامة » .

ولما طُعن سيدنا عمر ، رضى الله عنه ، قال له رجل : إنى لأرجو أن لا تمس جلدك النار يا أمير المؤمنين ، فنظر إليه عمر ، وقال :

إن من غررتموه لمغرور ، والله لو أن لى ما على الأرض جميعاً ، لافتديت به من هول المطلع .

وكان أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، يقول : ألا أُحدِّثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق بمثلهن . أول يوم يجيئك البشير من الله تعالى ، إما برضاه أو بسخطه ؛ ويوم تقف فيه على ربك ؛ فيقال : خذ كتابك إما بيمينك ، وإما بشمالك ؛ وليلة يدخل فيها الميت القبر ؛ وليلة صبحها يوم القيامة .

وكان أبو الدرداء ، رضى الله عنه ، يقول : أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث : أضحكنى مؤمل دنيا والموت يطلبه ؛ وغافل ليس بمغفول عنه ؛ وضاحك ملء فيه لا يدرى هل الله راض عنه أم ساخط ! وأبكانى فراق الأحبة ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وحزبه ؛ وهول المطلع عند غمرات الموت ؛ والوقوف بين يدى الله تعالى يوم تبدو السريرة علانيـة ؛ ثم لا يدرى العبد هل يؤمر به إلى الجنة أو النار .

روى الإمام أحمد والطبرانى عن أنس ، مرفوعاً : « لمْ يَلقَ ابنُ آدم شيئاً منذُ خَلَقه الله أشدّ عليهِ مِن الموتِ ، ثم إن الموتَ أهْوَنُ عليه مما بعده ، وإنهم ليلقَوْنَ مِنْ هَوْل ذلك اليوم الشديد ، شِدة عظيمةً ، حتى يُلْجمهم العَرَقُ ، حتى إن السُّفنَ لو أُجرِيَتْ فيه لَجرَتْ » .

وكان الإمامُ أبو حازم ، رضى الله عنه يقول : لوْ نادَى مُنادٍ من السماء ، ألا إنّ فلانَ بنَ فلان أَمِنَ مِنْ أهوال يوم القيامة ؛ لـكان الواجبُ عليه الخوف من دخولِ النار .

وقد وردَ في الأحاديث أمور تنجي العبدمن أهوال ذلك اليوم وشدائده .

فقد روَى أبو هُدْبَةَ عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

« مَنْ أشبَعَ جائعاً أو كَسَى عُرْياناً ، أو آوَى مسافراً ؛ أعاذه الله مِن أهوالِ يَوْمِ القيامة » .

وروى الإمام مسلم عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه ، قال : سمعتُ رسولَ الله ، صلى الله عليه وسلم يقول :

« منْ سَرَّهُ أنْ يُنجيَه الله مِن كُرَب يوم القيامة ، فَلينفِّسْ عن مُعْسِر أو يَضَعْ عنه » .

ورواه الطبراني بإسناد صحيح بلفظ :

« مَنْ سَرَّه أنْ يُنجيَه الله مِنْ كُرَب يوم القيامة ، وأن يظله تحت عرشه فلْيُنظِر مُعسراً » .

وفي الصحيح أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال .

« مَن نَفَّسَ عن مؤمن كرْبَة مِنْ كُرَبِ الدنيا نفَّسَ الله عنه كربة مِن كربِ يوم القيامة ؛ واللهُ في عَوْنِ العبْدِ ما دام العبدُ في عَون أخيه » .

وروى الطبراني ، مرفوعاً . « مَنْ لَقَمَ أخاهُ لقْمَةَ حُلْواءَ ، صرَف الله عنه مرارةَ الموقفِ في يومِ القيامة » .

وروى الأصبهاني عن أنس بن مالك ؛ أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إنّ أنجاكم يومَ القيامةِ من أهوالِها ومواطِنِها أكثرُكم عليَّ صلاةً في دار الدنيا » .

وقول الناظم : « وكيف ينسى » .. الخ : « كيف » فيه وفي الذي بعده تعجبيه .

وينسى : أى لا يذكر ، من النسيان ، وهو ضد الذكر .

وسكرات الموت : شدائدها ، جمع سكرة ، وهى الشدة .

والحسرات جمع حسرة : وهى شدة التلهف على الشىء الفائت .

وفى الحديث : عن أبى هريرة أن رسول الله ؛ صلى الله عليه وسلم ، قال :

« مَا مِنْ أحدٍ يَموتُ إلا نَدِمَ . قالوا : وما ندامتُه يا رسولَ الله ؟ قال : إن كان محسناً نَدِمَ أن لا يَكون ازْدادَ ؛ وإن كان مسيئاً ندِم أن لا يَكون نَزَعَ » .

وسكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ولا يعرف شدتها وألمها إلا من عاينها ؛ فما أعظم ذلك الألم وما أشده ! وما أكبر ذلك الهول وما أمده ؛ فإنه يُجذب منه كل عرق على حياله ، ويموت كل عضو من أعضائه بانفراده ، حتى إذا بلغت الروح الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره من الدنيا ، ويغلق دونه باب التوبة ، وتحيط به الحسرة والندامة .

روى ابن ماجة ، عن أبى موسى الأشعرى ، قال :

« سألتُ رسولَ الله ، صلى الله عليه وسلم : « متى تنقطِعُ معرفةُ العبدِ من الناس ؟ قال : إذا عاينَ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن اللهَ يَقبلُ توبة العبدِ ما لم يُغرْغِرْ » .

وعن مجاهد فى قوله تعالى : « وليستِ التوبةُ لِلذين يَعملون السيئاتِ حتى إذا حضر أحدَهُم الموتُ قال : إنِّى تُبْتُ الآنَ » . قال : إذا عاين الرسلَ فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت ، فلا تسألْ عن طعم مرارة الموت وكربه ، عند ترادف سكراته !

ولذلك كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم هَوِّنْ على محمد سَكراتِ الموتِ » .

والناس إنما يستعيذون منه ، ولا يستعظمونه لجهلهم به ، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية .

ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت ، حتى قال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين ادعوا الله تعالى ، أن يهون على هـذه السـكرة « يعنى الموت » فقـد خفت الموت مخافة ، أوقفنى خوفى من الموت على الموت .

وروى أن نفراً من بنى إسرائيل مروا بمقبرة ، فقال بعضهم لبعض : لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لـكم من هـذه المقبرة ميتاً ، تسألونه فيخبركم عن أحوال البرزخ ؛ فدعوا الله فإذا هم برجل قد قام ، وبين عينيه أثر السجود ، وقد خرج من قبر من القبور ، فقال : يا قوم ـ ما أردتم منى ؟ لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ، ما سكنت مرارة الموت من قلبى .

وروى أن رجلين من بنى إسرائيل عبدا ، حتى سئما من العبادة ، فقالا : لو خرجنا إلى القبور فجاورناها ، لعلنا أن نراجع،فجاورا القبور فعبدا اللهفنشرَ لهما ميتاً . فقال لهما : لقد مِتُّ منذ ثمانين سنة ، وإنى لأجد ألم الموت بعد .

وقالت عائشة ، رضى الله عنها : لا أغبِط أحداً يهونُ عليه الموتُ بعـد الذى رأيتُ من شدَّةِ موتِ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وروى عنه ، صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يقول :

« اللهمَّ إنكَ تأخذُ الروحَ من بينِ العصبِ والقصبِ والأناملِ ، اللهم فأعنى على الموتِ وهوِّنهُ عَلَىَّ » .

وعن الحسن ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ذكر الموت وعظمه وألمه ، فقال : « هوَ قدرُ ثلاثمائةِ ضربةٍ بالسيفِ » .

وسئل ، صلى الله عليه وسلم ، عن الموت وشدته ، فقال :

« إن أهوَنَ الموْتِ بِمنزلةِ حَسَكةٍ ، كانتْ فى صُوفٍ . فهلْ تخرُجُ الحسكةُ من الصوفِ إلا ومعها صوفٌ » ؟

ودخل ، صلى الله عليه وسلم على مريض ، فقال : « إنّى أعلم ما يَلْقَى ، ما منه عِرْقٌ إلا ويألم الموت على حِدَتِه » .

وكان على ، رضى الله عنه ، يحض على القتال ويقول : إن لم تقتلوا تموتوا ، والذى نفسى بيده ، لألف ضربة بالسيف أمرُّ من موت على فراش .

وقال الأوزاعى : بلغنا أن الميتَ يجد ألم الموت ، ما لم يبعث من قبره .

وفى « الحلية » ، عن كعب قال : لا يذهب عن الميت ألمُ الموت ، مادام فى قبره ، وإنه لأشد ما يمر على المؤمن ، وأهون ما يصيب الكافر .

وقال شداد بن أوس ، رضى الله عنه : الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن ، وهو أشد من نشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، وغلى فى القدر؛ ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم .

وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقى على المؤمن من درجاته شىء ، لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ، ليبلغ بشدة الموت وكربه درجته فى الجنة ، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به ، هون عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار .

وعن بعضهم : أنه كان يسأل كثيرا من المرضى ؛ كيف تجدون الموت ؟ فلما مرض ، قيل له : فأنت كيف تجده ؟ فقال : كأن السماوات مطبقة على الأرض ، وكأن نفسى تخرج من ثقب إبرة .

ولما حضرت عمرو بن العاص الوفاة ، قال له ابنه : يا أبتاه ، إنك كنت

تقول : يا ليتني كنت ألقى رجلا عاقلا لبيباً عند نزول الموت ، حتى يصف لى ما يجد ! وأنت يا أبت ذلك الرجل فصف لى الموت ! فقال : والله يابنى كأن جسمى فى جب من نار ، وكأنى أتنفس من خرم إبرة ، وكأن روحى غصن شوك يجذب من قدَمَىَّ إلى دماغى .

ثم أنشأ يقول :

ليتنى كنتُ قبلَ ما قدْ بَدَا لِى   فى قِلالِ الجبالِ أرْعَى الوُعُولا

وروى عن مكحول، رضى الله عنه،عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال:

«لَوْ أنَّ شعرةً من شعرِ الميت وُضعتْ على أهْـلِ السمَاواتِ والأرض لمـاتُوا بإذنِ اللهِ ، لأن فى كلِّ شعرة الموتَ ، ولايقعُ الموتُ بشىء إلا ماتَ».

وعن ابن ميسرة ، مرفوعا : «لوْ أنَّ قطرةً من ألم الموْتِ ، وُضعتْ على أهلِ السماء والأرضِ ، لمـاتوا جميعاً ولإن القيامَةَ لساعةٌ ، تضعفُ على شدةِ الموْتِ سبعينَ ضعفاً » .

وروى أن إبراهيم عليه السلام ، لما مات ، قال الله تعالى له : كيف وجدت الموتَ ياخليلُ ؟ قال : كسفُّود جُعلَ فى صُوفٍ رطب مبلول ثم جذبَ . قال : أما إنا قَدْ هوَّناه عليك .

وروى عن موسى عليه السلام : أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى ، قال له ربه : يا موسى ــ كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت نفسى كالعصفور الحى يُقلى على المِقلى ، لا يموتُ فيستريح ، ولا ينجو فيطير .

وفى رواية عنه عليه السـلام أنه قال : وجدتُ نفسى كشاةٍ حيةٍ تسلخُ بيَدِ القصابِ ، فقال : ياموسى ــ هونا عليك .

وروى عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه كان عنده قدح من الماء عند

الموت ، فجعل يدخل يده فى الماء ، ثم يمسح بها وجهه ، ويقول : « اللهم هوِّنْ على سكراتِ الموْتِ » .

وقال عمر ، رضى الله عنه ، لكعب الأحبار : يا كعبُ . حدثنا عن الموت فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، الموت كغصن كثير الشوك ، أُدخلَ فى جوف رجل ، وأخذتْ كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ ما أخذ ، وبقى ما بقى .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« إنّ العبدَ ليُعالجَ كُرَبَ الموتِ وسكراتِه ، وإن مفاصِلَهُ ليسلمُ بعضها على بعض ، تقول : فارقنى وأُفارقكَ إلى يوم القيامة » .

فهذه سكرات الموت وشدائده ، على أنبياء الله وأحبابه أشرف البريات ؛ فكيف حالنا ، ونحن المنهمكون فى المعاصى والمخالفات ؟

وتتوالى علينا مع سكرات الموت بَقيّة الدواهى ، فإن دواهى الموت ثلاث :

الأولى : شدة النزع .

الثانية : مشاهدة صور ملك الموت ، ودخول الروع والخوف منه على القلب ، فلو رأى صورتَه التى يقبض عليها العبد المذنب ، أعظم الرجال قوة ، لم يطاق رؤيته .

فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام ، أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطيق ذلك قال : بلى . قال : فأعرضْ عنى ، فأعرضَ عنه ، ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، ليخرج من فيه ومناخره لهيب النار

والدخان ، فغشي على إبراهيم ، ثم أفاق ، وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى ، فقال : ياملك الموت ، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه ! فأرني كيف تقبض أنفاس المؤمنين ؟ قال: أعرضْ ، فأعرضَ ، ثم التفت فإذا هو رجل شاب أحسن الناس وجها، وأطيبهم ريحا في ثياب بيض فقال : ياملك الموت ، لو لم ير المؤمن عند موته من قرة العين والكرامة إلا صورتك هذه لكان يكفيه .

الثالثة : مشاهدة الملكين الحافظين .

فمن وهيب قال : بلغنا أنه ما من ميت يموت ، حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله ، فإن كان مطيعاً قالا له : جزاك الله عنا خيرا ؛ فربَّ مجلس صدق أجلستنا ، وعمل صالح أحضرتنا . وإن كان فاجرا قالا له : لا جزاك الله عنا خيراً ؛ فرب مجلس سوء أجلستنا ، وعملٍ غير صالح قد أحضرتنا ، وكلام قبيح قد أسمعتنا ، فلا جزاك الله عنا خيرا ؛ فذلك شخوص بصر الميت إليهما ، ولا يرجع إلى الدنيا أبدا .

وإذا كان الإنسان بصدد نزول هذه الأهوال لا محالة ، وليس له من معالجة هذه السكرات إقالة ، فالعجب كل العجب منه . كيف ينساها ، ويذهل عن حلولها ولقياها ؟

ولذلك قال الناظم : « وكيف ينسى » .. إلخ .

وقد ذكر عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رجل ، فأحسنوا الثناء عليه فقال : « كيفَ كانَ ذكر صاحبكم الموتِ ؟ قالوا : مَا كنَّا نكاد نسمعه يذكر الموتَ . قال : فإنَّ صاحبكم ليسَ هنالكَ » .

وعن عبد الله بن عمر : أتيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عاشرَ عشرة ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله . من أكيسُ الناس ؟ فقال : « أكثرهم الموتِ ذكراً ، وأحسنهم له استعداداً ، أولئكَ الأكياس ؛ ذهبوا بشرف الدنيا وكرم الآخرةِ » .

وروى الديلمي من حديث أنس ، مرفوعاً : « أفضلُ الزهدِ في الدنيا ذكرُ الموتِ ، وأفضلُ العبادة التذكر ؛ فمنْ شغلهُ ذكر الموتِ ، وجد قبره روضةً من رياض الجنةِ » .

وعن الحسن قال : ما ألزم عبد قلبه ذكر الموت ، إلا صغرت الدنيا عنده وهان عليه جميع ما فيها .

وقال حامد اللفاف : من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة . ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل في العبادة .

وقال بعضهم : لا يدخل ذكر الموت بيتا ، إلا رضي أهله بما قسم لهم .

وتأتي لنا نبذة من هذا عند قول الناظم :

وأعنْ بذكرِ الموتِ والفكرة في ... ما بعدَه من كلِّ هولٍ يقتفي

وقول الناظم : وكيف يلهو ويلذ . . إلخ : تعجب من حال الإنسان ! وما هو عليه من اللهو والغفلة والنسيان !

ويلذ : مضارع لذ من باب تعب ، يقال : لذ الشيء يلذ لذاذا ولذاذة (بالفتح) صار شهيا .

والمطعم « بضم الميم وفتحها وفتح العين » المطعوم .

وذا : إشارة إلى كل مـا تقدم من اللهو والسلو ، مع عـلم ما هو بصدده .

والنسيان لسكرات الموت واستلذاذ المطعومات وغيرها من شهواته ومستلذه .

وقد قال صلى الله عليه وسلم: « لوْ تَعلمُ البهائمُ منَ الموتِ ما يعلم ابنُ آدمَ ما أكلتُمْ منها سَميناً » .

وروى الديلمى ، من حـديث أبى الدرداء ، مرفوعاً : لوْ تعـلمونَ ما أنتمْ لاقونَ بعدَ الموتِ ما أكلتمْ طعاماً على شهوة أبَداً ، ولا شَربتمْ شَراباً على شَهوة أبَداً » .

وكان يزيد الرقاشى ، رضى الله عنه ، يقول : أيُّها النـاسُ ألاَ تبـكونَ وَتنتحبونَ على أنفسكمْ بقيَّةَ عُمرِكمْ ؟ فمن كانَ الموتُ موْعدهُ ، والقبرُ بيته ، والثَّـرَى فِراشه ، والدودُ مؤْنِسه ، وخوف الفزع الأكبر يزْعِجهُ ! كيف يلتذُّ بمنامٍ ؟ ثم يبكى حتى يخرَّ مغشياً عليه .

وجاء فى الحديث عن سيدنا على : « الناسُ نيامٌ فاذَا مَاتوا انتبهوا . »

والعمى : ذهاب البصر عما من شأنه ذلك . والمراد هنا عمى القلب والبصيرة .

وأعْدُدَنْ : أمر بالاستعداد للموت .

والرحيل : الانتقال للآخرة.

والزاد : الأعمال الصالحة . « وتزَوَّدوا فَإن خيرَ الزادِ التقوَى . »

وإذَا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجدْ ذُخراً يَكونُ كصالحِ الأعمالِ

وافتقد : أمر من الافتقاد ، وهو تعاهد الشيء المرة بعد المرة .

والمزود ، بكسر الميم : وعاء الزاد .

والمزاد . جمع مزادة ، وهى الرواية ، وكل من المزود والمزادة ، يعدهما المسافر .

والمراد الحث على الاجتهاد فى الأعمـال النافعة فى الأخـرى التى هى الزاد

للسفر الأخروى . ويرحم الله القائل فى المعنى :

عَليكَ بما يفيدكَ فى المَعادِ وما تنجو به يوم التنادِ
فما لكَ ! ليسَ يَنفعُ فيكَ وعظٌ ولا زجرٌ كأنكَ منْ جمادِ !
ستندَم إنْ رَحلتَ بغيرِ زادِ وتشقى إذْ يناديكَ المنادِ
فلا تأملْ الذى الدنيا صلاحاً فإنَّ صلاحها عينُ الفسادِ
ولا تفرحْ بمالٍ تقتنيه فإنكَ فيه معكوسُ المرادِ
وتُب مما جنيتَ وأنتَ حى وكنْ متنبهاً قبل الرقادِ

أخرج الحكيم الترمذى فى « نوادر الأصول » ، عن ابن عمر : أن رجلا قال : « يانبىَّ اللهِ . أى المؤمنين أكيسُ ؟ قال : أكثرهمْ ذكراً للموتِ ، وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دَخلَ النورُ القلبَ انفسحَ واستوسعَ . فقالوا : ما آيةُ ذلك يانبى اللهِ ؟ قال : الإنابةُ إلى دار الخلودِ ؛ والتجافى عن دارِ الغرور ، والاستعداد للموتِ قبلَ نزول الفوتِ » .

وأخرجه أيضاً ، عن عبد الله بن مسعود ، وزاد فيه ، ثم قرأ « أفمنْ شرح اللهُ صدْرَه للإسلامِ » (الآية) .

وأخرجه ابن مردَويهِ ، عن ابن مسعود أيضا ، بلفظ : « تلا النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى . « أفمنَ شرحَ الله صدرَه » (الآية) فقلت : يارسولَ اللهِ ، كيفَ يشرحُ الله صدْره ؟ قال : إذا دَخل النورُ القلبَ انشرح وانفسحَ . فقلت : ما علامة ذلكَ يارسول الله ؟ قال : الإنابة إلى دارِ الخلودِ ، والتجافى عنْ دار الغرورِ والتأهب للموتِ قبلَ نزولِ الفوت » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن منْ علامَةِ العقلِ : التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلودِ ، والتزود لسكنى القبور ، والتأهبَ ليوم النشور » .

وخطب سيدنا على رضى الله عنه خطبة ، فقال فيها : عباد الله اتقوا الله ما استطعتم

وكونوا قوماً صِيحَ بهم فانتبهوا ، واعلموا أن الدنيا ليستْ بدارٍ . فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وترحلوا فقدْ جدَّ بكم .

وأخرج الترمذى عن شداد بن أوس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الكيسُ مَنْ دانَ نفسه ، وعَملَ لما بعد الموتِ ؛ والأحمق من أتبعَ نفسهُ هَواها ، وتمنى على اللهِ الأمانى » .

وأخرج الترمذى أيضا ، وقال : حسن صحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذَا أرادَ الله بعبدهِ خيراً استعمله ، فقيلَ : كيفَ يستعملهُ يا رسولَ الله ؟ قال : يوفقهُ لعمل صالح قبلَ الموتِ » .

وفى رواية : « إذَا أرادَ الله بعبْد خيرا غسله . قالوا : يا رسولَ الله وَمَا غسلهُ ؟ قالَ : يفتح له عملا صالحاً بينَ يدى موْتهِ حتى يرضى عنه منْ حوله » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن معَ العزِ ذُلاً ؛ وإنَ معَ الحياةِ موْتاً ، وإنَّ معَ الدنيا آخرة ، وإنَّ لِكلِّ شىء حسيباً ، وعلى كل شىء رقيباً ، وإنَّهُ لابدَّ لك يا بنَ آدَم منْ قرين يدفن معكَ ، وهو حى وتدفنُ معه وأنتَ ميّت ، فإنْ كانَ كريماً أكرَمكَ ، وإنْ كانَ لئيما أسلَمَكَ ، ثم لا يحشرُ إلا معكَ ، ولا تبعث إلا معه ، ولاَ تسألُ إلا عنه ، فلاَ تجعله إلا صالحاً ؛ فإنه إنْ كانَ صالحاً لمْ تستأنس إلا بهِ ، وإن كانَ فاحشاً لمْ تستوحشْ إلا منهُ ، ألا وهوَ عملكَ » .

وروى البيهقى ، فى «شعب الإيمان» ، عن ابن عباس ، والإمام أحمد فى «الزهد» وأبو نعيم فى «الحلية» ، والبيهقى فى «الشعب» ، عن عمرو بن ميمون : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اغتنمْ خمساً قبلَ خمس : حياتك قبلَ موتك وصحتك قبلَ سقمك ، وفراغكَ قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبلَ فقرِكَ » . وبالله التوفيق .

الحض على طلب العلم بالإخلاص :

[والزَم طِلابَ العِلمِ بالإخلاصِ لِكَيْ ترَى مناهج الخلاصِ]
[فالعلمُ نورٌ ، والجهالةُ حَلَكْ ومن سرَى فى ظلمةِ الجهلِ هلكْ]

أشار بهذين البيتين إلى حض المكلف على تعلم العلم وطلبه ، وبذل المجهود فى البحث عنه والاعتناء به ، إذ بالعلم يعبدُ ربُّ العالمين ، وبه تنال رتبة العارفين ، وبه تعرفُ طرقُ الخلاص من الردى ، وبه ينجو المرء من الهلاك والعذاب غدا ، ولذلك قال : « لكى ترَى مناهجَ الخلاصِ » .

والمعنى : الزم أيها العاقل طلب العلم ، والبحث عن تحصيله ، لترى « أى تعلم » الطرق الموصلة لك إلى الله ، والخلصة لك من الهلاك الدنيوى والأخروى ، إذ لا شك أن العلم هو المعرف لها ، والدال عليها .

وحث الناظم أيضاً ، على الإخلاص فى ذلك لله ، وأن لا يقصد به رياء وسمعة وتحصيل جاه ، إذ المدار فى الأعمال كلها عليه ، والعمل بدونه لا يلتفت إليه ، فقوله : « بالإخلاص » أى معه فباؤها المعية .

والإخلاص : عبارة عن النية الخالصة ، وتجريدها عن شوائب الرياء ونحوه ، وهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه .

وقيل : الإخلاص أن يأتى بالفعل لوجه الله تعالى مخلصاً له ، ولا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر ، حتى قالوا فى ذلك : لا يجعل طلب الجنة مقصودا ، ولا النجاة من النار مطلوباً ، وإن كان لا بد من ذلك ؛ بل يجعل العبد عبادته وعمله لمحض العبودية ، واعترافاً لربه ، عزّ وجلّ ، بالربوبية .

وقيل ، الإخلاص فى العمل قصد رضى الله به .

وفى حديث مسلسل إلى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه سُئل عن الإخلاص . فقال : « حتى أسألَ جبريلَ . فلما سألَهُ ، قال : حتى أسألَ ربَّ العزة .

فلما سألهُ ، قال له : هوَ سرٌّ من أسراري ، أودِعهُ قلبَ من أحببتُ من عِبادي ، لا يطلعُ عليه ملكٌ فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده » .

وقد نظم بعض الأقوال فيه ، عمنا العلامة المحقق ، رحمه الله بقوله :

حقيقةُ الإخلاصِ أنْ لا تطلُبا شاهداً غير اللهِ ، منه فارهَبا

وقيل : الإخلاصُ تصفيةُ العملْ من الكدوراتِ ، فجنبْ الخللْ

وقيل : إنه منْ أسرار الإلهْ يُودعه فِيمنْ أحب واصطفاهْ

وقال في «الحكم العطائية» : الأعمالُ صور قائمة ، وأرواحها وجودُ سرِّ الإخلاص فيها .

والمراد بالأعمال : الحركات الجسمانية أو القلبية .

والمراد بالصور : ما يشخص في الذهن من الكيفيات .

والمراد بالروح : ما يقع به الكمال المعتبر في الأعمال . فالأعمال كلها أشباح وأجساد ، وأرواحها ، أي ما به الاعتبار بها ، وجود الإخلاص فيها ، فكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح ؛ وإلا كانت ميتة ساقطة ، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها ؛ وإلا كانت صوراً قائمة وأشباحاً خاوية ، لاعبرة بها .

قال تعالى : « وما أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مخلِصينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء » .

وقال تعالى : « فاعبد اللهَ مخلصاً له الدينَ » .

وقال ، صلى الله عليه وسلم ، حاكياً عن الله تعالى :

« أنا أغنى الأغنياءِ عن الشِّركِ ، من أشركَ معي غيري تركته وشريكه» .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أخوفُ ما أخافُ على أمتي الشركُ الخفيُّ وهوَ الرياء » .

وقال الإمام الشعراني ،رضي الله عنه ، في «العهود المحمدية» : أُخذ علينا العهد

العام من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ونرجو من ربنا الوفاء : أن نخلص النية لله تعالى فى عملنا وعلمنا وسائر أحوالنا ، من سائر الشوائب ، حتى من شهود الإخلاص ، ومن خطور استحقاقنا ثوابا على ذلك ؛ ولئن خطر لنا طلب ثواب ، شهدناه من باب المنّة والفضل .

قال تعالى : « وما أُمِروا إلّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لهُ الدِّين » (الآية) .

وقال ، النبى ، صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيّات » (الحديث) .

وقال : « أَخْلِصْ دِينك ، يَكْفِكَ العَمَلُ القليلُ » .

وقال : «طوبَى للمُخْلِصِينَ ! أولئكَ مَصابيحُ الهُدَى تنجلى بِهم كل كُرْبة» .

وروى الطبرانى ، مرفوعاً : « إذا كان آخرُ الزّمان ، صارَتْ أُمتى ثلاث فِرق : فرقة يعبدون اللهَ خالصاً ، وفرقة يعبدون اللهَ رياء وسمعة ، وفرقة يعبدُون اللهَ ليأكلوا به أموالَ الناس » (الحديث) .

ثم قال : وجميع ماورد فى فضل العلم والعمل ، إنما هو فى حق المخلصين فيه ، فإياك يا أخى والغلط فإن الناقد بصير . . الخ .

وقال سهل بن عبد الله التسترى ، رضى الله عنه : الناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم .

وقال حافظ المذهب ابن رشد ، رحمه الله تعالى فى « مقدماته» : ويجب على طالب العلم أن يخلص النية لله فى طلبه ، فإنه لا ينفع عمل لا نية لفاعله ؛ لحديث : « إنما الأعمالُ بالنياتِ » . . الخ .

ثم قال : ويجب عليه أيضاً أن لا يريد بتعلمه الرياء والسمعة ، ولا غرضاً من أغراض الدنيا ؛ فإن الله تبارك وتعالى ، يقول : « مَنْ كانَ يريدَ الحياة الدُّنْيا وزِينَتَها » (الآية) .

ثم قال : وروى أن رهطاً مرُّوا على أبى ذر ، رضى الله عنه ، فسألوه فحدثهم ، ثم قال لهم : تعلمون أن هذه الأحاديث التى يبتغى بها وجه الله تعالى ، لن يتعلمها أحد يريد بها عرض الدنيا ، إلا لم يجد عرْفَ الجنة ، أى ريحها .

ثم ذكر حديث الثلاثة الذين تسعر بهم النار أولا ، بطوله .

ثم قال :وروى عن مجاهد فى قوله تعالى : « والذين يمكرونَ السيئاتِ لهم عذابٌ شديدٌ . ومكرُ أولئكَ هو يبورُ » . إنه الرياء .

ثم قال : ويجب على من تعلم العلم أن يعمل به ، فإنه إن لم يعمل به كان حجة عليه يوم القيامة ، وحسرة وندامة .

وقال العارف بالله ، أبو عبد الله ، سيدى محمد بن عباد ، رضى الله عنه : والغالب على طلبة العلم فى هذه الأعصار هذا الوصف المذموم ، لأن حب الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم، والحرص على التقدم والترأس قد ملكهم فأصمهم وأعماهم ، ولذلك أمارات وعلامات لا تخطىء ولا تخفى ، وأطال فى ذلك ، فانظره .

وأنشد فى ذلك :

إنى رأيتُ الناسَ فى عصرنا لا يطلبون العلم للعلم
لكن مباهاةً وفخراً به وعدةً للظلم والغشم

ثم الإخلاص على ثلاث درجات : درجة العوام، والخصوص، وخصوص الخصوص :

فإخلاص العموم : هو إخراج الخلق من معاملة الحق ، مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية ، كحفظ البدن والمال ، وسعة الرزق ، والقصور والحور .

وإخلاص الخواص : طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية .

وإخلاص خواص الخواص : إخراج الحظوظ بالكلية ، فعبادتهم تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، محبة وشوقا إلى رؤيته .

وقال الشيخ أبو طالب، رضى الله عنه: الإخلاص عند المخلصين ، إخراج الخلق من معاملة الحق ، وأول الخلق النفس .

والإخلاص عند المحبين ، ألا يعملوا عملا لأجل النفس ، وإلا دخل عليهم مطالعة العوض ، والميل إلى حظ النفس .

والإخلاص عند الموحدين : خروج الخلق من النظر إليهم فى الأفعال ، وعدم السكون والاستراحة إليهم فى الأحوال .

وقال بعض المشايخ : صحح عملك بالإخلاص؛ وصحح إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة .

ثم بين الناظم بعض فضائل العلم ومزاياه ، وبعض مذام الجهل ورزاياه ، بقوله : « فالعلم نور » يهتدى به فى الظلمات ، وضوء يستضاء بمناره فى غياهب الجهالات ؛ «والجهالة حلك» أى سوادٌ وظلمةٌ ، يسلك بها فى مهاوى المهلكات .

ومعلوم أن من سرى ، أى مشى ليلا فى الظلمات، هلك وباد ، ومن مشى فى النور اهتدى واتبع سبيل الرشاد ، هل يستوى من يمشى فى النور ، ومن يذهب فى الظلمات ؟ هيهات ! هيهات ! هيهات !

وفى حديث معاذ بن جبل ، رضى الله عنه : أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال :

« تعلموا العلمَ فإن تعلمه لله خشيةٌ ، وطلبَه عبادة ، ومذاكرته تسبيحٌ ، والبحث عنه جهادٌ ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقةٌ ، وبذلهُ لأهلهِ قربةٌ ؛ لأنه معالمُ الحلالِ والحرام ، ومنارُ سبلِ أهلِ الجنةِ ؛ وهو الأنيسُ فى الوحشة ، والصاحبُ فى الغربةِ ، والمحدثُ فى الخلوةِ ، والدليلُ على السراء والضراء ، والسلاحُ على الأعداءِ ، والزينُ عند الإخلاءِ ؛ يرفعُ اللهُ به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تقصّ آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغبُ الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس

وحيتانُ البحر وهوامه ، وسباعُ البَرِّ وأنعامه ، لأن العلم حياةُ القلوبِ من الجهل ومصابيحُ الأبصارِ من الظُلَمِ ؛ يبلغُ العبدُ بالعلم منازِلَ الأخيارِ والدرجاتِ العليا فى الدنيا والآخرةِ ، التفكرُ فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدلُ القيامَ ، به توصلُ الأرحامُ ، وبه يعرفُ الحلالُ من الحرام ؛ وهو إمامُ العملِ ، والعملُ تابعُه ، يلهمُه السعداء ويحرَمُه الأشقياء » . رواه ابن عبدالبر فى « كتاب العلم » .

وعن أبى موسى الأشعرى ،رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « مثلُ ما بعثنى اللهُ به من الهدَى والعلم ، كمثلِ غيث أصاب أرضاً ؛ فكانت منها طائفةٌ طيبة ، قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشبَ الكثير ، وكان منها أجادِبُ أمسكت الماء ، فنفع اللهُ بها الناسَ فشربوا منها وسقوا وزرعوا ؛ وأصاب طائفةً أخرى منها ؛ إنما هى قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأً ؛ فذلك مثلُ من فقهَ فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى اللهُ به ، فعلم وعلم ؛ ومثلُ من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هُدى اللهِ الذى أرسلت به » . رواه البخارى ومسلم .

ويرحم الله القائل :

العلمُ زين وتشريف لصاحبهِ   وكل ذاكَ أتى بالنصِّ فى الكتب
العلمُ زينٌ ونور يستضاء به   شتان ما بين كسب العلم والذهبِ
العلمُ يرفع أقواماً بلا نسب   فكيف من كان ذا علم ، وذا نسب؟
العلم ينفعُ فى الدارين صاحبه   والمال لا شك أن يلقيهِ فى التعبِ
ليس اليتيمُ الذى قد مات والدُه   إن اليتيمَ يتيمُ العلم والأدبِ

وقال آخر :

العلمُ فيه حياة للقلوبِ كما   تحيى البلادُ إذا ما مسها المطرُ
والعلمُ يجلو العمى عن قلب صاحبه   كما يجلى سوادَ الظلمةِ القمرُ

وقال آخر :

مع العلم فاسلكْ حيثما سلكَ العلم ... وَعنه فكاشفْ كل منْ عنده فهمُ
ففيه جَلاء للقلوب منَ العَمَى ... وَعون على الدين الذى أمرُه حتمُ

وقال آخر :

العلمُ عِز وتشريف لصاحبه ... لاتعدلنَّ به دراً ولا ذَهبَا
والعلمُ خيرُ لباس أنتَ لابسهُ ... فاخترْ له حلتينِ الدينَ والأدَبا

وفوائد العلم ومزاياه كثيرة . وأما مذام الجهل فلا حصر لها .

قال بعضهم : واعلم أن الاشتغال بالعلم أفضل من البطالة والجهل ، على كل حال ، لكثرة مفاسد الجهل ، لأن الجاهل لايطلع على حقائق ماهو متلبس به من المساوئ ، ولا يعرف ماهو منغمس فيه من الدعاوى ، بل يرى المعاصى طاعات ، ويغلط باعتقادها طاعات وقربات ، وهذه داهية كبرى موجبة للعقاب دنيا وأخرى .

وقد أخرج أبو منصور الديلمى ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ذنبُ العالِم ذَنب واحد ، وذَنبُ الجاهلِ ذَنبانِ » . زاد فى رواية : « العالِمُ يعذبُ على ارتكابِهِ الذنبَ ، والجاهلُ يعذب على ارتكابه الذنبَ ، وتركِه التعلُّم » .

وفى حديث آخر : « وَيلٌ لِمنْ عَلمَ ولمْ يَعملْ مرَّة ؛ وَوَيل لِمنْ لم يعلمْ مرَّتين . »

وقال الإمام السنوسى رضى الله عنه فى « شرح الكبرى » ، من جملة كلام : وقليلُ العمل مع العلم أفضلُ من كثير العملِ بلا علم ، بل لاأثر للعمل الخالى عن العمل أصلا . وقد شدد رهبان النصارى ومن فى معناهم من الجهلة على أنفسهم فى الدنيا تشديدا عظيما ، ومع ذلك لاينفعهم شيئا فى الآخرة . اهـ . المراد منه .

ولذلك ورد، كما فى «الجامع الصغير»، عن جابر، مرفوعاً: «ساعةٌ من عالمٍ متّكىءٍ على فراشه، ينظر فى علمه؛ خيرٌ من عبادة العابدِ سبعين عاما».

وما ألطف قول بعضهم، فى هذا المعنى:

تعلّم العلمَ فلولاهُ ما   تَبين الحقُّ ولا الباطلُ
ما حالُ شيخٍ فاتهُ علمه   فقيل فيه: رجلٌ جاهلُ
العلم وَصف الربِّ سبحانه   وكيف لا يَطْلُبه العاقلُ؟

وقال آخر:

تعلّم فليس المرء يولَدُ عالماً   وليس أخو علمٍ كمن هو جاهلُ
فإن صغيرَ القومِ، إن كان عالماً،   كبيرٌ، إذا رُدتْ إليه المسائل
وإن كبيرَ القومِ، لا علم عندَه،   صغير، إذا التفّت عليه المحافل

ومن نظم إمامنا مالك، رضى الله عنه:

يقول: أنا الكبير فعظِّمونى   ألاَ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ من كبيرِ!
إذا كان الصغير أعمَّ نفعاً   وأجْلَدَ فى مُهمات الأمورِ
ولم يأتِ الكبير بيومِ نفعٍ   فما فضل الكبيرِ على الصغيرِ؟

وقال آخر:

العلم نورٌ جليلٌ يستضاءُ به   والجهل ضدٌّ له. ويلٌ لمن جَهلا!
أفْنِ شبابك فى تقوى الإلهِ وفى   درْسِ العلوم تنَل عزًّا مع الفُضَلا

ومن نظم الإمام الشافعى، رضى الله عنه:

تعلم يا فتى، والعود رَطْبٌ   وذهنُك طيبٌ، والفهم قابل
فإن الجهل واضع كل عال   وإن العلم رافع كل خاملْ

وحسبُك يا فتى شرفاً وعِزّاً سُكوت الحاضرين ، وأنت قائل

وقال آخر :

العلم نورٌ ، وخير الناس طالبه والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
يا طالبَ العلمِ لا تبغى به بدَلا الناس موتى ، وأهل العلمِ أحياء
الناسُ أرضٌ ، وأهل العلم فوقهم نور يضىء ، فهل فى النور ظلماء ؟

وقال آخر :

مَنْ لا لَهُ علم ، ضعيف وفقير لو مَلكَ التأييدَ والمالَ الكثيرْ

وقال آخر :

بالعلمِ يعلو الفتى والنحو والأدَب لا بالجدودِ ولا بالوجهِ والحسبِ
فواظبْ العلم ، تبلغ ما تُؤمِلهُ ففى العلومِ شفاء النفسِ والوصَب
فكم كبير ، يذِلُّ الجهل عِزتَهُ وكم صغير سَما بالعلم فى رُتب

وقال آخر :

فإنى رأيتُ الجهل يزرى بأهلهِ وذو العلم فى الأقوام يرفعهُ العلمُ
يعدُّ كبيرَ القومِ ، وهو صغيرُهم وينفذ منه فيهم القولُ والحكم
فخالطْ رُواةَ العلم ، واصحب خيارَهم فساحتهم زيْنٌ ، وحبهم غُنمُ
ولا تعدُوَنْ عيناكَ عنهم فإنهم هداة ، إذا ما غابَ نجم بدا نجمُ
فواللهِ لولا العلم ما اتضحَ الهدَى ولا لاحَ من سحبِ الأمورِ لنا رسم

وقال آخر :

يَطيبُ العيشُ أن تلقى حليما وفضلُ العلمِ يَعرفهُ الأديبُ
سِقامُ الحرصِ ليس له دواء وداء الجهل ليس له طبيبُ

وقال آخر :

واعلمْ بأن عُصبةَ الجهَّال ‏ ‏ بهائم في صورةِ الرِّجالِ

وقال آخر :

فلا تَغرنكَ الأشباحُ والصورُ ‏ ‏ فتسعةُ أعشارِ من ترىَ : بقرُ

في صُورَةِ السرو قلْ لهم مثل : ‏ ‏ له رُواء ، وما له ثمـرُ

والكلام في هذا المعنى كثير .

وقول الناظم والزم طلاب . . الخ : هو أمر من الملازمة بمعنى العكوف والمواظبة .

وطلاب (بكسر الطاء) : ما تطلبه من غيرك ، وهو مصدر في الأصل ، تقول : طالبته مطالبة وطلاباً من باب قاتل .

ومناهج : جمع منهج . والمنهج الطريق الواضحة .

والخلاص : النجاة .

والجهالة ، والجهل : ضد العلم .

والحلك : (بفتحتين) السواد .

وسرى : مشى ليلا ، يقال : سرى يسرى (بالكسر) سُرى (بالضم) وسرى (بالفتح) ، وأسرى : أي سار ليلا . وهو (بالهمز) لغة أهل الحجاز .

وقد جاء القرآن باللغتين : « سُبحان الذى أسْرى » ، « والليلِ إذَا يَسْرِ » .

وظلمة الجهل : أي الجهل الشبيه بالظلمة فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه .

فوائد :

الأولى : قد ورد في الحض على طلب العلم من الأحاديث والآثار ما هو كثير .

فمن ذلك ما رواه الترمذى ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه : أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًى بما يطلب » . وفى رواية : « ما يصنع » .

وقال الخطابى يتأول هذا الحديث على وجوه :

منها : أن يكون وضعها الأجنحة ، بمعنى التواضع والخشوع ، تعظيما لحقه وتوقيراً لعلمه .

وقيل : معناه بسط الجناح وفرشها له ، لتحمله عليها فتبلغه حيث يقصد من البقاع فى طلبه .

وقيل : معناه المعونة وتيسير السعى له فى طلب العلم .

وقال ابن أبى زيد فى « مختصره » : قال لى بعض شيوخى : يعنى تبسط أجنحتها بالدعاء للطالب ، بدلا من الأيدى . (نقله ابن هارون) .

وقيل : تكفها عن الطيران للاستماع ، كما جاء فى الحديث عنه ، صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يجتمعون فى بيت من بيوت الله ، يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . رواه أبو داود عن أبى هريرة .

وعن أنس، مرفوعاً . « اطلبوا العلم ولو بالصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم » . رواه ابن عدى والبيهقى وغيرهما .

وعن قبيصة بن المخارق قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« يا قبيصة ما جاء بك ؟ قلت : كبرت سنى ورق عظمى ، فأتيتك لتعلمنى ما ينفعنى الله به . فقال : يا قبيصة ، ما مررت بحجر ولا شجر ولا مدر إلا استغفر لك . يا قبيصة : إذا صليت الصبح فقل ثلاثاً : سبحان الله العظيم وبحمده ، تعافى من العمى ومن الجذام والفالج . يا قبيصة — قل : اللهم إنى أسألك مما عندك ، وأفض على فضلك ، وانشر على من رحمتك ، وأنزل على من بركاتك » . رواه الإمام أحمد .

وعن سيدنا علي ، مرفوعاً : « ما انتعلَ عبدٌ قط ، ولا تخفف ، ولا لبِسَ ثوباً في طلبِ العلمِ ، إلا غفرَ اللهُ لهُ ذنوبه ، حيث يخطو عتبة داره » . رواه الطبراني في الأوسط .

وعن صفوان بن عسال المرادي قال : أتيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو في المسجد متكئ على بُرد له أحمرَ ، فقلت يا رسول الله — إني جئتُ أطلبُ العلم . فقال :

« مَرحباً بطالبِ العلمِ . إنَّ طالبَ العلمِ لتحفهُ الملائكةُ بأجنحتها ، ثم يركبُ بعضهم بعضاً ، حتى يَبلغوا سماء الدنيا من محبّتهم لما يَطلبُ » .

رواه ابن حبان والحاكم وقال : صحيح ، والإمام أحمد .

وعن أبي أمامة ، مرفوعا : « أيما ناشئ نشأ في طلبِ العلمِ والعبادةِ ، حتى يكبرَ أعطاه الله تعالى يوم القيامة ثوابَ اثنين وسبعينَ صدّيقا » . رواه الطبراني .

وعن أنس ، مرفوعا : « طالب العلمِ أفضل من المجاهدِ في سبيلِ اللهِ » . رواه الديلمي .

وروى عن أنس أيضا ، مرفوعا : « طالب العلمِ ، طالب الرّحمةِ ، وطالب ركنِ الإسلامِ ، ويعطى أجره مع النبيين » يعني لأنه وارثهم وخليفتهم .

وقال عليه السلام : « لأن تغدو فتتعلمَ باباً من العلمِ ، خيرٌ من أن تصلّي مائةَ ركعة » .

وقال عليه السلام : « حضور مجالسِ علمٍ يكفّر سبعين مجلسا من مجالسِ اللهو » .

وفي الإنجيل : ويل لمن سمع بالعلم ولم يطلبه ، أطلبوا العلم وتعلموه ، فإن العلم إن لم يسعدكم ، لم يشقكم ، وإن لم يرفعكم لم يضعكم ،

وإن لم ينفعكم لم يضركم ؛ ولا تقولوا . نخاف أن نعلم ولا نعمل ، ولكن قولوا . نرجو أن نعلم فنعمل ، والعلم شفيع لصاحبه ؛ حق على الله أن لا يخزيه . إن الله تعالى يقول يوم القيامة . يامعشر العلماء ماظنكم بربكم ؟ فيقولون : ظننا أن يرحمنا ويغفر لنا ؛ فيقول . فإنى قد فعلت ، إنى استودعتكم حكمتى لا لشر أريد بكم ، بل لخير أردته بكم، ادخلوا فى صالح عبادى إلى جنتى برحمتى . (نقله الفخر الرازى) .

وعن عبد الله بن عمر ، مرفوعا : « لو كان بينكَ وبين العلم بحارٌ من نار فخضها إليه فإنَّ لكل شيء طريقاً ، وطريقُ الجنةِ العلمُ » .

وعن أنس ، مرفوعا : « منْ خرج فى طلبِ العلمِ فهوَ فى سبيلِ اللهِ حتى يرْجعَ » ، رواه الترمذى وحسنه .

وعن أبى هريرة أيضا ، مرفوعا . « إذا جاءَ الموتُ طالبَ العلمِ ، وهو على حالهِ ماتَ شهيداً » . وبعضهم يقول : « وليسَ بينهُ وبينَ الأنبياءِ إلا درجة واحدة . » رواه الأجُرّى ، وذكره أبو عمر بن عبد البر فى كتاب « فضل العلم » .

وعن أبى ذر ، رضى الله عنه . أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . قال : « يا أبا ذر لأنْ تغدُو فتتعلمَ آية منْ كتابِ اللهِ ، خير لك من أنْ تصلى مائةَ ركعةٍ . ولأنْ تغدُو فتتعلمَ باباً من العلمِ ، عملَ به أو لمْ يعمل ، خير منْ أن تصلى ألفَ ركعة » . رواه ابن ماجة .

وعن أبى أمامة . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَنْ غدَا إلى المسجدِ لا يريدُ إلا أنْ يتعلمَ علماً أو يعلمهُ ، كانَ كأجرِ حاج تاماً حجّته » . رواه الطبرانى فى الكبير .

وأسند « القرطبى » فى تذكرته ، عن أبى أيوب الأنصارى ، قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « مَسألة واحدة يَتعلمها المؤمنُ خيرٌ له من عبادَةِ سنة وخير له من عِتق رَقبة من وَلدِ إسماعيلَ . وإنّ طالبَ العلمِ ، والمـرأةَ المطيعةَ لزَوجها ، والولدَ البارّ بوالديهِ ، يدخلونَ الجنةَ بغيرِ حساب » .

وعن أبي ذر وأبي هريرة : « لَباب من العلمِ يَتعلمه الرَّجلُ ، أحبُّ إليّ من ألفِ رَكعة تَطوعاً . » رواه الـبزار والطـبراني في الأوسط ، وابن عبد البر .

وعن واثلة بن الأسقع . أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَنْ طَلبَ علماً فأدركهُ كتبَ اللهُ له كفلينِ منَ الأجـرِ ، ومنْ طلَبَ علماً فلَم يدركهُ ، كتبَ اللهُ له كِفلا من الأجرِ » . رواه الطبراني في الـكبير .

وعن معاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، أنه قال : تعلموا العلم ؛ فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكراته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمنْ لاَ يعلمهُ صدقة ، وبذله لأهله قربة . (الحديث وتقدم) .

وقال عليه السلام . « لا يزالُ الرجلُ عالمًا مَا طَلبَ العلمَ ، فإذا ظنّ أنه قد عَلمَ فقد جهلَ »

وقال مصعب بن الزبير لابنـه : تَعلمْ العـلمَ فإن يكنْ لك مـالٌ كان جمالا ، وإن لم يكن لك مال كان مالا .

وقال مصعب بن عمير لبنيه : تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقـتم ؛ وإن كنتم وسطاً سدتم ؛ وإن كـنتم سوقة عشتم .

وعن سالم بن أبي الجعد قال : اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم ، وأعتقني فقلت : بأي حرفة احترف ؟ قال : فاحترفت بالعلم ؛ فما تمت لي سنة ، حتى جاء أمير المؤمنين يزورني ، فلم آذن له .

فان قلت : لمَ لمْ يأذن له : فالجواب : أن العلماء إذا علموا عملوا ؛ وإذا

عملوا شغلوا . فإذا شغلوا فقدوا ؛ فإذا فُقدوا طلبوا ؛ فإذا طلبوا هربوا ، فإذا هربوا أمنوا .

فهذا مولى ، قد فاق بعلمه الأشراف ، بعد أن كان فى الأطراف .

وقال الزبير بن أبى بكار : كتب إلى أبى بالعراق : عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا .

وكتب أبو إسحاق البلقينى إلى ولد له ، كان يطالب العلم ، يوصيه :

إذا شئتَ أنْ تَحْظَى بوَصلى وقُرْبَتِى
فجانِبْ قَرِينَ السُّوءِ واصْرِمْ حِبالَه
وسابِقْ الى الخيراتِ ، واسلُكْ سبيلَها
وحَصِّلْ علومَ الدِّين ، واعرِف رجالَه

وقال آخر موصياً أيضاً :

إذا شئتَ أن تلقى عَدُوَّكَ راغِماً وتَقْتُلَه غماً ، وتُحرِقَهُ هَمّاً
فَسامِ العُلا ، وازْدَدْ من العِلمِ ، إنه مَنِ ازْداد علماً زادَ حاسِدهُ غَمّا

الثانية : نظم المأمون ، رحمه الله ، قصيدة فريدة ، ناصحاً طلابه مناصحة الشيخ مريده نقلها الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، رحمه الله ، فى « كتاب العلم » ، وهى :

واعْلَمْ بأن العِلم بالتعلم والحفظ والإتقانِ والتفهم
والعلمُ قد يُرْزقهُ الصغيرُ فى سِنِّه ويُحْرمُ الكبيرُ
فإنما المرءُ بِأصْغَرَيْهِ ليس بِرِجْلَيْهِ ولا يديه
لسانُه ، وقلبُه المركَّبُ فى صدره ، وذاك خَلْقٌ عَجب
والعلمُ بالفَهْمِ وبالمذاكرة والدرسِ والفكر والمُناظرة
فرُبَّ إنسانٍ يَنال الحفظا ويوردُ النصَّ وَيحْكِى اللَّفْظَا
وما لَه فى غيره نصيبُ مما حَواه العالِمُ الأديبُ

وَرُبَّ ذِى حرص شديدِ الحب — للعلمِ والذِّكر ، ذليلِ القلب
مُعَجَّزٍ فى اللفظ والرواية — ليس له عمن رَوَى حكاية
وآخرُ يُعطَى بلا اجتهادِ — حفظاً بما قد جاء فى الإسنادِ
يَهُذُّه بالقلب لا بناظرهْ — ليس بمضطر إلى قَماطِرِه
فالتمسْ العِلم وأجمِلْ فى الطلب — والعلْمُ لا يحصلُ إلا بالأدب
والأدب النّافعُ حُسْن الصمت — وفى كثير القول بعض المَقْتِ
فكن بحسْن الصمتِ ما حَييت — مقارباً تُحْمَدُ ما بقيت
وإن بدت بين أُناس مسألة — معروفةٌ فى العلم أو مفتَعَلَة
فلا تكن إلى الجوابِ سابقاً — حتى ترى غيرَك فيه ناطقا
فكم رأيتُ من عَجول سابق — من غير فَهم ، بالخطايا ناطقِ
أزرَى به ذلك فى المجالس — عند ذَوِى الألباب والتنافس
والصمتُ ، فاعلم، بكَ حقاً أزْيَنُ — إن لم يكن عندكَ علم ، متقَنُ
وقلْ ، إذا أعياك ذاك الأمرُ : — مالى بما تَسأَل عنه خُبْرُ
فذاك شطرُ العلم عند العُلَما — كذاك ما زالتْ تقولُ الحكما
إياكَ والعُجْبَ بفضل رأيكا — واحذر جواب القول من خطئكا
كم مِنْ جواب أعقب الندامة — فاغتنمِ الصمتَ مع السلامة
العِلم بحرٌ منتهاه يبعد — ليس له حدٌّ إليه يُقصد
وليس كلُّ العلم قد حويتَه — أجلْ ، ولا العُشْر ولو أحصيتَه
فما بقِى عليكَ منه أكثرُ — مما علمتَ ، والجواد يَعثُر
وكن لما سمعتَه مستفهما — إن كنتَ لا تفهم منه الكلِما
القول قولان : فقول تَعقِلُهْ — وآخر تسمَعه فتجهَلُه
وكلُّ قول فله جوابُ — يجمعه الباطل والصواب
وَلِلكلام أوّل وآخر — فافهمهما والذّهنُ منكَ حاضر

لا تَدفع القولَ ولا تردَّه   حتى يؤدِّيك إلى ما بعده
فربما أعيا ذوى الفضائل   جوابُ ما يُلقَى من المسائل
فيمسكوا بالصمت عن جوابه   عند اعتراض الشكِّ فى صوابه
ولو يكونُ القولُ فى القياس   مِن فضةٍ بيضاءَ عند الناس
إذا لكان الصمتُ من عين الذهب   فافهم، هداكَ اللهُ آدابَ الطلب

الثالثة : من قصيدة للإمام أبى إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبى ، ضمنها وصية جامعة ، ونصيحة لامعة ، لابنه أو ابن أخيه ، رحم الله الجميع ، ما نصه :

أبا بكر دعوتُكَ لو أجبتَا   إلى ما فيه حظُّكَ إنْ عَقلتَا
إلى عِلم تكونُ به إماماً   مطاعاً إن أَمرتَ وإن نَهيتَا
ويَجلو ما بعينِك من غَشَاها   ويَهديكَ السبيل إذا ضَلَلْتَا
ينالُكَ نفعُه ما دمتَ حياً   ويَبقى ذخره لكَ إن ذهبتَا
وتحمل منه فى ناديكَ تاجاً   ويَكسوكَ الجميل إذا اعتريتَا
هو العَضْبُ المهنَّدُ ليس يَنْبُو   تصيبُ به المَقاتلَ إن ضَربتَا
وكنز لا تخافُ عليه لصاً   خفيفُ الحمل، يوجد حيث كنتَا
يزيدُ بكثرةِ الإنفاقِ منه   وينقصُ إن به كفًّا شَدَدْتَا
فلو قد ذقْتَ من حَلْواه طعماً   لآثرتَ التعلم واجتهدْتَا
ولمْ يَشغلْكَ عنه هَوًى مطاع   ولا دُنيا بزُخرفها فُتنتَا
ولا أَلهاكَ عنه أَنيقُ رَوْض   ولا خِدْرٌ بِرَبْوَتِهِ كَلِفْتَا
فقُوتُ الرُّوح أرواحُ المعانى   وليس بأن طعِمتَ وَلا شَرِبتَا
فواظِبْه وخذ بالجدِّ فيه   فإن أعطاكَه الله انتفَعتَا
وإن أُوتيتَ فيه طُولَ باع   وقال الناس : إنّكَ قد سَبقتَا

فلا تأمنْ سؤالَ اللهِ عنهُ بتوبيخ علمتَ ! فهل عملتَا ؟
فرأسُ المالِ تقوى اللهِ منا وليسَ بأنْ يقالَ : لقد رأستَا
وأحسنُ ثوبِك الإحسان، لا أن ترى ثوبَ الإساءة قد لبستَا
إذا مالم يفدك العلم خيرا فخير منه ، أن لو قد جهلتَا
وإن ألقاك فهمك فى مهاو فليتك ثم ليتك ما فهمتَا !
ستجنى من ثمارِ العجز جهلاً وتصغر فى العيون وإن كبرتَا
وتفقدُ إن جهلت وأنت باق وتوجد إن علمت وقد فقدتَا
وتذكر قولتى لك بعد حين وتغبطها إذا عنها شغلتَا
وإن أهملتها ونبذت نصحى وملت إلى حطام قد جمعتَا
فسوف تعض من ندم عليها وما تغنى الندامة إن ندمتَا
إذا أبصرت صحبك فى سماء قد ارتفعوا عليك وقد سفلتَا
فراجعها ودع عنك الهوينا فما بالبطء تدرك ما طلبتَا
ولا تحفل بمالك والهُ عنه فليس المال إلا ما علمتَا
وليس لجاهل فى الناس معنى وإن مُلكُ العراقِ له تأتى
سينطق عنك علمك فى ندىّ ويكتب عنك يوماً إن كتبتَا
وما يغنيك تشييد المبانى إذا بالجهل نفسكَ قد هدمتَا
جعلت المال فوق العلم جهلا لعمرُك فى القضية ما عدلتَا
وبينهما بنص الوحى بونٌ ستعلمه إذا طه قد قرأتَا
لئنْ رفعَ الغنىُّ لواءَ مال لأنتَ ، لواءَ علمكَ ، قد رفعتَا
وإنْ جلسَ الغنى على الحشايا لأنتَ على الكواكب ؛ قد جلستَا
وإنْ ركبَ الجيادَ مسومات لأنت ، مناهج التقوى ، ركبتَا
ومهما افتض أبكارَ الغوانى فكم بِكر من الحكمِ افتضضتَا !

وليسَ يضرك الإقتارُ شيئاً إذا ما أنتَ ربّك قد عرفتا
فماذا عندَه لكَ من جميلٍ إذا بفنــاءِ طاعته أنختا
فقابلْ بالقبولِ صحيحَ نُصحى فإن أعرضت عنه فقد خسرتا
وإن راعيْته قولاً وفعــلا وتاجَرْتَ الإله فقد ربحتا
فليست هذه الدُّنيا بشىء تسوءُكَ حِقْبة ، وتسرّ وقتا
وغايتها إذا فكّــرتَ فيها كفَيْئِكَ أو حلومكَ إن حلمتا

انتهى المراد منها .

الرابعة : قال الشيخُ زروق فى « شرح القرطبية ، فى تحفة المريد » نقلا عن بعضهم : آلات العلم أربعة : شيخ فتّاح ، وعقل رجّاح ، ومداومةُ إلحاح ، وكتبٌ صحاح .

وزاد بعضهم : وتوفيق وإصلاح .

وقيل لبعضهم : بمَ أدركت العلم ؟ قال : بالمصباح ، والجلوس إلى الصباح .
ولله در القائل :

راحةُ النفسِ ذميمةْ وهى عاداتُ البهيمة
لن تنالَ العلمَ حتى تتعبَ النفس الكريمة

وفى بعض الحكم : لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ، ولا يكدّ نفسه ، ومن لازم الرقاد حرم المراد ، ما أحق المأمول بأن يحرم المأمول ، فاز بالدر غائصه ، وبالصيد قانصه .

وقال الشاعر :

فى الناسِ من يشتهى العلا بلا نَصَب هيهاتَ ! شمِّرْ إلى الكدِّ السَّراويلا

وقال الشافعى رحمه الله :

أخى لَنْ يُنالَ العلمُ إلا بستةٍ سأنبيك عن تفصيلها ببيانِ

ذكاء ، وحرص ، واجتهاد ، وغربة   وتلقينُ أستاذ ، وطولُ زمان

وقال آخر :

بعشر يُنالُ العلمُ : قوت ، وصحة   وحفظ ، وفهم ثاقب ، فى التعلُّمِ
ودرس ، وفكر واغتراب ، وهمة   وشرخُ شبابٍ ، واجتهادُ معلمِ

وقال آخر :

ومنْ يصطبر للعلم يظفرْ بنيله   ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لا يُذلّ النفس فى طلب العلا   قليلا ، يعشْ دهراً طويلا ، أخا ذلٍّ

وقال آخر :

العلمُ ، فاعلم ، وصفُ ربٍّ ماجد   يا صاحِ ، فاطلُبه بجد جاهد

وقال آخر :

فما يُستفادُ العلم دونَ مشقّة   ولا تجتنى الرّاحاتُ إلا من الكد
خلوتُ بنفسى كى تتمّ سعادتى   فأجنى ثِمارَ الفوزِ من منن الحمدِ

وقال آخر :

ومَن لم يَذقْ ذلّ التعلُّم ساعة   تجرعَ كأسَ الجهل طولَ حياته
ومن فاتَهُ التعليمُ وقتَ شبابِه   فكبِّرْ عليه أربعاً لِوفاتِه

وروى البيهقى عن معاذ ، رضى الله عنه ، مرفوعاً : « ليسَ التملقُ من أخلاق المؤمن إلا فى طلب العلم » .

ومن كلام بعض الحكماء : من دام كسله خاب أمله .

وقال الشاعر :

اعكفْ على العلمِ وادرسْ   تؤتى بفخر النبُّوة
فالله قال ليحيى   خذِ الكتابَ بقوة

وقال آخر :

تمنيتَ أن تُمسى فقيهاً مناظِراً بغير عناء : فالفنونُ جنُونُ
فليسَ اكتسابُ المالِ دونَ مشقة تحملتها ، فالعلمُ ، كيفَ يكونُ ؟

وقال آخر :

يا طالبَ العلمِ لا تركنْ إلى كسل واعجَل ، لقد خلقَ الإنسان من عَجل
واستشعرِ الصبرَ فى نيلِ العلوم ، وقل: أعوذ باللهِ من قول بلا عمل
العـلمُ أولهُ مُـر مذاقتـه لكنَّ آخرَه أحلى من العسلِ

وقال آخر :

إنما العـلمُ لذيذ طعمهُ وابتداء الذوق منه كالصبرِ

وقال آخر :

إذا كانَ يؤذيكَ حرُّ المصيفِ وكربُ الخريفِ وبردُ الشتا
ويلهيكَ حسنُ زمان الربيعِ فأخْذكَ للعلْم ، قل لى : متى ؟
تَخـل الأمانِى وتغــريرَها فإنَّ الأمانِى غرُورُ الفـتى

وفى بعض الحـكم : ما نِيلتْ فضيلة قط إلا بتعب ، وأعز العلم ما كان عن ذل الطالب ، ولا تنال الغُرَر إلا بارتكاب الغَرَر . طلب الراحة فى قلة الاستراحة .

ولله در القائل :

إن تطلبِ الراحةَ أتعب قدَمك كم تعبٍ إلى المعالى قدَّمك !

وقال آخر :

اتعبْ تجدْ راحة تُنجيك من تعب لا راحة ، قط ، إلا قبلها تعبُ

وقال آخر :

لا يجتنى حلو المحامدِ ماجد حتى يذوقَ من المطالبِ مرها

وقد قيل : خزائن المنن على قناطر المحن .

وقال الباوى ، رحمه الله .

إعـلمْ بأنّ العـلمَ ذُو همـة وهو عزيزُ النفسِ ذو غـيرةْ
ينيلكَ البعضَ من أنوارهِ إنْ لم تَـكنْ مصطحباً غيره
وإن تـكنْ مشتغـلا مُقـبلا على سِواه لم تَنلْ خيره
فاطّـرح الأشغالَ واعكف على تحصيلِ ما يمضى وسرْ سيرَه
واحفظه واذكره ولا تنسهُ واعملْ به تنجو من الحيرَة

وإذا كان العلم بهذه الصفة ، التى وصفها أهل المعرفة ؛ فكيف ينقاد العاقل لأهل الرقاد والـكسل ؛ وهل ،قط ،وصل الذى كسل ؟ أيستوى من درس وتعب مع من لْها ولِعبَ ؟هيْهات ! همّ هذا طرسه ، وهم الآخر ضرسه ، كذلك بينهما ما بين التبر والترب ؛ والسّماك والسماك فى القيمة والقرب ؛ ومن كان همه بطنه وفرجه ، فلا ترجه . ومع هذا فلا معطى ولا مانع إلا الله ، ولا ضار ولا نافع إلا هو ، فمن أعطاه وصل ،ومن حرمه انفصل، كم رأينا من أتعب نفسه فى الطلب وأفنى عمره فى جمع الـكتب،والحرمان يبعده،والمنع يقعده؛لـكن إذا كان قصده وجه العلى فلا يفوته كرم المولى . نسأل الله التوفيق ، وهداية الطريق .

نعم مقدار ما تدعو الضرورة إليه لا بد منه ، كالأكل والنوم ، والاستراحة لإزالة الملل .

أفدْ طبعكَ المـكدودَ بالجد؛ راحة يجمّ، وعلِّـلْه بشىء منَ المزحِ
ولـكنْ إذا أعطيته المزْحَ فليكنْ بمقدارِ ما يعطىَ الطّـعام من الملحِ

وقال ابن عبد البر : ومن أحسن الطرق لأخذ العلم المواظبة عليه من غير إكـثار ممل .

وقال ابن شهاب : لا تكابد العلم ، ولكن خذه مع الأيام والليالى ، الشيء بعد الشيء ، فمن رام أخذه جملة ذهب .

وكان الزهرى يحدث ثم يقول : هاتوا من أشعاركم ، فإن الإدمان يُمِلّ ، وللنفس حظ ، وأفيضوا فيما يخفف علينا !

وقال ابن مسعود لأصحابه ، كما فى البخارى وغيره : قد أخبرت بمجلسكم وانتظارِكم لى ، وما منعنى من الخروج إليكم إلا كراهةَ أنْ أملَّكُم ؛ كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يَتَخَوَّلنا بالموعظةِ مخافة السآمةِ علينا .

الخامسة : لا ينال العلم إلا بقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد فى تحصيله ، والرضى باليسير من القوت ، والصبر على ضيق المعيشة .

وفى البخارى : رحلَ جابر بنُ عبدِ اللهِ ، مسيرة شهر ، إلى عبدِ اللهِ ابن أنيس فى حديث واحد .

وقال ابن المسيِّب : إن كنتُ لأسيرُ الأيامَ والليالىَ فى طلبِ الحديثِ الواحدِ . وبذلك ساد أهل عصره ، حتى سمى : سيد التابعين .

وقال مالك رضى الله عنه : « أقمتُ خمسَ عشرةَ سنةً أغدُو من منزلى إلى منزل ابن هُرْمُز ، وأقيم عنده إلى صلاة الظهر » . مع ملازمته لغيره ، وكثرة عنايته ؛ ولذلك فاق أهل عصره ، وسمى : إمام دار الهجرة .

وأقام ابن القاسم ، منفردا عن وطنه ، فى رحلته إلى مالك ، عشرين سنة ، ولم يرجع حتى مات مالك .

وعن ابن دينار : أوحى الله إلى موسى عليه السلام : أنِ اتَّخِذ نعلين من حديد ، ثم اطلب العلم حتى يخلَقَ نعلاك ، وتنكسر عصاك .

وقال الشافعيّ : لا يطلبُ أحد هـذا العلمَ بالملك والعز فيفلح ، ولـكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش ، وخدمة العلماء أفلح .

وفى الحديث : « لا ينالُ العلمُ براحةِ الجسمِ » .

قال يحيى بن يحيى : ذكر أن رجلاً ذكر هذا الحديث ، وهو على بطن امرأته ، فنزل عنها قبل أن يقضى حاجته ، وأخذ دفتره من العلم يقرؤه .

وقال تعالى : « يا يحيى خُذِ الـكتابَ بقوَّةٍ » .

وقال : « وكَتَبْنا لهُ فى الألواح من كلِّ شيء موعظةً وتفصيلا لـكلِّ شيء ، فخذها بقُوَّةٍ » .

وروى عن أبى يوسف ، أنه قال : ماتَ لى ولد فأمرت من يتولى دفنه ، ولم أدعْ مجلسَ أبى حنيفة ، خشية أن يفوتنى يوم منه .

وقيل : العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضـه ، وإن أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً .

وروى أبو زيد ، عن ابن القاسم ، عن مالك أنه قال : لا يبلغ أحـد من هذا العلم ما يريدُ حتى يذوقَ فيه مطعمَ الفقر .

واذكر ما نزل بربيعة من الفقر ، حتى باع خشب سقف بيته ، فى طلب العلم .

السادسة قال الخطيب البغدادى : يستحب لطالب العلم أن يكون أعزب ما أمكن ، لئلا يشغله الاشتغال بحقوق الزوجية ، والاهتمام بأمر المعاش ، عن كمال طلب العلم .

وقيل لبعض الحـكماء : مات عدوك . فقال لهم : وددت لو قلتم تزوج !

وحكى عن إسماعيل بن خالد أنه قال : أتيت ابن يونس ، فحدثنى أربعين حديثاً ، حفظتها كلها ، وانصرفت ؛ فلما دخلت إلى الدار لقيتنى بُنية ، فقالت لى : يا أبتِ ـ الدقيقُ يعجزنا ، فنسيت منها عشرين حديثاً .

وأنشد بعضهم :

همُّ الدقيقِ وَهَمُّ الزيت والحَطبِ هى التى أوقمتْ نفسى إلى العطبِ
فكيفَ تسألنى عن حفظِ مسألة لمثل هذا ، أو أن أدعى إلى الطرَب؟

وقال بعض العلماء : لو كلفت بشراء بصلة ما حفظت حديثاً واحداً ، ولكن الله المستعان .

وروى أن عمر بن عبد العزيز ، كان يكتب إلى عماله ، ويقول لهم : أَجْرُوا على طلبة العلم الرزق ، وفرغوهم للطلب .

وقال سحنون : لا يحسن العلم لمن يأكل حتى يشبع ، ولا لمن يستهم بغسل ثوب .

السابعة : قال ابن رشد ، رحمه الله تعالى : أفضل ما يستعان به على طلب العلم ، تقوى الله عز وجل ، فإنه يقول : « واتقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكم الله » .

وقال الفاكهانى : وأصرح من هذه الآية فى الدلالة ، قوله تعالى : « يَأيها الذينَ آمنوا إنْ تتّقوا اللهَ يَجعَلْ لكم فرقاناً » أى فارقاً بين الحق والباطل ، فإنها سيقت مساق الشرط والجزاء ، وأما الآية الأولى فهى وعظ وتعديد نعمه ، على ما قاله المفسرون . وإن كان قد قيل فى معناها : من اتقى الله علمه الخير وألهمه . والأول أصح وأظهر إذ قوله : « ويُعَلِّمُكم الله » مستأنف .

وعن الأوزاعى : من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم .

وقال الشاعر :

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفْظِى فأرشدَنى إلى تَرْكِ المعاصِى
وقالَ : بنَىَّ إنّ العِلْم نورٌ ونورُ الله لا يؤتى لِعاصِ

وقال آخر :

إنارةُ العقلِ مكسوف بطوع هوى   وعقلُ عاصى الهوى يزدادُ تنويرا

وقال ابن شهاب : ما رأيت لطالب العلم أحسن من الخشية والوقار .

الثامنة : ينبغى، بل يتأكد على طالب العلم ، أن يحصل العلم كتابة وحفظا وفهما ، فيكتب ما ظفر به ، من الفوائد والمهمات .

قال الإمام سحنون ، رحمه الله :

العلم صيد والكتابةُ قيده   قيد صيودَك بالحبال الموثقة

ومنَ الحماقةِ أن تصيدَ حمامة   وتتركها بين الأوانس مطلقة

ثم ما كتبه منه يعتنى بحفظه ، ولا يتكل على ما أودعه كتابه :

عليكَ بالحفظِ بعدَ الجمع فى الكتب   فإن للكتبِ آفاتٍ تفرقها

الماء يغرقها ، والنارُ تحرقها   والدودُ يخرقها ، واللص يسرقها

وقيل :

استودَعَ العلمَ قرطاساً فضيعهُ   فبئسَ مستودَعُ العلم القراطيسُ

وفى كلام بعض العلماء فى هذا المعنى : خير الفقه ما حاضرت به ؛ حرفٌ فى قلبك خير من ألف فى كتابك ؛ لا خير فى علم لا يعبر معك الوادِ ، ولا يعمرُ بك النادِ .

وقال الشافعى رحمه الله :

علمى معى حيثما يممتُ ينفعنى   صدرى وعاء له ، لا بطنُ صندوق

إن كنتُ فى البيت ، كان العلم فيه معى

أو كنتُ فى السوق ، كان العلم فى السوقِ

وقال آخر :

يامن يرى العلمَ جمعَ المال والـكتب خدعت ! والله ليس الجدُّ كاللعب
العلمُ ، ويحكَ ، ما فى الصدر تجمعهُ حفظاً وفهماً وإتقاناً ، فداكَ أبى

وقال آخر :

ومن طلبَ العـلومَ بغير فهم سيدركها إذا شاب الغرابُ !

الكلام عن كتابة العلم ومذاكرته

وحكم كتابة العلم الجواز ، كما عليه الجمهور .

قال اللخمى : وهو الصحيح ، ولا ينبغى أن يختلف فيه لتقاصر الأعمار وقلة الأفهام .

وقيل : بكراهتها خيفة الاتـكال على الـكتابة وترك الحفظ .

وقيل لبعضهم : هل كنتم تـكتبون العلم والحديث ؟ فقال : لا . فقيل له : هل كنتم تقولون أعد علينا ؟ فقال : لا . وما ذاك إلا لرجحان عقولهم .

هذا وقد اختلف فى أول من بدأ الـكتابة على قولين : قيل : آدم ، وقيل: إدريس ، عليهما السلام .

قال ابن قتيبة : أول من بدأ بالـكتابة نبى الله إدريس .

وقال كعب الأحبار : أول من بدأ بالخط آدم عليه السلام ، لأنه كتب جميع الخطوط فى الطين وطبخه ، فلما غرقت الأرض فى زمن نوح ، بقيت تلك الـكتابة والخطوط لم تغرق ، فأصاب كل قوم كتابهم ، وبقى كتاب العرب حتى خص الله به إسماعيل .

واختلف فيمن بدأ بالخط العربى على أقوال خمسة : قيل : آدم ، قاله كعب الأحبار .

وقيل : هود ، قاله صاحب التيجان ؛ لأن الله ، عز وجل ، أنزل عليه فى صحيفة : يا هود إن الله آثرك وذريتك بسيد الكلام ؛ وبهذا الكلام يكون لذريتك من بعدك استطالة وفضيلة ، على جميع العباد إلى يوم القيامة .

وقيل : رجل اسمه مرامر بن مروة من أهل الأخبار ، قاله ابن قتيبة فى « كتاب المعارف » .

وقيل : ثلاثة رجال : مرامر المذكور ، وأسلم بن سدرة ، وعامر ابن خذرة . فمرامر : وضع الصورة ، وأسلم : وضع الفصل والوصل ، وعامر : وضع الإعجام ، حكاه المقرى . وقيل : ثمانية رجال ، وهم ملوك مدائن ، حكاه عروة ابن الزبير .

وفوائد الكتابة أربعة : إثبات الحفظ ؛ وتقرير الفهم ؛ وإذهاب النسيان ؛ وتوصيل العلم .

وقد كنت جمعتها فى قولى :

إثباتُ حفظ ، وكمال فهم إذهابُ نسيان ، وصونُ علم

وقال بعضهم : الكتابة من أجلّ صناعة البشر وأعلى شأن ، ومن أعظم منافع الخلق من الإنس والجان ، لأنها حافظة لما يخاف عليه من النسيان ، وقاضية بالصواب من القول ، إذا حرفه اللسان ، ومبقية للأحكام والعلوم ، على ممر الدهور والأزمان .

وقال آخر : لولا ما عقدته الكتب من تجاريب الأولين ، ما نجد من النسيان عقود الآخرين ، وقد أخطأ من اعتمد على حفظه ، وأغفل تقييد العلم فى كتبه ، ثقة بما استقر فى نفسه ، لأن التشكك متعرض ، والنسيان طارىء عارض .

وقال آخر : الكتابة سبب إلى تخليد كل فضيلة . وذريعة إلى توريث كل حكم جليلة ، وموصلة لنا ما لفظ به الحكماء من الألفاظ الجميلة ، ومبلغة إلى الأمم الآتية أخبار القرون الخالية ومعارف الأمم الماضية ، حتى كأن الخالف يشاهد السالف . فمتى أردت مجالسة إمام من الأئمة الماضين ، ومحادثة شيخ من الشيوخ المتقدمين ، فانظر فى الكتب التى صنفها ، ومجموعاته التى ألفها ، ونوادره التى رسمها ، وحكمه التى أحكمها ؛ فإنك تجده مخاطبا لك ، ومعلما ومرشداً ومفقها ، مع ما يحصل لك من الأنس بكتابه ، وما تستعمل من حكمه وصوابه .

وقال آخر : فكم من كلمة واضحة ، وحكمة نافعة ، وموعظة جامعة ، وقصة واقعة ، وحجة قاطعة ، وسنة ساطعة ، قد خزنها الأول للآخر ، ونقشها فى الحجارة والدفاتر . ولم يزل الفقهاء والنبلاء من كل جيل ، والناطقون بكل جميل ، على اختلاف القول منهم والقيل ، يدونون مايقطع من الكلمة النافعة ، والحكم الجامعة ، ويسارعون إلى حفظها بالكتابة ، خوفا من ذهابها ، أشد المسارعة ، نظما ونثرا ، حتى اشتهرت فى العالم كثيرا . فكم من كلمة نفع الله بها قائلها ، وحكمة ظاهرة على متناولها ، وفائدة قد بينت بالكتابة لسائلها .

وقال آخر : الكتابة منزلة شريفة ، وحكمة فى البنان لطيفة ، لاسيما إن كان صاحبها ذا لسان ، وخط حسن وبنان ، فتجتمع فيه حكمتان ، وتحصل له فصاحتان ، حكمة فى يده وفى لسانه ، وفصاحة فى لسانه وفى بنانه .

وقد وجد عمود من رخام ، نقش عليه ذو القرنين أو غيره ، هذه الأبيات :

يلوم اللائمون الجهلَ جهلا وداءُ الجهلِ يبرأُ بالدَّواءِ
وعلمُ العالمِ النحريرِ جهل إذا ما خاضَ فى بحر الهواءِ
إذا كانَ الإمام يحيف جوْراً وقاضى الأرضِ يدْهِن فى القضاءِ
فويل ثم ويْل ثم ويل لقاضى الأرْضِ من قاضِى السماءِ

وغير هذا من كلام البلغاء كثير لا يحصيه ديوان ، لولا الكتابة لما سمع ، ولما انتفع به إنسان .

واختلف لم لم يكتب النبى ، صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل: لئلا يظن أنه صنف القرآن لقوله تعالى : « ولا تخطه بيمينك » الآية .

وقيل : لأنه بعث لتبييض السواد ، لا لتسويد البياض .

وقيل : غير ذلك .

التاسعة : ينبغى لطالب العلم ، إذا حصل منه الحظ الأوفر ، وكان ذا ذكاء وفهم شديد ونظر ، أن يذاكر غيره فيه ، وينشد العلم لأهله وذويه ؛ فقد قيل : فهم سطرين ، خير من حفظ وقرين ؛ ومذاكرة اثنين خير من هاتين .

ويرحم الله القائل :

إذا لم يذاكرْ ذو العلوم بعلمه ولم يستفدْ علما نسى ما تعلما
فكمْ جامع للكتب فى كلّ مذهب يزيد معَ الأيام فى جهله ، عمى

وسمع الشيخ أبو عبد الله بن مرزوق ، رحمه الله الشيخ الربانى أبا حفص سيدى عمر الرجراجى يقول العلم ميت وحياته التعليم ؛ فإذا حَيِيَ فهو خفى ؛ وظهوره المذاكرة ، فإذا ظهر فهو ضعيف وقوته المناظرة ، فإذا قوى فهو عقيم ، وثمرته العمل . ينادى العلم أين العمل ؟ فإن أجاب وإلا ارتحل .

ووجدت بخط بعض الأفاضل ما نصه : أجمعت الأئمة ، رضى الله عنهم ، على أن الراحة لا تنال بالراحة ، وأن العلم لا ينال براحة الجسم ، فادرس ترأس ، واحفظ تحفظ ، واقرأ ترق ، ومهما ركنت إلى الدعة ، كنت من أهل الضعة . وما رأيت الناس مجتمعين على حمده فاجتلبه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذمة فاجتنبه ، والأعدل الأقسط أن تسلك السبيل الأوسط .

وهو طرف من رسالة كتب بها الفقيه أبو موسى عيسى بن عمران من أرض مراكش فى زمن عبد المؤمن ، إلى وليد له بفاس . (ذكرها صاحب القرطاس).

وللشيخ سيدى حمدون بن الحاج ، رحمه الله :

العمر أغلى بضاعة فاصرفه فى الله طاعة
واربأ بنفسك عن أن تكون ممن أضاعه

الإجازة وما قيل فيها :

ثم إن إجازة الشيخ ، إن وجدت فيه الأهلية ، ليست شرطا فى التصدى للإقراء والتعليم ، إلا من جهة الكمال ، كما عليه الأئمة ، والمقتدى بهم من الرجال .

وقد قال جلال الدين السيوطى ، رحمه الله ، فى «الإتقان» ما نصه : الإجازة من الشيخ غير شرط فى جواز التصدى للإقراء والإجادة ؛ فمن علم من نفسه الأهلية ، جاز له ذلك ، وإن لم يجزه أحد ، وعلم ذلك السلف الأولون ، والصدر الصالح ، وكذلك فى كل علم وفى الإقراء والإفتاء ؛ خلافا لما يتوهمه الأغبياء من اعتقاد كونها شرطا . وإنما اصطلح الناس على الإجازة لأن أهلية الشخص لا يعلمها غالبا ، من يريد الأخذ عنه من المبتدئين ونحوهم ، لقصور مفاهيمهم عن ذلك ، والبحث عن الأهلية قبل الأخذ شرط ؛ فجعلت الإجازة كالشهادة من الشيخ للمجاز بالأهلية .

نعم قال الإمام مالك ؛ رضى الله عنه ؛ كما فى « المدونة » : لا ينبغى لطالب العلم أن يفتى حتى يراه الناس ، أى العلماء ، أهلا للفتوى .

قال ابن هرمز : ويرى نفسه هو أهلا لذلك .

العاشرة : قال العلماء رضى الله عنهم : لا يكون الطالب طالبا حتى تجتمع فيه معانى حروفه . فالطاء : أن يكون طاهر القلب صفيا نقيا . واللام : أن يكون ليينا لينا . والباء : أن يكون باكيا على ذنوبه ويتخشع ويتقى مولاه ، فإن كان هكذا فطالب ، وإلا فظالم .

وقد كنت أشرت لها بقولى :

فطاء ولام وباء أتت حروفاً لطالب علم علا
فطاء : طهارة قلبه من شوائب تكديره كالقلا
ولام : لبابته فانتبه ولين جنابه للفضلا
وباء . بكاء : على ما جنى من الذنب في سره والملا
فإن كان في نفسه هكذا وإلا فذا ظالم مبتلى

كما قالوا أيضا : لا يكون الفقيه فقيها حتى تجتمع فيه معانى حروفه . فالفاء . أن يكون عاقلا فطينا . والقاف : أن يكون واقفا عند حدود الله وفرائضه وسنن النبي صلى الله عليه وسلم . والياء : أن يكون يؤمن بالله واليوم الآخر وبلقاء ربه . والهاء : أن يكون هاربا عن ذنوبه وذنوب الخلائق ، ويكون وثيقا أمينا على كل حق ، ويبطل كل باطل ، ويكون من ورثة الأنبياء عليهم السلام ، ويكون خليفة الله في أرضه ، فإن كان هكذا فهو فقيه ، وإلا فهو فقير من من الحسنات ، وهو ظالم لنفسه غداً بين يدى الله تعالى .

وقال آخرون : فاء الفقيه : فقؤه حجاب الغفلة عن قلبه . وقافه : قناعته برزق ربه . وياؤه : يأسه من الطمع في الخلق . وهاؤه : هروبه من الخلق إلى الحق . وقد كنت نظمت ذلك بقولى :

فاء الفقيه : فقاء الحجاب عن قلبه أكرم به مثاب
وقافه : قناعة . والياء : يأس من الطمع لا امتراء
والهاء : هروبه من الخلق ، فمن كان كذا فهو ، وإلا فانبذن

الحادية عشرة . عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنهما ، مرفوعا وموقوفا : «لا تجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمسة إلى خمسة : من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة » .

قال تعالى : « فَخرَجَ على قومه فِي زِينتهِ » إلى « وعَملَ صَالحاً » فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا .

وبالله التوفيق ؛ لارب غيره ، ولا خير إلا خيره .

* * *

القول فى تقديم الأهم من العلوم

ثم قال :

[وَقدِّم الأَهم إن العلمْ جَمّْ   فالعمر ضَيف زَار ، أَو طَيف أَلم]

لما كان العلم فنوناً كثيرة شتى ، وأنواعاً غزيرة،لاتدرك غايتها بإلى وحتى وكان بعضها آكد من بعض فى الطلب ، وبعضها أهم من بعض فى السعى فى تحصيله ، وبلوغ الأمنية منه والأرب ، أمر الناظم رحمه الله ، فى هذا البيت بتقديم الأهم منه فالأهم ،والبحث عن تعلم الآكد منه فالآكد ، من واجب وملتزم.

والأهم : الآكد .

والجم : الكثير . قال تعالى . « وَتُحبونَ المالَ حباً جماً » .

والعمر (بضم الميم وتسكّن) : مدة حياة المرء .

والضيف : قال فى المصباح معروف . ويطلق بلفظ واحد على الواحد وغيره ، لأنه مصدر فى الأصل ، من ضافه ضيفا من باب باع : إذا نزل عنده .

وهو تشبيه بليغ بحذف الأداة : أى فالعمر كالضيف النازل بقوم ، ووجه الشبه قرب مدة إقامة كل .

وزار يزور زيارة وزوراً : قصد ، فهو زائر وزَوْر وزوّار ، مثل : سافر وسَفر وسفّار .

والزيارة (فى العرف) : قصد المزور إكراماً له واستئناسا .

والطيف : ما يخيل للمرء فى النوم .

وألمّ : أتى ، يقال ألمّ الرجل بالقوم إلماما أتاهم فنزل بهم .

والمعنى : قدم أيها الطالب للعلوم ، الحريص على تحصيلها ، الأهم منها والآكد ، فاعكف على السعى فى تحصيله، واعمل جهدك فى فهم إجماله وتفصيله فإن العلم بحر لا غاية له ، كثيرة أنواعه ، غزيرة فنونه ، لا يحيط بها إلا المنفرد بالعلم الحقيقى ، جلَّ جلالهُ .

قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ ظَنَّ لِلعلم غَايةً فقدْ بخسهُ حَظَّهُ » ، لقوله تعالى : « وما أوتِيتُمْ مِنَ العلْمِ إلاَّ قليلا » .

وقال ابن وهب ، رحمه الله : العلم أكثر من أن يحاط به، فخذوا منه أحسنه.

وأنشدوا :

ما أكثرَ العلمَ وما أوسعه   منْ ذا الذى يقدر أن يجمعهْ ؟
إنْ كنتَ لابدَّ له طالباً   فانتقِ منهُ ، والتمسْ أنفعهْ

وقيل :

مَا حوى العلمَ جميعاً أحدٌ   لا ، ولوْ حاولهُ ألفَ سنةْ
إنما العلمُ عميقٌ بحرُهُ   فخذُوا مِن كلِّ شيء أحسنهْ

وقال بعض الحكماء : لست أطلب العلم طمعاً فى غايته ، والوقوف على نهايته ، لكن التماس ما لا يسع جهله .

وقيل : العلم كالمطر ، عدمه بالكلية هلاك . والوسط من كل شيء حسن.

وقال الإمام مالك ، لابنىْ أخته ، إسماعيل وأبى بكر ابنى أبى أويس : إن أردتما أن تنتفعا بهذا الشأن ، فقللا منه ، وتفهما فيه .

وحيث كان كذلك ، فالمطلوب الاعتناء بالمهم الأكيد ، إذ الطمع فى تحصيل جميعه متعذر ، والتشوف للإحاطة بفنونه محال متعسر .

وكيف ومدة حياة الإنسان بمنزلة ضيف زار قوما لا قرار له عندهم ، بل يقيم أياما يسيرة ويرتحل ، أو هى كطيف يتخيل للنائم ، فإذا انتبه لا يجد له حقيقة .

ويرحم الله القائل :

العُمْرُ لو طالَ ساعةْ ... فاجعَلْه ما عشتَ طاعةْ
الذِّكرَ لازِمْ، وواظبْ ... على صلاةِ الجماعةْ

ومما ينسب للإمام الباجى ، رحمه الله :

إذا كنتُ أعلمُ علماً يقيناً ... بأنَّ جميعَ حياتى كساعةْ
فلِمَ لا أكونُ ضَنيناً بها ... وأصرفُها فى صلاح وطاعةْ ؟

* * *

أهم العلوم وأولاها بالتحصيل :

[أهمه عقائدُ ثمَّ فروع ... تصوُّفٌ وآلةٌ بها الشروع]

بين ، رحمه الله ، بهذا البيت ، الأهم من العلوم المأمور بتقديمه فى البيت قبل . فذكر أنه علم العقائد ، أى العلم الباحث عن المعتقدات ، فى حق الله تعالى ، وفى حق رسله عليهم الصلاة والسلام ، وما يتبع ذلك ، من كل مايرجع للقاعدة الأولى من قواعد الإسلام ، إذ ذلك هو أول ما يجب على كل مكلف عند كثير من المحققين ؛ كما أشار لذلك الشيخ السنوسى رحمه الله فى «صُغراه» بقوله :

ويجب على كل مكلف شرعاً أن يعرف مايجب فى حق مولانا جلَّ وعزَّ ، وما يستحيل وما يجوز ؛ وكذا يجب عليه أن يعرف مثل ذلك فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأشار لذلك أيضا فى « المرشد المعين » بقوله :

أولُ واجب على منْ كُلِّفَا ... مُمكِّناً من نظرٍ ، أنْ يعرفا
اللهَ والرسْلَ بالصفات ... مما عليها نصبَ الآيات

ولأن معرفة ما ذكر هى أساس جميع العبادات ، وطريق السلامة من أعظم الآفات ، فكما لا يقوم بناء دون أساس ، كذلك لا تصح عبادةُ مَن عبَدَ اللهَ دون معرفةٍ ولأن الجهل بالصفة جهلٌ بالموصوف ؛ وذلك مؤد للكفر والملامة . نسأل الله العافية والسلامة .

قال في «الإحياء» : من اعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق ، ربما ينكشف له ، حالَ الموت ، بطلانُ ما اعتقده جهلا ، ويتطرق إليه أن كل ما اعتقده لا أصل له ، فيكون ذلك سبباً في شكه عند خروج روحه ، ويختم له بسوء الخاتمة ؛ وهذا هو المراد بقوله تعالى : « وبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لم يكونوا يَحْتَسِبون » وبقوله : « هَل نُنَبِّئُكمْ بالأخسرِينَ أعمالاً » . (الآية) .

وقال «فيها» أيضاً : مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق إلى جوار الله تعالى ، وسعادة لقائه ، وإنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله ، ومعرفة صفاته وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وَما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعْبدُونِ » أى ليكونوا عبيداً ، ولا يكون العبد عبداً ، ما لم يعرف ربه بالربوبية ، ونفسه بالعبودية ، فلا بد أن يعرف نفسه وربه ، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء عليهم السلام . اهـ .

وبالجملة ، فوجوب علم التوحيد ، وعظيم شرفه معلوم بالضرورة ، ولا ينكره إلا أعمى البصيرة .

ومما يدل على شرفه وعظيم فضله ما روى أنه قيل :

« يارسولَ اللهِ أى الأعمالِ أفضلُ ؟ قال : العلمُ باللهِ عزَّ وجلَّ . فقيل : يارسولَ اللهِ . نسألكَ عن العَمَل فتُجيبُ عن العِلْم ! فقال : إنَّ قليلَ العملِ مع العِلْمِ باللهِ ينفع ، وإنَّ كثير العملِ لاينفعُ مع الجهلِ بالله » .

وروى أن رجلا أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« يارسولَ اللهِ علمني منْ غَرائبِ العلمِ ، فقال : ما فعلتَ في رَأْس العلم حتى تطلُبَ غرائبَهُ ؟ فقال : وما رأْسُ العلم يا نبيَّ اللهِ ؟ قال : أعرفتَ الربَّ ؟ قال : نعم . قال : فما فعلتَ في حَقِهِ عليك ؟ قال : ما شاء اللهُ . قال : أعرفت الموْتَ ؟ قال : نعم . قال : فما أعدَدْتَ له ؟ قال : ماشاء اللهُ ! قال : انطلقْ

وأَحْكِم ما ها هنا ، فإذَا أَحْكَمت فتعالَ أُعَلمكَ من غرائبِ العلم » .

وأوحى الله إلى داوود عليه السلام : يا داوودُ تعلم العلمَ النافعَ ، فقال : «يا إلٰهى وما العلمُ النافعُ ؟ قال : أَن تعرفَ جَلالى وعظمتى وكبريائى ، وكمالَ قدرَتى على كلِّ شىء ، فإنَّ هذا هو العلمُ النافع الذى يقربكَ إلىَّ » .

وقال أبو الحسن : لا خلاف أن تعلم العقائد وما يلزم من الشرائع أولى من حفظ القرآن . أى : لأن حفظ القرآن فرض كفاية ، والواجب علينا منه الفاتحة فقط ، لفرضيتها فى الصلاة بخلاف العقائد فهى فرض عين على كل مكلف .

وفى « المواهب القدوسية فى المناقب السنوسية » ما نصه :

وسمعته يعنى الشيخ السنوسى ، رضى الله عنه ، يقول ما معناه : إنه ليس ثمَّ علمٌ من العلوم الظاهرة يورثُ العبد معرفته تعالى وخشيته ومراقبته إلا علم التوحيد ، وبه يفتح الله له فى سائر العلوم كلها ، وعلى قدر معرفته به ، يزداد خوفه منه تعالى وقربه منه ، لأنه لما كان يتحدث فى ذات البارى تعالى التى لا مِثلَ لها ، وما يجب له من الكمال والجلال ، وما يجوز وما يستحيل ؛ وقد علم أن المشتغل بمدح الملك ، يتخذه وزيراً فيشاوره ويجلس معه حيث جلس ، ولا يفارقه ساعة ، ويمتعه بالنظر إليه ، ويمده بنعمه إلى غير ذلك ، مما يخصه به فكذلك علم التوحيد ، يزداد به الإنسان شرفا وقربا من حضرته تعالى ، ويغنى به عما سواه ، لأن شرف العلم بشرف المعلوم ا . هـ .

ومما قاله بعضهم فى مدحه وأجاد :

أيُّها المُقْتَدِى لِيطلبَ علْماً　　كل علم عبدٌ لِعلْم الكلام
تطلب الفقه كى تصححَ حُكماً　　ثمَّ أَغفلْتَ مُنزِلَ الأحكام

وما روى عن جماعة ، من عيبهم له ، وللمشتغلين به ، كقول الشافعى ،

رحمه الله : لأن يلقى اللهَ العبدُ بكل ذنب ، ما خلا الشرك ، خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام .

وقول آخر : الناظر فى علم الكلام كالناظر فى عين الشمس ، كلما ازداد نظراً ازداد عمى ، وغير ذلك ؛ فمحمول على ما تعرّض فيه لمذهب الضّالين ، وتقرير شبه المبطلين ، ونقل تشكيكاتهم ، وذكر حماقاتهم وزلاتهم ، خشية أن يتمكن ذلك من بعض القلوب ، والعلم لعلام الغيوب .

وأما عائبه مطلقاً فلا يلتفت إليه ، ولا يسمع قوله ، ولا يعول عليه . ولله در القائل :

عابَ الكلامَ أناس لاخَلاَق لهُم ... وما عَلَيه إذا عابُوه منْ ضرر
ماضَرَّ شَمْسَ الملا فى الأفقِ طالِعةً ... أن لا يَرى ضوءها مَنْ ليس ذا بصر

ثم الأهم بعد علم المعتقدات ، علم الفروع أى العلم الباحث عن المسائل الفقهية العينية ثم الكفائية ، فالعينية ما يرجع لبقية القواعد الخمس : أعنى الصلاة والزكاة والصيام والحج .

والكفائية ما زاد على ذلك من أحكام المعاملات ، ما لم يرد المرء تعاطى ذلك ، وإلا صار فرض عين فى حقه ، الإجماع على أنه لا يحل لامرىء مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه . ومستند هذا الإجماع قوله تعالى : « ولاَ تقْفُ ما ليْسَ لَكَ به عِلم » .

ثم الأهم بعده ، علم التصوف أى العلم الباحث عن أدواء القلوب ودوائها .

علم به تصْفيةُ البَواطنْ ... من كدراتِ النَّفس فى المَوَاطنْ

أى عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش ، وطلب العلو وحب الثناء والرياء وغير ذلك . فلا فقه إلا بتصوف إذ لا عبرة بفقه لا يصحبه صدق التوجه ، كما لا تصوف إلا بفقه ، ولا فقه إلا باعتقاد وإيمان .

ولهذا قال إمامنا مالك ، رضى الله عنه : من تصوّف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق .

وهو أى علم التصوف ، والعينى من علم الفروع والعقائد ، مَحملٌ مارواه جماعة من الحفاظ عن جماعة من الصحابة ، منهم أنس ، وابن عباس، وابن عمر وابن مسعود ، وعلى ، وأبو سعيد الخدرى ، رضى الله عنهم :

أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم قال : « طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم ، زاد فى رواية : « ومسلمةٍ » عند الإمام الغزالى وغيره .

فقد قال ، رحمه الله ، فى كتابه «منهاج العابدين» ، وهو آخر كتاب صنفه:

المراد بالعلم الذى طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة ؛ هو التوحيد وعلم الشريعة من أحكام العبادات ، وعلم السر ، يعنى ما يتعلق بالقلب ومساعيه .

ثم قال ، بعد ما بين ما يجب من علم التوحيد ومن علم الشريعة : وأما علم القلب فهو روحانى ووجدانى ، لا يخضعُ تحت أسنة الأقلام ، ولا تحيط به الدفاتر والأوهام .

ثم قال : وقد روى عن النبى ، صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« اطلعتُ ليلةَ المعراج على أهل النار ، فرأيتُ أكثر أهلها الفقراء . قالوا : يارسول الله من المال ؟ قال : لا . بلْ من العلم » .

فمن لم يتعلم العلم لا يتأتى له إحكام العبادة ، والقيام بحقوقها ؛ ولو أن رجلا عبد الله عبادة ملائكة السماء ، بغير علم ، كان من الخاسرين . اهـ .

وقد مدح كل من العلوم الثلاثة بما هو كثير ، فمما قيل فى علم العقائد :

أيهـــا المقتَدِى ليطلبَ عِلماً . . . . . (البيتين)

ومما قيل فى علم الفقه :

إذا ما اعتزَّ ذو علمٍ بعلمٍ فعلمُ الفقه أشرفُ فى اعتزاز
فكم طيبٍ يفوحُ ولا كمسكٍ وكم طيرٍ يطيرُ ولا كباز

ومما يعزى للشافعى ، رحمه الله :

تفقهْ فإن الفقه أفضلُ قائدٍ إلى البرِّ والتقوى ، وأعدلُ شاهد
هو العلمُ الهادى إلى سنن الهدى هو الحصنُ منجىٍ من جميع الشدائد
فإن فقيهاً واحداً متورِّعا أشدُّ على الشيطان من ألف عابدِ

وفى « روضة الأنوار » لأبى زيد ، سيدى عبد الرحمن الثعالبى ، رحمه الله ، نقلا عن الحافظ أبى عمر بن عبد البر ، قائلا : ولى معارضة لقول القائل :

وإذا طلبتَ من العلوم أجلها فأجلها منها مقيمُ الألسن

* * *

العلمُ يرفع كل بيت هين والفقهُ يجملُ بالفقيه الدَّيِّن
والحر يكرمُ بالوقار وبالنهى والمرء يحقرهُ إذا لم يرزُن
وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها عند التقىِّ المؤمن :
علمُ الديانة ؛ وهو أرفعها لدى كلِّ امرىء متيقظٍ متدين
هذا الصحيحُ ، لا مقالة جاهل : « فأجلها منها مقيم الألسُنِ »
لو كان مهتدياً لقالَ مبادراً : فأجلها منها مقيمُ الأدْيُن

ومنها تعلم بطلان عزو البيت المذكور ، الذى هو من أبيات ، لسيدنا على ، رضى الله عنه ، وإلا لما ساغ لمؤمن قول ما ذكر فيه ، بل هى لابن خلف الهمدانى ، والله أعلم .

ومما قيل فى التصوف :

يا من تقاعد عن مكارم خلقه ليس التفاخرُ بالعلوم الظاهرة
من لم يهذِّبْ علمه أخلاقَه لم ينتفعْ بعلومه فى الآخرة

وقيل :

علم التصوف علمٌ ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف ؟
علم التصوف نور ليس يدركه إلا ذَكِىُّ الحجا بالجود معروف
يرضى القليلَ من الدنيا ويبذلها عند الوجود. بتقوى الله موصوف

ومن المهم أيضا علم الآلة : أعنى النحو والتصريف والمنطق والبيان ، وأهم هـذه علم النحو إذ هو الآلة التى يتوصل بها إليها ، ويتوقف الشروع فيها عليها :

لأنه للعلم كالحبالة به الفهوم ترتقى جباله
من لم يحصله ، فباعه قصير لا يستوى، ياصاح، الاعمى والبصير

ولأبى حيان رحمه الله من قصيدة :

هو العلم لا كالعلم شىء تراوده لقد فاز باغيه ، وأُنجح قاصده
وقد قصرت أعمارنا ، وعلومنا يطول علينا حصرها ونكابده
وفى كلها خير ولكن أصلها هو النحو، فاحذر من جهول يعانده
به يعرف القرآن والسنة اللذا هما أصل دين الله من أنت عابده

وقال ابن الوردى رحمه الله :

وبعدُ : فالجاهل بالنحو احتقر إذ كل علم فإليه يفتقر

وفى «الفريدة» :

النحو خيرُ ما به المرء عنى إذ ليس علم عنه ، حقاً ، يغتنى

وقال بعضهم :

النحو قنطرة إلى العلوم ، وهل يجاز نهر على غير القناطير ؟

وقال الكسائى :

إنما النحو قياس يتبع وبه فى كل علم ينتفعْ

وقد أشار العلامة الشريف أبو عبد الله سيدى محمد بن الحسن أجنوى ، رحمه الله ، إلى العلوم المهمة التى يتعين الاعتناء بها ، وصرف الوجهة إلى تحصيلها ، بقوله :

ورتب العلوم فى اثنى عشرا فنًّا ، أتتْ فى علمهم مقرراً
نحواً ، أصولا ، وبياناً ، ولغة نطقاً ، وتوحيداً ، حديثاً ، فسره
فقهاً ، تصوفاً ، كذا التجويد وبالحساب ، مالها مزيد

قال بعضهم : قد نسب الشيخ زروق ، رضى الله عنه ، العلوم فأحسن جناسها ، وأتقن تناسبها وأساسها .

فقال : اللغة بساط ، والفقه طعام ، والتصوف إدام ، والنحو ملح ، والمنطق والكلام توابل ؛ والأصول منهاج ؛ والبيان سراج ؛ والحساب إفادة ؛ والفرائض زيادة ؛ والتاريخ عبرة ؛ والتنجيم إلا ما قل حسرة ؛ والتفسير عمدة ؛ والحديث حجة ؛ والقراءات كمال ؛ والعروض أشغال . اهـ .

* * *

القول فى العلم النافع وما يثمره من الخشية والعمل :

[والعلمُ ما أكسبَ خشية العليم   فمنْ خلا عَنها فجاهلٌ مُليمْ]
[لأنه مـيراثُ الأنبياءِ   فلم ينـلهُ غـيرُ الأتقياء]
[دَليلُ ذاك « إنما يخشى » إلى   « العلمـاءِ » لعموم انجـلا]
[لذاكَ قيلَ : العلم يدعو العملا   إن يلقـه قرَّ ، وإلا ارتحَلا]
[فاعملْ بما عَلمْتَ تورثْ علمَ ما   لم تك تعلمْ ، وتمنحْ مَغنما]

بين الناظم ، رحمه الله ، هنا : أن العلم المعتبر هو ما أكسب خشية العليم ، جل جلاله ، وعز كماله ، وأن المتصف به الخالى عن الخشية والخوف من الله جاهل فى الحقيقة ، جدير بعقوبة الله ، فعلمه حجة عليه ، ووباله راجع إليه .

قال فى الحكم العطائية : العلم إن قارنته الخشية فلك ، وإلا فعليك .

قال العارف بن عباد ، رحمه الله فى شرحه هنا ما نصه : العـلم الذى تقارنه وتلازمه الخشية لك ، لأنك تنتفع به فى دنياك وآخرتك ، وليس ذلك إلاماذكرناه . والعلم الذى لاخشية فيه عليك لأنك تشقى به فيهما،وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا ، من حيث أن علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة ؛ وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والغرة .

ثم قال : وقد قال الفضيل بن عياض ، رضى الله عنه : كان العلماء ربيع الناس ، إذا نظر إليهم المريض لم يسره أن يكون صحيحاً ، وإذا نظر إليهم الفقير لم يرد أن يكون غنياً ، وقد صاروا اليوم فتنة على الناس .

قال هذا فى زمانه الصالح : فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ فإنا لله ، وإنا إليه راجعون .

قال : واعلم أنه قد ورد فى الكتاب والسنة ، من فضل العـلم والعلماء ، ما لا يحصى كثرة ولا يرجى حصول ذلك إلا لمن صحت فيه نيته ، وصحة نيته فى ذلك : أن يكون غرضه من طلبه مرضاة الله تعالى ، واستعماله فيما ينفع عنده ،

وإيثاره الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، فهذه هى النية الصحيحة التى يحمد عاقبتها آجلا ، ويجتنى ثمرتهـا فى طاعة الله عاجلا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلُّ يوم لا أزدادُ فيه علماً يُقربنى إلى الله عز وجل ، فلا بورك فى طلوع شمس ذلك اليوم » .

وقال الحسن ، رضى الله عنه : كان الرجل إذا طلب العلم ، لم يلبث أن يرى ذلك فى تخشعه ولباسه ، وبصره ولسانه ، وطاعته وهديه وزهده ، وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به ، فيكون خيراً له من الدنيا بما فيها ؛ لو كانت له يضعها فى الآخرة ؛ وليأتين على الناس زمان يشتبه فيه الحق والباطل ، فإذا كان كذلك ، لم ينفع فيه إلا دعاء كدعاء الغريق.

وقال سفيان الثورى ، رضى الله عنه : إنما يتعلم العلم ليتقى به الله تعالى ، وإنما فضل العلم على غيره ، لأنه يتقى الله به ، فإن اختل هذا المقصود ، وفسدت نية طالبه ، بأن يستشعر به التوصل إلى منزل دنيوى من مال أو جاه ، فقد بطل أجره ، وحبط عمله ، وخسر خسراناً مبيناً .

قال الله عز وجل : « من كان يُريدُ حَرث الآخرةِ نَزِد له فى حَرثه ؛ وَمن كانَ يريدُ حرثَ الدنيا نؤتهِ منها ، وماله فى الآخِرةِ من نصيبٍ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما روى عنه أبو هريرة : « من تعلمَ علماً لا يَبتغى بهِ وَجهَ اللهِ لم يَجد عَرفَ الجنةِ يومَ القيامةِ » يعْنى ريحها.

واعلم أن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف ، إنما هو العلم الذى يؤدى بصاحبه إلى الخوف والخشية ، وملازمة التواضع والذلة ، والتخلق بأخلاق الإيمان ، وتوافق الإسرار والإعلان ، إلى مايتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها ، وإيثار الآخرة عليها . والموالاة فى الله والمعاداة فيه ، والحرص على التفطن للأسباب الباعثة له على الاستقامة من لزوم الأدب بين يدى الله تعالى ، فيراعيها

حفظاً وطلباً . ومعرفة الأسباب المضادة له عن ذلك ، فيرفضها رفضاً وهرباً ، إلى غير ذلك من المراتب العلية والمناحى السنية .

فبهذا كله يحصل له فوائد العلم وثمراته الدنيوية والأخروية ، فإذا خلا طالب العلم عنها ، أو عن بعضها فإن كان ما يطلبه علما حقيقياً كان حجة عليه ، وإن كان رسمياً كان وبالا واصلا إليه ، والعياذ بالله . ا هـ .

وعن مسروق ، رضى الله عنه : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلا .

وقال فى « الحكم » أيضاً قبل ما تقدم : خير العلم ما كانت الخشية معه .

قال العارف بن عباد : خير العلوم ما يلزم وجوده الخشية لله تعالى ، لأن الله عز وجل أثنى على العلماء بذلك . فقال عز من قائل : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه ، بل لا يسمى صاحبه عالماً على الحقيقة .

قال الربيع بن أنس ، رحمه الله تعالى فى قوله تعالى : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » قال من لم يخش الله فليس بعالم ؛ ألا ترى أن داود عليه السلام قال : ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك ؛ والحكمة الإيمان بك ؛ فما علم من لم يخشك ؟ وما حكمة من لم يؤمن بك ؟

قال فى « لطائف المنن » : فشاهد العلم ، الذى هو مطلوب لله ، الخشية لله . وشاهد الخشية موافقة الأمر . أما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا ، والتملق لأربابها ، وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار ، والمباهاة والاستكثار ، وطول الأمل ونسيان الآخرة ، فما أبعد مَنْ هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء ! وهل ينتقل الشىء الموروث إلى الوارث ، إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه ؟ ومثل مَنْ هذه الأوصاف أوصافه من العلماء . كمثل الشمعة تضىء على غيرها وهى تحرق نفسها . جعل الله العلم الذى علمه من هذا وصفه ، حجة عليه . وسبباً فى تكثير العقوبة لديه .

ونحوه للقلشانى فى «شرح الرسالة» ونصه : وحيثما ورد تعظيم العلم فى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ، فالمراد به العلم النافع ، وشاهد العلم الذى هو مطلوب لله الخشية، إلى آخر ما فى «لطائف المنن» ، وزاد : ولا يغرنك أن يكون به انتفاع البادى والحاضر ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن اللهَ ليؤيِّد هذا الدِّينَ بالرجل الفاجر » .

وقيل : من يتعلم العلم لاكتساب الدنيا ، كمثل من رفع العذِرَةِ بملعقة من الياقوت ؛ فما أشرف الوسيلة ! وما أخَسَّ المتوسل إليه ! ومثل من قطع الأوقات فى طلب العلم ، فمكث أربعين سنة أو خمسين ، يتعلم العلم ولا يعمل به ، كمثل من قطع هذه المدة يتطهر ، ويجدد الطهارة ، ولم يصل صلاة واحدة ، إذ المقصود من العلم العمل ، كما أن المقصود من الطهارة الصلاة . اهـ .

ثم قال ابن عباد : وكان الحسن رضى الله عنه ، يقول : والله ما يطلب هذا العلم أحد إلا كان حظه فيه ما أراد به .

وقال الحسن : عقوبة العالم موت القلب . قيل له : وما موت القلب ؟ قال : طلب الدنيا بعمل الآخرة ، فإن انضاف إلى هذا الغرض أن يتصدى به إلى تولى الأعمال السلطانية كائنة ما كانت ، أو يتوصل به إلى اكتساب مال من حرام أو شبهه ، فقد تعرض لغضب الله تعالى وسخطه ، وباء بإثمه وآثام المقتدين به ، وكان الجهل ، إذ ذاك ، خيراً له من العلم ، وأحمدَ عاقبة .

قال أبو عمر بن عبد البر ، رحمه الله : روينا عن الأوزاعى، رضى الله عنه قال : شكت النواويس « أى المقابر » إلى الله عز وجل ، ما تجد من نتن جيف الكفار ؛ فأوحى الله إليها : بطون علماء السوء ، أنتن مما أنتم فيه .

قال : وروينا عن الفضيل بن عياض ، وأسد بن الفرات . أنهما قالا : إن الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن ، يبدأ بهم يوم القيامة، قبل عبدة الأوثان .

قال الفضيل بن عياض ، رضى الله عنه : لأن من علم ليس كمن لم يعلم ؛ ثم قال : وفى الحديث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « يخرجُ فى آخر الزمانِ رجالٌ يختلونَ الدُّنيا بالدِّين ، يلبسونَ للناسِ جلودَ الضأن ؛ من اللينِ ، ألسنتُهُم أحلى من العسَلِ ، وقلوبهمْ قلوبُ الذِّئابِ . يقولُ الله تعالى : أَبِى تغترونَ أم علىَّ تجترئون ؟ فبى حلفتُ : لأبعثَنَّ على أولئك فتنة تدعُ الحليمَ منهم حيرانًا » رواه عنه أبو هريرة .

وروى أبو الدرداء عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « أنزلَ الله فى بعضِ الكتبِ . أو أوحَى إلى بعضِ الأنبياء : قلْ للذين يتفقهونَ لغيرِ الدِّين ، ويتعلمون لغير العملِ ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، يلبسون للناس مسوكَ الكباشِ ، وقلوبُهم قلوبُ الذئابِ ، ألسنتهم أحلى من العسَل ، وَقلوبهم أمرُّ منَ الصبرِ : إيّاى يخادعون ، وبى يَستهزئون ؟ لأتيحن له فتنة تدع الحليمَ فيهم حيرانًا » .

وفى بعض الأخبار المروية عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « يأتى على الناسِ زمانٌ ، لا يَبقَى من القرآنِ إلا رسمه ، ولا من الإسلام إلا اسمه ، قلوبهم خربة من الهدَى ، ومَساجدهم عامرَة من أبدَانِهم ، شر من تظل السماء يومئذٍ عُلماؤُهم ؛ منهم تخرجُ الفتنة وإليهم تعود » .

وكان سهل بن عبد الله ، رضى الله عنه يقول : لا تقطعوا أمراً من الدين والدنيا إلا بمشاورة العلماء ، تحمدوا العاقبة عند الله تعالى . قيل : يا أبا محمد مَنِ العلماء ؟ قال الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا ، ويؤثرون الله عز وجل على نفوسهم .

وقد قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه فى وصيته : وشاور فى أمرك الذين يخشوْن الله تعالى .

وقال الواسطى ، رضى الله عنه : أرحمُ النـاس العلماء لخشيتهم من الله تعالى ، وإشفاقهم مما علمهم الله ، عز وجل .

وقال فى التنوير ، فى قوله ، صلى الله عليه وسلم : « طالب العِلْم تـكفلَ اللهُ له بِرِزقهِ » :

إعلم أن العلم حيثما تـكرر فى القرآن العظيم ، أو فى السنة ، إنما المراد به: العلم النافع الذى تقارنه الخشية ، وتـكتنفه المخافة . قال الله سبحانه : « إنما يخشى اللهَ من عبادِه العلمـاء » فبين أن الخشية تلازم العلم .

وفهم من هذا : أن العلماء إنما هم أهل الخشية . وكذلك قوله تعالى : « وقالَ الذينَ أوتوا العِلْم » « والراسِخون فى العلم » « وقل رَبِّ زِدْنى عِلْماً » وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائـكة لتضع أجنحتها لطالبِ العلم » . وقوله : « العلماء ورثةُ الأنبياء » . وقوله : ها هنا : « طالبُ العلمِ تـكفل الله برزقهِ » . المراد بالعلم فى هذه المواطن العلم النافع ، القاهر للهوى ، القامع للنفس ، وذلك متعين بالضرورة ، لأن كلام الله ، وكلام رسوله ، أجل من أن يحمل على غير هذا ، وقد بينا ذلك فى غير هذا الـكتاب .

والعلم النافع : هو الذى يستعان به على طاعة الله ، ويلزمك المخافة من الله ، والوقوف على حدود الله ؛ وهو علم المعرفة بالله ، ويشمل العلم النافع ، العلم بالله ، والعلم بما به أمر الله ، إذا كان تعلمه لله .

وقال بعض العارفين : العلم النافع ما زهدك فى دنياك ، ورغبك فى أخراك ، وزادك فى خوفك وهـداك وبعثك على طاعة مولاك ، وصفاك من كدر هواك .

ثم قال ابن عباد : وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى ، رضى الله عنه :

كل علم لا يورث صاحبه الخشية والتواضع ، والنصيحة للخلق والشفقة عليهم ، ولا يحمله على حسن معاملة الله ، ودوام مراقبته . وطلب الحلال ، وحفظ الجوارح ، وأداء الأمانة ، ومخالفة النفس ، ومباينة الشهوات ؛ فذلك العلم الذى لا ينفع ، وهو الذى استعاذ منه النبى ، صلى الله عليه وسلم فقال : « أَعُوذ بِكَ مِنْ عِلم لا ينفَعُ » . ووصف الله تعالى العلماء بالخشية فقال : « إنما يَخشى اللهَ من عِبادِهِ العُلماء » .

وقال بعض السلف : من ازداد علماً ، فليزدد رُجعَى .

وقال رجل للجنيد ، رضى الله عنه : أى العلم أنفع ؟ قال : ما دلك على الله ، وبعدك عن نفسك .

وقال : العلم النافع ، ما يدل صاحبه على التواضع، ودوام المجاهدة، ورعاية السر ، ومراقبة الظواهر ، والخوف من الله ، والإعراض عن الدنيا وعن طالبها ، والتقليل منها ، ومجانبة أبواب أربابها ، وترك ما فيها على من فيها من أهلها ، والنصيحة للخلق وحسن الخلق معهم ، ومجالسة الفقراء وتعظيم أولياء الله تعالى ، والإقبال على ما يعنيه ؛ فإن العالم إذا أحب الدنيا وأهلها ، وجمع منها فوق الكفاية ، يغفل عن الآخرة وعن طاعة الله ، بقدر ذلك .

قال الله عز وجل : « يَعلمونَ ظاهراً من الحياةِ الدنيا ، وهم عن الآخرةِ هم غَافِلون » .

وقال النبى ، صلى الله عليه وسلم : « من أحبَّ دنْياه أضَرَّ بِآخرتهِ ، ومَنْ أحبَّ آخرتهُ أضر بدنياه ، ألا فآثروا ما يَبقى على ما يفنى » .

وقال الفضيل بن عياض ، رضى الله عنه : العالم طبيب الدين ، والدنيا داء الدين ، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه ؛ فمتى يبرئ غيره ؟ فإذا وفق الله العالم من العلماء للإقبال على الله وعلى أوامره ، والإعراض عن الدنيا وما فيها ، ومن فيها ؛ فأول ما يلزمه أن يعرف نعم الله عليه فى ذلك ، ويقوم بواجب الشكر ، ويزيد تواضعا واجتهاداً ، ويعلم أنه محمول على ذلك ، وأن ذلك بتوفيق الله لا بمجاهدة منه ، فإن مجاهدته أيضاً ومعرفته لنعمه من الله عليه بزيادة توفيق ؛ فإذا كان العالم بهذا المحل من الدين ، كان إماماً يقتدى به فى أحكام الظاهر وأحوال الباطن ، يهتدى بنوره كل من صحبه ، ويستضىء بعلمه كل من اتبعه ويكون حجة الله على عباده ، وبركة فى بلاده ؛ ومن قاده علمه إلى طلب الدنيا ، وطلب العلو فيها ، وطلب الرياسة ، واستتباع الخلق ؛ فهو العلم الذى هو غير نافع ، وهو العالم المفتون . ولا حسرة أعظم من أن يهلك العالم بما يرجو به نجاته ، ونحن نعوذ بالله من الخذلان .

انتهى كلام العارف بالله سيدى محمد بن عباد ، رضى الله عنه ، فى شرحه لهذه الحكمة ؛ وجلبته بطوله لما تضمنه من النفائس وكلام الفحول ، فيما الناظم ، رحمه الله ، بصدده ، والله ولى التوفيق .

ولنرجع إلى مجاراة كلام الناظم فنقول : قوله : « لأنه ميراث » . أى : وإنما كان العلم المعتبر ، هو ما أكسب خشية الله ، لأنه ميراث الأنبياء عليهم السلام ، كما فى الحديث الصحيح .

« إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما وُرثوا العلم ؛ فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر » ولا شك أن العلم المعتبر ، هو الذى كان للأنبياء .

ومعلوم أن علم الأنبياء أكسبهم أعلى مراتب الخشية .

قال عليه السلام : « أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » . فالموروث

عنهم من العلم ، هو ما كان بهذه المثابة ؛ فبهذا صح أن تكون هـذه الجملة علة لما قبلها ؛ والله أعلم .

وإذا كان العلم المعتبر ، هو الذى يكسب الخشية من الله عز وجل ، وهو بهذه الصفة الموروث عن الأنبياء ، فإنه لا ينال الاتساع فيه ، وسرعة التحصيل له ، وحسن الفهم فيه غالباً ، إلا الأتقياء الممتثلون لأوامر الله المجتنبون لنواهيه .

قال تعالى : « واتقوا اللهَ ويعلمكمُ اللهُ » .

وتقدم قول الشاعر :

شكوت إلى وكيع سوءَ حِفظى ... فأرشدَنى إلى تركِ المعاصى

وقال : بنىّ إن العلم نورٌ ... ونورُ اللهِ لا يؤتاه عاصِى

وقول الشاعر :

إنارةُ العقلِ مكسوفٌ بطوعِ هوى ... وعقل عاصى الهوَى يزداد تنويرا

وعن الإمام مالك رضى الله عنه : العلم نفور لا يأنس إلا بقلب تقى خاشع .

وعن أحمد بن معين ، رضى الله عنه ، قال : التقى أحمد بن حنبل ، وأحمد ابن أبى الحوارى . فقال أحمد بن حنبل ، لابن أبى الحوارى : حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبى سليمان .

فقال : يا أحمد قل : سبحان الله بلا عجب . فقال : سبحان الله ، وطولها ، بلا عجب . فقال ابن أبى الحوارى : سمعت أبا سليمان يقول : إذا اعتقدت النفوس على ترك المعاصى ، جالت فى الملكوت وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة ، من غير أن يؤدى إليها عالم علماً . فقام أحمد بن حنبل ثلاثاً ، وجلس ثلاثاً ، وقال : ما سمعت فى الإسلام بحكاية أعجب إلىّ من هذه . ثم ذكر حديث : « من عَمل بما عَلم » ثم قال لابن أبى الحوارى : صدقت يا أحمد وصدق شيخك .

وبما قررناه تعلم أن قوله : « فلم ينله » مرتب على ما قبله ومفرع عليه ، والله أعلم .

وبعبارة : وإذا كان العلم ميراث الأنبياء ، فلا يرثه عنهم إلا من كان على قدمهم وهم الأتقياء .

والمعنى كما قررنا : نيل الاتساع فيه ، وسرعة التحصيل له ، وحسن الفهم فيه ، لا مطلق نيله كما هو واضح ؛ إذ الغالب أن الاتساع في العلم وما ذكره معه لا يحصل إلا للمتصف بالتقوى ، المتمسك بعمادها الأقوى .

وقول الناظم : « دليل ذلك : إنما يخشى » . أى والدليل على كون العلم المعتبر هو ما أكسب الخشية ، قول الله تعالى : « إنما يخشى اللهَ من عِبادِهِ العلماء » فقد قصر سبحانه الخشية أى الخوف منه عليهم ، وحصرها فيهم دون غيرهم .

فدل ذلك على أن من انتفت عنه خشية الله منهم ، ليس بعالم ، وعلمه غير معتبر . ولذلك قال الربيع بن أنس ، كما تقدم : من لم يخش الله فليس بعالم .

وقال رجل للشعبى : أفتنى أيها العالم . فقال الشعبى : إنما العالم من يخشى الله عز وجل .

وقيل للشعبى : يا ذا العـالم فقال : من يخشى فذاك العالم

وسأل رجل الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، عن مسألة فأفتاه فيها ، فقال الرجل للحسن : قد خالفك الفقهاء . فزجره الحسن ، وقال : ويحك ! وهل رأيت فقيهاً ؟ إنما الفقيه الذى فقه عن الله أمره ونهيه !

وروى : أن السائل له ، هو فرقد السنجى ، رضى الله عنه ، وأنه حين قال له : قد خالفك الفقهاء . قال له الحسن : ثكلتك أمك فريقد ! وهل رأيت فقيهاً

بعينك ؟ إنما الفقيه: الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجميعهم ، المجتهد فى العبادة ، المقيم على سنة المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، الذى لا يحسد من فوقه ، ولا يسخر بمن هو دونه ، ولا يأخذ على علم ، علمه الله له ، حطاما .

على قدر علم المرء يعظم خوفه ... فلا عالم إلا من الله خائف

وآمن مكر اللهِ ، باللهِ جاهـل ... وخائف مكرِ اللهِ ، باللهِ عارف

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن عدى ؛ عن ابن مسعود قال : ليس العلم من كثرة الرواية ، ولـكن العلم من الخشية .

وأخرج ابن المنذر عن يحيى بن أبى كثير قال : العالم من خشى الله تعالى .

وأخرج ابن أبى شيبة ؛ وعبد بن حميد ، عن مجاهد قال : الفقيه من يخاف الله تعالى .

وأخرج ابن أبى شيبة ، أيضاً عن حذيفة قال : بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله .

وعن مجاهد قال : سأل موسى ربه : أىُّ عبادك أغنى ؟ قال : الذى يقنع بما يؤتى . قال : فأى عبادِك أحكم ؟ قال : الذى يحكم للناس بما يحكم لنفسه . قال : فأى عبادك أعلم ؟ قال : أخشاهم .

وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى «الزهد» ؛ وعبد بن حميد والطبرانى ؛ عن ابن مسعود ؛ رضى الله عنه ؛ قال : كفى بخشية الله علما ، وكفى باغترار بالله جهلا .

وأخرج عبد بن حميد ، عن صالح بن الخليـل ؛ رضى الله عنه فى

قوله تعالى . « إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِن عِبادِهِ الْعُلَماء » . قال . أعلمهم بالله ، أشدهم له خشية .

وقال ابن عباس : إنما يخاف الله مَنْ علم قدرته وسلطانه ، وهم العلماء . إلى غير ذلك .

فالإشارة فى قول الناظم . «دليل ذاك» عائدة لقوله : «والعلم ما أكسب» . إلخ . كما يرشد له قولنا : أى والدليل .

وقوله : «إلى العلماء» مجرور «إلى» محذوف تقديره إلى قوله تعالى : « العلماء » بالرفع حكاية للفظ المفرد . وبين الإغياء المذكور ، انتهاء الشاهد من الآية .

وقوله : « لعموم انجلا » يبين به وجه كون الآية دليلا لما مر ، وهو ما فيها من الحصر والقصر ، وانتفاء العموم ، أى أنها كانت « الآية المذكورة » دليلا لما قيل لأجل ما فيها من انتفاء العموم ، أعنى كون الخشية من الله عامة لجميع الناس ، المستفاد من الحصر ، وقصرها على العلماء دون غيرهم .

فقوله : « انجلا » هو مطاوع جلاه يجليه ، بمعنى نفاه وأذهبه ، يستعمل ثلاثيا ورباعيا ، كما فى « المصباح » .

فمعنى انجلا ، على هذا ، انتفى . والله أعلم .

ولكون نيل الاتساع فى العلم غالبا ، مقصورا على الأتقياء ، ومخصوصا بالبررة الأصفياء ، قيل : العلم يهتف بالعمل ، فإن وجده وإلا ارتحل .

وإلى هذا أشار الناظم بقوله . « لذاك قيل : العلم » . إلخ . فالإشارة راجعة لما تقدم من قوله : فلم ينله غير الأتقياء .

ومعنى « يدعو العمل » إلى آخره ، يبحث عنه ويفتش عليه فإن وجده قَرَّ وثبت ، وإلا ارتحل وما لبث .

وقول الناظم: « فاعمل بما علمت » . . إلخ. مرتب على ما أفاده البيت قبله.

ومعناه : اعمل أيها المرء بما علمته من العلم ، وليكن لذلك ابتغاؤك ، وعليه حرصك ، وبه اعتناؤك ، لا على مجرد الاجتهاد فى تحصيله ، ودرك إجماله وتفصيله ، فإن العمل بالعلم ينتج لصاحبه التحصيل لفنونه ، والفهم لما خفى عنه من عويص مسائله ومكنونه .

وهو إشارة لما ورد فى الحديث ، من قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ ورَّثَهُ اللهُ علمَ ما لم يَعْلَمْ » .

وقال البرزلى فى نوازله : سئل عز الدين عن معنى هذا الحديث ، فأجاب بأن معناه : من عمل بما يعلمه ، من واجبات الشرع ومندوباته ، واجتناب مكروهاته ومحرماته ، أورثه الله من العلم الإلهى ما لم يعلمه من ذلك ، لقوله تعالى : « والذِينَ جاهدوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا » .

وقد ذكر بعض الأكابر من العارفين : أن لكل طاعة لله عز وجل نوعا من الثواب يختص بها ، وأن الإلهام من جملة ما جعله الله تعالى ثوابا للأعمال الصالحات ، فيلهم المعنى إلهاماً للقاضى والمفتى والإمام ، ومن له النظر فى مصالح المسلمين ، وكذا سائر أعمال البر .

وعن الأزاعى رحمه الله : من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم .

وأشار بقوله : « وتمنح مغنما » إلى أنه إنما يحصل العلم لمن عمل به :

العلم لا ينفع إلا إذا به عَملت ، افْهَمْ كلام العبيْدْ
لو كانَ بالعلمِ صلاحُ الفتى لكانَ إبليس نظيرَ الجُنَيْدْ

وقيل :

وإذا الفتى قد نالَ علماً ، ثم لم يعمل به فكأنهُ لم يعلَمِ

قال الشيخ زروق ، رضى الله عنه : قال بعضهم : العلم بلا عمل ، وسيلة بلا غاية ، وعمل بلا علم جناية ، وهما بلا إخلاص كلفة بلا أجر .

قال عليه السلام : « العلم إمامٌ وَالعَمَلُ تابعه » .

وقيل : العالم بلا عمل كالسراج ، يضىء لغيره ويحرق نفسه .

ويرحم الله ابن جزى حيث يقول :

وقائلةٍ لم هجرت التصابى وسنك فى عنفوان الشباب
يمـر زمانُ الصبا ضائعـا ولم تَلهُ فيه بِبيض الكعاب
ولم تدر لذة طيب الهـوى ولم ترو من سلسبيل الرضاب
فقلت : أبى العـلم إلا التقى وهجر المعاصى ووصل المتاب
ومن لم يفده طلابُ العلوم رجاء الثواب وخوف العقاب
فخيرٌ له الجهلُ من علمـه وأنجى له من أليم العـذاب

ووجد بخط ابن عطيه ، رحمه الله :

تعـلم وخذ من كلِّ علم أجله فذو العلم فوق الخلق لاشك يرفع
ولا تك بطالا فتندمُ إذ ترى أكابر أهل العلم للخلق ينفع
لهم فى الدنى جاهٌ عظيم ورفعة ويوم يقوم الناس فى الخلق تشفع
فمن كان بالتقوى وبالعلم عاملا ينلْ قصده ، عنه المصائب تدفع
فـكن خاشعاً تذكر بقوله : «إنما» وتحظى بعلم القوم ، والقدر أرفع

وروى البيهقى . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال . « طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله » .

وقال سيدنا على ، رضى الله عنه : ياحملة العلم اعملوا به ، فإنما العالم من عمل بما علم ، ووافق عمله علمه ؛ فسيكون أقوام يحملون العلم . لايجاوز تراقيهم يخالف علمهم عملهم ، وتخالف سرائرهم علانيتهم ، ويجلسون حلقا يباهى بعضهم بعضا ، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه ، أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك ، إلى الله تعالى . (نقله الشيخ داوود فى شرح الرسالة) .

وعن ابن مسعود أنه قال : كيف بكم إذا ألبستم فتنة يربو فيها الصغير ، ويهرم فيها الكبير ، وتتخذ سنة ، فإن غيرت يوما قيل : هذا منكر ؟ قيل : ومتى ذلك ؟ قال : إذا قلت أمناؤكم ، وكثرت أمراؤكم ، وقلت فقهاؤكم ، وكثرت قراؤكم ، وتفقه لغير الدين ، وتعلم العلم لغير العمل ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة . (رواه عبد الرزاق مرفوعا) .

وفى العتيبة عن الإمام مالك ، رضى الله عنه :

العلماء أربعة :

رجل تعلم علما ، وعلمه ، وعمل به ، فهو قوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

ورجل تعلم علما ، وعمل به ، ولم يعلمه . فهو قوله تعالى : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى » . الآية .

ورجل تعلم علما ، وعلمه ، وأمر به ، ولم يعمل به ، فهو قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » . الآية .

ورجل لم يعلم علما ، ولا عمل به ، فهو قوله تعالى : « أولئك كالأنعام ، بل هم أضل » . وهو كالحنظلة طعمها مر . ولا ريح لها .

وروى الترمذى عن أبى برزة الأسلمى مرفوعا : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به ؟ » .

ومن دعائه ، صلى الله عليه وسلم ، كما فى مسلم والترمذى . « اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع . أعوذ بك من شر هؤلاء الأربع » .

وروى البيهقى عن أبى الدرداء أنه قال : لا أخاف أن يقال يوم القيامة : ياعويمر ماذا علمت ؟ ولكن أخاف أن يقال : ماذا عملت فيما علمت ؟

وحكى عن عيسى عليه السلام أنه قال: ماذا يغنى حمل السراج ، ويستضىء غيره ؟ وماذا يغنى عن البيت المظلم أن يكون السراج على ظهره ؟ وماذا يغنى عنكم أن تتكلموا بالحكمة ولا تعملوا بها ؟

وعنه أيضاً : ما أكثر الأشجار وليس كلها بثمر ! وما أكثر العلماء وليس كلهم بمرشد ! وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع ! (نقله فى الإحياء).

وقال عليه السلام : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، من قتل نبياً ، أو قتله نبى ، أو قتل أحد والديه ، والمصورون ، وعالم لم ينفعه الله بعلمه » .

وقال عليه السلام : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه » .

وقال عليه السلام : « من تعلم علماً ، ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعداً .

وروى الإمام أحمد فى الزهد ، والبيهقى عن منظور بن زادان ، قال : ثبت أن بعض من يلقى فى النار ، يتأذى أهل النار بريحه ! فيقال له : ويلك ما كنت تعمل ؟ أما يكفينا ما نحن فيه من الشر ، حتى ابتلينا بك وبنتن ريحك ؟ فيقول » : كنت عالماً فلم انتفع بعلمى .

وذكر أن الملائكة تتعجب من ثلاثة :

رجل مملوك صالح يدخل الجنة ومولاه يدخل النار .

ورجل جمع مالا يمنع منه حقوق الله فينفقه ورثته فى طاعة الله ، فينجون به وكاسبه فى النار .

ورجل عالم سوء ، ينجو الناس بعلمه ، وهو فى النار .

وقيل لإبراهيم بن عيينة : أى الناس أطول ندامة ؟ فقال : أما فى الدنيا فصانع المعروف فيمن لا يشكره ؛ وأما فى الآخرة فعالم مفرط .

وذكر الغزالى فى الإحياء ، عن بعض أهل العلم أنه قال : إن فى جهنم واديا ، يقال له : الفلق ، وهو المذكور فى كتاب الله عز وجل ؛ وإن جهنم

لتتعوذ بالله كل يوم ، سبع مرات ، من شر ذلك الوادى ، وإن فى ذلك الوادى لَجُبًّا ؛ وأن جهنم والوادى يتعوذان بالله كل يوم ، سبع مرات من شر ذلك الجُبّ ، وإن فى ذلك الجب لَحَيَّةً ؛ وإن جهنمَ والوادىَ والجبَّ يتعوذون بالله كل يوم ، سبع مرات من شر تلك الحية ؛ أعدها الله للمرائين والعاصين من حملة القرآن ، والعلماء الذين يقولون مالا يفعلون ، وينهون الناس ولا ينتهون ، يقرءون كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعملون بهما .

وذكر عن عيسى عليه السلام أنه قال : مثل الذى يعلم الناس ولا يعمل ، هو كمثل امرأة زنت فى السر ، فإذا حملت افتضحت ؛ وكذلك هذا يفضحه الله يوم القيامة . إلى غير ذلك مما ورد فى المعنى ، وبالله التوفيق .

(تنبيه) :

ما تقدم من الأحاديث وكلام الأئمة ، رضى الله عنهم ، كما قال العلامة المحقق سيدى محمد جسوس ، فى شرح الرسالة : حقٌّ فى نفسه لاشك فيه ، ولكن لا ينبغى أن يؤخذ على عمومه ، وإنما هو إشارة إلى طريق العارفين ، ومنهاج السالكين ، فإن حمله على عمومه ، يؤدى إلى هجران العلم وأهله ، وسوء الظن بحملته ، إذ لا يوجد على الوصف الذى ذكروه إلا النادر وهم أفراد معدودون فى القرون ذوات الآلاف : كالفضيل والجنيد وسَرِىٍّ ومعروف والدارانى ، فسبحان من أعطاهم وأعانهم وقواهم ، ولا يجوز أن يُحتقر من سواهم ، ولا أن يذم من عداهم .

فقد قال المواق ، فى « سنن المهتدين » : لا يؤيسنك من طلب العلم ، قول تاج الدين أيوب ومثله فى الإحياء : إن العلم إذا لم تقارنه خشية ، على قارئه نقمته فقط ، ماهو هكذا ، فإن العلماء يقولون فى مثل هذا : إنه من تخليط البداية بالنهاية ، ومن خلط البداية بالنهاية ، فطريقته إلى الضلال أقرب منها إلى الهداية ،

فأقول : إن قارنته الخشية فلك هذا بالنسبة لمن لم يجعله سببا ، وهم السابقون ، وأما من عدا هؤلاء من مقتصد وظالم لنفسه مبين ، إذا لم تمكن فيه جرحة ، فالعلم له رحمة ، وإن لم تدركة خشية ، لا يستوى العالم مع من لاعلم له .

قال : وبالجملة فإن عمل المرء بما علم ، فقدأطاع الله طاعتين ؛ وإن لم يعلم ويعمل فقد عصى معصيتين ، وإن لم يعمل بمقتضى علمه فقد أطاع الله سبحانه طاعة وعصاه معصية .

قال شهاب الدين : فقد حصل من هذا : أن العلم نعمة ، والعمل به نعمة أخرى ، يسألها العبد من ربه مفرقتين ، فيقول : اللهمأرنى الحق حقا ، وارزقنى اتباعه ؛ وأرنى الباطل باطلا ، وأعنى على اجتنابه .

قال العلامة المحقق ، سيدى محمد بن عبد الرحمن بن زكرى ، رحمه الله ، فى شرح الحكم بعد كلام المواق هذا ما نصه :

وكلام المواق حسن ، لاسيما فى هذا الوقت ، الذى غرب فيه العلم ، وقل أهله ، وكاد الناس يختلفون فىالضروريات ؛ فقراءته من أهم المهمات ، والسعى فى تعلمه وتحصيله من أعظم العبادات ، وإن لم تتيسر لقارئه الخشية ؛ فبوجود أهل العلم بين ظهرانى المسلمين ، تحفظ قواعد الإيمان والإسلام ، ويتقرر الدين وتعرف كيفية التعبد لله رب العالمين ؛ حتى قال فىالإحياء : أما العالم الذى ينتفع الناس بعلمه ، فى فتوى أو تدريس ، فترتيب أوراده يخالف ترتيب أوراد العابد ، فإنه يحتاج إلى المطالعة والإفادة ، فإن أمكنه أن يستغرق أوقاته فى ذلك ، فهو أفضل مايشتغل به بعد المكتوبات ورواتبها . قال : وكذلك المتعلم ، الاشتغال له بالتعلم أفضل من النوافل .

وقال أبو إسحاق الشاطبى ، فى جواب له ، ما نصه :

وزماننا هذا لا ينبغى أن يختلف فيه ، أن طلب العلم آكد من غيره ، لمن قدر عليه ، لأنه زمان رفع العلم ، وظهور الجهل ؛ فالعلم مظنة لبقاء هداية الخلق ، وإحياء السنة ، واستقامة الأحوال ؛ ولا علينا أوجد فى الدنيا من انقطع للعبادة أو لم يوجد؟ ولو عـدم العلم لضل الناس ، وصارت الأحـكام جاهلية ، فالقيام بالعلم أحق من غيره بكثير .

وقال الشيخ زروق ، رضى الله عنه ، فى بعض شروح «الحـكم» ، إثر قول « لطائف المنن » : « وهل ينتقل الشىء الموروث إلى آخر ما مر عنه » ما نصه : فيه إشعار بأن العالم غير التقى ليس بوارث ، وفيه نظر لأن إفساد المال الموروث ، والعمل به فى غير حق ، لا يخرج كون الوارث وارثا ، والعقوق لا ينافى النسب ، لـكن يقال فيه : وارث سوء ، ونحو ذلك ، وقد أثبت الله العـلم لمن يخشاه ، وما نفى العلم عمن لا يخشاه . فافهم .

وقال العلامة ابن زكرى فى شرحه للحكم أيضا ما نصه :

وجواب قوله : « العقوق لا ينفى النسب » : أن النسب نسبان :

نسب عام : وهو الإسـلام ؛ يورث به أمر عام ، وهو الـكون من أمة الإجابة ؛ ويتوقف على أمر عام ، وهو التصديق والنطق .

ونسب خاص : وهو نسب القرب والخصوصية ، يورث به أمر خاص ، وهو الـكون من أمناء الأنبياء ، وخلفاء الرسـل ، ليتوقف على أمر خاص ، وهو البرور ، وينتفى بالعقوق ؛ لـكن لا ينتفى أصل القرب والخصوصية بمطلق العقوق ، بل بتفاحش العقوق ، وينتفى بمطلق العقوق كماله .

وكلام ابن عطاء الله وغيره من الأولياء ، ممن بالغ فى جانب العلماء ، منزل على تفاحش العقوق لقوله : « أما علم تسكون معه الرغبة » . . الخ . وهذا كما قال ، والله أعلم (انتهى بحذف بعضه وبعض زيادة) .
فالعلم نافع لصاحبه على كل حال ، ولم يزل علم كل إنسان أكثر من عمله ، فى كل عصر ، والحمد لله رب العالمين ، ولذلك يقول الصوفية : العالم دون ما يقول ، والعارف فوق ما يقول .

وقال أيضا ، فى شرح الحكم ، ما نصه :

وكل ما ذكره الشيوخ فى النص عن النهى عن قراءة العلم بالنيات الفاسدة ، والتحذير من ذلك ؛ فليس مرادهم به ترك قراءته والإعراض عنه ، كيف وهو مطلوب على جهة التعيين أو الكفاية ؟ إنما مرادهم بذلك التنبيه والإيقاظ لإصلاح النية فى قراءته ، والاجتهاد فى تحصيل الإخلاص فيه ، وإلا أدى الأمر إلى تركه الذى هو عين الجهل وأصل الفساد ؛ وذلك بقراءة علم هؤلاء السادات ومطالعة كتبهم ، والنظر فى الأحاديث والآثار المخوفة من الرياء والعجب والرضى عن النفس ، والتنافس فى الدنيا ونحو ذلك ، المرغبة فى ضد ذلك ، ومخالطة أهل الخير والدين ، فبهذه الأمور يستعان على إصلاح النية وتصحيحها .

وقد قال رجل لأبى هريرة كما فى الإحياء : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه ، فقال : كفى بترك العلم إضاعة له .

وقال بعضهم : لا تترك العلم خوف العجب والرياء ، لأن ذلك منتهى بغية الشيطان منك ، إذ مقصوده أن يفوت الإخلاص ، فإذا ترك العلم فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً .

وقال القلشانى ، على قوله فى « الرسالة » : والعلم دليل إلى الخيرات وقائد

إليها ما نصه : هذه إشارة إلى أنه يطلب من الإنسان الاجتهاد فى طلب العلم ، ولو لم تحسن نيته ، فإن العلم يجره إلى الخير .

وقد روى عن بعض المتقدمين أنه قال : طلبنا العلم لغير الله فردنا إلى الله. أى لدلالته إيانا على فضل إصلاح النية وعقوبة إفسادها ، وعلى عظمة المقصود بالعمل وجلاله .

وروى الدارمى عن الحسن : لقد طلب أقوام العلم ، ما أرادوا به الله ولا ما عنده ؛ فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله وما عنده .

وروى أيضا عن مجاهد قال: طلبت هذا العلم وما لنا فيه كبير نية ، ثم رزق الله بعدُ فيه النية .

وقال أيضا الحسن . طلبت هذا العلم للدنيا فجرنا للآخرة ، وقاله سفيان الثورى .

وقال الإمام السنوسى رضى الله عنه ، فى شرح الكبرى مانصه :

الانتفاع بالعلم بيد الله ، وليس بين العلم والعمل ربط عقلى ، لأن هذا لا يقدح فى وجوب العلم ولا فى شرفه ، وليس العلم هو الذى حمل العالم على المخالفة حتى يقدح فى شرفه ، ولا التقليد هو الذى حمل المقلد على الموافقة حتى يدعى شرفه ، بل إنما يحمل العلم فى الحقيقة صاحبه الموفق على الموافقة . ثم هذا العالم المخالف فى الجوارح أحسن حالا من المقلد الموافق ، لأن المقلد قال الجمهور : بعدم صحة إيمانه فلا يكون له عمل ، وقليلُ العمل مع العلم أفضل من كثير العمل بلا علم ، بل لا أثر للعمل الخالى عن العلم أصلا .

وقد شدد رهبان النصارى ، ومن فى معناهم من الجهلة ، على أنفسهم

تشديداً عظيما ، ومــع ذلك لا ينفعهم شيئا فى الآخرة . ثم لو جئنا بعدِّ المحاسن والأعمال التى اتصف بها أكثر العــلماء من أئمة المسلمين ومشايخ الأولــياء ، الذين هم قدوة المتقين ، وما لهم من العلوم ، ثم بثها تعليما وتأليفاً وجهادا لكل مبطل ، حتى انقطع من كل جاهل ومبتدع التشوف إلى الاختلاس من الدين ، لغاب فى أدنى فــكرة لهم جميع أعمال عامة المسلمين ؛ لــكن مشاهدة المتشبهين بأهل العلم وليسوا منهم،وعزة وجود أهل العلم على الحقيقة ، هى التى جسرت الجاهل بمناقب من مضى من أئمــة المسلمين ، على ذكر مترهبى العامة فى معرض ذكر العلماء الراسخين فى العلم ، رضى الله عنهم ونفعنا بهم .

واعلم أن الاشتغال بالعلم أفضل من البطالة والجهل على كل حال ، لــكثرة مفاسد الجهل ، لأن الجاهل لا يطلع على حقائق ما هو متلبس به من المساوىء ، ولا يعــرف ماهو منغمس فيه من الدعاوى ، بل يرى المعاصى طاعات ، ويغلط باعتقادها طاعات وقربات ، وهذه داهية كبرى ، موجــبة للعقاب دنيا وأخرى .

ويدل لهذا ما أخرجه أبو منصور الديلمى ، عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ذنبُ العالمِ ذنبٌ واحدٌ وذنبُ الجاهلِ ذنبان»

زاد فى رواية : « العالمُ يعذبُ على ارتكابه الذنب ، والجاهلُ يعذبُ على ارتكابه الذنب وترك التعلم » .

وقوله عليه السلام . « ويلٌ لمنْ علمَ ولمْ يعملْ مرةً ، وويلٌ لمنْ لمْ يعملْ ولم يعلم مرتين » .

والكلام فى هذا المعنى بحره عميق،والله الهادى من شاء إلى سوى الطريق .

المعاصي تذهب بنور العلم

ثم قال .

[واعلم بأن كدرَ الذنوبِ يكسف نورَ العلم فى القلوب]

[ألا ترى الذبالَ فى الصباح إذا صفا أرضاكَ فى اصطباح]

[وإنْ يكنْ بوسخ ملطخاً كسَفَ نوره لذاكَ وطخا]

[فاحذَرْ على النور الذى وهبت وإنْ تضعْ نورَ الإلهِ خبت]

لما قدم أن العلم نور يهتدى به فى الظلمات وينجو به المرء من وحلات المهلكات ، وبين أن المعتبر منه هو ما أكسب خشية الله ، وأن النافع منه ما عمل به وأريد به وجه الله .

بين هنا آفة ارتكاب صاحبه للذنوب ، وهى انكساف نوره القائم فى القلوب ، بقوله : « واعلم » . . . الخ وهو خطاب لأهل العلم قصد به التحذير والنصيحة .

والكدر : بفتحتين مصدر كدر كتعب ضد الصفو . والمراد به ظلمة ارتكاب الذنوب .

ومعنى يكسف نور العلم : يذهبه ويبدله بالظلمة عياذاً بالله . وهو كناية عن عدم الانتفاع وإقامة الحجة عليه به ؛ إذ الذنب من ذى العلم ليس كالذنب من ذى الجهل ، ولذلك ورد : « ويلٌ للجاهل مرة ، وويلٌ للعالم سبع مرات » وفى رواية « سبعين مرة » . وقيل : زلةُ عالمٍ يضل بها عالم .

ثم مثل نور العلم المضىء فى قلب من لا يرتكب الذنوب ، وانكساف نوره فى قلب من يرتكبها بمثالين محسوسين تقريباً ، بقوله : « ألا ترى الذُّبال » . الخ .

والذُّبال : جمع ذبالة وهى الفتيلة .

والمصباح : السراج .

والاصطباح : الاستينار .

وطخا : معناه أظلم .

ومعناه : ألا تبصر أيها العاقل الفتيلة المجعولةَ فى المصباح ، إذا كانت صافية ليس بها وسخ فإنها ترضيك فى الاصطباح ، ويكون ضوؤها منوراً ، وشعاعها منتشراً .

وهذا مثال للعلم الذى يجتنب صاحبه الذنوب ، ويحذر من انكساف نور القلوب . وإن كانت تلك الفتيلة متسخة لا يكاد يضىء ذلك السراج ، بل ضوؤه يكون مكسوفاً ليس له ابتهاج ، تارة ينطفىء وتارة يضىء ، وما هو بمنطفىء ولا مضىء .

وهو مثال للعلم الذى يرتكب صاحبه الذنوب ولا يراقب علام الغيوب . وما بعد هذا البيان من بيان .

فائدة :

قال بعض الحكماء : ثلاثة تضنى وربما قتلت : رسول بطىء ، ومائدة تنتظر من يجىء ، وسراج لا يضىء . ونظمها من قال :

ثلاثة تُضنى وقيل : تقتل   وهى : رسولٌ مبطىءٌ يارجُل
مائدة تنتظرُ شخصاً يُقبِل   ثم سراج ينطفى ، مكَمِّل

وقوله : « فاحذر على النور » . . الخ حض منه رحمه الله لأهل العلم على الاحتفاظ على النور الذى وهبهم الله إياه ، ألا يذهبوه بارتكاب الذنوب والسيئات ، والتَّجرِّى على المعاصى والمخالفات ، فإن من أضاع نور الله بعد أن وده الله به ، وجعله من أهله وحزبه ، خسر وخاب ، وفاته إكسير النجاة فى

المـآب فما أعظم خيبته ! وما أشد خسارته وحسرته ! « ومن لم يجعلِ اللهُ له نوراً فما له من نُور » .

* * *

ثم قال :

[وزيِّنْ العِلمَ بزينة الورَع واقنع ، فخدنالحِرص فيالذل كرَع]
[إنَّ القنــاعة أعز مِلك وحرفة القنوع شر مُهلك]

أمر رحمه الله من اتصف بالعلم ولبس حلته ، وأكرمه الله به وأولاه رتبته ، أن يزين تلك الحلة الرفيعة الشأن ، ويحليها بالورع الذى هو أعلى درجات الإحسان ، وأن يلزم قلبه القناعة ، التى هى أرفع بضاعة ، ويجنب نفسه الحرص المردى صاحبه المهين مرتكبه ، إذ القناعة أعز ما ملك ، وأنجح سبيل سلك ، والحرص أذل ما رصد ، وشر ما ارتكب من المهالك وقصد .

والزينة : ما يتزين به .

والورع : ترك الشبهات ، والتحرج من اقتحام المشكلات ؛ وهو أصل من أصول الشريعة .

ودليله : حديث الصحيح ،عن النعمان بن بشير رضى الله عنه ؛أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : « الحلالُ بيِّن والحرَام بيِّن وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمنِ اتقى الشبهاتِ فقدِ استبرأ لِعرْضهِ ودينه ، ومنْ وَقعَ فى المشبهاتِ وقعَ فى الحرامِ كالراعى يَحول الحمى يوشك أن يقعَ فيه ، ألا وإنَّ لِكلِّ مَلكٍ حِمى ؛ ألا وإن حِمى اللهِ فى الأرض محارمه ألا وإن فى الجسدِ مضغة ؛ إذا صلحتْ صَلحَ الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهى القلب » .

هذا الحديث الشريف أصل فى الورع ، وفيه سد الذرائع فيترك المباح خوف الوقوع فى المكروه ، والمكروه خوف الوقوع فى الحرام لأن معنى قوله : « من وقع فى المشبهات وقع فى الحرام » : أنه بصدد الوقوع فى الحرام لأن من أكثر تعاطيه صادف الحرام المحض ، وإن لم يتعمده . وفيه أيضاً : الإشارة إلى البعد عما يشين العرض ويثلم الدين .

وفيه أيضاً أن تصفية القوت تنور القلب وتصلحه وهو أمير الجسد وإذا صلح الأمير صلحت الرعية والعكس بالعكس .

وقد اختلف فى تفسير المشبهات .

قال ابن حجر الهيثمى ، فى شرح الأربعين النووية : المشتبه كل ما ليس بواضح الحل والحرمة ، مما تنازعته الأدلة ، وتجاذبته المعانى والأسباب ، فبعضها يعضدها دليل الحلال ، وبعضها يعضدها دليل الحرام .

ومن ثم فسر أحمد واسحاق المشتبه بما اختلف فيه ، وفسره أحمد مرة باختلاط الحلال والحرام .

ثم الحصر فى الثلاثة صحيح لأنه إن نص أو أجمع على الفعل فالحلال ، أو على المنع جازماً فالحرام ، أوسكت عنه ، أوتعارض فيه نصان ، ولم يعلم المتأخر منهما فالمشتبه .

وقال ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى : وحاصل ما فسر به العلماء المشتبهات أربعة أشياء :

أحدها : تعارض الأدلة .

والثانى : اختلاف العلماء وهى منتزعة من الأولى .

والثالث: أن المراد بها قسم المكروه ، لأنه يجتذبه جانبا الفعل والترك .

والرابع : أن المراد به المباح ، ولا يمكن قائل هذا أن يحمله على متساوى الطرفين من كل وجه ، بل يمكن حمله على ما يكون من قسم خلاف الأولى . بل يكون متساوى الطرفين باعتبار ذاته ، راجح الفعل أو الترك باعتبار أمر خارج .

وفى النصيحة الكافية: حد الشبهة تعارض احتمالين ، ومثاراتها أى الأسباب المقتضية لها كثيرة . والأهم منها ما شك فى تحليله وحرمته ، فمنه :

ما فقد حله ، وشك فى مبيحه كصيد بماء لا يدرى أقتله الجارح أم الغرق ؟ فهذا يحرم .

وما علم حله وشك فى محرمه بعلامة، فهذا لا يحرم ؛ ولكن يستحب الورع. وشك بلا علامة وسوسة .

وما طرأ عليه محلل بغلبة الظن كصيد غاب ولم يوجد فيه غير سهمك ، فهذا يحل أيضاً ، إلا أن يكون به أثر غيره .

ولو طرأ المحرم أى بغلبة الظن حرم كإناءين اشتبها .

قال الأذرعى : يحرم الذوق فلو تميز الحل بعلامة عمل عليها . اهـ .

فذكر فى هذا المثار أربعة أقسام ، وذكر أحكامها. ومثل لما عدا الثانى منها ، ومثله فى الإحياء : بما إذا حلف اثنان على النقيض كأن كان هذا غرابا ، أو لم يكن ، وادعى كل واحد منهما اليقين ، والتبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم فى واحد، ولكن الورع تطليقها ، فإن لم يدعيا يقينا طلقتا ، كما أنه إذا تبين خلاف ما جزم به أحدهما طلقت زوجته .

وقوله فى الثالث : فهذا يحل أيضاً ، هو خلاف مذهب المدونة ، واقتصر عليه خليل من الحرمة ، والله أعلم .

ثم قال فى النصيحة : ولو اختلط حرام منحصر بحلال منحصر كذكاة بعشر ميتات ، ورضيعة بعشر نسوة،حرما . وغير منحصر ، بغير منحصر كأموال زماننا لا يحرم إلا بقرينة كأموال الظالمة ، وفيه نظر قاله البلالى . ومنحصر حلال بغير منحصر حرام ، يحرم الجميع ، وعكسه حلال .

فذكر فى هذا المثار أربعة أوجه أيضاً ، وذكر أحكامها ، ولم يمثل للثالث والرابع منها .

ومثال الثالث : مذكاة بميتات ، وأجنبيات حل بمحرمات بنسب أو صهر أو رضاع .

ومثال الرابع : ما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فله أن ينكح ما شاء من نساء ذلك البلد .

وقول البلالى وفيه نظر ، وجهه ما فيه من الجزم بتحريم أموال الظالمة ، مع أن فى المسألة طرقا .

وقد أنكره عز الدين بن عبد السلام (انظر شرح النصيحة) .

وفى شرح الوغليسية: لا يلزم السؤال عن مستور الحال ، والسؤال عنه إذاية له ، بل يحرم وأسواق المسلمين محمولة على الحلال ، وكذلك أموالهم حتى يتبين خلافه ، أو تقوم علامة بينة عليه .

وقال أيضاً : لا ينبغى للمتدين أن يلتفت إلى ما يقوله الناس من حرمة أموال زماننا لعدم علمهم بالبيوع ، وتبايعهم بغير وجه يباح فى بعض الأحوال النادرة. فالأصل فى كل مسلم حلية ما بيده حتى يتحقق خلافه أو يظن بعلامة .

ومثل هـــذا الاعتقاد الذى نهينا عنه يؤدى إلى أمور شنيعة لا نطول بذكرها .

وقال فى موضع آخر منه : فإن من ستر حاله من الغرب ونحوهم ، فالغالب فى المسلمين اتقاء ما يضر ، وليس على المؤمن إلا ما علمه ، أو ظنه بعلامة تفيد الظن أو الشك القادح ، لا مجرد التمزز والوساوس .

وقد كان فى زمن الصحابة الربا والحرام وشبهه من أهل الذمة وغيرهم ، ولكنهم كانوا لا يتقون الأسواق حملا لها على السلامة والأصل ، ووقع النهب فى المدينة زمن ابن الزبير ثلاثة أيام ، ولم يثبت عن أحد من السلف أنه ترك المعاملة لذلك .

وفى الجزولى : الغالب فى مغربنا الحرام لكثرة المكر والغصوبات، وكثرة استعمالهم للكراء الفاسد ، لأنهم يكرون الأرض بما تنبته ، ولا يؤدون الزكاة ، فزروعاتهم كلها حرام لأجل ما ذكرنا .

قال الشيخ زروق فى شرح الإرشاد ، بعد ذكر قضية السلطان أبى الحسن المرينى مع فقهاء وقته ، وقد ذكرها غير واحد ما نصه :

وبالجملة فالإنسان فقيه نفسه بعد التوقف فى موقف الاشتباه ، ومن لم تكن له بصيرة ، فعليه بالتحفظ ما أمكن .

وفى منظومة الإمام ابن العماد الشافعى رحمه الله :

وإن دعاك الذى فى ماله شبهة فاترك إجابته واذهب إلى سبل
وإن دعاك حرام المال دعه ، وقل: إن الإجابة جرم واضح الخلل
النار أولى بلحم بالحرام نما أطب طعامك لا تحطم على دغل
أكل الخبيث به تعمى القلوب فلا تحدث به ظلمة تفضى إلى كلل
دع إن دعاك الذى فى سقفه صور أو فى الستور أو الجدران أو حلل

أو عنده زامر بالناى أو وتـر أو عنده خمرة أو نوبة الطبل

ولما تكلم عز الدين بن عبد السلام على أموال من غلب عليه الحرام ، قال لهم أحوال :

إحداها : أن يعلم أن الذى بذل له من الحلال ، أو من الحرام ، وهذا لا إشكال فيه .

والثانية : أن يعلم أن الذى بذل له من جنس ما يكتسبه من المحرم ، فهذا مكروه أخذه ، والورع عنه متأكد .

الثالثة : أن يكون ما بذل له ليس مما يكتسبه بالسبب المحرم ، فهذا لا بأس بالإقدام عليه ، فإن شك هل اشترى ذلك بالمال الحرام أو لا ؟ فالورع فى هذا خفيف ولا يقضى بتحريمه لأن الأسباب المحللة إذا غلبت حل لك الإقدام ، وإن غلب غيرها حرم الإقدام . وهذا المال دائر بين أن يكون اشتراه فى الذمة ثم نقد الحرام فيه ؛ وهذا أغلب المعاملتين ، وهو جار فى أموال الملوك الظلمة ، والولاة الغشمة ، وقطاع الطريق ، والزوانى وجميع من يغلب عليه الـكسب الحرام .

والعجب ممن يحرم هذا ، مع كونه كذب على الله فى تحريمه ، ولا ينظر أن الامتناع من الـكذب على الله فى التحليل والتحريم واجب ، فإنه لا فرق بين محلل الحرام ومحرم الحلال .

والفلاح كله منوط بالوقوف عند حدود الله تعالى : « وَمَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضَلالا مُبِينًا » .

ونقل عياض عن زيادة الله عامل إفريقية : أنه أجاز العلماء ؛ فمنهم مَن قَبِل ومنهم من رد ، فاستنقص زيادة الله كل مَن قَبِل ، فبلغ ذلك أسدابن

الفرات ، وكان ممن قَبِل فقال : لا عليه ، إنما أوصلنا بعض حقنا ، والله حسيبه فيما يمسكه عنا .

وسئل ابن القاسم عن جوائز الخلفاء ، فقال : حرام . فقيل له : إن أشهب يأخذها . فقال : كن كأشهب وخذها . اهـ .

وانظر شراح الزقاقية وخليل عند قوله : في الشهادات بخلاف الخلفاء .

هذا وقد قال البلالي : الورع عما حرم فرض ، وعما كره كشبهة سنة ، وأعلى منه تركه بعض حلاله مخافة حرامه ، كترك ابن أدهم أجرته ، لشكه في وفاء عمله ، وطوى عن جوع شديد . فبالله ! ما لم تعلم حله يقينا اتركه ، كتركه عليه السلام تمرة ، خشية أن تكون من الصدقة ، كما في البخاري . وترك الشبهة مهم ، فلو اضطر فبعد تمام البحث وسؤال المحققين .

قال في شرح الوغليسية : والمرء فقيه نفسه فربما وجب تناول الشبهة لمعارضة تركها بحرام ، كما أفتى بعض السلف فيمن لم ترض عنه أمه إلا بأكل طعام أخيه ، وكان شبهة .

وكقول مالك : الشبهة أطيب من المَسْأَلة ؛ إلى غير ذلك .

وقد مثل في الشرح المذكور لما تركُه ورع ، بأموال السلاطين ، وصوم يوم عرفة إذا قويت الظنة أن يكون يوم العيد ، ولما فعله ورع : بالسِّواك لقول داوود ، والمضمضة والاستنشاق : لقول أبي حنيفة ، وغسل الجمعة : لقول أهل الظاهر ، والخروج بعد صلاة الجمعة : لقول الظاهرية أيضاً ، إلى غير ذلك مما لا إنكار عليه في مذهبه ، كالبسملة في الفرض إذ مشهور المذهب الكراهة .

تنبيهات :

الأول : قال البلالي : ما يتيقن حله لقوته وكسوته والمشتبه لمنافع منفصلة ، وإن اختلط اشترى على ذمته ونقد ما أشبه ثمنا .

الثانى : قال الجزولى رحمه الله : اختلف فى المتشابه فقيل : مباح لقوله تعالى: « هُوَ الَّذى خَلَقَ لَكُم مافى الأرضِ جميعاً » . وقيل حرام لقوله تعالى : أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ، ومن العلماء من توقف فيه .اهـ

الثالث : ورد فى بعض الأخبار : يأتى على الناس زمان يضلون دينهم فلا يعرفونه ، يصبح الرجل على دين ، ويمسى على دين ، يظل من أمره على غير يقين ؛ تسلب عقول أكثر أهل ذلك الزمان ، فأول ما يرفع منهم الخشوع ، ثم الأمانة ، ثم الورع . اهـ

الرابعة : الورع بالمعنى المتقدم : هو الورع الظاهر لعامة الناس ، وورع الخاصة صحة اليقين ، وكمال التعلق برب العالمين ، ووجود السكون إليه وعكوف الهمم عليه ، وطمأنينة القلب به ولا يكون له ركون إلى غير ، ولا انتساب إلى خلق ولا كون ؛ فهذا هو الورع الذى يقابل الطمع المفسد ، وبه يصلح كل عمل مقرب ، وحال مسعد .قاله العارف ابن عباد ، رضى الله عنه .

وقال فى لطائف المنن : واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا القليل، فإن من جملة ورعهم : تورعهم أن يسكنوا لغيره ، أو يميلوا بالحب لغيره ، أو تمتد أطماعهم بالطمع فى غير فضله وخيره . ومن ورعهم : ورعهم عن الوقوف مع العادات ، والاعتماد على الطاعات ، والسكون إلى أنوار التجليات. ومن ورعهم : ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا ، أو توقفهم الآخرة ؛ تورعوا عن الدنيا وفاء ، وعن الوقوف مع الآخرة صفاء .

قال: وقال الشيخ أبو عثمان بن عاشوراء : خرجت من بغداد أريد الموصل ، فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت على بعزها وجاهها ورفعتها ، فعرضت على الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها ، فقيل لى : يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية ، ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنا ، فها نحن

لك وقسطك من الدارين يأتيك .

ثم قال: وقال أبو الحسن: الورع نعم الطريق، لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله ، والقول بالله والعمل لله وبالله ، وعلى السنة الواضحة والبصيرة الفائقة فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم ، لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون ، إلا بالله ولله من حيث يعلمون ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون فى عين الجمع ، لا يعترضون فيما هو أعلى، ولا فيما هو أدنى .

وأما أدنى الأدنى فالله يورعهم عنه ثوابا لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم؛ ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث ، فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى ، وميراثه التقذر لخلقه والاستكبار على مثله ، والدلالة على الله بعلمه . فهذا هو الخسران المبين ؛ والعياذ بالله من ذلك . والأكياس يتورعون عن هذا التورع ويستعيذون بالله منه ، ومن لم يزدد بعلمه وعمـله افتقارا لربه ، واحتقارا لنفسه ، وتواضعا لخلقه ، فهو هالك . فسبحان من قطع كثيرا من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم ، كما قطع كثيرا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم ، فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير .

ثم قال : فانظر فهّمك الله سبيل أوليائه ومن عليك بمتابعة أحبابه ، هذا الورع الذى ذكره هذا الشيخ رضى الله عنه . هل كان فهمك يصل إلى هذا النوع من الورع ؟ ألا ترى قوله : قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله ، والقول بالله والعمل لله وبالله ، على السنة الواضحة والبصيرة الفائقة .

فهذا هو ورع الأبدال والصديقين لا ورع المتنطعين الذى ينشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم .اه

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : الورع على وجهين : ورع فى الظاهر وهو أن لا تتحرك إلا لله ، وورع فى الباطن وهو ألا يدخل قلبك إلا الله .

ذكر أن بعضهم كان حريصا على أن يرى أحداً ممن هـذه صفته ، فجعل يجتهد فى طلبه ويحتال على التوصل إليه ، بأن يأخذ الشىء بعد الشىء من ماله ويقصد به الفقراء والمساكين ويقول لمن يعطيه : خذ ، لا لك ، فكانوا يأخذون ولا يسمع من أحد منهم جوابا مطابقا لما أراده ، إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته وحصل على مقصوده ومنيته ، وذلك أنه قال لأحدهم : خذ ، لا لك ، فقال : آخذه لا منك . أ هـ .

وقال الشيخ عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : الورع أن لاتتحرك ولا تسكن إلا وترى الله فى الحركة والسكون ، فإذا رُئى الله ذهبت الحركة والسكون وبقى مع الله ، فالحركة والسكون ظرف لما فيهما اهـ .

الخامسة : قد يطلق الورع بمعنى التقوى ، وقد يطلق أيضاً بمعنى اجتناب المنهيات . فمن الثانى ما روى عن عمران بن حصين ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « قال الله عزّ وجلّ : عبدى أدِّ ما افترضت عليك تكن من أعبد الناس ، وانتهِ عما نهيتُك تكن من أوْرَع الناس ، واقنع بما رزقتك تكن من أغنى الناس » . فاقتصر فى تفسير الورع على أنه اجتناب المنهيات .

ومن الأول . ما فى « المدارك » فى ترجمة ابن القاسم ، قال يحيى : تذاكرنا يوماً مع ابن القاسم هذا الأمر ، فكلنا قال : الورع أشد ما فى هذا الدنيا . فقال ابن القاسم : ماهو عندى كذا . فقلت : ياأبا عبد الله . وكيف ذلك ؟ فقال : إنا أمرنا ونهينا ، فمن فعل ما أمر به ، وترك مانهى عنه ، فذاك أورع الناس فقيل له : ياأبا عبد الله — لقد خف عليك ما ثقل على غيرك ، فأى شىء وجدت من هذا الأمر أثقل ؟ فقال : ما وجدت شيئاً أثقل على من مكابدة أجزاء الليل . اهـ

وقال فى القاموس ما نصه : الورع مُحرَّكا : التقوى ، وقد ورع كورث وو‌جل ووضع وكرم وراعة وورعا : تحرج وتوقى من المحارم .

والتقوى امتثال الأوامر ظاهراً وباطناً ، واجتناب النواهى ظاهراً وباطناً وحاصل التقوى . . الخ .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنها ترك ماحرم الله ، وأداء ما فرض الله .

وعن شهر بن حوشب : المتقى من يترك مالا بأس به ، حذرا من الوقوع فيما فيه بأس .

وقال : أبو زيد : التقوى التورع عن كل ما فيه شبهة .

وقال محمد بن حنيف : التقوى مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى .

وقال سهل : المتقى من تبرأ من حوله وقوته .

وقيل : التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك .

وقال ميمون بن مهران : لا يكون الرجل تقيا ، حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر .

وعن أبى تراب: بين يدى التقوى خمس عقبات لا ينالهن من لا يتجاوزهن: إيثار الشدة على النعمة ، وإيثار الضعف على القوة ، وإيثار الذل على العزة ، وإيثار الجهد على الراحة ، وإيثار الموت على الحياة .

وقال بعض الحكماء : لا يبلغ الرجل سنام التقوى ، إلا أن يكون بحيث لو جعل ما فى قلبه فى طبق ، وطيف به فى السوق لم يستحى ممن نظر إليه .

وقيل : التقوى أن تزين سرك للحق ، كما تزين علانيتك للخلق .

وفى تفسير أبى السعود ، بعد نقل الأقوال المذكورة ما نصه : والتحقيق أن للتقوى ثلاث مراتب :

الأولى : التوقى عن العذاب المخلد ، بالتبرى عن الكفر . وعليه قوله تعالى : « وألزَمهم كلمة التقوى » .

والثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف بالتقوى فى الشرع ، وهو المعنى بقوله تعالى : « ولو أنَّ أهلَ القُرى آمنُوا واتَّقَوْا » .

والثالثة : أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عز وجل ، ويتبتل إليه بكليته ، وهو التقوى الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى : « يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حقَّ تقاتِه » .

ولهذه المرتبة عرض عريض ، يتفاوت فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعدادهم الفائضة عليهم ، بموجب المشيئة الإلهية ، المبنية على الحكم الربانية ، أقصاها ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، حيث جمعوا بذلك بين رياسة النبوءة والولاية ، وما عاقهم التعلق بعالم الأشباح عن العروج إلى معارج الأرواح ، ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق فى شئون الحق ، لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية . وهداية الكتاب المبين ، شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين . اهـ

وقال ابن جزى فى تفسيره : درجات التقوى خمس : تقوى الكفر وهو مقام الإسلام ، وتقوى المحرمات ، وهو مقام التوبة ، وتقوى الشبهات ، وهو مقام الورع ، وتقوى المباحات ، وهو مقام الزهد ، وتقوى خطوز غير الله على القلب ، وهو مقام المشاهدة.

قال والبواعث على التقوى عشرة : خوف العقاب الدنيوى والأخروى ، ورجاء الثواب الدنيوى والأخروى ، فهذه أربع . وخوف الحساب ، والحياء

من نظر الله وهو مقام المراقبة،والشكر على نعمه بطاعته . والعلم لقوله : « إنَّما يخشَى اللهَ من عبادِهِ العُلَماءُ » . وتعظيم جلال الله وهو مقام الهيبة. وصدق المحبة . أى لأن المحب لا يرى إلا ساعياً فيما يرضى محبوبه اهـ

وقد نظم درجاتها المذكورة العلامة سيدى عبد القادر بن شقرون رحمه الله ، بقوله :

مراتب التقوى لخمس قُسِّمت　　كفرٌ حرام ، شبهة قد عُلِمت
ثم مباحٌ ، لحظُ غيرِ اللهِ　　فلا تكنْ عن ذكره باللاهى
إسلامُنا الأولُ ثم توبة　　وورعٌ ، زهدٌ ، فشاهد قربه

وذيلها بذكر بواعثها المذكورة والدنا وسندنا العلامة ، حفظه الله ، بقوله :

ثم البواعثُ عليها عشرة　　خوفُ العِقاب فى الدُّنى والآخِرهْ
كذا رَجا الثوابِ فيهما ، وزِدْ　　شكراً حياء ، ثم عِلماً لا تحِدْ
خوفُ الحسابِ ثم صدقُ الحب　　كذاك تعظيمُ جلالِ الرب

وقال فى « روح البيان » : قال الواسطى : التقوى على أربعة أوجه : للعامة تقوى الشرك ، وللخاصة تقوى المعاصى ، وللخاص من الأولياء تقوى التوصل بالأفعال ، وللأنبياء تقواهم منه إليه .

وقال الإمام أبو حامد الغزالى فى « منهاج العابدين » : إن التقوى تطلق بمعنى الخشية والهيبة : (وإيايَ فاتقون) ، « واتقوا يوماً تُرْجعُون فيه إلى الله » .

وبمعنى الطاعة والعبادة : « اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقاتِهِ » . قال ابن عباس : أى أطيعوا الله حق طاعته . وبمعنى تنزيه القلب عن الذنوب قال :

وهذه هى الحقيقة فى التقوى دون الأولين . ألا ترى أن الله تعالى يقول : « ومن يُطع اللهَ ورسولهُ ، ويَخشى اللهَ ويتقهْ فأُولئكَ همُ الفائزونَ » .

فذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى إشارة إلى أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية ، وهى تنزيه القلب عن الذنوب . اهـ . . . الخ .

وقد أجزل الله تعالى لأهلها الثواب والأجر ، وحض عليها وأوصى بها فى غير ما آية من آيات الذكر . فذكرها فى كتابه ما يقرب من مائتى مرة ، وذلك دليل تعظيمها . فليشمر العاقل فيها عن ساعد جده ، ويعمل فى تحصيلها بغاية جهده ، فمنها يدخل للعلم النفيس الذى يتفجر من قلوب العارفين . قال تعالى : « واتقُوا اللهَ ويُعلمكُمُ اللهُ » .

قال الشيخ زروق : وكان بعض السلف يوصينى ، ويقول : التقوى عز ، والعلم كنز ، وترك الشر حرز . وصدق رحمه الله .

وفى الحديث كما فى أبى السعود : « جُمّاع التقوى فى قوله تعالى : « إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِى القُرْبى » . الآية .

وفى الحديث أيضاً : « مَنْ سرَّهُ أن يكونَ أكرمَ الناس فليتقِ الله » .

وقال عليه السلام : إنى لأعرف آية لو أخذ الناس بها لكفتهم : « ومنْ يتقِ اللهُ يجعلْ له مَخرْجاً » . قال ابن عباس : من شبهات الدنيا ، وغمرات الموت ، وشدائد الآخرة .

وقال الربيع : معناه من كل أمر ضيق على الناس :

بتقوَى الإله نجا مَنْ نجا ... وفازَ ، وصارَ إلى ما رَجا
ومنْ يتقِ الله يجعلْ لـــهُ ... كما قال ، من أمره ، مَخرجا

وقال :

من عرفَ اللهَ فلم تُغنهِ معرفةُ اللهِ فذاكَ الشقى
يزعم أن العزَّ فى ماله والعزُّ كل العزِّ للمتقى

وفى نظم رسالة القشيرى ما نصه :

واتفق الكبير والصغير منهمْ على أنّ الفتى مَغرور
ما لم يكُ التقوى ومحضُ الورَع أساسه وحبّذا مِن منزَع

ومن نظم الشيخ الأكبر والعارف الأشهر ، القطب الكامل ، الجامع الواصل ، مولانا عبد السلام بن مشيش ، نفعنا الله به ، ما نصه :

عليكَ بتقوى اللهِ فى السرِّ والجهر إذا شئتَ توفيقاً إلى سبل الخير
لأنَّ التقى أصلٌ إلى البرِّ كله فخذْه تفزْ بكلِّ نوع من البرِّ
وخيرُ جميعِ الزادِ ما قال ربنا فكنْ يا أخى لِلهِ مُمتثلَ الأمر
وكنْ صابراً إن شئتَ تظفر بالمنى لأن إلهَ الخلق أثنى على الصبر
وكن خاشعاً لله بالعلم والرضى مع الذكر والإخلاص والزهد والشكر
وَكنْ ورعاً وأرضَ القناعة حرفة وكنْ صادقاً لِلهِ فى حالة الفقر
وداوم على القرآن إن كنت قارئاً وإلا فما تقوى عليه من الذكر
وخالفْ هوَى النفس اللئيمةِ إنها تميلُ لِما يُطغى وتكرهُ للخير
ولا تطمعن فى الخلق وارضَ بخالق يجودُ على المخلوق فى البرِّ والبحر

وفى « طالعة العهود المحمدية » : من شأن الأشياخ أخذ العهد على المريد بتركه المباح ، زيادة على الأمر والنهى طلباً لترقيه .

ثم قال : وثبت أنه صلى الله عليه وسلم نهى بعض أهله عن فعل المباح ؛

فنهى فاطمة ، رضى الله عنها عن لباس الحرير والذهب ، مع أنه رخصة لإناث أمته . وقال لها : « يا فاطمة من لبسَ الحريرَ فى الدُّنيا لم يلبسه فى الآخرة » .

ونهى عائشة عن الأكل فى اليوم مرتين ، وقال : « أكلتان فى النهار إسراف ، والله لا يحب المسرفين » مع أنه أباح لأمته أن يجمعوا أكل يوم مرتين الغداء والعشاء ، وهو الأكثر من فعله صلى الله عليه وسلم رحمة بالضعفاء من أمته .

والقناعة : الرضا بالقسم كالقنع محركة ، والقنعان بالضم والقنوع بالضم : السؤال ، وبابه خضع وقيل : التذلل فى المسألة .

وقال أبو الفتح بن جنى : إن القنوع قد يكون بمعنى الرضى بالقسم واليسير من العطاء فهو ضد أى فهو من أسماء الأضداد : وعليه ما فى المثل : « خير الغنى القنوع ، وشر الفقر الخضوع » .

وقال ابن السكيت : ومن العرب من يجيز القنوع بمعنى القناعة ، وكلام العرب الجيد هو الأول ، والأول هو مراد الناظم كما لا يخفى .

وفى دعائهم : « نسأل الله القناعة ، ونعوذ بالله من القنوع » .

وقال الأصمعى : رأيت أعرابياً يقول فى دعائه : اللهم إنى أعوذ بك من القنوع والخنوع والخضوع ، وما يغض طرف المرء ويغرى به لئام الناس . وفعل القناعة أى ماضيها كفرح وسلم يقال : قنع بنفسه قنعاً وقناعة فهو قنع وقانع وقنوع وقنيع .

وفى الحديث : « القناعةُ كنزٌ لا يفنَى ومالٌ لا ينفدُ » رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر مرفوعاً . أى لأن الإنفاق منها لا ينقطع كلما تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى .

وفى حديث آخر : « عزَّ مَنْ قنع وذَلَّ من طمعَ » . لأن القانع لا يذله الطلب ولا يزال عزيزاً . قال وهب بن منبه رحمه الله : إن العز والغنى خرجا يجولان ، فلقيا القناعة فاستقرا فيها . ويرحم الله القائل :

حسبى بِعِلْمى إنْ نَفَع   ما الذلُّ إلاَّ فى الطَّمَع
من راقبَ الله نَزَع   عن سوءِ ما كانَ صنع
ما طارَ طيرٌ وارتفعْ   إلاَّ كما طارَ وَقَع
العبدُ حرٌّ ما قنَع   والحرّ عَبدٌ ما قَنِع
فاقْنَع ولا تَقْنَع فما   شىءٌ يشينُ كالطمَع

الأول بمعنى رضى ، والثانى بمعنى سأل :

العبدُ حرٌّ ما عصى طمعاً   والحرُّ مهما أطاعهُ عبدُ

وعن الحسن : لا يزال الرجل كريماً عند الناس ، حتى يطمع فى دنياهم ، فإذا فعل ذلك استخفوا به ، وكرهوا حديثه وأبغضوه .

وسأل كعب الأحبار عبد الله بن سلام ، بحضرة عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم : ما يذهب بالعلم من قلوب العلماء بعد ما حفظوه وعقلوه ؟ فقال : يذهبه الطمع ، وشره النفس ، وطلب الحاجات إلى الناس . قال : صدقت .

وفى الحكم العطائية : أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما فيه طامع .

وإنما كان الإنسان عبد لما طمع فيه ، لأن الطمع فى الشىء يقتضى المحبة له والخضوع والانقياد إليه ، فيكون عبد أمره ونهيه ، لأن حبك الشىء يعمى ويصم . وهذه حقيقة العبودية .

والطمع : هو تعلق القلب بما فى أيدى الخلق ، وتشوف القلب إلى غير الرب .

قال الشيخ أبو العباس المرسى : والله مارأيت العز إلا فى رفع الهمة عن الخلق .

والخدن بكسر الخاء: الصديق والصاحب، ومنه: « ولا مُتخذَات أخدَانٍ ».

والحرص : الجشع وهو شدة الإرادة والشره إلى المطلوب .

وفى الحـكم : البخيل مذموم ، والحسود مرجوم ، والحريص محروم .

ويقال : لا تـكن على الدنيا حريصاً تـكن حافظاً ، فإن الحرص على الدنيا يورث النسيان .

وفى كلامهم : قُرنَ الحرصُ بالحرمان .

ومراد الناظم بالحرص هنا ، ما يشمل الطمع كما هو ظاهر ، والله أعلم .

والذل : ضد العز وهو الإهانة .

وكرع فى الماء تناوله بفية من موضعه ، من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء ، وبابه خضع . وفيه لغة أخرى من باب فهم .

والمراد أن الحرص إنما ينتج لصاحبه الذل والحرمان .

ولذلك قال فى الحـكم العطائية : « ما بسقت أغصان ذل إلا من بزر طمع » .

وإنما كان الطمع أصل الذل لأن صاحبه ترك ربا عزيزاً ، وتعلق بعبد حقير فاحتقر ، ترك ربا غنياً وتعلق بعبد فقير فافتقر . ترك رفع همته إلى الغنى الـكريم وأسقط همته إلى الدنى اللئيم . إن الله يرزق العبد على قدر همته .

ولما قدم سيدنا على ، رضى الله عنه، البصرة ، دخل جامعها فوجد القصاص يقصون فأقامهم حتى وجد الحسن البصرى ، فقال : يافتى إنى سائلك عن أمر

فإن أجبت عنه أبقيتك ، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك . وكان قد رأى عليه سمتاً وهديا . فقال الحسن : سل عما شئت فقال : ما ملاك الدين ؟ قال : الورع . قال : فما فساد الدين ؟ قال : الطمع . قال : اجلس . مثلك من يتكلم على الناس .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى ، رضى الله عنه : كنت فى ابتداء أمرى بالإسكندرية فجئت لملى بعض من يعرفنى ، فاشتريت منه حاجة بنصف درهم . فقلت فى نفسى : لعله لا يأخذه منى . فهتف بى هاتف : السلامة فى الدين ترك الطمع فى المخلوقين .

وقال رضى الله عنه أيضاً : صاحب الطمع لا يشبع أبداً . ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة : الطاء والميم والعين .

وقال أبو الحسن الوراق رحمه الله : من أشعر من نفسه محبة شىء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع ، ومن طمع فى شىء ذل له ، وبذله هلك .

وقال أبو بكر الوراق رحمه الله : لو قيل للطمع : من أبوك ؟ لقال : الشك فى المقدور ؛ فلو قيل له : ما حرفتك ؟ لقال : اكتساب الذل ؛ فلو قيل له : ما غايتك ؟ لقال : الحرمان .

وأنشدوا فى المعنى :

أضرعْ إلى اللهِ لا تضرعْ إلى النَّاسِ ... واقنعْ بعزٍّ فإنَّ العزَّ فى اليَاسِ
واستغنِ عن كلِّ ذى قربَى وذى رَحمٍ ... إن الغنىَّ من استغنى عن النَّاسِ

الحاصل : أن محبة الأشياء والطمع فيها هو سبب الذل والهوان ، والتعبد لسائر الأكوان ، وأن الإياس من الأشياء ورفع الهمة عنها ، هو سبب العز والحرية والتيه على الأقران .

وَلله در القائل :

رأيتُ القناعةَ رأسَ الغنى فصرتُ بأذيالها ممتسك
فألبسنى عزُّها حـــلةً يَمرُّ الزَّمانُ ولا تُنتهك
فصرتُ غنياً بِلاَ دِرْهم أتيهُ على الناسِ تيهَ الملك

وأعز أى أشرف وأفضل ، وتفسيره بما ذكر هو الأليق بكلام الناظم

والملك مثلث الميم ، مصدر ملك .

والمعنى : أن القناعة أعز وأفضل ما ملكه الإنسان ، وأشرف ما أوتيه من ضروب الامتنان .

والحرفة بالكسر : الطعمة والصناعة التى يرتزق منها ، وهى جهة الكسب . ومنه ما يروى عن سيدنا عمر رضى الله عنه : إنى لأرى الرجلَ فيعجبنى فأقول : هل له حرفة ؟ فإن قالوا : لا . سقط من عينى (وكل ما اشتغل الإنسان به يسمى صنعة وحرفة) .

والهُلاك بضم الهاء مصدر هلك ، يقال : هلك كضرب ومنع وعلم هلكا بالضم وهلاكا وتهلوكا وهلوكا بضمهما ومهلكة وتهلكة مثلثى اللام : مات . قاله فى القاموس .

واعلم أن سؤال الناس والطمع فى الخلق أقبح الخصال وأسوأ الخلال ، وقد جاء فى ذمه كلام كثير .

من ذلك قول بعضهم :

يَاصاحِ ردُّ أمسِ بالحبال وحبسُ عينِ الشّمس بالعقال

ونقلُ ماءِ البحرِ بالغربال أهونُ من مواقفِ السُّؤال

آخر :

ما اعتاض باذلُ وجهِهِ بسؤالِهِ عِوضاً ، ولو نالَ الغنى بسُؤالِ
وإذا السؤالُ مع النَّوال وَزَنْتَهُ رَجحَ السؤالُ وخفَّ كل نوال

وفى الحديث : استَغنُوا عن الناسِ ولو بِشوْصِ السِّواك .

وروى أن سالم بن عبد الله دخل البيت الحرام ، فصادف فيه هشام ابن عبد الملك ، فقال له هشام : سلْ حاجتك ، فقال . إنى أكره أن أسأل فى بيت الله غير الله .

وفى كتاب أبى داود : المسائل كُدُوم يكدم بها الرجل وجهه ، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك .

ورُئى بعضهم فى يوم قَارٍّ ، وهو يرتعد من البرد ، فسئل عن ذلك ، فقال :

قطعُ الليالى مع الأيام فى خُلُقٍ والنومُ تحتَ رِواقِ الهم والقلقِ
أولى وأجدرُ بى من أنْ يقالَ غداً كيفَ التمستَ الغنى مَن كفُ مختلقِ ؟
قالوا : قنعتَ بذا ؟ قلت : القنوعُ غنى ليس الغنى كثرة الأموال والورَقِ
رضيتُ بالله فى عسرى وفى يسرى فلستُ أسلكُ إلا واضحَ الطرُقِ

وفى نظم للعالم الأديب النحوى اللغوى أبى عبد الله سيدى محمد بن أحمد ابن الشاذلى الدلائى ، رحمه الله ، بين فيه حال نفسه فى علو الهمة ما نصه :

ما إنْ يعيبكَ فقدُ الحُلى والحلل إن أنتَ بالهمةِ الشماءِ كنتَ مـلِى
قدْ ضلَّ منْ ظن أن المال يرفع ما أوْهى السؤالُ بعرض فيهِ مبتذل
لا باركَ اللهُ بعدَ العرضِ فى عَرض الدنيا ، ولا نلتَ مَا بالعز لمْ أنلِ

إلى أن قال :

نفسُ الكريم تعافُ الوِرْدَ يصحبهُ ذلٌّ ، على ظمأ في الجوف مشتعلِ
لو كنت سائل غير الله لم أسل غير المذاكى وغير البيضِ والأسلِ
لا ترض بالعيشِ في ظل الهوان وخض لنيل عز غمار الموت والثكلِ
فليسَ يدركُ بالجبنِ البقاءُ ولا الإقدام يقضى بما لم يقضِ في الأزل

وفي هذا القدر كفاية ، والله ولى التوفيق والهداية .

تفهيم :

القناعة مطلوبة في أمور الدنيا فقط ، وأما في أمور الآخرة أو في زيادة العلم أو الترقى في المعرفة فمذمومة .

ولذلك قيل : القناعة من الله حرمان .

* * *

أدواء القلب ودواؤها

[واطلبْ شفاءَ قلبكَ المريضِ من قبل أنْ تغص بالجريضِ]
[ولا تظنَّ البرء من دَوائكَ إلا بقطعِ النفس عَنْ هواكِ]

والمعنى : ابحث أيها العاقل وفتش عن دواء قلبك السقيم ، وتداركه باستعمال الدواء النافع من أدوائه الموجبة للعذاب الأليم ، ومن قبل أن ينزل بك عرض الممات ، وتعاين ما يتبعه من أنواع البليات ، لأنه حينئذ لا ينفع دواء ، ولا يرجى من داء شفاء ، ولا تعتقد أيها العاقل حصول الشفاء والبرء من دائك المقيم ، ومرض قلبك الذى هو به مقيم ، وأنت مقر نفسك على هواها ومساعد لها في مناها ، بل حتى تفطمها عن الشهوات وتقمعها عما تريده من الهوى واللذات . فيتعين على العاقل البحث عن أدواء قلبه فيستعمل دواءها

إذ المـدار على القلب ، فإذا صلح حصل الخـير كله . والعكس بالعكس .

وتقدم لنا حديث النعمان بن بشير وفيه : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسَد الجسدُ كله ، ألا وهى القلب » .

وقد ورد : إن الله لا ينظرُ إلى صُوَركم ولا إلى أعمالكم ، وإنما ينظُر إلى قلوبكم .

ويفهم من هذا الحديث أن المناهى المتعلقة بالظاهر فروع من المناهى المتعلقة بالباطن .

قال بعض العلماء : من عمل لآخرته كفاه الله تعالى أمر دنياه ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته .

وقال العارف بالله سيدى محمد بن عباد رضى الله عنه : ومعاصى القلوب أشد بكثير من معاصى الجوارح . قال : وصلاح القلب إنمـا يـكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها دقيقها وجليلها .

وهذه هى الصفات المناقضة للعبودية من أوصاب البشرية ، وهى التى تسم صاحبها بسمة النفاق والفسوق ، وهى كثيرة مثل : الـكبر والعجب والرياء والسمعة والحقد والحسد وحب الجاه والمال .

ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة ، من العداوة والبغضاء ، والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء ، وترك الثقة بمجىء الرزق ، وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق ، والشح والبخل وطول الأمل ، والأشر والبطر والغل والغش والمباهاة والتصنع والمداهنة والقسوة والفظاظة والغلظة ، والغفلة والجفا والطيش

والعجلة والحدة والحمية وضيق الصدر ، وقلة الرحمة وقلة الحياء وترك القناعة ، وحب الرياسة وطلب العلو والانتصار للنفس ، إذا نالها الذل ، وذهاب ملك النفس إذا رد عليه قوله ؛ إلى غير ذلك من النعوت الذميمة والأخلاق اللئيمة .

قال : وأصل فروعها وعنصر ينابيعها إنما هو رؤية النفس والرضى عنها وتعظيم قدرها وترفيع أمرها ، فبهذه الأمور كفر من كفر ، ونافق من نافق ، وعصى من عصى ، وبها خلع من عنقه ربقة العبودية لربه عز وجل من خلع .اهـ

ولهذا وجب جهاد النفس ومعالجة القلب بالأدوية التى تصلح لزوال درنه وكشف حجبه وصرفه لربه ، ولهذا قال الناظم « ولا تظن البرء » . الخ

وفطم النفس عن هواها هو مخالفتها فيما تدعو إليه ، ومنعها مما تحرص عليه وذلك هو جهادها الذى هو أعظم جهاد بشهادة قوله عليه الصلاة والسلام ، وقد رجع من بعض غزواته : « جئتُم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل : وما الجهادُ الأكبر يارسول الله ؟ قال : جهادُ النفس » .

وإنما كان جهادها أكبر لأن مشقة جهادها دائمة ، ومشقة جهاد العدو فى وقت دون وقت ، فإن النفس لاتفارق صاحبها إلى الممات ، والشيطان يفارقه فى رمضان لأنه يغل فيه وفى السجود ، ولأنها عدو متصل بالإنسان والعدو منفصل عنه ، ولأنها عدو محبوب والكافر عدو مبغوض ، ولأن جهادها لا يحصل إلا بامتثال جميع المفروضات التى منها جهاد العدو .

وقال أبو المحاسن : لأن جهاد أهل الكفر هو من جملة امتثال أوامر الله ووراءه من الأوامر مالا يضبط حصره ، ولا ينال شيء من ذلك إلا بجهاد النفس . اهـ

ولأجل أنها عدو محبوب ، وعدو داخل البيت ، كانت أضر الأعداء ، وكان بلاؤها أعظم البلاء ، وكان علاجها أصعب الأشياء .

ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « أعدَى عدُو الإنسان نفسهُ التى بينَ جنبيه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمنُ بينَ خمس شدائد : مؤمن يحسُدُه ، وكافر يقاتلُه ، ومنافق يُبغِضُهُ ، وشيطان يضِله ، ونفس تُنازِعهُ » .

وقد أجمع العلماء والحكماء على أن لاطريق لسعادة الآخرة ، إلا بنهى النفس عن الهوى وترك الشهوات وقمعها وموتها ومخالفة هواها ، وسوقها إلى الطاعة وهى تنفر وتميل إلى المعصية .

وقال الشيخ أبو طاهر الحنفى ، فى كتابه « الجواهر » مانصه :

فمن أرادالقرب فعليه بترك الشهوات النفسانية ، فإن ارتكاب الشهوات يسد أبواب المكاشفات كما سئل ذو النون المصرى : ما الذى احتجب به المريدون عن الله تعالى ؟ فقال : النفس وشهواتها والاشتغال بتدبيرها . اهـ

وقال فيه أيضاً : إن حياة القلب فى موت النفوس كما قيل :

اقتُلونى باتقِّاقِ إنّ فِى قتْلى حياتى
ومَماتِى فى حياتِى وحياتِى فى مَماتِى

كما قال إبراهيم الخواص ، رحمه الله تعالى : النفس صنم فمن عبد النفس ، فهو يعبد الصنم ، ومن عبد الله بالإخلاص ، فهو الذى قهر النفس .

وقال سليمان بن داوود عليه السلام : إن القاهر لنفسه أشد ممن يفتتح المدينة وحده .

وقال أبو يزيد : من أمات نفسه ، يلف فى كفن الرحمة ، ويدفن فى أرض

الكرامة ، ومن أمات قلبه يلف فى كفن اللعنة ، ويدفن فى أرض العقوبة .

وقال الواسطى : سلامة النفس فى مخالفتها ، وبلاؤها فى متابعتها . اه

ولقد صدق الشيرازى،رضى اللهعنه ، إذ قال : اه

النفس شر أعدائك ، وقائد هلاكك ، لا يصل إليك شيطان إلا بشهواتها ولاتقتحم معصية إلا بجهلها ، فهى كهف الظلمة ، وموطن الغفلة ، وأرض الشهوة ، وخزانة الجهل ، ومعدن الكسل ، وهى للشيطان خدن ، وللمهالك عون ، إن ادعت الصدق كذبت ، وإن امتحنتها افتضحت ، وإن نصحتها غشت ، وإن قومتها اعوجت ، وإن قدتها بركت ، وإن خوفتها استنامت ، وإن دعوتها أدبرت ، وإن أرشدتها أعرضت ، وإن غفلت عنها هلكت ، وإن سرحتها ضلت ، وإن رأت مرادها بادرت ، وإن رأت مصيبة سخطت ، فمن لم يعرف مكايدها أهلكته ، ومن اطمأن إليها غدرته ، ومن رفعها وضعته ، ومن أعزها أذلته ، ومن سامحها فضحته ، ليس لها دواء إلا مخالفتها ، وتسليط سوط المحاسبة عليها .

ويرحم الله القائل : اه

توَقَّ نفسكَ لا تأمَنْ غوائِلها فالنفسُ أخبثُ من سبعين شَيْطَانا

وللشيخ زروق رحمه الله :

فالنفسُ إنْ أهمَلْتَها لا تَصْلُحُ وإن تزد فى ضيقِها قدْ تنجحُ

فاحتلْ على النفسِ ، فربَّ حيلةْ أنفعُ فى النُّصرةِ منْ قبيلةْ

قد أخبرَ اللهُ بِشؤم النَّفسِ وما لها من عِلَّةٍ ولبسِ

فى يوسفَ وغيرها كالجاثيةْ والنازعات فيها آى ناهيةْ

قال العارف بن عباد رضى الله عنه : ويختلف جهاد النفس باختلاف الأشخاص ،

قرب شخص ذكى الفطرة كريم السجية سهل المقادة ، لايحتاج فى ذلك إلى كبير معاناة ولا تعب ، ورب شخص يكون حاله على عكس هذا ، فلا جرم يحتاج إلى زيادة تعب وقوة ممارسة ، وشدة مجاهدة ، لرداءة فطرته ونقصان غريزته ، وبين هذين درجات لاتحصى . اهـ

وقال بعضهم : من نظر نفسه لم يجدها أهلا لغير العقوبة ، إما من جهة الغفلة أو التقصير ، أو من قلة الوفاء بالشكر والحمد ، لأن حقيقة الشكر أن لا يعصى الله بنعمه .

ولهذا ورد : «اللهمّ افعلْ بنا ما أنتَ لهُ أهل، ولا تفعل بنا ما نحنُ لهُ أهل».

وقال آخر : العارف لا يرى نفسه إلا شبه نجس ، ولو جلس مع الداعين لايرام منعوا الإجابة إلا بسببه ، ولو سجد على الجمر لم ير شيئاً من عمله أهلا للقبول ، ولو كانت نفسه فى غاية التزكية لايراها أهلا لمدح ولا لثناء ، ومتى تمسح الناس بثيابه تبركا فإنما يرى نفسه كالبكر التى زفت لزوجها وهى مفتضة بفجور ، كلما طافوا بها وعظموا أمرها وشأنها ، زاد حزنها من خوف الفضيحة ؛ ولم يقطع قلوب العارفين إلا معرفتهم بأنفسهم ؛ ولم يغر شىء الجاهلين إلا مسامحتهم لأنفسهم ، والتغافل عن معايبهم .

وقال آخر : للنفس من الأخلاق ما لله عز وجل من الأسماء الحسنى ، خالق بخالق : علم بجهل كرم ببخل صبر بجزع إلى غير ذلك تطمع فى غير مطمع إذا طمعت ، وتيأس مما لا يفوت إذا يئست ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها .

وقال ابن عباد ، فى رسائله الكبرى ، مانصه : وأوحى إلى داوود عليه السلام : عاد نفسك فليس لى فى المملكة منازع غيرها . اهـ

وقال أيضاً ما نصه : وأقول لكم إن الهوى له سلطة عظيمة على الناس ، لاسيما فى هذه الأزمنة التى صار الناس فيها أمثال البهائم ، أعنى من جهة إفلاسهم من معرفة حقائق الدين . ومن أجلهم إفلاساً من ذلك ، بعض من يتفقه ويتفقر . ولعل الذى قال لكم : ما يحمل الناس اليوم إلا الهوى ، لم يحمله على ذلك الكلام إلا الهوى ، واجعله يكون من كان ، ولعلى فى هذا الكلام أيضاً لم يحملنى عليه إلا الهوى ، فاقبله إن شئت أو رده . اهـ

وروى الطبرانى عن أبى أمامة مرفوعاً : « ما تحتَ ظلِّ السماءِ مِنْ إلٰهٍ يُعبد أعظمُ عند اللهِ مِن هوى مُتَّبَعٍ » .

وقول الناظم : واطلب : أمر من الطلب ، وهو محاولة وجدان الشىء وأخذه .

والشفاء ككساء : الدواء ، وأصله البرء من المرض ، ثم وضع موضع العلاج والدواء . ومنه قوله تعالى : « فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ » والجمع أشفية كسقاء وأسقية ، وجمع الجمع أشافى ، كأسا فى ، وشفاه الله يشفيه شفاء : أبرأه .

وتغص بالبناء للمفعول : مضارع غصه الطعام أو غيره مأخوذ من الغصة . قال فى القاموس : والغصة بالضم الشجا ، الجمع غصص ، وما اعترض فى الحلق وأشرق . اهـ

فصريح كلامه أن الغصة والشجا مترادفان ، وكذلك الشرق ، إذ الشجا مقصوراً ، ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه .

قال الشاعر :

وتَرانى كالشجا فى حلقِه عسراً مخرَجُه ماينتزَع

وقال :

من يكدنى بسيء كنتُ منه كالشجا بينَ حلقه والوريد

فقوله : « وما اعترض » . . الخ كالتفسير للشجا .

وقال بعض فقهاء اللغة : غص بالطعام ، وشرق بالشراب ، وشجى بالعظم ، وجرض بالريق ، وقد يستعمل كل مكان الآخر .

والجريض : غصص الموت . والجريض أيضاً : اختلاف الفكين عند الموت ، قاله فى شرح القاموس .

والظن : الاعتقاد .

والبرء بضم فسكون : مصدر برىء المريض مثلث الراء والفتح أفصح ، ويقال فى المصدر أيضاً بروء كقعود ، والأول لغة أهل الحجاز وتميم .

ومن دواك : متعلق بمحذوف مفعول ثان لتظن أى حاصلا من دواك ، ويصح أن يكون متعلقاً بالبرء والمفعول الثانى محذوف .

والدوا : بالقصر المرض والسل . يقال منه : دوى بالكسر ، دوًى ، فهو دوٍ أى فاسد الجوف من داء ، وامرأة دَوِيَة كفرحة . قاله فى القاموس وشرحه .

وفطم : مصدر فطمه يفطمه قطعه ، والصبى فصله عن الرضاع فهو مفطوم وفطيم ، والجمع فطم ككتب . قاله فى القاموس .

والهوى بالقصر : المحبة والعشق . وفى القاموس وهويه كرضيه هوى فهو هَوٍ : أحبه .

وفى حديث بيع الخيار : يأخذ كل واحد من البيع ما هَوِىَ أى أحب .
وأما الهواء فهو الجو ، أى ما بين السماء والأرض والفضاء .

وقال بعضهم :

جُمع الهواءُ مع الهوَى فى أضلعى فتكاملتْ فى مُهجتى نارانِ
فقصرتُ بالممدودِ عن درك المنى ومُددتُ بالمقصور فى أكفانى

والهواء بالمد الجبان أيضاً ، لخلو قلبه من الجرأة ، قال :

ألا أبلغْ أبا سفيانَ عنى فأنتَ مُجوّف نخبٌ هواءُ

* * *

ثم قال :

[فاجهدْ أخى واجتهد وجاهدْ عسى بفضلِ اللهِ أن تشاهِدْ]
[واستنجِدنْ مولاكَ فى جميعِ ما ترُومُهُ فلنْ يزَال مُنعِما]
[فما به تطلُبهُ تيسرَا وما بِنفسِك فقدْ تعسَّرَا]

لما قدم رحمه الله الأمر بطلب دواء أمراض القلوب ، والبحث عن عللها وما حوته من قبائح العيوب ، وأنه لا سبيل لذلك إلا بفطم النفس عن هواها ، ومنعها عن مشتهاها ومناها . أمرهنا بالجد والاجتهاد فى ذلك . والاعتناء بسلوك هاتيك المسالك ، عسى بفضل الله وإحسانه ، وجوده وكرمه وامتنانه ، أن تحصل المشاهدة العلية ، التى هى أقصى مرادوأمنية ، وأن يستعين الإنسان على ذلك بسؤاله من مولاه : ويتضرع فى حصول ذلك إلى سيده الذى خلقه وسواه . إذ التعلق بالمولى مطلوب فى كل الأمور ، والاعتماد عليه نجاح فى الورود والصدور ، فهو المولى لسائله أمنيته ، والمنعم عليه بإعطائه مسألته ، ولا زال كذلك ولا يزال ، فسبحانه من متفضل متعال ؛ وكل ما يطلبه المرء من خالقه وباريه ، ويستعين به

عليه من أموره ومساعيه ، تيسر عليه بحول الله حصوله ، وكمل فيه مراده ومأموله ، وما اعتمد فيه الإنسان على نفسه ، أو استعان عليه بأبناء جنسه ، تعسر عليه إدراك مطلوبه ، وفاته حصول أمنيته ومرغوبه .

وفى الحديث : «اللهم لا سهلَ إلا ما جعلتهُ سهلاً »

إذا صح عونُ الله للمرءِ لم يَجِدْ   عَسيراً منَ الآمالِ إلا مُيسرّا

وقيل :

إذا كانَ عونُ اللهِ للمرءِ ناصرا   تهيا لهُ من كلِّ صعبٍ مرادُهُ
وإنْ لمَ يكنْ عونٌ من اللهِ للفتى   فأكثرُ ما يَجنى عليه اجتهادُهُ

وقيل :

إذا لم يُعنكَ اللهُ فيما تريدُه   فليسَ لمخلوقٍ إليه سبيلُ
وإنْ هُوَ لم يرشدْكَ فى كلِّ مسلكٍ   ضللتَ ، ولو أنَّ السِّماكَ دليلُ

وقيل :

إذاَ أذِنَ اللهُ فى حاجةٍ   أتاكَ النجاحُ بها يركضُ
وإنْ أذِنَ اللهُ فى غيرِها   فلا بدَّ مِن عَارضٍ يعرضُ

وفى الحكم العطائية : ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك .

وقال أيضاً : من علامة النجح فى النهايات ، الرجوع إلى الله فى البدايات .

وقال أيضاً : البدايات مجلات النهايات ، وإن من كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته .

وقال بعضهم : من ظن أنه يصل إلى الله تعالى بغـير الله قطع به ، ومن استعان على عبادة الله بنفسه وكل إلى نفسه .

وقال بعض العارفين : لا يمكن الخروج من النفس بالنفس ، وإنما يكون الخروج من النفس بالله .

وقال العارف بالله سيدى محمد بن عباد رضى الله عنه : من أنزل حوائجه بالله تعالى والتجأ إليه وتوكل فى أمره عليه ، كفاه كل مؤنة وقرب عليه كل بعيد ، ويسر عليه كل عسير . ومن سكن إلى عمله وعقله ، واعتمد على قوته وحوله ، وكله الله تعالى إلى نفسه وخذله ، وحرمه توفيقه وأهمله ، فلم تنجح مطالبه ولم تتيسر مآربه . اهـ

وقال النهرجورى رحمه الله : من كان شبعه بالطعام لم يزل جائعاً ، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيراً ، ومن قصد بحاجته غير الله لم يزل محروماً ، ومن استعان على أمره بغير الله لم يزل مخذولا .

وفى الرسائل عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه : العبد لا بد له من مولاه على كـل حال ، وأحسن أن يرجع إليه فى كل شىء : إذا عصى يقول : يارب استر على ، فإذا فرغ من المعصية قال : يارب تب على ، فإذا تاب قال : يارب ارزقنى العصمة ، فإذا عمل قال : يارب تقبل منى.

وقال بعض العارفين فى معنى حديث « يَسِّروا ولا تُعَسِّروا » دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره ، فإن من دلك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على الله فقد نصحك . اهـ

ومراده ببعض العارفين : القطب الكامل مولانا عبد السلام ، نفعنا الله به كما نقله عنه غير واحد .

وقال العارف ابن عباد أيضاً : وسبيل موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار ، والالتجاء إلى مولاه فى أن يعينه على أمر نفسه ، ويسهل عليه طريق سلوكه ، وليستعمل هذا فى كل حال ووقت ، ويجعله عمدته فيما هو بسبيله ، ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة فى ظاهره وباطنه ، والتزام آدابها . وحركات العبد وسكناته هى أعماله الظاهرة ، وقصوده وهمته وإراداته هى أعماله الباطنة ؛ وكل واحد من القسمين ينبغى أن يأخذ فيه بعزائم الأمور ، ويجتنب الرخص التى هى من شأن العامة والجمهور . (انتهى المراد منه) .

وقد نبه على هذا المعنى أيضاً الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه بعد كلام ذكره فى تصحيح العبودية ونصه : ومن أخلد إلى أرض الشهوات واتبع الهوى ، ولم تساعده نفسه على التحلى ، وغلب عن التخلى فعبوديته على أمرين :

أحدهما : معرفة النعمة من الله تعالى فيما وهبه من الإيمان والتوحيد ، إذ حببه فى قلبه وزينه ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، فيقول : يارب أنعمت على بهذا ، وسميتنى راشداً فكيف ،أيأس منك وأنت تمدنى بفضلك ، وإن كنت متخلفاً ؟ فأرجو أن تقبلنى وإن كنت زائغاً .

الأمر الثانى : اللجوء والافتقار إلى الله تعالى دائماً ، وتقول : يارب سلم سلم ونجنى وأنقذنى ؛ فلا طريق لمن غلبت عليه الأقدار وقطعته عن العبودية المحضة عن الله تعالى ، إلا هذان الأمران ، فإن ضيعها فالشقوة حاصلة ، والبعد لازم ، والعياذ بالله تعالى اه

قال الشيخ زروق : وهو عجيب يستحق أن يكتب بماء الياقوت ، لموافقته أحوال أمثالنا ودلالته على ما يصلحنا ، وفقنا الله للعمل به بمنه .

قول الناظم : فاجهد : أمر من الجهد بالفتح والضم : وهو الطاقة والوسع ،

وقد قرىء بهما قوله تعالى : « والذِينَ لا يَجِدُونَ إلا جُهدَهُمْ » ، وأما بالفتح فقط فهو المشقة ، واجتهد : أمر من الاجتهاد ، بمعنى إعمال الوسع . وجاهد : أمر من جاهد بمعنى عمل وسعه ، فالثلاثة بمعنى واحد وجمع بينها تأكيداً .

وأخى منادى بإسقاط حرف النداء ، وهو مصغر أخ رُدَّ إلى أصله عند التصغير ، لما عُلم أن الجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها ، إذ أصله أخو فصغر على أخيو ، لقول ابن مالك فعيلاً : اجعل الثلاثى إذا صغرته ، ثم قلبت الواو ياء لاجتماعها مع الياء قبلها ساكنة ، وأدغمت الياء فى الياء لقول ابن مالك أيضاً :

إن يسكن السابق من واو ويا ... واتصلا ومن عروض عريا

فياء لواو اقلبن مدغما

ثم أضيف إلى ياء المتكلم والمخاطب بذلك فى كلام الناظم ، العاقل المقصود عنده بالنصح ، وناداه بالأخ استعطافاً ، وصغره لذلك أيضاً ، إذ العادة جارية بذلك .

وقد ذكروا أن من جملة فوائد التصغير التحبب . كقولهم فى ابنى : بنيّى ، وهذا المعنى مما ينخرط فى سلكه .

وقد كنت جمعت فوائده حسبما فى التصريح وغيره تقريباً بقولى :

تقليلُ ذاتِ الشىءِ والتحقيرُ ... لشأنِهِ ، لذا أتى التصغيرُ

كذاك تقريبٌ زمانه ، وزدْ ... تقريبَ منزلتهِ فلتستفدْ

وقد أتى أيضاً لقلة العدَد ... والقرْبِ فى مسافة مما بعدْ

كوفيهم قد قال للتعظيم ... وللتحببِ استمعْ تفهيمى

وعسى : قيل هى فعل مطلقا ، وقيل : حرف مطلقاً ، وقيل ، وهو الأرجح : إن دخلت على ضمير متصل كعساه فهى حرف ، وهو مذهب سيبويه وجماعة ، وإن

دخلت على ظاهر فهى من أفعال المقاربة ، كما هو رأى المبرد والأخفش وغيرهما ومعناها الترجى فى المحبوب كما هنا ،والإشفاق فى المكروه . وقداجتمعا فى قوله تعالى ، « عَسىَ أنْ تَكرَهوا شَيئًا » الآية . وهى من الأفعال التى لاتتصرف .

وقد أشار إليها من قال :

أفعالٌ عندَ الناسِ لا تُصرفُ عشرةٌ فاسمعْ لما سأصِف
نِعمَ وَبئسَ ثم ليس حَبذا فعلُ تعجبٍ عسى فانتبذَا
وقلّما يذرُ بعدُ يدَعُ تباركَ اللهُ كذَا الممتَنِع

وَزيد عليها هب : بمعنى اعتقد : وتعلم : بمعنى اعلم ، وقد كنت قبل وقوفى على هذه الأبيات جمعتها أيضًا بزيادة هذين ، فقلت :

نِعمَ وبئسَ وعسى،ليسَ كذَا فعلُ تَعجبٍ تباركَ حبذا
وهَبْ ، تعلم اللذان كاعتقدْ واعلم فحققْ مالديهمُ واستفدْ
وقلماَ يَذَرُ ثم يَدَعُ من التصرفِ جميعًا مُنعوا

ولا يخفى أنها فى كلام الناظم قد استغنت عن اسمها وخبرها ، بأن تفعل .

قال ابن مالك .

وبعد عسىَ أخلولق أوشك قد يرِدْ غنى ، بأن يَفعلَ عن ثان فُقدْ

وقوله : « عن ثان » يعنى وأول فهى ناقصة كما يرشدله قوله : « غنى »..الخ إذ التامة لا خبر لها حتى تستغنى ، بأن يفعل عنه ، فقوله الناظم : أن تشاهد سد مسد معمولها كما لا يخفى .

وقوله : « بفضل الله » متعلق بتشاهد .

والفضل : إعطاء الشيء بغير عوض ، وليس ذلك إلا لله تبارك .

ومعنى البيت : عليك أيها الأخ باستعمال الوسع والطاقة فى طلب دواء قلبك من أدوائه ، ومنع نفسك من شهواتها وهواها الذى يسمى للمرء فى بلائه ، والمرجو من فضل الله وكرمه ، أن تحصل لك حينئذ المشاهدة ، وتعاين بحوله وقوته ثمرة تلك المجاهدة ، وما ذلك على الله بعزيز .

فائدة :

عسى : من الله إيجاب فى جميع القرآن إلا فى قوله تعالى : « عسى رَبهُ إن طلقكنَّ أنْ يبدِلهُ » الآية .

وقال أبو عبيدة : جاء على إحدى لغتى العرب ، لأن عسى فى كلامهم رجاء ويقين كما فى الصحاح ، ومن ورودها لليقين قول ابن مقبل :

ظنى بهم كعسى وهم بِتَنُوفَة   يتنازعون جوائزَ الأمثالِ

وقول الناظم : « واستنجدن » : أمر من استنجد بمعنى استعان واستغاث وتروم : مضارع رام الشيء : طلبه .

ومعناه : استعن بمولاك أيها الأخ واستغث به فى كل ما تطلبه وتريده من أمورك ، وفى كل حوائجك وشئونك ، فإنه لامعطى إلا هو ، ولا ميسر للأمور سواه ، فمن اعتمد عليه فى أموره نجحت ، ومن استغاث به فى مهماته تيسرت ، ومن اعتمد على غيره خسر وخاب ، وضل سعيه فى الحال والمآب .

* * *

ثم قال :

[واحتلْ على نفسكَ بالتدْريج   فإنهُ أذهبُ للتحريجِ]
[وخالِفنَها ولا تطعْها   وارْعَ الودائع ولا تضعْها]
[وهىَ الجوارحُ التى بها اكتسابْ   للخيرِ والشرِّ وخفْ يوم الحساب]

هذا بيان لكيفية فطم النفس عن هواها ، وردها عن غيها وما هو موجب أذاها ، وذلك أن النفس صعبة الانقياد ، كثيرة النفور عن الصلاح والسداد لا تدعو إلا للشرور ، ولا تحمل إلا على الغى والفجور ، ولا بد لردها عن ذلك من رياضات ، واستعمال أنواع المجاهدات .

قال فى تاج العروس : فيبدل البطالة بالاشتغال بالله ، والكلام بالصمت ، والقعود على أبواب الحارات بالخلوة ، والأنس بالمخلوقين بالأنس بالله ، وقرناء السوء بأهل الخير والصلاح ، والسهر فى المعصية بالسهر فى الطاعة ، والإقبال على أهل الدنيا بالإعراض عنهم والإقبال على الله ، والإصغاء لكلامهم بالإصغاء والاستماع لكلام الله وذكره ؛ والأكل بالشره والشهوة بالأكل القليل الذى يعين على الطاعات .

قال الله تعالى : « والَّذينَ جاهَدُوا فينا لنهدينهم سبلنا » اه فالمعنى : يعنى ويقيم بها فى كل مقام من هذه المقامات حتى تألفه ثم يحملها على الاتصاف بالآخر .

سَألبسُ للصَّبر ثوباً جميلا وأفتلُ للصبر حبلا طويلا
وأصبرُ بالرغم لا بالرضى أخلِّصُ نفسى قليلا قليلا

وهذا هو الاحتيال على النفس فى ردها عن هواها بالتدريج ، وتنقيلها عنه شيئاً فشيئاً من غير مشقة عليها فى ذلك ولا تحريج ، ولا خفاء أن قمعها عن هواها بالمرة موقع لها فى المشقة والحرج وموجب لها المضرة .

قال العلامة المحقق سيدى محمد بن زكرى فى شرحه للحكم لدى قوله : « لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير ، والذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون « وأنَّ إلى رَبكَ المُنتهى » ، مانصه :

الناس فى الارتحال على أنواع : منهم من ينتقل من ارتكاب المحرمات

إلى تركها واجتنابها ، ويجاهد نفسه فى ذلك أتم المجاهدة ويمرنها عليه ويفطمها عما اعتادت منه ، حتى تتعود الترك فى مدة مديدة ، ثم ينتقل بعد ذلك عن التوسع فى المباحات ، والتساهل فى المتشابهات إلى التورع عن ذلك ، حتى يألفه فى مدة مديدة بعد مجاهدة شديدة ، ثم ينتقل إلى التحلى بإخلاص الأبرار بأن يعمل حذراً من عقوبة الله ورجاء لثوابه ، ثم إلى إخلاص المقربين بأن لا يشهد العمل من نفسه بل منة من الله عليه ، ثم إلى إخلاص الموحدين بأن لا يشهد غير الله .

ومنهم من ينتقل من مرتبة إلى ما فوق ما فوقها بإسقاط الواسطة . ومنهم من يسقط واسطتين ؛ ومنهم من يقل مقامه فى الوسائط ويسهل عليه تحصيلها ؛ وكلهم منتقل من كون إلى كون وإن كان الذى انتقل إليه جليلا عظيما أو أجل وأعظم .

ومنهم من ينتقل من الأغيار كلها ويرتحل عنها بأجمعها إلى الله تعالى ؛ وهذا هو الراحل من الأكوان إلى المكون فيختصر الطريق ويقطعها فى أقرب مدة وهو ضرب من الجذب . وهذه طريقة ساداتنا الشاذلية نفعنا الله بهم ، وجعلنا من المحشورين فى زمرتهم اه .

ثم إذا جوهدت النفس بهذه المجاهدات ، وقوتلت بهذه المقاتلات ، رجعت عن جميع مألوفاتها الدنية وعاداتها الردية وزال عنها النفور والاستكبار ، ودانت لمولاها بالعبودية والافتقار ، وزكت أعمالها وصفت أحوالها ، وهذه هى خاصيتها التى خلقت لأجلها ، ومزيتها التى شرفت من قبلها ، وإنما ألفت سوى هذه لمرض أصابها من الركون إلى هذا العالم الأدنى ، من الأنس بالشهوات التى تزول وتفنى ، حتى امتنع عليها ما خلقت لأجله من موجب سعادتها ، وغاية شرفها وإفادتها ، فلما تعالجت بما ذكرناه عادت إلى الصحة وإلى طبعها الأصلى ، فألفت العبودية والتزمتها ، وصارت بذلك مطمئنة صالحة لأن

يقال لها : « يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ارجعى إلى ربكِ راضيةً مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

ولا شك أن حملها على التخلق بهذه المقامات العلية ، والاتصاف بهذه الصفات الشريفة السنية ، هو من مخالفتها فى هواها ، وعصيانها فيما تدعو إليه من مناها ، وذلك هو سبب السعادة العظمى ، والفوز فى الدنيا والأخرى .

وقد أجمع العلماء والحكماء كما تقدم على أنه لا طريق لسعادة الآخرة إلا بنهى النفس عن الهوى وترك الشهوات ، وقمعها وموتها ومخالفة هواها .

وفى التنزيل : « وأما منْ خافَ مقامَ ربِّه ونهى النفسَ عن الهوَى فإنّ الجنةَ هى المـأوى » .

إذا طالبتك النفسُ يوماً بشهوةٍ وكان إليها للخلافِ طريقُ
فدعها وخالفْ ما هَوِيت فإنمـا هواك عدو والخلافُ صديقُ

وذكر الجزولى : أن راهباً نصرانيا كان يتعبد فى صومعته فلا يأتيه ذو عاهة إلا يبرأ بِمَرِّ يده عليه ، فسمع به رجل صالح فتعجب من ذلك ، فأتاه وسأله : بماذا بلغت هذه المنزلة ؟ فقال : بمخالفة هوى النفس . فقال له ذلك الرجل : عرضت لا إله إلا الله عليها قط ؟ فقال : لا . ولا أعرفها ، قال له : دعنى إلى غد فإنى أعرضها عليها هذه الليلة . فذهب الرجل الصالح ، فلما أتاه من الغد ، قال له النصرانى : امدد يمينك ، أنا أقول لا إله إلا الله . ثم قال له : عرضتها على نفسى البارحة فنفرت منها غاية النفور . فقلت : إن فيها رضى الله . ا هـ

وفى الرسائل الصغرى عن الجنيد قال :

أرقت ليلة فقمت إلى وردى فلم أجد ما كنت أجد من الحلاوة ، فأردت أن أنام فلم أقدر عليه ، فقعدت فلم أطق القعود ، ففتحت الباب وخرجت

فإذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق ؛ فلما أحس بى رفع رأسه وقال : يا أبا القاسم — إلىّ الساعة ! فقلت : يا سيدى من غير موعد . فقال : بلى سألت محرك القلوب أن يحرك لى قلبك ! فقلت : قد فعل فما حاجتك ؟ فقال : متى يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت : إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها ، فأقبل على نفسه وقال : اسمعى قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات ، فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد ، فقد سمعت ، وانصرف عنى ولم أعرفه .ا ﻫ

وفى الحلية أنه سأله : من أنت ؟ فقال : أنا فلان الجنى جئت إليك من المغرب .اﻫ

فائدة :

عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخى ، رضى الله عنهما ، أنه قال له شقيق : منذ كم صحبتنى ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة . قال : فما تعلمت منى فى هذه المدة ؟ قال : ثمان مسائل . فقال له شقيق : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ذهب عمرى معك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل ؟ قال : يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإنى لا أحب أن أكذب . قال : هات هذه المسائل حتى أسمعها !

قال حاتم : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر ، فإذا وصل إلى القبر فارقه ، فجعلت الحسنات محبوبى ، فإذا دخلت القبر دخل محبوبى معى . فقال : أحسنت ياحاتم .

فما الثانية ؟ فقال : نظرت إلى قول الله عز وجل : « وأما من خافَ مقامَ ربه ونهى النفسَ عن الهوَى فإن الجنةَ هى المأوى » . فعلمت أن قوله تعالى هو الحق ، فأجهدت نفسى فى دفع الهوى ، حتى استقرت على طاعة الله تعالى .

الثالثة : أنى نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت أن كل من معه شىء له مقدار

وقيمة عنده ، رفعه وحفظه وادخره . ثم نظرت فى قول الله عز وجل : « ما عندكُمْ يَنفدُ وما عندَ اللهِ باقٍ » فكلما وقع فى يدى شىء له مقدار وقيمة ، وجهته إلى الله ليبقى لى عنده .

الرابعة : أنى نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال ، وإلى الحسب والشرف والنسب ، فنظرت فيها فإذا هى لا شىء ، ثم نظرت إلى قول الله تعالى : « إن أكرَمكمْ عِندَ اللهِ أتقاكُمْ » فعملت بالتقوى ، حتى أكون عند الله كريما .

الخامسة : أنى نظرت إلى هذا الخلق ، وهم يطعن بعضهم فى بعض . ويلعن بعضهم بعضاً ، وأصل هذا كله الحسد ، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل : « نحنُ قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياةِ الدُّنيا » فتركت الحسد واجتنبت الخلق ، وعلمت أن القسمة من عند الله تعالى ، فنزلت عداوة الخلق عنى .

السادسة : نظرت إلى هذا الخلق ، يبغى بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضاً ، فرجعت إلى قول الله عز وجل : « إنَّ الشيطانَ لكم عدو فاتخذُوه عَدوا » . فعاديته وحده ، واجتهدت فى أخذ حذرى منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لى فتركت عداوة الخلق غيره .

السابعة : نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الدنيا فيذل فيها نفسه ، ويدخل فيما لا يحل له ، ثم نظرت إلى قوله تعالى : « وما مِنْ دابةٍ فى الأرْضِ إلا عَلى اللهِ رِزقها » فعلمت أنى واحد من هذه الدواب التى على الله رزقها ، فاشتغلت بالله تعالى وتركت مالى عنده .

الثامنة : نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيتهم كلهم متوكلين : هذا على ضيعته ، وهذا على تجارته ، وهذا على صنعته ، وهذا على صحته وبدنه . وكل مخلوق

يتوكل على مخلوق مثله ، فرجعت إلى قوله تعالى : « وَمن يَتوكل عَلى اللهِ فهوَ حَسبه » . فتوكلت على الله عز وجل ، فهو حسبي .

فقال له شقيق : وفقك الله تعالى ، فإني نظرت فى علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، فوجدتها تدور على هذه الثمان ، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة . اهـ

وقول الناظم : « واحتل » أمر من الاحتيال أى إعمال الحيلة ، وهى كما فى المصباح : الحذق فى تدبير الأمور ، وهو تقلب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود .

والتدريج : مصدر درجهُ إلى كذا تدريجاً : عوده إياه كأنما رقاه منزلة بعد أخرى . ويقال : درجت العليل تدريجاً ، إذا أطعمته شيئاً قليلاقليلاإذا نقِه حتى يتدرج إلى غاية أكله الذى كان قبل العلة .

والتحريج : التضييق . ومنه الحديث : « اللهم إنى أُحَرِّج حق الضعيفين : اليتيم والمرأةِ » أى أضيقه وأحرِّمه على من ظلمهما . وكذلك التحرج ، ومنه حديث اليتامى : « تحرجوا أن يأكلوا معهم » . أى ضيقوا على أنفسهم .

وقول الناظم : « وارع الودائع » هو من جملة ما يدخل فى مخالفة النفس المأمور بها ، إذ لا شك أن النفس تطلب إرسال الجوارح فى الشهوات المحبوبة لها وارتكابها المستلذات التى هى أقصى مرادها ، وحيث كان كذلك فيتعين على الإنسان حفظ ودائعه التى استودعه الله إياها ، ورعيها بمقتضى استرعاء الله له عليها . وفى الحديث : كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته » . وارع : أمر من الرعى بمعنى المراعاة والملاحظة .

والودائع : جمع وديعة ، وهى كما فى الصحاح : ما استودع .

وتضع : مضارع أضاع الشىء إضاعة : أهمله ، ويستعمل ثلاثياً لازماً

يقال : ضاع الشيء ضيعة . وضياعاً : صار مهملا . ومنه ضاعت الإبل وضاع العيال : إذا خلوا من الرعاية والتعهد وأهملوا .

والمعنى : لاحظ أيها العاقل ما استودعته من جوارحك ولا تهملها ، فاستعملها فى طاعة مولاك ، وكفها عما عنه نهاك .

وقوله : « وهى الجوارح . . الخ . بين به الودائع التى أمر بملاحظتها ورعيها وعدم إضاعتها وإهمالها .

والجوارح : الكواسب ، جمع جارحة ، وهى فى الأصل لإناث الخيل سميت بذلك لأنها تكسب أربابها نتاجها ، وذوات الصيد من السباع والطير والكلاب لأنها تجرح لأهلها أى تكسب لهم . وفى التنزيل : « يسألونك ماذا أُحل لهم قل أُحل لكم الطيباتُ وما علَّمتم من الجوارحِ مكلِّبين » . أراد وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح ، لأن فى الكلام دليلا عليه . ثم أطلقت على أعضاء الإنسان التى تكتسب المبينة بعد فى كلام الناظم لأنهن يجرحن الخير والشر أى يكسبنه ، ولذلك قال الناظم : التى بها اكتساب للخير والشر .

قال الجزولى فى شرح الرسالة : والجوارح نعمة من الله تعالى على عبده وأمانة لديه ، ومن أشد الطغيان ، وغاية الخسران ، استعانة العبد بنعمة الله على معصيته ، وخيانته لما أمنه تعالى عليه .

وقوله : « وخف يوم الحساب » أى اخش أيها العاقل هول يوم القيامة وشدته واطلب من مولاك تيسيره عليك . فقد مدح تعالى عباده الأبرار بمخافتهم إياه حيث قال : « إن الأبرارَ يشربونَ مِن كأس كانَ مِزاجها كافوراً » ، إلى أن قال : « يوفونَ بالنذرِ ويخافون يَوماً كانَ شرُّه مستطيراً » ،

المعنى كانوا يوفون . . . الخ بحيث وصف ثوابهم فى الآخرة وصف أعمالهم فى الدنيا التى يستوجبون بها ذلك الثواب .

ومعنى « مستطيراً » منتشراً ممتداً . وقيل : استطار خوفه فى أهل السماوات وأهل الأرض وفى أولياء الله وأعدائه .

وقيل : فشا شره فى السماوات فانشقت وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكة وكورت الشمس والقمر ، وفى الأرض فتشققت الجبال وغارت المياه وكسر كل شىء على الأرض من جبل وبناء .

والمعنى : أنهم يوفون بالنذر ، وهم خائفون من شر ذلك اليوم وهوله وشدته . قاله الخازن .

وقال الخطيب : وفى ذلك إشعار بحسن عقيدتهم وإحسانهم واجتنابهم عن المعاصى ، فإن الخوف أدل دليل على عمارة الباطن . قالوا : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب ، ومن خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل .

* * *

ثم قال :

[وهى لسانٌ ثمَّ فرجٌ بطنُ يدٌ ورجلٌ ثم عينٌ أذنُ]
[سبع كأبواب الجحيم فى العدد فارع جميعها وألزمها السدد]
[فإنها مسئولة فى الآجلِ شاهدة بما جنتْ فى العاجلِ]
[فمنْ عصا بواحدٍ منها فقدْ فتحَ باباً للجحيم قدْ وَقدْ]
[وأصلها القلبُ فعالجْ داءهْ واحش بمرهمِ التقى سوداءهْ]
[صلاحه صلاحها لِمن خبرْ والضدُّ بالضدِّ كما جاءَ فى الخبرْ]

لما أمر فيما تقدم بحفظ الجوارح التى استرعى الله العبد عليها ، وكلفه

برعيها والقيام بما وجه إليها ، بينها هنا وذكر أنها سبعة على عدد أبواب جهنم أعاذنا الله منها. وهى : اللسان والفرج والبطن واليدان والرجلان والعينان والأذنان ، ثلاثة منفردة وأربعة مزدوجة . وأشار لها أيضاً ، من قال :

جوارحنا العينانِ سمع لساننا ... يدانِ كذا الرجلانِ فرج بُطاوننا

وبدأ الناظم منها باللسان لأن خطره عظيم ، وهو أشدها وأكثرها فساداً لخفة مؤونته مع عظيم زلته .

قال بعضهم : زلة الرِّجل عظم يجبر ، وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر .

وكان سفيان الثورى يقول : يا ابن آدم لا تقل بلسانك ما تكسر به أسنانك .

وروى : « أنهُ ما مِن صباح إلا والجوارحُ تشكو به وتقول : ناشدناك الله ، إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » .

وقال بعضهم :

أمسكْ لسانكَ أيها الإنسانُ ... لا يلدغنكَ . إنه ثعبان
كم فى المقابر منْ قتيلِ لسانه ... كانت تهابُ لقاءهُ الشجعانُ

ولما كانت آفاته لاحصر لها حصر تعالى خيراته فى ثلاثة أشياء ، حيث قال : لاخير فى كثير من نجواهم إلى قوله : « بين النّاس »

قال الغزالى رحمه الله : أنواع الباطل المتعلقة باللسان عشرون ثم ذكرها .

ونظمها العلامة أبو عبد الله سيدى محمد بن الطيب القادرى ، رحمه الله بقوله :

وهاك آفة لسان العاقل ... فطولُ قول ثم خوضُ الباطِل
مع المراءِ فى الدِّينِ والخصام ... جِداله تَصنعُ الكلام

والسَّبُّ والفحشُ ولو بحيوان كذا الغنا ، والشِّعْرُ أمرُه استبان
وكثرةُ المزاحِ الاستهزاءُ قولا وفعلا ؛ وكذا الإفشاءُ
ومطلقُ الكذب أحرَى في اليَمين وغيبةٌ نميمةٌ في المسلمين
كلامُ ذي الوجهين مدحُ الكاذبِ وغفلةٌ معْ ربِّنا في الأدبِ
وقولهُ لذي نفاق : سيِّدُ فإنه من الرضى مُبْعدُ
وبحثكَ الجاهلُ عن صفاتِ فيما عدا واجبة للذَّات

وقد ذكر في « النصيحة » في آفاته نحو الأربعين ، ولا يسلم من خطره إلا بالخلوة وَمجانبة الناس بالصمت . ولذلك مدحه عليه السلام بقوله :

« مَنْ صَمتَ نَجا »

وسيأتي قول الناظم .

ولازمِ الصَّمتَ الحميدَ إلا عن ذكرِ مولاكَ الكريمِ جَلا

وَالفرج أيضاً من أشدها وأكثرها داعية للشر ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام . «مَن يَضمنُ ما بينَ لحيَيهِ ، وما بَين فخذَيهِ ، أضمن له الجنةَ »

وفي الموطأ مرفوعاً : « مَنْ وقاهُ شرَّ اثنتينِ ، ولجَ الجنةَ : ما بَينَ لحييهِ وما بينَ رجْليهِ »

وفي التنزيل في وصف المؤمنين : « وَالذينَ هُمْ لِفرُوجِهِمْ حافظُونَ ، إلا على أزوَاجِهِم أوْ مَا مَلكتْ أيمانُهم فإنهمْ غيرُ مَلُومين ، فَمن ابْتغَى ورَاءَ ذَلِكَ فأولئكَ هُمُ العادُون »

والبطن من أهمها أيضاً . وفي الحديث : «أولُ ما ينتنُ منَ الإنسانِ بطنُه ؛ فمنْ استطاعَ أن لا يأكلَ إلاَّ طيِّباً فليفعلَ » رواه البخاري .

واليدان والرجلان كـذلك وفى الحديث : « المسلمُ منْ سلمَ المسلمُون من لسانهِ ويدِهِ » .

وفى الرسالة : ولتكف يدك عن مالا يحل لك من مال أو جسد أو دم ؛ وفيها أيضاً . « ولا تسع بقدميك فيما لا يحل لك » .

وكذلك العينان . وفى التنزيل . « قلْ للمؤمنينَ يغضوا مِنْ أبصارهِمْ » .

وأخرج مسلم وغيره . « العينان تزنيان وزناهما النظرُ ، واليدُ تزْنِي وزناها اللمس » والنفسُ تمنى وتشتهى . والفرْجُ يصدقُ ذلك أو يكذِّبُهُ » .

وفى كلام عيسى عليه السلام: إياكم والنظرة فإنها تزرع فى القلب الشهوة ، وكفى بها فتنة ، رب حرب أثارتها لفظة ، وربَّ صبابة غرستها لحظة .

وفى كلامهم : من أرسل طرفه ، اقتنص حتفه ، العين سبب الحين .

وقال بعضهم :

وإنكَ إن أرسلتَ طرفكَ رائداً ... إلى القلبِ يوماً ، أتعبتكَ المناظرُ
رأيتَ الذى لا بعضهُ أنتَ صابر ... عليه ، ولا عن تركه أنتَ قادرُ

وقال آخر :

تمتعتما يا ناظريَّ بنظـــرةٍ ... فأوردتما قلبى أمرَّ المواردِ
أعينايَ كفا عن فؤادى ، فإنه ... من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

وكذلك الأذنان .

قال تعالى : « إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وفى الحديث : « المستمع شريك القائل » وكل مالا يحل له النطق به لا يحل سماعه إلا من ضرورة مع الكراهة له ، وما لا يحل سماعه لا يحل إسماعه ،

فلا يحل للمرأة أن تسمع صوتها من تعلم أنه يشتهيها والرجل كذلك قاله فى شرح الوغليسية .

وسمعك صُن عن سماع القبيح كصونِ اللسانِ عن النطقِ به
فإنك عند سماع القبيح شريك لقـائله فانتبـه

وفى الحديث : « من تسمع حديث قوم بغير إذنهم ، صب له فى أذنيه الآنك يوم القيامة » .

والآنُك : هو الرصاص المذاب .

وقول الناظم : « سبع » . . الخ خبر لمبتدأ محذوف أى هذه سبع ،

وقوله : « كأبواب » صفة له أى كائنة كأبواب الجحيم .

وقوله « العدد » بيان لوجـه تشبيهها بها ، متعلق بما تعلق به الجـار والمجرور قبله .

وقوله « فارع جميعها » أى ، وإذا علمت أن الجوارح بها يكتسب الخير والشر وأنها على عدد أبواب جهنم ، وأن من عصى بواحد منها فتح باباً من أبواب الجحيم ، ومن أطاع بواحد منها أغلق باباً منها كما يأتى ، فارع أيها العاقل ولاحظ جميعها واحفظها من المخالفة الموجبة للهلاك والخسران ؛ واحملها على فعل الطاعات ومراقبة الله فى السر والإعلان ؛ وذلك هو معنى قوله : « وألزِمها السدَدَ » فهذه الجملة كالتفسير للتى قبلها .

والسدَدَ « محركا » : القصد والاستقامة . قال فى القاموس : سدده تسديداً : قومه ووفقه للسدَادَ أى الصواب من القـول والعمل ، إلى أن قال : وأسدّ أصاب السداد وطلبه . والسدد : الاستقامة كالسداد .

وقوله : فإنها كالتعليل لما قبله . والمعنى : أن الجوارح تسأل فى الآخرة ، وتشهد على صاحبها بما ارتكبه من المخالفات فى الدنيا .

قال تعالى : « اليومَ نختمُ على أفواهِهم وَتكلمُنا أيدِيهم وَتشهدُ أرجُلهمْ بما كانُوا يكسبون » « يومَ تشهدُ عليهم ألسنتهمْ وأيدِيهمْ وأرجُلهم بما كانوا يعملون » « حتىّ إذا ما جاءُوها شهِدَ عليهم سمعُهمْ وَأبصارُهمْ وَجلودُهم » قيل : بشراتهم ، وقيل : فروجهم « بما كانوا يَعملونَ » .

أخرج الإمام مسلم عن أنس ، قال : كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وَسلم ، فَضحِكَ . فقال : هلْ تدرُونَ مِمَّ أضحكُ ؟ . قلنا : اللهُ وَرسُولهُ أعلمَ . قال : مِنْ مخاطبةِ العبدِ ربهُ عزَّ وجلّ ، يقولُ : ياربِّ — ألمْ تجرنى منَ الظلم ؟ قال فيقولُ : بلى . قال فيقول : فإنى لا أجيزُ اليومَ على نَفسى إلا شاهداً منى . قال فيقول : كفى بنفسكَ اليومَ عَليكَ حَسيباً ، وَبالكرامِ الكاتبينَ عليكَ شهُوداً . قال : فيختمُ على فيه ، وَيقال لأعضائهِ . انطقى فَتنطقُ بأعماله ، ثم يخلى بينه وَبينَ الكلامِ ، فيقول : بُعداً لَكُن وَسحقاً فعنكن كنتُ أناضلُ » .

وَأخرج أيضاً عن أبى هريرة فقال : سأل الناسُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسولَ الله ، هل نرى رَبنا يومَ القيامةِ ؟ قال : هلْ تُضارونَ فى رؤيةِ الشمسِ فى الظهيرة ليستْ فى سَحابة ؟ قالوا : لا يارسول اللهِ . قال : فهلْ تَضارونَ فى رُؤيةِ القمر ليلة البدْر ليس فى سحابة ؟ قالوا : لا . قال : فَوالذى نفسى بيدِه لا تُضارونَ فى رؤيةِ ربكم إلا كما تُضارونَ فى رُؤيةِ أحدِهما . قال : فيلقى العبدُ رَبهُ ، فيقول : أىْ فُل ، ألم أكْرمكَ وأسودكَ أى أجعلكَ سَيداً وأزَوِّجكَ وأسخرْ لك الخيل والإبلَ ، وَأذرْكَ ترأسُ؟

أى تتقدم على القوم بأن تصير رئيسهم ، وترْبع ، أى تأخذ المرباع وهو مايأخذه رئيس الجيش لنفسه من الغنائم ؛ وهو ربعها : وروى ترتع بتاءين ، أى تتنعم وَتنبسط من الرتع . قال : فيقول : بلى يارب ِّ . فيقول : أَظننتَ أنكَ مُلاَقىَّ ؟ فيقول : لا . فيقول : اليوْمَ أنساكَ كما نَسيتَنى : ثم يلقى الثانى فيقول . أى فُلُ ألمْ أُكرمك وَأسودك وَأزوجكَ وَأسخرُ لك الخيل والإبل وَأذرك ترأس وَترْبعَ ؟ فيقول : بلى يارب ِّ ؛ فيقول : أفظننتَ أنكَ مُلاقىَّ ؟ فيقول لا . فيقول : اليوْمَ ننساكَ كما نَسيتَنى ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يارب ـ آمنت بك وَبكتابكَ وَبرُسلكَ وَصليتُ وَصمتُ وَتصدقتَ وَيثنى بخير مااستطاعَ . فيقول : هاهنا إذاً قال : ثم يقول له : الآن نبعثُ شاهدنا عليك فيتفكر فى نفسه ، منْ ذا الذى يشهد علىَّ ؟ فيختم على فيه وَيقالُ لفخذه وَلحمه وَعظامه : انطقى فتنطق فخذه وَلحمه وَعظامه بعمله ، وَذلك ليعذِر من نفسه ، أى ليقيمَ الحجة عليها بِشهادةِ أعضائه عليه . قال : وَذلك المنافقُ وَذلك الذى يسخطُ اللهُ عليه »

والآجل ضد العاجل والمراد بالأول الآخرة وَبالثانى الدنيا . وجنت . اقترفت الجنايات وهى الذنوب والإجرام وما يفعله الإنسان مما يوجب العقاب، أو القصاص فى الدنيا والآخرة .

وقوله : « فمن عصى بواحد منها » . . الخ هو من تتمة قوله : سبع كأبواب الجحيم .

ومعناه : أن من عصا الله تعالى بجارحة من جوارحه السبع المتقدمة فقد فتح بسبب ذلك باباً من أبواب جهنم السبعة قدْ وقَدَ . أى اتقدَ وقويت ناره واشتد لهيبه وشراره . أى ومن أطاعه بجارحة منها أغلق عنه باباً من أبوابها .

وكلام الناظم هذا إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم : « خلقَ اللهُ الجنةَ فَحفها بالمكارِهِ ، وخلقَ النارَ فَحفها بالشهواتِ ، وخلقَ للنارِ سبعة أبواب، وخلق لابن آدم سبعة جوارح فمن أطاع الله بجارحة من تلك الجوارح السبعة غلقت عنه بابا من تلك الأبواب ؛ ومتى عصى الله بجارحة من تلك الجوارح السبعة ، استوجب الدخول من باب من تلك الأبواب .

والجحيم : قال فى القاموس : النار الشديدة التأجج ، وكل نار بعضها فوق بعض ، وكل نار عظيمة فى مهواتها ، والمكان الشديد الحر .

والمراد بها فى كلام الناظم الممدودة للعقاب فى الآخرة ؛ وطبقاتها سبعة . أشار لها شيخ بعض شيوخنا العلامة سيدى أحمد بن الحاج ، رحمه الله بقوله :

جَهنمْ ثم لظىَ فالحطمةَ ثم الجحيمُ فالسعيرُ المؤْلِمه
وسقرُ سادسةٌ والهاويهْ أجِرْنا منها ربنا بالواقيهْ

وقد أشار العلامة الأمير المصرى إلى طبقاتها المذكورة مبيناً لأصحاب كل طبقة منها بقوله :

جهنمُ للعاصِى ، لظىَ ليهُودها وحطمةٌ دارٌ للنصرى أولى النَقَمْ
سَعيرٌ عذابُ الصابئينَ ودَارهم مجوسٌ لها سقر ، جحيم لِذى صنمْ
وهاويةٌ دارُ النفاقِ وُقيتها واسأل ربَّ العرشِ أمناً من النقمْ

ثم بين الناظم أن أصل ضلالها ومنشأ صلاحها أو فسادها ، هو القلب الذى هو أميرها ، وعليه اعتمادها ومدارها بقوله : « وأصلها القلب » ... الخ

وأشار بذلك لما فى حديث النعمان بن بشير المتقدم من قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن فى الجسدِ مُضغةً إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه ، وإذا فسدتْ فَسدَ الجسد كلهُ ألا وهى القلبُ » .

ولهذا قيل : إن القلب كالملك ، والجسد والأعضاء كالرعية .

ومعلوم أن الرعية تصلح بصلاح الملك وتفسد بفساده ، وأيضاً هو كالأرض والجوارح كالنبات ، « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، الذى خبث لا يخرج إلا نَكداً » . وأيضاً هو كالعين والجوارح كالزرع ، إن عذب ماء العين عذب ؛ وإن ملح ملح .

وسأل عمر بن عبدالعزيز رجلا من رعيته فقال : كيف حال أميركم ؟ فقال له : ياأمير المؤمنين إذا طابت العين عذبت الأنهار .

وقال أحمد بن خضرويه : القلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح ، وإذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح .

إن قيل : كل هذا ، يقتضى أن القلب هو أصل الصلاح والفساد .

وقد ترى الإنسان أولا ينظر ثم يتأثر القلب ، كما قيل :

كل الحوادثِ مَبدؤها من النظَر ... ومعظم النارِ من مستصغر الشررِ
وَالمرء مادامَ ذَا عينٍ يُقلبها ... فى أعين الغيدِ موقوفٌ على الخطرِ
كم نظرةٍ فعلتْ فى قلب صاحبها ... فعلَ السهامِ بلاَ قوسٍ وَلا وَترِ
يَسر مقلته ما ضَرَّ مهجته ... لامرحباً بسرورٍ جاء بالضرر

وَفى الإحياء : القلب مثل قبة لها أبواب تنصَبُّ إليها الأَحوال من كل باب ، وَمثل هدَفٍ يرمى إليه بالسهام ، ومثل مرآة منصوبة يجتاز عليها الأشخاص فتتراءى فيها صورة بعد صورة ، وَمثل حوض تنصب إليه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة . اه . وَكل هذا يدل على أن الجارحة تفسد القلب .

فالجواب : أن الجوارح وإن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن .

قول الناظم : « وأصلها القلب » أى أصل فساد الجوارح وضلالها أو صلاحها وطاعتها القلب ، فهو على حذف مضاف كما قررنا .

والقلب مضغة فى الفؤاد ، معلقة بالنياط ، فهو أخص من الفؤاد . قاله الواحدى .

وقال الزركشى : الأحسن قول غيره : الفؤاد غشاء القلب ، والقلب حبته وسويداؤه . قاله عياض وغيره . وأشار إليه ابن الأثير .

قوله : « مضغة » أى قطعة لحم قدر ما يمضغ فى الفم إلا أنها وإن صغرت فى الحجم والصورة ، فهى عظيمة فى القدر والرتبة . ومن ثم كانت إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله .

والنياط : عرق معلق به القلب إذا قطع مات صاحبه .

وفى « الكفاية » ما يقتضى أن القلب والفؤاد مترادفان ؛ وهو الذى صدر به فى القاموس ، واقتصر عليه فى المصباح ؛ وهو الذى فى الصحاح أيضاً ، لكن الأكثر على التفرقة ويؤيدها قوله صلى الله عليه وسلم : « أتاكُمْ أهلُ اليمنِ ، هم أرق قلوباً ، وألينُ أفئدَةً » ، فوصف القلوب بالرقة ، والأفئدة باللين .

وقد يطلق القلب على العقل مبالغة كما فى قوله تعالى : « إنّ فى ذلك لذكرى لِمن كانَ له قَلبٌ » أى عقل فلقيامه به وعدم انفكاكه عنه صار كأنه هو .

وسمى القلب قلباً لفرط تقلبه ، ولذا ورد فى الحديث : « إنَّ القلبَ كريشة بأرض فَلاة تقلِّبها الرِّياحُ بَطناً لِظهر » .

وقال بعضهم :

ما سُمِّى القلبُ إلا من تَقلبهِ فاحذَرِ على القلبِ من قلب وتحويل

وقال آخر :

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلاَّ لنَسْيِهِ ولا القَلْبُ إلاَّ أنَّهُ يتقَلَّبُ

أو سمى بذلك لأنه خالص ما فى البدن ، وخالص كل شىء قلبه ، أو لأنه وضع فى الجسد مقلوباً . والقلب لغة : صرف الشىء إلى عكسه ، ومنه القلب .

وقوله : « فعالج » هو أمر من المعالجة أو العلاج ، يقال : عالج الداء معالجة وعلاجاً : عاناه وداواه .

وداء القلب كثير وعلاجه أمر هائل خطير ، وأعظم أدويته وأنفعها التقوى ، التى هى العماد الأقوى ، ولذلك قال الناظم :

واحشُ بِمِرهمِ التُّقَى سَوْدَاءَهُ

والمعنى : املأ أيها العاقل سوداء قلبك أى حبته بمرهم التقى أى بالتقوى الشبيهة بالمرهم .

« والمرهم » قال فى القاموس كمقعد : طلاء لين يطلى به الجرح ، مشتق من الرهمة ، للينه .

وإضافته للتقى من إضافة المشبه به للمشبه ، ووجه الشبه الاستشفاء بكل ، إلا أن الاستشفاء بالمشبه أكثر ، والتداوى به أنجح ، إذ هو نافع من الألم الأخروى الشديد الدائم ، والمرهم نافع من الألم الدنيوى السريع الذهاب والانقضاء .

وسوداؤه وسويداؤه وسواده : حبته كما فى الصحاح .

وقول الناظم : « صلاحُه صلاحُها » أى أن صلاح الجوارح والانقياد بها لفعل الطاعات ناشىء عن صلاح القلب ، وفسادها وارتكاب المخالفة بها ناشىء عن فساده ؛ وصلاحه بالإيمان والعلم والعرفان ، وفساده بالكفر والجحود والطغيان .

وقوله : « لمن خبر » هو بمعنى اختبر ، يقال كما فى القاموس : خبره خُبرا بالضم ، وخبرا بالكسر : بلاه وجربه كاختبره أى امتحنه ، والخبر آخر البيت ، المراد به الحديث المتقدم عن النعمان بن بشير وقد أخرجه البخارى ومسلم .

والخبر لغة النبأ ، واستعمله المحدثون بمعنى الحديث . وقيل : الحديث ما كان عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والخبر ما كان عن غيره .

وقال جماعة من أهل الاصطلاح : الخبر أعم . وأما الأثر فهو الذى يعبر به عن غير الحديث ، من أقوال الصحابة والتابعين .

قال بعضهم : صلاح القلب فى خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السَّحَر ، ومجالسة الصالحين .

ونظمها بعضهم فقال :

دواء قلبك خمسٌ عندَ قسوَتِهِ   فَدُمْ عليها تفزْ بالخيرِ والظَّفَرِ
خلاءُ بَطنٍ وقُرآنٌ تدبُّرُهُ   كذا تضرُّعُ باكٍ ساعةَ السحرِ
كذا قِيامُكَ جُنْحَ الليلِ أوسَطَهُ   وأنْ تُجَالِسَ أهْلَ الخيْرِ والخَبرِ

وزاد بعضهم : العزلة والصمت وترك خوض الناس .

وزاد آخر : أكل الحلال وهو رأسها فإنه ينور القلب ويصلحه ، فتزكو بذلك الجوارح وتكثر المصالح ؛ وأكل الحرام والشبهات تضر به وتُظلمه وتقسيه .

وذيل الأبيات بعضهم بهذه الثلاثة فقال :

والصمتُ والعزلةُ الغرَّا ، وعُمدتُها   أكلُ الحلالِ فكنْ بالحلِّ ذا بَصرِ

ثم قال :

[وأصلُ داءِ القلبِ حُبُّ العاجلهْ   فانبذْهُ واحتفلْ بأمرِ الآجلهْ]

لما ذكر فيما مر أن فساد الجوارح من فساد القلب وصلاحها من صلاحه .
بين هنا أن أصل داء القلب وفساده هو حب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة ، كما قاله الحسن :

رأسُ الخطايا هو حُبُّ العاجلهْ   ليسَ الدَّوَا إلا فى الاضطرارِ لَهْ

لأن شغل القلب بالدنيا يصد عن استغراق الأوقات فى حقوق الله تعالى فهى شاغلة عن الله تعالى ولذلك يقولون : إن الدنيا عدوة الدين فحبها مناف لحب الدين .

وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : إن كنت تحبنى فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب أبداً .

وعن الجنيد رضى الله عنه : ما أخذت التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وفى الحديث الصحيح : « ازهدْ فى الدنيا يحبُّك الله ، وازهدْ فيما فى أيدى الناس يحبُّك الناس » .

وروى أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، كان له أربعة آلاف كلب ، فى عنق كل كلب طوق من ذهب زنته ألف مثقال ؛ فقيل له فى ذلك . فقال : إنما فعلت ذلك لأن الدنيا جيفة وطلابها كلاب فدفعتها لطلابها (حكاه المقرى) .

وينسب للشافعى رحمه الله ، فى المعنى :

وَمَن يَذُقِ الدنيا فإنى طَعِمْتها   وسِيقَ إلىَّ عَذْبها وعَذَابها
فما هى إلاَّ جِيفةٌ مستحيلة   عليها كِلابٌ هَمُّهُنَّ اجتِذَابُها
فإن تجتنبها كنتَ سلماً لأهلها   وإن تجتذِبها نازَعتك كلابُها

فلا مطمع فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، ولا يتم ذلك إلا بقطع علاقة القلب عن الدنيا والإعراض عن الجاه والمال ، والهروب عن الشواغل والعلائق ، والتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . وما قام داع فى أمة إلا وقد حذر متابعة الدنيا وجمعها والحب لها .

ألا ترى إلى مؤمن آل فرعون كيف قال : « اتبعون أهدكم سبيلَ الرشادِ » فكأنهم قالوا : وما سبيل الرشاد ؟ فقال : « يَاقوم إنما هَذِهِ الحياةُ الدُّنيا مَتاعٌ » أى لن تصل إلى سبيل الرشاد وفى قلبك محبة للدنيا وطلب لها .

وعن وهب بن منبه رضى الله عنه قال : صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيئاً ، فوجده مشغولا عنه بذكر الله تعالى والفكر لا يفتر ، ثم التفت فى اليوم السابع فقال : ياهـذا قد علمت ما تريدُ : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد فى الدنيا رأس كل خير ، والتوفيق نجاح كل برّ ، فاحذر رأس كل خطيئة ، وارغب فى رأس كل خير ، وتضرع إلى ربك أن يهب لك نجاح كل بر . قال : وكيف أعرف ذلك ؟ قال : كان جدى رجلا من الحكماء وقد شبه الدنيا بسبعة أشياء . شبهها بالماء المالح يغر ولا يروى ، ويضر ولا ينفع ، وبظل الغمام يغر ويخذل ، وبالبرق الخلّب يغر ولا ينفع ، وبسحاب الصيف يضر ولا ينفع ، وبزهر الربيع يغر بنضرته ، ثم يصفر فتراه هشيماً ، وبأحلام النائم يرى السرور فى منامه ، فإذا استيقظ لم يجد فى يده شيئا إلا الحسرة ، وبالعسل المشوب بالسم الزعاف يغر ويقتل .

فتذكرت هذه الأحرف السبعة سبعين سنة ، ثم زدت فيها حرفاً واحداً : شبهتها بالغول التى تهلك من أجابها ، وتترك من أعرض عنها ، فرأيت جدى فى النوم فقال : يابنى أنت منى وأنا منك .

قلت : فبأى شىء يكون الزهد فى الدنيا ؟ قال : باليقين ، واليقين بالصبر ، والصبر بالعبر ، والعبر بالفكر .

ثم وقف الراهب وقال : خذها ولا أراك خلفى إلا متجرداً بفعل دون قول ، فكان ذلك آخر العهد به اهـ .

وعن الفضيل بن عياض : جعل الشر فى بيت واحد ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير فى بيت واحد ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا .

وكيف يميل عاقل إليها أو يرغب فى زهرتها ، مع ذم الله تعالى لها وتحذيره منها فى غير ما آية من كتابه العزيز ؟

قال تعالى : «فأمَّا مَنْ طغى وآثر الحياة الدنيا فَإنَّ الجحيمَ هى المأوَى».

وقال : «كلا بلْ تُحبونَ العاجلة وتَذرون الآخرَةَ» .

وقال : «مَنْ كانَ يَريدُ العاجلةَ عَجلنا لهُ فِيها مَا نشاءُ لمَنْ نريدُ» الآية.

وقال : «مَنْ كانَ يُريدُ حرْثَ الآخرة نزد لهُ فِى حَرثهِ ، ومنْ كانَ يريدُ حَرْثَ الدنيا نؤْتهِ منها ، ومَا لهُ فى الآخرةِ منْ نَصيب» .

وقال : «قلْ : متاعُ الدنيا قليلٌ» .

وقال : «ولَوْلا أنْ يكونَ الناسُ أمةً واحدةً ...» الآية .

وقال : «فَأعرِضْ عنْ مَنْ تولَّى ، عَنْ ذِكرنا ، ولَم يردْ إلاَّ الحياةَ الدنيا ، ذَلكَ مَبلغُهُم مِنَ العلمِ» .

وقال عليه الصلاة والسلام ، ذاماً لها ومحذراً مِنْ غوائِلها : «الدُّنيا ملعونة ، ملعونٌ ما فيها إلا ذِكر الله ومَا والاهُ ، وعالماً أو متعلماً» .

وقال عليه السلام : «الدنيا جِيفةٌ قذرةٌ» .

وقال : «لوْ كانت الدنيا تَزنُ عندَ الله جَناح بعوضة ما سقىَ الكافرَ منها جَرْعة مَاء» .

قال فى شرح الوغليسية : ذكر بعض الناس مامعناه : أن الله عز وجل ، لما خلق الدنيا، قال لبعوضة : اشتريها منى . فقالت: بماذا يارب ؟قال : بأحد جناحيك. قالت . وبماذا أطير ؟ قال : اقعدى على الأرض بجناح واحد ، قالت : لا خير فيما يعطل وجودى .

ولبعضهم فى المعنى :

إذَا كانَ شىءٌ لايساوِى جميعه جناح بعوض عند من كنت عبده
تُملّكُ جزءاً منه كلك ، ما الذى يكون من الأشياء قدرك عنده؟

وقال : محمد بن على الترمذى : لم تزل الدنيا مذمومة فى الأمم السابقة عند العقلاء منهم ، وطالبوها مهانين عند الحكماء الماضين .

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود فى قوله : « أهُم يقسمونَ رحمةَ ربك » مرفوعاً : إنّ اللهَ قسمَ بينكمْ أخلاقكمْ كما قسمَ بينكم أرزاقكمْ ، وإنّ اللهَ يعطى الدنيا منْ يحبُّ ومنْ لايحب ، ولا يُعطى الدينَ إلا منْ يُحبُّ . فمنْ أعطاهُ الدِّين فقدْ أحبهُ . اهـ .

تنبيهات :

الأول : فى الحلية : عن أبى حازم سلمة بن دينار . قال له عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم يوماً : إنى لأجدُ شيئاً يُحزننى ، قال : وما هو يابن أخى ؟ قال : حبى للدنيا . فقال : اعلم يابن أخى أنى لا أعاتب نفسى على شىء حببه الله إلى ، وإن الله تعالى قد حبب هذه الدنيا إلينا ، ولكن لتكن معاتبتنا أنفسنا فى غير هذا ، أن لا يدعونا حبها إلى أن نأخذ شيئاً من شىء يكرهه الله. ولا نمنع شيئاً من شىء أحبه الله ، فإذا نحن فعلنا ذلك لم يضرنا حبنا إياها . اهـ .

قال العلامة المحقق سيدى محمد بن زكرى رحمه الله فى شرح الحكم عقب نقله ما نصه : فافهم ، وأزل عن نفسك الفهم ؛ وَقَيِّد حديث : « من أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته » . وقول الحسن : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » بالحب الذى يحمل على ارتكاب أمر أو تضييع نهى ، أما مطلق الحب فهو كالأمر الجبلىّ ، والله تعالى أعلم .

وفى البخارى عن سيدنا عمر أنه قال فى قوله تعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ . . . » الآية : اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا . اللهم إنى أسألك أن أنفقه فى حقه .

قال القسطلانى : لأن من أخذ المال من حقه ووضعه فى حقه فقد سلم من فتنته .

الثانى : علاج حب الدنيا وجاهها — الذى هو غرور بالدين ، وعلة لليقين ، وحجب للبصائر ، ومرض للقلوب ، وبعد من الله عز وجل ، وهو أصل الآفات كلها — هو الاضطرار واللجأ إلى الله تعالى ؛ ليس الدواء إلا فى الاضطرار له ؛ إذ لا شك أن الاضطرار هو مفتاح النجاح فى كل ما يحتاج إليه العبد كائنا ما كان .

قال فى الحكم : ما طلب لك شىء مثل الاضطرار ، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار .

قال العارف ابن عباد : الاضطرار أن لا يتوهم العبد من نفسه شيئاً من الحول والقوة ، ولا يرى لنفسه شيئا من الأسباب يعتمد عليه ويستند إليه ، ويكون بمنزلة الغريق فى البحر ، أو الضال فى التيه القفر . لا يرى لغياثه إلا مولاه ، ولا يرجو لنجاته من تهلكته أحداً سواه .

وقال بعض العارفين : المضطر الذى يقف بين يدى مولاه فيرفع إليه يديه

بالمسألة ، فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئا فيقول : هب لى مولاى بلا شىء .

والذلة والافتقار أمران لازمان له ، وهما موجبان لإسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بهما.

وقد قال الله تعالى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُم الله بِبَدْرٍ وأنتم أَذِلَّةٌ » ، فذلتهم أوجبت لهم عزتهم ونصرهم .

وقال تعالى : « إنما الصَّدَقَاتُ للفُقَراء والمساكينِ » .

وقول الناظم : « فانبذه » . . إلخ ، معناه : وإذا علمت أن أصل المفاسد كلها ، ومنشأ المضار بأجمعها ، هو حب الدنيا فانبذه أيها العاقل . أى اطرح حبها عنك ، واجتهد فى رد قلبك عن الالتفات لها والتعلق بها ، واشتغل بأمر الآخرة ، أى ما يوصل إلى نعيمها والحلول فى جنانها ، وسكنى غرفها وقصورها ، من الأعمال الصالحة ، والمساعى الناجحة ، وليكن احتفالك بذلك ، واجتهادك فى تحصيل ما هنالك .

والنبذ : الطرح .

والاحتفال : المبالغة وحسن القيام بالأمور كما فى القاموس .

ما قيل فى التحذير من الشره

[ولايكنْ همُّك فى الطَّعام   والشُّربِ ، تلك شِيمةُ الطَّغام]
[لاتأكلنْ فى اليومِ إلاَّ مَرَّهْ   تَحْمَدْ طَعامك وتُكفَ ضُرَّه]
[وليكُ قَدْرُه كما الحديثُ قد   أرْشدَنا له : لُقَيْماتٌ فقد]
[ما ملأ المرء وعـــاء شرًّا   من بطنه ، فاحذرْ وقيتَ الشرَّا]

هذا من جملة النصائح السنية ، والتحذيرات من المضار المؤذية ، وهو إرشاد للاقتصاد فى الأكل والرفق فيه ، وعدم الشره والحرص المردى والمهين لذويه .

والمعنى : لاتكن ،أيها العاقل،همتك ورغبتك فى الطعام وألوانه،والشراب وأنواعه ، فإن ذلك شأن البهائم والطغام ، وشيمة الأراذل واللئام .

قيل : من كانت همته فى بطنه ، فقيمته ما يخرج منها .

وقال بعضهم : يعد من البهائم من همته بطنه وفرجه .

وقال القائل :

وإنّك إنْ أعطيتَ بطنَك همَّه ... وفرجَكَ نالا مُشتَهى الذمِّ أجمعا

وقال أبو الحجاج البلوى رحمه الله :

إذا أعطيتَ بطنَك مشتهاه ... وفرَجك سُؤلَه ، أنتَ البَهِيمة
وأخشى أن يُقالَ غداً لك : اذهب ... فما لكَ عندنا واللهِ قيمَة
أتطمَع أن تنالَ نعيم الأخرى ... وقد آثرتَ دُنياك الذَميمة ؟
محالٌ نيلُ هذا ، بعدَ هـذا ... أيحضرُ عاجزٌ قَسْمَ الغنيمَة ؟
إذَنْ لافضلَ للطاوى حشاهُ ... على منْ بطنه أبداً وَليمة
فدعْ عنك الأمانى فهى زُور ... فليتك لو نجوتَ مع الهزيمَة

ولكن لتكن همتك واعتناؤك فى تحصيل الأعمال الصالحات ، والتقرب إلى الله بأشرف القربات ، وإدراك المعارف والعلوم ، والخوض فى آفاق الفهوم ، فإن ذلك شأن النفوس العلية ، وشيمة أرباب العقول الزكية ، وشتان ما بين المرتبتين ، فاختر لنفسك ما شئت من هاتين المنزلتين .

والهم : ما هم به الإنسان فى نفسه ، أى نواه وأراده وعزم عليه. ولعل مراد الناظم به الهمة .

قال الكبرى : الهمة اعتناء القلب بالشيء أى تعلقه به واشتغاله بالالتفات إليه .

والطعام : ما يؤكل ويقتات من الحنطة والشعير والتمر وغير ذلك ، وجمعه أطعمة ، وجمع الجمع أطعمات .

والطغام كسحاب : أوغاد الناس وأرذالهم ، الواحد والجمع سواء كما فى الصحاح . والطغام أيضاً : رذال الطير والسباع .

وقوله : « لاتأكلن » . . إلخ معناه : إذا أردت اقتفاء سنن الصالحين والاهتداء بهدى المقربين ،وأن تحمد عاقبة طعامك ، فى حالك ومآلك ، وكفاية المضار والأسقام الناشئة من ملء المعدة بأنواع الأشربة والطعام ، فلا تأكل فى اليوم إلا مرة واحدة ، ولاتعود نفسك عادة تكرار الأكل الفاسدة .

فقد سأل رجل الحسن البصرى رضى الله عنه عمن يأكل مرة ؟ فقال : أكل الصالحين . فقيل : مرتين ، فقال غداء وعشاء أكل التجار ، فقيل : ثلاث مرات ، فقال : ذاك حمار يبنى له آرى . (ذكره الراغب فى محاضراته) .

وعن البيهقى عن عائشة رضى الله عنها : رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أكلت فى اليوم مرتين فقال ياعائشة : أما تحبينَ أن يكونَ لك شغل إلا جوفك ؟ الأكل فى اليوم مرتين من الإسراف ، والله لايحبُّ المسرفين .

وصح خبر : « كلوا واشربوا وتصدقوا مالم يخالطه إسراف » .

وروى ابن أبى الدنيا أنه صلى الله عليه وسلم أصابه جوع يوما ، فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ثم قال : « ألارب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ؟ ألاربَّ مُكْرِمٍ لنفسه وهو لها مهين ؟ ألارُبَّ مُهِين لنفسه وهو لها مُكْرِمٌ ؟ » .

وقال بعض الحكماء : من كثر أكله كثر شربه ، ومن كثر شربه كثر نومه وكثر لحمه ، ومن كثر لحمه قسا قلبه ، ومن قسا قلبه غرق فى الآثام .

فإنَّ الدَّاء أكثر ماترَاه يكونُ من الطعامِ أو الشرَاب

وعن مكحول قال : ثلاث خصال يحبها الله عز وجل : قلة الأكل ، وقلة النوم ، وقلة الكلام .

وكان بعض السلف يقول: أدنى أحوال المؤمن قلة الأكل والنوم ، وأفضل أحوال المنافق كثرة الأكل والنوم .

وقال القشيرى فى الرسالة : قال يحيى بن معاذ : لو أن الجوع يباع فى السوق ، لما كان ينبغى لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره .

وقال أيضاً : الجوع نور ، والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب يتولد منه الاحتراق ، ولا تنطفىء ناره حتى تحرق صاحبها .

وفى الشفاء مانصه : وقال سفيان الثورى : بقلة الطعام يملك سهر الليل .

وقال بعض السلف : لاتأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً اه.

زاد الغزالى : فتخسروا كثيراً .

ثم قال : وعن عائشة رضى الله عنها : لم يمتلىء جوف النبى صلى الله عليه وسلم شبعاً قط . وأنه كان فى أهله لايسألهم طعاماً ولا يتشهاه ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، ومالسقوه شرب .

وقد عد فى الزواجر من الكبائر : إكثار الإنسان الأكل من مال نفسه ، بحيث يعلم أنه يضره ضرراً بينا قال: لأنه من إضرار النفس وهو كبيرة كإضرار الغير. اه.

وعد فى الزواجر أيضاً من الكبائر : التوسع فى المآكل والمشارب شرهاً وبطرا.

وعلى هذا وعلى الشبع المضر ، أو من مال الغير ، أى بغير رضاه ، يحمل مافى الأحاديث من الوعيد .

ويؤيد ذلك قول الحليمى فى قوله تعالى : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون » . الآية . هذا الوعيد من الله تعالى ، وإن كان للكفار الذين يقدمون على الطيبات المحظورة ، ولذلك قال تعالى : « فاليوم تُجزَونَ عذَابَ الهونِ » فقد يخشى مثله على المنهمكين فى الطيبات المباحة لأن من تعودها مالت نفسه إلى الدنيا فلم يأمن أن يرتبك فى الشهوات والملاذ ، كلما أجاب نفسه إلى واحد منها دعته إلى غيره ، فيصير إلى أن لا يمكنه عصيان نفسه فى هوى قط ، وينسد باب العبادة دونه ، فإذا آل به الأمر إلى هذا لم يبعد أن يقال له : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم » ... إلخ .

فلا ينبغى أن تعود النفس بما تميل به إلى الشره ، فيصعب تداركها ، ولْتُرَضْ من أول الأمر على السداد ، فإن ذلك أهون من أن تدرب على الفساد ، ثم يجتهد فى إعادتها إلى الصلاح . والله أعلم .

قال : وصح خبر : من الإسراف أن تأكل ما اشتهيت .

وقول الناظم : « وليك قدره » . . إلخ . معناه . وليكن أكلك فى تلك المرة الواحدة ، بقدر الحاجة البينة المتأكدة . وذلك القدر هو المبين فى الحديث الشريف ، المتضمن أعلى مراتب التشريف .

أخرج الترمذى ، وصححه الإمام أحمد والنسائى وابن حبان فى صحيحه ، والطبرانى وابن ماجة ، والحاكم وصححه عن المقدام بن معد يكرب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بَطنِه . حسبُ الآدَمِىّ » . وفى لفظ آخر : « ابنُ آدمَ لقيماتٍ »

وفى رواية أكلات (بضم الكاف وفتحها) يُقمن صُلبه ، فإن غلبتْ الآدمىَّ نفسه» . وفى رواية : « فإن كان ولا بد ، فثلثٌ للطعام ، وثلثٌ للشرابِ ، وثلثٌ للنفس » . وفى رواية : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلثٌ لنفسه . » .

قال القرطبى : لو سمع بقراط بهذه القسمة لعجب من هذه الحكمة .

وإلى هذا الحديث أشار الناظم فأشار إلى عجزه بقوله : « وليك قدره » أى وليكن قدر الأكل فى المرة الواحدة فى اليوم كما ، أى مثل القدر الذى الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرشدنا له ، وهو أى القدر المذكور لقيمات فقد ، أى فحسب ، أى كافية .

فقوله : « كما » خبر « يك » . والكاف اسم بمعنى مثل ، وما موصولة واقعة على القدر ، والحديث مبتدأ ، وجملة قد أرشدنا له خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر صلة ما ، والعائد الضمير المجرور باللام ، ولقيمات ، خبر لمبتدأ محذوف . وهذه الصيغة فى الجمع بالألف والتاء للقلة وهو لما دون العشرة ، وفيه أيضاً مع التقليل التصغير لأن لقيمة تصغير لقمة . « وقد » : اسم بمعنى حسب ، والفاء زائدة لتزيين اللفظ . ويحتمل أن يكون خبر « يك » لقيمات .

وقوله : « كما » خبر لمبتدأ محذوف ، أى وذلك القدر كائن كالقدر الذى . . الخ . أو مثل القدر الذى .

وأشار إلى صدر الحديث بقوله : « ما ملأ المرء » . . إلخ .

وإلى ما تضمنه هذا الحديث أشار الشيخ خليل فى جامعه بقوله : « ولا ينهم » . أى لا يكثر من الأكل ، ويجعل بطنه ثلثا للطعام ، وثلثا للماء ، وثلثا للنفس ، فإنها ، أى البطن ، شرّ وعاء .

وأشار إليه فى الرسالة أيضاً بقوله : ومن آداب الأكل أن تجعل بطنك ثلثا للطعام ، وثلثا للماء ، وثلثا للنفس . اهـ .

قوله عليه السلام : « ما ملأ ابن آدم وعاء » . . إلخ . جعل البطن وعاء كالأوعية التى تتخذ ظروفاً توهيناً لشأنه ؛ ثم جعله شر الأوعية لأنه خلق لأن يتقوم به الصلب بالطعام ، وامتلاؤه يفضى إلى فساد الدين والدنيا .

ومعنى قوله عليه السلام : « حسب ابن آدم » يكفيه .

والصلب : الظهر من باب تسمية الكل باسم جزئه ، وهو كناية عن أنه لا يتجاوز ما يحفظه من السقوط ويتقوى به على الطاعة .

وقد بين الغزالى رحمه الله مقدار ثلث البطن ، بأنه نصف المُدّ لكل يوم حيث قال : ينبغى أن يقنع بنصف المُدّ لكل يوم ، وهو ثلث البطن . قال : ولذلك كان عمر وجماعة من الصحابة قوتهم ذلك . قال : ومن زاد على ذلك فقد مال عن طريق السالكين المسافرين إلى الله تعالى ، لكن يؤثر فى المقادير اختلاف الأشخاص والأحوال ، فالأصل أن يمد إليه إذا صدق جوعه ، ويكف وهو يشتهى . اهـ .

وقال الشيخ مرتضى فى شرحه للإحياء ما نصه : وقد نبه صلى الله عليه وسلم فى خبر : « المؤمنُ يأكلُ فى مَعًى واحد ، والكافرُ يأكلُ فى سبعة أمعاء » : أنه لا يستحب للإنسان إلا الأكل فى سُبع بطنه ، وهو ما ذكره فى هذا الخبر من اللقيمات ، وذلك دون عشر لقم لأن الجمع بالألف والتاء لما دون العشرة .

ثم رخص لمن غلب عليه النهم أن يبلغ إلى ثلث بطنه ، فأخذ من ذلك أن أكل المؤمن فى اليوم ينبغى أن يكون فى سبع بطنه أو ثلث بطنه . اهـ . ببعض تغيير .

وقال النفراوى : ويعرف الثلث بالاقتصار على ما كان يشبع .

وقيل : يعرف بالاقتصار على نصف المدّ ، والأول أظهر ، لاختلاف الناس .

وهذا كله فى حق من لا يضعفه قلة الشبع ، وإلا فالأفضل فى حقه استعمال ما يحصل به النشاط للعبادة واعتدال البدن .

قال : ومن خط علامة الزمان شيخ مشايخنا الأجهورى : الأكل الذى تحصل به الحياة ، أو القدرة على الصيام الواجب ، أو الصلاة الواجبة ،واجب . والذى يحصل به التقوى على العبادة الغير الواجبة مندوب ، والمباح ملء ثلث بطنه ، والزائد على ذلك مكروه .

قال لقمان لابنه : يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرس لسان الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال بعض الحكماء : « من كثر أكله » . . . إلى آخر ما مرّ . ثم قال : « والزائد الذى ينشأ عنه الضرر حرام » . اهـ .

وقال الشيخ زروق عن سراج المريدين : ينبغى أن يكون طعام المريد أربعاً وعشرين أوقية بين الليل والنهار ، يجزأ ذلك على ثلاثين ، سواء أكله فى مرة أو مرات . ثم قال : وأحوال الناس تختلف . والمقصود حفظ القوة مع خفة الأعضاء للعبادة بلا علاج ، وبالله التوفيق اهـ .

وقال الشيخ يوسف بن عمر قال بعضهم : إن كان بعد اللقم فإنه يبلغها إلى سبع ، فإذا زاد فإنه يبلغها إلى إحدى عشرة : فإذا زاد فإنه يبلغها إلى إحدى وعشرين وهو الإعياء .

ثم قال : واختلف فى تقدير الثلث ، فقيل : هو نصف المُدّ . (قاله أبو حامد). وقيل : يعرف ذلك بأن يعلم غاية ما يشبعه ، ويقتصر على ثلثه .

ثم قال : وجاء عن عائشة أنها قالت : أول بدعة حدثت بعد النبى ، صلى الله عليه وسلم ، الشبع اهـ .

تنبيهات :

الأول : تقدم من كلام النفراوى ما يدل على أن قلة الأكل مطلوبة ومحمودة فى حق من لا يضعفه قلة الشبع .

وقال الشهاب الخفاجى فى شرح الشفاء : وإنما يمدح قلة الغذاء والنوم ، إذا لم يفرط حتى يؤدى لضرر بلا ضرورة ، كما قال :

واخشَ الدسائسَ من جوعٍ ومن شبعٍ   فرُبَّ مَخمصةٍ شرٌّ من التخمِ

وقال الشيخ يوسف بن عمر بعد ذكره آفات الشبع ومضارها : وهذا كله فى حق من لا يخدم ولا يدرس العلم ، وأما الخديم فى طلب معاشه فيباح له الشبع ، وكذلك طالب العلم .

الثانى : قال فى « جمع الوسائل » : المذموم من الشبع هو الشبع المثقل الموجب للكسل ، المانع من تحصيل العلم والعمل .

وقد نص العلماء على أن الشبع إلى حد التخمة وإفساد المعدة حرام ، وما دون ذلك مما يؤدى إلى الثقل مختلف فيه بالكراهة والإباحة .

وعليهما اختلف فى الجشأ ، هل يقول عندها : الحمد لله أو أستغفر الله ؟ وجمع بعضهم بينهما ، وهو أحسن ، فيحمد الله اعتباراً بالنعمة ، ويستغفر الله لسوء أدبه فى أكله .

ومـا لا يحصل معه الثقل مما لا يخل بقوة هو المطلوب ؛ وعليه نبه سبحانه بقوله : « كلُوا مِن الطَّيِّباتِ واعْمَلُوا صَالحـاً » . فالأكل على هذا الوجه من الدين ، وهو الذى تظهر أنواره على صاحبه .

الثالث : تقدم من كلام الأجهورى ما يفيد أن الأكل أقسام : واجب

وغيره ، ذكر منها أربعة ؛ وأنهاها الغزالى فى « الإحياء » ، وكذا صاحب « المدخل » إلى سبعة أقسام :

الأول : ما يمسك الحياة فقط .

الثانى : الزائد الذى يقوى به على الصوم والصلاة قائماً . وهما واجبان .

الثالث : ما زاد حتى يقوى على النوافل .

الرابع : ما زاد حتى يقوى معه على التكسب . وهذان مستحبان .

والخامس : أن يملأ الثلث وهو جائز .

والسادس : أن يزيد على ذلك فيثقل البدن ويكثر النوم فهذا مكروه .

والسابع : أن يزيد حتى يتضرر ، وهى البطنة المنهى عنها ، وهذا حرام .

وقد نظم ذلك ابن العماد رحمه الله ، فقال :

والأكلُ أنواعُه فى سبعةٍ حُصِرتْ   فى «مَدْخَلٍ» عدَّها، خُذْها بِلاَ مَلَل
فأولٌ واجبٌ حفظُ الحياةِ به   وثانيها قُمْ به للفَرْضِ واشتَغِل
وثالثٌ سنةٌ أدنَى نَوافِلِها   حالُ القيامِ فقُمْ بالفَرْضِ والنَّفل
ورابعٌ شبعٌ فى الشرعِ قَوَّمَهُ   يُقيمُ صُلبَ الفتى للكَسْبِ والعَمَل
وخامس شبعٌ غَشَّى به ثلثا   جاءتْ إباحتَه عن سَيِّدِ الرُّسُل
وسادسٌ زائدٌ جاءت كراهتَهُ   وفِعلُه جالبٌ للنَّوْمِ والكَسَل
وسابعٌ بِطْنَةٌ تُفضِى إلى مَرَضٍ   فالنَّقْلُ تَحْرِيمُها فاحْذَرْ من الدَّغَل

الرابع : للأكل والشراب آداب ومكروهات أشار إلى جملة منها الشيخ خليل ، رحمه الله ، فى « جامعه » بقوله : ومن المتعلق بالجوارح الأكل والشرب أى ومن الآداب المتعلقة .. إلخ ، وكره متكأ ومضطجعاً وبالشمال إلا لعذر أو

ضرورة ، ومن غير ما يليه إلا أن يكون الطعام ألواناً مختلفة ، أو يكون مع أهله وولده ، وإن لزمهم الأدب ، فعندئذ جاز له أن يأكل غير ما يأكلونه ويلبس غير ما يلبسونه ؛ وليسم الله في الابتداء ويحمده في الانتهاء ؛ وإن أكل مع غيره ساواه في تصغير اللقم وإطالة المضغ والترسل في الأكل . وإن خالف عادته ؛ ويدير الإناء على يمينه الأول فالأول ؛ ولا ينهم ويجعل بطنه ثلثاً للطعام وثلثاً للماء وثلثاً للنفس . فإنها شر وعاء ، ولا ينفخ في طعامه وشرابه وكتابه ، ولا يتنفس في الإناء بل ينحيه ويعيد بعد النفس ، ويلعق أصابعه ، وليغسل يده وفمه من الدسم واللبن كالإناء ، ويكره غسلها للأكل إذا لم يكن بها أذى ، كشربه من فم السقاء ، ولا يقرن بين تمرتين فأكثر إذا لم يقرن الآكل معه ، ولو كان هو المطعم ، إلا مع أهله وولده فيجوز كالشرب قائماً .

وأشار إلى جملة من هذه الآداب والمكروهات بعضهم بقوله ، مع ما فيه من المسامحة :

هاك آداب الأكل والشراب ... ومكروهاته بلا ارتيـــــاب
تسمية جهـراً ، وباليمين كلْ ... والرفعُ بعد البلع مندوبٌ فقُل
وكلْ مما يليك في الطعـــام ... وبالتأنِّ في المضــــغِ للتمامِ
وأن تمصَّ المـاءَ عند الشرب ... ثم تُبينُ القدحَ جا في الـكتبِ
ثم يناوِلُ مَن على يمينهِ ... والحمدُ سراً ثم لعقٌ بيدِهِ
ومسحٌ قُلْ مرتباً وغَسْلٌ ... فاللعقُ ثم المسحُ ثم الغسلُ
وبعدَ ذا تنظيفُهُ جا للفمِ ... وخَلِّلْ الأسنانَ ياذَا الفَهْمِ
والـكلُّ مندوبات يا أُخَيَّ عَدَا ... تَسْمِيَةٍ كذاك غُسلٍ قدْ بَدَا
كلاهما قلْ سنة مُؤكدهْ ... وجاء غســل قبـله فأكدهْ
إنْ لمْ يكنْ أذًى وإلاَّ وَجَبَا ... ثم مع الأوساخِ قالوا نُدبا
والنفخ مكروه ياذَا السؤال ... ثم المناولةُ بالشمـــــالِ

وألاَّ تُتكا في الأكلَ ثم الأكل   مِن وَسَطِ الطعامِ بانَ العَدْل
ثم الأواني من مصُوغٍ كالذَّهبْ   محرم فيه الطعَامُ والشربْ
وقِسْ عليه ما عداه يا فتى   ثم القِرَانُ في الفَواكهِ ثبتَا

وقول الناظم : « فاحذر وقيت الشر » جملة طلبية كمل بها البيت . ومعناها : إذا علمت أن ملء البطن بالطعام والشراب جالب للفتور ، ومحصل للآثام والشرور ، فاحذر وقيت ، أي وقاك الله وحفظك من أنواع المؤذيات ، الشر وما يوَصّل إليه ، وجنب عن نفسك الضرر وما يترتب عليه . وجملة « وقيت » دعائية اعتراضية من الفعل والمفعول . والوقاية الحفظ من الأسواء ، ومفعول « وقيت » محذوف أي الشر .

وأما قوله : « الشر » فهو مفعول احذر ولا إيطاء بين «شر» والشر ، لأن الأول اسم تفضيل نكرة ، والثاني اسم أو مصدر معرفة .

بعض آفات الشبع

ثم قال :

[في شِبعِ المرء من الحلالِ   عشرة من أقبحِ الخصالِ]

لما كانت آفات الشبع مطلقا لا تنحصر إذ هو أصل كل شر وبلاء .

قال سهل بن عبد الله : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع ، ورأس كل فجور بينهما الشبع .

وقال أيضا : ما على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روى فسلم من المعصية ، وإن شكر الله تعالى فكيف الشبع من الطعام .

وأما آفاته من الحلال فهي عشرة على ما ذكره غير واحد .

ذكرها الناظم رحمه الله وزاد هو واحدا ذكره بعد الفراغ منها فى قوله :
قلت : ومنه أنه إلى « السقم » ... الخ .

وقول الناظم عشرة : مبتدأ مؤخر سوغ الابتداء به وصفه بالجار والمجرور بعده .

وقوله : « فى شبع » خبر مقدم « ومن الحلال » متعلق به .

فإن قلت : لِمَ قدّم الناظم الخبر على المبتدأ ، مع تمكنه من أن يقول :

عشرةٌ من أقبحِ الخصال   فى شِبعِ المرءِ من الحلال

ولا يصح أن يكون كذلك للحصر ، لأن هذه الخصال غير محصورة فى العشرة ، بدليل زيادة الناظم عليها واحدا وبدليل ما يأتى .

فالجواب : أن التقديم للحصر لكنه إضافى ، أى أنها محصورة فى العشرة بالنسبة لما ذكروه وإلا فهى أكثر . ويدل له قول الشيخ زروق فى « النصيحة الكافية » : والشبع من الحلال مبتدأ كل شر ، فكيف به من الحرام !! اهـ . والله أعلم .

* * *

ثم قال :

[مِنْ ذاكَ قسوةُ القلوبِ وهْيَ   داهيــةٌ للناسكين دَهْيَا]
[إذ قيلَ : إن القلبَ كالزّرعِ متى   دَامَ عليهِ الماءُ ماتَ يا فتى]
[والقلبُ إن يمتْ فأى ذِكرَى   تنفعه ، وإنْ أدمتَ ذِكرا ؟]

هذه هى الخصلة الأولى من الخصال العشرة وهى قسوة القلب ، أى غلظه وشدته . نسأل الله العافية .

ولا خفاء أن هذه داهية عظمى ومصيبة كبرى .

عن ابن عباس رضى الله عنهما : مَنْ شبع ونام قسا قلبه .

وفى حديث حذيفة مرفوعا : «مَن قلَّ طَعْمه صحَّ بطنُه وصفا قَلبُه ؛ وَمن كثُرَ طعمُه سَقمَ بطنه وقَسا قلبُه» .

وفى حديث عائشة مرفوعاً : «تُورِثُ القَسْوةَ فى القلبِ ثَلاثُ خِصالٍ : حبُّ الطعامِ ، وحبُّ الكلام ، وحبُّ الراحةِ .

وفى حديث علىٍّ مرفوعاً : «أكلُ المبادِ ، ونوْمُهم عليه ، قسوةٌ فى قلوبِهم» .

وقال أبو سليمان الدارانى : إذا جاع القلب وعطش صفا ورق ، وإذا شبع عمى وغلظ ، أى فغلظ القلب وعماه وقسوته ، إنما تكون من الشبع ؛ والرقة وانفتاح عين البصيرة تكون من الجوع .

ولهذا قال أبو سليمان الدارانى أيضاً : عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب ، وهو يورث العلم السماوى .

وفى الحديث : «أحْيوا قلوبكم بِقلةِ الضَّحِكِ ، وطَهِّرُوها بالجوع ، تصفو وترِقُّ» .

وفيه : «مَنْ أجاعَ بطنه عظُمت فكرَتُه وفَطنَ قلبُه» .

«وذاك» إشارة إلى عشرة من قوله : عشرة من أقبح الخصال .

وقسوة القلب صلابته وغلظه ، يقال ، قسا قلبه قسوا وقسوة وقساوة ، وقسا صلب وغلظ ، فهو قاس .

وقوله تعالى : «ثمَّ قستْ قلوبُكم من بعدِ ذَلك» أى غلظت ويبست وعصت .

فتأويل القسوة فى القلب : ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه . قاله فى القاموس وشرحه .

والداهية : الأمر العظيم ، والجمع : الدواهى .

قال فى الصحاح : ودواهى الدهر : مايصيب الناس من عظيم نوبه .

والناسكين : جمع ناسك وهو العابد .

قال ثعلب : هو مأخوذ من النسيكة وهى سبيكة الفضة المخلصة من الخبث ، كأنه خلص نفسه وصفاها لله عز وجل ، والجمع : نساك ، ونسك البيت أتاه . والمنْسك كمَقْعد : وقت النسك ، والنُّسُوك بالضم العبادة .

والدهياء : الشديدة من شدائد الدهر . وقال ابن السكيت : دهته داهية دهياء . وهو توكيد لها .

فقول الناظم : « داهية » للناسكين : أى أن قسوة القلوب أمر عظيم ، ومصيبة شديدة من مصائب الدهر ونُوَبه للعابدين لله تعالى .

وقوله : « إذ قيل » . . . إلخ إشارة إلى قوله ، صلى الله عليه وسلم ، كما فى « الإحياء » : « لاتُمِيتُوا القَلْبَ بكَثْرةِ الطَّعَامِ والشرَابِ ، فإن القلبَ كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء » .

قال العراقى : لم أقف له على أصل . وهو دليل على أن الشبع يقسى القلب .

وبيانه : أنهم شبهوا قلب المؤمن بالزرع أى النبات بجامع صلاح الكل بالمعالجة والمعاهدة ، وفساد الكل بالإهمال والترك . ونزلوا دوام توارد الأكل والشرب عليه منزلة دوام الماء على الزرع .

ومن المعلوم أن الزرع إذا دام عليه الماء ، وأرسل عليه أكثر من الحاجة يموت ولا تقوم له قائمة ، فكذلك القلب إذا أكل صاحبه وشرب أكثر من الحاجة يموت ، وموته قسوته .

وإن شئت قلت : الإكثار من الأكل والشرب والشبع المفرط الزائد على ماتدعو الضرورة إليه معصية من معاصي الله عز وجل ، وتكرير ذلك تكرير للمعصية وإكثار منها . والمعاصي إذا تراكمت طبع على القلب وقسى ومات ، كما أن الماء إذا كثر على النبات أكثر من الحاجة مات .

وعن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال : إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت في قلبه بذلك الذنب نكتة سوداء ، فإن تاب محيت من قلبه، فترى قلب المؤمن مجليا مثل المرآة، ما يأتيه الشيطان إلا أبصره . وأما الذي يتتابع في الذنوب كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فلا يزال ينكت في قلبه حتى يسود قلبه فلايبصر الشيطان من حيث يأتيه . (نقله صاحب القوت) .

وفيه أيضا : وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الران الذي ذكره الله : «كلاَّ بلْ رانَ على قلُوبِهم ما كانوا يكسِبون» .

وفي الحديث : « أربعُ خصال تفسد القلوبَ : مجاراةُ الأحمق فإن جاريته كنت مثله وإن سكت عنه سلمت منه ؛ وكثرة الذنوب مفسدة القلوب وقد قال تعالى : «كلاَّ بلْ رانَ على قلُوبِهم ما كانوا يكسِبُون » ؛ والخلوة بالنساء والاستماع منهن والعمل برأيهن ؛ ومجالسة الموتى ، قيل : وما الموتى ؟ قال :غني قد أبطره غناه » . اهـ .

وقول الناظم : « والقلب إن يمت » . . . إلخ . معناه وإذا مات القلب وقسا ، فلا انتفاع لصاحبه بموعظة ، ولا يؤثر فيه تذكير ولا تذكرة ، وإن أدمت المواعظ على سمعه ، وتلوت عليه أبلغها وأجمعها آناء الليل وأطراف النهار لأنه عند ذلك يعمى عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بالآخرة، ويستعظم

أمر الدنيا ويصير مقصورا عليها ، وإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من الأخرى ، ولم يستقر فى القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك ؛ أولئك الذين يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، فهو حينئذ بمنزلة الأرض السبخة المالحة ، لو نزل عليها المطر آناء الليل وأطراف النهار لا ينفع فيها ولا يفيد .

إذَا قسا القلبُ لم تنفعْهُ موعظة   كالأرْضِ إنْ أَسْبَخَتْ لم يَنفَعِ المطَرُ
لا ينفعُ الوعظُ قلباً قاسِياً أبَدًا   وَلا يَلِينُ لوَعْظِ الواعِظِ الحجَرُ

والذكرى ، بكسر الذال ، اسم للتذكير : أى أقيم مقامه كما تقول : اتقيت تقوى .

قال الفراء : يكون الذكرى بمعنى الذكر ، ويكون بمعنى التذكر فى قوله تعالى : « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ المُؤْمِنِينَ » . وقوله تعالى فى « ص » : « رحمةً منَّا وذِكْرَى لِأُولِى الألْبَابِ » ، أى عبرة لهم .

وقوله تعالى : « يَتَذَكرُ الإنسانُ وَأَنى لَهُ الذِّكْرَى » ، أى يتوب ومن أين له التوبة ؟

وقوله تعالى : « ذِكْرَى الدارِ » ، أى يَذَّكرون بالدار الآخرة ، ويزهدون فى الدنيا . ويجوز أن يكون المعنى يكثرون ذكر الآخرة .

وقوله تعالى : « فَأَنى لَهُم إذَا جاءتهُم ذِكْرَاهم » ، أى فكيف لهم إذا جاءتهم الساعة بذكراهم ؟ والمراد بها : تذكرهم واتعاظهم ، أى لا ينفعهم يوم القيامة عند مشاهدة الأهوال . قاله فى القاموس وشرحه .

وأما « ذكرا » من قول الناظم « وإن أدمت ذكرا » فهو مصدر ذكر الشيء يذكره ذكرا .

ومعناه : أن التذكير والاتعاظ لا ينفع فيه ولا يفيد ، وإن أدمت ذكر المواعظ عليه ووجهتها فى كل الأحيان إليه . فلا إيطاء بين الأول والثانى لما بينهما من الاختلاف فى المعنى ، والله أعلم .

* * *

ثم قال :

[ومنه إسراع الجوارح إلى معاصى ربِّ النَّاس وهَّاب الإلى]

[إذْ قيل إن القلب إنْ جاع شبع سائر الأعضاءِ وبالعكس اتَّبع]

[وأى داء للفتى أضر مما إلى معصية يجر ؟]

هذه هى الخصلة الثانية من الخصال العشرة . والضمير المجرور بمن ، فيه وفيما بعده عائد على اسم الإشارة المتقدم فى قوله : « من ذاك » ... إلخ ، العائد على عشرة من أقبح الخصال .

والمعنى : أن الشبع من الحلال ينشأ عنه أيضاً إسراع الجوارح ، أى مبادرتها واستباقها إلى معاصى الله عز وجل مولى الأيادى والنعم لعباده .

ولاشك أن هذا من أعظم البلايا ، ومن أضرها على البرايا ، فأى داء أضر على المرء مما يجره إلى ارتكاب المعاصى وإسخاط من له الأخذ بالنواصى ؟

وفى « القوت » عن ذى النون المصرى رحمه الله ، قال : ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية . اهـ .

وذكر القشيرى فى الرسالة بسنده إلى سهل بن عبد الله قال : لما خلق الله الدنيا جعل فى الشبع المعصية والجهل ، وجعل فى الجوع العلم والحكمة . اهـ .

والإسراع إلى الشيء : المبادرة إليه .

والمعاصي جمع معصية : وهي الخروج عن الطاعة ومخالفة الأوامر ، يقال : عصاه يعصيه عصيانا ومعصية : خرج عن طاعته . وعصا العبد ربه : خالف أمره والمراد به العصيان . وإضافته لما بعده من إضافة المصدر إلى مفعوله بعد حذف فاعله ، أي عصيان الجوارح .

رب الناس : أي خالقهم .

ووهاب ، مبالغة : أي كثير الهبة . وفى شرح القاموس ما نصه : ومن أسمائه تعالى الوهاب ، وهو المنعم على العباد . وفى « النهاية » : وهو فى صفته تعالى يدل على البذل الشامل والعطاء الدائم ، بلا تكلف ولا غرض ولا عوض .

قلت : قال ابن منظور : الهبة العطية الخالية من الأغراض والأعواض ، فإذا كثرت سمى صاحبها وهابا ، وهو من أبنية المبالغة .

قال شيخنا : واختلف فى أنه من صفات الذات أو الأفعال ، والصحيح الثانى ، وأن المراد إرادة الهبة .

والإلى بكسر الهمزة ، واحد الآلاء : وهى النعم .

قال النابغة :

هم الملوك وأبناء الملوك لهم فضل على الناس فى الآلاء والنعم

وقد تكون « إلى » فعل أمر مسند إلى ألف الاثنين بمعنى الجآ ، وحرف جر مفيداً للانتهاء والغاية . وفى ذلك ألغز من قال :

إلى خليلىّ إنْ ضَاق المعاش إلىَ إلى خليليكما وقيتما خللاً
يا مَن بدا فى سماء النحو أنجمه إعراب ذا البيت أبد ، فهو قد سهلا

الأولى : فعل أمر من وأل يئل إذا لجأ ، وألفه للتثنية ، أى الجآ ياخليلى ويكتب بياء للتعمية . والثانية : جارة . والثالثة : اسم بمعنى النعمة مفرد آلاء .

وأشرت إلى جوابه بقولى :

فأولٌ فعلُ أمر للمثنى بدَا   والثانى حرفٌ لجرٍ عند من عقلاَ
والثالثُ اسمٌ بمعنى نعمة عظمت   وجمعه قد أتى آلاء حزت علا

وقول الناظم : إذ قيل : إن القلب . . إلخ تعليل ودليل لكون الشبع ينشأ عنه ماذكر ، وأشار به لما فى « النصيحة الكافية » من قوله :

وقد قيل : البطن إذا جاع شبع سائر الجسد ، أى سكن فلا يطالبك بشىء وإن شبع جاع سائر الجسد ، أى : فانبعث للفضول والفساد ، واشتهت عينه النظر ، وأذنه السماع ، ولسانه الكلام ، وفرجه الشهوة ، ورجله المشى ، إليها ويده المباشرة لها .

وأما قول الناظم : « وأى داء . . إلخ فهو من تتمة البيت الأول كما يرشد اه التقرير . والله أعلم .

ثم قال :

[ومنه ضَعفُ الفَهم ، إن البطنة   كما أتى مذْهبةٌ للفِطنهْ]
[إنّ الحجَا مِن نِعم الرَّحمنِ   فَمن يضعْهُ باء بالحرمانِ]
[ومنْ يَبيعُ فهمهُ بِلقمهْ   قَد اشترَى خسارَة ونِقمهْ]

هذه هى الخصلة الثالثة من الخصال العشرة .

والمعنى : أن من آفات الشبع من الحلال أيضاً : ضعف الفهم أى الإدراك ،

وهذا من أكبر الآفات وأهم المعضلات ، فإن البطنة مذهبة للفطنة . كما جاء ذلك عن الأئمة .

وأشار به لقول الإمام أبى حامد الغزالى فى « منهاج العابدين » : البطنة تفسد الفطنة .

وأشار فى « الإحياء » لهذا المعنى أيضاً ونصه ، ممزوجا بالشرح : فإن الشبع يورث البلادة والجمود ، ويعمى القلب بتراكم الحجب عليه ، ويكثر البخار فى الدماغ كشبه السكر ، بصعوده من المعدة إليه ، فيثقل القلب بسببه عن الجريان فى ميدان الأفكار ، وعن سرعة الإدراك لما يلقى إليه ، بل الصبى إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه ، وصار بطىء الفهم والإدراك لما يلقى إليه .

قال أبو سليمان الدارانى : عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب ، وهو يورث العلم السماوى . أراد به العلم الذى يأتى من فوق من غير اكتساب .

ثم قال : مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القناعة مثل السحاب ، والحكمة كالمطر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطَنَ قلبهُ » . قال العراقى : لم أجد له أصلا .

ثم قال : وقال أبو بكر الشبلى : ماجعت لله يوما إلا رأيت فى قلبى بابا من الحكمة ، أى العلم الإلهى ، والعبرة ، أى الاعتبار ، مارأيتهما قط قبل ذلك .

وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى مقام المعرفة فى الله ، والاستبصار بحقائق الحق ، كما هى ؛ والشبع يمنع ذلك ، لما فيه من تبليد الفكر ، والجوع يفتح بابه ؛ والمعرفة باب من أبواب الجنة ، فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة ، ولهذا قال لقمان لابنه : يابنى إذا امتلأت المعدة : نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال أبو يزيد : الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة ، أى كما يمطر السحاب الماء .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « نور الحكمة الجوع ، والتباعدُ من الله الشبع ، والقربُ إلى الله عز وجل حب المساكين والدنو منهم ، ولا تشبعوا فينطفىء نورُ الحكمة من قلوبكم ، ومن بات يصلى فى خفة بطن من الطعام بات الحورُ حولهُ حتى يصبح » . قال العراقى : ذكره أبو منصور الديلمى فى « مسند الفردوس » من حديث أبى هريرة .

قلت : رواه أيضا ابن عساكر فى التاريخ بلفظ : « نورُ الحكمة الجوعُ ، ورأسُ الدينِ تركُ الدنيا ، والقربةُ إلى الله حبُّ المساكين والدنوُّ منهم » ، والبعدُ من الله ، الذى قوى به على المعاصى ، الشبعُ ، فلا تشبعُوا بطونكم فَينطفىء نورُ الحكمة من صدوركم ، فإن الحكمة تَسْطَعُ فى القلبِ مثل السراج .. إلخ .

والضعف ، بفتح الضاد، وتضم لغتان ، والضم أقوى : ضدالقوة، يستعملان معا فى ضعف البدن وضعف الرأى . ولا يخفى أن المراد هنا الثانى .

والفهم : سرعة انتقال النفس من الأمور الخارجية إلى غيرها وقيل : الفهم تصور المعنى من اللفظ . وقيل : هيئة للنفس يتحقق بها ما يحس .

وفى أحكام الآمدى : الفهم جودة الذهن من جهة تهيئته لاقتناص مايرد عليه من المطالب .

والبطنة بكسر فسكون : الامتلاء الشديد من الطعام . وفى المثل : البطنة تذهب الفطنة .

ويقال : ليس للبطنة خير من خمصة تتبعها . أراد بالخمصة الجوع .

وقال الشاعر :

يَابنى المنذرِ بن عبدان والبطنةُ مما تسفهُ الأحلاما

والفطنة بالكسر : الحذق وضدها الغباوة . وقيل : الفطنة : الفهم ، والذكاء سرعته ، وقيل : الفهم بطريق الفيض وبدون اكتساب . الجميع فى القاموس وشرحه .

وقول « الناظم » : إن الحجا .. إلخ مرتب على قوله : « إن الفطنة» .. إلخ لأن الحجا بكسر الحاء والقصر كإلى : العقل والفطنة . سمى حجا لأنه يحجو عن الفساد فى الأرض . قاله الحاتمى .

والعقل : أخذ من العقل ، وهو المنع ، لمنعه صاحبه مما لايليق ، أو لأنه يعقل صاحبه عن الفضائح ، أو لأنه عقال على المملكة يمنعها من الخراب كما يمنع العقال الدابة ؛ أولأنه يعقل عن الله تعالى أمره ونهيه .

وقيل : من المعقل ، وهو الملجأ لالتجاء صاحبه إليه .

وقال بعض أهل الاشتقاق : العقل أصل معناه المنع . ومنه العقال للبعير سمى به لأنه يمنع مما لايليق :

قدْ عَقلنا ، والعقلُ أىُّ وثاقِ وصبرنا والصبرُ مرُّ المذاقِ

وفى شرح القاموس مانصه : وقد اختلف فى العقل من جهات ، هل له حقيقة تدرك أو لا ؟ وعلى أن له حقيقة ، هل هو جوهر أو عرض ؟ وهل محله الرأس أو القلب ؟ وهل العقول متفاوتة أو متساوية ؟ وهل هو اسم جنس أو جنس أو نوع ؟ فهى أحد عشر قولا .

ثم القائلون بالجوهرية أو العرضية اختلفوا فى اسمه على أقوال ، أعدلُها قولان : فعلى أنه عرض : هو ملكة فى النفس تستعد بها للعلوم والإدراكات . وعلى

أنه جوهر : هو جوهـر لطيف تدرك به الغائبـات بالوسائط ، والمحسوسات بالمشاهدات ، خلقه الله تعالى فى الدماغ ، وجعل نوره فى القلب .

وقال ابن فرحون : العقل نور يقذف فى القلب فيستعد لإدراك الأشياء ، وهو من العلوم الضرورية . ولهم كلام فى العقل غير ما ذكر لم نورده قصداً للاختصار . . ا هـ . إلخ .

وقال الشيخ زروق فى شرح الحكم :

العقل على قسمين : غريزى وكسبى . فالغريزى : هو القوة المستعدة لقبول العلم وإدراك الأشياء ، على ماهى عليه ، ومن ذلك إدراك أن الباقى خير من الفانى ، وأن الدنيا زائلة فانية ، وعلامة ذلك وجود النفرة عنها ؛ وعكسه دليل العكس . قال الله تعالى : «فأعرضْ عمنْ تولى عن ذكرنا ولمْ يردْ إلا الحياةَ الدنيا، ذلك مبلغهم منَ العلم » .

وسمى العقل عقلا لأنه عقال للنفس عن الدناءات والخسائس ، ومن ذلك الفرح بالفانى وإيثاره على الباقى ، فوجب التبرم من ذلك والتنصل منه لما هو عليه من الخساسة والدناءة ، كما قال بعضهم : « تركت الدنيا لسرعة فنائها وكثرة عنائها وخسة شركائها . ا هـ . . إلخ إلا أنه لم يتعرض لبيان العقل الكسبى .

وقال الإمام الغزالى : « العقل الغريزى هو القوة المستعدة قبول العلم ، وكمونه فى الطفل كـكمون النخلة فى النواة .

وقال بعضهم : والعقل على ثلاث مراتب : عقل تمييز ، وعقل تكليف ، وعقل تشريف .

فعقل التمييز ، يشترك فيه الحيوان الناطق وغيره ، بل غير الناطق يخرج به من بطن أمه كالسخلة ، أو من البيض كفرخ الدجاجة ، فيميز بين ما يضره وما ينفعه ، والآدمي ليس له بعد خروجه من البطن إلا قدر ما يلتقم به الثدي. ثم يتدرج إلى أن يصير إلى مقام السر . وغيره من الحيوان لا يزيد على ذلك ، وإن زاد فيسير .

وعقل التكليف ، ولا يحصل غالبا إلا عند سن البلوغ : وهو الذي يحصل به التفرقة بين الواجبات العقلية والشرعية والعادية ؛ والمستحيلات ، والجائزات العقلية والشرعية والعادية .

وعقل التشريف ، وهو لمن عمل بما علم : « من عَمِل بما عَلِم ورّثه اللهُ علمَ مالم يعلم » . وقد قال تعالى : « وآتيناه من لَدُنَّا علما » فهو العلم الذي يختص به الأنبياء والأصفياء صلوات الله عليهم أجمعين .

وسئل الحسين بن منصور عن العقل فأجاب : لا يمكن شرحه ولكن نذكر مالا غناء عنه .

العقل على ثلاثة أقسام : عقل طبع ، وعقل موهبة ، وعقل اختصاص .

فالأول : هو حسن التدبير الذي تراه في المؤمن والكافر .

وأما الثاني : فهو عقل المؤمن الذي عقل الأمر والنهي فأطاع واجتنب ، وهو نور يستضيء به المؤمن في إيمانه .

وأما الثالث : فهو عقل النبوءة الذي يرى به حقيقة الأشياء .

ولمّا خص النبي صلى الله عليه وسلم من هذا العقل كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه .

قال سهل بن عبد الله : للعقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأول كل اسم منه ترك الدنيا .

وقال السهروردى : العقل آلة العبودية لا الإشراف على الربوبية .

وورد : العقل نور فى القلب ، يعرف منه الحق والباطل .اهـ

وفى الحديث أيضا : ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى، أو يرده عن ردى .

وقال عليه الصلاة والسلام : ما خلق الله خلقا أكرم من العقل .

وعن ابن مسعود مرفوعا : لما خلق الله العقل ، قال له : أقبل فأقبل . فقال له : أدبر فأدبر ، فقال له : ما خلقت خلقا أحب إلى منك ، ولا أركبك إلا فى أحب الخلق إلى . (ذكره فى « تيسير الوصول إلى جامع الأصول ») .

وقدح فيه السيوطى بما يعلم بالوقوف على كتابه « اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » .

وبالجملة فالعقل أفضل ما من الله به على عبده ، وبه فضل الإنسان على كل نوع من أنواع الحيوانات غيره .

وما أحسن قول أبى الطيب :

لولا العقولُ لكانَ أدنى ضيغم   أدْنى إلى شرف منَ الإنسان

وقول آخر :

ما وهبَ الله لامرىء هبةً   أفضلَ من عقلهِ ومن أدبِه

هما حياةُ الفتى ، فإنْ فقدَا   فَفقدُهُ للحياة أليقُ به

وقول الآخر :

وأفضل قَسْمِ اللهِ للمرءِ عقلُهُ   وليسَ من الأشياءِ شيءٌ يقاربُه
إذا أكملَ الرحمنُ للمرءِ عقلَهُ   فقد كملت أخلاقُهُ ومآربه

قال فى « التنوير » : والعقل أفضل ما منّ الله به على عباده ، فإنه سبحانه لما شرك جميع الموجودات فى نعمتى الإيجاد والإمداد ، كما قد يفهم من قوله : « ورحمتى وسعتْ كل شىء » . وأراد أن يميز بعضها عن بعض ليظهر سعة تعلقات إرادته واتساع مشيئته ، فميز بعض الموجودات بالنمو كالنبات وسائر الحيوانات ، وظهرت القدرة فيه ظهوراً أجلى من ظهورها فيما لا ينمو من الكائنات . ولما اشترك النبات فى النمو مع سائر الحيوانات ، أفرد الحيوانات بوجود الحياة فظهرت القدرة فيها ظهوراً أجلى من ظهورها فى الناميات ، فأراد أن يميز الآدمى عن سائر الحيوانات فأعطاه العقل ففضله بذلك على الحيوان ، وكمل به نعمته على الإنسان .

وبالعقل ووجوده وإشراقه ونوره تتم مصالح الدنيا والآخرة ... إلخ .

وقد بشر الله تعالى ذوى العقول الكاملة ، ووصفهم بأنهم الآخذون بأحسن الأمور وأثنى عليهم ، فقال : « فَبَشر عبادِ الذينَ يستمعونَ القوْلَ فيتبعون أحسنهُ ، أولئك الذين هداهُمُ اللهُ وأولئكَ همْ أولو الألباب » . فالعاقل الكامل هو المتصفح للأمور بعقله ، الآخذ منها بالأحسن ، وهو كذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ويسير حائل ، يصده التشاغل به والعمل له عن أمور الآخرة ، التى يدوم نعيمها ولا يزول سرورها ، ولذلك كان الزهد فى الدنيا من قضايا العقل .

وتقدم قول سهل : « للعقل ألف اسم » .. إلخ .

وقال الحسن : كيف يسمى عاقلا ، وهو يصبح ويمسى فى الدنيا ومباهاة أهلها فى المطاعم والمشارب والملابس والمراكب ؟ أولئك هم الخاسرون ، وأولئك هم الغافلون ، وأولئك هم الجاهلون .

ولهذا ونحوه أشار الناظم بقوله : « إن الحجا من نعم الرحمان » .

ومعنى قوله : « فمن يُضعه باء بالحرمان » أن من تسبب فى إضاعة عقله وتوهينه ، بالأكل القادح والشرب ، باء ورجع بالحرمان أى صار محروماً من هذه النعمة ، بعد أن كان ممتنا عليه بها ، وفقدها بعد وجودها أعظم وأشد من فقدها من أول الأمر ، كما هو معلوم بالضرورة .

وباء : معناه رجع كما قررنا ، ومنه قوله تعالى : « وباءوا بغضبٍ من الله » .

قال الأخفش : أى رجعوا أى صار عليهم .

والحرمان بالكسر : مصدر حرمه الشيء يحرمه كضرب وعلم ، حرماناً وحريما وحرما وحرمة : منعه إياه فهو حارم وذاك محروم .

وهنا هنا فوائد :

الأولى : أخرج أبو الليث السمرقندى بسنده عن سعيد بن المسيب أن عمر ، وأبىّ بن كعب وأبا هريرة ، دخلوا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : فقالوا : يارسولَ الله من أعلمُ الناسِ ؟ قال : العاقلُ . قالوا : فمن أعبدُ الناسِ ؟ قال : العاقلُ . قالوا : فَمن أفضلُ الناس ؟ قال : العاقلُ . قالوا : يارسول الله ، أليسَ العاقلُ من تمت مروءته فظهرتْ فصاحتهُ ، وجادتْ كفه ، وعظمت منزلته ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنْ كلُّ ذلك لما متاعُ الحياةِ الدنيا ، والآخرةُ عنـدَ ربِّك للمتقين ، العاقلُ المتّقى ، وإنْ كان خسيساً فى الدنيا قصيًّا دنيـا » .

الثانية : نقل العلامة ابن زكرى فى شرح « النصيحة » عن جعفر الخلدى « قال : خدمت ستمائة شيخ ، فما وجدت من شفا قلبى من أربع مسائل ؛ حتى رأيتُ رسولَ الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى النوم . فقال لى : سل عن مسائلك . فقلتُ : يارسولَ اللهِ ما العقلُ ؟ فقال : أدناهُ تركُ الدنيا ، وأعلاهُ تركُ التفكر فى ذاتِ اللهِ . فقلت : وما التوحيدُ ؟ فقال : ماأتى به الوهمُ أوجلاهُ الفهم فربما عزَّ وجل مخالف لذلك . فقلت : وما التصدق ؟ فقال : تركُ الدعاوى وكتمان المعانى . فقلت : وما الفقرُ ؟ فقال : هو سر من أسرار الله يودعهُ فيمن يشاءُ من عبادهِ ، فمن كتمهُ فهو من أهله وزادهُ اللهُ منه ، ومنْ باحَ به نفاهُ اللهُ عنه » .

الثالثة : فى « الحلية » عن شقيق بن إبراهيم البلخى رحمه الله قال : سألت سبعمائة عالم عن خمسة أشياء ، فكلهم أجابوا بجواب واحد . قلت لهم : من العاقل ؟ قالوا : من لمْ تغره الدنيا . قلت لهم : من اللبيبُ ؟ قالوا : منْ زهدَ فى الدنيا . قلتُ لهم : منِ الغنى ؟ قالوا : منْ رضىَ بما قسم اللهُ له . قلت لهم : من الفقيرَ ؟ قالوا : من قلبه معلق بطلب الزيادة . قلت لهم : من البخيلُ ؟ قالوا : من لمْ يؤد حق الله عز وجل من ماله .

الرابعة : العقل عند الصوفية ، هو الاشتغال بما هو الأولى فى كل وقت ، حتى لا يكتب عليه كاتب الشمال شيئاً أبدا ، وفقنا الله لما فيه رضاه آمين .

الخامسة : ذكر العارف الربانى ، سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه « الطبقات » عن ابن عباس رضى الله عنهما : « يأتى على الناسِ زمان يمرجُ فيه بعقول الناس حتى لاترى أحداً منهم ذا عقل » .

وقول الناظم : « ومن يبيع فهمه » ... إلخ مرتب على قوله : ومنه ضعف الفهم .

ومعناه : إذا كان من آفات الشبع ضعف الفهم والإدراك ، فمن يغفل عن هذه الآفة ويعطى بطنه شهوته ويبيع فهمه بلقمة ، أى أكلة زائدة على ماتقوم به البنية ، فقد اشترى خسارة عظيمة ، ونقمة ذميمة ، فياما أخسر تجارته ، وياما أكثر شقاوته !

واللقمة بضم اللام وتفتح : ما يهيأ للفم ؛ جمعه لقم .

والخسارة : مصدر خسر كفرح ؛ يقال خسر خسراً وخسراً وخسرا وخسرانا وخسارة وخساراً : ضل فهو خاسر وخسر وخسير ، وخسر التاجر فى بيعه خسرانا : وضع فى تجارته أول غبن ، وصفقة خاسرة أى غير مربحة .

وما ألطف قول القائل .

إذا لم يكن لامرئ نعمة   لدى ولا بيننا آصرة
ولا لى فى وده حاصل   ولا نفع دنيا ولا آخرة
وأفنيت عمرى على بابه   فتلك إذاً صفقة خاسرة

قلت : وقد أذكرنى هذا القائل قول سيدى الوالد حفظه الله ناظماً ، ما وجد بخط العلامة سيدى محمد جسوس رحمه الله ، نقلا عن بعض العلماء : من لم يفدك فائدة ، ولم تجلس له على مائدة ، ولم يدفع عنك رائدة . فصحبته لك زائدة .

ومن لم يفدك أخى فائدة   ولم قط تحضر له مائدة
ولم يك يدفع عنك أذى   فدعه فصحبته زائدة

والنقمة بكسر النون وفتحها : المكافأة بالعقوبة ، والجمع نقم ، وانتقم الله منه : عاقبه .

ومنه الحديث : « ما انتقم رسول الله ،صلى الله عليه وسلم ، لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله » ، أى ما عاقب أحداً على مكروه أتاه من قبله .

• • •

ثم قال:

[ومنه إغراء النفوس بالكسل   حتى ترى النعاس أحلى من عسل]

[وذاك مفض لضياع العمر   وليس يرتضيه غير الغمر]

[فالعمر رأس المال من أضاعه   كرائم التجر بلا بضاعة]

هذه هى الخصلة الرابعة من الخصال العشرة .

والمعنى : أن من المفاسد الشنيعة المتولدة عن الشبع من الحلال إغراء النفوس ، أى ولوعها وميلها للكسل ، أى التثاقل عن العمل والعبادة ، والفتور عن ذلك حتى يكون النعاس ؛ أى النوم أحلى عندها من العسل .

قال النفراوى : ويترتب على الشبع ثقل البدن، وهو يورث الكسل عن العبادة.

ثم قال : وقال سحنون : كل شىء يعمل على الشبع، إلا ابن آدم إذا شبع رقد.

وأيضا قالوا : الشبع من الحلال يقسى القلب ، ويقل الحفظ ، ويفسد العقل ويكثر الشهوة ، ويقوى جنود الشيطان ، ويفسد الجسد ، فما بالك بالحرام ؟

وبالجملة : الشبع ممدوح فى البهائم ، ومذموم فى حق ابن آدم .

زاد الشيخ يوسف بن عمر ، ويكثر النوم ، ويكسل الأعضاء عن العبادة ويقوى الشهوات .

وقال سهل التسترى رحمه الله : الأكول مذموم فى ثلاثة أحوال : إن كان من أهل العبادة فيكسل ؛ وإن كان مكتسبا فلا يسلم من الآفات ، وإن كان ممن يدخل عليه شىء ، أى من غير كسب فلا ينصف الله تعالى من نفسه .

والإغراء : مصدر أغراه بالشيء ، أي ولعه به فهو مغرى به ، ومنه إغراء الكلب بالصيد .

والكسل بفتحتين : التثاقل عن الشيء والفتور عنه ، كذا في المحكم .

وقال الليث : التثاقل عما لا ينبغي أن يتثاقل عنه .

والنعاس بالضم : الوسن ، كما في الصحاح .

وقال الأزهري : النعاس : السنة من غير نوم ، كما قال عدي بن الرقاع .

وسنان أقصده النعاس فرنقت   في عينه سنة ، وليس بنائم

وقيل : النعاس فترة في الحواس تحصل من ثقل النوم .

وفي المثل : مطل كنعاس الكلب ، أي متصل دائم لأن الكلب يوصف بكثرة النعاس ، غير أنه يفتح من عينيه بقدر ما يكفيه للحراسة وذلك ساعة بساعة . وفعله : نعس كمنع . والوصف منه ناعس .

وضمير «ترى» في كلام الناظم عائد على النفوس جمع نفس ، مرادا بها الذات لأن النفس كما قال أبو إسحاق ، في كلام العرب تجرى على ضربين : أحدهما : قولك : خرجت نفسه أي روحه . والثاني : جملة الشيء وحقيقته .

وقول الناظم : « وذاك » . . . الخ معناه : أن الكسل الذي مثاله النوم وحلاوته ، « مفض » ، أي موصل لضياع العمر لأنه جالب للنوم . ولا شك أن النوم مضيع للعمر .

ويرحم الله الإمام الشافعي حيث يقول :

إذا عاش الفتى ستّين حولا   فنصفُ العُمرِ تمحقه الليالي

ونصفُ النصفِ يمضي، ليس يدري   لغفلته يميناً من شمال
وثلث العُمْرِ آمالٌ وحرص   وهمٌّ بالمكاسب والعِيال
وباقي العُمر أسقام وشيب   وآفات تدُلّ على انتقال

وأنشد الإمام الماوردي رحمه الله :

إذا كَملت للمرْءِ ستون حجة   فلم يحظَ من ستين إلا بسدسها
ألمْ تر أن النصفَ لليل حاصلُ ؟   وتذهب أوقات المقيل بخمسها
وتأخذُ أوقات الهموم بحصة   وأوقات أوجاع تميت بمسها
فحاصِلُ ما يبقىَ من العُمر سدسه   إذَا صدقتك النفسُ عنْ عِلمِ حدسها

وهذا إذا نام الليل فقط ، فكيف إذا نام أكثر أوقاته ؟ ولا يرتضى ضياع عمره ويختاره إلا الجهال ، الذين هم بهائم فى صور الرجال ، وكيف يرضى عاقل بذلك مع أن عمر الإنسان رأس ماله ، وسوق متجره واكتسابه للأعمال النافعة له فى حاله ومآله ؟ فمن شغله بالنوم وأضاعه ، فمثله كمثل من قصد التجارة بلا بضاعة ، ومن كان كذلك فأنَّى يرجى له فتح ، أو يرتقب لتجارته ربح ؟

فالإشارة فى قوله : « وذاك » عائدة على الكسل إذ هو المفضى للنوم ، الذى هو ضياع العمر .

ومفض : اسم فاعل أفضى إلى كذا ، أى وصل إليه .

ويرتضيه : مضارع ارتضى بمعنى اختار .

والغمر : من لم يجرب الأمور ، وهو الجاهل الغر ، الذى لا رأى له ولا تدبير .

ومما ينسب لأبى حيان ، رحمه الله :

يظُن الغَمْرُ أن الكُتبَ تَهدى أخَا فَهم لإدْراكِ العُلوم
وما يَدْرِى الجَهُول بأن فيها غَوامضَ حيَّرتْ عقْلَ الفَهِيم
إذَا رُمْتَ العُلومَ بِغيرِ شَيْخٍ ضَلَلْتَ عَن الصِّراطِ المُسْتَقِيم
وتلتبِسُ الأمورُ عليك حتّى تَصِيرَ أضلَّ من « تُومَا » الحَكِيم

ورأس المال : ما يعده مريد التجارة لها .

وقوله : « من أضاعه » شرط جوابه : كان محذوفة . وكاف « كرائم » بمعنى مثل : خبرها . والتقدير : كان مثل رائم . . . إلخ ، « ورائم » اسم فاعل رام الشيء ، يرومه روما ومراما : طلبه وقصده .

والتجر : مصدر تجر يتجر تجرا وتجارة فهو تاجر ، والتجارة : تقليب المال لغرض الربح .

وما تضمنته هـذه الأبيات الثلاثة أصله للإمام أبى حامد الغزالى فى « الإحياء » ونصه ممزوجا بشرحه .

الفائدة السادسة : أى من فوائد الجوع : دفع النوم ودوام السهر ، فإن من شبع من الطعام شرب كثيرا ، ومن كثر شربه ارتخت عروقه وكثر نومه وخمدت أعضاؤه . ولذلك كان بعض الشيوخ يقول ، عند حضور الطعام : معاشرَ المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً .

وأجمع رأى سبعين صديقا ، على أن كثرة النوم من كثرة الشرب ، وفى كثرة النوم ضياع العمر .

قال بعض الناس ، لفيلسوف من الحكماء : صف لى شيئاً أستعمله حتى أكون أنام النهار . فقال : ياهذا ما أضعف عقلك ، إن نصف عمرك نوم ، والنوم من الموت ، تريد أن تجعل ثلاثة أرباعه نوماً وربعه حياة . قال : وكيف ؟ قال : إذا عشت أربعين سنة ، فإنما هى عشرون سنة . أفتريد أن تجعلها عشر سنين ؟

وفى كثرة النوم فوت التهجد ، وبلادة الطبع ، وقساوة القلب ، وطول الغفلة ، ونقصان الفطنة . وفى هذه الأشياء الفوت ، وفى الفوت الحسرة بعد الموت .

والعمر أنفس الجواهر وأغلاها ، وهو رأس مال العبد ، وفيه يتجر وبه يربح . والنوم موت ، فتكثيره ينقص من العمر ، ثم فضيلة التهجد لا تخفى ، وفى النوم فوتها .

* * *

ثم قال :

[ومنهُ فقدُ لذةِ العبادهْ وذاكَ داءٌ من يصبْ أبادَه]
[أى محبة لمنْ يناجى ولمْ يجدْ حلاوةَ التناجى ؟]
[وأى خير يرتجى لمنْ خلا من حب ذى الإكرام جلّ وعلا ؟]

هذه هى الخصلة الخامسة من العشرة .

والمعنى : أن من أقبح المفاسد الناشئة عن الشبع من حلال ، عدم وجدان اللذة للعبادة على تقدير : لو غلب نفسه عليها واجتهد فى دفع الكسل عنها ، فيفعلها حينئذ وهى أثقل على نفسه من كل ثقيل .

ولاشك أن هذا داء عظيم ، وخطب جسيم ، من حل به من الأنام ، أهلكه وأفسد له النظام ، وأى محبة تنتجها عبادة من يناجى ، ولم يجد حلاوة للتناجى؟ بل لافائدة لعباداته ، ولا نتيجة لمناجاته ، لفقدان رقة القلب وصفائه الذى يتهيأ به لإدراك لذة المناجاة بالشبع المفرط الخارج عن العادات ، لأن خلو المعدة عن الطعام والشراب ، وهو السبب الأظهر فى رقته .

لهذا قال أبو سليمان الدارانى ، رحمه الله : أحلى ماتكون إلى العبادة ، إذا التصق ظهرى ببطنى .

والتصاق الظهر بالبطن : كناية عن قلة الأكل .

وقال الجنيد رحمه الله : يجعل أحدكم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة . كذا فى « الإحياء » ونقله فى « القوت » عنه أيضاً لكن بلفظ : يقوم أحدكم فى صلاته ، فيجعل بينه وبين الله زنبيل طعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة ، أو يسمع فهم الخطاب .اهـ

وفى « الإحياء » ممزوجاً : ومهما غلب، أى المكثر للأكل ، النوم الناشىء عن الشبع ، ووفقه الله للقيام ،وتهجد لم يجد حلاوة العبادة ، أى لما عنده من شواغل الغلبة .ثم المتقرب من المريدين ، إذا نام على الشبع احتلم، ويمنعه ذلك أيضاً من التهجد ، ويحوجه إلى الغسل بالماء البارد فيتأذى به ، فلا يجد حلاوة العبادة أيضاً؛أو يحتاج إلى الحمام ، وربما يتعذر عليه بالليل فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد ، ثم يحتاج إلى مئونة الحمام : أى كلفته ، وربما لا يوجد عنده من أجرته ، وربما تقع عينه على عورة من دخل الحمام ، فإن فيه أخطارا كثيرة ؛ وكل ذلك أثر الشبع .

وقد قال أبو سليمان الدارانى : الاحتلام عقوبة . وإنما قال ذلك لأنه

يمنع من عبادات كثيرة ، فالنوم إذاً منبع الآفات ، والشبع مجلبة له ، والجوع مقطعة له . ا هـ ببعض اختصار .

وفقد : مصدر فقده يفقده فقداً وفقدانا بكسر الفاء وضمها وفقوداً : عدمه .

وقال الراغب : الفقد أخص من العدم ، لأن العدم بعد الوجود : أى فهو أعم .

واللذة : الشهوة والميل إلى الشيء ومحبته ، « وذاك » إشارة إلى الفقد المذكور .

والداء : المرض والعيب ظاهرا أو باطنا ، جمعه أدواء . ومن الثانى ماهنا، فهو كقوله عليه السلام : « وأى داء أدْوى من البخل ؟ » وكقولهم : الشح أشد الأدواء . والتنوين فيه فى كلام الناظم للتعظيم .

ومَنْ : اسم شرط . « ويصب » : فعل الشرط وفاعله ضمير عائد على مَنْ ، ومفعوله محذوف أى يصبه . وأباده : أى أهلكه ، جوابه .

والمحبة : الوداد والحب . والمراد هنا : محبة الله تعالى التى هى أقصى مطلب العارفين التى تنتجها عبادة الله المقرونة بالإخلاص والمراقبة .

ومن : موصولة بمعنى الذى ، وهى وجارها ، خبر : أى حاصلة لمن .

ويناجى : مضارع ناجاه يناجيه مناجاة ونجاء : ساره . والمناجاة المسارة، والمراد بها هنا العبادة والتهجد .

والتناجى : التسارر مصدر تناجى يتناجى تناجيا . وفى التنزيل :

« يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم » والتناجى المسارة ـ والمراد هنا التهجد والعبادة .

والمعنى : أن العبادة المذكورة ، حيث خلت من اللذة والميل لها ، فإنها لا تنتج محبة ، ولا تساوى مثقال حبة .

وقول الناظم : « وأى خير يرتجى . . . الخ »

معناه : وإذا كان لا تنشأ عن هذه المناجاة محبة ، وصاحبها خال من الرغبة والرهبة ؛ فأى خير يرتجى حصوله لمن كان بهذه المثابة ؟ وأى فضل يناله من خلا من حب الله والإنابة ؟ وإذا كان هذا مثال الشبع ، فما أجدره بالترك والإهمال ! وما أحقه بالعدول عنه إلى الجوع أشرف الخصال ! .

والخير : قال الراغب ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلا ، والعدل والفضل والشيء النافع .

ويرتجى : مضارع ارتجى ، ومصدره الارتجاء ، وهو بمعنى الرجاء .

والرجاء : قال الراغب : هو ظن يقتضى حصول ما فيه ميسرة .

وقال غيره : هو ترقب الانتفاع بما تقدم له سبب ما .

وقال غيره : هو لغة : الأمل . وعرفا : تعلق القلب بحصول محبوب مستقبلا .

وقال غيره : هو الطَّمَعُ فى مُمْكِنِ الحصول ، أى بخلاف التمنى فإنه يكون فى الممكن والمستحيل .

ومَنْ : موصولة ، وهى وجارها نائب فاعل يرتجى .

وخلا : فرغ ، ولم يكن فيه شيء من حب الله .

وذى الإكرام : هو المولى جل جلاله ، إذ هو المكرم لعباده والمتفضل عليهم .

ومن صفاته تعالى وأسمائه : الكريم وهو الكثير الخير . وقيل : الجواد ـ

وقيل : المعطى الذى لا ينفد عطاؤه . وقيل : المنزه عما لا يليق . وقيل : العزيز. وقيل : الصّفوح .

وقال بعضهم : الكرم ، إذا وصف الله تعالى به ، فهو اسم لإحسانه وإنعامه ؛ وإذا وصف به الإنسان ، فهو اسم للأفعال والأخلاق المحمودة التى تظهر منه . ولا يقال : هو كريم حتى يظهر منه ذلك .

وجلّ وعلاَ : جملتان تنزيهيتان ، فى موضع النعت لذى الإكرام .

وجلّ : معناه عظم قدره فهو جليل .

قال الراغب : الجلالة عظم القدر . والجلال : التناهى فى ذلك ، وخص بوصف الله تعالى فقيل : ذو الجلال والإكرام ، ولم يستعمل فى غيره .

والجليل : العظيم القدر وليس خاصاً به ، ووصفه تعالى بذلك : إما لخلقه الأشياء العظيمة المستدل بها عليه ، أو لأنه يجل عن الإحاطة به ، أو لأنه يجل أن يدرك بالحواس .

وعلا : معناه ارتفع وتنزه عما لا يليق به .

ومن أسمائه تعالى : العلى والمتعالى . فالعلى الذى ليس فوقه شيء ، وعلا الخلق فقهرهم بقدرته . والمتعالى الذى جل عن إفك المفترين .

الكلام عن آكل الحرام وآكل الحلال

ثم قال :

[ومنه أنهُ يَرَى ذَرِيعَهْ لأَكْلِ ما حَرمَتْ الشرِيعَهْ]
[إذِ الحلالُ نادِرٌ ، والراتِعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يُواقِعْ]
[وذُو الحِجَا لَيْسَ يُضيعُ الحزْما بَلْ يَقْتَفِى مَا كانَ حِلا جَزْما]
[وآكل الحل يطيع ربه أحب أم كره . نعم القربة]

[وآكلُ الحرام يَعصى خالقهْ أحب أم كرهَ . بئسَ الخالقهْ]
[وكلُّ لحم من حرامْ قد نبتْ فالنارُ قلْ أوْلى بهِ كما ثبتْ]

وهذه هى الخصلة السادسة من العشرة .

والمعنى : أن من الآفات الشنيعة ، والخلال الفظيعة التى يدعو الشبع إليها ، ويحمل مرتكبه عليها ، اكتساب ما حرمته الشريعة ، والغرق فى أودية الهلاك والقطيعة ، فهو من أعظم الدواعى إليه ، وأقوى الأسباب الحاملة عليه ، لأن الحلال الصرف لا يمكن منه إلا القوت الضرورى لقلته وندوره ، فالزيادة على الحاجة إنما تكون من اقتحام المشبهات التى هى ذريعة لاكتساب الحرام والخوض فى بحوره ، إذ الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه . والحمى هو الحرام ، وما حوله هو المشبهات فأخذها ذريعة اقتحامه لمقتفيه ؛ ومن كان ذا عقل راجح ، وهدى مستقيم واضح ، لا تستهويه النفس الأمارة ، فتوقعه فى ارتكاب هذه الخسارة ، بل لا يضيع حزمه واحتياطه ، واعتناءه بطلب الحلال واغتباطه ، وينتخب لأكله الخالص من الشبهات ، والسالم من دواعى المهلكات .

كيف وقد جاء فى صحيح الأخبار ؛ حسبما رواه الثقات الأبرار : من أكل الحلال أطاع الله أحب أم كره ، وأعظم بها من قربة ونعمت القربة ! ومن أكل الحرام عصى الله أحب أم كره ، وما أخسها من خصلة ، وبئست الخصلة ! .

وجاء فى الحديث أيضاً : « كل لحم نبتَ منْ حرام ، فالنارُ أوْلى به » . رواه الترمذى من حديث كعب بن عجرة ، وحسنه .

هذا حاصل معنى كلام الناظم ، وإلى نحو ما للناظم أشار الإمام الغزالى فى « الإحياء » ونصه :

الفائدة التاسعة : أى من فوائد الجوع : خفة المؤنة ؛ فإن تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ؛ والذى تعود بالشبع صار بطنه غريماً ملازماً له آخذاً

بمخنقه كل يوم ؛ فيقول : ماذا تأكل اليوم ؟ فيحتاج أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصى ، أو من الحرام فيذل ويتعب ، وربما احتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس ، وهو غاية الذل والقماءة ؛ أى الحقارة ، والمؤمن خفيف المؤنة .

وقال بعض الحكماء : إنى لأقضى عامة حوائجى بالترك فيكون ذلك أروح لقلبى .

وقال آخر : إذا أردت أن أستقرض من غير شهوة أو زيادة ، استقرضت من نفسى فتركت الشهوة فهى خير غريم .

وكان إبراهيم بن أدهم يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقال : إنها غالية . فيقول أرخصوها بالترك ، وكان رحمه الله ينشد :

وإذَا غلاَ شيءٌ على تركتُه فيكونُ أرخصَ ما يكون إذا غلاَ

قلت : ومن هذا المعنى ما وجد بخط العارف بالله سيدى رضوان ، رضى الله عنه ، ونصه :

قال سيدى عبد الرحمن قال لى رجل : العلم والمال يؤخذان من البطن . قلت : وكيف ذلك ؟ فقال لى ما معناه : أمسك عن الشهوات يكثر مالك ، وأقلل من الأكل يكثر علمك .

والذريعة : الوسيلة والسبب إلى الشيء ، يقال : فلان ذريعتى إليك ، أى سببى ووصلتى الذى أتسبب به إليك .

والشريعة : ما شرع الله تعالى لعباده من الدِّين ، كذا فى الصحاح .

وقال غيره : الشريعة ماسن الله من الدين وأمر به كالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر أعمال البر ، ومنه قوله تعالى : « ثمَّ جعلناكَ على شريعةٍ منَ الأمرْ » .

وقال بعضهم : سميت الشريعة تشبيهاً بشريعة الماء ، بحيث أن من شرع فيها على الحقيقة والصدق ، روى وتطهر .

قال : وأعنى بالرى ، ما قال بعض الحكماء : كنت أشرب وَلا أروَى ، فلما عرفت الله رويت بلا شرب . وَبالتطهير ، ما قال الله عز وَجل : « إنما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكمُ الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ويطهرَكم تطهيراً » .

وَالشريعة أيضاً : الظاهر المستقيم من المذاهب كالشرعة بالكسر .

والمراد فى النظم هذا الأخير كما لا يخفى ، وَالله أعلم .

وإذ : تعليلية ، فهو علة لما قبله فكأنه يقول : وَإنما كان الشبع ذريعة لأكل الحرام ، لأن الحلال نادر لا يمكن منه الشبع .

وَالحلال بفتح الحاء وَتكسر : ضد الحرام .

قال الشيخ زروق : وَالحلال ما جهل أصله ؛ وَقيل : ما علم أصله ، وَقيل : وأصل أصله ، وَهذا صعب جداً ، وَالأرجح الأول لأنه الأشبه بيسر الدين .

وقال القلقشانى : اختلف فى تعريف الحلال فقيل : هو ما لم يعرف أنه حرام.

وقيل : ما عرف أصله ، والأول أرفق بالناس لا سيما فى هذا الزمان .

قال بعض الأئمة : وَعندى فى هذا الزمان أن من أخذ قدر الضرورة لنفسه وعياله من غير سرف ، وَلازيادة على ما يحتاج إليه ، لم يأكل حراماً وَلاشبهة .

وقد قال القاسم بن محمد : لو كانت الدنيا حراماً لما كان بدٌّ لك من العيش. ألا ترى أنه يحل أكل الميتة ، ومال الغير للمضطر . فما ظنك بما ظاهره الإباحة ! هذا مما لا يكاد يختلف فيه . وَالحاصل أنه يطلب الأشبه فالأشبه بحسب الإمكان . اه بلفظه .

وقال الجزولى : واختلف فى وجود الحلال فى زماننا هذا . فذهب الغزالى إلى أنه معدوم . وذهب ابن العربى إلى : أنه موجود ، وهو المشهور ، ولكن طلابه قليل . اه

وفى شرح الوغليسية : قد أجمع الصوفية على وجود الحلال ، وقالوا : لو لم يكن موجوداً لم يكن للأولياء قوت ، لأنه لاقوت لهم سواه . ا ه

وسئل بشر الحافى رضى الله عنه : من أين طعامك ؟ فقال : آكل مما تأكلون ، وأشرب مما تشربون ؛ ولكن ليس من يأكل ويبكى ، كمن يأكل ويضحك ، وليس من يده قصيرة كمن يده طويلة ، وليس من يصغر اللقمة كمن يكبرها . ا ه

وفى شرح الوغليسية أيضاً : إذا عدم الحلال فأصوله عشرة : تجارة بصدق وأجرة بنصح ، وأعشاب الأرض غير المملوكة ؛ وصيد البحر ، وصيد البر فى غير الحرم والإحرام ، وأقسام الغنائم وأخماسها إذا قسمت بالعدل ، وأصدقة النساء والمواريث مالم تعلم حرمتها ، والسؤال عند الحاجة من وجه طيب . ا ه

قال ابن غازى فى « تكميل التقييد » ونظمها بعض من لقيته من الفضلاء مع زيادة ماء الغُدُر ، والهدية من أخ صالح ، بقوله :

يَا صَاحِ إن للحلال الحر عشرُ أصُول وهى : صيد البحرِ
وموِرث حل ، وماءُ الغُدُر ثم هدية المحب فادرِ
منْ حبهُ لله لا للشكرِ وصنعهُ بالنصحِ لا بالمكرِ
والتجرْ بالصدق وصيد القفر ثم السؤال عن شديد الفقرِ
ونبْتُ أرض لم تكن للغير والفيءُ يقسم بغير جَورِ
وانفردَ الثعالبى بالمهرِ فَزادهُ موافقاً للعشرَ
لنص تقييد الجزولى الحبر جزاهُ ربنا بكل خيرَ

ونادر بالدال المهملة : اسم فاعل ندر بمعنى قل ، وهو وإن كان قليلا فى

نفسه فأجره عند الله كثير ، وفيه من البركة أمر كبير .

قال على بن الفضيل لأبيه : يا أبت ، إن الحلال قليل و عزيز . فقال : يا بنى ، وإن عز فإن قليله عند الله كثير .

قال بعض السائحين : قلت لبعض الأبدال ، وقد حدثته عن أكل الحلال : أأنتم تقدرون على الحلال ، فلم لاتطعمونا منه ولإخوانكم من المسلمين ؟ فقال لا يصلح لجملة الخلق لأنهم لو أكلوا كلهم حلالا لبطلت المملكة ؛ وتعطلت الأسواق وخربت الأمصار ، ولكنه قليل فى قليل ، وخصوص فى خصوص . اهـ

والراتع : اسم فاعل من رتع كمنع رتعا ورتوعا ورتاعا بالكسر ، أكل وشرب وذهب وجاء ماشاء ، ولا يكون إلا فى خصب وسعة . وأصل الرتع للبهائم ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير والخوض فى الشيء كما فى الحديث « إذا مررتم برياضِ الجنةِ فارتعُوا » . قيل : وما رياض الجنة يارسول الله ؟ قال : حلقُ الذكرِ » . شبه الخوض فى ذكر الله بالرتع فى الخصب .

ولا يخفى أن هذا هو المراد فى النظم وهو مرتب على مُقدر بعد قوله : « نادر » . والتقدير : « فالشبع إنما يكون من تعاطى المشبهات ، والراتع ... إلخ .

والحمى ، كإلى ويمد : ماحمى من شيء أى منع وكلىء .

قال الليث : الحمى موضع فيه كلأ يحمى من الناس ، أى يرعى .

وقال الشافعى ، فى تفسير الحديث : « لاحمى إلا لله ولرسوله . » . قال : كان الشريف من العرب فى الجاهلية إذا نزل بلداً فى عشيرته استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلب ، لايشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ، وكان شريك القوم فى سائر المراتع حوله ، فنهى صلى الله عليه وسلم

أن يحمى على الناس حمى كما كانوا فى الجاهلية يفعلون ، إلا ما يحمى لخيل المسلمين وركابهم التى ترصد للجهاد ويحمل عليها فى سبيل الله ، وإبل الزكاة كما حمى عمر النقيع لنعم الصدقة والخيل المعدة فى سبيل الله . اه.

وفى كلام الناظم الإشارة لحديث النعمان المتقدم ، وفيه : « فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى الأرض محارمه » .

والحمى فى الحديث وكلام الناظم بمعنى : المحمى . وفيه تشبيه المحرمات بذلك الحمى الذى يعرفونه ، وهو ما كان يحميه أكابر العرب فى الجاهلية فى الأماكن المخصبة لرعى مواشيهم ، ويتوعدون من يرعى فيها ، فمن تباعد منها برأ نفسه من إذايتهم ، وبقى فى ساحل السلامة ، ومن قاربها عرض نفسه للإذاية .

ولزم من التشبيه تشبيه مقاربها بمقارب ذلك الحمى ، ومقاربها هو المشبهات ، فمن ترك المشبهات جعل بينه وبين المحرمات سوراً حائلا وبقى فى ساحة السلامة ، ومن اقتحمها غرر بنفسه فى اقتحام ما وراءها من المحرمات . وما بعد هذا البيان من بيان ، فصلى الله على من أوتى أتم البيان .

ويوشك : مضارع أوشك من أفعال المقاربة أى يقرب .

ويواقع : مضارع واقع الأمر مواقعة ووقاعاً : داناه .

ويضيع : مضارع أضاع الشىء : أهمله وتركه . وفى التنزيل : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم » ، أى صلاتكم . أى يهملها . وقال أيضا : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أَضَاعُوا الصلاةَ » . جاء فى التفسير : تركوها ألبتة ، وقيل :

أخرجوها عن وقتها . والأول أشبه ، لأنه عنَى بهم الكفار . ودليله قوله بعد : « إلا مَنْ تابَ وآمَنَ » .

والحزم : ضبط الأمر والحذر من فواته ، والأخذ فيه بالثقة . وفى حديث الوِتْرِ أنه عليه السلام قال لأبى بكر : « أخَذْتَ بالحزْم » .

وفى حديث : أن النبى صلى اللهُ عليه وسلم ، سُئِلَ ما الحزْمُ ؟ فقال : « أنْ تستشِيرَ أهلَ الرأْيِ وتُطِيعهم » .

ورجل حازم وحزيم ، أى عاقل مميز ذوحنكة ، أى معرفة وتجارب . وفى الحديث : « مارأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أذْهبَ لِلُبِّ الحازم مِنْ إحداكُنَّ » أى اذهب لعقل الرجل المحترز فى الأمور المستظهر فيها .

ويقتفى : مضارع اقتفى ، بمعنى : اتبع .

والحل : الحلال وهما مصدران لحل .

وجزما : مصدر جزم بالأمر جزماً إذا قطع به .

ومعناه : أن ذا الحجا لا يفرط فى ضبط أمر معيشته ، بل ويتبع ما كان مقطوعا بحليته ويعكف على طلبه .

وآكل : اسم فاعل مضاف إلى مفعوله ، وفاعله مستتر فيه .

ونعم : فعل مدح ، وبئس : فعل ذم .

والحالقة : التى شأنها أن تحلق وتستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر .

وحيث أشار الناظم لمدح الحلال وذكر فضيلته ، وذم الحرام وذكر غائلته ، فينبغى بعض التعرض لفضيلة الأول ومذمة الثانى .

فنقول : **أما الأول** ؛ فقد قال تعالى فى كتابه العزيز : « يأيها الرسلُ كلوُا مِنْ الطيبات واعملوُا صالحًا » . وقال : « يأيها الناسُ كلوُا منْ طيباتِ مَارزقنا كُمْ » . وقد تلا النبى صلى الله عليه وسلم هاتين الآيتين ثم قال : إن الله أَمر المؤمنينَ بِما أمرَ بِه المرسلينَ .

وقال تعالى : « يأَيها الناسُ كلُوا مما فى الأرض حَلالاً طَيباً » .

وأخرج الديلمى عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « طَلب الحلالِ فريضة على كل مسلمٍ » . ورواه الطبرانى من حديث أنس بلفظ : « واجب على كل مسلم » .

واختلف فى معنى قوله : « طلب الحلال على وجهين » .

الأول : أن المراد معرفة الحلال من الحرام والتمييز بينهما فى الأحكام ؛ وهو علم الفقه ؛ وبه فسروا حديث : « طَلبُ العلمِ فَريضة » . ويؤيده مارواه الحاكم فى « تاريخه » من حديث أنس : « طَلَبُ الفقهِ حتم واجب على كل مسلم » .

الثانى : أن المراد طلب الكسب الحلال للقيام بمئونة من تلزمه مئونته . وقد وقع التصريح به فى حديث ابن مسعود المذكور ، ، فيما رواه الطبرانى فى « الكبير » والبيهقى وضعفه : « طلبُ الكسبِ الحلال فريضة بعدَ الفريضة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فِى سَبِيل اللهِ ، » ومن طَلب الدنيا حَلالاً فى عَفافٍ كانَ فى درجةِ الشهدَاء » .

وروى الديلمى فى مسند الفردوس مرفوعاً : « من طلب كسبهُ من بابٍ حلالٍ يكف بها وجههُ عنْ مسألة الناس وَوَلده وعياله جاء يوم القيامة معَ النبيينَ والصديقينَ » وَإسناده ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم : «منْ أكلَ الحلال أربعين يوماً نورَ اللهُ قلبهُ وأجرى ينابيع الحكمةِ منْ قلبه » .

وَروى البيهقى من حديث ابن عمر مرفوعاً : « الدنيا خضرةٌ حلوة ، منْ اكتسبَ فيها مالا من حِله وأنفقهُ فى حقه أثابهُ الله عليهِ وَأورده جنته وَمنْ اكتسب فيها مالا من غيرِ حلهِ ، وأنفقه فى غير حقه أحله اللهُ دار الهوان ، ورُب متخوضٍ فى مال اللهِ وَرسولِهِ لهُ النارُ إلى يوم القيامة »

وروى أن سعد بن أبى وقاص ، سأل رسول الله صلى الله عليه وَسلم ، أن يسأل الله تعالى أن يجعله مجاب الدعوة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « طَيبْ طعمتكَ تستجبْ دَعوتكَ » . كذا فى «الإحياء» .

ورواه الطبرانى عن ابن عباس بلفظ : تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وَسلم : « يأيها الناسُ كُلُوا مما فى الأرضِ حلالا طيباً » فقام سعد ابن أبى وقاص ، فقال : يارسول الله ! ادعُ اللهَ أنْ يجعلنى مستجابَ الدعوةِ . فقال : « ياسعدُ طيبْ مطعمَكَ تكن مستجابَ الدعوةِ ، وَالذى نفسى بيدهِ إن العبدَ ليقذفُ باللقمةِ الحرامِ فى جوفه فلا يُتقبلُ منه عمل أربعينَ يوماً ، وأيما عبد نبتَ لحمهُ من السحتِ والربا فالنارُ أولىَ به » ، قال سعد : ففعلت ذلك فوجدته كما قال .

وَقد كان رضى الله عنه مستجاب الدعوة ، معتزلا عن الفتنة ، وَهو آخر العشرة المبشرة موْتاً .

وَقال يحيى بن معاذ : الطاعة خزانة من خزائن الله تعالى ، ومفتاحها الدعاء ، وأسنانها لقمة الحلال .

وَقال سهل : من أحب أن يرى خوف الله فى قلبه ، وَيكاشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلالا ، وَلا يعمل إلا فى سنة .

وَقال شعيب بن حرب : لاتحقر دانقاً من حلال تكسبه تنفقه على نفسك وعيالك وعلى أخ من إخوانك ، فلعله لا يصل إلى جوفك أو جوف غيرك حتى يغفر لك .

وَيقال : من أكل حلالا وَعمل فى سنة ، فهو من أبدال هذه الأمة .

وَروَى أن بعض السائحين رفع طعاماً إلى بعض الأبدال فلم يأكله ، فسأل عنه ، فقال: نحن لا نأكل إلا حلالا، ولذلك تستقيم قلوبنا ويدوم حالنا ونكاشف بالملكوت ونشاهد الآخرة . ولو أكلنا مما تأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شيء من علم اليقين ، ولذَهبَ الخوف والمشاهدة من قلوبنا ، فقال له الرجل فإنى أصوم الدهر ، وأختم القرآن فى كل شهر ثلاثين ختمة ، فقال له : هذه الشربة التى رأيتنى شربتها من الليل أحب إلى من ثلاثين ختمة فى ثلاثمائة ركعة من أعمالك ؛ وكانت شربة لبن ، من ظبية وحشية .

وَقد كان إبراهيم بن أدهم يعمل هو وإخوانه فى الحصاد ، فى شهر رمضان وكان يقول لهم : انصحوا فى عملكم بالنهار حتى تأكلوا حلالا ، وَلا تصلوا بالليل فإن لكم ثواب الصلاة فى جماعة ، وَأجر المصلين بالليل .

وأما الثانى : فقد قال تعالى : « يأيها الذينَ آمنُوا لا تَأكلُوا أموالكم بينكم بالباطل » إلى قوله : « وَلا تقتلوا أنفسكم » .

قيل : من أكل حراماً فقد قتل نفسه ، لأنه سبب إهلاكها وتعذيبها .

وَقال تعالى : « إن الذين يأ كلونَ أموالَ اليتَامى ظُلماً ، إنما يأ كلون فى بطونهم ناراً وَسيصلو نَ سعيراً » .

وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وذروا مَا بَقىَ من الربا إن كنتم مؤمنينَ ، فإنْ لمْ تفعلوا فأْذَنوا بحرب من الله ورسوله » إلى قوله : « خَالِدون ».

فما توعد تعالى ولا تهدد فى معصية بمثل ما توعد فى آ كل الربا ، فإنه عز وجل ، عظم شأنه بوصفين عظيمين إعظاماً له وترهيباً منه ، حيث جعل آ كل الربا فى أول الأمر مأذوناً بمحاربة الله عز وجل والرسول ، وفى آخره متعرضاً للنار بالخلود فيها . ومن ذلك اشترط الإيمان ترك الربا بقوله : « إن كنتم مؤمنين » . ثم أوجب التوبة بعد إعلامه بالظلم منهم فى قوله : « وإن تبتم » . الخ ثم نص على تحريمه بقوله : « وأحل اللهُ البيعَ وحرم الرِّبا » ثم توعد بالخلود بالنار بقوله : « هم فيها خالدون » .

وهذا من شديد الخطأ وعظيم العذاب ، فلذلك يخاف على مدمن الربا ، المختوم له به ، غير التائب منه ، أن يموت على الكفر ، لعلة ذكر الخلود .

وروى الطبرانى عن أبى هريرة مرفوعاً : « إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » فقال : « يأ يها الرسل كلوا من الطيباتِ » . وقال : « يأ يها الذين آمنوا كلوا مِنْ طيباتِ مارزقنا كم » . وذ كر الرجل يخرج من بيته أشعث أغبر يقول : « لبيك اللهم لبيك ، ومطعمه حرام ومشربهُ حرام ، وغذِّىَ بالحرام ، فأنى يستجابُ لذلك » .

وفى حديث ابن عباس مرفوعاً : « إن لله تعالى ملكا على بيتِ المقدس ينادى كل ليلة : من أ كل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل » .

قيل : فى تفسير الصرف النافلة ، والعدل الفريضة .

وروى الديلمى فى مسند الفردوس عن ابن مسعود مرفوعاً : « من أكل لقمة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة ، ولم تستجب له دعوة أربعين ليلة ، وكل لحم ينبته الحرامُ فالنار أولى به ، وإن اللقمة الواحدة من الحرام لتنبت اللحم » .

وقال عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر : « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم، وفيها درهم حرام ، لم يقبل الله تعالى له صلاة ما دام عليه ، ثم أدخل إصبعيه فى أذنيه وقال : صُمّتا إن لم أكن سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وروى الديلمى عن ابن عمر مرفوعاً : « من لم يبال من أين اكتسب المال ، لم يبال الله من أين أدخله النار » .

وروى أبو داود من رواية القاسم بن مخيمرة مرسلا : « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رَحِماً أو تصدق به أو أنفقهُ فى سبيل الله ، جمعَ اللهُ ذلك جميعاً ثم قذفه فى النار » .

وروى الإمام أحمد والدارقطنى من حديث عبد الله بن حنظلة مرفوعاً : « درهم من رِباً أشد عند الله تعالى من ثلاث وثلاثين زَنية فى الإسلام » .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن ابن مسعود مرفوعاً : « من اكتسب مالا من حرام ، فإن تصدق به لم يتقبل منه ، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار » .

وقال عليه السلام : « إن الرجل إذا وضع بين يديه طعاماً حراماً ، وقال : بسم الله . قال الله للملائكة : العنوه لعنه الله ، فقالت الملائكة : لعنهُ اللهِ عليه » .

وروى أبو نعيم فى «الحلية» عن زيد بن أرقم قال : كان لأبى بكر مملوك يؤاجره فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة . فقال له المملوك : مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة ؟ قال : حملنى على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا ؟ قال : مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم ، فوعدونى . فلما كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطونى ، فقال : أف لك كدت أن تهلكنى ! فأدخل يده فى حلقه فجعل يتقيأ ، وجعل لا يخرج . فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء . فدعا بعس من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها ، فقيل له : رحمك الله ، كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به» . فخشيت أن ينبت شىء من جسدى من هذه اللقمة . اهـ وروى أنه عليه السلام أخبر بذلك فقال : «أو ما علمتم أن الصدّيق لا يدخل جوفه إلا طيب» .

وكذلك لما شرب عمر رضى الله عنه لبناً من إبل الصدقة غلطا ، فعلم بذلك فأدخل إصبعه فى فيه وتقيأه .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : «لا يقبل الله صلاة امرىء وفى جوفه حرام» ، وعنه أيضاً : «من أكل حراماً لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا» .

وقال ابن المبارك : «من صلى وفى بطنه طعام من حرام ، أو على ظهره سلك من حرام لم تقبل صلاته» .

وقال سهل التسترى : «من أكل الحرام عصت جوارحه ، شاء أم أبى .»

علم أو لم يعلم ، ومن أكل طعمة حلالا أطاعت جوارحه ووفقت للخيرات» .

وقال أيضا : « من لم يكن مطعمه من حلال ، لم يكشف الحجاب عن قلبه ، ولم ترفع العقوبة عنه ، وما يبالى بصلاته وصيامه إلا أن يعفو الله عنه » .

وقال سفيان الثورى رحمه الله : « من أنفق من الحرام فى طاعة الله تعالى كان كمن طهر الثوب النجس بالبول ، والثوب النجس لا يطهر إلا بالماء ، والذنب لا يكفره إلا الحلال » .

وفى الديباج لابن فرحون ، كان سحنون يقول : « ترك الحرام أفضل من جميع عبادة الليل ، وترك الحلال لله أفضل من أخذه وإنفاقه فى طاعة الله تعالى ، وترك دانق مما حرم الله تعالى أفضل من سبعين ألف حجة ، تتبعها سبعون ألف عمرة مبرورة متقبلة ، وأفضل من سبعين ألف فرس فى سبيل الله بزادها وسلاحها ، ومن سبعين ألف بدنة يهديها إلى بيت الله العتيق ، وأفضل من عتق سبعين ألف رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل » . فبلغ كلامه هذا عبد الجبار بن خالد فقال : « نعم ، وأفضل من ملء الأرض إلى عنان السماء ذهبا وفضة ، كسبت وأنفقت فى سبيل الله لا يراد بها إلا وجه الله تعالى » .

وقال مالك بن دينار : « ترك درهم من حرام أحبُّ إلى الله تعالى من أن يتصدق بمائة ألف » .

وقال ابن المبارك رحمه الله : «رد درهم من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف درهم ، ومائة ألف ، حتى بلغ ستمائة ألف » .

ويقال : « من أكل الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه ، وهو تأويل قوله تعالى: « كلاَّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

وقال عليه السلام : « خيرُ دينكم الورع » .

وقال : « من لقى الله ورِعاً أعطاه الله ثوابَ الإسلام كله » .

ويروى أن الله تعالى قال : « وأما الورعون فأنا أستحيي أن أحاسبهم » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : « لو صَلَّيتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتارِ ماتقبل منكم ذلك إلا بورعٍ حاجزٍ » .

وعن عائشة رضى الله عنها : « إنكم لتغفلون عن أصل العبادة الورع » .

وفى الأخبار المشهورة عن على رضى الله عنه وغيره : « إن الدنيا حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، وشبهتها عتاب » .

وقال يوسف بن أسباط بن وكيع بن الجراح : « الدنيا عندنا على ثلاث مراتب : حلال وحرام وشبهات ، فحلالها حساب وحرامها عقاب وشبهاتها عتاب ، فخذ من الدنيا مالا بد منه ، فإن كان ذلك حلالا كنت زاهدا ، وإن كان شبهة كنت ورعا ، وإن كان حراماً كان عقاباً يسيرا » . إلى غير ذلك .
وبالله التوفيق .

* * *

ثم قال :

[ومنه شَغلُ القلبِ والأبدانِ بجمعهِ من شاسعٍ ودانِ]
[ثمّ بتهيئته وأكله ثم بإفراغ الحشا من نقله]
[وكمْ يفوته مِنَ الطاعات فيما يضيعه مِنَ الساعاتِ]

هذه هى الخصلة السابعة من الخصال العشرة .

والمعنى : أن من أقبح الآفات ، وأشنع البليات التى تترتب على الشبع اشتغال

القلب ، أى تعلقه واهتمامه بتحصيل ما يشبعه ، وتعب البدن فى جمعه لذلك ، واكتسابه له من الأمكنة البعيدة والقريبة ، ثم بتعبه بعد تحصيله فى تهيئته للأكل ، من طبخه لما يطبخ وطحنه لما يطحن وغير ذلك ، ثم بتعبه بعد فى تناول أكله ثم بعد أكله بإفراغ بطنه من خبثه .

ولا شك أن هذه الأمور تشغل أوقاتا وأزمنة فيفوته بالاشتغال بما ذكر فيها كثير من أنواع الطاعات ، وخصال عدة من أشرف القربات ، فيكون ذلك إضاعة للزمان فيما لا يعنى ، واشتغالا بما ليس عنه فى المعاد يغنى .

وأصل ما للناظم فى هذه الأبيات فى « الإحياء » ونصها ممزوجاً بشرحها :

الفائدة السابعة : أى من فوائد الجوع ، تيسير المواظبة على العبادة ، أى تسهيل المداومة عليها ، فإن الأكل يمنع من كثرة العبادة لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بأكل وربما يحتاج إلى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، واحتاج إلى آلات لذلك ، ثم يحتاج إلى غسل اليد ، واستعمال الخلال فى أسنانه ليخرج فضول الطعام منها ، ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه ، وامتلاء معدته . والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه وعظم أجره .

قال السرى السقطى رحمه الله تعالى : رأيت لعلى بن إبراهيم الجرجانى ، سويقاً يستف منه ، فقلت له : وما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنى حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز أربعين سنة . أى : كيلا يضيع وقته بالمضغ .

وقد وقع مثل ذلك لداوود الطائى .

وقد أخرج أبو نعيم فى « الحلية » من طريق إسماعيل بن الريان ،

قال: قيل لداود الطائى: أما تشتهى الخبز ؟ فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية .

ومن طريق عامر بن إسماعيل الأحمس ، قال : قلت لداود الطائى : بلغنى أنك تأكل الخبز اليابس تطلب به الخشونة . فقال : سبحان الله ، كيف وقد ميزت بين أكل الخبز اليابس وبين اللين فإذ هو قراءة مائتى آية ! فانظر كيف أشفق على نفسه ولم يضيعه فى المضغ . ومحافظة الوقت عندهم أمر أكيد ، وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لاقيمة لها ، ولذلك قالوا : تضييع الوقت يورث المقت ؛ فينبغى أن يستوفى منها خزانة باقية فى الآخرة لا آخر لها ، وذلك بصرفه إلى ذكر الله تعالى وطاعته ، ولا يدعه يذهب مجانا .

ومن جملة ما يتعذر من كثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد فإنه يحتاج إلى الخروج ، منه كل ساعة ، لكثرة شرب الماء وإراقته ؛ ومن جملته الصوم ، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة ، وصرف أوقات شغل الأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، لا يحصى مقدارها إلا الذى وفقه الله لهذا ؛ وإنما يستحقرها الغافلون الذين لا يعرفون قدر الدين لكن هم كما قال الله تعالى فيهم : « رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها» ،« يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » .

وقد أشار أبو سليمان الدارانى ، إلى ست آفات فى الشبع ، فقال : من شبع دخل عليه ست آفات : فقد حلاوة المناجاة ، وتعذر حفظ الحكمة الإلاهية ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، وثقل العبادة على البدن ، وزيادة الشهوات ؛ وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد للاعتكاف والعبادة . والشباع يدورون حول المزابل وبيوت الماء لإخلاء المعدة اهـ ببعض اختصار .

وشغل . مصدر شغله كمنعه ضد الفراغ . وفيه أربع لغات بضم فسكون كخلق، وبضمتين كخلق وبفتح فسكون كنهر وبفتحتين كنهر وجمعه أشغال وشغول، وهو فى كلام الناظم بمعنى اشتغال فهو مضاف إلى فاعله . وجمعه : مصدر جمع وهو تأليف المتفرق .

وقال الراغب : الجمع ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض، وهو فى كلام الناظم مضاف إلى مفعوله ، والضمير عائد على الشيع الذى الكلام فيه بمعنى الذى يشبع ، وفاعله ضمير عائد على الأبدان والقلب .

والمراد باشتغال القلب بجمعه ، اهتمامه به وتعلقه بتحصيله .

والمراد بالقلب ، الجنس بدليل عطف الأبدان عليه بلفظ الجمع ، والله أعلم .

وشاسع « بمعجمة فمهملة » : اسم فاعل شسع كمنع شسعا وشسوعاً : بعد فهو شاسع وشسوع كصبور ، والجمع شسع بالضم .

وفى حديث ابن أم مكتوم : إنى رجل شاسع الدارى أى بعيدها .

ودان : اسم فاعل دنا يدنو دنواً ودناوة ، قرب ، ويتعدى بمن واللام وإلى .

وقال الحرانى : الدنو القرب بالذات أو الحكم ، ويستعمل فى المكان والزمان .

وتهيئته : مصدر هيأ الأمر تهيئة وتهييئاً أصلحه فهو مهيأ وهو مصدر مضاف إلى مفعوله على وزان ما مر ، وكذا يقال فى أكله وثقله .

وإفراغ : مصدر أفرغه إفراغا ، صبه كفرغه . وفى التنزيل : « ربنا أفرغ علينا صبراً » . أى أصبب كما تفرغ الدلو أى تصب . وقيل : أى أنزل علينا صبراً يشتمل علينا .

وإفراغ الظروف وتفريغها : إخلاؤها .

والحشا بالقصر : مافى البطن وجمعه أحشاء وتثنيته حشوان أو حشيان ، لأنه من ذوات الواو والياء فيثنى بهما . والمحشا موضع الطعام فى البطن وجمعه محاشى .

وقال الأصمعى : أسفل مواضع الطعام الذى يؤدى إلى المذهب المحشاة والجمع المحاشى ، وهى المبعر من الدواب .

وقال : « إياكم وإتيان النساء فى محاشيهن فإن كل محشاة حرام » .

وفى الحديث : « محاشى النساء حرام » .

قال ابن الأثير : هكذا جاء فى رواية ، وهى جمع محشاة لأسفل مواضع الطعام من الأمعاء فكَنَى به عن الأدبار : وحشوة البطن بضم الحاء وكسرها . أومعاؤه .

وقال الأزهرى والشافعى : جميع مافى البطن حشوة ، ما عدا الشحم فإنه ليس من الحشوة .

وقال الأصمعى : الحشوة مواضع الطعام . ومراد الناظم بالحشا المحشا ، والله أعلم .

والثفل (بضم المثلثة) ما استقر تحت الشىء من كدرة ونحوها ، ويقال : ثفل الماء المرق والدواء وغيرها ، أى علا صفوه ورسب ثفله أى خثارته . وكنى به الناظم هنا عن الخبث .

وكم (فى كلامه) : خبرية أى كثير ما يفوته من الطاعات فيما يضيعه فى الاشتغال بما ذكر من الساعات .

* * *

ثم قال :

[ومنه فاعلم اشتداد السكرات عند الممات وحلول الغمرات]

[إذ قيل : إن لذة الحياة تزيد فى مرارة الممات]

[وذاك من عظائم المصائب ومذهلات النوب النوائب]

هذه هى الخصلة الثامنة من الخصال العشرة .

والمعنى : أن من أشد الآفات المترتبة على الشبع وأعظمها ، وأقبح البلايات الناشئة عن ذلك وأفظعها ، اشتداد سكرات الموت وأهواله ، وصعوبة معالجة غمراته وأحواله ، وذلك لأن بقدر الالتذاذ فى الحياة ، تكون شدة مرارة الممات ، فقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن شدة سكرات الموت على قدر لذة الحياة ، فمن أكثر من هذه أكثر له من تلك .

ولا شك أن هذا من المصائب العظام ، ومن النوائب المذهلات للأحلام .

واشتداد : مبتدأ وهو مصدر اشتد إذا قوى . ومنه الحديث : « لا تبيعوا الحب حتى يشتد » . وخبره : « منه » وجملة « فاعلم » اعتراضية .

والسكرات جمع سكرة . وسكرة الموت شدته وهمه وغشيته التى تدل الإنسان على أنه ميت . وقيل : سكرة الموت اختلاط العقل لشدة النزع . قال الله تعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق » .

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان عند وفاته يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه يقول : « لا إله إلا الله إن للموت سكرات » ، ثم نصب يده فجعل يقول : « الرفيق الأعلى » ثم قبض ومالت يده .

والممات : الموت وهو على حذف مضاف أى عند نزول الممات .

وحلول (بالرفع) : عطف على اشتداد مرادف له فى المعنى ، وهو مصدر حل بمعنى نزل .

والغمرات جمع غمرة : وهى الشدة .

قال الليث : وغمرة الموت شدة همومه ، ويجمع أيضاً على غمار بالكسر.

قال الشاعر :

وفارس فى غمار الموت منغمس　　إذا تألى على مكروهه صدقا

وعلى غمر مثل نوبة ونوب . قال ابن سيده : وجمع السلامة أكثر .

ومرارة : مصدر مر الشىء يمر بالفتح والضم ، ضد حلا .

والمراد : إن شدائد الموت وأهواله تزيد بزيادة التلذذات فى الحياة وكثرة التوسع فيها ، وهذه الجملة علة لما قبلها كما هو واضح .

وذاك : إشارة لما تضمنه البيت الأول ، من أن مما يترتب على الشبع اشتداده... إلخ . وإضافة عظائم لما بعده ، من إضافة الصفة للموصوف .

وعظائم : جمع عظيمة : وهى النازلة الشديدة ، والمعنى : وذاك من المصائب الشديدة .

والمصائب : جمع مصيبة ، وهى الأمر المكروه ينزل بالإنسان .

وفى الحديث : « من يرد الله به خيراً يصب منه » . أى يبتليه بالمصائب ليثيبه عليها .

ومذهلات : جمع مذهل : اسم فاعل أذهله الأمر ، أى هاله واشتد عليه ، وإضافته لما بعده من إضافة الصفة للموصوف أيضاً ، أى النوب المذهلة .

والنوب (بضم النون وفتح الواو) جمع نائبة : وهى النازلة أى ما ينوب الإنسان وينزل به من المهمات والحوادث .

وفى حديث خيبر : « قسمها نصفين ، نصفاً لنوائبه وحاجاته ، ونصفاً بينَ المُسلمين » . وفى الصحيحين : « وَتعينُ على نوائبِ الحق » . وجمع نائبة على نوب نادر ، والأكثر النوائب . ولذلك عطفه الناظم عليه عطف بيان ، والله أعلم .

فإن قلت : عطف البيان يكون الثانى فيه أجلى من الأول وأشهر ، وهذا ليس كذلك بل هو مساو للأول .

قلت : نزلت أكثريته منزلة الأشهرية ، فصح فيه ذلك فتأمله ، والله أعلم .

تنبيه :

اشتداد سكرات الموت المشار له فى النظم المرتب على الشبع ، هو تمحيص لذلك الذنب وكفارة له كما يشهد له حديث مسلم : « ما منْ مُسلمٍ يصيبه أذًى منْ مرض ، فما سِواهُ إلا حطَّ اللهُ بهِ سيئاته ، كما تحُطُّ الشجرةُ اليابسةُ وَرقها » .

وفى الحديث أيضاً يقول الله عز وجل : « وَعزتى وَجلالى لا أخرجُ عبداً منَ الدنيا وَأريدُ أنْ أرحمهُ ، حتى أوَفيه بكل خطيئة كانَ عملها سقماً فى جسده أو مصيبةً فى أهلهِ وَولده ، أو ضيقاً فى معيشته وَإقتاراً فى رزقه ، حتى أبلغَ منهُ مثاقيلَ الذرّ ، فإن بقى عليه شىء شددتُ عليه الموتَ حتى يلقانى كيوم ولدته أمهُ . قال : وَعزتى وَجلالى لا أخرجُ عبداً منَ الدنيا أريدُ أنْ أعذبهُ حتى أوفيهِ بكل حسنة عملها صحة فى جسدهِ وَسعةً فى رزقه وَرغداً فى عيشه وأمناً فى سربهِ حتى أبلغَ منهُ مثاقيلَ الذر ، فإن بقىَ شىء هونتُ عليه الموتَ حتى يقبضَ إلى ، وليسَ لهُ حسنة واحدة يتقى بها النارَ » .

وروى أبو نعيم مرفوعاً : « نَفسُ المؤمن تخرُجُ رشحاً ، وإنَّ نَفسَ الكافر تسيلُ كما تسيلُ نفسُ الحمارِ ، وإن المؤمنَ يعملُ الخطيئةَ فيشددُ بها عليه عندَ الموتِ ليكفرَ بها عنهُ ، وإن الكافرَ ليعملُ الحسنةَ فيسهلُ عليه عندَ الموتِ » .

وروى ابن أبى الدنيا ، عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقى على المؤمن من ذنوبه شيء لم يبلغه بعمله ، شدد عليه الموت ، ليبلغ بسكرات الموت وشدائده درجته من الجنة . وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفاً فى الدنيا ، يهون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه فى الدنيا ، ثم يصير إلى النار .

قال العلماء رضى الله عنهم : وإنما شدد الله على الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء طلوع روحهم زيادة رفعة فى درجاتهم ، وإنما شدد على غيرهم من المسلمين كفارة لهم وعقوبة على ذنوبهم ، كما سبق به علم الله عز وجل ، وإلا فالحق سبحانه وتعالى كان قادراً على أن يعطيهم تلك الدرجات فى غير ابتلاء . اهـ .

الحاصل : أن شدة الموت ليست من علامات السوء ، وأن سهولتها ليست من الكرامات .

وقد قالت عائشة رضى الله عنها كما فى الصحيح : لا أغبط أحداً بهون موت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو كان سهولها من الكرامة لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بهذه الكرامة ، فإذن لا نكره شدتها ولا نغبط سهولتها فإن الرفق لا يدل على خير ولا عكسه ؛ كما أن الشدة كذلك .

لكن قال الحافظ ابن حجر فى « جمع الوسائل » : والتحقيق أن الشدة إنما كانت فى مقدمات موته صلى الله عليه وسلم ، لا فى نفس سكراته كما يتوهم .

فمراد عائشة : أنى لا أتمنى الموت من غير سبق مرض شديد ، كما يقع لبعض الناس ، ويحسبه العوام أن الله هون عليه إكراماً له ، فتأمل فإنه موضع زلل .

فإن قيل : فنحن نشاهد كثيرا من الصبيان تعسر موتهم . معلوم أنهم لم يتقدم منهم ذنب يكفر بذلك ، ولا ما يعاقبون عليه ، فما حكمة ذلك ؟

فالجواب : أن ذلك تمحيص لذنوب والديه وتكفير لهم أو عقوبة .. يشهد له حديث « تعسيرُ نزْع الصبي تمحيص لوالديه » ، والله تعالى أعلم .

* * *

ثم قال :

[ومنه نقصان ثواب الباقى فيتخلف عن السباق]
[لأن كل لذة فى العاجل بقدرها ينقص أجر الآجل]
[ومن يبع بلقمة مشومة ذاك النعيم ما أضر شومه]

هذه هى الخصلة التاسعة من الخصال العشرة .

والمعنى أن من أعظم مايترتب على الشبع من المصائب ، وأقبح ما يعقبه من المفاسد الشنيعة والمعايب، نقصان ثواب الله المعد للمؤمنين ، وقلة الأجر والجزاء الحاصل للمتقين ، فبئست هذه البلية العظيمة ، والمصيبة الهائلة العميمة ، يتخلف عن اللحوق بالسباق إلى كرامة الله وامتنانه ، الحائزين أوفر نصيب من نعيم الله وجزيل إحسانه ، وذلك أنه ما من لذة من اللذات الدنيوية ، إلا وينقص لصاحبها بقدرها من الأجور الأخروية . ولاشك أن من زهد فى الزيادة من ذلك النعيم ، ورغب عن اللذات الباقية والخير المقيم ، فباعه بلقمة مشومة عائد ضررها عليه فى بدنه ، ومثبطة له عن القيام بوظائف دينه وسننه ، لجدير بالتعجب من ضرر شؤمه ، حقيق باستعظام ذنبه وجرمه .

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

لم يمتلىء شبعا قط ، وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع ، فأمسح بطنه بيدى وأقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول : « ياعائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ماهو أشد من هذا فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجدنى أستحيى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غدا دونهم ، فالصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة ، ومامن شىء أحب إلى من اللحوق بأصحابى ، وإخوانى » ، وقالت : فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه » .

وبلغ سيدنا عمر رضى الله عنه ، أن يزيد بن أبى سفيان يأكل أنواع الطعام ، فقال عمر لمولى له : إذا علمت أنه قد حضر عشاه فأعلمنى ، فأعلمه فدخل عليه فقرب عشاه فأتوه بثريد ولحم فأكله معه عمر ، ثم قرب الشوى فبسط يزيد يده ، وكف عمر يده ، وقال : الله الله يايزيد بن أبى سفيان ، أطعام بعد طعام ؟ والذى نفسى بيده لئن خالفتم عن سنتهم ، ليخالفن بكم عن طريقهم .

وفى الشمائل عن نوفل بن إياس الهذلى قال : كان عبد الرحمن بن عوف لنا جليسا وكان نعم الجليس ، وإنه انقلب بنا ذات يوم حتى إذا دخلنا بيته ودخل فاغتسل ، ثم خرج وأتينا بصفحة فيهاخبز ولحم ، فلما وضعت بكى عبد الرحمن فقلت له : يا أبا محمد مايبكيك ؟ قال : هلك رسول الله صلى الله عليه سلم ، ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير ، فلا أرانا أخرنا لما هو خير لنا ؛ أى لأن أكمل الأحوال وأسلمها عاقبة هو ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من ضيق العيش إلى أن توفاه الله سبحانه ، وأما سعة العيش فمما تخشى عاقبته .

ومن ثم كان عمر رضى الله عنه وغيره يخافون على من كان كذلك ، أن يكون ممن عجلت طيباته فى الحياة الدنيا .

والنقصان » مصدر نقص الشيء ينقص نقصا ونقصانا : ذهب شيء منه ونقصته أنا أيضا ، فيستعمل متعديا ولازما ، وهو فى كلام الناظم مصدر اللازم مضاف لفاعله .

والثواب : الجزاء ، وأثابه الله إثابة وثوابا جازاه . ومنه الحديث : « أثيبوا أخاكم » أى جازوه على صنيعه .

قيل يستعمل فى الخير والشر بدليل هل ثوّب الكفار . وبه صرح ابن الأثير فى « النهاية » قال : إلا أنه فى الخير أخص وأكثر استعمالا .

وذكر العينى : أن الحاصل بأصول الشرع والعبادات ثواب ، وبالكمالات أجر لأن الثواب لغة بذل العين ؛ والأجر بذل المنفعة . لكن ما ذكره من أن الثواب لغة بذل العين غير معروف فى الأمهات اللغوية والله أعلم . (قاله الشيخ مرتضى) .

والباقى : من أسماء الله الحسنى ، وهو الذى لا ينتهى تقدير وجوده فى الاستقبال إلى آخر ينتهى إليه ، ويعبر عنه بأنه أبدى الوجود .

ويتخلف : معناه يتأخر .

والسبّاق (بضم السين وتشديد الباء) : جمع سباق (بفتح السين) كثير السبق إلى ما يرضى الله .

والمراد بهم السلف الصالح ومن اقتفى أثرهم فى الاجتهاد باقتناء المعالى وقمع الشهوات النفسانية .

والقدر (بفتح فسكون) : قياس الشىء بالشىء .

ومشومة : مؤنث مشوم : ضد ميمونة وميمون . والشؤم ضد اليمن . ومنه الحديث : « إن كان الشؤم ففى ثلاث » .

وذاك النعيم : المراد به نعيم الآخرة المعبر عنه فى البيت قبله بأجر الأجل .

تنبيهات :

الأول : قال العلامة المحقق سيدى محمد بن قاسم جسوس فى شرحه على الشمائل ما نصه : ومما ينبغى أن يتنبه له أن بين جوعه صلى الله عليه وسلم وجوع غيره من الناس فرقاً ، ومما يقال فى الفرق : إن جوعه صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحيان كان اختياراً منه وطلباً للأجر وموافقة لأصحابه فى حالهم تسلية لهم ، أو لغير ذلك من الفوائد .

وقد قال التاج السبكى ، رضى الله عنه : الذى أعتقده أن جوعه صلى الله عليه وسلم ، كان جوعاً اختيارياً لا اضطرارياً ، وأنه صلى الله عليه وسلم ، كان يقدر على طرده عن نفسه ، إما بأن تنصرف عنه شهوة الطعام والشراب مع بقاء القوة بإذن الله ، وإما بتغذية الله المغنية له عن الطعام والشراب ، وإما بتناوله الغذاء ، فقد كان صلى الله عليه وسلم ، قادراً على ذلك .

وسماعى مرات كثيرة من الشيخ الإمام الوالد رحمه الله ، وهو معتقدى ، أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فقيراً قط ، ولا كانت حالته حالة الفقراء ، بل كان أغنى الناس بالله ، وكان الله تعالى قد كفاه أمر دنياه فى نفسه وعياله ومعاشه .

وأحفظ أن الشيخ الإمام ، رحمه الله ، أقام من مجلسه من قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم فقيراً قياماً صعباً وكاد يسطو به ، وكان رحمه الله يقول ، فى قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم أحينى مسكيناً » ، المراد به استكانة القلب لا المسكنة التى هى أن لا يجد ما يقع موقعاً من كفايته ، والحق معه فى هذا فإن من جاءت إليه مفاتح خزائن الأرض ؛ وكان قادراً على تناول ما فيها كل لحظة ، كيف يوصف بالعدم ؟ .

وقال الحليمي في « شعب الإيمان » : من تعظيمه صلى الله عليه وسلم أنه لا يوصف بما هو عند الناس من أوصاف الضعة ، فلا يقال : كان فقيراً .

قال في « جمع الوسائل » : ومما أكرم الله سبحانه به نبيه عليه السلام أنه مع تألمه بالجوع حفظ كال قوته وصان نضارة جسمه ، فكان أشد رونقاً وبهاء من أجساد المترفين ، ولا يظن به الجوع أحد ممن يراه اه بالمعنى .

وقد أشار البوصيري ، رحمه الله ، إلى هذا المعنى بقوله :

وشد من سغب أحشاءه وطوى تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم

فقف على قوله : مترف الأدم .

وإنما آثر صلى الله عليه وسلم هذه الحالة ، مع أنه يستوى في حقه الغنى والفقر ، إن استغنى شكر بل كان أشكر الشاكرين ، وإن افتقر صبر بل كان أفضل الصابرين ، وإذا كان من أمته من لا يبالي بإقبال الدنيا ولا بإدبارها ، فكيف به صلى الله عليه وسلم تواضعاً وميلا إلى ما يناسب حالة العبودية وامتثالا لقوله تعالى : « ولا تمدن عينيك » الآية . ومخالفة لكسرى وقيصر ، إشارة إلى أنهم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، وإظهاراً لحقارة الدنيا عند الله تعالى حيث أعرض عنها بالكلية

وفي الحديث : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء » . وأنشدوا :

فلو كانت الدنيا ثواباً لمحسن إذن لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة وقد شبعت فيها بطون البهائم

وليتأسى به الضعفاء لأنه في مقام التشريع والاقتداء فيزهدون في الدنيا لأنها عدوة الدين ، لما علم من أن أكثر الناس يعتنون بشهواتها ولذاتها فيشتغلون بها عن ربهم ، ويفوتهم بذلك ما فاز به غيرهم من أهل المعرفة بالله تعالى .

روى الدمياطى عن الحسن ، أنه صلى الله عليه وسلم خطب فقال : « والله ما أمسى فى بيت آل محمد صاع من طعام وإنها لتسعة أبيات » والله ما قالها استقلالا لرزق ولـكن ليتأسى به أمته .

وإشارة إلى أن الغنى الحقيقى ، هو غنى النفس ، وهو الذى يحصل معه اطمئنان النفس وسكونها ، وراحة البدن بالقناعة ورفع الهمة عن الخلق ، وتعلقها بالملك الحق ، والرضى بالقسمة ، وليس الغنى الحقيقى غنى اليد .

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله   مخافة فقر فالذى صنع الفقر

وإشارة إلى أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر ، وهى مسألة ذات نزاع كثير ، وليجمع بين ثواب الشكر وثواب الصبر فيكون له حظ من كل منهما

وفى البخارى من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء » .

وقال أبو سليمان : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام .

وعن الضحاك قال : من دخل السوق فرأى شيئاً يشتهيه فصبر واحتسب كان خيراً له من ألف دينار ينفقها فى سبيل الله . اه منه بلفظه .

الثانى من معنى ما أشار له الناظم فى هـذه الأبيات ، من أن من آفات الشبع من الحلال نقصان الثواب الأخروى ، والتخلف عن مراتب السباق من السلف والأولياء والصالحين : ماجاء أيضاً من حط مرتبة الأغنياء فى الآخرة عن مرتبة الفقراء الصابرين ، وسبقهم إياهم لدخول الجنة وعلوهم عليهم فى منازلها وفوزهم برضوان الله الأكبر . كما يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« فقراء أمتى يدخلون الجنة قبل أغنيائها بنصف يوم وهو خمسمائة عام يأكلون ويشربون ويتنعمون والناس فى كرب الحساب » .

وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : «اللهم

وروى الترمذى عن أنس ، أن رسول الله صلى عليه وسلم ، قال : « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة» . فقالت عائشة : لم يارسول الله ؟ قال : «إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً ، ياعائشة لاتردى المسكين ولو بشق تمرة ، ياعائشة أحبى المساكين وقربيهم ، فإن الله يقربك يوم القيامة » .

وروى هو وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الفقراء الجنة أى قبل الأغنياء بخمسمائة عام : نصف يوم » .

وروى أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وأنا حبيب الله ولافخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن سواه ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فيدخلنيها معى فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « للجنة ثمانية أبواب : سبعة منها للفقراء ، وباب منها للأغنياء ، وللنار سبعة أبواب ، : ستة منها محرمة على الفقراء حل للأغنياء ، وباب منها للفقراء » .

وعن أنس بن مالك قال : بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا فقال : إنى رسول الفقراء إليك، فقال: مرحباً بك وبمن جئت من عندهم جئت من عند قوم أحبهم الله . قال : يارسول الله ، يقول الفقراء : إن الأغنياء قد ذهبوا بالخير كله هم يحجون ولا نقدر، ويتصدقون ولا نقدر عليه ، وإذا

مرضوا بعثوا بفضل مالهم ذخرا . فقال رسول الله صلى عليه وسلم : « بلغ عني الفقراء أن من صبر منكم واحتسب فله ثلاث خصال ليس للأغنياء منها شيء :

أما الخصلة الواحدة : أنه في الجنة غرفة من ياقوتة حمراء ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الدنيا إلى النجوم لا يدخلها إلا نبي فقير ، أو شهيد فقير ، أو مؤمن فقير .

والثانية : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، وهو مقدار خمسمائة عام فيتمتعون فيها حيث شاءوا ، ويدخل سليمان بن داوود عليهما السلام الجنة بعد دخول الأنبياء عليهم السلام بأربعين عاماً بسبب الملك الذي أعطاه الله .

والخصلة الثالثة : إذا قال الفقير : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر مخلصاً ، ويقول الغني مثل ذلك مخلصاً يلحق الغني الفقير ، وإن أنفق الغني معها عشرة آلاف درهم ، وكذلك أعمال البركات » . فرجع الرسول إليهم فأخبرهم بذلك ، فقالوا : رضينا يارب رضينا يارب » .

وعن الحسن عن النبي ، صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى له كما يعتذر الرجل في الدنيا ، فيقول جل سلطانه وعظم شأنه : « وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة ؛ أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف من أطعمك أو كساك في ، يريد بذلك وجهي ، فخذ بيده فهو لك ، والناس يومئذ قد ألجمهم العرق . ويتخلل الصفوف ، وينظر من فعل ذلك به ، فيأخذ بيده فيدخله الجنة » .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ألا أخبركم عن ملوك الجنة ؟ فقالوا : بلى . قال : هم الضعفاء المظلومون الذين لا يزوجون المنعمات »

ولا يفتح لهم أبواب السدد ، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج فى صدره ، ولو أقسم على الله لأبره » .

وعن ابن عمر أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « أحب الخلق إلى الله الفقراء ، لأنه كان أحب الخلق إلى الله الأنبياء وابتلاهم بالفقر » .

وعن عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنه ، أنه لما حضرته الوفاة بكى بكاء شديداً ، فقيل له : ما يبكيك يا أبا محمد ؟ فقال : كان مصعب بن عمير خيراً منى ، توفى ولم يترك ما يكفن فيه ، ولم توجد له إلا بردة ، كان إذا غطى بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطى بها رجليه بدا رأسه . وبقيت بعده حتى أصبت من الدنيا وأصابت منى ، ولا أحسبنى إلا سأحبس عن أصحابى بما فتح الله على من ذلك ؛ وجعل يبكى حتى فاضت نفسه وفارق الدنيا ، رحمة الله عليه .

وفى حديث الترمذى عن أبى أمامة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من الصلاة ، أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر ، وكان غامضاً فى الناس لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك ، ثم نفض يده ، فقال : عجلت منيته ، قلت نوائحه ، قل تراثه » . ورواه ابن المبارك بهذا اللفظ غير أنه قال : « قلت بواكيه » .

وروى البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يسمع ، ثم سكت . فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال : ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : حرى إن خطب

أن لا ينكح ، وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » .

وعن أبي سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أنه قال : أيها الناس لا تحملنكم العسرة والفاقة على أن تطلبوا الرزق من غير حله ؛ فإنى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم توفنى فقيراً ولا تتوفنى غنياً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » .

ويروى أن سيدنا عمر أرسل إلى سعد بن عامر بألف دينار فبكى . فقالت امرأته : ما يبكيك هل بلغك شيء عن ثغور الإسلام ؟ قال : لا . قالت : هل بلغك عن أمير المؤمنين أنه توفى ؟ فقال : لا . قالت : فما يبكيك ؟ فبكى وقال : أراد عمر أن يمحو اسمى من ديوان الفقراء بألف دينار ! فقالت : ما عليك تصدق بها ! فقال لها : هاتى درعك الخلق ، فأخذه وشقه وجعله صرراً ، ثم قام يصلى ويبكى ، فلما أصبح خرج فوقف على الطريق وجعل كلما مر رجل أعطاه صرة ، حتى لم يبق منها شيء .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ما الفقر ؟ قال : « خزانة من خزائن الله ، ثم قال الثانية : ما الفقر يارسول الله ؟ قال : كرامة من كرامات الله ، ثم قال الثالثة : ما الفقر يارسول الله ؟ قال : شيء لا يعطيه الله تعالى إلا نبيا مرسلا أو كريماً على الله عز وجل » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله تبارك وتعالى ينظر من هذه الأمة إلى العلماء والفقراء ، فالعلماء ورثتى ، والفقراء أحبابى » .

وقال عليه الصلاة والسلام : خلق الله تعالى الخلق من طين الأرض ، وخلق

الأنبياء والفقراء من طين الجنة . فمن أراد أن يكون فى عهد الله تعالى فليكرم الفقراء».

وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم من أحبنى فارزقه العفاف والكفاف ، ومن أبغضنى فأكثر ماله وولده » .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الفقر مشقة فى الدنيا ، مسرة فى الآخرة ، والغنى مسرة فى الدنيا مشقة فى الآخرة » .

وعن شقيق الزاهد رضى الله عنه قال . اختار الفقراء ثلاثة أشياء والأغنياء ثلاثة أشياء : اختار الفقراء : راحة النفس ، وفراغ القلب ، وخفة الحساب ؛ واختار الأغنياء : تعب النفس ، وشغل القلب ، وشدة الحساب .

القول فى الفقير الصابر والغنى الشاكر

هذا وقد وقع نزاع كثير فى الفقير الصابر ، والغنى الشاكر أيهما أفضل .

وتقدم فى كلام الشيخ جسوس ، الإشارة إلى أن الفقير الصابر أفضل ، قال : وهى مسألة ذات نزاع كثير .

وفى « إرشاد السارى » عند شرحه لحديث عائشة : « لقد توفى النبى صلى الله عليه وسلم وما فى رفى شىء يأكله ذو كبد قط ، إلا شطر شعير فى زق لى » . من باب « فضل الفقر » من كتاب « الرقاق » ما نصه : وفى هذا الحديث ، فضل الفقر من المال .

واختلف فى التفضيل بين الغنى والفقير وكثر النزاع فى ذلك .

وقال الداودى ، السؤال أيهما أفضل لا يستقيم لاحتمال أن يكون لأحدهما من العمل الصالح ما ليس للآخر فيكون أفضل ، وإنما يقع السؤال عنهما إذا

استويا ، بحيث يكون لكل منهما من العمل مايقاوم به الآخر . قال : فعلم أيهما أفضلُ عند الله . وكذا قال ابن تيمية لكن قال : إذا استويا فى التقوى فهما فى الفضل سواء .

وقال ابن دقيق العيد : إن حديث أهل الدثور يدل على تفضيل الغنى على الفقير لما تضمنه من زيادة الثواب بالقرب المالية ، إلا إنْ فسر الأفضل بمعنى الأشرف بالنسبة إلى صفات النفس ، فالذى يحصل للنفس من التطهير للأخلاق والرياضة لسوء الطباع بسبب الفقر أشرف ، فيترجح الفقر .

ولهذا المعنى ذهب جمهور الصوفية إلى ترجيح الفقير الصابر ، لأن مدار الطريق على تهذيب النفس ورياضتها ، وذلك مع الفقر أكثر منه فى الغنى .

وقال بعضهم : اختلف هل التقلل من المال أفضل ليستفرغ قلبه من الشواغل ، وينال لذة المناجاة ، ولاينهمك فى الأسباب ليستريح من طول الحساب ؛ أو التشاغل باكتساب المال أفضل ، ليستكثر به من البر والصلة والصدقة ، لما فى ذلك من النفع المتعدى ؟ قال : وإذا كان الأمر كذلك ، فالأفضل ما اختاره النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وجمهور أصحابه من التقلل فى الدنيا والبعد عن زهرتها .

وقال أحمد بن نصر الداودى : الفقر والغنى محنتان من الله ، يختبر بهما عباده فى الصبر والشكر ، كما قال تعالى : (إنا جعلنا ما على الأرضِ زينةً لها لنبلُوَهم أيُّهم أحسنُ عملا) . منه بلفظه .

قلت : وحديث أهل الدثور المشار إليه فى كلام ابن دقيق العيد أخرجه الشيخان وغيرهما ولفظ البخارى فى كتاب الدعوات عن أبى هريرة قالوا ، يعنى

فقراء المهاجرين : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم . قال : كيف ذاك ؟ قالوا : صلوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا ، وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال . قال : أفلا أخبركم بأمر تدركون من قبلكم وتسبقون به من بعدكم ولا يأتى أحد بمثل ما جئتم إلا من جاء بمثله ؟ تسبحون فى دبر كل صلاة عشراً وتحمدون عشرا وتكبرون عشراً .

ولفظه فى باب الذكر بعد الصلاة المكتوبة من كتاب الصلاة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء الفقراء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدثور والأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون ، فقال : ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيهم إلا من عمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، فاختلفنا بيننا ، فقال بعضنا : نسبح ثلاثاً وثلاثين ، ونحمد ثلاثاً وثلاثين ، ونكبر أربعا وثلاثين ، فرجعت إليه . فقال : تقول : سبحان الله والحمد لله والله أكبر حتى يكون منهن كلهن ثلاثاً وثلاثين » .

زاد مسلم فى روايته : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

قال القسطلانى : عن المهلب فى حديث أبى هريرة ، فضل الغنى نصا ، لا تأويلا إذا استوت أعمالهم المفروضة ، فللغنى حينئذ من فضل عمل البر ما لا سبيل للفقير إليه .

وتعقبه ابن المنير بأن الفضل المذكور فيه ، خارج عن محل الخلاف ، إذ لا يختلفون فى أن الفقير لم يبلغ فضل الصدقة ، وكيف يختلفون فيه وهو لم يفعل

الصدقة ؟ وإنما الخلاف إذا قابلنا مزية الفقير بثواب الصبر على مصيبة شظف العيش ورضاه بذلك ، بمزية الغنى بثواب الصدقات أيهما أكثر ثوابا ؟ ا هـ .

وقد رجح قوم الغنى على الفقر لما يتضمنه من القرب المالية ، وهذا الذى ذكر إنما هو فى فضل الوصفين الغنى والفقر . لا فى أحد ممن اتصف بأحدهما ، والاختلاف إنما هو فى الأخير . نعم النظر فى أى الحالين أفضل عند الله للعبد حتى يتكسبه ويتخلق به ؟

وفى حاشية الحطاب على الرسالة مانصه :

قال ابن رشد فى « فتاويه » : لاخلاف أن الغنى أفضل من الفقر لمن يصلحه الغنى ؛ وأن الفقر أفضل لمن يصلحه الفقر ؛ وإنما اختلف الناس فى الغنى والفقر على أقوال : فمنهم من ذهب إلى أن الغنى أفضل ، ومنهم من ذهب إلى أن الفقر أفضل ، ومنهم من توقف فى ذلك ولم ير المفاضلة فيه .

وهذا فيمن كان يؤدى مالله عليه من حق فى حالة الفقر لفقره ، وفى حال الغنى لغناه ، لا من يؤدى حق الله فى الفقر ولا يؤديه فى الغنى ، فلا خلاف أن الفقر أفضل له ، ومن كان يؤديه فى الغنى ولا يؤديه فى الفقر ، فلا خلاف أن الغنى أفضل له .

والذى أقول به : تفضيل الغنى على الفقر ، وتفضيل الفقر على الكفاف لأن الفقير يؤجر من وجهين : الأول : الصبر على الفقر والفاقة مع الرضى والشكر . والثانى : تصرفه فيما يعيد به على نفسه مما لا بد منه من نفقته ونفقة من تلزمه نفقته .

والغنيّ يؤجر من وجوه كثيرة منها : الشكر ، ومنها الصبر على ما يعطيه في الواجب من الزكوات ، ومنها الإنفاق على من يجب عليه من الزوجات وصغار البنين والآباء والأمهات ، وفيما سوى ذلك من القرابات ؛ وقد يستمتع هو في نفسه بتعدد الزوجات وكثرة الإماء ويؤجر على وطئهن ، إلى غير ذلك من التنعم بالملبوس الرفيع من غير إسراف ، والطيب من الطعام ، والحسن من المركوب ، والجيد من المسكن من غير إسراف ؛ والفقير لا يقدر على شيء من ذلك . وإنما قلت : إن الفقر أفضل من الكفاف لأن الذى عنده الكفاف إنما يؤجر على شكر نعمة الله فيما أعطاه من المال . والفقير يؤجر من وجهين كما تقدم . ومَنْ فضَّل الكفاف على الفقر أو على الغنى فلا وجه له في النظر . والله أعلم . اهـ .

قال الحطاب : وانظر ما قاله في الكفاف مع قوله عليه السلام : « اللهُمّ اجعلْ رِزْقَ آلِ مُحَمدٍ كفافاً » .

وفي مسلم من حديث ابن عمر رفعه : « قَدْ أفلحَ مَنْ هدِى إلى الإسْلامِ ورُزِقَ الكفافَ وقَنع » .

والكفاف : الكفاية بلا زيادة ، فمن حصل له ما يكفيه واقتنع به أمن من آفات الغنى والفقر .

قال أحمد بن نصر الداودى : وقد جمع الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الحالات الثلاث : الفقر والغنى والكفاف ، فكان الأولُ أولَ حالاته صلى الله عليه وسلم فقام بواجب ذلك من مجاهدة النفس . ثم فتحت عليه الفتوح فصار بذلك في حد الأغنياء فقام بواجب ذلك من بذله لمستحقه ، والمواساة به والإيثار ، مع اقتصاره منه على ما يسد ضرورة عياله ، وهى

بصورة الكفاف التى مات عليها وهى حالة سليمة من الغنى المطغى والفقر المؤلم . اهـ .

ثم التحقيق أن لا يجاب فى هذه المسألة بجواب كلى ، بل يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ؛ لكن عند الاستواء من كل جهة وفرض رفع العوارض بأسرها ، فالفقر أسلم عاقبة فى الدار الأخرى ، والله أعلم .

* * *

ثم قال :

[ومنهُ طولُ الحَبْسِ والوُقوفِ يَومَ الحِسابِ الهَائِلِ المخوفِ]
[لأنَّما الدنيا حَلالُها حِسابُ يَومَ الجزا وحَرامُها عِقابُ]
[وقدْ أَتى فِى مُحكمِ الحكيمِ نَص سُؤالِنا عَنِ النَّعيمِ]

هذه هى الخصلة العاشرة .

والمعنى : أن من الدواهى القاتلة ، والمضار العظيمة الهائلة ، المترتبة على الشبع من الحلال ، العائد شؤمها على المرء فى المآل ؛ طول الحبس وامتداد الوقوف ، فى يوم القيامة الهائل المخوف ، للمحاسبة على التوسع فى اللذات ، وقضاء الغرض من الشهوات ، لأن حلال الدنيا حساب ، وحرامها عقاب ، ومتشابهها عتاب ، كما جاء بذلك السنة والكتاب . فقد قال تعالى : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسئُولُونَ » . وقال : « ثُمَّ لَتُسئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » .

وجاء فى الأخبار المشهورة عن سيدنا على ، رضى الله عنه ، وغيره : أن الدنيا حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، وشبهاتها عتاب .

وعن يوسف بن أسباط ووكيع بن الجراح : الدنيا عندنا على ثلاث مراتب : حلال وحرام وشبهات ، فحلالها حساب ، وحرامها عقاب ، وشبهاتها عقاب ، فخذ من الدنيا ما لا بد منه ، فإن كان ذلك حلالا كنت زاهداً ، وإن كان شبهة كنت ورعاً ، وإن كان حراماً كان عقاباً يسيراً .

وفى حديث ابن ماجة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من غنى ولا فقير إلا ودّ يوم القيامة أنه أوتى من الدنيا قوتاً » .

وفى صحيح البخارى ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اثنتان يكرههما ابنُ آدمَ : يكرهُ الموتَ ، والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أسرع للحساب » .

وروى البخارى عن أسامة ، رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين ، وإذا أصحاب الجد محبوسون ، غير أن أصحابَ النار قد أمرَ بهم إلى النار ، وقمت على باب النار ، فإذا عامة مَن دَخلها النساءُ » .

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث أبا عبيدة ابن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صالح أهلَ البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى ؛ فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصارُ بقدوم أبى عبيدة فوافت صلاة الصبح ، مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى بهم الفجر انصرفوا فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ، وقال : أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء

بشىء ! قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم ».

لكن قال العلامة المحقق سيدى محمد بن قاسم جسوس فى شرحه على « الشمائل » ما نصه :

ومن المعلوم أن الدنيا ليست مذمومة لذاتها ، بل لما يخشى من فتنتها ، والفتنة لا يؤمن معها من الهلاك ، فمن كملت أنواره وتطهرت أسراره ، وكان من أهل التمكين والرسوخ فى مقام اليقين ، لم تأخذ الدنيا من قلبه ، ولم تخدش فى وجه معرفته وقربه ، ولا يكون تعاطيها والدخول فى أسبابها شاغلا له عن ربه، وليس من لازم الزهد قلة ذات اليد وضيق المعيشة ، لأن الزهد ليس هو عدم المال بل عدم احتفال القلب بالدنيا والأموال ، وإن كانت فى ملكه فقد يكون الزاهد من أغنى الناس وهو زاهد ، لأنه غير محتفل بما هو فى يده ، وبذله فى طاعة الله أيسر عليه من بذل الناس على غيره ، وقد يكون الشديد الفقر غير زاهد ، بل فى غاية الحرص لشدة رغبته فى الدنيا وتعلق قلبه بها .

وأمارة الزهد فى الدنيا لمن كان غنياً عدم الإكثار والادخار ، والإحسان منها والإيثار ، وعلامة زهد الفقير وجدان الراحة منها عند فقدها ، كما قال الصديق رضى الله عنه فى المنام لأبى الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه .

والمعلوم من أخبار هؤلاء السادات ، رضى الله عنهم ، ومن سيرهم وأحوالهم أن دنياهم إنما كانت زاداً لآخرتهم ، فلم تشغلهم عن الموافقة ولم توقعهم فى المخالفة ، فكانوا يأخذونها بالله ويصرفونها بالله . وكانت يدهم فيها كيد غيرهم ، قد استوى عندهم التراب والتبر لا يبالون بإقبالها ولا بإدبارها ولا لهلا

فى قلوبهم مزية ، كما قال تعالى وهو العالم بسرائرهم : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » .

نعم — إن كان من أهل البداية فيخاف عليه أن تأخذ من قلبه وتقطعه عن الوصول إلى ربه ، فكان التقلل منها أليق به وأنفع لقلبه ، لأن عند الفقير من فراغ القلب وقلة اشتغاله بالدنيا ما ليس عند الغنى ، وبقدر ذلك يتضاعف ثواب عباداته ، فإن حركات الجوارح ليست مقصودة لأعيانها بل ليتأكد الأنس بالمعبود فى قلب صاحبها . ولا شك أن إثارتها الأنس فى القلب الفارغ أشد بكثير من إثارتها له فى قلب مشغول .

ولهذا قال بعض السلف : مثل من يتعبد ، وهو فى طلب الدنيا ، كمثل من يطفىء النار بالحلفاء .

وانظر قول صاحب الحكم : ورود الفاقات أعياد المريدين ، ولم يقل أعياد العارفين ، لأن أوقات العارفين كلها أعياد ، لا فرق عندهم بين فاقة وغنى وشدة ورخاء ، بخلاف أهل البداية ، وَلذلك ابتلى الحق الصحابة بالفاقة فى أول أمرهم ، حتى إذا تكملت أنوارهم وتطهرت أسرارهم ، واقتعدوا صهوة التمكين والرسوخ فى مقام اليقين ، بذلها لهم وأفاضها عليهم ، فتصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين فيما يليه ، وامتثلوا قوله تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، فكانت الدنيا فى أكفهم لا فى قلوبهم ، صبروا عنها حين فقدت ، وشكروا الله عليها بالإنفاق فى وجوه الخير حين وجدت .

وإنما آثر النبى صلى الله عليه وسلم ، التقلل منها والاقتصار على القدر الضرورى من متاعها نزولا إلى درجة الضعفاء ، ليقتدوا به فى الترك إذ لو اقتدوا به فى الأخذ لهلكوا ، كما يفر الرجل القوى بين يدى أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ، ولكن لعلمه أنه لو أخذها لأخذها أولاده إذا رأوها فهلكوا .

والسير بسير الضعفاء سيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ هم فى مقام الاقتداء والتشريع للكافة ؛ وعلى ذلك أيضاً يحمل هروب من هرب منها من المشايخ الكاملين والأئمة الراسخين ، ولكل وجهة هو موليها ، وكلا وعد الله الحسنى .

وبهذا تعلم أن أغنياء الصحابة ليسوا بمخالفين لسيرته صلى الله عليه وسلم ، ولا خارجين عن سنته وطريقته ، لأن المقصود إصلاح القلوب لتتجرد لذكر علام الغيوب ؛ والمحذور ما يشغل عن الله تعالى ، والدنيا لذاتها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها .

قال فى « الإحياء » : ولذلك بعث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون ؛ فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا المحترف بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل إلى الله ، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله عز وجل ، وعمدة الاشتغال بالله القلب . اه ببعض اختصار .

هذا وقد قال صاحب « أنس العارفين » : اعلم أن الاشتغال بالكسب والتسبب إلى الغنى عن الناس ، يحفظ الدين ، ويمنع من الرياء ويعز العلم ، ويكون أدعى إلى قبول الحق اه

وقال مالك رحمه الله : طلب الرزق فى شبهة خير من الحاجة إلى الناس . اه .

وكان بعض السلف يقول : لئن أترك ما لا يحاسبنى الله عليه ، خير من أن أحتاج إلى الناس .

وعن سفيان الثورى ، رضى الله عنه ، وكانت له بضاعة يقلبها ويقول : لولاها لتمندل بنو العباس .

وقيل لبعضهم : إنها (أى التجارة) تدنيك من الدنيا ، فقال : لئن أدنتنى من الدنيا فقد صانتنى عنها .

وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا ، فإنكم فى زمان إذا احتاج أحدكم به أول ما يأكل دينه .

ويروى عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه : يا بنى استغن بالكسب الحلال ، فإنه ما افتقر أحد إلا أصابته ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، ووهن فى مروءته ، وأعظم من ذلك استخفاف الناس به اهـ .

وقال سفيان الثورى رضى الله عنه أيضاً : لئن أخلف عشرة آلاف دينار أحاسب عليها أحب إلى من أن أحتاج إلى الناس ، فإن المال كان فيما مضى يكره ، أما اليوم فهو تُرْسُ المؤمن يصونه عن سؤال الملوك والأغنياء . وقال أيضاً : لابد لمن يحتاج إلى الناس أن يبذل لهم دينه فيما يحتاج ، ليمسك على ما بيدهم من المال . اهـ .

وقول الناظم : « ومنه طول » . . الخ الطول (بضم الطاء) : الامتداد . مصدر طال يطول بمعنى امتد ، وكل ما امتد من زمن ، أو لزم من هم فقد طال .

والطول أيضاً : ضد العرض ، وليس مراداً هنا .

والحبس : المنع . والإمساك : ضد التخلية ، وهو مصدر حبسه يحبسه كضربه يضربه أراد به هنا الوقوف وامتداده ، ولذلك عطفه عليه عطف تفسير .

والوقوف : مصدر وقف ، وقد يكون جمع واقف .

ومنه قول الشاعر :

أحدث موقف من أم سلم تصديها ، وأصحابى وقوف
وقوف فوق عيس قد أملت براهُنَّ الإناخة والوجيف

ويوم الحساب من أسماء يوم القيامة . وفى التنزيل : وقال موسى : (إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب)سمى بذلك لأن الخلق يحاسبون فيه .

ووصفه الناظم بالهائل : اسم فاعل هال بمعنى أفزع أى كثير الفزع والأهوال ؛ وبالمخوف : أى كثير الخوف .

والدنيا : نقيض الآخرة ، سميت بذلك لدنوها ، كما فى الصحاح .

والحساب : مصدر بمعنى المحاسبة .

ويوم الجزاء : أى فيه متعلق بحساب ، وهو من أسماء يوم القيامة أيضاً ، سمى بذلك لأنه يجازى فيه الخلق بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

والعقاب : المؤاخذة بالذنب ، والمجازاة عليه مصدر عاقب ، ومتعلقه محذوف لدلالة السابق عليه ، أى يوم الجزاء .

والمحكم : المتقن . وسمى القرآن محكماً لأنه أحكمت آياته ، أى بالأمر والنهى والحلال والحرام ، ثم فصلت : أى بالوعد والوعيد .

والحكيم : من أسمائه تعالى كالحكم والحاكم ، وهو أحكم الحاكمين .

قال ابن الأثير : الحكيم : فعيل بمعنى فاعل ، أو هو الذى يحكم الأشياء ويتقنها فهو بمعنى مفعل . وقيل : الحكيم ذو الحكمة .

والنص : التوقيف على شىء ما .

وسؤالنا : مصدر سأل مضاف إلى المفعول وفاعله محذوف ؛ أى سؤال الله إيانا عن النعيم .

والنعيم : ما أنعم الله به علينا من عطاياه الكثيرة الوافرة ، وأشار بذلك لقوله تعالى : « ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم » . أى ما استمتعتم به فى الدنيا .

وقد اختلفوا فى النعيم الذى يسأل عنه العبد يوم القيامة .

فقال الحسن : هو ماسوى كن يؤويه ، وأثواب تواريه، وكسرة تقويه.
وروى هذا مرفوعاً .

وقال بعضهم : هو القدر الزائد على مايحتاج إليه ، فإنه لابد لكل أحد من مطعم ومشرب وملبس ومسكن .

وروى ابن مسعود ورفعه فقال : « لتسئلن يومئذ عن النعيم » ، قال : الأمن والصحة .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : «أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم فيقال له : ألم نصح لك جسمك ، ونروك من الماء البارد ؟ .» أخرجه الترمذى .

وأخرج الإمام مسلم ، عن أبى هريرة أيضاً ، قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبى بكر وعمر ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله . قال : وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، فقوموا فقاموا معه فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلا . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين فلان ؟ فقالت : ذهب يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى ، قال : فانطلق فجاءهم بعذق من بسر وتمر ورطب . فقال : كلوا . وأخذ المدية ؛ فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق وشربوا ، فلما شبعوا ورووا ؛ قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، لأبي بكر وعمر ، والذى نفسي بيده لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » .

وأخرجه الترمذى بأطول من هذا وفيه : « ظل بارد ورطب طيب وماء بارد » . ا هـ .

وقال ابن عباس : هو صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العبيد يوم القيامة فيما استعملوها ، وهو أعلم منهم بذلك .

وقيل : هو الصحة والفراغ والمال .

أخرج البخارى عن ابن عباس مرفوعا : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

وقيل : هو التنعم الذى شغل الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه .

وقال الخطيب : هو ما يلتذ به في الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب وغير ذلك .

والمراد بذلك : ما يشغله عن الطاعة للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده » وقوله تعالى : « كلوا من الطيبات » .

وقال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار ، لأن أبا بكر رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية ؛ قال : يارسول الله ، أرأيت أكلة أكلتها معك في بيت أبى الهيثم من خبز شعير ولحم ، وبسر وماء عذب ؛ أيكون من النعيم الذى يسأل عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنما ذلك للكفار » ، ثم قال صلى

الله عليه وسلم : « وهل يجازى إلا الكفور » ولأن ظاهر الآية يدل على ذلك لأن الكفار ألهام التكاثر بالدنيا، والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى ، والاشتغال بشكره ، فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذى ظنوه لسعادتهم كان من أعظم الأسباب لشقاوتهم .

وقيل : السؤال عام فى حق المؤمن والكافر لقوله ، صلى الله عليه وسلم: « أول ما يسأل العبد يوم القيامة عن النعيم ، فيقال له : ألم نصحح جسمك؟ ألم نروك من الماء البارد ؟

وقيل : الزائد على ما لا بد منه ، وقيل : غير ذلك .

قال الرازى : والأولى على جميع النعم لأن الألف واللام تفيد الاستغراق، وليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى الباقى فيسأل عنها هل شكرها أم كفرها ؟

وإذا قيل : إن هذا السؤال للكافر . فقيل : هو فى موقف الحساب . وقيل : بعد دخول النار ، يقال لهم : إنما حل بكم هذا العذاب لاشتغالكم فى الدنيا بالنعيم عن العمل الذى ينجيكم من هذه النار ، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة اهـ .

وفى الخازن ما نصه : « ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم » ، يعنى أن كفار مكة كانوا فى الدنيا فى الخير والنعمة فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ، لأنهم لم يشكروا رب النعيم حيث عبدوا غيره ، ثم يعذبون على ترك الشكر ، وذلك لأن الكفار لما ألهام التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله والاشتغال بشكره ، سألهم عن ذلك .

وقيل : إن هذا السؤال يعم الكافر والمؤمن وهو الأولى .

لكن سؤال الكافر توبيخ وتقريع لأنه ترك شكر ما أنعم الله عليه ، والمؤمن يسأل سؤال تشريف وتكريم لأنه شكر ما أنعم الله به عليه وأطاع ربه ، فيكون السؤال فى حقه تذكرة بنعم الله عليه يدل على ذلك ماروى عن الزبير ، قال لما نزلت : « ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم » قال الزبير : يارسول الله وأى نعيم نسأل عنه ، وإنما هو الأسودان : التمر والماء ! قال: أما أنه سيكون » أخرجه الترمذى . اهـ

* * *

[فهذه عشرة تكفى المريد واحدة منها فكيف بالمزيد ؟]

لما ذكر الخصال العشرة التى هى من أقبح الخصال المترتبة على الشبع من الحلال واحدة واحدة . بين هنا أن من كانت له بصيرة نائرة ، وسريرة سالمة ، يكفيه فى الهروب منه ، والاقتصار على مالا بد منه واحدة منها ، فكيف بالزائد عليها ؟ ومن كان بخلاف ذلك لاينفع فيه شىء ، ولو زدته أضعافا مضاعفة ، فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، فتراه همته فى ملء بطنه وإتمام شهوته من الطعام وغرضه فيشتد شرهه وتقوى نهمته ولا عليه فيما يترتب على ذلك من ضرر دينه ودنياه فيكون كالبهيمة ويخسر فى حاله وعقباه .

على أن مفاسد الشبع ليست محصورة فى هذه العشرة ، بل تزيد عليها كما مر التنبيه عليه .

وإلى بعض ذلك أشار الناظم بقوله :

[قلت : ومنه أنه إلى السقام فى بدن يفضى وللداء العقام]

[فإنما المعدة بيت الداء فاحذر من العشاء والغداء]

[وفى القرآنِ جاءنا لا تُسرفوا   وسرهُ يشهدهُ من يعرفُ]
[ومنْ يردْ بدينهِ والبدنِ   سقما بأكلة فأحمقُ دنى]

المعنى : أن من المفاسد الشنيعة ، والمضار الفظيعة المترتبة على الشبع من الحلال ، زيادة على ما مر من الخلال ، أنه يفضى إلى سقم الأبدان وحلول الأدواء العقيمة فى كل الأحيان ، وذلك مشاهد بالعيان ، لأن المعدة بيت الداء ، كما أطبق عليه الحكماء ، فليحذر مريد السلامة لجسمه ، ومحاول الصحة والراحة من سقمه ، من أن يضم إلى الغداء العشاء ، أو يواظب الأكل فى الصباح والمساء ، فان ذلك أقوى دواعى الأمراض والسقم ، وأعظم جالب للداء العضال والألم ، سيما وقد جاء فى القرآن المبين « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » فى الشبع سقم الدين والأبدان ، فسقم الدين بالمخالفة للقرآن ، وترك العبادات والطاعات ، بسبب ما يعتريه من الأمراض والآفات ، وسقم الأبدان بالبردة الناشئة عنه المشاهد ضررها بالعيان .

ولا خفاء أن من لا يبالى ببدنه ودينه ، ويرتكب ما يعود ضرره عليهما من حينه من أكبر الحمقى والأرذال ، وأخسر الناس فى الحال والمآل .

وأصل ما ذكره الناظم فى هذه الأبيات كلام الغزالى فى « الإحياء » ونصه ممزوجاً .

الفائدة الثامنة : أى من فوائد الجوع — يستفيد المريد من قلة الأكل صحة البدن ، واستقامته ودفع الأمراض عنه ، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط فى المعدة والعروق ، ثم المرض يمنع من العبادات . أى من أدائها على الوجه المشروع . ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى الفصد والحجامة ، عند بوغ الدم ، والدواء والطبيب ، وكل ذلك يحتاج

إلى مؤن ونفقات . فمنها ما يصرف إلى الأدوية ومنها مايصرف إلى الطبيب الذى يصنعها ، لايخلو الإنسان منها بعد تحمل التعب من أنواع المعاصى واقتحام الشهوات وارتكاب الأخطار ؛ وفى الجوع ما يمنع ذلك كله بلا مشقة .

وحكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء : هندى وروى وعراقى وسوادى ، أى من سواد العراق ، وكل منهم ماهر فى فنه . وقال لهم : ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لاداء فيه : فقال الهندى : الدواء الذى لا داء فيههوالإهليلج الأسود ، المعروف بالكابلى . وقال الرومى : هو عندى حَبُّ الرشاد الأبيض. وقال العراقى :هو عندى الماء الحار . فقال السوادى ؛ وكان أعلمهم : الإهليلج يغضن المعدة ، لما فيه من العفوصة والقبض . وهـذا داء ، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء ، والماء الحار يرخى المعدة ، وهذا داء . فقال له الرشيد : ماعندك ؟ فقال : الدواء الذى لاداء معه أن لاتأكل الطعام حتى تشتهيه ، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه . فقال : صدقت .

وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « ثُلثٌ طعام ، وثُلثٌ شراب ، وثُلثٌ للنّفس» . فتعجب منه ؛ وقال : ماسمعت كلاما فى قلة الطعام أحكم من هـذا ، وإنه لكلام حكيم . ثم قال : جهدت الأطباء من الفلاسفة أن يقولوا مثل هذا فى التقلل من الأكل فلم يهتدوا إليه ، فأكثر ما قالوا ، لاتقعد على طعام حتى تشتهيه ، وارفع يدك عنه وأنت تشتهيه ، ومنهم من قال : تأكل بعد الجوع ، وترفع قبل الشبع ؛ وبعضهم يقول : لا تأكل إلا بعد جوع مفرط ، ولا تشبع شديدا ؛ وإن كان مرادهم هـذا المعنى الذى ذكره نبيكم صلى الله عليه وسلم . هكذا أورده صاحب « القوت » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « البِطْنَةُ أصْلُ الدَّاء ، والحِمْيَةُ أصْلُ الدَّوَاء ، وَعوِّدُوا كُلَّ جَسَدٍ ما اعْتَادَ ». قال العراقى : لم أجد له أصلا . ا هـ.

قلت : رواه « الخَلاَّل » من حديث عائشة بلفظ : « الأزم دَواء ، والمِعْدَةُ بَيتُ الدَّاء ، وعوِّدُوا بَدناً ما اعْتادَ » .

وقيل : الحِمْيَة رأس الدواء . من كلام الحارث بن كلدة ، طبيب العرب .

وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب « الصمت » من طريق وهب بن منبه قال : أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية . وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت .

وبخط الحافظ بن حجر ، الجملة الأولى من الحديث لها أصل من حديث أوله : « أصْلُ كُلِّ داء البَرَدَةُ » . والبَرَدَةُ (محركة) هى التخمة . قاله الجوهرى ، وهو حديث ضعيف . رواه ابن عدى فى «الكامل» وأبو نعيم فى « الطب النبوى » . ا هـ . ما وجد بخطه .

قلت : هذا الحديث أعنى « أصلُ كلِّ داء البَرَدَةُ » رواه أيضا المستغفرى فى « الطب النبوى » والدار قطنى فى « العلل » كلهم من طريق تمَّام بن نجيح ، عن الحسن البصرى عن أنس رفعه بهذا . وتمَّام ضَعفَهُ الدارقطنى وغيره ، وَوَثَّقَهُ ابن معين وغيره ، ولأبى نعيم أيضا من حديث ابن المبارك عن السائب بن عبد الله ، عن على بن زخر عن ابن عباس مرفوعا ، مثله .

ومن طريق عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد رفعه « أصلُ كلِّ داء من البرَدَةِ » ومفرداتها ضعيفة .

وقد ذكر الدار قطني عقب حديث أنس ما لفظه : وقد رواه عباد ابن منصور عن الحسن من قوله ، وهو أشبه بالصواب . وجعله الزمخشري في « الفائق » من كلام ابن مسعود .

وأظن تعجب الطبيب المذكور إنما جرى من سماع هذا الخبر لا من ذاك . فقد قال ابن زكرياء المتطبب : ما ترك ، صلى الله عليه وسلم ، في الطب شيئا إلا أتى به في هذه الكلمات الثلاثة . (نقله الراغب في « الذريعة ») .

وقال أبو الحسن علي بن سالم البصري : من أكل خبز الحنطة بحتاً ، أي وحده بلا إدام ، بأدب لم يعتل إلا علة الموت ، قيل : وما الأدب ؟ قال : يأكل بعد الجوع ، ويرفع قبل الشبع . نقله صاحب « القوت » ، قال : والأصل في هذا أن العلل داخلة على الأجسام من اختلاف نبات الأرض ، وأن المعدة مركبة على طبائع أربعة : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ؛ وكذلك منابت الأرض على هذه الطبائع ؛ فإذا أكثر من اختلاف منابتها أمالت الحرارة والبرودة عن النبات غرائز الطبائع ، من الرطوبة واليبوسة ، فزاد بعض على بعض وقوى ، وضعف عن مثله ، وكانت الأمراض من ذلك لأن كل مأكول من نبات الأرض يعمل في وصف من معاني الجسم ، وإن الحنطة مخالفة لسائر نبات الأرض لأنها معتدلة في الطبائع الأربع كاعتدال الماء في سائر الأشربة .

وقال بعض الأطباء : كل من الخبز بحتاً فإنه لا يضرك . وقال غيره : أكل الخبز يابساً وحده خير من أكله مع الإدام الضار ، ثم قال : وفي الحديث : « صُومُوا تَصِحُّوا » . قال العراقي : رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في « الطب النبوي » من حديث أبي هريرة ، بسند ضعيف .

ورواه أحمد بلفظ : « سَافِرُوا تَرْبَحُوا ، وَصُومُوا تَصِحُّوا ، واغْزُوا تَغْنَمُوا » . وفى الصوم : الجوع . ومن هنا اشتهر على ألسنة العامة : جُوعُوا تَصِحُّوا . ومعناه صحيح لكنه ليس بحديث . وفى تقليل الطعام صحة الأجسام من الأسقام ، وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما . ا هـ . من « الإحياء » وشرحه ببعض اختصار .

وروى أن الإمام مالكا ، رضى الله عنه ، قال له تلميذه يحيى بن يحيى فى مرض موته : أوصنى . قال : أوصيك بثلاث : الأولى . أجمع لك فيها علم العلماء : إذا سئلت عن شىء لا تدريه فقل : لا أدرى . والثانية . أجمع لك فيها طب الأطباء : أن ترفع يدك من الطعام وأنت تشتهيه . والثالثة أجمع لك فيها حكمة الحكماء : إذا كنت فى قوم فكن أصمتهم ، فإن أصابوا أصبت معهم ، وإن أخطئوا سلمت منهم . ا هـ .

وقول الناظم : « يفضى » : مضارع أفضى إلى كذا ، أى وَصل إليه ، ضميره عائد على الشبع والجملة خبر إن ، « وإلى السقام » متعلق به .

والسقم بفتح القاف مقصورا كجبل ، وبالألف كسحاب ، وبضم فسكون كقفل : المرض .

والبدن (محركا) : ما سوى الرأس والشَّوى . وقيل البدن من المَنكب إلى الإلية . وقال الأزهرى : يطلق على جملة الجسد كثيرا ، وجمعه أبدان .

والداء : المرض وجمعه أدواء . قال ابن خالويه : ليس فى كلامهم مفرد ممدود ، وجمعه ممدود ، إلا داء وأدواء .

والعقام (بضم العين وفتحها) قال الجوهرى : والضم هو القياس إلا أن المسموع هو الفتح وقال غيره : الضم أفصح : الذى لا يبرأ منه . وفى « الأساس » : هو الذى لا يرجى البرء منه . قال العراقى : لم أجد له أصلا فى « المرفوع » .

فقالت ليلى :

شفاها من الداء العُقام الذى بها غلامٌ إذا هز القناة سقاها

وقوله : « لأنها » ، تعليل لما قبله ودليل عليه ، أى ـ وإنما كان الشبع مفضيا لما ذكر ، لأن المعدة ... إلخ .

والمَعدة (كـكلمة) وهى اللغة الأصلية فيها ، ويقال فيهـا أيضاً : المِعدة (كـكلمة) بكسر الميم وسكون العين ، وهى التى عند الناظم . والمِعِدة (كعنبة ومِعِدة (بكسر الميم والعين) فهى أربع لغات نقلها شراح « الفصيح » . موضع الطعام قبل انحداره إلى الأمعاء .

وقال الليث : هى التى تستوعب الطعام من الإنسان ، وهى لنا بمنزلة الـكرْش لـكل مُجتَرّ . كما فى الصحاح ؛ والجمع مَـعِد كـكَتِف ومِعَد كعِنَب .

ومعنى كونها بيت الداء ، أن الأمراض والأسقام الحاصلة للأبدان ، منها تتولد ، وعن فسادها تنشأ .

وقوله : « فاحذر » . . . إلخ أمر بمجانبة تخليط الطعام فيها ، الذى هو أصل الأدواء لأن الحمية ، أى عدم إدخال الطعام على الطعام ، هى رأس الدواء ، وأصل كل داء البرَدَة ، أى التخمة كما مر ، فيتعين على من أراد سلامة بدنه ترك الجمع بين الغداء والعشاء ، فإذا تغدى فلا يتعشى ، وإذا أراد العشاء فلا يتغدى ، لأن الغداء غالبا يـكون أواخر النهار ، والعشاء أوائل الليل .

وقد روى أبو سعيد الخدرى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم : « كان إذا تغدّى لم يَتَعَشّ ، وإذا تعشى لَمْ يتغدّ » . (أورده صاحب « القوت ») .

وأخرجه أبو نعيم فى « الحلية » فى ترجمة عطاء بن أبى رباح بسنده عنه » قال : دعى أبو سعيد الخدرى إلى وليمة وأنا معه ، فرأى صُفرةً وخُضرةُ فقال: أماَ تَعلموُن أنّ رَسوُلَ الله صلىّ اللهِ عليهِ وسَلمّ كان إذا تغدّى لمْ يَتعشّ وإذا تعشّى لمْ يَتغدّ ؟

وكان السلف رضوان الله عليهم يأكلون فى كل يوم أكلة ، كافى «القوت».

وروى البيهقى فى « الشعب » من حديث عائشة ، قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياك والسرف فإن أكلتين فى كل يوم من السرف ، وأكلة واحدة فى كلّ يومين إقتار ، وأكلة فى كل يوم قوام بين ذلك ، وهو المحمود فى كتاب الله عز وجل» ، يعنى قوله : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا » ... الآية .

نعم إن تقدم الغداء فى أواسط النهار ، فلا بأس بما خف من العشاء حينئذ .

وعليه يحمل ما يروى : ترك العشاء مهرمة . والله أعلم .

وفى الرسالة القشيرية سمعت أبا محمد الأصطخرى ، يقول : سمعت سهل ابن عبد الله وقد قيل له : الرجل يأكل فى اليوم أكلة ؟ فقال : أكل الصديقين. قال: فأكلتين؟ قال : أكل المؤمنين قال : فثلاثة؟ قال: قل لأهلك يبنوا لك صلفا .

فهذا بظاهره يدل على أن الأكلتين فى يوم من عمل المؤمنين ، وهم تحت الصديقين وهو شاهد فى الجملة لما ذكرنا .

فقول الناظم : « فاحذر من العشاء والغداء » هو على حذف مضاف ، أى من جمع العشاء . إلخ ، ومحله ما ذكرناه كما لا يخفى .

والعشاء كسماء طعام العشى ، كذا فى القاموس .

وقال الجوهرى (بالفتح والمد) : الطعام بعينه ، وهو خلاف الغداء . اهـ. وجمعه أعشية .

والغداء بالدال المهملة كسحاب : طعام الغدوة . وفى الصحاح : وهو خلاف العشاء ، وجمعه أغدية .

والغدوة بالضم : البكرة أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس .

وأما الغذاء بكسر الغين والذال المعجمة؛ فهو : ما به نماء الجسم وقوامه .

وفى الصحاح والمصباح: ما يغتذى به من الطعام والشراب ، أى فى أى وقت كان.

لكن الذى جرى به العرف أن العشاء ما يؤكل فى الليل ، والغالب أن يكون أوله . والغداء ما يؤكل بعد الزوال ، والغالب أن يكون قرب العصر . وعليه يتنزل كلام الناظم كما قررنا ، وتأمله .

وقول الناظم : « وفى القرآن ».. إلخ يشير به إلى أنه ليس فى الشبع توريث المرض والداء العقام فقط ، بل فيه زيادة على ذلك الإسراف المنهى عنه بنص القرآن . فقد قال جل من قائل : « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .

قال البيهقى : « ولا تسرفوا » بالشروع فى الحرام ، أو فى مجاوزة الشبع . « إنه لا يحب المسرفين » .

قال الخازن : يعنى أن الله تعالى لا يحب من أسرف فى المأكول والمشروب والملبوس .

وفى هذه الآية : وعيد وتهديد لمن أسرف فى هذه الأشياء ، لأن محبة الله تعالى عبارة عن رضاه عن العبد وإيصال الثواب إليه ؛ وإذا لم يحبه علم أنه تعالى ليس براض عنه ، فدلت الآية على الوعيد الشديد فى الإسراف .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : « كل ماشئت، واشرب ماشئت ، والبس ماشئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة » .

وقال على بن الحسين رضى الله عنهما : قد جمع الطب كله فى نصف آية فقال : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » اهـ بتقديم وتأخير .

وكان للرشيد طبيب نصرانى حاذق، فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء . والعلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان ، فقال له على : قد جمع الطب كله فى نصف آية من كتابه وهو قوله : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » فقال النصرانى : ولم يرو عن رسولكم شىء فى الطب فقال : قد جمع رسولنا الطب فى ألفاظ يسيرة وهو قوله عليه السلام : «المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء ، وأعط كل بدن ماعودته » . فقال النصرانى : ماترك كتابكم ولا نبيكم « لجالينوس » طبا . اهـ . (نقله النسفى) .

وقوله : « وسره » ... إلخ ، أى سر هذا الخطاب ، ومعناه ، وثمرته . «يشهده» ، أى يعاينه ويدركه بالمشاهدة الحسية : من « يعرف » أى من فتحت بصيرته وتنورت سريرته .

والإسراف : ضد القصد . كما فى « الصحاح » و « العباب » .

وقال صاحب « لسان العرب » : مجاوزة القصد . وقال غيره : تجاوز ما حولك .

وقد أشار لتعريفه وتعريف التبذير السيد الجرجانى رحمه الله . ونظمه شيخ الجماعة عمنا العلامة المحقق ، رحمه الله ، بقوله :

ومن ينفق مالا كثيراً فى خسيس فهو مسرف مضيع تعيس

تفريقه في أوجه الإسراف ذالك هو التبذير بالإجحاف

ذكر هذا السيد الجرجاني أسكنه الله أعلى الجنان

وقوله : « ومن يرد » ... إلخ زيادة فى التنفير من الشبع .

« ومن » : شرطية ؛ «ويريد» مضارع أراد الشيء أى شاءه وقصده ، ولكن حذفت ياؤه دفعا لالتقاء الساكنين ، وفاعله ؛ ضمير عائد على من ، ومفعوله « سقماً » ، وبدينه متعلق به . والبدن معطوف عليه . ويأكله متعلق بسقم والباء للسببية .

« فأحمق» : خبر لمبتدأ محذوف أى فهو أحمق . والجملة جواب الشرط .

« ودنى » مقصور دنىء : صفة للأحمق .

والدين : الإسلام والعبادة والطاعة .

والأكلة (بضم الهمزة) : اللقمة . تقول : أكلت أكلة واحدة ، أى لقمة .

ومنه الحديث : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه ، فإن لم يجلسه معه ، فليناوله لقمة أو لقمتين ، أو أكلة أو أكلتين ، فإنه وَلِى حره وَعلاجه » .

وَفى حديث آخر : «مازالت أكلة خيبر تعادنى ، فهذا أوَان قطعت أبهرى» قال ثعلب : لم يأكل منها إلا لقمة واحدة .

والأكلة أيضاً : القرصة والطعمة . يقال : هذا الشيء أكلة لك ، أى طعمة .

وَفى الحديث : « من أكل بأخيه أكلة ، فلا يبارك الله له فيها » . معناه : الرجل يكون مؤاخيا لرجل ، ثم يذهب إلى عدوه فيتكلم فيه بغير الجميل ليجيزه عليه بجائزة ؛ وَجمعه ؛ أكل كصرد .

ومنه الحديث عن بعض بنى عذرة قال : أتيت النبى صلى الله عليه وَسلم بتبوك « فأخرج لى ثلاث أكل من وَطيئة » ، أى ثلاث قرص .

وأحمق : اسم فاعل حمق وهو قليل العقل . والحمق : وضع الشيء في غير موضعه ، مع العلم بقبحه .

والدَّنى : الخسيس الذوق من الرجال كالدانى ، والدنىء أيضاً : الخبيث البطن والفرج ، الماجن السفلى . قاله أبو زيد واللحيانى .

تتميم :

ومن آفات الشبع من الحلال وخصاله الردية زيادة على ماذكره الناظم : البطر والفرح ، والأشر الذى هو مبدأ الطغيان ، والغفلة عن الله تعالى .

قال فى «الإحياء» الفائدة الثالثة ، أى من فوائد الجوع : الانكسار والذلة وزوال البطر والفرح والأشر الذى هو مبدأ الطغيان ، والتعدى عن الحدود ، والغفلة عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع ، فإن فيه إماتتها واستكانتها وضعفها ، وفى ذلك حياة القلب ، فعنده تطمئن وتسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها وافتقارها ، إذا ضعفت منّتها (بضم الميم) أى قوتها وضاقت حيلتها بلقمة طعام فاتتها ؛ وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها ، وما لم يشاهد ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه وقهره .

وبه فُسر الخبر : «مَنْ عرفَ نفسهُ فقد عرفَ ربهُ» . أى من عرف نفسه بالذل والافتقار عرف ربه بالعز والاقتهار ، وإنما سعادته فى أن يكون دائماً مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز والانكسار ، ومراقباً ربه بعين العز والقدرة والقهر ، ومن أراد الرقى إلى هذا المقام فليكن دائماً جائعاً مضطراً إلى مولاه مشاهداً الاضطرار بالذوق ، بنور عرفانى يقذفه الحق فى قلبه . ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : «لا . بلْ أجُوعُ يوماً ، وأشبعُ يوماً ؛ فإذا جعتُ صبرت وإذا شبعتُ شكرت ، أو كما قال .

رواه أحمد والترمذى وحسنه ، وابن سعد والطبرانى والبيهقى من حديث أبى

أمامة بلفظ : « عَرضَ عليَّ رَبي ليجعلَ لي بطحاء مكةَ ذهباً ، فقلت : لا يارب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جعت تضرعت إليك ، وإذا شبعت حمدتكَ وشكرتكَ » .

فالبطن والفرج باب من أبواب النار ، وأصله الشبع والذل والانكسار باب من أبواب الجنة ، وأصله الجوع . ومن أغلق على نفسه بابا من أبواب النار ، فقد فتح لها بابا من أبواب الجنة بالضرورة ، لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب ، فالقرب من أحدهما بعد من الآخر ، كما هو شأن المتقابلين . ا هـ . ممزوجاً بشرحه .

ومن آفات الشبع أيضا : نسيان بلاء الله وعذابه وامتحانه .

قال في « الإحياء » ما نصه : الفائدة الرابعة أي من فوائد الجوع أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء فإن الشبعان ينسى الجائع والجوع . ومن المشهور على ألسنة العامة : الشبعان يفت للجوعان فتا بطيئا ؛ والعبد الفطن المتبصر بنور الإيمان لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة حين تدنو الشمس من الرءوس ويلجمهم العرق ؛ ومن جوعه جوع أهل النار حتى إنهم ليجوعون فيها ، ويطعمون الضريع الذى لا يسمن ولا يغنى من الجوع ، وهو يبيس الشبرق ، والزقوم والغسلين ؛ ويسقون فيها من عين آنية ، والغساق والمهل ؛ فلا ينبغى أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها وشدائدها ، فإنه الذى يهيج الخوف ويثيره في قلبه ؛ فمن لم يكن في ذلة بين أبناء جنسه ، ولا علة في بدنه ، ولا قلة في ماله وجاهه ، نسى عذاب الآخرة ، ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه ، فينبغى أن يكون في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء .

وأولى مايقاسيه من البلاء الجوع ، فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب

الآخرة ، وهذا أحد الأسباب الذى اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل. كما ورد فى الخبر : « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ، ثم الأمثل فالأمثل » . يعنى أقرب شبهاً بنا فالأقرب . ولذلك لما قيل ليوسف عليه السلام : لم تجوع وفى يديك ، أى فى قبضتك وملكك ، خزائن الأرض من الذخائر وغيرها ؟ فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع ؛ فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع ، فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والبر والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل ، والشبعان فى غفلة من ألم الجائع ، لا يذكره على لسانه ولا يخطر حاله فى قلبه . اهـ . منه ممزوجاً باختصار .

ومن آفاته أيضاً : عدم الإيثار والصدقة على اليتامى والمساكين فلا ينال الثواب والأجر الوارد فى ذلك ، ويحرم بسببه المزايا والفضائل التى هنا لك .

وهذا من أعظم الرزايا والمضار ، وأقبح الخلال المؤذنة بالبوار ، وإلى هذه المفسدة الشنيعة أشار الإمام الغزالى رحمه الله فى الإحياء ، ونصه ممزوجاً بشرحه : الفائدة العاشرة ، أى من فوائد الجوع : أن يتمكن المريد من الإيثار لإخوانه بما فضل من المال ، والصدقة بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين فيكون يوم القيامة فى ظل صدقته ؛ كما ورد الخبر به : وهو ما رواه الحاكم من حديث عقبة بن عامر : « كل امرىء فى ظل صدقته ، وما يأكله ؛ فخزانته الكنيف ، وما يتصدق به فخزانته فضل الله تعالى ، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى ، أو أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى » .

وروى أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم من حديث أبى هريرة : « يقول العبد : مالى ! مالى ! وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأقنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » .

وروى ابن المبارك والطيالسى وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى وابن حيان من حديث ابن الشخير : يقول ابن آدم مالى ؟ مالى ! وَهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت » . فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع .

وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى ، إذا تلا قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » قال عرضها الله تعالى على السموات السبع الطباق ، والسبع الطرائق التى زينها بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ؛ فقال لها سبحانه وَتعالى : هل تحملين هذه الأمانة بما فيها ؟ قالت : وَما فيها ؟ قال : إن أحسنت جوزيت ، وَإن أسأت عوقبت . فقالت لا . ثم عرضها على الأرض كذلك فأبت ، ثم عرضها على الجبال الشوامخ ، أى المرتفعة إلى السماء ، الصلاب الصعاب ، فقال لها : هل تحملين الأمانة بمافيها ؟ قالت وما فيها ؟ فذكر الجزاء والعقوبة على الإحسان والإساءة ، فقالت لا . ثم عرضها على الإنسان ، المراد به آدم عليه السلام ، « فحملها ، إنه كان « ظلوماً » لنفسه « جهولا » بأمر ربه ؛ فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافاً ، فماذا صنعوا فيها ؟ وسعوا بها دورهم ، وضيقوا بها قبورهم ، وسمنوا براذينهم ، وهى خيل الروم ، وأهزلوا دينهم ، وَأتعبوا أنفسهم بالغدوّ والروَاح إلى باب السلطان ، يتعرضون للبلاء ، لأن أبواب السلطان فيها فتن كمبارك الإبل ، كما وَرد فى الخبر ، وَهم من الله فى عافية ، يقول أحدهم : ابنوا لى كذا وكذا ، وَائتونى بكذا وَكذا ، يتكىء على شماله ، وَيأكل من غير ماله ، من غصب وظلم . خدمته الذين يخفون به مسخرة ، أى أذلاء ، وماله الذى جمعه حرام ، حتى إذا أخذته الكظة ، وهى (بالكسر) ثقل المعدة بالطعام ، ونزلت به البطنة ، وهى التخمة ، قال :

يا غلام ائتني بشيء يهضم طعامي ، ثم خاطبه وقال : يا لكع أي يا أحمق ، أطعامك تهضم ، أي الذي تريد هضمه ، هو طعامك ؟ إنما دينك تهضم ، أي بل تهضم دينك ، « أين الفقير ؟ أين الأرملة ؟ » هي المنقطعة التي مات أهلها ، أين المسكين ؟ أين اليتيم الذي أمرك الله بهم ؟

وهذه إشارة إلى هذه الفائدة ، وهي أن ما يصرف من فاضل الطعام إلى الفقير فيدخر لله ، فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه ؛ فإن الحسن، رحمه الله، في آخر كلامه حذر وأنذر من ترك إطعام الفقراء والمساكين.

وأما ما سبق من تفسيره للآية ، فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب « الأضداد » عن ابن عباس ، نحوه .

ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى سمين البطن فأومأ إلى بطنه بإصبعه . وقال : « لو كان هذا في غير هذا ، لكان خيراً لك » أي لو قدمته لآخرتك ، وآثرت به غيرك . قال العراقي رواه أحمد والحاكم في « المستدرك » والبيهقي في « الشعب » من حديث جعدة الجشمي ، وإسناده جيد . اهـ .

وعن الحسن قال : والله لقد أدركت أقواماً ، إن كان الرجل منهم ليمشي وعنده من الطعام ما يكفيه ، ولو شاء لأكله فيقول : والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله اهـ . باختصار بعضه . والله الموفق .

ورحم الله القائل :

إن أكل المرء فضيلة الطعام كانت خزانة له ، قل : بيت الظلام
وإن تصدق بها يا لاهي كانت خزانته عرش الله

الكلام عن الشهوات ومضار اتباعها

ثم قال :

[هذا وقد قالوا اتباع الشهوات من أكبر الحجب وأردى الهفوات]

[ومن يبع رضى المليك الحق بشهوة تفنى ، فأشقى الخلق]

[فافطم عن الشهوة نفسك تصب وتغنم النجاة فى اليوم العصب]

لما ذكر مضار الشبع وآفاته ، وبين بعض مفاسده ، ومحظوراته . بين هنا أن أقوى البواعث عليه ، الذى هو اتباع الشهوات ،من أعظم الحجب عن رضى الله تعالى ، الذى هو أسنى المقامات ، ومن أقبح الهفوات ، الموجبة للحسرات .

ولا شك أن من يرضى بذلك عوضاً عن رضى الله ، فيستبدله بشهوة فانية ، لمن أشقى خلق الله . وإن من أراد الفوز برضوان الله ورحماته ، فليمنع نفسه من الاسترسال فى شهواته ، فبذلك ينال رضى مولاه ، وبه ينجو فى اليوم الشديد الأهوال ، ويسلم فى عقباه .

قال فى « الإحياء » : فبقدر ما يستوفى العبد من شهوته ، يخشى أن يقال له يوم القيامة : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع فى الدار الآخرة بشهواته .

قال بعض أهل البصيرة : نازعتنى نفسى خبزاً وسمكا فمنعتها ، فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتى عشرين سنة . قال : فلما مات رآه بعضهم فى المنام فقال : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : لا أحسنُ أن أصف لك ما تلقانى به ربى من النعم والكرامات ، وكان أول شىء استقبلنى به خبزاً أرزاً وسمكا ، وقال : كل اليوم شهوتك هنيئاً بغير حساب .

وقد قال تعالى : « كلوا وَاشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية » وقد

أسلفوا ترك الشهوات لما تركوها وقدموا الجوع والعطش فى خلو أيامهم » فاستقبلهم بالأكل والشرب .

ويقال : لكل عمل جزاء فى الآخرة من جنسه وبمعناه .

وكذلك قال أبو سليمان الدارانى : ترك شهوة من الشهوات ، أنفع للعبد من صيام سنة وقيامها . اه ببعض زيادة .

قلت : وقد كان هذا طريق طائفة من السلف رضوان الله عليهم .

فقد روى سليمان بن المغيرة عن ثابت قال : اشتهى عمر ، رضى الله عنه ، الشراب ، فأتى بشربة من عسل فجعل يدير الإناء فى يده ويقول ، لا أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى مرارتها ، ثم وضعها إلى رجل من القوم فشربها .

وإنما قال ذلك ، لأنه علم أنه حلال ، وفى الحلال الحساب ، وفى الحساب نوع عذاب .

وقد أشار إلى ذلك أبو سعيد الخراز ، حين نوع الجوع فقال : ومنهم من وجد الشىء الصافى فتركه زهداً فيه ، من مخافة طول الحساب ، والوقوف والسؤال . اه .

وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أنه كان مريضاً فاشتهى سمكة طرية فالتمست له بالمدينة فلم توجد ، فوجدت بعد كذا وكذا ، فاشتريت بدرهم ونصف ، فشويت وحملت إليه على رغيف ليأكلها ، فقام سائل على الباب ، فقال للغلام : لفها برغيفها وادفعها إليه ، فقال له الغلام : أصلحك الله قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها ، فلما وجدناها اشتريناها بدرهم ونصف ا نحن نعطيه ثمنها ، فقال : لفها وادفعها إليه ، ففعل : ثم قال الغلام للسائل : هل لك أن تأخذ درهماً وتتركها ؟ قال : نعم . فأعطاه درهماً وتركها ، وأتى بها ثانياً ، ووضعها بين يديه وقال : قد أعطيته درهماً وأخذتها منه ، فقال : لفها وادفعها إليه ولا تأخذ

منه الدرهم ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « أيما امرىء اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه ، غفر الله له » .

ويروى أن عتبة بن أبان الغلام ، رحمه الله ، كان يعجن دقيقه ويجففه فى الشمس ثم يأكله ويقول : كسرة وملح ، حتى يتهيأ لى فى الآخرة الشواء والطعام الطيب. وكان يأخذ الكوز فيغرف به من حُب (بضم الحاء) وهو دَنُّ الماء ، كان فى الشمس نهاره ، فتقول مولاة له : ياعتبة لو أعطيتنى دقيقك فخبزته لك وبردت لك الماء؟ فيقول لها : يا أم فلان قد شدَدْت عنى كَلَبَ الجوع أى شدته

وروى عن مالك بن دينار ، رضى الله عنه ، أنه قال لرجل من أصحابه : إنى لأشتهى رغيفا لينا بلبن رائب . قال : فانطلق فجاء به ، قال : فجعل مالك يقلبه وينظر إليه ، ثم قال . اشتهيتك منذ أربعين سنة فغلبتك ، حتى كان اليوم تريد أن تغلبنى ؟ إليك عنى . وأبى أن يأكله .

وعن أحمد بن أبى الحوارى قال . اشتهى أبو سليمان الدارانى رغيفا حاراً بملح فجئت به إليه ، فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكى ، وقال : عجلت إلى شهوتى بعد إطالة جهدى ! واشِقْوَتى فقد عزمت على التوبة فأقلنى ! قال أحمد : فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى .

وعن مالك بن ضيغم قال : مررت على سوق بالبصرة فنظرت إلى البقل فقالت لى نفسى : لو أطْعَمْتَنى الليلة من هذا البقل؟ فأقسمت بالله أن لا أطعمها إياه أربعين سنة .

وَمكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رُطَبةً لأهل البصرة ولا بُسْرَة ، وقال: ياأهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رُطبةَ ولا بسرة ما نقص منى ولا زاد فيكم. وقال أيضاً : طلقت الدنيا منذ خمسين سنة اشتهت نفسى منذ أربعين سنة طعاما ، فوالله لا أطعمتها إياه حتى ألحق بالله عز وجل .

وعن أبى يحيى المنذر قال رأيت مالكا ومعه كراع من هذه الأكارع التى قد طبخت

قال : فهو يشمه ساعة فساعة ، قال : ثم مر على شيخ مسكين على ظهر الطريق يتصدق ، فقال : هاه ياشيخ ، فناوله إياه ، ثم مسح يده بالجدار ، ثم وضع كساءة على رأسه وذهب ، فلقيت صديقا له فقلت له . رأيت من مالك كذا وكذا فقال : أنا أخبرك كان يشتهيه منذ زمان فاشتراه ، فلم تطب نفسه أن يأكله فتصدق به .

وعن حماد بن أبى حنيفة قال : أتيت داوود الطائى ، رحمه الله ، أزوره والباب مغلق عليه ، فسمعته يقول : اشتهيت جزرا ، فأطعمتك جزرا ، ثم اشتهيت تمرا فآليت أن لا تأكليه ، فسلمتُ ودخلتُ ، فإذا هو وحده .

ومر أبو حازم سلمة بن دينار يوما فى السوق ، فرأى الفاكهة فاشتهاها ، فقال لابنه : اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة ، لعلنا نذهب إلى الفاكهة التى لا هى مقطوعة ولا ممنوعة ، فلما اشتراها وأتى بها إليه ، قال لنفسه : خدعتنى حتى نظرت واشتهيت ، وغلبتنى حتى اشتريت ، والله لاذقتها ! فبعث بها إلى يتامى من الفقراء .

وعن أحمد بن خليفة قال : نفسى تشتهى منذ عشرين سنة ، ماطلبت منى إلا الماء حتى تروى ، فما رويتها .

وعن أحمد بن عطاء بن عبد الله اليربوعى قال : نازعت عتبةَ الغُـلاَم نفسه لحما ، فقال لها : اندفعى عنى إلى قابل ، فما زال يدفعها سبع سنين ، حتى إذا كان فى السابعة أخذ دانقا ونصفا فأتى بهما صديقا له من أصحابه : عبد الواحد ابن زيد ، فقال : يا أخى إن نفسى تنازعنى لحما منذ سبع سنين ، وقد استحييت منها كم أعدها وأخلفها ، فخذ لى رغيفين وقطعة من لحم بهذا الدانق ونصف ، فلما أتاه به إذا هو بصبى قال : يافلان ، ألست أنت ابن فلان وقد مات

أبوك ؟ قال : بلى ، فجعل يبكى ويمسح رأسه ، وقال : قرة عينى من الدنيا أن تصير شهوتى فى بطن هـــذا اليتيم ، فناوله ما كان معه ثم قرأ : « وَيُطعِمُونَ الطعامَ عَلَى حُبِّهِ مسكيناً وَيَتِيماً وَأسيراً » .
ومكث رضى الله عنه يشتهى تمرا سنين ، ثم اشترى تمرا بقيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه ، قال : فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففزع الناس فأقبل عُتْبةُ على نفسه ، يقول : هذه الريح التى هبت من جراءتى عليك وشرائى التمر بالقيراط ، ثم قال لنفسه : ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك ، علىّ أن لا تذوقيه !

واشترى داوود الطائى بنصف فلس بقلا وبفلس خلاً ، وأقبل ليلته كلها ، يقول لنفسه : ويلك يا داوود ! ما أطول حسابك يوم القيامة ! ثم لم يأكل بعده إلّا قفارا .

وعن جعفر بن محمد الخلدى قال : أمرنى الجنيد أن اشترى له التين ، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطر فوضعها فى فمه ، ثم ألقاها وجعل يبكى ، ثم قال: احمِلْهُ . فقلت له فى ذلك ، فقال: هتف فى قلبى هاتف ، أما تستحى، تركته من أجلى ، ثم تعود إليه ؟

فهذه طريقة السلف رضى الله عنهم ، أرادوا هذه التشديدات ، فى ترك المباحات ، نفعا لأنفسهم ، ومخالفة لشهواتها ، رجاء أن يسلم لهم حالهم مع الله تعالى . ثم انقرضوا فانمحى طريقهم . وخلف من بعدهم خلف من العلماء اتبعوا الشهوات ، ولم يبالوا بهذه المقامات ، ولا سلك بهم هذه الطرقات ، فلم يتكلموا فى طرق الشهوات ، فلذلك درس هذا الطريق وعُمىَ أثره لفقد سالكه وعدم كاشفه ، فمن عمل به وسلكه فقد أظهره ، ومن أظهره فقد أحيا أهله . والله يوفقنا لا قتفاء أثرهم ، ويعيد علينا من بركتهم .

قول الناظم « هذا » . مفعول لفعل محذوف ، أى خذ هذا ، أى ما تقدم ذكره من الآفات المتقدمة ، وكن على بال منها ، ومجتهداً فى الحذر منها .

واتباع : مصدر اتبع الشىء إذا آثره ولم يخالفه فى طلبه .

والشهوات : جمع شهوة وهى اشتياق النفس إلى الشىء .

وقال الراغب : أصل الشهوة نزوع النفس إلى ماتريده ، وذلك فى الدنيا، ضربان : صادقة وكاذبة . فالصادقة ما يختل البدن بدونه كشهوة الطعام عند الجوع ، والكاذبة مالا يختل من دونه . وقد يسمى المشتهَى : شهوة ، وقد يقال للقوة التى لها تشهى الشىء : شهوة .

وقوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات » يحتمل الشهوتين . وقوله عز وجل : « واتبعوا الشهوات » فهذا من الشهوات الكاذبة ، ومن المشتهيات المستغنى عنها . اهـ

والشهوة الخفية : كل شىء من المعاصى يضمره صاحبه ويصر عليه وإن لم يعمل ، وقيل: حب إطلاع الناس على العمل.

وقوله تعالى : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » ، أى يرغبون فيه من الرجوع إلى الدنيا .

وأكبر : اسم تفضيل أى أعظم .

والحجب (بسكون الجيم مخفف حجب بضمها) : جمع حجاب وهو ما يحتجب به .

وأردى : اسم تفضيل من الردى وهو الهلاك .

والهفوات : جمع هفوة وهى الزلة والسقطة . ومنه : لكل عالم هفوة .

والمراد أن إيثار الشهوات من أعظم الحجب المانعة من نيل رضى الله تعالى، ومن أكبر الزلات والسقطات المهلكة لصاحبها .

والرضى (بكسر الراء مقصورا) : مصدر رضى ضد سخط ، وحيث أضيف إلى الله كما فى كلام الناظم . فالمراد به لازمه ، وهو التفضل ، أو إرادته كما هو شهير .

والمليك والحق : كلاهما من أسمائه تعالى وأوصافه ، فالمليك والملك من المُلك بضم الميم ، أى التصرف بالأمر والنهى ، وهو أبلغ من مالك بالألف الذى هو من الملك بكسر الميم ، أى التعلق بالأشياء المملوكة . ووجه الأبلغية دلالاته على التعظيم من حيث أنه لا يضاف إلا إلى العقلاء ، فلا يقال : ملك الدواب والأنعام ، وإنما يقال : مالك .

والحق هو المتحقق الثابت وجوده أزلا وأبدا فلا يقبل الانتقال بحال ولا التغيير ، والكل منه وإليه ، فكل شىء دونه باطل إذ لا حقيقة لمن دونه من ذاته ولا فى ذاته .

وقال ابن الأثير : هو الموجود حقيقة . المتحقق وجوده وإلاهيته .

وتفنى : مضارع فنى كرضى ضد تبقى .

وأشقى : اسم تفضيل من الشقاوة وهو ضد السعادة .

وافطم : أمر من الفطم وهو الفصل والمنع .

وتصب : مضارع أصاب جواب الأمر حذفت ياؤه دفعا لالتقاء الساكنين .

وتغنم : معطوف عليه ، وهو مضارع غنم غنما بضم فسكون وبفتح فسكون وبفتحتين : فاز بالشيء بلا مشقة .

والنجاة : مصدر نجا ينجو نجوا ونجاة ونجاء ونجاية ، خلص . وقيل النجاة الخلاص مما فيه المخافة .

والعصب : الشديد .

ومعناه : إذا منعت نفسك عن الشهوات فإنك تصيب أى تظفر بالكيمياء والسعادة وتفوز برضوان الله والزيادة ، وتغنم الخلاص من كل مخوف فى اليوم الشديد الهائل المخوف .

روى أن سيدنا داوود ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، قال : إلهى من يسكن بيتك وممن تقبل الصلاة ؟ فأوحى الله إليه : ياداوود . إنما يسكن بيتى وأقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتى ، وقطع نهاره بذكرى ، وكف عن الشهوات من أجلى ، يطعم الجائع ، ويؤوى الغريب ، ويرحم المصاب . فذلك الذى يضىء نوره فى السماء كالشمس . إن دعانى لبيته ، وإن سألنى أعطيته ، أجعل له فى الجهالة علماً ، وفى الغفلة ذكرا ، وفى الظلمة نوراً ، إنما مثله فى الناس كالفردوس فى الجنان ، لاتيبس أنهارها ولا تتغير ثمارها .

التزام السنة وترك البدعة وما قيل فى ذلك

ثم قال :

[ولازم السنة واهجر البدع فالطرق قد سدت على من ابتدع]

هذا من جملة النصائح السنية ، والإرشادات المزايا العلية المبذولة من الناظم، رضى الله عنه .

والمعنى : لازم أيها العاقل المريد للنجاة الأخروية ، والسلامة من المضار الدينية والدنيوية ، سنة سيد البرية ، وطريقته الزكية المرضية ، واهجر البدع والضلالات المردية ، والموجبة لصاحبها أعظم البلية ، فإن الطرق الموصلة إلى الله ورضاه ، قد سد جميعها على من اتبع البدع ونهج نهجها واقتفاه .

قال الإمام أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

والسنة (لغة) : السيرة حسنة كانت أو قبيحة .

وقال الأزهرى : السنة الطريقة المحمودة المستقيمة . فإذا قيل : من أهل السنة ، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة .

وفى الشرع : ما أمر به النبى ، صلى الله عليه وسلم ونهى عنه وندب إليه قولا وفعلا ، مما لم ينطق به الكتاب العزيز ، ولذا يقال فى أدلة الشرع الكتاب والسنة أى القرآن والحديث .

وقال الراغب : سنة النبى طريقته التى كان يتحراها ، وسنة الله عز وجل قد تقال لطريقة حكمه وطريقة طاعته نحو قوله : « سنة الله التى قد خلت من قبل وان تجد لسنة الله تبديلا » . وقوله : « ولَنْ تجدَ لِسنة اللهِ تحويلاً » ، فنبه على أن وجوه الشرائع وإن اختلفت صورها . فالغرض والمقصود منها لا يختلف ولا يبدل ، وهو اطمئنان النفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى .

وقال الشبرخيتي ، في شرح «الأربعين النووية» عند قوله عليه السلام : «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيراً فعليكم بسنتي .. إلخ» ما نصه : أي الزموا التمسك بطريقتي وسيرتي القويمة التي أنا عليها مما أصلته لكم من الأحكام الاعتقادية والعملية الواجبة ، والمندوبة والمباحة .

وما تقرر من أن معنى السنة الطريقة القويمة هو مما توافق فيه اللغة والشرع وتخصيصها بما طلب طلبا غير جازم ـ اصطلاحا ـ حادث ، قصدوا به التمييز بينها وبين الفرض . اهـ .

والبدع : جمع بدعة (بكسر الباء) وهي «لغة» ما كان مخترعا على غير مثال سابق . ومنه قوله تعالى : «بديعُ السموات والأرض» أي موجدهما على غير مثال سبق . وقوله تعالى «قلْ ما كنت بدعا من الرُّسلِ» .

وتكون في الخير والشر ، فمن الأول ، جمع القرآن في المصاحف ، وإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، ومن الثاني العكس .

ويقرب من ذلك قول من قال : هي ما لم يقع في زمنه صلى الله عليه وسلم سواء دل الشرع على حرمته : كالمكوس ، والاشتغال بمذهب أهل البدع المخالفة لما عليه أهل السنة ؛ أو كراهته : كزخرفة المساجد ، وتزويق المصاحف والزيادة في الذكر المحمود بعد الصلاة ، والاجتماع للدعاء يوم عرفة بغيرها ، وإن استحبه جماعة ؛ أو وجوبه : كالاشتغال بعلم العربية المتوقف عليها فهم الكتاب والسنة ؛ أو ندبه : كصلاة التراويح جماعة ، وإقامة صور الأئمة والقضاة وولاة الأمر بخلاف ما كان عليه الصحابة ، بسبب أن المصالح والمقاصد الشرعية لا تحصل إلا بعظمة الولاة في نفوس الناس ، وذلك في زمان الصحابة

إنما كان بالدين ، وفيما بعدهم إنما يعظمون بالصور فيطلب تفخيمها حتى تصلح المصالح .

وقد كان عمر رضى الله عنه ، يأكل خبز الشعير والملح ، ويفرض لعامله نصف الشاة فى كل يوم ؛ لعلمه بأن الحالة التى هو عليها لو عملها غيره لهان فى نفوس الناس ولم يحترموه ، وتجاسروا عليه بالمخالفة ، فاحتاج إلى أن يضع غيره فى صورة تحفظ النظام . ولذلك لما قدم الشام ووجد معاوية بن أبى سفيان ، قد اتخذ الحجاب والمراكب النفيسة والثياب الهائلة العلية ، وسلك مسلك الملوك .فسأله ، رضى الله عنه ، عن ذلك،فقال له : أنا بأرض نحن فيها محتاجون إلى هذا . فقال له : لا آمرك ولا أنهاك . ومعناه أنت أعلم بحالك ، هل أنت محتاج إلى هذا أو غير محتاج ؟ أو إباحته : كاتخاذ المناخل للدقيق . ففى الآثار : أول شىء أحدثه الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخاذ المناخل لأن تليين العيش وإصلاحه من المباحات ، فوسائله مباحة ، وكذا الأكل بالملاعق .

وقد حضر أبو يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة ؛ مائدة الخليفة هارون الرشيد فطلب الملاعق . فقال له : يا أمير المؤمنين قد قال جدك ابن عباس فى قوله : « ولقد كرمنا بنى آدم » أى جعلنا لهم أصابع يأكلون بها ، ولم نجعلهم كالدواب تأكل بأفواهها ، فأبى أن يأكل إلا بالملاعق ، هكذا ذكره بعضهم .

والذى فى الكشاف : أنه لما ذكر له أبو يوسف ما ذكره ابن عباس ، رد الملاعق وأكل بأصابعه .

وحينئذ فالبدعة « لغة » تعتريها الأحكام الخمسة . وإليه ذهب ابن عبد السلام والقرافى وغيرهما .

وإلى ذلك أشار الإمام ابن غازى رحمه الله بقوله :

كنْ تابعاً ووافقنْ من اتبعْ وقسمنْ لخمسة هذى البدعْ
واجبة كمثل كتب العلم ونقط مُصحف لأجل الفهم
ومستحبة كمثل السكانس والجسر والمحراب والمدارس
ثمّ مباحة كمثل المنخل وذات كُره كخوان المأكل
ثمّ حرام كاغتسال بالفقات وكاسيات عاريات مائلات

وقال ابن الأثير : البدعة بدعتان : بدعة هدى وبدعة ضلال ، فما كان فى خلاف ما أمر الله به وَرسوله ، فهو فى حيز الذم والإنكار ، وما كان واقعاً تحت عموم ماندب الله إليه وَحض عليه أو رسوله ، فهو فى حيز المدح ، ومالم يكن له مثال موجود كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف ، فهو من الأفعال المحمودة . ولا يجوز أن يكون ذلك فى خلاف ما ورد الشرع به لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد جعل له فى ذلك ثواباً ، فقال : « مَنْ سَن سُنةً حسنةً كانَ له أجرُها وأجرُ منْ عمل بها » وقال فى ضده : « مَنْ سَن سنةً سيئةً كان عليه وزْرها ووزرُ مَنْ عملَ بها » وذلك إذا كان فى خلاف ما أمر الله به ورسوله .

قال : وَمن هذا النوع قول عمر : نعمت البدعة هذه لما كانت من أفعال الخير وداخلة فى حيز المدح سماها بدعة ومدحها ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يسنها لهم ، وإنما صلاها ليالى ثم تركها ، ولم يحافظ عليها ، ولا جمع الناس لها ، ولا كانت فى زمن أبى بكر ، رضى الله عنه ، و إنما عمر جمع الناس عليها وندبهم إليها ، فبهذا سماها بدعة ، وهى على الحقيقة سنة ،

لقوله صلى الله عليه وسلم : « عليكمْ بِسنتى وسُنةِ الخلفاءِ الراشدينَ منْ بعدِى » .
وقوله صلى الله عليه وسلم : « اقتدُوا باللذينَ من بعدِى أبى بكرٍ وعُمرَ » .
وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر : « كلُّ محدَثةٍ بدعةٌ » . إنما يريد ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة. وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفا فى الذم.

وأما البدعة (شرعاً) : فهى ما لم يقع فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، ودل الشرع على حرمته ، وعليه فهى خاصة بالحادث المذموم .

وقال بعضهم : هى إحداث أمر فى الدين يشبه أن يكون منه وليس منه ؛ قال : ولا تخرج عن التحريم والكراهة .

وقال آخر : الحدث فى الدين بعد الإكمال ، قال : ومنه الحديث : « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

وقد رغب النبى صلى الله عليه وسلم فى ملازمة السبيل والسنة وحذر من اتباع الباطل وطرق البدعة .

قال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللهَ يُدخلُ العبدَ الجنةَ بالسنةِ تمسكَ بها » . وعن أبى هريرة مرفوعاً : « المتمسك بسنتى عند فساد أمتى له أجر مائةِ شهيد » . وعن أنس مرفوعاً : « منْ أحيا سُنتى فقد أحيانى ، ومنْ أحيانى كان معى » . وعن عبد الله بن محمد بن العاصى مرفوعاً : « العلمُ ثلاثةٌ ، فما سِوى ذلك فهو فضلٌ : آية محكمةٌ ، أو سنةٌ قائمةٌ ، أو فريضة عاجلة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « منْ حفظ سنتى أكرمهُ الله بأربع خصالٍ : المحبةِ فى قلوبِ الأبرارِ ، والهيبةِ فى قلوبِ الأشرارِ ، والتوْسعةِ فى الرِّزقِ ، والثقةِ فى الدين » .

ونظم هذا الحديث الشريف ، سيدنا الوالد ، حفظه الله ، بقوله :

وأربع من الكرَامَة لمنْ حفظَ سنةَ الرسولِ فاعلمْ
محبة فى قلوب الأبرار وهيبة فى قلوب الأشرار
توسعة عليه فى دنياهُ وثقة فى دِينه فارْعاهُ

وروى الإمام مالك مرفوعاً : « تركتُ فيكم أمْرينِ لنْ تضلوا ما تمسكتم بهما : كتابَ الله وسنتى » .

وعن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون قلنا : يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا . قال : أوصيكم بِتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن تأمَّرَ عليكم عبد ، فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الرشدينَ المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكمْ ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا القرآن صعب مستصعب على من كرههُ ، وهو الحكم فمنْ استمسكَ بِحديثى وفهمهُ وحفظهُ جاء مع القرآن ، ومن تهاون بالقرآن وحديثى خسرَ الدُّنيا والآخرةَ ، أمرتُ أمتى أنْ يأخذوا بقولى ، ويطيعوا أمرى ، ويتبعوا سنتى ، فمن رضى بقولى فقد رضى بالقرآن » . قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . الآية .

وقال عليه السلام : « من اقتدى بى فهو منى ، ومن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقال عليه السلام : « عمل قليل فى سنة ، خير من عمل كثير فى بدعة » .

وقال عليه السلام لبلال بن الحارث : « من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى ، فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لاترضى الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً » .

وقال عليه السلام : « إن بنى إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن أمتى تفترق على ثلاث وسبعين ، كلها فى النار إلا واحدة . قالوا : ومن هم يارسول الله ، قال : الذى أنا عليه اليوم وأصحابى » .

وقال عليه السلام : « إنْ سركم أن تسكنوا بحبوحة الجنة ونعيمها ، فالزموا السنة والجماعة ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وإن الله لايجمع أمة محمد على الضلالة أبداً ، فمن خلع الطاعة وفارق الجماعة وضيع أمر الله وخالف حكم الله ، لقى الله وهو عليه غضبان وأدخله النار » .

وقال عمر بن عبد العزيز : سن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وولاة الأمر بعده سننا ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تغييرها ولاتبديلها ، ولا النظر فى رأى من خالفها «

من اقتدى بها مهتد ، ومن انتصر بها منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ماتولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً .

وكان ابن مسعود يقول : القصد فى السنة ، خير من الاجتهاد فى البدعة .

وعن أبى بن كعب رضى الله عنه : عليكم بالسبيل والسنّة ، فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ، ذكر الله فى نفسه ففاضت عيناه من خشية ربه فيعذبه الله أبدا ، وما من عبد على السبيل والسنة ، وذكر الله فى نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها ، فهى كذلك إذ أصابتها ريح شديدةفتحاتّ عنها ورقها ، إلاحط اللهعنه خطاياه كما تحاتّ عن الشجرة ورقها ؛ فإن اقتصادا فى سبيل وسنة ، خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة ، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادا ، أن يكون على منهاج الأنبياء وسننهم .

وقال أبو عثمان الحيرى : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة ، وقال أيضاً : من صح إيمانه يهدى الله قلبه لاتباع السنة .

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه بحال بلده وكثرة لصوصه ؛ هل يأخذهم بالظنة ويحملهم على السنة وما جرت به السنة ؟ فكتب إليه عمر : فخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله .

ويحكى عن أحمد بن حنبل أنه قال : كنت يوما مع جماعة يتجردون ويدخلون الماء فاستعملت حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن

بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر » . فلم أتجرد فرأيت تلك الليلة في المنام قائلا يقول : أبشر يا أحمد فإن الله غفر لك باستعمال السنة ؛ فقلت : من أنت ؟ فقال : جبريل وقد جعلك الله إماماً يقتدى بك .

وفي حديث الحوض : « فليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال فأناديهم ألا هلُمَّ ! ألا هلُم ! فيقال : إنهم بدّلوا بعدك وغيروا ؛ فأقول : فَسُحْقًا ! فَسُحْقًا ! فَسُحقًا ! »

وقال عليه السلام : « وجيء بكتابٍ في كتفٍ : كفى بقومٍ حُمقاً ـ أو قال ـ ضلالا أن يرْغبوا عما جاء به نبيُّهم إلى غير نبيِّهم ، أو كتابٍ غير كتابِهِمْ . فنزلت : « أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الـكِتَابَ يُتْلى عَلَيْهِم » .

وقال عليه السلام : « إن الله لا يقبل لصاحب بدعةٍ صوْماً ولا صلاةً ولا زكاةً ولا حجا ولا عمرة ولا جهاداً ولا صرفاً ولا عدْلا ، ويخرج من الإسلام كما يخرج السهم من الرمية ، وكما تخرج الشعرة من العجين » .

وقال عليه السلام : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منهُ فهو ردٌّ » .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يعمل به إلا عملت به ؛ إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ .

قول الناظم : « فالطرق » كالتعليل لما قبله ، أى وإنما أمرتك أيها المريد لسلوك الطريق الناجحة ، والمرور فى السبيل الواضحة ، بملازمة السنة وهجران البدع ، لأن الطرق كلها مسدودة مغلقة على من ابتدع .

والطرق : جمع طريق ، وهى السبيل يذكر ويؤنث ، يقال : الطريق الأعظم والطريق العظمى ، ويجمع أيضاً على أطرق كيمين وأيمن ، وأطرقاء كنصيب وأنصباء ، وأطرقة كرغيف وأرغفة ، ويجمع طرق على طرقات .

فائدة :

قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « من أعرض عن صاحب بدعة بُغضاً له فى الله ، ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ، ومن انتهر صاحب بدعة رفع الله له مائة درجة ، ومن سلم على صاحب بدعة أو لقيه بالبشرى أو استقبله بما يسره فقد استخفّ بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » .

وقال صلى الله عليه وسلم ، كما فى المدخل عن الغزالى : « من مَشى إلى صاحب بدعة ليوَقِّرَه فقد أعان على هدم الإسلام » .

وَرَى الطبرانى عن عبد الله بن بشير : من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام .

وعن عبد الله بن سهل قال : من داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن .

وقال العلامة سيدى محمد جسوس : إن ترك أهل البدع من النصيحة لله ورسوله ، سيما إذا كانت بدعته فى الأصول أو فى الفروع المهمة ، يعنى إذا

كان لا يصل إلى عقوبته ولا يقدر على موعظته ولا يقبلها (كما فى الرسالة وانظر شراحها) .

القول فى الصمت ومزاياه :

ثم قال :

[ولازم الصمت الحميد إلا عن ذكر مولاك الكريم جلا]
[أو ما جرى مجراه مما تنتفع به ليوم هائل وترتفع]
[فكلُّ مايحصدُهُ اللسان يجده يوم الجزا الإنسان]

هذا من النصح البليغ الأتم ، والتنبيه على ما فيه النفع الأعم .

والمعنى : لازم أيها العاقل المريد السعى الناجح ، والمحاول للسلوك فى الطريق الوضح ، الصمت المحمود العاقبة والمآل ، المورث المهابة لذويه ورفيع الأحوال ، إلا عن ذكر مولاك جل علاه ، وتلاوة كتابه ، أو ما يجرى مجرى ذلك مما ينتفع به الإنسان فى مآبه ، ويجده ذخيرة فى اليوم الشديد الفتن والأهوال ويرتفع به قدره يوم تحط الأقدار باكتساب سيىء الأقوال والأفعال ، من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو إصلاح بين الناس ، إذ فى ذلك الفوز العظيم والنجاة والبأس ، فكل ما يحصده اللسان ويتكلم به ، يجده الإنسان يوم الجزاء مُحصى عليه فى صحائفه وكتبه .

قال تعالى : « عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

وقال : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » .

وأصل ما ذكره الناظم فى الجملة قوله تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » .

وما أخرجه الترمذى وابن مردويه وابن شاهين فى « الترغيب فى الذكر » والبيهقى فى « شعب الإيمان » عن ابن عمر أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى » .

وفى رواية للترمذى من حديث ابن عمر أيضاً : « كثرة الكلام بغير ذكر الله تُقسِّى القلبَ » .

وأخرج الإمام أحمد فى « الزهد » عن أبى الجلد ، رضى الله عنه ، « أن عيسى عليه السلام أوصى الحواريين : أن لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، وإن القاسى قلبه بعيد من الله ولكن لا يعلم » .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « تورث القسوة فى القلب ثلاث خصال : حب الطعام ، وحب الكلام ، وحب الراحة » .

وقد جاء فى الترغيب فى الصمت والحث والتحذير من الكلام بغير مافيه رضى الله ، ما هو كثير :

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً (أى كلاماً يثاب عليه) أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

وفى حديث آخر : « منْ صَمتَ نَجا » .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى ذر رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال له : « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل فى الميزان ، قلت : بلى يارسول الله ، قال : هو الصمت ، وحسن الخلق ، وترك ما لا يعنيك » .

وقال عليه الصلاة والسلام : «ألا أنبئكم بأمرين خفيفين ، لم يلق الله بمثلهما : الصمت وحُسنُ الخلق » .

وأخرج أبو يعلى عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « عليك بحسن الخلق وطول الصمت ، فوالذى نفسى بيده ما تجمّل الخلائق بمثلهما » .

وعن سفيان : الصمت أمان من تحريف اللفظ ، وعصمة من زيغ اللفظ ، وسلامة من فضول القول ، وهيبة لصاحبه .

وسئل إبراهيم بن الحسن عن سلامة القلب ، فقال : بالعزلة والصمت وترك استماع خوض الناس .

وسئل ابن المقفع : أى شىء أنفع للإنسان ؟ قال : عقل يلوذ الإنسان به . قيل : فإن فاته ذاك ؟ قال : أدب يقومه . قيل : فإن فاته ذاك ؟ قال : حال يستره . قيل : فإن فاته ذاك ؟ قال : صمت يلزمه . قيل : فإن فاته ذاك ؟ قال قبر يحبسه .

وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله أوصنى ، قال : أوصيك بتقوى الله فإنها جماع كلِّ خير ، وعليك بالجهاد ، فإنه

رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله وتلاوة كتابه : القرآن ، فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء ، واخزن لسانك إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان ».

وأخرج الترمذى عن عقبة بن عامر ، قال : قلت يارسول الله ، ما النجاة ؟ قال : « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » .

وأخرج الطبرانى وابن أبى الدنيا ، أن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، كان على الصفا يلبى ، ويقول : يالسان قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن — أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا — بل سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم بلسانه » .

وأخرج الدار قطنى والبيهقى : أن عمر بن الخطاب اطلع على أبى بكر ، رضى الله عنهما وهو يجذب لسانه ، فقال : إن هذا أوردنى الموارد ، إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته » .

وأخرج الترمذى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : قلت يارسول الله أخبرنى عن عمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار ، قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة . وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » . ثم قال : « ألا أدُلُّكَ على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل » . ثم تلا : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » حتى بلغ « يَعْلَمُونَ » ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذِرْوَة

سنامة ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام ، وعمُودُهُ الصلاة، وذِروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يارسول الله ، فأخذ بلسانه ، ثم قال : كف عليك هذا . قال : قلت يارسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به . فقال : ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ؟ أو — قال : على مناخرهم — إلا حصائد ألسنتهم » ؟

ومن حديث أبى ذر رضى الله عنه ، قلت : يارسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : « كانت أمثالا كلها ، وفيها : وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلا على شأنه ، حافظاً للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله ، قل كلامه إلا فيما يعنيه » .

وعن لقمان الحكيم عليه السلام أنه قال لابنه : يابنى من يصحب صاحب السوء لا يسلم ، ومن يدخل مدخل السوء يتهم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

وقيل أوحى الله إلى عيسى عليه السلام : إذا كنت وحدك فاحفظ قلبك ، وإذا كنت بين الناس فاحفظ لسانك ، وإذا كنت على المائدة فاحفظ بطنك ، وإذا كنت على الطريق فاحفظ عينك ، فهذه تورث السلامة والصحة .

وعن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فى وصية لابنه الحسين ، رضى الله عنهما : يابنى أمسك عليك لسانك فإن إتلاف المرء فى منطقه .

وعن ثابت البنانى ، رضى الله عنه : بلغنى أن العافية فى عشرة : تسعة منها فى السكوت ، وواحدة فى الفرار من الناس .

وقال بعض الحكماء : دبر كلامك كما تدبر سهمك ، وارفق لا تكسره ، واعلم أن اللسان متهم ، يخطىء ويصيب ، واغتنم السكوت فإن أدنى نفعه السلامة ،

وإن أشقى الناس من ابتلى بلسان مطلق وقلب مطبق ، فهو لا يحسن أن ينطق ولا يقدر أن يسكت . وقال آخر : من أطلق لسانه بكل ما يعلم كان أكثر منامه حيث لا يحب . وقال آخر : لسان المرء شفرة يمرها على أوداجه .

وقال مالك بن دينار ، رضى الله عنه : وكان الأبرار يتواصون بثلاث : سجن اللسان ، وكثرة الاستغفار ، والعزلة .

وقال بعض الكبار : إياك وكثرة الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن ، ويحرك من عدوك ما سكن .

وقال الإمام الغزالى : لا تبسطن لسانك فيفسدن عليك شأنك .

قال بعضهم : عفة اللسان صمته ، فإن اللسان سبع ضار ، فإن لم توثقه عدا عليك . وأنشد بعضهم :

اغتنم ركعتين فى ظلمة اللي ... ل ، إذا كنت فارغا مستريحا
وإذا ماهممت بالخوض فى الباط ... ل ، فاجعل مكانه تسبيحا
فاغتنام السكوت أفضل من خو ... ض وإن كنت بالحديث فصيحا

وعن ذى النون المصرى : أحسن الناس لنفسه أملكهم لسانه .

وقال ابن المبارك :

ألا احفظ لسانك ، إن اللسان ... سريع إلى المرء فى قتله
وإن اللسان دليل الفؤاد ... يدل الرجال على عقله

وقال بعضهم :

احفظ لسانك واستعذ من شرّه إن اللسان هو العدوّ الفاضح
وزن الكلام إذا نطقت بمجلسٍ وزناً يلوح به الصواب اللائح
فالصمت من سعد السعود بمطلع يحمى الفتى ، والنطق سعد ذابح

وقال آخر :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنّك إنّه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءهُ الشجعانُ

قول الناظم : « ولازم الصمت » .. إلخ هو بضم الصاد وبسكون الميم : وهو مجرد السكوت عن الكلام ، أى لازم السكوت عن كل كلام لاخير فيه ، وهو شامل للصمت عن الشر ، وعن المكروه ، وعن المباح لأن المباح ربما جر إلى مكروه أو محرم ، وعلى تقدير أنه لايجر إليهما ففيه ضياع الوقت فيما لا يعنى .

وقد جاء فى الحديث : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » . ويدل لهذا الاستثناء بعده .

وآثر الناظم الصمت على السكوت لأنه أخص ، إذ هو السكوت مع القدرة ، وهذا هو المأمور به . أما السكوت مع العجز لفساد آلة النطق فهو الخرس ، أو لتوقفها فهو العى .

والصمت قفل الفم ؛ كما قال سيدنا عمر رضى الله عنه ، ولذا قيل :

وكم فاتحٍ أبواب شرٍّ لنفسه　　إذا لم يكن قُفْلٌ على فيه مُقْفَلُ

وقيل : الصمت منام اللسان ، والتكلم يقظته ، والمرء مخبوء تحت طيّ لسانه .

والحميد : فعيل بمعنى مفعول ، أى المحمود حالا ومآلا ؛ صفة الصمت

والكريم « بالجر » : صفة لمولاك ، وهو من صفات الله تعالى وأسمائه ، ومعناه : الكثير الخير . وقيل : الجواد ، وقيل : المعطى الذى لا ينفد عطاؤه ، وقيل هو الجامع لأنواع الخير والفضائل والشرف ، وقيل : حميد الفعال . وقيل: العظيم . وقيل : المنزه عما لا يليق ، وقيل : الفضول . وقيل : الصفوح عن الزلات ، هذا ما قيل فى تفسير اسمه .

قال بعضهم : الكرم إذا وصف به الله تعالى ، فهو اسم لإحسانه وإنعامه ، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التى تظهر منه ؛ ولا يقال له : كريم حتى يظهر منه ذلك . ا هـ .

وجل : ماض معناه عظم ، وألفه لإطلاق القافية ، وفاعله ضمير عائد على مولاك .

وما جرى مجرى ذكر الله هو ما يبينه آية : « لا خيرَ فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » .

وقد استثنى العلماء ، رضى الله عنهم ، من الصمت المأمور به أربعة أنواع :

العلم وجميع القربات ، والـكلام مع الضيف والعروس والمسافر .

وأما ما تدعو الحاجة إليه من قوله : قم وكل ونحو ذلك فإنه خارج عن هذا ، وقد بينه الناظم بقوله : « مما تنتفع » ، أى وهو ، أى ما جرى مجرى الذكر الذى تنتفع به ، أى يعود نفعه عليك فى يوم هائل ، أى مفزع مخوف ، وهو يوم القيامة .

« وترتفع » : أى به ، فمتعلقه محذوف ، وفاعله ضمير المخاطب لـكن على حذف مضاف ، أى درجاتك ، واللام فى اليوم للظرفية ، بمعنى « فى » على حد قوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » أى فيه . وقوله : « والذينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا » أى فيما قالوا .

ويحصد : مضارع حصد من الحصد ، وهو القطع بالمنجل . استعير هنا لما يتكلم به اللسان من الـكلام الذى لاخير فيه . ومنه حصائد الألسنة ، أى ما قالته واقتطعته من الـكلام الذى لاخير فيه ، واحدتها حصيدة تشبيهاً بما يحصد من الزرع إذا جز ، وتشبيهاً للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذى يحصد به ، ومن هذا المعنى قولهم : من زرع الشر حصد الندامة .

واللسان (بالـكسر) : آلة القول ، جمعه ألسنة وألسن ولسن كأحمرة وأدرع وكتب .

ويوم الجزاء : يوم القيامة سمى بذلك لأن فيه تقع المجازاة أى المـكافأة بالخير والشر . قال تعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم » . وقال : « من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولانصيراً » . وقال : « وجزاء سَيِّئةٍ سَيِّئَةٌ مثلها »وقال : « وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ».

وقال : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » وقال : « ولا تجزون إلا بما كنتم تعملون » .

لطيفة :

من ملح الأشعار ما أنشده بعضهم فى مدح الصمت ، على نهج « اللغز » وذلك قوله :

أشارتْ إلى بُكْمٍ بِكُمٍّ بِكَمْ ؟ بِكُمُ ما بِكُمُ ما بالكم زاعمي البَكَمْ
فقالوا جميعاً : ما بنا من بكامةٍ ولكننا ذقنا السلامة فى البكمْ

فالأول بضم الباء وسكون الكاف جمع أبكم . والمراد بهم مظهرو البكم لا أنهم بكم حقيقة . والثانى بكسر الباء وضم الكاف وتشديد الميم ، والمراد به كم الثوب . والثالث كالثانى إلا أنه مخفف الميم ، وهو على حذف همزة الاستفهام . والرابع بفتح الباء والكاف وهو عدم الكلام .

والمعنى أن هذه المحدث عنها أشارت إلى جماعة مظهرين أنهم بكم بكمها ، تسألهم ما لكم لاتتكلمون هل بكم من بكم منعكم من الكلام فكأنهم أشاروا إليها ما بنا من بكم فأجابتهم بقولها : بكم ما بكم ، أى لا محالة أنه قد ثبت لكم شىء فكأنهم أشاروا إليها بأن لاشىء فأشارت إليهم فما بالكم زاعمين البكامة ، وهى لم تثبت لكم ، فأجابوها بقولهم : مابنا .. إلخ . ومعناه أننا ماتبكمنا إلا لأننا ماوجدنا السلامة إلا فى البكم ، وهو ظاهر .

فوائد :

الأولى : قال بعض الحكماء : فى الصمت سبعة آلاف خير ؛ وقد جمع

ذلك فى سبع كلمات فى كل كلمة ألف خير وهى : حصن من غير حائط ، زينة من غير حلى ، راحة الكرام الكاتبين ، هيبة من غير سلطان ، ستر للعيوب ، عبادة من غير عناء ، الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد .

وقد أشار إليها العلامة المحقق سيدى محمد ميارة رحمه الله ، بقوله :

وفى الصمت حصن ثم زينة راحة كذا هيبة ستر ، عبادة ، واستغنا

وفى كلها ألف من الخير فاعلمن فتبلغ سبعاً من ألوف ولا عنا

قال : وأشرت بقولى : « ولا عنا » إلى أن الصمت الجامع لهذا الخير كله ، لا مشقة فيه ولا كلفة ، ويقرأ زينة وعبادة فى كلامه بغير تنوين للوزن .

الثانية : قال سهل بن عبد الله التسترى ، رضى الله عنه : صار الأبدال أبدالاً بالصمت ، والعزلة ، وقلة الطعام . وزاد بعضهم عليها : السهر فى طاعة الله وعبادته .

قال أبو على اليوسى فى « قانونه » مانصه : فقد قيل أعداؤك أربعة : الدنيا ، وسلاحها لقاء الخلق ، وسجنها العزلة ؛ والنفس وسلاحها النوم ، وسجنها السهر ؛ والشيطان وسلاحه الشبع ، وسجنه الجوع ؛ والهوى وسلاحه الكلام ، وسجنه الصمت . وهذه الأربعة أعنى : العزلة ، والصمت ، والجوع ، والسهر ، بها صار الأبدال أبدالا .

ولبعضهم :

إنى بليت بأربع ما سلطوا إلا لعظم رزيتى وشقائى

إبليس والدنيا ونفسى والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائى ؟

إبليس يسلك بى سبيل مهالك والنفس تأمرنى بكل بلاء
وزخارف الدنيا تقول : أما ترى فخرى وحسن ملابسى وبهائى ؟
وجنودهم حطوا بسور مدينتى ياعُدّتى فى شدتى ورخائى
خلِّصْ عبيدك رحمة وتفضلا أنت المرجى لبغيتى ومنائى

وأشار سيدنا العم ، شيخ الجماعة ، رحمه الله ، إلى عجز كلام اليومى

صاروا من الأبدال حقًا بالسهر والجوع والعزلة والصمت الأغر

ومعنى الأبدال أنهم أبدلوا من الأقوال والأخلاق الذميمة أفعالا حميدة كالجهل بالعلم ، والشح بالجود ، والشراهة بالعفة ، والطيش بالتؤدة .

وعن الحسن البصرى قال : لن تخلو الأرض من سبعين صديقًا ، وهم الأبدال ، لايهلك منهم رجل إلا أخلف الله مكانه مثله ، (أخرجه ابن عساكر ورويت فى ذلك أحاديث) .

الثالثة : عن ذى النون المصرى ، رضى الله عنه قال : بينما أنا أسير فى نواحى الشام إذ وقفت على روضة خضراء ، وفى وسطها شاب قائم يصلى تحت شجرة تفاح ، فتقدمت إليه وسلمت عليه ، فلم يرد على السلام فسلمت عليه ثانيًا فأوجز فى صلاته ، ثم كتب فى الأرض بإصبعه :

منع اللسان من الكلام لأنه هدف البلاء وجالب الآفات
فإذا نطقت فكن لربك ذاكرًا لاتنسه واحمده فى الحالات

قال ذو النون فبكيت طويلا ، وكتبت بإصبعى فى الأرض :

وما من كاتب إلا سيبلى ويفنى الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شىء يسرك فى القيامة أن تراه

قال : فصاح الشاب صيحة فارق الدنيا فيها ، فقمت لآخذ فى غسله وكفنه ، وإذا بقائل يقول : خلِّ عنه فإن الله عزوجل وعد أن لا يتولى أمره إلا الملائكة. قال ذو النون : فقمت إلى شجرة فركعت عندها ركعتين ؛ ثم أتيت الموضع الذى مات فيه فلم أجد له أثرا ولا عرفت له خبراً . ا هـ

الرابعة : عن عبد الله بن المبارك رضى الله عنه قال : خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه عليه السلام ؛ فبينما أنا فى بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق فتميزت ذلك ، فاذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف ، فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت : « سلام قولا من رب رحيم » . قال فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين فى هذا المكان ؟ قالت : « ومن يضلل الله فلا هادى له » فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها : أين تريدين ؟ قالت : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . فعلمت أنها قد قضت حجها ، وهى تريد بيت المقدس ، فقلت لها : أنت منذ كم فى هذا الموضع ؟ قالت : ثلاث ليال سويا » فقلت : ما أرى معك طعاماً تأكلين ؟ قالت : « هو يطعمنى ويسقين » . فقلت : بأى شىء تتوضئين ؟ قالت : « فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » . فقلت لها : إن معى طعاماً فهل لك فى الأكل ؟ قالت : « ثم أتموا الصيام إلى الليل » . فقلت : ليس هذا شهر رمضان. قالت : « ومن تطوع خيراً فهو خير له ، إن الله شاكر

عليم » . فقلت : قد أبيح لنا الإفطار فى السفر . قالت : « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » . فقلت : لم لا تكلمينى مثل ما أكلمك ؟ قالت : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . فقلت : فمن أى الناس أنت ؟ قالت : « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . فقلت : قد أخطأت فاجعلينى فى حل . قالت : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » . فقلت : فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة؟ قالت : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » قال : فأنخت ناقتى ، قالت : « قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم » . فغضضت بصرى عنها وقلت لها اركبى ؛ فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . فقلت لها : أصبرى حتى أعقلها . قالت : « ففهمْناها سليمان » ، فعقلت الناقة وقلت لها : اركبى. فلما ركبت قالت : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ؛ وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . قال : فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت : « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك » . فجعلت أمشى رويداً رويدا وأترنم بالشعر ، فقالت « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » . فقلت لها : لقد أوتيت خيراً كثيراً . قالت : « وما يذكر إلا أولوا الألباب » ؛ فلما مشيت بها قليلا قلت ألك زوج ؟ قالت : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافله ، وقلت لها : هذه القافلة فمن لك فيها ؟ فقالت : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . فعلمت أن لها أولادا . فقلت : وما شأنهم فى الحاج ؟ قالت : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » . فعلمت أنهم أدلاء الركب ، فقصدت بها القباب والعمارات ، فقلت : هذه القباب فمن لك فيها ؟ قالت « واتخذ الله إبراهيم خليلا » ، « وكلم الله موسى تكليما » ، « يا يحيى

خذ الكتاب بقوة » . فناديت يا إبراهيم ياموسى يايحيى ، فإذا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقربهم الجلوس . قالت : « فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه » فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدى ، فقالت : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية » فقلت : الآن طعامكم على حرام حتى تخبرونى بأمرها . فقالوا: هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن ، مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن ، فسبحان القادر على ما يشاء . فقلت : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

الخامسة : من كلام يمن بن رزق، رحمه الله ، كما « المدخل »: إذا سافرت فالتزم فى الطريق مع أهل الرفقة الصمت ، ولا تتكلم معهم إلا جوابا بيسير من القول ، لفظة أو نحوها ، فإن سئلت : من أين ؟ فقل :من أرض الله . فإن قيل لك : ماشغلك ؟ فقل : مبتغ فضل الله . فإن قيل لك : ما اسمك ؟ فقل : عبد الله ، فإن تصاممت لهم فحسن . وإذا دخلت بلدا فلا تصحب فيه أحدا صحبة توجب عليك حقاً ، وأحسم التعارف ألبتة ، وافتقر إلى الله فى حوائجك ، فإنه لا يضيعك إن شاء الله تعالى ؛ فإنه ليس زمان صحبة ولا مصادقة ، وإنما هو زمان الوحشة والغربة والفرار من الناس ، مبلغ الوسع .

السادسة : عن أبى بكر بن عياش ، قال : أربعة من الملوك تكلم كل واحد منهم بكلمة كأنها رمية من قوس واحدة .

قال كسرى : لا أندم على مالم أقل وقد ندمت على ماقلت .

وقال ملك الصين : مالم أتكلم بكلمة فأنا أملكها ، فإذا تكلمت بها ملكتنى .

وقال قيصر ملك الروم : أنا على رد مالم أقل ، أقدر منى على رد ما قلت .

وقال ملك الهند : العجب ممن يتكلم بكلمة إن رفعت ضرته ، وإن لم ترتفع لا تنفعه . اهـ

وكان يقال : أدنى نفع الصمت : السلامة . وأدنى ضرر النطق : الندامة .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : دع من الكلام ماتعتذر منه ، وتكلم بما شئت .

ويرحم الله القائل .

الحلم زينٌ والسكوت سلامةٌ   فإذا نطقت فلا تكن مكثاراً
ما إن ندمت على سكوتى مرة   ولقد ندمت على الكلام مراراً

السابعة : ورد أن لقمان عليه السلام ، قال لابنه : يابنى لو كان الكلام من فضة كان السكوت من ذهب . وقيل : هو من قول سليمان عليه السلام .

ومعناه : كما قال ابن المبارك : لو كان الكلام فى طاعة الله من فضة ، كان السكوت عن معصية الله من ذهب .

وما أحسن القائل :

إذا ما اضطررت إلى كلمة   فدعها ، وباب السكوت اقصد
فلو كان نطقك من فضة   لكان سكوتك من عسجد

وقال الآخر :

قالوا : سكوتك حرمان، فقلت لهم : ما قـدر الله يأتيني بلا نصب
ولو يكون كلامى حين أنشرُهُ من اللُّجَيْن لكان الصمت من ذهب

الثامنة : قال بعض الحكماء لمن أكثر الكلام بين يديه : ياهذا أنصف أذنيك من لسانك ؛ فإن الله ماخلق لك أذنين ولساناً واحداً ، إلا لتسمع ضعف ما تتكلم .

وعن الأصمعى أنه قال : بلغنى أن رجلا قال لآخر : لئن قلت لى واحدة لتسمعن عشراً . قال : لكنك لو قلت عشراً لم تسمع واحدة .

وأنشد أبو بكر بن خلف :

إذا نطق السَّفِيه فلا تجبهُ فخير من إجابته السكوت
سكتُّ عن السفيه فظن أنى عييت عن الجواب وما عييت
ولكنى اكتسيت بثوب حِلم وجنبت السفاهة ما بقيت

وشتم رجل الأحنف بن قيس فسكت عنه ، فأعاد عليه وألح ، والأحنف ساكت ؛ فقال الرجل : وا لهفاه ! ما يمنعه من جوابى إلا هوانى عليه .

ونقل البيهقى عن ذى النون المصرى ، أنه قال : العز الذى لاذل فيه ، سكوتك عن السفيه ، عطب السفيه ، بيده وفيه .

وفيه أنشد الأصمعى :

وما شىءٌ أحبُّ إلى لئيمٍ إذا شتم الكريم من الجواب
متاركة اللئيم بِلا جوابٍ أشد على اللئيم من السِّباب

ومن ثم قال الأعمش : جواب الأحمق السكوت ، والتغافل يطفىء شر الشرير ، ورضى المتجنى غاية لاتدرك ، والاستعطاف عون الظفر . اهـ .

التاسعة : اعلم أن الإنسان ؛ إما أن يتكلم أو يسكت ، فإن تكلم فإما بخير فهو ربح ، أو شر فهو خسران . وإن سكت فإما عن شر فربح ، وإما عن خير فخسران ، فله فى كلامه وسكوته ربحان ينبغى تحصيلهما ، وخسرانان ينبغى التخلص منهما .

وقال بعضهم : إن الكلام أربعة أقسام : ضرر محض ، ونفع محض ، وضرر ومنفعة ، ولا ضرر ولا منفعة . فالضرر المحض لابد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة ولا تفى المنفعة بالضرر .

وأما مالا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران ، فلا يبقى إلا القسم الرابع ، فيسقط ثلاثة أرباع الكلام ، وفيه خطر ، إذا كان يجر ما فيه إثم ، من الرياء والتصنع ونحوهما .

العاشرة : ذهب جماعة من السلف إلى تفضيل الكلام لأن نفعه متعد ، وعليه فقول الخير خير من الصمت ، والصمت خير من قول الشر .

وتكلم قبيصة بن ذؤيب عند عمر بن الخطاب ، فقال : ياقبيصة ، إنك ر حب الصدر فسيح اللسان فاحذر عثرات اللسان .

الحادية عشرة : اختلف العلماء رضى الله عنهم ، هل يكتب كل ما يتكلم به المرء حتى المباح ؟ وهو ظاهر قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » أولا يكتب إلا ما فيه ثواب وعقاب ؟ وإليه ذهب ابن عباس وغيره .

وعليه فتكون الآية مخصوصة : أى ما يلفظ من قول يترتب عليه جزاء أو عقاب .

وعلى أنه يكتب المباح فالذى يكتبه كاتب السيئات ؛ والله تعالى أعلم .

الاعتناء بحسن الخلق وما ورد فيه

ثم قال :

[وَلْتَكُ مُعْتَنِياً بحسنِ الخلقِ ... تحز رضى الحقّ بِهِ والخلق]

هذا من جملة النصح المقصود للناظم .

والمعنى: لتكن أيها العاقل معتنياً بالتخلق بالخلق الحسن والاتصاف بمقتضياته، فإنك بذلك تظفر برضى الله الذى هو أسنى هباته ، وبذلك تحوز أيضاً رضى المخلوقات أجمع ، إذ هو من كل الأسباب فى جلب رضاهم ، أنفع ، ومن رضى الله عنه، ثم خلقه ،حاز الكمال الأتم ، وظفر بالخير العظيم والإسعاد الأعم .

كيف لا ، وقد أخرج البيهقى ، عن جابر أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « من سعادة المرء حسن الخلق ، ومن شقاوته سوء الخلق » .

وأخرج الإمام أحمد والترمذى ، عن خولة بنت قيس ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن هذه الأخلاق من الله ؛ فمن أراد الله به خيراً منحه خُلُقاً حسناً ، ومن أراد به شراً منحه سيّئاً » .

وأخرج الحكيم الترمذى فى « نوادرالأصول » عن العلاء بن أبى كثير، مرسلا : « إن محاسن الأخلاق مخزونة عند الله تعالى ، فإذا أحب الله تعالى عبداً منحه خلقاً حسناً » .

وعن الفضيل رضى الله عنه ، قال : لأن يصحبنى فاجرحسن الخلق ،أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيىء الخلق ؛ لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه ، والعابد إذا ساء خلقه مقتوه .

وقد ورد فى الترغيب فى حسن الخلق والتحذير من ضده ما هو كثير .

أخرج الطبرانى وابن عدى فى« الكامل» والأصبهانى فى «ترغيبه»عن أبى

هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: ياخليلي حسِّن خلقك ولو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار، وإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشي، وأسقيه من حضرة قدسي، وأدنيه من جواري».

وأخرج البزار وأبو يعلى وابن أبي الدنيا والبيهقي، بسند حسن، عن أنس قال: لقيَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم أبا ذَرٍّ، فقال: «يا أبا ذر ألا أدُلك على خصلتين هُمَا خفيفتان على الظهر ثقيلتان في الميزان من غيرهما؟». قال: بلَى يا رَسُولَ اللهِ. قال: عليكَ بحسن الخُلقِ وطُول الصَّمْت، فوالذي نفسي بيدِه مَا تجمَّلَ الخلائق بمثلهما».

وأخرج الترمذي، وقال: حسن صحيح، عن أبي ذر ومعاذ بن جبل: أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن عون بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «منْ آتاهُ الله وَجْهاً حَسناً، واسما حسنا وخُلقاً حَسناً، وجَعلهُ في موْضِعٍ حَسَنٍ، فهُوَ مِنْ صَفْوةِ اللهِ مِنْ خَلْقهِ».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي الدرداء، رضي الله عنهُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «ليسَ شيء أثقل فِي الميزَانِ من الخُلق الحسَن».

وأخرج الترمذي عنه: «مامن شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حُسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصيام والصلاة».

وأخرج الطبراني عن معاذ بن جبل أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال: «عليك بحسن الخلق فإن أحسن الناس خُلقاً أحسنهم ديناً».

وأخرج الإمام أحمد والطبرانى والحاكم والبيهقى ، عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : « أربع إنْ كنَّ فيكَ فلا عليكَ ما فاتكَ من الدُّنيا : صِدْقُ الحديثِ ، وحفظُ الأمانةِ ، وحُسْنُ الخلقِ ، وعفةُ مَطعَم » .

وأخرج الخرائطى فى « مكارم الأخلاق » عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة ، كما تذيب الشمس الجليد » .

وأخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى ، عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « خياركم أحاسنكم أخلاقا » . زاد فى رواية عن ابن عباس : « الموطئون أكنافا ؛ وشراركم الثرثارون » ؛ أى الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتشدقاً .

وأخرج الترمذى والحاكم عن عائشة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وألطفهم بأهله » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاث من كن فيه كن له : من صدق لسانه زكا عمله ، ومن حسنت نيته زيد فى رزقه ، ومن حسن بره لأهل بيته زيد فى عمره » ، ثم قال : « وحسن الخلق ، وكف الأذى ، يزيدان فى الرزق » .

وورد أيضاً « إن الخلق الحسن يزيد فى العمر » .

وفى حديث الإمام أحمد والبزار ، عن أبى هريرة مرفوعا : « خياركم أطولكم أعماراً ، وأحسنكم أخلاقا » .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، فقال : « تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الفم والفرج » .

وعن الحسن أنه قال : « من أعطى حسن صورة ، وخلقاً حسناً ، وزوجة صالحة فقد أعطى خيرى الدنيا والآخرة » .

وعن ابن عباس قال موسى عليه السلام : يارب أمهلت فرعون أربعمائة سنة، وهو يقول : « أنا ربكم الأعلى »، ويكذب بآياتك ورسلك، فقال: « إنه كان حسن الخلق ، سهل الحجاب ، فأحببت أن أكافئه ».

وقال عليه الصلاة والسلام : « حسن الخلق زمام من رحمة الله فى أنف صاحبه ، والزمام بيد الملك ، والملك يجره إلى الخير ، والخير يجره إلى الجنة ، وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى فى أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان ، والشيطان يجره إلى الشر ، والشر يجره إلى النار » .

وعن إبراهيم بن عباس قال : لو وزنت كلمةُ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمحاسن الناس لرجحت ، وهى قوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوالِكُمْ فَسَعُوهُمْ بِأَخْلاقِكُمْ » . وفى رواية : « فَسَعُوهُمْ بِبَسْطِ الوَجْهِ والخُلُقِ الحَسَنِ » .

وقال بعض السلف : الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب ، والسيىء الخلق أجنبى عند أهله .

وقال بعضهم : أبى الله لسيىء الخلق التوبة ، لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل فى ذنب آخر ، لسوء خلقه .

وعن الحسن البصرى : من كثر كلامه كثر سَقَطُه ، ومن كثر ماله كثر إثمه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه .

وفى الحديث : « خَصْلَتَانِ لا يَكُونَانِ فى مُؤْمِنٍ : سُوءُ الخُلُقِ ، والبُخْلُ » .

وقيل لذى النون المصرى : من أكثر الناس هما ؟ قال : أسوأهم خلقا .

قول الناظم : « ولتك معنيا » . . إلخ : هو مضارع كان الناقصة قرن

بلام الأمر فهو مجزوم بالسكون على النون ، ولذلك حذفت منه لام الكلمة دفعا لالتقاء الساكنين ، ثم حذفت النون تخفيفا .

وَمِنْ مُضارعٍ لِكانَ مُنْجَزِمِ تُحْذَفُ نونٌ وهو حَذْفُ ماالتُزِمِ

« ومعنيا » : خبره ، وأصله مَعْنُويًا اسم فاعل عنى فلان بحاجته مبنى المفعول أى اعتنى بها ، وهذه هى اللغة المشهورة فيه ، وعليها اقتصر ثعلب فى « فصيحه » ووافقه الجوهرى وغيره .

ويقال فيه أيضا : عنى كرضى ، وهو قليل عناية فهو بهاء عَنٍ» منقوص . قاله ابن الأعرابى . وفى الصحاح : هو بها معنى على مفعول أى ممتن ، فاجتمعت فيه الواو والياء ، وسبقت الواو بالسكون فوجب قلبها ياء ، وإدغامها فى الياء لقول ابن مالك : إنْ يسكن السابق . . . إلخ وقلبت الضمة كسرة لمناسبة الياء ، والله أعلم .

بحسن الخلق : هو من إضافة الصفة إلى الموصوف متعلق بمحذوف ، أى بالتخلق بالخلق الحسن ، لأن الخلق الحسن ، وإن كان جِبِلِّيًّا ، لكن فى بعض الأحاديث المتقدمة رمز إلى أنه يمكن اكتسابه ، وإلا لم يكن للأمر به فائدة .

وكما ورد أيضا : « يا مُعَاذُ حَسِّنْ خُلُقَكَ مَعَ النَّاسِ » أى عاملهم بطلاقة وجه ، وجبر الخواطر ، وكف الأذى ، فإن ذلك مؤد لاجتماع القلوب وانتظام الأحوال ؛ وهو جماع الخير وملاك الأمر .

وتحز : مضارع حاز مجزوم فى جواب الطلب ، وحذفت منه لام الكلمة دفعاً لالتقاء الساكنين من الحوز : وهو الجمع والضم .

ورضى الحق . تأمينه إياه من سخطه ، وإحلاله إياه دار كرامته .

قال فى « المنح » : رَضِىَ اللهِ تعالى عن العبدِ تأمينه من سخطه وإحلاله

دار كرامته . ورضى العبد عنه أن لا يختلج فى سره أدنى حزازة من وقوع قضاء من أقضية الله ، بل يجد لذلك فى قلبه برد اليقين وثلج الصدر ، وشهود المصلحة العظمى وزيادة الطمأنينة . اهـ .

والباء فى « به » سببية كما لا يخفى .

والخلق مصدر خلق مرادا به اسم المفعول أى المخلوق؛ أى أن الخلق الحسن سبب فى حيازة رضى الله ورضى مخلوقاته ، ورضى المخلوقات محبتهم له وإقبالهم عليه ، وشهود كل ما يصدر منه حسنا ، وتغافلهم عن معايبه ، وكل ذلك مشاهد .

ثم إن الخلق بضمتين ويسكن ثانيه تخفيفا كما فى النظم : وهو السجية التى طبع المرء عليها . وقد عرفوه بأنه مَلَكة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير فكر وروية ، فخرج بالملكة كل عارض غير قارّ من الأحوال ، وبصدوره عن النفس ما يصدر عن الجوارح كالكتابة وغيرها من الصنائع ، وبقيد السهولة ما كان بصعوبة كالصبر على بعض النوائب ، وكذا ما صدر بفكر فكله لا يسمى خلقا .

والخلق الحسن : ملكة نفسانية تحمل صاحبها على جميل .

وقال ابن حجر الهيثمى ، فى شرح « الشمائل » : ملكة نفسانية ينشأ عنها جميل الأفعال وكمال الأحوال .

وقال أيضاً فى شرح « الهمزية » ما نصه : وقد عرف الخلق الحسن بأنه ملكة يسهل على ذويها فعل الجميل وتجنب القبيح .

وعن عبد الله بن المبارك : الخلقُ الحسنُ : بسط الوجه وبذل المعروف وكف الأذى .

وسئل سلام بن مطيع عن حسن الخلق فأنشأ يقول :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا صافح رجلا لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع ، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذى يصرف ، ولم ير مقدما ركبتيه بين جليس قط .

وقال أنس أيضا : والذى بعثه بالحق نبيا ماقال لى فى شىء قط كرهه : لم فعلته ؟ ولا فى شىء لم أفعله : لم لا فعلته ؟ ولا لامنى أحد من أهله إلا قال : دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر .

وقد أثنى الله عليه بقوله : « وإنكَ لعلىَ خلق عَظيم » . وسئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن يغضب لغضبه ويرضى لرضاه .

وفى « المفهم » : الخلق ، أى من حيث هو أوصاف الإنسان التى يعامل بها غيره ، وهى محمودة ومذمومة ؛ فالمحمودة إجمالا : أن تكون مع غيرك على نفسك فتنصف منها ، ولا تنتصف لها ، وتفصيلا : العفو ، والحلم ، والجود ، والصبر ، والرحمة ، ولين الجانب ، وتحمل الأذى .

وقد قال مجاهد فى تفسير قوله تعالى : « وإذا مروا باللغو مروا كراما » أنهم إذا أوذوا صفحوا .

وقال الإمام أبو عبد الله المسناوى : الخلق الحسن « شرعا » : هو التحلى بالفضائل والتنزه عن الرذائل ، لا ما يعتقده العوام من أنه مساعفة الناس ومجيئه على ريحهم لأن هذا ربما كان مذموما . قال تعالى : « وإن تطعْ أكثر من فى الأرض يضلوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ » ا . هـ

ومثله للعلامة ابن ذكرى فى « حاشية البخارى » ونصه : حسن الخلق، « شرعا » : اكتساب الفضائل واجتناب الرذائل .

فوائد :

الأولى : أصول مكارم الأخلاق ثلاثة أشار لها تعالى فى قوله : « خذِ العفو وأمر بالعرف ، وأعرضْ عن الجاهلين » .

قال مجاهد : يعنى خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس ، وذلك فى مثل قبول الاعتذار منهم ، وترك البحث عن الأشياء .

والعفو : التساهل فى كل شىء . قاله الخازن .

قال النسفى : «خذ العفو»: هو ضد الجهد ، أى ماعفالك من أخلاق الناس، وأفعالهم ولا يتطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله عليه السلام: «يسروا ولا تعسروا» . « وأمر بالعرف »: بالمعروف والجميل من الأفعال أو هو كل خصلة يرتضيها العقل ويقبلها الشرع . « وأعرض عن الجاهلين » . ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ولا تماريهم واحلم عليهم .

وعن عبدالله بن الزبير قال : مانزلت : « خذ العفو وأمر بالعرف » إلا فى أخلاق الناس .

وعن عكرمة : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم لجبريل : « ماهذا ؟ قال : لا أدرى حتى أسأل ، ثم رجع ، فقال : إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك » . ذكره البغوى بغير سند .

وعن جعفر الصادق : رضى الله عنه قال : أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق ، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه .

وَعن عائشة ، رضى الله عنها قالت : « لم يكن رسول الله صلى الله عليه وَسلم فاحشا ولا متفحشا وَلا سخابًا فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » . أخرجه الترمذى .

وروى البغوى بسنده عن جابر ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم « إن الله بعثنى لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال » . ا هـ .

وإلى التفسير المذكور فى الآية عن رب العزة ، أشار بعضهم بقوله :

مكارم الأخلاق فى ثلاثة من كملت فيه فذلك الفتى
إعطاء من يحرمه ، ووصل من يقطعه ، والعفو عمن اعتدى

وفى الزواجر : أن بعض الأئمة جمع علامات حسن الخلق ، فقال : إن يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، صدوق اللسان ، قليل الكلام ، كثير العمل ، قليل الفضول ، قليل الزلل ، وهو بر وصول ، وقور صبور ، رضى شكور ، حليم رصين ، عفيف شفيق ، لا لماز ، ولا سباب ، ولا نمام ، ولا مغتاب ، ولا عجول ، ولا حقود ، ولا بخيل ، ولا حسود ، هشاش بشاش ، يحب فى الله ، ويبغض فى الله ؛ فهذا هو حسن الخلق . ا هـ .

الثانية : عن مولاتنا عائشة رضى الله عنها ، قالت : مكارم الأخلاق عشرة تكون فى الأب ولا تكون فى ابنه ، وتكون فى الابن ولا تكون فى الأب ، وتكون فى العبد ولا تكون فى السيد ، يعطيها الله لمن أراد سعادته ، وهى : صدق الحديث ، وصدق البأس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع ، وحفظ الأمانة ، وصلة الرحم ، والتذمم للجار ، والتذمم للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء . ا هـ

وفى رواية : صدق الحديث ، وصدق اللسان ، وأداء ، الأمانة وصلة الرحم والمكافأة بالصنيع ، وبذل المعروف ، وحفظ الذمام للجار ، وحفظ الذمام للصاحب ، وقرى الضيف ؛ ورأسهن الحياء .

ومعنى صدق البأس الصدق فى مقابلة العدو . ومعنى التذمم أن يحفظ ذمامه أى حرمته وحقه ، ويطرح عن نفسه ذم الناس .

وقد نظم مكارم الأخلاق المذكورة سيدنا الوالد ، حفظه الله ، بقوله :

مكارم الأخلاق جاءت عشرة وهى السعادة لمن تخيره
صدق الحديث ثم صدق الباس إعطاء سائل بلا قياس
كذا المكافأة بالصنائع صلة الأرحام ، حفظ الودائع
تذمم لجار أو لصاحب وقرى ضيف ، وحياء ، اجتبى

وقد جمعتها أيضاً قبل وقوفى على نظم الوالد المذكور ، فقلت :

مكارم الأخلاق فاعلم عشرة جاء عن أم المؤمنين البررة
يمنحها الله لمن به أراد سعادة ، فحبذاك من مراد
صدق الحديث ثم صدق الباس وبذل معروف بلا التباس
كذا المكافأة على الصنيع وصلة الرحم خذ صنيع
حفظ ذمام الجار والصديق رد الأمانة على التحقيق
كذا قرى الضيف ورأسها أتى هو الحياء فاحفظن ماثبتا

الثالثة : لما ضرب ابن ملجم ، ألجمه الله بلجام من النار ، مولانا عليا ، كرم الله وجهه ، قال لسيدنا الحسن ، وقد دخل عليه باكياً : يابنى احفظ عنى أربعاً وأربعاً : قال وما هى يا أبت ؟ قال: إن أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحمق ،

وأوحش الوحشة العجب ، وأكرم الكرم حسن الخلق . قال: فالأربع الأخر؟ قال : إياك ومصاحبة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة الكذاب ، فإنه يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب ، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يخذلك فى ماله ، أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه .

تنبيهات :

الأول : قال الغزالى ، رحمه الله : ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله ، فعند ذلك يتم إيمانه ويطيع ربه ويعصى عدوه إبليس . اهـ .

وقال ابن عطاء الله : لا تكون ممدوحاً بحسن الخلق حتى تكون قائماً بحقوق الله ، قائماً بأحكام الله مستمسكاً بأوامر الله ، مجتنباً لنواهيه ، فمن منع نفسه معاصى الله وأدى حقوق الله فقد حسن خلقه . اهـ .

الثانى : فى « تنوير الحلك » والزرقانى ، نقلا عن الباجى على حديث : « وخالق الناس بخلق حسن » مانصه : لفظ الناس وإن كان عاما ، إلا أنه أراد بذلك من يستحق تحسين الخلق ؛ فأما أهل الكفر والإصرار على الكبائر والتمادى على ظلم الناس ، فلا يؤمر بتحسين الخلق لهم ، بل يؤمر بأن يغلظ عليهم . اهـ .

ومثله للشبرخيتى فى « شرح الأربعين النووية » . ولا معارضة بينه وبين ماتقدم من الحديث القدسى ، وهو قوله تعالى خطاباً لإبراهيم عليه السلام : « ياخليلى حسِّن خلقك ولو مع الكفار » . . إلخ ، لحمله على ما إذا كان فى ذلك تأليفهم للإسلام ، والله أعلم .

الثالث : تقدم فى حديث الطبرانى ، عن أبى هريرة : أن صاحب الخلق الحسن يظل فى عرش الله يوم لاظل إلا ظله . وقد جاء فى الأحاديث : خلال كثيرة يثبت بها ذلك ، أنهاها جلال الدين السيوطى رحمه الله ، إلى نيف وسبعين . وأنهاها الحافظ السخاوى إلى اثنين وتسعين ، وأفردها بجزء .

وقد نظم الإمام أبو شامة حديث الصحيح : « سبعة يُظلُّهُم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل ؛ وشاب نشأ فى عبادة الله ؛ ورجل قلبه مُتعلِّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ؛ ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ؛ وَرجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ؛ ورجل دعته ذات حسب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه ، بقوله :

وقال النبىُّ المصطفى : إن سبعة   يظلهمُ اللهُ العظيمُ بظلهِ
محبٌّ عفيفٌ ناشىءٌ متصدِّقٌ   وباكٍ مصلٍّ والإمامُ بعدله

وذيل هذين البيتين الحافظ ابن حجر ، رحمه الله ، بزيادة إحدى وعشرين خصلة فقال :

وزد سبعة أظلال : غاز وعونه   وإنظار ذى عسر وتخفيف حِمْلِهِ
وحامى غزاة حين ولَّوا ، وعونُ ذى   غرامة حقٍّ مع مكاتب أهله
وزد مع ضعيف سبعتين : إعانةً   لأخرق مع أخذ لحقٍّ وبذله
وكره وضوء ، ثم مشى لمسجد   وتحسين خلق ، ثم مطعم فضله
وكافلُ ذى يتم ، وأرملة وَهتْ   وتاجرُ صدق فى المقالِ وفعْلهِ
وحُزن وتصبير ونُصح ورأفة   فربعْ بها السبعاتِ من فَيض فضله

وذيل الأبيات الإمام الزرقانى ، شارح الموطأ ، بما نص المراد منه :

وحث على ، ثم ترك لرشوة زنا وربا ، حكم لغير كمثله
ومن أول الأنعام آى ثلاثة عقيب صلاة الصبح غاية نقله
مراقب شمس المواقيت ساكت بحلم ، وعن علم يقول ، وعقله
ومن حفظ القرآن حالة صغره وفى كبر يتلو ، وحامل كله
مريض ، وتشييع لميت ، عيادة شهيد ومن فى أحد فاز بقتله
وعلم بأن الله معه ، وتاجر أمين بلا مدح وذم لرحله
ومن لم يمد اليد نحو محرم عليه ، ولم ينظر إلى غير حله
محسن طعم للفقير ، مصدق على معسر ، ترك الغريم لعسره
وكافلة أيتامها بعد زوجها ومشبع جوع ثم واصل أهله
محب الأناسى للجلال ، مؤذن ومن لم يخف فى الله لوماً لعدله
كذا رحم ثم الأمانة بعدها خيار ذوى التوحيد طيب فعله
مفرج كرب ثم مخفى لسنة مصل على الهادى كثيرا بأجله
قرآن وأهل الجوع خوفاً ، وصائم ثلاثاً وعشراً من رجب بحوله
ومن يقرأ الإخلاص من بعد مغرب ثلاثين فى ثنتين من بعد فعله
وأطفال ذى الإيمان نجل نبينا وغير حسود لا يعق لأصله
وطاهر قلب ليس يمشى نميمة برىء ومكلوف بحب لربه
منيب ومذكور بذكر إلهه لحرمته ، غضبان داع لسبله
ومستغفر الأسحار ، عمار مسجد كذلك صوام ، معلم طفله
ومن يذكر الرحمن مع ذكرهم له كذا أنبياء الله مع أهل صفوه

خليلُ إلهِ العرش فاطمةٌ كذا   عليٌّ ، و نجلاهُ وخاتمُ رُسلهِ
عليه صلاة معْ سلام به قرى   بحرمتهِ يومَ القيام بظلهِ

وقد نظم والدنا العلامة حفظه الله وأدام النفع به ، جملة وافرة منهم في منظومة جليلة ، وقد كنت وضعت عليها شرحا ، نفع الله بالجميع ، بجاه النبي الشفيع .

الرابع : تقدم حديث أنس أنه عليه السلام ، قال لأبي ذر : « ألا أدُلكَ على خصلتين هُما خفيفتانِ علىَ الظهرِ ثقيلتان في الميزان . قال: عليك بحسنْ الخلق وطول الصمت » . الحديث .

وحديث : « ليسَ شيء أثقلَ في الميزان مِنَ الخلق الحسن ، فهو أعني الخلق الحسن وطول الصمتِ مِنْ مُثقلاتِ الميزان » .

ومن مثقلاته أيضا : الصلاةُ علىَ النبيّ صلى الله عليهِ وَسلمَ :

أخرج ابن أبي الدنيا والنميري في كتابه « الإعلام » بفضل الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام » عن عبد الله بن عمرو قال : إن لآدم عليه السلام من الله عز وجل ، موقفا في فسيح من العرش ، عليه ثوبان أخضران كأنه نخلة سحوق ينظر إلى من ينطلق به من ولده إلى الجنة ، ومن ينطلق به إلى النار ، فبينما آدم على ذلك إذ نظر إلى رجل من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ينطلق به إلى النار فينادي آدم : يا أحمد .. يا أحمد ، فيقول : لبيك يا أبا البشر ، فيقول : هذا رجل من أمتك مُنطلق به إلى النار . قال عليه السلام : فأشد مئزري ، وأهرع في إثر الملائكة ، وأقول : يارُسل ربي قفوا ، فيقولون: نحن الغلاظ الشدائد لا نعصي الله ما أمرنا ، ونفعل ما نؤمر ، فأستقبل العرش بوجهي ، وأنا قابض على لحيتي ، فأقول : يارب أليس قد وعدتني أن لا

تخزيني في أمتي فيأتي النداء من قبل العرش : أطيعوا محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، وردوا هذا العبد إلى المقام ، فأخرج من حجزتي بطاقة بيضاء مثل الأنملة ، فألقيها في كفة الميزان اليمنى ، وأنا أقول : بسم الله ، فترجح الحسنات على السيئات ، فينادي مناد : سعد وسعد جده وثقلت موازينه ، انطلقوا به إلى الجنة ، فيقول العبد : يارسل ربي قفوا حتى أسأل هذا العبد الكريم على ربي فيقول : بأبي أنت وأمي ، ما أحسن وجهك ، وأحسن خلقك ، من أنت فقد أقلت عثرتي ورحمت عبرتي ؟ فأقول : أنا نبيك محمد ، وهذه صلاتك التي كنت تصلي علي قد وفيتها لك أحوج ما كنت إليها » .

ومنها : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والفرط .

أخرج النسائي ، والحاكم وصححه ، عن أبي سلمة ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « بخ بخ لخمس ما أثقلهن في الميزان : لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمدُ لله والولدُ الصالحُ يتوفى فيحتسبهُ والداهُ » . وفي رواية : « وفرط صالح يَفرطُ للرجل » وهو أعم من الولدِ » .

ومنها : تعليم العلم .

أخرج ابن المبارك عن حماد بن أبي سليمان قال : « يجاء برجل يوم القيامة فيرى عمله محتقرا ، فبينما هو كذلك إذ جاءه مثل السحاب فيوضع في ميزانه ، فيقال : هذا ما كنت تعلم الناس من الخير ، فورث بعدك وأجرت فيه » .

ومنها : النفقة على العيال من الحلال .

أخرج الطبراني في الأوسط عن جابر مرفوعا : « أول ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله » .

ومنها : شهود الجنازة .

أخرج الطبرانى أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً : « من تبع جنازة يوضع فى ميزانه قيراطان مثل أحد » .

ومنها : الأضحية .

أخرج الأصفهانى بسند ، حسنه بعض الحفاظ ، عن على ، أن النبى ، صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة : « قومى فاشهدى أضحيتك فإن لك أول قطرة تقطر من دمها ، مغفرة من كل ذنب ، أما إنه يجاء بدمها ولحمها فتوضع فى الميزان سبعين ضعفاً » فقال أبو سعيد : يارسول الله هذا لآل محمد خاصة ، فإنهم أهل لما اختصوا به من الخير ، أو لآل محمد والمسلمين عامة ؟ قال : « لآل محمد والمسلمين عامة » .

ومنها : الاستغفار .

أخرج البيهقى بسند لا بأس به ، عن البراء بن عازب مرفوعا : « من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار » .

ومنها : الصدقة .

أخرج ابن حبان فى صحيحه ، من حديث أبى ذر مرفوعا : « تعبد راهب فى صومعة ستين سنة فنظر يوما فى غب سماء ، فقال : لو نزلت ، فإنى لا أرى أحداً ، فشربت من الماء وتوضأت ثم رجعت إلى مكانى ! فنزل فعرضت له امرأة فتكشفت له ، فلم يملك نفسه أن وقع عليها ، فدخل بعض تلك الغدران يغتسل فيه وأدركه الموت ، وهو على تلك الحال ، ومر به سائل فأومأ إليه : أن خذ الرغيف ؛ الرغيف كان فى كسائه فأخذ المسكين الرغيف ، ومات فوزن عمله ستين سنة فرجح الزنا ، فوضع الرغيف فرجح عمله ، فغفر له » .

ومنها : الوضوء .

أخرج ابن عساكر بسند ضعيف ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « من توضأ فمسح بثوب لطيف فلا بأس به ، ومن لم يفعل فهو أفضل ، لأن الوضوء يوزن يوم القيامة مع سائر الأعمال » .

ومنها : رمى الجمار .

أخرج الطبرانى عن ابن عمر ، أن رجلا سأل النبى ، صلى الله عليه وسلم ، عن رمى الجمار : مالنا فيه ؟ فقال : « تجد ذلك عند ربك أحوج ماتكون إليه » .

ومنها : التخفيف عن الخادم .

أخرج أبو يعلى وابن حبان ، عن عمرو بن حريث مرفوعاً : « ما خففت عن خادمك من عمله كان لك أجره فى موازينك » .

ومنها : رباط الخيل فى سبيل الله .

أخرج الطبرانى عن على مرفوعاً : « من ارتبط فرساً فى سبيل الله فعلفه وروثه فى ميزانه يوم القيامة » .

وقد جمع هذه المثقلات المذكورة ، سيدنا الوالد ، حفظه الله ، بقوله :

وثقل الميزان فى الأخبار يكون بالصلاة للمختار
كذاك بالتسبيح والتحميد وبالإفراط . كلم التوحيد
وبحسن الأخلاق ، جاء فى الخبر كذاك بالتكبير والصمت الأغر
تعليمك العلم ، كذاك النفقة على العيال من حلال مطلقة
جنازة ، أضحية ، واستغفار صدقة ، وضوء مع رمى الجمار
كذلك تخفيف عن خادم ، وزد رباط خيل للجهاد ، فاستفد

الخامسة : تقدم أن الخلق الحسن يزيد فى العمر .

وقد ورد فى الأحاديث خصال أخر تزيد فى العمر منها : صلة الرحم ، ومنها : الصدقة . ومنها : الدعاء ، ومنها : السلام على كل من لقيه ، ومنها : إسباغ الوضوء ، ومنها : المتابعة بين الحج والعمرة ، ومنها : حسن الجوار ، ومنها : تسريح الرأس مع اللحية ، ومنها : حسن المعاشرة مع الأهل . وقد أشار إليها والدنا العلامة ، أبقى الله وجوده ، بقوله :

هاك خصالا توجب الزيادة ‏ ‏ فى عمر كما رواه السادة
صلة أرحام ، كذاك الصدقة ‏ ‏ دعاء تسليم على من وافقه
إسباغ للوضوء ، حسن الخلق ‏ ‏ تبع بين النسكين حقق
حسن جوار ، ومعاشرة ، مع ‏ ‏ تسريح شعر لحية رأس وقع

واختلف فى المراد بهذه الزيادة ، هل حقيقتها بدليل : « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب » ؟ .

قال كعب الأحبار ، حين حضرت عمر الوفاة : والله لو دعا عمر ربه أن يؤخر أجله لأخر . فقيل له : إن الله تعالى يقول : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » قال : هذا إذا حضر الأجل ، فأما قبل ذلك ، فيجوز أن يزاد ذلك ، وقرأ هذه الآية ، أو مجازها وهو الصحيح بدليل « فإذا جاء أجلهم » الآية ، وعليه فقيل : المراد بها الذكر الجميل فكأنه بسبب ذلك لم يمت .

وقيل : الزيادة بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة واللوح المحفوظ لأن الحق المحو والإثبات فى اللوح المحفوظ .

والصحيح ، كما قال النووى : أن هذه الزيادة المراد بها البركة فى العمر ، والتوفيق للطاعات ، وصيانة الأوقات عن الضياع .

وأما قوله تعالى : « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب » فتأويله أنه يكتب فى الصحف كذا كذا سنة ، ثم يكتب فى أسفل ذلك ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتى على آخره .

قال سعيد بن جبير : مكتوب فى أم الكتاب ، عمر فلان كذا وكذا سنة، ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ، ذهب يومان ، ذهب ثلاثة أيام ، حتى ينقطع عمره ، فالأجل المقدر لا يزاد فيه ولا ينقص . فرغ ربك من أربع : من رزق وأجل وشقى وسعيد . والضمير فى قوله جل وعز : « ولا ينقص من عمره » ليس عائداً على قوله : من معمر الأول ، بل هو على طريقة عندى درهم ، ونصفه أى نصف مثله ، والله أعلم .

السادسة : تقدم أن الأفصح فى عنى لغة بناؤه للمفعول دائماً ، وهو أحد الأفعال اللازم فيها ذلك ، والمسند إليه معها يعرب فاعلا لا نائباً عن الفاعل .

وقد أنهاها جلال الدين السيوطى فى المزهر إلى سبعين فعلا ، وزيد عليه ما قل ، وقد كنت جمعت ذلك فى منظومة ضمنتها بعض إشارات لطيفة ، ثم أتبعتها بشرح مختصر .

ونص المنظومة :

يقول عبد من إليه يصمد ومن إليه فى الأمور يقصدُ
الحمدُ للواحد فى الأفعال والذات والصفات والجلال
وأفضلُ الصلاة والسلام على النبى أشرف الأنام
وبعد هاك نبذة مما لزم بناه المفعول من فعل حتم
حسبما فى مزهر السيوطى من عدد محرر مضبوط
جملته فى العد سبعون وفت وزيد بعض مفردات أوردت

وجلها فيه الخلاف واقعُ   لكتب اللغة فيه مرجعُ
جمعتها للحفظ تقريباً عسى   قارئها يدعو لعبد قد أسا
والله أستوهبه المأمولا   وأسأل الظفر والقبولا
عنيت بالشيء لتعن أمراً   أو لعت أوزعت به أن تغرى
ووثئت يد الرقيب فصلت   وزهى الألف ونوق نتجت
وأهرع الرجل ثم أغمى   غمى مع غم الهلال رؤيا
وأهل الهلال واستهل مع   سقط ثم بهت الذى خدع
وأرعدت فرائص الضلول   وضعت فى البيع أيا خليل
شدهت عندما وكست جزعا   ونخى الخلي علينا ارتفعا
شغلت عنه حيث ما أمرى شهر   ودمه طل وبطنه حصر
وهكذا وقص ثمت غبن   هزل مع نكب أيضاً يافطن
حلبت شاتك دواب رهصت   وامرأة الشيخ أراها عقمت
زكم مع اتقى ثم دير بى   مع أدير غشى الذى سبى
وبرحجنا ، فؤادنا ثلج   وإن به فالج قلت : قد فلج
أرض مع ضنك ثم وقرت   شغفت مع سررت ثم نفست
وأسهب الرجل لونه امتقع   وأعرب الرجل إذ به انقطع
نسئت المرأة ثم عنست   أشب لى كذا وشب وردت
وأعرب الفرس ثم دهشا   أعنى تحير وعذق نفشا
وسوس الشخص أمور الناس   أوكس أحصر بلا التباس
ونطع الرجل والماء دفق   وأرتج القارى سليم قد طلق

وافتلتت نفس الحريص وافتلت وأرث العدو حيث قد عنت

ودبر القوم وربح الغدير أفراسهم قد ركضت ولا نصير

وقنيت جارية أى منعت من لعب الصبيان منهم سترت

فهـذه جملة ما فى المزهر وما لدى الغير بقلة حرى

من ذاك حم المرء ثم وعك وجن من طرق الضلال سلك

فادع لمن قربها بالنظم بالسلك فى خيار أهل العلم

واختم الـكلام بالثنـاء على النبى مظهر الأنباء

ثم قال :

ما قيل فى العزلة والخلطة :

[واحرص على العزلة ما استطعت وإن تسر من دونها انقطعت]

[فخلطة الناس أخى : عقال والقيل لازم لهم والقـال]

[فدعهم ترحهم وتسترح فقل من خالطهم ثم ربح]

هذا من النصح البليغ المقصود للناظم .

والمعنى : احرص أيها العاقل على التفرد عن الخلق جهدك ، واسع فى تحصيله استطاعتك وجدك ، فإنك إن سرت إلى الله من دونها انقطعت ، وإن عولت على الوصول مع عدمها سقطت ، لأن خلطة الناس كالعقال للدواب ، يمنعها السير والذهاب ؛ لـكونها جالبة للقيل والقال ، الجالب لا محالة للخوض فى الأعراض وذميم الخلال ، فإن أردت السلامة لدينك ودنياك ، والفوز بنعمة الوصول والتنعم فى أخراك ، فدع الناس طرا ، وانفرد بنفسك ، فبذلك تحصل راحتك وراحة غيرك ، فإنه قل من خالط الناس ثم ربح بذلك ، وقل من حاول الوصول مع عدم الانفراد فظفر بما هنالك .

قال أبو على اليوسى ، رحمه الله تعالى ، فى « قانونه » ما نصه : إن معاشرة الخلق فساد وبلاء من كل وجه .

ويرحم الله القائل :

جَفَوْتُ أناساً كُنْتُ آلَفُ وَصْلَهُمْ ... وَما بِالجفَا عِنْدَ الضَّرُورَةِ مِنْ بَاسِ
فَلا تَعْذِلُونِى فِى الجَفَاءِ فإنَّنِى ... رَأَيْتُ جَمِيعَ الشَّرِّ فِى خُلْطَةِ النَّاسِ

غيره :

لِقاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئاً ... سِوَى الهَذَيانِ مِنْ قِيلٍ وَقالِ
فَأَقْلِلْ مِنْ لِقاءِ النَّاسِ إلاَّ ... لأَخْذِ العِلْمِ أو إِصْلاحِ حالِ

أى اللهم إلا من ينتفع به ، وقليل ماهم ، كمن يستفيد علما أو أدبا أو دينا ، أو وطرا من الدنيا محتاجا إليه أو يفيده شيئا من ذلك ، مع السلامة من الآفات .

وقد قالوا : الأصحاب أربعة : صاحب لدينك ، وصاحب لدنياك ، وصاحب لآخرتك ، وصاحب لتأنس به ، وخيرهم من إذا نسيت ذكَّرك ، وإن ذكرت أعانك ، وإن احتجت واساك ، وإن ضجرت آنسك ، إلى غير ذلك .

ومما ينسب لعلى كرم الله وجهه :

فَلا تَصحبْ أَخا الجهلِ فَإِياكَ وإياهُ
فَكمْ مِنْ جاهل أرْدى حليماً حِينَ واخاهُ
يُقاسُ المرْءُ بِالمرْءِ إذا ما المرْءُ ماشاهُ
ولِلشيْءِ على الشيْءِ علاماتٌ وأشباهٌ
وللقلبِ على القلبِ دَليل حِينَ يَلقاهُ

ثم قال : وقال الشاعر :

عَليكَ بِأهلِ العلمِ فَارْغبْ إليهمْ يفيدُوكَ عِلماً كىْ تَكونَ عَليمَا
وَيحسبُ كل الناسِ أنكَ مِنهم إذا كنتَ فى أهلِ الرشادِ مقيمَا
فَكل قَرين بالمقارِنِ مقتدِى وقدْ قالَ هذا ، القائلونَ قديمَا

ومن وصايا الإمام أبى محمد سيدى العربى الفشتالى رحمه الله : اعلم أن ملاقاة الناس أمر عظيم ، وخطر جسيم ، مضر للدين ، ومهيج للغضب الكمين ، ومظهر للضغائن ، وجالب لحقد الدفائن ، فدع عنك الملاحاة ، واشتغل بالقربات ، وتذكر فى الحديث الوارد فى الخلوات ، وسل من الله سبحانه التثبت على الخيرات ، وعلى المتابعات . واعلم أن صلاح الملاحاة هو الإقلال من فضول الكلام ، والإقبال على الملك العلام ، إن لم يكن سليقة فليكن استعمالا لا لرياء ولا لسمعة ، فإن تكلف ، فعسى أن يكون حالا . وأيضا إذا أقبل العبد على الآخرة صغرت فى قلبه الدنيا واستحقرها وتذكر ذنوبه ومساوئه فيستحقر نفسه ويعيبها :

لمَّا تَحَققتُ أنِّى لَا أشاهدكُمْ غَمضتُ طرفِى ، فَلمْ أنظرإلى أحدِ .(اهـ)

وفى وصية العارف الكامل سيدى محمد بن ناصر ، نفعنا الله به ، لتلميذه أبى على اليوسى حين أجمع السفر إلى ناحية المغرب وودعه : عليك بالعزلة عن الخلق ما استطعت . اهـ .

وعن سيدنا عمر ، رضى الله عنه : الطمع فقر ، واليأس غنى ، والعزلة راحة من جليس السوء ، وقرين الصدق خير من الوحدة .

وقال بعض الأئمة : العزلة عن الناس توفر العرض وتبقى الجلال ، وترفع مؤنة المكافأة فى الحقوق اللازمة ، وتستر الفاقة .

وقد أولع الشعراء قديما وحديثا من هذا المعنى، بالتبرم بالناس والاستيحاش من الخلق وذم الزمان وأهله .

فمن ذلك قول أبى العتاهية :

برمتُ بالناسِ وأخلاقهمْ فصرتُ أستأنسُ بالوَحْدة
ما أكثرَ الناس لعمرى وما أقلهمُ فِى حَاصل العِدة

وقول الآخر :

مُخالطُ الناس فى الدنيا على حَذر وَفى بلاء وصفو شيب بالكدر
كراكب البحر إن نسلمْ حشاشته فليس يسلمُ من خوف ومن حذر

وقول الآخر :

قدْ لزمتُ السكوت من غير وعى ولزمتُ الفراش منْ غير عِلة
وهجرتُ الإخوانَ لما أتتنى عَنهم كل خَصلة مُضمحلة

وقول الآخر :

إن بنى دَهرنا أفاعى ليسَ لمنْ ساورتْ طَبيبُ
فَلا يكنْ فيكَ بعدَ هَذا لِواحد منهم نَصيبُ

وقول الشهاب الخفاجى رحمه الله :

إنْ رُمتَ أنْ تحظى بعز وهنا فاجتنبْ الناسَ وكنْ عنهم غَنى
وإن تخالطهمْ فكنْ ذا عِفة وخالقِ الناس بخلق حَسن

* * *

رأيتُ الانقباضَ أجل شىْء ... وَأدعى فِى الأمورِ إلى السلامهْ
فهذا الخلقُ سالمهمْ ودَعهمْ ... فخلطتهمْ تعودُ إلى النـدامَهْ
ولا تعنَ بشىءٍ غيرَ شىْء ... يقودُ إلى خلاصِكَ فى القيامهْ

وقول الآخر :

خلطةُ النـاسِ فَساد ونـكد ... ليسَ فِى الخلطةِ خير لأحد
إنمـا الناسُ كشوك نابت ... كيفَ ينجو منْ على الشوكِ رقد

وقول أبى الفتح البستى ، من قصيدة :

من عاشر الناسَ لاقى منهم نَصباً ... لأن طبعهمُ بَغى وَعـدوانُ
ومنْ يفتشْ على الإخوانِ مجتهداً ... فجل إخوان هذا الدهرْ خوانُ
مَنْ سالم الناس يسلمْ منْ غوائلهم ... وعَاشَ وهوَ قريرُ العين جذلانُ

وقول الواسطى ، رحمه الله :

دع الناس طراً ، واصرف الود عنهم ... إذا كنت فى أخلاقهمْ لا تسامحُ
فشيئان معدومان فى الأرض : درهم ... حلال ، وخل ، فى الحقيقة ، ناصحُ

وقول الآخر :

حذارِ من الإخوان إنْ شئتَ راحة ... فقرب ذوى الدنيا لمن صح ممرض
خبرتُ كثيراً من أناس صحبتهمْ ... فما منهم إلا حسود ومبغض

وقول أبى الحسن الطائى ، رحمه الله :

نظرت وما كل امرىء ينظرُ الهدى ... إذا اشتبهت أعلامـهُ ومذاهبهْ
فأيقنتُ أن الخيرَ والشرَ فتنة ... وخيرهما ما كانَ خيرا عواقبه
إن الخيرَ كل الخير أنْ يهجرَ الفتى ... أخاهُ وأن ينأى عن الناس جانبه

يَعيشُ بِخير كلُّ من عاشَ واحدا ... ويُخشى عليه الشرُّ مَنْ يُصاحبه

وقول الآخر :

مَنْ أرادَ العز والرا ... حة في الدهرِ الطويل

فليكنْ فرداً من النا ... سِ ويرضى بالخمول

وَيرى أنَّ قليلا ... كافياً ، غيرُ قليل

وقول الآخر :

قالوا بعدتَ فلمْ تقرُبْ ، فقلتُ لهمْ : ... بُعدي عن الناس في هذا الزمان حجا

لولا التباعدُ بينَ الحاجبين به ... بانَ افتراقهما ، لمْ نعرفْ البلجا

وقول الأرجاني ، رحمه الله :

أسِفتُ على عمرٍ تصرم ضائعا ... وجُدتُ بدمعٍ يستهل هَتون

وآنسني بُعدي من الناسِ جانباً ... وإنْ هُمُ على أحداقهم حملوني

ولما غدا عبئاً على جفنِ ناظري ... لقاءُ الورى من صاحبٍ وخدين

ألفت الفضا مستوطناً ظهر ناقةٍ ... تلف سهولا دائماً بحزونِ

وما صرتُ إلا في الهواجر وحدها ... كراهةَ ظلٍ أنْ يكونَ قريني

وعن محمد بن أسلم ، رضى الله عنه قال : مالى ولهذا الخلق ، كنت فى صلب أبى وحدى ، ثم صرت فى بطن أمى وحدى ، ثم دخلت الدنيا وحدى ، ثم تقبض روحى وحدى ، فأدخل فى قبرى وحدى ، ويأتى منكر ونكير ليسألانى وحدى ، فإن صرت إلى خير صرت وحدى ، وإن صرت إلى شر صرت وحدى ، ثم أوقف بين يدى الله تعالى وحدى ، فإن بعثت إلى الجنة بعثت وحدى ، وإن بعثت إلى النار بعثت وحدى ، فمالى وللناس اهـ .

وقال منصور بن عمار ، رضى الله عنه : قد تغير الزمان ، حتى كل فى

وصفه اللسان ، فما بقى من العلم إلا اسمه ، ولا من الدين إلا رسمه ، لا تواضع فى هذا الزمان إلا لمخادعة ، ولا زُهد إلا لحيلة ، ولا أمرا بالمعروف أو نهيا عن المنكر إلا لحمية النفس ، والناس ذئاب فى ثياب ، إن رفضتهم حرموك ، وإن نصحتهم غشوك ، وإن كنت شريفا حسدوك ، أو ضعيفا حقروك ، أو عالما جهلوك ، أو جاهلا لم يرشدوك ، فإن نطقت ، قالوا : مهذار وإن سكت ، قالوا : بليد مدرار ، فمعاشرتهم داء ، والفرار منهم دواء ، فطريق المحققين قد قلت فيها الرفقاء ، وكثرت فيها الفسقاء ، وما ذاك إلا لغفلتهم عن الآخرة وميلهم للعاجلة .

بِمَنَ يثقُ الإنسانُ فِيما ينوبهُ ... وَمنْ أينْ للحرِ الكريمِ صحابُ؟
وَقدَصارَ هَذَا الناسُ إلاأقلهمْ ... ذِئاباً عَلى أجسادِهن ثيابُ

وقال الغزالى ، كما فى « المنوى » : سمعت أن ابن عيينة قال للثورى : أوصنى ، فقال : أقلل من معرفة الناس ، قلت : أليس فى الخبر : أكثروا من معرفة الناس فإن لكل مؤمن شفاعة ؟ قال : لا أحسبك رأيت قط ما تكرهه إلا ممن تعرف . قلت : أجل . ثم مات فرأيته فى النوم فقلت : أوصنى ، قال : أقل من معرفة الناس مااستطعت فإن التخلص منهم شديد . اهـ .

وعن عبدالله بن إدريس ، قلت لداوود الطائى ، رضى الله عنه : أوصنى . قال: أقلل من معرفة الناس، قلت :زدنى. قال : ارض بالقليل مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بالكثير مع فساد قلبهم ، قلت زدنى، قال اجعل الدنيا كيوم واحد صمه ثم أفطر على الموت . اهـ .

وعن أبى الربيع الزاهد فيما نقله صاحب « النجم الثاقب » قال : أتيت من واسط لأسمع شيئا من داوود الطائى ، فأقمت على بابه ثلاثة أيام لا أصل

إليه ، لأنه كان إذا سمع الإقامة خرج من بيته فإذا سلم الإمام وثب ودخل منزله قال : فصليت فى مسجد آخر ، ثم أتيت وجلست على بابه ، فلما جاء ليدخل قلت له : ضيف ، رحمك الله ، قال : إذا كنت فادخل فدخلت ، فأقمت عنده ثلاثة أيام لا يكلمنى ، فلما كان بعد ثلاثة أيام ، قال : صم عن الدنيا واجعل فطورك الموت ، قلت : زدنى . قال : فر من الناس كفرارك من الأسد ، غير طاعن عليهم ولا تارك لجماعتهم اهـ.

وقال القلشانى ، رحمه الله : ومما يذكر أنه لما توفى الغزالى ، رضى الله عنه ، وجد تحت رأسه رقعة مكتوب فيها .

قدْ كنتُ عبداً والهوى مالِكى ... فصرتُ حراً والهوَى خادِمى
وصرتُ بالوحـــدة مستـأنساً ... مِنْ شر أصنافِ بنى آدم
مافى اختلاطِ الناسِ خير ولا ... ذُو الجهل بالأشياءِ كالعالم
يا لائمى فى تركهمْ جاهـــلا . ... عُذْرِى منقوش على خاتمى

فوجد على خاتمه : « وما وجدْنا لأكثرهمْ منْ عَهْد » اهـ .

وقال بعض الحكماء : داء الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع العادية ، والأفاعى الضارية ، لأن التحفظ من ذلك ممكن ، ولا يمكن التحفظ من الناس أصلا .

وقال الشافعى ، رحمه الله ، فى وصيته لبعض أصحابه : لا أقول لك إلا حقا ، إنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل ، فانظر إلى ما يخلصك فالزمه .

الناسُ دَاء دَفينُ ... لا تركنن إليهمْ
فِيهم خِداع وَمكر ... لو اطلعتَ عليهمْ !

وكان الفضيل بن عياض ، رحمه الله تعالى ، يقول : من سخافة عقل الرجل

كثرة معارفه .

وكتب صفوان ، رحمه الله ، على باب داره : رحم الله من لا يعرفنا ولا نعرفه ، فإنه لم يأت لنا أذى إلا من إخواننا الذين يعرفوننا ونعرفهم :

وفى ذلك قيل .

جزى الله خيراً كل مَنْ ليس بيننا وَلا بينهُ ود ولا مُتعرفُ
فما نالنى هَمّ ولا مسنى أذى من الناس إلا من فتى كنت أعرفُ

وقيل :

لا تعرفن أحداً فلست بواجد أحَدا أضر عليك ممن تعرفُ

وقيل :

ومَا زالت مُذْلاح المشيبُ بمفرقى أفتشُ عنْ هذا الورَى وأكشفُ
فما إنْ عَرفتُ الناسَ إلا ذممتهمْ جزَى الله بالخيرات مَنْ لستُ أعرفُ

وفى رسالة القشيرى : أن رجلاجاء إلى زيارة أبى بكر الوراق ، فلما أراد أن يرجع قال له أوصنى . فقال : وجدت خير الدنيا والآخرة فى الخلوة والقلة ، وشرها فى الكثرة والاختلاط .

ثم قال : وقال الجنيد ، رضى الله عنه : من أراد أن يسلم له دينه ، ويستريح قلبه وبدنه ، فليعتزل الناس ، فإن هذا زمان وحشة ، والعاقل من اختار فيه الوحدة .

وقيل : إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة آنسه بالوحدة ، وأغناه بالقناعة ، وبصره عيوب نفسه ؛ فمن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدنيا والآخرة .

وفى «المنوى» على حديث : «الزم بيتك» ما نصه : قال ابن دينار لراهب : عظنى . قال : إن استطعت أن تجعل بينك و بين الناس سورا من حديد ، فافعل.

ومن كتاب للشيخ أبى المحاسن ، سيدى يوسف بن محمد الفاسى ، رضى الله عنه لبعض أصحابه ، ما نصه : اعلم أن أساس الإرادة خمول الذكر ، وليس على المريد أضر من الشهرة ، فكيف يليق به التعرض للمناصب والمراتب ، وفيها شرف وظهور ، وهو مفسد للدين ، كما ورد ؟ فالزم بيتك ، وخالف جنسك ، واجمع قلبك ، وما يحول بينك و بين قلبك اقطعه قبل أن يقطعك ، ولو كان فيه حتف نفسك ؛ واعلم أن البصيرة كالبصر أدنى شىء يغير النظر .

وفى الرسالة القشيرية : الخلوة صفة أهل الصفوة ، والعزلة من أمارات الوصلة ، ولا بد للمريد فى ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ، ثم فى نهايته لا بد له من الخلوة لتحققه بأنسه .

وقال أبو المواهب العارف الربانى ، سيدى عبدالوهاب الشعرانى ، رضى الله عنه : ومنه ، أى من آداب السلوك : الفرار من المخالطة للناس قبل الكمال ، لما فيه قبله من الآفات .

ومن كلام أبى بكر الوراق : ما ظهرت الفتنة من لدن سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا إلا من الخلطة ، ومن جانب الناس كان إلى السلامة أقرب . وقال له رجل : أوصنى . فقال : وجدت خير الدارين فى العزلة ثم قال : وقد أجمعوا على أنه لا بد للمريد فى بداية أمره من العزلة بشرطها ، عن أبناء جنسه ، ثم فى نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه .

وقال فى « تنبيه الغافل » : أكثرُ ما تتولد منه أمراض القلوب فى المخالطة مع الناس ، والسلامة منها بالاعتزال عنهم بشروطه .

وفى الحكم : ما نفع القلبَ مثلُ عزلة يدخل بها فى ميدان فكرة .

وقال الغزالى : وكل من خالط الناس كثرت معاصيه ، وإن كان تقيا ، إلا إن ترك المداهنة ولم تأخذه فى الله لومة لائم . وبه احتج من ذهب إلى أن العزلة أفضل من المخالطة . اهـ

وقال بعض الصالحين: لقيت بعض الأبدال فقلت: كيف الطريق إلى الله ؟ فقال : لا تخالط الناس فإن فى مخالطتهم ظلمة ، فقلت : لا بد وأنا بين أظهرهم. فقال : لا تعاملهم فإن معاملتهم خسران ، فقلت : لا بد لى من ذلك فقال : لا تركن إليهم فإن الركون إليهم هلكة،فقلت : هذا لعله يكون . فقال : يا هذا تخالط البطالين ، وتعامل الجاهلين ، وتركن إلى الهالكين، وتريد أن يكون قلبك مع الله ! هيهات ! هذا لا يكون أبدا ثم غاب عنى . اهـ

وكان أبو بكر الوراق ، رحمه الله تعالى ، يقول : لا تطمع فى الأنس بالله أبدا ، وأنت تحب الدنيا تخالط الخلق ، ولا تطمع فى رضاء الله تعالى ، وأنت تخالط الظلمة ؛ ولا تطمع فى حب الله لك ، وأنت تحب الدنيا ؛ ولا تطمع فى لين قلبك ، وأنت تجفو اليتيم . اهـ

وقال أبو بكر بن دينار ، رضى الله عنه : إياك أن تطمع فى الأنس بالله ، وأنت تحب الأنس بالناس ، وإياك أن تطمع فى حب الله ، وأنت تحب الفضول ؛ وإياك ان تطمع فى المنزلة عند الله ، وأنت تحب المنزلة عند الناس . اهـ

وقال الشبلى رحمه الله : من علامات الإفلاس الاستئناس بالناس . اهـ

ومن كلام يمن بن رزق ، رحمه الله ، كما فى « المدخل » : ياهذا إذا

رأيت إنساناً لم تلمزك الضرورة إليه ففر منه فرارك من الأسد أو أشد ، ولن قدر اجتماعك به مفاجئاً ، فأقصر الكلام معه ، واعتذر له بشغل ، واتركه بسلام ، أما تذكر أن تعبك فى الدنيا قديماً وحديثاً ، إنما جاء به معرفة الناس ؟ . اهـ .

وقال أيضاً : ياهذا ، إن كان العجب من الناس مرة ، فالعجب منك ألف مرة ! فقد بان لك بالتجربة المستبينة ، والدلائل البينة ، أن مكالمة الناس غنمها ندامة ، والصمت عنهم سلامة ، ثم لا يصرفك ذلك عن الهذر معهم ، والخوض فى أحاديثهم . وقال : الزم الفضل واترك الفضول ، واغتنم وقتك تفز بخير الدنيا والآخرة ، فبملازمة الفضل تنال الشرف ، وبترك الفضول تنال السلامة ، وباغتنام الوقت تنال الربح . وفى هذه الثلاثة مجموع خير الدنيا والآخرة . اهـ .

إلى غير ذلك من كلام الناصحين فى هذا المعنى ، والله الموفق .

وهذا الباب واسع المجال ، كثير المنال ، ومن أراد استيفاء ما يتعلق به فعليه « بنصيحة ذوى الهمم الأكياس فى بعض مايتعلق بمخالطة الناس » لسيدنا العم ، رحمه الله ورضى عنه .

قول الناظم : « واحرص على العزلة » هو أمر من الحرص بكسر الحاء : الجشع وهو شدة الإرادة ، والشره إلى المطلوب ، وقد حرص عليه كضرب وسمع والأول أفصح فهو حريص من قوم حراص وحرصاء وامرأة حريصة وحرائص . قال الأزهرى : وقول العرب : حريص عليك معناه : حريص على نفعك . اهـ .

ومنه قوله تعالى : « حريص عليكم » أى على نفعكم ، أو شفوق عليكم

رءوف بكم ، فالحرص فى القرآن على وجهين: فرط الشدة كقوله تعالى : «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة» ؛ والشفقة والرأفة كقوله تعالى : «حريص عليكم».

ومن الحكم : البخيل مذموم ، والحسود مرجوم ، والحريص محروم .

ويقال : لا تكن على الدنيا حريصاً تكن حافظاً ، فإن الحرص على الدنيا يورث النسيان . ومن كلامهم : قرن الحرص بالحرمان !

ثم إن الحرص (يتعدى بعلى) : وهو المعروف وهو الذى فى النظم . وأما تعديته بالباء فى قول أبى ذؤيب :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم　　فإذا المنية أقبلت لا تدفع

فلأنه بمعنى : هممت .

والعزلة (بالضم) : الاعتزال ، يقال : اعتزل الخلق واعتزل عنهم . يتعدى بنفسه وبمن : تنحى وتباعد عزلة واعتزالا .

«وما استطعت» : أى استطاعتك أى قدرتك ، فما مصدرية ، واستطعت صلتها ، وهو ماض من الاستطاعة : وهى القدرة على الشىء .

وقال الراغب : الاستطاعة عند المحققين اسم للمعانى التى بها يتمكن الإنسان مما يريده من إحداث الفعل ، وهى أربعة أشياء : بنية مخصوصة للفاعل ، وتصدر للفعل ، ومادة قابلة لتأثيره ، وآلة إن كان الفعل آلياً كالكتابة ، فإن الكاتب يحتاج إلى هذه الأربعة فى إيجاده للكتابة . ولذلك يقال : فلان غير مستطيع للكتابة ، إذا فقد واحداً من هذه الأربعة فصاعداً . ويضاده العجز : وهو أن لا يجد أحد هذه الأربعة فصاعداً ، ومتى وجد هذه الأربعة كلها فمستطيع مطلقاً . ومتى فقدها فعاجز مطلقا . ومتى وجد بعضها دون

بعض فمستطيع من وجه ، عاجز من وجه ، ولأن يوصف بالعجز أولى .
والاستطاعة أخص من القدرة . اهـ .

« تسر » : مضارع سار من السير ، وهو الذهاب ليلا أو نهاراً ، بخلاف السرى فلا يكون إلا ليلا يقال : سار القوم يسيرون سيراً ومسيراً ، إذا امتد بهم السير في جهة توجهوا لها . ويقال : بارك الله في مسيرك ، أي سيرك .

قال الجوهري : وهو شاذ لأن قياس المصدر من فعل يفعل مفعل بالفتح . اهـ .

والمراد به عند الناظم : قطع المفاوز للوصول إلى الله ، كما هو ظاهر .

« وانقطعت » : من الانقطاع ، وهو العجز وعدم الظفر بالمرغوب ، يقال : قطع بزيد كعني فهو مقطوع به ، وكذلك انقطع به فهو منقطع به ، كما في الصحاح : إذا عجز عن سفره بأي سبب كان كنفقة ذهبت ، أو قامت عليه راحلته ، وذهب زاده وماله ؛ أو قطع به : انقطع رجاؤه ، وحيل بينه وبين ما يؤمله . نقله الأزهري .

« والخلطة » : مصدر خلط ، يقال : خلط القوم خلطاً وخلطة وخالطهم داخلهم . والخلطة بالضم أيضاً الشركة ، وبالكسر العشرة ، كما في الصحاح .

« والعقال » : في الأصل ما يعقل به البعير أو غيره من حبل ونحوه ، شبه به الناظم الخلطة للناس ، بجامع منع كل من السير ؛ إلا أن العقال مانع من السير الجسي ، والخلطة مانعة من السير المعنوي الموصل إلى الله ، لأنها من أعظم العوائق . فقوله : عقال ، أي كالعقال فهو تشبيه بليغ بحذف الأداة ، والله أعلم .

« والقيل والقال ، والقالة والقول ، مصادر لقال . وقيل : القول مصدر . والقيل والقال اسمان له . ثم قيل : القول : في الخير والشر ، والقال والقيل والقالة : في الشر خاصة . وقد رد هذه التفرقة أقوام وضعفوها بورود كل من

القال والقيل فى الخير . وناهيك بقوله تعالى : « وقيله يارب إن هؤلاء » هذا وفى الحديث نهى النبى ، صلى الله عليه وسلم عن : « قيل وقال وإضاعة المال » .

قال أبو عبيد فى قيل وقال : نحو وعربية، وذلك أنه جعل القال مصدراً. ألا تراه يقول عن قيل وقال: كأنه قال : عن قيل وقول؟ يقال على هذا : قلت قولاً وقيلا وقالا . قال : وسمعت الكسائى يقول ، فى قراءة عبد الله بن مسعود : « ذلك عيسى بن مريم ، قال الحق الذى فيه تمترون » فهذا من هذا .

وقال الفراء : القال فى معنى القول ، مثل العيب والعاب .

وقال ابن الأثير فى معنى الحديث : نهى عن فضول ما يتحدث به المتجالسون من قولهم قيل: كذا ، وقال فلان : كذا ، وبناؤهما على كونهما فعلين محكيين متضمنين للضمير ، والإعراب على إجرائهما مجرى الأسماء خلوين من الضمير .

ومنه قولهم : « إنما الدنيا قال وقيل » وإدخال حرف التعريف عليهما لذلك فى قولهم : « مايعرف القال من القيل » . اهـ .

« ودع » : معناه اترك ، ومنه الحديث : « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » . وقول عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وقد اختلف : هل هو مع « ذر » مترادفان أو متخالفان ؟ فذهب قوم إلى الأول وهو رأى أكثر أهل اللغة . وذهب آخرون إلى الفرق بينهما ، فقالوا : دع ويدع يستعملان فيما لايذم مرتكبه لأنه من الدعة وهى الراحة . ولذا قيل لمفارقة الناس بعضهم بعضاً : موادعة . وذر ويذر بخلافه لتضمنه إهمالا ، وعدم اعتداد لأنه من الوذر ، وهو قطع اللحيمة الحقيرة ، كما أشار إليه الراغب.

فلذا قال تعالى : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » دون تدعون مع ما فيه من الجناس .

وقيل : دع ، أمر بالترك قبل العلم ؛ وذر ، بعده ، كما نقل عن الرازى . قيل : وهذا لا يساعده اللغة ولا الاشتقاق ، وقد أميت ماضيه فلا يقال : ودعه وإنما يقال فى ماضيه : تركه ، كذا فى الصحاح وزاد ولا وادع ولكن تارك ، وربما جاء فى الشعر ودعه ، وهو مودوع .

وقال فى لسان العرب : ودعه يدعه تركه وهى شاذة ، وكلام العرب : دعنى وذرنى ويدع ويذر ، ولا يقولون : ودعتك ولا وذرتك ، استغنوا عنهما بتركتك والمصدر فيهما تركا ، ولا يقال : ودعاً ولا وذراً ، وحكاهما بعضهم : ولا وادع .

وقد جاء فى بيت أنشده الفارسى فى البصريات وهو :

فأيهما ما أتبعن فإننى حزين على ترك الذى أنا وادع

وقد تقدم لنا أن دع وذر من الأفعال الغير المتصرفة ، نقلا عن ابن الصائغ عند قول الناظم : « فاجهد أخى » . . إلخ فراجعه .

وقد قرىء شاذاً : « ماودعك ربك » بالتخفيف ، وهى قراءة النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه عنه ابن عباس .

وجاء فى الحديث : « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين » . رواه ابن عباس . ثم الفاء فى قوله « فدعهم » فاء الفصيحة لأن المعنى على تقدير الشرط ، أى فإذا كان شأن خلطة

الناس ما ذكر ؛ فدعهم أى اترك مخالطتهم ومقاربتهم إلا فيما لا محيد عنه ، وإلا من كان من أهل الخير والفضل ، كما يأتى التنبيه عليه فى التنبيه الخامس .

« وترحهم » : مضارع أراح ، يقال : أراح الله العبد ، أدخله فى الراحة ضد التعب ، مجزوم فى جواب الأمر ، حذفت ياؤه لدفع التقاء الساكنين ، ومتعلقه محذوف أى من شرك .

وتسترح : مضارع استراح وجد الراحة ، معطوف على ترح مجزوم أيضاً حذفت ياؤه لما ذكر فى ترح .

وربح : (بكسر الباء) كعلم من الربح وهو فى الأصل النماء فى التجر ، استعير هنا للنماء المعنوى . وهو الترقى فى المعالى ، والزيادة فى الخصال المحمودة .

تنبيهات :

الأول : اعلم أن العزلة لا تخرج الإنسان عن كونه إلفا مألوفا ، قال « المنوى » على حديث : « المؤمنُ يألفُ ويؤلف ، ولا خيرَ فِى مَنْ لا يألفُ ولا يؤلفُ ، وخيرُ النَّاسِ أنفعهمْ لِلناسِ » مانصه : قال السهروردى : وليس من اختار العزلة يذهب عنه هذا الوصف ، وإنما أشار المصطفى إلى الخلق الجبلى وذلك يكمل فى كل من كان أتم معرفة ويقينا ، وأرزن عقلا وأتم استعداداً . وقد ظن قوم أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوها طلبا لهذه الفضيلة ، وهو خطأ ، بل العزلة فيه أتم وأهم لترقى الهمم عن ميل الطباع إلى تآلف الأرواح ، ولذا كانت العزلة من أهم الأمور عند من يألف ويؤلف . اهـ .

وفى كلام سيدي محمد المنير: قد غلط قوم فظنوا أن من اعتزل الناس خرج عن كونه إلفا مألوفا ، والحال أنه أولى للألفة لأنه إذا اعتزل الناس صفت نفسه بمقامه ، واشتاق الناس إلى رؤيته فألفوه أكثر من المخالط ، وأصل الائتلاف إنما هو بالأرواح لحديث : الأرواحُ جنودٌ مُجندَة فما تعارفَ منها ائتلفَ ، وما تناكرَ منها اختلف » . اهـ .

الثانى : قال فى الرسالة القشيرية : ومن آداب العزلة أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده ، ثم يحصل من علم الشرع مايؤدى به فرضه ، ليكون بناء أمره على أساس محكم اهـ .

وكان الربيع بن خيثم رحمه الله يقول : لا ينبغى لأحد أن يعتزل للعبادة إلا بعد التفقه فى دينه . فقد كان الإمام مالك ، رضى الله عنه ، يقول : تفقهْ ثم اعتزل . يعنى عن الناس .

ومن آداب الاعتزال عن الخلق عدم السؤال عن أخبار الناس ، وما هم مشتغلون به .

قال العارف بالله سيدي زروق ، رضى الله عنه : فواجب على المعتزل أن يكف لسانه عن السؤال عن أخبار الناس ، وما هم مشغولون به ومكبون عليه ، ويصون نفسه عن الإصغاء إلى أراجيف البلد ؛ وليحرص على أن لا يغشاه فى خلوته مَن شأنهُ التطلع لذلك ، والبحث عنه ؛ وليجتنب صحبة من لا يتورع فى منطقه ، ولا يضبط لسانه عن الاسترسال فى دفائن الغيبة ، والتعريض بالطعن على الناس ، فإن ذلك مما يكدر صفاء القلب ، ويؤدى إلى

ارتكاب مساخط الرب ، فليهجره المعتزل أو ليفر منه فراره من الأسد وليتنكر إلى كل من تعرف له ممن هذا شأنه من المنسوبين للدين ، فضلا عن غيرهم ، كما قال بعضهم : أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف . اهـ

ومن فوائد العزلة وآدابها أيضاً :

الزهد في الدنيا ومتعلقاتها : فمن داوود الطائي ، رحمه الله ، أنه كان يقول : لا تصلح العزلة عن الناس إلا لمن زهد في الدنيا . أما الراغبون فيها فلا فائدة في عزلتهم ، فمن اعتزل عن الناس ولم يجعل الحق تعالى مؤنسا ، والقرآن محدثا ، فقد أخطأ الطريق ، ولم تصح عزلته أي الكاملة . اهـ .

ومن آدابها أيضاً :

الاشتغال فيها بتلاوة القرآن وتدبر معانيه ، والنظر في أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقواله ، وأفعال الصحابه وأقوالهم : فقد قال مالك ابن دينار ، رضي الله عنه : من لم يجالس الحق تعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنه ، فقد خابت عزلته ، فقيل له : كيف ذلك ؟ قال : يدرس القرآن بتدبر ، وينظر في أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقواله ، وأفعال أصحابه ، رضي الله عنهم ، وأقوالهم ؛ فمن فعل ذلك فقد حادث الله تعالى ، وحادث النبي صلى الله عليه وسلم ، وحادث أصحابه رضي الله عنهم .

ولهذا المعنى أكثر الناصحون من الحض على مجالسة الدفاتر والمؤانسة بها وأتوا في ذلك بالأشعار الرائعة والأنظام الفائقة .

فمن ذلك ما أنشده القلشاني رحمه الله :

لَوْ صَحِبنا الملوكَ تاهوا علينا ... واستخفوا جهلا بِحقِّ الجليس

أوْ صَحِبنا التجارَ صِرْنا إلى البُ ... ؤسِ وَصِرْنا إلى عَدِ الفلوسِ
فلزمنا البيوتَ نستعملُ الحِبرَ ونُملي ... به وجوهَ الطُروسِ
وقنعنا بما رُزِقنا فصِرْنا ... أمراءَ على الملوكِ الرؤوسِ

ولما سمع ابن حزم الظاهرى بهذه الأبيات استحسنها . وقال :

لو تُركنا وذاك كنا ظفرنا ... من أمانينا بعلقٍ نفيسِ
غيرَ أن الزمانَ عنّ بفتيةٍ ... حسدونا على حياةِ النفوسِ

ومن ذلك قول بعضهم :

شيئانِ أحلى من نكاحِ الخُرَّدِ ... وألذ من شُربِ القَراحِ الأسودِ
وأجلّ من رُتبِ الملوكِ عليهمُ ... حُلَلُ الحريرِ مطرزاً بالعسجدِ
سودُ الدفاترِ أنْ تكونَ مطالعاً ... أبدَ الزمانِ ، وبردُ ظلِّ المسجدِ

ومن ذلك قول آخر :

لنا جُلساءُ لا يُمَلُّ حديثُهم ... ألِبّاءُ مأمونون غَيباً ومَشهدا
يفيدوننا من عِلمهم علمَ مَنْ مضى ... وعقلاً وتأييدا ورأياً مسدَّدا
فلا فتنةً نخشى ولا سوءَ عِشرةٍ ... ولا نتقي منهم لِساناً ولا يَدا
فإنْ قلتَ : أحياءٌ فلستَ بكاذبٍ ... وإنْ قلت : أمواتاً فلستَ مفنَّدا

ومن ذلك قول القاضي عبد الوهاب رحمه الله ، وقيل : لابن فارس اللغوى :

وقالوا : كيفَ أنت ؟ قلتُ : خَيرٌ ... تُقضّى حاجةٌ وتفوتُ حاجُ
إذا ازدحمت همومُ الصدرِ قلنا : ... عسى يوماً يكونَ لها انفراجُ

نديميَ هرتي ، وسرُورُ قلبي دفاترُ لي ، ومعشوقي السراجُ

ومن ذلك قول آخر :

نِعمَ المحدثُ والجليسُ كِتابُ تلهُو بِهِ إنْ خانَك الأصحابُ

لامفشياً سِراً إذا أودعتهُ يوماً إذا ما ملّت الأحبابُ

ومن ذلك قول أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، رحمه الله :

ما تطعمتُ لذةَ العيشِ حتى صرتُ للبيتِ والكتابِ جليسا

ليس شيء أعز عندي من العلم فما أبتغي سِواهُ أنيسا

إنما الذل في مخالطة النا س فدعهم وعش عزيزاً رئيسا

ومن ذلك قول أبي حيان ، رحمه الله :

أعاذلـ ذرني وانفرادي عن الورى فلست أرى فيهم صديقاً موافيا

ندامای كتب أستفيد علومها أحباء تغني عن لقاء الأعاديا

وآنسها القرآن فهو الذي به نجاتي ، إذا فكرت أو كنت تاليا

ومن ذلك قول القاضي عياض ، رحمه الله :

لحبرة تجالسني نهاراً أحب إلى من أنس الصديق

ورزمة كاغد في البيت عندي أحب إلى من حمل الدقيق

ولطمة عالم في الخد مني أحب إلى من كأس الرحيق

وقول أبي الحسن الجرجاني :

لم أجد لذة السلامة حتى صرت للبيت والكتاب جليسا

إنما الذل في مخالطة النـ ـاسِ ، فدعهم تعش أميراً رئيسا

ومن ذلك قول الآخر :

طالب العلم حزين أبداً وعن الإخوان والأهل نفور
يألف الـكتب ويرجو ربه وعلى الهجران والبين صبور
ليس يلهو مع من يلهو إذا ما لهـا اللاهون فى ظل القصور
فإذا استشكل شيئاً خلتـه مغضباً ، فيه على الـكتب يدور
وإذا حل الذى استشـكله خلته نشوان من فرط السرور

وقال الغزالى ، رحمه الله : كان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر . فقيل له فى ذلك ! فقال : لم أر أسلم من الوحدة ، ولا أوعظ من القبر ، ولا جليس أمتع من الدفتر . ا هـ .

ومن فوائد العزلة أيضاً وآدابها :

التنبيه من رقدة الغفلة ، ومراقبة الله تعالى بالغيب . قال الفضيل بن عياض ، رحمه الله : إنما طلبوا العزلة والوحدة لأنها تورث الانتباه من رقدة الغفلة ، ومراقبة الله تعالى بالغيب ، وما أحد عبد ربه إلا أحب أن لا يشعر به أحد ، فإن استطعت أن تمشى للناس ولا يمشون لك ، وتسألهم ولا يسألونك ، فافعل . ووالله إنى لألقى الرجل فلا يسلم على ، فأرى الفضل له ، وكذلك إذا مرضت ولم يعدنى . ا هـ .

وقد دل الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، على رجل لم ير قط جالساً مع الناس . فقال له : يا عبد الله ما يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال : أمر شغلنى عن الناس قال : فما يمنعك أن تأتى هذا الرجل ، الذى يقال له : الحسن ، فتجلس إليه ؟ فقال : أمر شغلنى عن الحسن وعن الناس . فقال له الحسن : وما هو

يرحمك الله ؟ فقال : إنى أصبح وأمسى بين ذنب ونعمة ، فرأيت أن أشغل نفسى بالاستغفار لذنبى ، وبالشكر على نعم ربى . فقال له الحسن : أنت عندى أفقه من الحسن ، فالزم ما أنت عليه . اهـ .

الثالث : قال فى الرسالة القشيرية : وليعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ، ولا يقصد سلامته من شر الخلق ، فإن الأول : نتيجة استصغار نفسه ، والثانى : شهود مزيته على الخلق ؛ ومن استصغر نفسه فهو متواضع ؛ ومن رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر .

رئى بعض الرهبان . فقيل له : أنت راهب ؟ قال : لا أنا حارس كلب يعقر الخلق ، أخرجها من بينهم ليسلموا منها .

ثم قال فى الرسالة : هذا كله للأقوياء ، وأما لغيرهم فالاجتماع أنفع أن يعمل بعضهم على رؤية بعض ، ومع ذلك فإنما هو عندهم تجميم . وبالجملة فقد قالوا : عامل البر وطالب العلم كلاهما لابد أن يجمم نفسه . اهـ .

الرابع : قال فى الرسالة أيضا : والعزلة فى الحقيقة ، اعتزال الخصال المذمومة ، والتأثير لتبديل الصفات لا للتنائى عن الأوطان . ولهذا قيل : من العارف ؟ قالوا : كائن بائن ، يعنى كائن مع الخلق ، بائن عنهم بالسر . سمعت الأستاذ أبا على الدقاق ، رحمه الله تعالى ، يقول : البس مع الناس ما يلبسون وتناول مما يأكلون ، وانفرد عنهم بالسر . اهـ

وقال العارف أبو العباس سيدى أحمد زروق ، رضى الله عنه : والعزلة الانفراد بالحال وقد يراد بها الخلوة ، وهى الانفراد بالشخص ، ثم قال : واعلم

أن كل عزلة لا يصحبها فكرة لا عبرة بها ، وكل فكرة لا تصح بدون عزلة ثم قال : وبالجملة فالعزلة مطلوبة ، والفكرة محبوبة، وهما مطهرتا القلب، وتأكدهما بحسب فساد الزمان ، ومداواة أمراض القلب واجبة ، وأمراضه إنما تكون من غلبة أحكام الطبع عليه : من صحبته للأضداد ووقوفه مع المعتاد ، وانقياده لهوى النفس ، وأنسه بعالم الحس .

ومداواة هذه الأمراض تتأتى من وجوه كثيرة ، وأبلغها فى ذلك وأنفعها العزلة عن الناس المصحوبة بالفكرة ، فبالعزلة يتقيد الظاهر عن مخالطة من لا تصلح مخالطته ولا يأمن دخول الآفات عليه بصحبته ، فيتخلص بذلك المعتزل من المعاصى التى يتعرض لها بالمخالطة : مثل الغيبة والمداهنة والرياء والتصنع ؛ ويتحصل له بذلك السلامة من مسارقة الطباع الردية والأخلاق الدنية ، ويستفيد بذلك أيضاً صيانة دينه ونفسه عن التعرض للخصومات وأنواع الشرور والفتن . اهـ

الخامس : تقدم ما يدل على أن العزلة مطلوبة إلا ممن ينتفع بخلطته من أهل العلم والصلاح .

وقد كتب أبو إسحاق البلفيقى ، إلى ولد له كان مهاجراً فى طلب العلم ، يوصيه بقوله :

إذا شئت أن تحظى بوصلى وقربتى فجانب قرين السوء واصرم حباله
وسابق إلى الخيرات واسلك سبيلها وحصل علوم الدين واعرف رجاله

وتقدم فى كلام اليوسى ، قول الإمام الحميدى شيخ الإمام البخارى ، رحمه الله :

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال
ومن يطلب سوى هاتين أخطا وكلف نفسه طلب المحال

ومما ينسب للعارف بالله سيدى الفازى ، نفعنا الله به .

الزَم الوحدةَ تنجُو ... مَا بقى فى النَّاس خلة
واترُكِ الأصحابَ إلاّ ... صَاحِبـاً يَدعُوك لله
إنَّ وُدَّ الناس أضحى ... لِنفاقٍ أوْ لِعلّه
وَبِرزق الله فَاقنعْ ... إنَّ فى الحرْص مَذَلّه
آخرُ الدُّنيا فنـاءٌ ... ثُم يَبقى الملك لله

وفى الحديث : « طُوبى لمنْ تَواضعَ فى غَير منقصة ، وذل فى نفسه مِنْ غير مسكنة ، وأنفق من مال جمعهُ فى غيرْ معصية ، وخَالطَ أهل الفقه والحـكمة ، ورحِمَ أهل الذل والمسكنة . طُوبى لمنْ ذلتْ نفسهُ وطابَ كسبهُ وحَسُنتْ سريرتهُ وكرمتْ علانيتهُ ، وعَزَلَ عَن الناسِ شَرَّهُ . طُوبى لمن عَمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قولهِ » .

أخرجه الطبرانى والبيهقى وغيرهما بسند حسن .

قال المنوى : وهذا حديث عظيم الفوائد والآداب ، فعلى العاقل حفظه وتمرين النفس على العمل بمقتضاه . اهـ .

وقال المنوى أيضاً ، على حديث : « استكثروا من الإخوان فإن لـكل مؤمن شفاعة يوم القيامة » مانصه : أى من مؤاخاة المؤمنين الأخيار لا غيرهم فلا تندب مؤاخاتهم ، بل يتعين اجتنابهم ؛ وبذلك يجمع بين الأخبار ، فصحبة الأخيار تورث الخير ، وصحبة الأشرار تورث الشر ، كالريح تمر على النتن فتحمل نتناً ، وعلى الطيب فتحمل طيبا اهـ .

وقال أيضا على حديث : « لاتُصَاحبْ إلا مؤمناً ، ولا يأ كلُ طعامَكَ إلا تقِى » مانصه : وكامل الإيمان أولى ، لأن الطباع سراقة ، فصحبة الأخيار تورث الفلاح والنجاح ، ومجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحا ، والنظر

إلى الصور يؤثر أخلاقا وعقائد ، مناسبة لخلق المنظور وعقيدته ، كدوام النظر إلى المحزون يحزن ، وإلى المسرور يسر ، والجمل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الذلول ؛ فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان ، بل فى النبات والجماد ، ففى النفوس أولى ، وإنما سمى الإنسان إنسانا لأنه يأنس بما يراه من خير وشر . « ولا يأكل طعامك إلا تقى » لأن المطاعمة توجب الألفة ، وتؤدى إلى الخلطة ، ومخالطة غير التقى ، تخل بالدين وتوقع فى الشبه والمحظورات . اهـ

وقال أيضا على حديث : « مثلُ المؤمن كمثل العطار ، إنْ جالستهُ نفعك ، وإنْ شاركتهُ نفعك » . مانصه : فيه إرشاد إلى صحبة العلماء والصلحاء ومجالستهم ، وأنها نافعة فى الدارين . اهـ .

ويرحم الله القائل :

عليك بأهل الخير إن شئت صحبة ... ففى صُحْبة الأخيار تلقى الفوائدا
فَمَنْ خالطَ العَطّارَ طابَ بطيبه ... ومَن خالطَ الحدادَ نالَ السوائدَا

وقد قال مالك بن دينار : كل صاحب لا تستفيد منه خيراً فانبذ عنك صحبته .

وقيل الجلساء ثلاثة : جليس تستفيد منه فلازمه ، وجليس تفيده فالزمه ، وجليس لا تستفيد منه ولا تفيده فاهرب منه .

وقيل : مجالسة العلماء للاستفادة ، ومجالسة النظراء للمذاكرة ، ومجالسة الجهال للتعليم ، ومجالسة الموتى هو الوبال بكل حال . اهـ .

وقال الشيخ مولانا أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه : إن أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله ؛ فعليك برفض الناس جملة إلا من يدلك على الله ، وأعرض عن الدنيا بالكلية فإذا أعرضت عن الدنيا ، وزهدت فى الناس

فأقم مع الله بالمراقبة ، والتزام التوبة بالرعاية ، والاستغفار بالإنابة ، والخضوع للأحكام بالاستقامة . وتفسير هذه الوجوه أن تكون عبداً لله فيما تأتى وتذر . اهـ .

وفى «ممتع الأسماع» عن العارف بالله تعالى سيدى محمد بن سليمان الجزولى رضى الله عنه ، أنه قال : مخالطة العموم تذهب بنور القلب وهيبة الوجه من مات على مخالطة العموم جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر المخسوف لا نور فيه ، فليجتهد العاقل فى مخالطة الخصوص ؛ وفى مخالطة الخصوص ثلاث خصال : اكتساب العلم ، وصفاء القلب ، وسلامة الصدور . وقال أيضا ، رضى الله عنه : اهربوا من مجالسة الفجار . من جلس مع الفجار قسا قلبه ، ومن جلس مع الأبرار استنار قلبه ، ومن استنار قلبه جالت روحه . اهـ .

وفى الحديث : « جالس العلماء ، وصاحب الحكماء ، وخالط الكبراء » العلماءُ العارفون بالحلال والحرام ، والحكماءُ العارفون بصفات الله وأسمائه ، والكبراء هم العارفون بكلا الأمرين .

عليكَ بأربابِ الصدُورِ فمنْ غدا ... مضافاً لأربابِ الصدُورِ تصدرا
وإياكَ أنْ ترضى بِصحبةِ سَاقِطٍ ... فتنحطَ قدْراً منْ علاكَ وتُحقرا

وقيل :

صاحبْ ذوى الفضل تَسْعدْ من كرامتهم ... واخدمهم صادقاً وأصدقهم خبرا
كم صحبةٍ طوقتْ منْ يمنها دُرَرا ... وصحبة ألحقت منْ شؤمها ضرَرَا
وشاهدى كلبُ أهل الكهفِ مع ضعة ... مِنْ أجل صحبتهِمْ ، فى الوحى قد ذكرا

وقد قيل : النظر فى الأخيار ينور القلب ، فما بالك بمخالطتهم ! والنظر فى أهل الشر يسوِّده ، فما بالك بمخالطتهم !

وكان أحمد بن حرب ، رحمه الله تعالى ، يقول : ليس شىء أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين ، والنظر إلى أفعالهم ؛ وليس شىء أضر على القلب من مخالطة الفاسقين ، والنظر إلى أفعالهم .

وقال فى التنوير : أشد ما يعينك على الطاعة رؤية المطيعين ، وأشد ما يدخل بك فى الذنب رؤية المذنبين، كما قال ، صلى الله عليه وسلم : «المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل» . والنفس من شأنها التشبه والمحاكاة ، والتزين بصفات من قاربها والمضاهاة ، فصحبتك للغافلين معونة على وجود الغفلة ، إذ الغفلة ملائمة لها من أصل الوضع . فكيف إذا انضم إلى ذلك سبب مخالطة الغافلين ؟! هـ .

وفى الحديث : « أربع من سَعادةِ المؤمنِ : أنْ تكونَ زوجتهُ صالحة ، وأولادُهُ أبراراً ، وخلطاؤُه صالحينَ ، وأنْ يكونَ رزْقه فى بلدِه » . أخرجه ابن عساكر والديلمى وابن أبى الدنيا .

السادس : قال ابن جزى فى « قوانينه » : اختلفت مذاهب الناس فى صحبة الناس ، فمنهم من اختار الصحبة لقصد النفع والانتفاع ؛ ولفضل الأخوة فى الله، أى للأحاديث الكثيرة فى ذلك : كحديث : «المؤمنُ الذى يخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهم ، أفضل مِن المؤمنِ الذى لا يخالط الناسَ ولا يصبر على أذاهم » . وكحديث : « المسلم إذا زار أخاهُ المسلمَ تبعه سبعونَ ألف ملك يصلونَ

عليه ، يقولون : اللهم كما وصله فيك فصله » . وكحديث : « ما أحدثَ عبد أخا فى الله إلا أحدثَ الله له درجة فى الجنة » . وكحديث : « نظرة فى وجه أخ فى الله خير مِن أجرِ مَن اعتكفَ فى مسجدى أربعين سنة » . وكحديث : « يقول الله تعالى : وجبتْ محبتى للمتحابِّينَ فىَّ ، والمتجالسينَ فىَّ ، والمتزاورينَ فىَّ ، والمتباذلينَ فىَّ » . وكحديث : « إن الله تبارك وتعالى ، يقولُ يوم القيامة : اين المتحابُّونَ لجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظلَّ إلا ظلى » .

قال : ومنهم من اختار الانقباض والعزلة لأنها أقرب إلى السلامة ، ولأن شروط الصحبة قل ما توجد . اهـ .

وفى الصحيح : «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفرُّ بدينهِ من الفتن » .

قال القسطلانى : فالعزلة عند الفتنة ممدوحة، إلا القادر على إزالتها ، فتجب المخالطة عينا أو كفاية ، بحسب الحال والإمكان ؛ واختلف فيها عند عدمها :

فمذهب الشافعى : تفضيل الصحبة لتعلمه وتعليمه ، وعبادته وأدبه،وتحسين خلقه ، بحلم واحتمال ، وتواضع ومعرفة أحكام لازمة ، وتكثير سواد المسلمين ، وعيادة مريضهم ، وتشييع جنازتهم ، وحضور الجمعة والجماعات .

واختار آخرون : العزلة للسلامة المحققة ، وليعمل بما علم ، ويأنس بدوام ذكره . فبالصحبة والعزلة كمال المرء . نعم تجب العزلة لفقيه لا يسلم دينه بالصحبة، وتجب الصحبة لمن عرف الحق فاتبعه والباطل فاجتنبه ، وتجب على من جهل ذلك ليعمله فافهم . اهـ .

وفى الحديث : « ألا أخبركم بخير الناس منزلا ؟ رجل أخذ بعنان فرسه يجاهد فى سبيل الله . ألا أخبركم بخير الناس منزلا بعده ؟ رجل معتزل فى غنيمة يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويعبد الله لا يشرك به شيئا ، ويعتزل شرور الناس » .

وفى رواية : « قيل : ثم من ؟ قال : مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره » .

قال الزرقانى ، رحمه الله ، ما نصه : وإنما كان تلو المجاهد فى الفضل ؛ لأن مخالط الناس لا يسلم من ارتكاب الآثام ، فقد لا يفى هذا بهذا ، ففيه فضل العزلة لما فيها من السلامة من غيبة ولغو وغيرهما . لكن قال الجمهور : محل ذلك عند وقوع الفتن . ثم قال عن ابن عبد البر : إنما وردت الأحاديث بذكر الشعب والخيل ، لأن ذلك فى الأغلب يكون خاليا عن الناس ، فكل موضع بعيد عنهم داخل فى هذا المعنى . ا هـ .

وقال الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى ، رضى الله عنه ، فى « تنبيه المغترين » : ومن أخلاقهم ، رضى الله عنهم ، كثرة عزلتهم عن الناس ، وعدم كثرة مخالطتهم إلا لمصلحة شرعية ، وعلى ذلك درج السلف الصالح ؛ فكانوا كل يوم لا يجتمع بهم أحد فيه يعدونه عيداً ، فمن أكثر مخالطة الناس فقد خرج عن طريق سلفه وفاته النفع ، وذلك لأن من كثرت رؤية الناس له هان فى عيونهم وسقط عندهم ، ورأوه كأحدهم فى دناءة الأخلاق والغفلة عن الله تعالى .

قلت : وما أتذكر أنى زرت أحداً من مشايخ هذا العصر وسلم مجلسى معه من الغيبة إلا قليلا ، فلذلك أقللت من زيارتهم خوفا على دينى ودينهم ، لا تساهلا فى حقهم . فإذا كان هذا حكم مجالس الأشياخ فكيف بغيرهم ؟ قال :

وكان طلحة بن عبد الله ، رضى الله عنه يقول : من أراد أن يقل من معرفة الناس لعيوبه فليجلس فى بيته ، فمن خالط الناس ، سلب دينه ولا يشعر . وكان حذيفة بن اليمان ، رضى الله عنه ، يقول : وددت أن أغلق باب دارى فلا أخرج لأحد حتى أموت . قال : وكان أمير المؤمنين على ، رضى الله عنه يقول : سيأتى على الناس زمان لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا يستقيم لهم الغنى إلا بالبطر والبخل ، ولا يستقيم لهم صحبة الناس إلا باتباع الهوى ، فمن أدرك ذلك الزمان وصبر وحفظ نفسه ، أعطاه الله تعالى ثواب خمسين صديقا اهـ

وكان ، رضى الله عنه ، يقول : بلغنا أنه لا تكون الراحة لمؤمن فى آخر الزمان إلا إن كان خامل الذكر بين الناس . قال : وكان أبو الدرداء ، رضى الله عنه ، يقول : من خالط الناس فلابد أن يخربوا عليه قلبه . قال : وقد كان إبراهيم بن أدهم ، رحمه الله ، فى سفر ، فلما قدم منه . قالوا لسليمان الخواص رحمه الله : ألا تلقى إبراهيم ؟ فقال : أخاف إذا لقيته أتزين له بكلام فأهلك .

وقد كان الحسن بن صالح ، رحمه الله تعالى ، يقول : لقد أدركنا الناس ، وهم يتحابون من بعيد ويكرهون اللقاء . قال : وكان عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، يقول : خير جلوس الرجل فى قعر بيته لا يرى ولا يرى .

وكان سفيان الثورى ، رحمه الله ، يقول : والله لقد حقت . يعنى : وجبت العزلة عن الناس .

ودخل رجل على الفضيل مهاجمة ، فقام وترك البيت . فقال له الرجل : ما بالك ؟ فقال : وهل تريد إلا أن تتزين لى وأتزين لك ؟ وإنى والله لا أجد لذة ولا راحة إلا إذا كنت وحدى .

ثم قال : فاعلم ذلك يا أخى ، واعتزل عنهم جهدك فقد سمعت مقالاتهم في المائة الثانية ، فكيف بك وأنت فى المائة العاشرة ؟ وإياك أن يلعب بك إبليس ، ويقول لك : أنت بحمد الله قد وصلت فى المقام إلى حد لا يشغلك شيء عن ربك ، فإن ذلك من دسائس إبليس ، فإنك يا أخى بيقين أدون من هؤلاء السلف فى المقام ، فافهم ذلك . اهـ .

السابع : قال ابن جزى ، رحمه الله ، فى قوانينه أيضاً : الناس ثلاثة أصناف : أصدقاء وقليل ما هم ، ومعارف وهم أضر الناس عليك ، ومن لا يعرفك ولا تعرفه فقد سلمت منه وسلم منك .

فأما الصديق فشروطه سبعة :

أن يكون سنياً فى اعتقاده ؛ وأن يكون تقيا فى دينه ، فإن كان بدعيا أو فاسقا فربما جر صاحبه إلى مذهبه أو ظن الناس فيه ذلك ، فإن المرء على دين خليله .

وأن يكون عاقلا فصحبة الأحمق بلاء .

وأن يكون حسن الخلق فإن كان سيئه لم تؤمن عداوته .

وتختبره بأن تغضبه فإن غضب فاترك صحبته .

وأن يكون سليم الصدر فى الحضور والغيبة ، لا حقوداً ولا حسوداً ولا مريداً للشر ولا ذا وجهين .

وأن يكون ثابت العهد غير ملول ولا متلوّن .

وأن يقوم بحقك كما تقوم بحقوقه ، فلا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل الذى ترى له .

وحقوق الصديق سبعة :

الأول : المشاركة فى المال حتى لا يختص أحدهما بشىء دون الآخر منه .

الثانى : الإعانة بالنفس فى قضاء الحاجة ، وتقديم حاجته على حاجة نفسك .

الثالث : الموافقة على أقواله ، والمساعدة على أغراضه ، من غير مخالفة ولا منازعة ، فإن المخالفة توجب البغضاء .

الرابع : العفو عن الهفوات ، والإغضاء عن العيوب ، فمن طلب صديقا بلا عيب بقى بلا صديق .

الخامس : النصيحة له فى دينه ودنياه .

السادس : الخلوص فى مودته ، ظاهرا وباطنا ، وغائبا وحاضرا ، والانتصار له فى غيبته .

السابع : الدعاء له بظهر الغيب .

ثم قال : وموجبات المودة ثلاثة : أن تبدأ أخاك بالسلام ، وأن توسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه.

وجماع حسن الخلق ثلاثة : كف الأذى ، واحتمال الأذى ، وبذل المعروف . وجماع ذلك كله : أن تكون لأخيك كما تحب أن يكون لك . اهـ

وقد أشرت إلى شروط الصديق وحقوقه المذكورة بقولى :

شروطُ الصديقِ أتت سبعة فحققْ وجودَها فى الأصدقا
عقيدتهُ وافقتْ سنةً ودينُه بالتقى قد نسقَا
كذا خلق حسن ونُهـا سلامة صدره قد حققَا
ثبات على عهده دائماً ورَعيُ حُقوق بها يرتقى

حقوقه أيضا كذا عدهــــا   لحافظ إذا أنت شئت التقـــا
دعاء بظهـر المغيب كـذا   خلوص وداد له مطلقا
وعفو عن الهفـــــوات وزدْ   نصيحة دنيــــا ودين رقا
موافقـــــــة فى مراد إذا   رأيته لِلشرْع قدْ طابقا
وعون له فى حوائجـــــه   وَفقدُ اختصاص بما يُنتقىَ

فائدتان :

الأولى : يحكى أن رجلا كان فى عهد كسرى يقول : من يشترى ثلاث كلمات بألف دينار ؟ فكل من سمعه سخر به ، إلى أن اتصل بكسرى ؛ فقال . ما هن ؟ فقال : ليس فى الناس كلهم خير . فقال : صدقت . قال : ثم ماذا ؟ قال : ولا بد منهم . قال : صدقت . قال : ثم ماذا ؟ قال : فالبسهم على قدر ذلك . فقال كسرى : قد استوجبت المال فخذه . اهـ

ولله در الشافعى رحمه الله حيث يقول : الانبساط إلى الناس مجلبة للقرناء السوء ، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة ، فكن بين منبسط ومنقبض . اهـ

ولأبى نصر الجوهرى ، رحمه الله :

لَوْ كانَ لِى بُدٌّ مِنَ النّاسِ   قَطَعتُ حبْلَ النّاسِ بِالْياسِ
العِزُّ فِى العُزْلَةِ لـكِنَّـهُ   لا بُدّ للنّاسِ مِن النّاسِ

وقال بعض الحكماء : اصحب الناس على قدر دينهم ، وفر من الناس على قدر شرورهم ، واحذر من الناس على قدر مكرهم . اهـ .

وكان حاتم الأصم ، رحمه الله يقول : اجعل الناس كالنار فلا تدنو منهم إلا عند الحاجة ، وإذا دنوت منهم فكن على حذر ، كما تحذر من النار إذا دنوت منها .

وكان جعفر بن حميد ، رحمه الله تعالى ، يقول : الحق أنه لا بد لك من الناس ولا بد للناس منك ، فليكن كل منكما على حذر من الآخر . ا هـ .

الثانية : كان أيوب السختيانى رحمه الله يقول : إن من العزلة عن الناس ، إذا خرجت لحاجة أن تقصد المشى فى المواضع القليلة الناس . ا هـ .

وفقنا الله لما فيه رضاه . وألهمنا سلوك طريق نبيه ومصطفاه ، ومن علينا بذوق معانى الأسرار العرفانية ، والاستضاءة بأنوارها السنية ، بجاه أفضل البرية ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية .

ما قيل فى العلائق والعوائق

[واقْطَعْ إذَا رُمْتَ العُلا العَلائِقْ وادْفَعْ بِجُنَّةِ التقَى العَوَائِقْ]

لما كان لا سبيل للترقى إلى المعالى ، ولا طريق للتوصل إلى الانخراط فى سلك السادات والموالى ، إلا بقطع كل علاقة تمنع من الوصول ، ودفع كل عائق يمنع من الجولان فى ميدان الفحول ، نبه الناظم على ذلك بهذا البيت .

والمعنى : إذا رمت أيها العاقل الترقى إلى العلا ، والاتصاف بمراتب أهل الكمال الأعلى ، فاقطع عنك العلائق المنافية لذلك ، وادفع بوقاية التقوى ما يعوقك عن الوصول إلى هنالك ، وذلك : كالرياء والسمعة والعجب ، وحب المحمدة والكبر والخيلاء والفخر ، والخوض فيما لا يعنى ، والطمع وخوف الفقر ، والإعراض عن الحق استكبارا . وسخط المقدور والبطر والتنافس فى الدنيا ، والمباهاة والتزين للمخلوقين والمداهنة ، وحب المدح بما لم يفعل والحمية ، والرغبة والرهبة لغير الله تعالى ، وغير ذلك من الأدواء المفسدة للقلوب ، المبعدة لذويها عن علام الغيوب ، فهى المانعة من الوصول ، والعائقة عن الظفر بالمأمول .

وقد تصدى لشرحها وبيان أدويتها غير واحد من الأئمة العارفين كالغزالى، وأبى طالب المكى ، والشيخ زروق رضى الله عنه .

والتقوى هى أصل دوائها ، وجماع طبها وعلاجها ، فمن تحلى بها فقد حاز الشرف الأتم ، وحصل على النفع الشامل الأعم ، ولهذا أشار فى « المرشد المعين » بقوله : وهى للسالك سبل المنفعة ، أى أنها التى توصل السالك إلى ربه ، وتبلغه إلى حضرة قربه ، فيربح فى تجارته ، ويسعد فى دنياه وآخرته . وهى فى الشرع اجتناب النواهى المتعلقة بالظاهر ، وذلك بترك المعاصى المتعلقة بالجوارح السبعة المشار إليها بقول « المرشد » أيضا : يغض عينه عن المحارم ، والمتعلقة بالباطن المشار إليها بقوله أيضا : يطهر القلب من الرياء . وامتثال الأوامر المتعلقة بالظاهر المشار إليها بقوله أيضا : قواعد الإسلام إلخ . وبقوله : ويحفظ المفروض رأس المال . إلخ . والمتعلقة بالباطن كمقامات اليقين المشار إليها بقوله أيضا : خوف ، رجاء شكر وصبر، توبة إلخ .

وقد تطلق على اجتناب ما يطلب اجتنابه كما فى كلام ابن جزى حيث قال : درجات التقوى خمس : تقوى الكفر ، وهو مقام الإسلام ، وتقوى المحرمات ، وهو مقام التوبة ؛ وتقوى الشبهات ، وهو مقام الورع ، وتقوى المباحات ، وهو مقام الزهد . وتقوى خطور غير الله على القلب ، وهو مقام المشاهدة . اهـ

وتقدم الكلام عليها بما يشفى فى قول الناظم : وزين العلم بزينة الورع إلخ .

قول الناظم : « واقطع » : هو أمر من القطع ، وهو فى الأصل الإبانة .

قال الراغب : القطع قد يكون مدركا بالبصر كقطع اللحم ونحوه ، وقد يكون مدركا بالبصيرة كقطع السبيل . اهـ.

وهذا الثانى هو المراد هنا إذ قطع العلائق المنافية للوصول ، مدرك بالبصيرة ، كما هو ظاهر .

« ورمت » : مسند لتاء المخاطب من الرَّوْم ، وهو الطلب ، يقال : رام الشيء يرومه روما ومراما : طلبه .

والعلا (كهدى) : الشرف والرفعة ، والمراد هنا مقامات العارفين وأحوال الواصلين .

والعلائق (جمع علاقة) : وهى بفتح العين مصدر عَلِق كفرح ، وعلق به علاقة هويه وأحبه .

وادفع : أمر من الدفع ، هو الإزالة بقوة . ومن كلامهم : ادفع الشر ولو إصبعاً .

والجنة (بضم الجيم ، وشد النون) الدروع وكل ما وقى من السلاح ، وإضافتها هنا للتقى من إضافة المشبه به للمشبه ، أى التقى الشبيه بالجنة ، فى كون كل منهما يقى الملابس له من المكاره والموقى منه فى المشبه به حسى ، وفى المشبه معنوى .

والعوائق : جمع عائق اسم فاعل عاق، من العوق بفتح فسكون ، مايعوق عن الخير ، أى يثبط ويصرف ويشغل عنه . وعوائق الدهر الشواغل من أحداثه . والمراد بها كالعلائق ما تقدم ذكره ، والله أعلم .

قيام الليل وما ورد فيه :

ثم قال :

[واهجر لذيذ النوم والهجود وادأب على الركوع والسجود]

[فالليل نعم العون والمطية لراغب فى أشرف العطية]

[كيف يلذّ النوم من لايعلم   يسلم فى عقباه أو لايسلم]

لاشك أن من أعظم العوائق المانعة من اللحوق بمراتب أهل الكمال، الإكثار من النوم المانع من اغتنام صالح الأعمال ، المتضمن مع ذلك تضييع العمر بلا طائل ، وخسران العاجل والآجل ، ولذلك أمر الناظم بهجرانه و الإعراض عن لذته ، والدؤوب والاجتهاد فيما ينفع المرء فى يوم حسرته ، من القيام بوظائف العبادات ، وتكثير نوافل الطاعات ، سيما الركوع والسجود ، إذ فيهما رضى الملك المعبود .

فقد جاء فى صحيح الأخبار ومعتمد الأسانيد ، ما هو معضد لهذا وشاهد :

ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى (وفى لفظ) استعاذ بى لأعيذنه » .

قال الشبرخيتى ، رحمه الله ، فى شرح الأربعين » : وهذا الحديث أصل فى السلوك إلى الله تعالى ، والوصول إلى معرفته ومحبته وطريقته .

وروى مسلم وأبو داوود والنسائى وأحمد وأبو يعلى ، عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أقرب مايكون العبد إلى ربه وهو ساجد، فأكثروا فيه الدعاء » .

وفى رواية : « فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمن أن يستجاب لكم » .

وروى مسلم أيضا عن ابن عباس قال: كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الستارة، والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، ألا إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمن أن يستجاب لكم».

وأفضل الأوقات للعبادة وأوجبها للحسنى والزيادة، الليل الذي هو وقت استئناس الخليل بخليله عند وصاله، وحضور القلب وفراغه من أشغاله، «فنعم المطية» هو الموصلة إلى المرغوب، «ونعم العون» على اكتساب ما ينور القلوب لمن يرغب في نيل أشرف العطايا ويجهد في تحصيل رضى خالق البرايا، ولذلك ورد في الترغيب في قيام الليل ما هو كثير، ويكفي في ذلك قول مولانا العليم الخبير، في وصف عباده الصالحين: «والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً». أي تمكنت عظمته من قلوبهم ومحبته من أرواحهم، فآثروا عبادته على نومهم، وقدموا خدمته ورضاه على هوى نفوسهم، وراحة أبدانهم. وقال تعالى: «كانوا قليلاً منَ الليلِ ما يهجعونَ، وبالأسحارِ هم يستغفرونَ». وقال تعالى، مادحا لقوامه ومثنيا عليهم بأبلغ ما أثنى به المثنون: «تتجافى جُنوبُهُمْ عَن المضاجِعِ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومِمَّا رزقناهُمْ ينفقون فَلاَ تعلَمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أعيُنٍ جزاءً بما كانوا يعملونَ».

في تفسير الخطيب ما نصه: «تتجافى»، أي ترتفع وتنبو جنوبهم عن المضاجع، عبر به على ترك النوم.

قال ابن رواحة:

نبيٌّ تجافَى جنبُه عن فراشهِ إذا استَثقلَتْ بالمشركينَ المضاجِعُ

والمضاجع : جمع المضجع ، وهو الموضع الذى يضجع عليه يعنى الفراش ، وهم المتهجدون الذين يقيمون الصلاة .

قال أنس : نزلت فينا معاشرَ الأنصار ، كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى صلى الله عليه وسلم . وعن أنس أيضاً قال : نزلت فى أناس من أصحاب النبى ، صلى الله عليه وسلم ، كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء .

قال عطاء : هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « من صلىَّ العشاء فى جماعة كان كقيام نصف ليلةٍ ، ومن صلىَّ الفجرَ فى جماعةٍ كان كقيام ليلةٍ » .

وعن أنس : كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء . وعنه أيضا قال : ما رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، راقداً قط قبل العشاء ، ولا متحدثا بعدها ، فإن هذه الآية نزلت فى ذلك .

وعن ابن عباس : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « هُمُ الذين لا ينامون قبل العشاءِ » فأثنى عليهم ، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقه ، قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير .

وعن مالك بن دينار قال : سألت أنسا عن هذه الآية ، فقال : كان قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الأولين يصلون المغرب ، ويصلون بعدها إلى العشاء الآخرة ، فنزلت هذه الآية فيهم .

وعن ابن أبى حازم قال : هى ما بين المغرب والعشاء صلاة الأوابين .

وعن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال فى قوله تعالى : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع » قال : « قيام العبد من الليل » ا هـ .

وقال الخازن ما نصه : « تتجافى » أى ترفع وتنبو «عن المضاجع» جمع مضجع وهو الموضع الذى يضطجع عليه ، يعنى الفرش ، وهم المتهجدون بالليل ، والذين يقيمون الصلاة . ثم قال : وعن أنس فى قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » . نزلت فى أشطار الصلاة التى تدعى العتمة . أخرجه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح غريب .

وفى رواية أبى داود عنه قال : كانوا يتنفلون ما بين المغرب والعشاء ، أى يصلون ، وهو قول أبى حازم ومحمد بن المنكدر . وقيل : هى صلاة الأوابين .

وروى عن ابن عباس قال : إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهى صلاة الأوابين.

وقال عطاء : هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : «من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله » . أخرجه مسلم من حديث عثمان بن عفان .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: « لو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً » اهـ .

وقال النسفى ما نصه : «تتجافى» أى ترتفع وتتنحى جنوبهم «عن المضاجع» أى عن الفرش ومضاجع النوم .

قال سهل : وهب هبة لقوم وهو أن أذن لهم فى مناجاته ، وجعلهم من أهل وسيلته ، ثم مدحهم عليه فقال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » ، قال : وهم المتهجدون .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها : « قيام العبد من الليل » .

وعن ابن عطاء : أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة ، وطلبت بساط القربة ؛ يعنى : صلاة الليل . اهـ المراد منه .

قال الخازن : وأشهر الأقاويل : أن المراد منه صلاة الليل ، وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة ا هـ .

وقال الشبرخيتي ، في شرح حديث معاذ الآتي من الأربعين النووية مانصه : وجمهور المفسرين على أن مافي الآية كناية عن كثرة النفل بالليل ، فإنهم أخفوا أعمالهم فجوزوا بما أخفي لهم من قرة أعين ، فما قيل : إنه كناية عن الصلاة بين العشاءين ، يرده ظاهر سياق هذا الحديث . ا هـ .

قال الخازن : وعن معاذ بن جبل قال : « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سَفرةٍ فأصبحت يوماً قريباً منه ، وهو يسير فقلت : يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ؟ قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفيء الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ « يعملون » . ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام ، وعمودهُ الصلاة ، وذروة سنامهِ الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى يا نبي الله ؛ فأخذ بلسانه فقال : اكفف عليك هذا . فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يامعاذ . وهل يكب الناس في النار على وجوههم . أو قال : على مناخرهم ، إلا حَصائد ألسنتهم ؟ أخرجه الترمذي .

وعن أبي أمامة الباهلي ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى ربكم ، وتكفير للسيئات ، ومنهاة عن الآثام ، ومطردة الداء عن الجسد » . أخرجه الترمذي .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجب

ربنا من رجلين : رجل ثار عن أوطانه ولحافه من بين جنبيه وأهله ، إلى صلاته رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى . ورجل غزا فى سبيل الله وانهزم مع أصحابه فعلم ماعليه فى الانهزام ، وماله فى الرجوع ، فرجع حتى أهريق دمه . فيقول الله تعالى لملائكته : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى حتى أهريق دمه » . أخرجه الترمذى بمعناه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » .

وعن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمت قدماه ، فقلت : لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

وعن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة غرفاً يرى باطنها من ظاهرها ، وظاهرها من باطنها ، أعدها الله لمن ألان له الكلام وأطعم الطعام ، وتابع الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » . أخرجه الترمذى . اهـ

قال الخطيب : وأخرج البيهقى فى «شعب الإيمان» عن ربيعة الجرشى قال : « يجمع الله الخلائق يوم القيامة فى صعيد واحد ، فيكونون ماشاء الله أن يكونوا ، ثم ينادى مناد : سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ، ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً فيقومون ، وفيهم قلة ، ثم يلبث ما شاء الله أن يلبث ، ثم يعود فينادى المنادى : سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ؛ ليقم الذين لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

فيقيومون ، وهم أكثر من الأولين ؛ ثم يلبثُ ماشاء اللهُ أن يلبثَ ، ثم يعود وينادى : سيعلم أهل الجمع لمن العزُّ اليوم والكرم ، ليقمْ الحامدون على كلِّ حالٍ ، فيقومون ، وهم أكثر من الأولين . اهـ .

قلت : وفى رواية أخرى لهذا الحديث ذكرها الشبرخيتى فى «شرح الأربعين» : «إذا جمع الله الأولين والآخرين نادى منادٍ بصوتٍ يسمع الخلائقَ : سيعلمُ أهلُ الجمع اليوم من أَوْلىَ بالكرم ، ليقم الذين كانت تتجافى جنوبُهُم عن المضاجع فيقومون ، وهم قليلٌ . ثم ينادى منادٍ : ليقم الذين كانت لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر الله فيقومون ، وهم قليلٌ . ثم ينادى منادٍ : ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون ، وهم قليل ، ثم يحاسب سائر الناس» . اهـ

ثم قال الخطيب : وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : « تتجافى جنوبهمُ عن المضاجع » . يقول : تتجافى لذكر الله ، إماً فى الصلاة ، وإماً فى قيامٍ أو قعود أو على جنوبهم لايزالون يذكرون الله » .

وقال أيضا ، قبل هذا عن كعب : « إذا حشر الناس نادى منادٍ : هذا يوم الفصل . أين الذين تتجافى جنوبهمُ عن المضاجع ؟ أين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ؟ ثم يخرج عنقٌ من النار فيقول : أمرت بثلاثة : بمنْ جعل مع الله إلهاً آخر ، وبكل جبار عنيد ، وبكل معتد ؟ لأنا أعرف بالرجل من الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ويؤمر بفقراءِ المسلمين إلى الجنةِ فيحبسونَ فيقولون : تحبسونا ! ما كانَ لناَ أموالٌ وما كنـّا أمراء » . اهـ

قلت : وفى الحديث : « من كثرتْ صلاته بالليلِ ضاء وجهه بالنّهارِ » .

وروى أن أول ماتكلمَ به عليه السلامُ فى المدينة حين قدم من مكة : «أفشُوا السلام ، وأطعموا الطعامَ ، وصلوا الأرحامَ ، وصلوا بالليلِ والناسُ نيامٌ ، تدخلوا الجنةَ بسلام » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « رحم الله رجلا قام فى الليل فصلى ، ثم أيقظ أهله فصلوا ؛ رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى » .

ومن حديث أنس : « مازال جبريل يوصينى بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتى لاينامون ليلا » .

قال الشبراخيتى : وقد جاء فى الحديث : « أن الله تعالى يباهى بقوام الليل فى الظلام الملائكة يقول : انظروا إلى عبادى قد قاموا فى ظلم الليل حيث لا يراهم أحد غيرى ، وأشهد كم أنى قد أبحتهم دار كرامتى » .

قال : وفى مسلم : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل » .

وقال أيضا ، قبل هذا : « وأوحى الله إلى داوود . ياداوود كذب فى محبتى من إذا جن ليله نام عنى » .

ولما قال الخليل لابنه : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، قال له : ياأبت هذا جزاء من نام عن حبيبه لو لم تنم ما أمرت بالذبح !

وقيل للحسن البصرى : مابال المتهجدين من أحسن الناس وجوها ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره .

ثم قال : ورئى الجنيد بعد موته فقيل له : مافعل الله بك ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت العلوم ، ونفدت الرسوم ، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها عند السحر .

قال : وقد اجتهد السلف الصالح من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، فى قيام الليل كعثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، فإنه كان يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعة أوله ، وكان يجمع القرآن فى ركعة .

وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكان زوّجه أبوه امرأة من قريش ،

ثم جاء إليها ، فقال : كيف وجدت بعلك ؟ قالت : خير الرجال لم يلبس لنا كساء ، ولم يعرف لنا فراشا !

وعبد الله بن حنظلة : قال مولى له يقال له : سعد : لم يكن لعبد الله فراش ينام عليه ، إنما كان يلقى نفسه هكذا ، إذ عيي من الصلاة توسد رداءه وذراعه ، ثم يهجع قليلا .

وصفوان بن سليم ، كان أعطى الله عهدا أنه لا يضع جنبه على الأرض ، فلما نزل به الموت ، قيل له : رحمك الله ألا تضطجع ؟ قال : ما وفيت بالعهد إذاً فاستند . ومازال كذلك حتى خرجت نفسه . قال أهل المدينة : وتثقبت جبهته من كثرة السجود .

وعروة بن الزبير ، كان يقرأ القرآن كل يوم نظرا فى المصحف ، ويقوم به الليل ، فما تراه تركه إلا ليلة قطعت رجله ، ثم عاوده من الليلة المقبلة .

وسفيان الثورى ، كان يقول إذا جاء الليل : هذه ليلتى التى أمرت فيها فما ينام حتى يصبح ! وإذا أصبح قال كذلك ! ويلبس الثياب الرقاق فى البرد حتى يمنعه البرد من النوم .

وعامر بن عبد قيس ، كان إذا جاء الليل قال : أذهب عنى النوم حر النار فما ينام حتى يصبح .

وصهيب ، حكى الإمام مالك عنه أنه كان بمكة فقالت له امرأته : أفسدت نفسك ؛ نهارك صائم وليلك قائم . فقال : يا مولاتى إذا ذكرت النار طار نومى ، وإذا ذكرت الجنة استقر حزنى .

والسرى السقطى ، كان ورده فى الليل والنهار خمسمائة ركعة .

والإمام أبى الحسن الأشعرى ، أقام نيفاً وعشرين سنة يصلى الصبح بوضوء العشاء الآخرة

وعبد العزيز بن أبي داوود ، كان يأتي فراشه فيمر يده عليه ، ويقول : والله إنك لين ، وفراش الجنة ألين منك فيدرجه ، ويصلي الليل كله .

وكان سيدي عبد الوهاب الشعراني : قبل بلوغه ، ربما ختم القرآن في ركعة واحدة[1] .

وكان أبو بكر كثيرا ما ينشد ويقول :

الشوقُ والوجدُ فِي مكانِي ... قدْ مَنعانِي عنِ القرارِ
فيَّ هُمَا ، لا يُفارِقانِي ... فذَا شِعارِي ، وذَا دِثارِي

وكان سري السقطي ينشد ويقول :

لَا فِي النهارِ ، ولاَ فِي الليلِ لِي فرَجٌ ... فَلا أُبالِي أطالَ الليلُ أمْ قَصرَا
لِأنني طُولَ لَيلي هائمٌ دَنِفٌ ... وبالنهارِ أُقاسِي الهم والكدَرَا

وعن علي بن بكار قال : لي منذ أربعين سنة ، ماأحزنني إلا طلوع الفجر.

وكان سيدي أحمد الرفاعي يقول :

إذَا جَن لَيلي هامَ قلبي بِذكرِكم ... أنوحُ كما نَاحَ الحمامُ المطوقُ
وفوْقي سَحابٌ تمطرُ الهمَّ والأسَا ... وتحتي بِحارٌ بِالأسا تَتدفقُ
سَلوا أم عمرو كيفَ باتَ أسيرُها ... تفك الأسارى دُونهَ وهوَ موثقُ ؟
فَلا هوَ مَقتولٌ فَفِي القتلِ راحةٌ ... ولا هوَ ممنون عليهِ فَيعتقُ

اهـ . منه بلفظه .

---

(١) وكذا كان هذا الشارح ، رحمه الله ، فقد حكى أهله : أنه كان يقوم الليل وسنه أربع عشرة سنة واستمر على ذلك إلى وفاته ، وكان ورده في الليل أربعة أحزاب صيفا وشتاء

قلت : وروى أن سيدنا عمر ، رضى الله عنه ، كان يقوم الليل ، فلما ولى الخلافة كان لا ينام حتى نهارا ، لاشتغاله ليلا بأمر ربه ، ونهارا بأمور خلقه . وفى الحقيقة كلها لله ، وإنما كان نومه خفقانا برأسه وهو جالس ، وكان يقول : إذا نمت فى الليل ضيعت نفسى ؛ وإن نمت فى النهار ضيعت رعيتى ، وأنا مسئول عنهم .

وكان ابن مسعود يقوم للتهجد ، إذا هدأت العيون ، فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح .

وكان سفيان الثورى إذا غفل فأكل كثيرا يقوم الليلة كلها ، ويقول : إن الحمار إذا زيد فى علفه زيد فى تعبه فى الأحمال .

وكان طاوس يقول : إن خوف جهنم أذهب نوم العابدين .

وكان أبو حنيفة ، وبشر الحافى ، ومالك بن دينار ، وزيد الرقاشى ، والثورى ، وابن أدهم ؛ يقومون الليل كله على الدوام إلى أن ماتوا .

وقالوا مرة لبشر : ألا تشرع لك فى الليل ساعة ؟ فقال : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه وقطر منها الدم ، مع أن الله قد غفر له ما تقدم له من ذنبه وما تأخر ، فكيف أنام أنا ! ولم أعلم أن الله قد غفر لى ذنبا واحدا ؟

وكان أبو الأحوص يقول : أدركنا العلماء والعباد وهم لا ينامون الليل ، وكنت إذا طفت بدار أو بمسجد فى الليل سمعت فيه دويا كدوى النحل . فما بال أهل زماننا يأمنون مما كان أولئك يخافون ؟

وكان عتبة الغلام يقول إذا توضأ من الليل ، قبل أن ينتصب إلى الصلاة : اللهم إنى قد حملت نفسى مالا أطيق من المعاصى والقبائح ، حتى استحققت

المسخ والخسف ودخول النار ؛ وها أنا أريد أن أقف بين يديك ، خلف كل عارض على وجه الأرض ، رجاء أن يغفر لأحد منهم فيصيبنى منه شيء من المغفرة.

وكان ثابت البنانى ، يصلى الليل كله ، ويقول لأهل داره : قوموا فصلوا فإن قيام الليل أهون من مكابدة أهوال يوم القيامة .

وكان الفضيل بن عياض يقول : بلغنا أن الله تعالى يقول حين يتجلى من الليل : أين المدعون لمحبتى فى النهار ؟ أليس كل محب يريد الخلوة بحبيبه ؟ فها أنا الآن مطلع على أحبائى ! يكلمو ننى على الحضور ويخاطبوننى على المشاهدة، وغداً أقر عينهم فى جنتى .

وكان المغيرة بن حبيب يقول : رمقت ليلة مالك بن دينار ، وقد انتصب بين يدى الله بعد العشاء قابضا على لحيته ، فما يزال يبكى ويقول : يارب ارحم شيبة مالك إلى أن طلع الفجر .

ونام إبراهيم بن أدهم ليلة فى بيت المقدس ، فسمع صوتا من جانب الصخرة يقول : قيام الليل يطفىء لهب النار ، ويثبت الأقدام على الصراط ، فلا تتساهل فى قيامه فما تركه بعد حتى مات .

وكان أبو حنيفة ، رضى الله عنه ، يحيى نصف الليل ، فأشار إليه إنسان وهو يمشى ، وقال لغيره : هذا يحيى الليل كله ، فلم يزل بعد ذلك يحيى الليل كله وقال : إنى استحييت من الله أن أوصف بما ليس فىّ من عبادة .

فلله در أقوام أعيادهم قبول الأعمال ، ومرادهم بلوغ الآمال ، وأحوالهم تجرى على تمام وكمال ، وجمالهم بالتقوى ، ويا له من جمال ! إذا رجع الناس إلى لذاتهم ، رجعوا إلى عباداتهم ، وإذا سكن الخلق إلى أوطانهم سكنوا إلى

حرقات أشجانهم ، وإذا أقبل التجار على أموالهم ، أقبلوا على تفقد أحوالهم ، وإذا التــذ الغافلون بالنوم على جنوبهم ، تلذذوا فى الدجى بكلام محبوبهم ، مثلوا الآخرة بين أيديهم فجدوا ، ومثلوا المنادى يناديهم فاستعدوا ، وأقبلوا بالصدق إلى باب مولاهم فما ردوا ، أقلقهم ذكر الذنوب فما ناموا ، وحركهم رجاء المطلوب فقاموا ، وذكروا العرض يوم تبــدل الأرض غير الأرض فاستقاموا ، وتفــكروا فى قصر الأجل فاجتهدوا فى الخدمة وداموا ، وتذكروا سالف الذنوب فوبخوا أنفسهم ولاموا ، وراموا السلامة فى دار المقامة فبلغوا ما أملوا وراموا .

فانتبه يا هذا من رقدة إعراضك وتجافيك ، وأصلح ظاهرك بالتقوى قبل أن يعسر تلافيك ، وتزود للرحيل فالقليل لا يكفيك ، وامح ذنوبك بكف الإنابة لعل مولاك من خطاياك يعفيك ، وداو أمراض أملك بشراب ذِكر أجلك ، وسل المولى لعله يشفيك .

وبالجملة من آمن بالقيامة لا محالة خاف من شدة أهوالها ، ومن لا خبرة له بعاقبة أمره وماهى خاتمته ، لم يستلذ نوما ، ولم يساعد النفس الأمارة فى لذاتها ، وكابد سهر الليالى الحالــكة القريبة مدتها ، عسى أن ينال ما تقر به الأعين ، وهو الجنان ونعيمها ، فإن من عرف ما قصد ، هان عليه ما وجد .

والله يتولى هدانا ، ويوفقنا لمـا فيه صلاحنا . إنه ولى التوفيق ، الهادى من يشاء إلى أقوم طريق .

ولهذا المعنى يشير الناظم بقوله : « كيف يلذ النوم » . إلخ .

والمعنى : أن من أعظم العجائب استلذاذنا للنوم أى وغيره من الشهوات مع كون الأمر مغيبا عنا ؛ هل نحن من الفائزين الذين عاقبتهم السلامة ، أو من

الهالكين الذين مآلهم الندامة ؟ فالشيطان قد استحوذ علينا ، والغفلة الموبقة قد عمتنا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا مشتكَى إلا إلى الله

فهو زيادة من الناظم فى النصح ومبالغة فيه ، وتأكيد فى الأمر بالتهجد وهجران النوم الموقع فى الخسران ذويه .

قول الناظم : « واهجر » هو أمر من الهجران ، وهو الترك للشيء والإعراض عنه . يقال : هجره يهجره هجراً (بالفتح) ، وهجرانا (بالكسر) صرفه وقطعه ، وهجر الشيء تركه وأغفله وأعرض عنه . ومنه حديث أبى الدرداء : ولا يسمعون القرآن إلا هجرا ، يريد : الترك والإعراض عنه .

« والذيذ النوم » هو من إضافة الصفة للموصوف ، أى النوم اللذيذ ، أى المشتهى والمستلذ لأنه من أعظم مشتهيات النفوس ومستلذاتها لما فيه من الدعة والراحة . ولذلك قيل :

إن النعاس والكسل　　　أحلى مذاقا من عسل
إن لم تصدقنى فسل　　　من كان قبلى قد كسل

وعطف الهجود عليه من عطف المرادف ، لأن الهجود (بالضم) النوم يقال هجد القوم هجوداً : ناموا . ويقال أيضاً : هجد وتهجد ، أى سهر فهو من أسماء الأضداد .

« وادأب » . أمر من الدءوب وهو الجد والاجتهاد ، يقال : دأب فلان فى عمله كمنع دأبا بالسكون ويحرك ، ودءوبا (بالضم) : جد وتعب فهو دَئب كفرح . والدأب أيضاً : الشأن والعادة والملازمة ، يقال : هذا دأبك ، أى شأنك وعملك .

وفى الحديث المتقدم : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم » .
الدأب : العادة والشأن ، وهو من دأب فى العمل إذا جد وتعب . ويقال أيضاً دأبت أدأب دأبا ودؤبا : اجتهدت فى الشيء . ومنه كما قال الأزهرى : « كدأب آل فرعون » أى أن اجتهادهم فى كفرهم وتظاهرهم على النبى ؛ صلى الله عليه وسلم ، كتظاهر آل فرعون على موسى عليه الصلاة والسلام .

وقوله : « على الركوع والسجود » أى الصلاة الليلية عبر عنها بما ذكر مجازا مرسلا علاقته الكلية ، أى فهى من التعبير بالجزء وإرادة الكل .
والله أعلم .

« ونعم » : فعل مدح ، وهو وبئس فعلان ماضيان لا يتصرفان تصرف سائر الأفعال ؛ لأنهما استعملا للحال بمعنى الماضى ؛ فنعم مدح وبئس ذم . وفيهما أربع لغات ذكرها الجوهرى نعم كعلم ؛ ونعم بكسرتين وبكسر فسكون وبفتح فسكون ؛ لكن أشهرها كسر النون مع السكون للعين ؛ ثم فتح النون مع سكون العين ، ثم فتح النون وكسر العين ثم كسرهما . قاله ابن الأثير . ولا يدخل عند سيبويه إلا على ما فيه « ال » مظهرا كقولك : نعم الرجل زيد ، ومضمرا كقولك : نعم رجلا زيد .

قال الأزهرى : إذا كان مع نعم وبئس اسم جنس بغير أل فهو نصب أبدا وإن كانت فيه فهو رفع أبدا ، وذلك كقولك : نعم رجلا زيد ، ونعم الرجل زيد . ونصبت رجلا على التمييز . ولا يعملان فى اسم علم ، وإنما يعملان فى اسم منكور دال على جنس ، واسم فيه ألف ولام تدل على جنس . اهـ .

وفى الصحاح : وتقول : نعم الرجل زيد ، ونعم المرأة هند ، وإن شئت قلت : نعمت المرأة هند ، فالرجل فاعل نعم وزيد يرتفع من وجهين . أحدهما أن يكون مبتدأ قدم عليه خبره ، والثانى أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، وذلك

أنك لما قلت : نعم الرجل . قيل لك : من هو ؟ وقدرت أنه قيل لك ذلك فقلت : هو زيد ، وحذفت هو على عادة العرب ، فى حذف المبتدأ والخبر إذا عرف المحذوف ، وهو زيد . وإذا قلت : نعم رجلا فقد أضمرت فى نعم : الرجل بالألف واللام مرفوعا ، وفسرته بقولك : رجلا لأن فاعل نعم وبئس لا يكون إلا معرفة بالألف واللام ، أو ما يضاف إلى ما فيه الألف واللام ، ويراد به تعريف الجنس لا تعريف العهد ، أو نكرة منصوبة . اهـ

والعون : الظهور على الأمر أى المعين عليه للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ويكسر على أعوان ، تقول العرب : إذا جاء السَّنَةُ جاءت معها أعوانها ، يعنون بالسَّنة : الجدبَ وبالأعوان : الجراد والذباب والأمراض .

وقال الليث : كل شىء أعانك فهو عون لك كالصوم عون على العبادة ، والجمع أعوان اهـ

يعنى : وكالليل عون على العبادة ، والتقرب إلى الله لأنه وقت هدوء وسكون ، فالمشوش فيه مفقود ، والقلب فيه حاضر ، والبال فيه مجموع ، فنعم العون هو على ذلك ، كما قال الناظم .

« والمطية » : فى الأصل الدابة تمطو فى سيرها ، أى تسرع ، الجمع مطايا ومطىٌّ . وقيل : الناقة يرُكب مطاها ، أى ظهرها ؛ أو البعير يمتطى ظهره . وهى فى كلام الناظم عطف على العون الذى هو فاعل نعم ، وفيه حذف مضاف ، أى شبيه المطية فى كون كل منهما وسيلة لحصول المرغوب فيه ، فالمطية يتوصل عليها ، والليل يتوصل فيه ، أى نعم العون هو ، ونعم شبيه المطية هو .

وراغب : اسم فاعل رغب فى الشىء كسمع يرغب رغبا (بالفتح ويضم) ورغبة ورغبى كسكرى ورغبا (بالتحريك) ؛ أراده وطمع فيه .

وفى حديث أسماء : أتتنى أمى وهى راغبة فى العهد الذى كان بين رسول

الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، وهى كافرة ، فسألتنى فسألت النبى صلى الله عليه وسلم : أأصلها ؟ قال : نعم. قال الأزهرى :راغبةأى طامعة تسأل شيئا .

يقال : رغبت إلى فلان فى كذا وكذا : أى سألته إياه .

وفى حديث آخر : « كيف أنتم إذا مرج الدين وظهرت الرغبة » أى كثر السؤال ؛ ومعنى ظهور الرغبة الحرص على الجمع مع منع الحق . رغب يرغب رغبة إذا حرص على الشىء وطمع فيه . والرغبة السؤال والطلب . اهـ

« وأشرف » : أفعل تفضيل من الشرف ، وهو العلو والرفعة ، أى أعلى العطايا وأرفعها .

« والعطية » : كالعطاء مايعطى وجمعه عطايا . ولاشك أن أشرف العطايا رِضَى اللهِ وجنتُه . وطريق الوصول إلى ذلك عبادته ، ولا سيما فى الليل ، ولا سيما فى آخره .

« وكيف » : اسم استفهام فيه معنى التعجب ، أى اعجب أيها السامع ممن يستلذ النوم ، وهو لا يدرى أتسلم عاقبة أمره أم لا . ويحتمل أن يكون استخبارا على طريق التنبيه المخاطب أو توبيخا له .

« ويلذ » : مضارع لذ الشىء ولذ به يتعدى ولا يتعدى ، وهو فى كلام الناظم متعد : وجده لذيذا .

« والنوم » : قال فى المحكم : هو النعاس . اهـ

وذكر أبو منصور الثعالبى فى « فقه اللغة » أنه اختلفت عباراتهم فى النوم . فقيل : إنه هواء ينزل من أعلى الدماغ فيفقد معه الحس . قاله الأبى قال : والنعاس : مقدمة النوم ، وهو ريح لطيفة تأتى من قبل الدماغ تغطى على العين ولا تصل إلى القلب ، فإذا وصلت القلب كان نوما . وقال آخرون : النوم

غشى ثقيل يهجم على القلب فيقطعه عن معرفة الأشياء ، ولذلك قيل : إنه آفة » لأن النوم أخو الموت . اهـ.

« ويعلم » : مضارع علم الشيء كسمعه : عرفه حق المعرفة . ثم قيل : إن العلم والمعرفة والشعور كلها بمعنى واحد .

والأكثر من المحققين يفرقون بين الكل ، والعلم عندهم أعلى الأوصاف لأنه الذى أجازوا إطلاقه على الله ، ولم يقولوا : عارف ولا شاعر .

قال المناوى فى « التوقيف » : العلم هو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع ، أو هو صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض ، أو هو حصول صورة الشيء فى العقل ، والأول أخص .

وفى « البصائر » : المعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره ، وهو أخص من العلم والفرق بينها وبين العلم من وجوه لفظا ومعنى : أما اللفظ ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد ، وفعل العلم يقتضى مفعولين ، وإذا وقع على مفعول كان بمعنى المعرفة . وأما من جهة المعنى فمن وجوه : أحدها : أن المعرفة تتعلق بذات الشيء ، والعلم يتعلق بأحواله . والثانى : أن المعرفة فى الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه فإذا أدركه ، قيل : عرفه ، بخلاف العلم . والثالث : أن المعرفه علم لعين الشيء مفصلا عما سواه ، بخلاف العلم فإنه قد يتعلق بالشيء مجملا . اهـ . باختصار .

« والشعور » : التفطن والفطانة وهى جودة استعداد الذهن لإدراك ما يرد عليه من الغير .

« ويسلم » : مضارع سلم من السلامة وهى النجاة من العيوب والآفات »

والسالم من سلم منها ، ولا يقال إلا فيمن تجوز عليه الآفة ويتوقعها ثم يسلم منها ، وهو على حذف همزة الاستفهام . أى أيسلم فى آخر أمره أم لا ؟

« والعقبى » : (بالضم) والعقبة والعاقبة آخر كل شىء . ومنه قولهم : العقبى لك فى الخير أى العاقبة . وفى التنزيل : « ولا يخاف عقبـاها » . قال ثعلب : معناه لا يخاف الله عز وجل ، عاقبة ما فعل ، أى أن يرجع عليه فى العاقبة .

ولنرجع إلى إتمام الكلام على الآية الشريفة فنقول قوله تعالى : « يدعون ربهم خوفاً ، وطمعاً » ، قال ابن عباس : خوفاً من النار وطمعاً فى الجنة . وقال النسفى : خوفاً وطمعاً مفعول له ، أى لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم فى رحمته .

وقال الخطيب ما نصه : ولما كان هجران المضجع قد يكون لغير العبادة ، بين أنه لها بقوله تعالى مبيناً لحالهم « يدعون » أى داعين ربهم الذى عودهم بإحسانه . ثم علله بقوله تعالى « خوفاً » أى من سخطه وعقابه ، فإن أسباب الخوف من نقائصهم كثيرة سواء عرفوا سبباً يوجب خوفاً أولا ، لأنهم لا يأمنون مكر الله ، لأنه يفعل ما يشاء . « وطمعاً » فى رضاه الموجب لثوابه . ثم قال بعد نقل مالابن عباس المتقدم : وعبر بهدون الرجاء إشارة إلى أنهم لشدة معرفتهم بنقائصهم لا يعدون أعمالهم شيئاً ، بل يطلبون فضله بغير سبب ، وإن كانوا مجتهـدين فى طاعته . قال : ولما كانت العبادة تقطع غالباً عن التوسع فى الدنيا بما دعت نفس العابد إلى التمسك بما فى يده ، خوفا من نقص العبادة عند الحاجة ، وصفهم الله تعالى بقوله : « ومما رزقناهم » أى بعظمتنا لا بحول منهم ولا قوة ، ينفقون من غير إسراف ولا تقتير ، فى جميع وجوه القرب التى شرعناها لهم ، فلا يبخلون بما عندهم اعتماداً على الخلاق الرزاق الذى ضمن الخلق ، فهم بما ضمن لهم أوثق

عنهم بما عندهم ثم قال : « فلا تعلم نفس » أى من جميع النفوس مقربة ، ولا غيرها ، « ما أخفى » ، أى خبىء لهم أى لهؤلاء المذكورين من مفاتيح الغيوب وخزائنها ، كما كانوا يخفون أعمالهم بالصلاة فى جوف الليل ، و بالصدقة و بغير ذلك . قال : ولما كانت العين لاتقر فتهجع إلا عند الأمن والسرور . قال تعالى : « من قرة أعين » أى من شىء نفيس تقر به أعينهم لأجل ما أقلقوها عن قرارها بالنوم «جزاء » ' أى أخفاها لهم لجزائهم « بما » أى بسبب ما « كانوا يعملون » : أى من الطاعات فى دار الدنيا .

روى البخارى فى التفسير ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « قال الله تعالى : « أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : « فلاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » . (الآية) .

وعن ابن مسعود قال : إنه لمكتوب فى التوراة : ، لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، ما لم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلم ملك مقرب، ولا نبى مرسل ، وإنه لفى القرآن « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » .

وعن ابن عمر قال : إن الرجل من أهل الجنة ليجىء فيشرف عليه النساء فيقلن : يا فلان ابن فلان ، ما أنت بمن خرجت من عندها بأولى منك منا ، فيقول : وَمن أنتن ؟فيقلن : نحن من اللاتى قال الله تعالى: « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

وعن عامر بن عبد الواحد قال : بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكان سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول :

قد آن لك أن يكون لك منا نصيب ، فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا مزيد له فيمكث معها سبعين سنة ، ويلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له قد آن لك أن يكون لنا منك نصيب . فيقول : من أنت ؟ فتقول . أنا التى قال الله تعالى . « فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفِى لهم من قرةِ أعيُن » .

وعن سعيد بن جبير قال : يدخلون عليهم ، على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عـــدن ، ماليس فى جناتهم ، وذلك قوله تعالى : « فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفِىَ لهم من قرةِ أعينٍ » .

قال وعن سهل بن سعد قال : فبينما نحن عند النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يصف الجنة حتى انتهى ، ثم قال فيها : « مالا عينٌ رأت ولا أذُنٌ سمعت ولا خطر على قلبِ بشر » ثم قال : «تتجافى جنُوبهمْ عن المضاجع» (الآيتين) .

قال القرطبى : إنهم أخفوا عملا وأخفى لهم ثوابا فقدموا على الله ، فقرّت تلك الأعين .

وعن أبى اليمان قال : الجنة مائة درجة ، أولاها : درجة فضة ، وأرضها فضة ، ومساكنها فضة ، وآنيتها فضة ، وترابها المسك . والثانية : ذهب وأرضها ذهب ومساكنها ذهب وآنيتها ذهب وترابها المسك . والثالثة : لؤلؤ وأرضها لؤلؤ وآنيتها لؤلؤ وترابها المسك . وسبع وتسعون بعد ذلك « مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر » وتلا هذه الآية . « فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفى لهم من قرة أعين » (الآية) .

وعن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم : أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال : أى، رب أى أهل الجنة أدنى منزلة ؟فقال : رجل يجىء

بعد ما دخل أهل الجنة . فيقال له : ادخل . فيقول : كيف أدخلُ وقد نزلوا منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم أى رب قد رضيت ؛ فيقال له : فإن لك هذا وعشرة أمثاله معه . فيقول : قد رضيت أى رب فيقال له : فإن لك هذا وما اشتهت نفسك ولذت عينك . فقال موسى : أى رب فأى أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : إياها أردت وسأحدثك عنهم ، إنى غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها، « فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . قال : ومصداق ذلك فى كتاب الله « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » اهـ باختصار .

تنبيه :

تقدم قول القائل : إن النعاس والكسل . إلخ . وقال بعض أدباء العصر مذيلا له وأجاد :

نِعَمَ لدَى مَنْ قد غَفلْ وعَن صَلاحِهِ عَدَلْ
فَانبذهما على عَجلْ وجانبنْ مَن عَذلْ

وقلتُ فى معارضته :

إن القيامَ وَالعملْ لِمبتغ نيْلَ الأمَلْ
أشهى وأحلى مِنْ عَسلْ ولذة بِها خَلَلْ
فَدُمْ عليهما تَنلْ مَا تبتغى يَامن عَقَلْ
وَدَعْ مَقالَ مَنْ غَفَلْ وَمالَ دأباً لِلكَسَلْ

ورحم الله القائل :

دع النوم إن النومَ للفضل هادم ولا ترضَ منْ دنياكَ بالأكل والنوم
وكنْ ساهراً فى الليل واطلبْ معاليا إذا شئت أن تسمو مقاماً على القوْم

وفى لامية ابن الوردى :

واهجر النومَ وحصله فمَن   يعرف المطلوبَ يحقرْ مابذل

وقال آخر :

سرورُ النفس فى حسن اللباس   وجمعُ العلم فى تركِ النعاسِ

ومن نظم سيدنا العم ، رحمه الله :

وجمع الخير جميعاً السهر   والنومُ كافل بسائر الضرر

ومن كلام الحكماء . من لزم الرقاد ، حرم المراد . إذا أردت الكرامة ، فقل للكرامة : كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار . من رام أى مرام ، فليهجر المنام .

فوائد :

الأولى : للنوم آداب شرعية وطبية ، أما الشرعية فيستحب لمريد النوم أن يتوضأ لينام على طهارة ، وينفض فراشه بطرف إزاره كما ورد بذلك الأحاديث :

فقد قال عليه الصلاة والسلام : « منْ باتَ فى شعاره ملك ، فلا يستيقظ إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلانٌ فإنه بات طاهراً ». رواه ابن حبان فى صحيحه . والشعار هو مايلى بدن الإنسان من ثوبه وغيره .

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجة مرفوعا : « ما من مسلم يبيت طاهراً ، فيتعار من الليل ، فيسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة ، إلا أعطاهُ الله إياهُ » .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ، عن البراء ابن عازب ، قال : قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضُوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت ؛ فإن مت من ليلتك مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبحت بخير ، واجعلهن آخر ما تتكلم به » .

وروى البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة مرفوعا : « إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدرى ما خلفه عليه » .

ويستحب أيضا أن يكون على شقه الأيمن كما دل عليه حديث البراء ابن عازب المتقدم ، وأن يجعل كفه اليمنى تحت خده الأيمن ، كما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان ينام كذلك .

وحكمة ذلك ما علم من محبته ، صلى الله عليه وسلم للتيامن فى أمره كله ، تكريما وتشريفا له وإيثارا له على الأيسر . وأيضا فإن النوم أخو الموت ، والمطلوب أن يكون الميت على شقه الأيمن تفاؤلا أن يكون من أصحاب اليمين ؛ ثم يستحب له أن يقول حينئذ : باسمك اللهم ربى وضعت جنبى ، وباسمك أرفعه ، اللهم إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ بها عبادك الصالحين ، رب قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافى له ولامأوى» . كما كان عليه السلام يقول ذلك . ثم يقرأ قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمٰن الرحيم ، إن فى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر » إلى « يعقلون » . فمن على كرم الله وجهه أن من

قرأها كل ليلة عند النوم، لم يتفلت القرآن من صدره ؛ ثم يقرأ آية الكرسي لحديث أبي هريرة المشهور المروى فى البخارى وغيره ، حيث وكله رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة الفطر ، فجاءه شيطان وجعل يحثو منها . فقال : والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشكا له عيلة وعيالا فتركه ، ثم عاد فقال لهُ مثل ذلك ، فلما عاد الثالثة أخذهُ فقال له : اتركنى ، وأعلمك آية إذا قرأتها عند النوم لا يقربك شيطان ، ولا يزال عليك من الله حافظ : « الله لا إله إلا هو (الآية) فأخبر أبو هريرة بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أما إنه قد صدقك وهو كذوب ! ذاك الشيطان » .

وجاء فى الحديث مرفوعاً : «من قرأ آية الكرسى مع أول « حم المؤمنون» فى صبيحة يوم حفظ حتى يمسى ، ومن قرأها مساء حفظ حتى يصبح » .

ثم يقرأ آخر سورة البقرة لما فى الصحيح عن أبى مسعود مرفوعاً : « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما فى ليلة كفتاه» . قيل : من كل ما يحذر وقيل : كفتاه عن قيام الليل .

وعن النعمان بن بشير مرفوعا : « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفى عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، وإذا قرئا فى بيت فلا يقربه شيطان ثلاث ليال » . رواه الترمذى وحسنه . ثم يقرأ : شهد الله أنه لا إله إلا هو » (الآية) .

قال الثعالبى فى « العلوم الفاخرة » ما نصه :

ووجدت بخط بعض الفضلاء ما نصه : قوله عز وجل : « شهد الله أنه لا إله إلا هو » إلى « الحكيم » . قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « من قرأ هذه الآية عند منامه خلق الله منها سبعين ألف خلق يستغفرون الله له إلى يوم القيامة . وقال بعدها : وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله

هذه الشهادة ، وهى لى عنده وديعة ، يقول الله عز وجل يوم القيامة : إن لعبدى عندى عهداً ، وأنا أحق من وفى بالعهد ، أدخلوا عبدى الجنة .

قلت : وقد أسند ابن عبد البر فى كتاب « فضل العلم » ، عن غالب القطان ، قال : رأيت الأعمش قام يتهجد وقرأ هذه الآية : « شهد الله » إلى « الإسلام » وقال : وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة ، فقلت له : إنى سمعتك تقرأ هـذه الآية ترددها ، فما بلغك فيهـا ؟ قال : حدثنى أبو وائل عن ابن مسعود ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله سبحانه : عبدى عهد إلى ، وأنا أحق من وفى بالعهد . أدخلوا عبدى الجنة » . اهـ باختصار .

ثم يتلو قوله تعالى : « لقد جاءكم رسولٌ » إلى « العظيم » ويـكرر قوله « فإن تولوا فقل حسبىَ اللهُ » . . . الخ . سبع مرات ، فقد جاء فى الحديث : «أن منْ قالَ : فإنْ تولوا فقلْ : حسبىَ اللهُ لا إله إلا هو عليهِ توكلتُ ، وهوَ ربُّ العرشِ العظيمِ » بعد صلاة الصبح سبع مرات . كفاه الله يومه ذلك ، إن يكن صادقا فى توكله ، وإن قالها مساء فـكذلك حتى يصبح .

ثم يقرأ آخر سورة الحشر « لو أنزلنا . . . إلخ » بعد أن يذكر « أعوذُ باللهِ السميع العليم من الشيطانِ الرجيم » ثلاثا . فقـد روى الترمذى ، وقال حسن غريب عن معقل ابن يسار عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من قال حـين يصبحَ ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكل اللهُ بهِ سبعينَ ألفَ ملك يصلونَ عليه حتى يُمْسِيَ ، وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيداً . ومَنْ قالها حين يُمْسِى كان بتلكِ المنزلةِ . ثم يقرأ سورة « الـكافرونَ » . لما رواه أبو داود ، واللفظ له ، والترمذى والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال لنوفل ، رضى الله عنه : « اقرأ

قل يا أيها الكافرون » ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك .

ثم يقرأ الإخلاص والمعوذتين لما فى الصحيحين أن النبى ، صلى الله عليه وسلم : « كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة ،جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ « قل هو الله أحد » ، « وقل أعوذ برب الفلق » ، «وقل أعوذ برب الناس » ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما من رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ». يفعل ذلك ثلاث مرات .

ثم يقرأ الفاتحة ، لما رواه البزار مرفوعا : « إذا وضعت جنبك إلى الأرض يعنى على الفراش ، وقرأت ، فاتحة الكتاب و « قل هو الله أحد » ، فقد أمنت من كل شىء إلا الموت .

ثم يقول « أستغفرُ اللهَ العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، ثلاثا ، لما فى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً :من قال حين يأوى إلى فراشه : أستغفر الله الذى لا إله هو الحى القيوم وأتوب إليه » ثلاث مرات ،غفر الله له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر ، وإن كانت عدد النجوم ، وإن كانت عدد رمل عالج ، وإن كانت عدد أيام الدنيا .

ثم يذكر : الباقيات الصالحات ، لما فى الصحيحين عن على : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له ولفاطمة رضى الله عنهما : إذا آويتما إلى فراشكما أو إذا أخذتما مضاجعكما ، فكبرا ثلاثاً وثلاثين وسبحا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وفى رواية « التسبيح أربعا وثلاثين » وفى رواية : « التكبير أربعاً وثلاثين » قال على : ما تركتهُ منذُ سمعتهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل له : ولا ليلة صفين ؟ قال : ولا ليلة صفين !

والأذكار الواردة التي تقال عند النوم كثيرة ثم ينبغي له إن انتبه من النوم ، أن يذكر الله تعالى إلى أن يغلبه النوم . وروى مما يقال عند ذلك : لا إله إلا الله وحده لاشريك لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهو على كل شيء قدير » .

ففي البخاري ، عن عبادة بن الصامت ،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تعار من الليل فقال:« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير . والحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » ثم قال « اللهم اغفرلى » أو دعا استجيبَ له فإن توضأ وصلى قبلت صلاته » .

وهذا إذا كان انتباهه أثناء نومه فإن كان بعد أخذ حظه منه ، فينبغي أن يقول : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشُورُ » كما فى الصحيح » ويزيد كما فى رواية : أصبحنا وأصبح الملك لله ولا حول ولا قوة إلا بالله » . كما يستحب له أن يتلو قوله تعالى : إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب إلى « من أنصار ».ثم ليحذر من النوم على الظهر فإنه أردى النوم ، وإن كان الاستلقاء عليه من غير نوم جائزا ، كما يشهد له فعله عليه الصلاة والسلام كما فى البخارى وغيره . وكذا على الوجه فإنه أقبح لما فى ابن ماجة : « أنهُ عليه السلام مَر بِشخص نائم فى المسجد على وجهه فضربه برجله وقال : « قم أو اقعد فإنها نومة جهنمية » كما يحذر من النوم بعد العصر ، لما رواه العقيلى ، عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من نام بعد العصر فاختلس عقله فلا يَلومنَّ إلا نفسه » .

وماروى عن أسماء من أنه ، عليه السلام ، نام بعد العصر ، فى قصة على ، رضى الله عنه ، فمحمول على الخصوصية له لأنه معصوم وليس كغيره . ومثله

النوم فى أول النهار ، أعنى بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس . فقد ورد عنه عليه السلام ، أنه قال : «النوم فى أول النهار حمقٌ ، وفى وسطه خلق ، وفى آخره خرقٌ» يعنى : جهلا . وعن سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال للحواريين : يامِلْحَ الأرض لاتفسدوا ، فإن الأشياء إذا فسدت فإنما تداوى بالملح ، وإن الملح إذا فسد لم يُدَاوَ بشىء . يا معشر الحواريين لا تأخذوا مِمَّن تُعَلِّمُون أجرا إلا كما أعطيتمونى ، واعلموا أن فيكم خصلتين من الجهل : الضَّحِك من غير عجب ، والتصبُّح من غير سهر » . يعنى : النوم فى أول النهار . اهـ

ومثله أيضا النوم قبل صلاة العشاء الأخيرة لما فى الصحيح : « أن النبى عليه السلام كان يكره النوم قبلها ، والحديث بعدها » .

وقال بعضهم : أقسام النوم سبعة : نوم الغفلة : وهو النوم فى مجلس الذكر . ونوم الشقاوة : وهو النوم فى وقت الصلاة . ونوم اللعنة : وهو النوم وقت صلاة الصبح ، ونوم العقوبة ، وهو النوم بعد صلاة الصبح . ونوم الراحة : وهو النوم وقت الهاجرة أى القيلولة ، ونوم الرحمة : وهو النوم بعد صلاة العشاء . ونوم الحسرة : وهو النوم يوم الجمعة اهـ .

وأشرت إلى هذه الأقسام بقولى :

النومُ أقسامه حيثُ عُدّتِ قَد بَلَغتْ عِدّتُهَا لِسَبْعَةِ
فالنَّوْمُ فى مَجْلِسِ ذِكْرٍ غَفْلَة وَهوَ فِى وَقْتِ الصَّلاةِ شِقْوَةْ
أمَّا عِندَ الصُّبْحِ فَلِلَّعْنِ انتَمَى وَبَعْدَهَا عقوبَةٌ لــه سَمَا
أمَّـا الّذِى يُفْعَلُ فى الهوَاجِرِ فَنَوْمُ رَاحَـةٍ بِهَا تَفَاصرِ
واقصدْ لِنوم رحمة إن أديتْ عَتمـة ، بِوقتهـا قَـدْ صُليتْ
والنومُ يومَ جُمعة قَـد حذروا مِنه ، وبالحسرةِ قالوا يُشهرُ

وأما الآداب الطبية : فينبغى أن لا يكون عقب الأكل لأنه يحدث عنه حينئذ أحلام رديئة ، وغير ذلك من المضار · وقد نص الحكماء على أنه ينبغى أن يكون النوم بعدالطعام بنحو ساعة فأكثر . ولكن هذا فى النوم بعدالعشاء؛ أما النوم بعدالغداء فينبغى أن يكون بإثره، كما قاله الحارث بن كلدة: من أرادالبقاء ولا بقاء ، فليباكر بالغداء ، ويعجل بالعشاء، وليخفف الرداء ، وليقل الجماع ، فإذا تغذى أحدكم فلينم على إثر غذائه ، وإذ تمشى فليخط أربعين خطوة .

وقال بعض الحكماء : العشاء فى الليل يضعف البصر ، ويضر فى غير البصر إلا من جمع فى الأكل بالليل ثلاثة أشياء فلا يضره : وهو أن يأكل على جوع ويخفف من الأكل ، ويمشى عقب الأكل مشيا خفيفا ·

وهذا مستند القائل :

تَغَدَّ تمدى ولو لم تَنَم   تَعشى تَمشى ولو بِقَدم

وأجود النوم ثلاث ساعات من وسط الليل .

وقال بعضهم : عود نفسك القعود فى أول الليل ساعتين وفى آخره ساعة ، ولا تدافع النوم إذا حضرك ، ولا تتكلفه إذا لم يتحرك . وينبغى أن لا ينام فى القمر فإنه يحيل الألوان إلى الصفرة ، ويثقل الرأس ، فإن كان الزمان صيفا فالقيلولة مستحبة . اهـ .

ومفهوم كلامه : أن القيلولة لا تستحب فى الشتاء وذلك لطول الليل وقصر النهار ، ففى ليله من الطول واستيفاء النوم ما يغنى عن القيلولة . فإذا نام الإنسان بالنهار فلا ينبغى أن ينام نصفه فى الشمس ونصفه فى الظل ، لما روى عن جابر مرفوعا : « لا ينام أحدكم : نصفه فى الشمس ونصفه فى الظل » .

وقال عليه السلام : « إذا كان أحدكم في الفيء فقاص عنه الظل فليقم منه فإنه مجلس الشيطان » .

وينبغي أن لا ينام دائما على جنب واحد ، لأن ذلك يورث ضخامة في أعضاء ذلك الشطر المضجع عليه . ويتعين على من أصيب بضخامة في أحد الأحشاء المضوية أن ينام على الجانب المقابل . وفي هذا القدر كفاية ، والله ولي التوفيق والهداية .

الثانية : روى ابن السني عن زيد بن ثابت قال : شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقا أصابني فقال : « قل اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حي قيوم ، لا تأخذك سنة ولا نوم ، ياحي ياقيوم أهدئ ليلي وأنم عيني » : فقلتها ، فأذهب الله عني ما كنت أجد .

وروى أيضا عن محمد بن يحيي بن حبان : أن خالد بن الوليد رضي الله عنه أصابه أرق فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمره أن يتعوذ عند منامه بكلمات الله التامات من غضبه ، ومن شر عباده ، ومن شر همزات الشيطان وأن يحضرون » .

وروى أبو داوود والترمذي وغيرهما ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم من الفزع كلمات : « أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه ، وشر عباده ، ومن همزات الشيطان وأن يحضرون . » قال : وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن من عقل من بنيه ، ومن لم يعقل كتبه فعلقه عليه .

وروى مسلم عن جابر مرفوعا : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره — ثلاثا — وليستعذ بالله من الشيطان — ثلاثا — وليتحول عن جنبه الذي كان عليه » .

وروى ابن السنى : « إذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فليتفل ثلاث مرات ثم ليقل : اللهم إنى أعوذ بك من عمل الشيطان ومن سيئات الأحلام ، فإنها لا تكون شيئا » .

الثالثة : من خط بعض الشيوخ الأعلام ما نصه : اعلم أن قيام الليل عند العارفين مؤكد حتى كأنه فرض . ولذا قالوا : كل فقير نام فى الليل من غير غلبة ، فلا يجىء منه شىء فى الطريق .

وقد أغفل هذا الخلق كثير من الفقراء فيناموف فى الليل على طراريح ، كما ينام العامة وأبناء الدنيا ، وبعضهم يدخل الحمام كل يوم فلا يخرج منه حتى تطلع الشمس من غير ضرورة ، بل ترفها . وما أقبح الشيخ ، وهو ذاهب إلى الحمام كل يوم بكرة النهار ، والعامة والمريدون يرونه ، وربما ترك قيام الليل فيفوته هذا الفضل العظيم .

وفى الحديث : « عَليكم بِقيام الليل ، فإنَّهُ دَأْبُ الصالِحِينَ قَبلَكم ، وَمقرَبةٌ إلَى رَبكمْ ، وَتكفِيرٌ لِخطاياكم ، وَمنْهاةٌ عَنِ الإثم ، وَمَطرَدَة لِلدَّاء عَنِ الجسَدِ » .

وقالت أم سليمان عليه السلام : يا بنى لا تنم الليل فإن من نام الليل جاء يوم القيامة وهو مفلس من الحسنات . اهـ .

الرابعة : فى تعليق الوالد ، حفظه الله تعالى ، على الموطأ ما نصه : اعلم أن فى قيام الليل فوائد جليلة : منها الاقتداء به ، صلى الله عليه وسلم ، فقد قام صلى الله عليه وسلم ، حتى تورمت قدماه ، وكانت دموعه تقع فى مصلاه كوكف المطر .

ومنها اغتنام أجر قيامه ، فقد كان بعض السلف يقول : لولا قيام الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا .

وقال آخر : لذة قيام الليل ليست من الدنيا فى شيء ، إنما هى من نعيم الآخرة ، عجلها الله لأوليائه .

ومنها : أن الله تعالى أثنى على قائمى الليل بقوله : « كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيلِ مَا يَهجَعُونَ » وبقوله : « تَتَجافَى جُنُوبُهُم عَنِ المضاجِعِ » . . إلخ .

ومنها : أن فى الليل ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلى ، يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، وذلك عند السحر .

قال الإمام الثعالبى ، فى تفسير آخر سورة الكهف : فإذا أردت أن تعرف هذه الساعة فاقرَأْ عِندَ نوْمكَ قولهُ تعالى : « إنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً » إلى آخر السورة . فإنك تستيقظ فى تلك الساعة ، إن شاء الله تعالى ، بفضله . قال : وذلك مجرب صحيح لا شك فيه ، وهو من عجائب القرآن المقطوع بها ، وإياك يا أخى إذا استيقظت فى ذلك الوقت أن تدعو فيه على أحد ، ولو ظلمك ، فينتقم الله منه ، وأكون السبب فى ذلك ، وإن فعلت ذلك فإنى أحاسبك يوم القيامة .

ومنها : أن فيه زيادة فى العمر لأن النوم موت واليقظة حياة ، فإذا قام العبد فقد زاد فى حياته ، وإذا نام فقد نقص من عمره لأن الليل نصف عمر الإنسان حقيقة ، لأنه اثنتا عشرة ساعة ، والنهار كذلك ، فما نقص من أحدهما زيد فى الآخر ، فمن نام الليل كله فقد نقص النصف من عمره ، ومن أحيا منه شيئا فقد أحيا بعض عمره .

ولله در الإمام الشافعى ، حيث يقول فى هذا المعنى :

إذَا عاشَ الفَتى سِتِّينَ حَوْلاً   فَنصفُ العمرِ تَمحقهُ اللَّيالِى
وَنصفُ النِّصْفِ يَمْضِى ، لَيْسَ يَدْرِى   لِغفْلَتِهِ يَمِينًا مِن شِمَالِ

وباقى النصف آمال وحرص — وشغل بالمكاسب والعيال
وَباقى العمر أسقام وشيب — وآفات تدل على انتقال
فحب المرء للحيوان جهل — وقسمته على هذا النوال

ومنها : أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ضمن لقائمه رحمة الله حيا وَميتاً ، ومقبوراً ومبعوثاً . ففى الحديث : « يا أباهريرة ، أتريد أن تكون رحمة الله عليك حياً وميتاً ، ومقبوراً ومبعوثاً ؟ فقم من الليل وصل ، وَأنت تريد رضى ربك ، ياأبا هريرة صل فى زوايا بيتك يكون نور بيتك فى السماء كنور الكواكب » .

ومنها : أنه يطرد الداء عن الجسد . فقد ذكر الإمام الشعرانى فى « الفلك المشحون » عن الشيخ زكريا أنه كان يقول : مما جربناه لإزالة كل مرض عجز عنه الأطباء ، أن يصلى الشخص آخر الليل ماتيسر من الركعات ، ثم يسأل الله ، فإنه يشفى من ذلك المرض عاجلا . وكان يقول : نسيم السحر يشفى السقيم .

ومنها : أنه يظهر على وجه قائمه بالنهار حسن فائق وجمال باهر ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » .

وقيل للحسن : ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره .

ومنها : أنه ما من ليلة إلا وينزل فيها مدد من السماء فيعطاه المستيقظون ويحرمه النائمون .

ولله در الإمام سيدى حسين بن عبد الشكور ، رحمه الله حيث يقول :

تكلف يا أخى سهر الليالى — وراقب فى الدجا فرص الوصال

فثم مواقف للسعد فيها ... لكل موفق رتب المعالى
بها مجد يدوم بلا انقطاع ... بها عز يقوم بلا انفصال
بها حسن الحياة لكل حى ... بها حسن الممات بلا اختلال
بها وصل الحبيب بلا رقيب ... بها قرب الحبيب بلا سؤال
بها ما ليس تدركه بعلم ... ولا فكر ، ولم يخطر ببال
بها كشف الحجاب لكل صب ... يكون ملازماً سهر الليالى

وفى الحديث القدسى : «يقول الله تعالى : كذب من ادعى محبتى ، فإذا جن الليل نام عنى » أليس كل حبيب يريد الخلوة بحبيبه ؟ فالمحب إن لم يدمن السهر ، لم يفز بالوطر ، ومن صدق فى الطلب ، فاز بالأرب . اهـ

قلت : وروى معروف الكرخى ، رضى الله عنه بسنده ، عن عمه دينار ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من قال عند منامه : اللهم لا تؤمنا مكرك ، ولا تنسنا ذكرك ، ولا تكشف عنا سترك ولا تجعلنا من الغافلين . اللهم ابعثنا فى أحب الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا ، ونسألك فتعطينا ، وندعوك فتستجيب لنا ، ونستغفرك فتغفر لنا ؛ إلا بعث الله إليه ملكا فى أحب الساعات إليه فيوقظه ، فإن قام وإلا صعد الملك فيبعث الله إليه ملكا آخر ، فإن قام وإلا صعد الملك فان قام بعد ذلك ودعا استجيب له ، وإن لم يقم كتب الله له ثواب أولئك الملائكة » .

الخامسة : يحصل فضل قيام الليل بصلاة ركعتين ، لخبر : « من قام الليل ولو قدر حلب شاة كتب من قوام الليل » . وخبر : من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته ، مصليا ركعتين جميعاً ، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

وعن ابن عباس : « من صلى بعد العشاء الأخيرة ركعتين أو أكثر ، فقد بات لله ساجداً وقائماً » .

وقد قيل : من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة ، وإن قل، فقد بات ساجداً وقائماً.

وفي مسلم عن عثمان بن عفان مرفوعاً : « من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل ، ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة » . وتقدم .

السادسة : اختلف في أفضل أجزاء الليل . والصحيح الذي دلت عليه الأحاديث أنه إن جزأه نصفين. فالنصف الثاني أفضل . أو أثلاثا ، فالثلث الأخير أفضل . أو أسداسا، فالسدس الرابع والخامس أفضل . وهذا هو الأكثر على الإطلاق لأنه الذي واظب عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال فيه : « أفضل الصلاة صلاة أخي داوود ، وكان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه » .

وتقدم أن الإمام الجنيد رئي بعد موته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت العلوم ، وفقدت الرسوم وما نفعنا إلا ركيعات كنا ركعناها عند السحر .

السابعة : ذكر حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، رحمه الله في « الإحياء »: أن ثمانية أشياء تعين على قيام الليل : أربعة ظاهرة ، وهي : تقليل الأكل ، وتقليل التعب في النهار ، والنوم في القائلة ، وأن لا يرتكب معصية .

وأربعة باطنة ؛ وهي : سلامة الصدر من الحقد على المسلمين ونحوه ؛ وخوف العقوبة بالنهار مع تقصير الأمل ؛ والثالث : معرفة فضل قيام الليل ، والرابع : محبة الله تعالى وهي أعظمها ، فإن المحب يسعى أبداً في رضى محبوبه .

ونظم ذلك من قال :

إن المريد يستعين بثمان على تهجد الليالي بالقرآن

قِلل مِنَ الأكل ومِنْ شُغْلِ النَّهَار ... وَنَمْ بِقَائِلَتِهِ وَاجْفُ المُهَّار
سَلامَةُ الصَّدْرِ وَخَوفٌ غَالِب ... مَعْرِفَةَ الفضلِ وحبٌ جالِب

الثامنة : قال العارف بالله سيدى زروق ، رحمه الله : قال الشيوخ : ينبغى لطالب العلم أن يكون له ورد عن قيام الليل لفعله ، صلى الله عليه وسلم ، ولو أن يقرأ فيه الفاتحة . اهـ

وكتب ، رضى الله عنه ، إلى بعض تلاميذته بما نصه : عليه بتقوى الله الذى لا بد من لقائه ، واحذر مخالفة أمره فى شدته ورخائه ، وأحدث لكل ذنب توبة ، ولكل التفاتة أوبة · فإن المرء غير معصوم من الزلل ، وغير واثق بنفسه فى دوام العمل ، ومن عز عليه دينه هانت عليه الأمور كلها ، ومن زكى نفسه دارت عليه الدوائر ؛ فلا فى الدنيا يفلح ، ولا فى الآخرة ينجح ، ومن كان همه ما يكفيه ، فأقل شىء يكفيه ، ومن طلب من الدنيا ما يغنيه ، فكل شىء منها لا يغنيه ، ومن كان شرفه بعلمه ، نال جميع أمله ؛ ومن كان شرفه بنفسه ، كانت نجاته أبعد من عطبه ، والناس أبناء أخلاقهم ، ومن أحب قوما كان منهم ، فاحذر حب الظلمة وموالاتهم ، وجانب أبناء الدنيا ومخالطتهم ، فكن حذرا منهم ، إذ إنما يريدونك على تكميل دنياهم ، ولما يوافق هواهم ، فيوقعونك فى المحرمات الصريحة ؛ ولا تطاوع من لا يبالى بعرضه ، فى تحصيل غرضه ، وإياك والتجسس على الأمور ، والتطلع على الأخبار ، فإن من أراد أن لا يفوته خبر ، لم يفته ضرر ؛ وعليك بالذكر ولو تسبيحة : ، وبالقرآن ولو آية وبالصوم ولو يوما فى الشهر ، وبالصلاة ولو ركعة فى جوف الليل ، وبالصدقة ولو لقمة لكلب أو هرة ، تبتغى بها وجه الله . وهذا كتاب نصيحة لا كتاب تبرك ، فلا تقرأه من فوق فوق ، وتجعله فى الصندوق ، ولكن ذكر به نفسك المرة بعد المرة والسلام . اهـ

التاسعة : ذكر ابن العربي فى « الفتوحات » عن بعض المعلمين الصالحين : أن شابا صغيرا كان يقرأ عليه القرآن فرآه مصفر اللون ، فسأل عن حاله ، فقيل له : إنه يقوم الليل بالقرآن كله . فقال له : يا ولدى أخبرت أنك تقوم الليل كله بالقرآن ،فقال : هو كما قيل لك.فقال : ياولدى إذا كان هذه الليلةفأحضرنى فى قبلتك ، واقرأ على القرآن فى صلاتك ، ولا تغفل عنى . فقال الشاب : نعم. فلما أصبح ، قال له : هل فعلت ماأمرتك به ؟ قال : نعم يا أستاذ . قال : وهل ختمت القرآن البارحة ؟ قال : لاما قدرت على أكثر من نصف القرآن . قال: ياولدى فإذا كان فى هـذه الليلة فاجعل ماشئت من الصحابة أمامك ، الذين سمعوا القرآن ، من النبى صلى الله عليه وسلم ، واقرأ عليه ، واحذر فإنهم سمعوه من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلا تزل فى تلاوتك . فقال : إن شاء الله يا أستاذ ، كذلك أفعل ، فلما أصبح ، سأله الأستاذ عن ليلته . فقال : ماقدرت طول ليلتى على أكثر من ربع القرآن . فقال : يا ولدى اتل فى هذه الليلة ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أنزل عليه القرآن ، واعرف بين يدى من تتلوه ؟ قال : نعم ، فلما أصبح ، قال : يا أستاذ ما قدرت طول ليلتى على أكثر من جزء من القرآن أو ما يقاربه : فقال : ياولدى إذا كان فى هذه ، فلتكن القراءة بين يدى جبريل الذى نزل به على قلب محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فاحذر ، واعرف قدر من تقرأ عليه ، فلما أصبح قال : ياأستاذ ماقدرت على أكثر من كذا وذكر سوراً قليلة من القرآن . قال : يا ولدى إذا كان هذه الليلة تب إلى الله وتأهب واعلم أن المصلى يناجى ربه ، وأنك واقف تتلو عليه كلامه ، فانظر حظك وتدبر ما تقرأ ، فليس المراد جمع الحروف ولا تأليفها ولا حكاية الأقوال ، وإنما المراد بالقراءة التدبر لمعانى ما تتلوه فلا تكن جاهلا ، فلما أصبح انتظر الأستاذ الشاب فلم يجىء إليه ، فبعث من يسأل عن شأنه . فقيل : إنه أصبح مريضا يعاد ، فجاء إليه الأستاذ فلما أبصره الشاب بكى

وقال : يا أستاذ جزاك الله عني خيرا ، ما عرفت أني كاذب إلا البارحة لما قمت في مصلاى وأحضرت الحق وأنا بين يديه أتلو عليه كتابه ، واستفتحت الفاتحة ووصلت إلى قوله : « إياك نعبد » نظرت إلى نفسي فلم أرها تصدق في قولها فاستحييت أن أقول بين يديه « إياك نعبد » وهو يعلم أني أكذب في مقالتي ، فإني رأيت نفسي لاهية بخواطرها عن عبادته ، فبقيت أردد القرآن من أول الفاتحة إلى قوله « مالك يوم الدين » ولا أقدر أن أقول « إياك نعبد » فإنه ما خلصت لي فبقيت استحيي أن أكذب بين يديه تعالى فيمقتني ، فما ركعت حتى طلع الفجر ، وقد رضت كبدى ، وما أنا إلا راحل إليه على حالة لا أرضاها عن نفسي فما أنقضت ثلاثة حتى مات الشاب . فلما دفن أتى الأستاذ إلى قبره ، فسمع صوت الشاب من قبره يقول له : يا أستاذ أنا حي عند حي لم يحاسبني بشيء ، فرجع الأستاذ إلى بيته ولازم فراشه مريضاً ، مما أثر فيه حال الفتى ، فلحق به . فمن قرأ « إياك نعبد » على قراءة الشاب فقد قرأ . ا هـ .

العاشرة : ذكر العارف بالله سيدى شعيب الحريفيش ، رحمه الله ، في كتابه «الروض الفائق» ما نصه : وعن عبد الواحد بن زياد ، رحمة الله عليه ، قال : خرجنا جماعة من الفقراء نريد سفرا في البحر ، فعصفت الريح بنا فطرحتنا على جزيرة في البحر . فرأينا فيها رجلا يعبد صنما من دون الله تعالى . فقلنا له : أى شيء تعبد ؟ فأومأ بإصبعه إلى الصنم فقلنا له : يا مسكين إن معنا في السفينة من يحسن صنع مثل هذا ، وإن هذا ليس بإله يعبد . قال : وأنتم من تعبدون ؟ قلنا : نعبد الله قال : وما الله ؟ قلنا : الذى في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي البحر سبيله ، وفي الأحياء والأموات قضاؤه . قال : فكيف علمتم ذلك ؟ قلنا : أرسل إلينا رسولا أخبرنا بذلك . قال : فما فعل الرسول ؟ : قلنا لما أدى رسالة الملك قبضه إليه . قال : فما ترك عندكم علامة من الملك ؟ قلنا : بلى ترك عندنا

كتاب الملك . قال: أرونى كتاب الملك فإن كتب الملوك تكون حسانا . قال : فأتينا بالمصحف . فقال : لا أحسن أقرأ هذا ، فقرأنا عليه سورة ؛ فما زال يسمع ويبكى إلى ختمنا السورة . فقال : ينبغى لصاحب هذا الكلام أن لا يعصى ، فأسلم وحملناه معنا وعلمناه ، شرائع الإسلام وشيئا من القرآن ، فلما أقبل الليل صلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا للنوم . فقال : ياقوم الإله الذى دللتمونى عليه ينام ؟ قلنا : لا ياعبد الله هو حى قيوم لاتأخذه سنة ولا نوم . قال : فبئس العبيد أنتم ! تنامون ومولاكم لا ينام ! فأعجبنا كلامه فلما وصلنا إلى عبادان ، وأردنا أن نتفرق ، جمعنا له دراهم ، وقلنا : أنفق عليك هذه ، فنظر إلينا مغضباً وقال : لا إله إلا الله ، دللتمونى على طريق ولم تسلكوها ، أنا كنت فى جزيرة فى البحر أعبد صنما من دونه فلم يضيعنى ؛ فكيف الآن وقد عرفته ؟ ثم تركنا ومضى .

قال عبد الواحد : فلما كان بعد أيام أتانى آت فأخبرنى عنه أنه بأرض كذا ، وهو يعالج سكرات الموت فجئته . وقلت له : ألك حاجة ؟ قال : قد قضى حوائجى من عرفتنى به ، فبينما أنا أكلمه إذ غلبتنى عيناى فنمت ، فرأيت فى المنام روضة ، وفى الروضة قبة ، وفيها سرير وعليه جارية أجمل من الشمس والقمر وجها . وهى تقول : سألتك بالله إلا ماعجلت إلى به ؟ فانتبهت فإذا به قد مات فجهزته ودفنته فى قبره ؛ فلما نمت رأيته فى المنام فى القبة التى رأيتها أولا ، والجارية إلى جانبه وهو يتلو قوله تعالى : « والملائكةُ يدخلون عليهم من كل بابٍ ، سلامٌ عليكم بما صَبَرتم فنعم عُقْبى الدارِ » . اهـ

الحادية عشرة : اعلم أن الإنسان يحرم قيام الليل بارتكاب الخطايا والذنوب وبالشبع المفضى إلى موت القلوب فقد كان سيد التابعين الحسن البصرى ، رضى الله تعالى عنه يقول : ما ترك أحد قيام الليل إلا بذنب أذنبه فتفقدوا

أنفسكم كل ليلة عند الغروب، وتوبوا إلى ربكم لتقوموا الليل . وكان كثيراً ما يقول : إنما يثقل قيام الليل على من أثقلته الخطايا .

وفى « بهجة » ابن أبى الدنيا : أن يحيى عليه السلام شبع ليله فنام عن حزبه حتى أصبح ، فأوحى الله تعالى إليه : يايحيى هل وجدت دارا خيرا من دارى ، وجوارا خيرا من جوارى ؟ وعزتى يايحيى لو اطلعت على الفردوس اطلاعة ، لذاب جسمك ، وذهبت نفسك اشتياقيا إلى ، ولو اطلعت على جهنم اطلاعة لبكيت الصديد بعد الدموع ، وللبست الجلود مع المسوح . ا ﻫ

الثانية عشرة : وقفت على نصيحة جامعة ، ووصية نافعة ، لبعض العارفين أحببت ذكرها هنا خشية الضياع ، ونصها :

أيامبتغين العلم والفوز فى الأخرى ... ونيلهما حقا ، هو الغاية الكبرى
أقول لكم نصحاً ورشداً ومن سوى ... حكيم مقال الرشد والنصح قد يدرى
إلى الخير أدعوكم جميعاً لصحبتى ... والمخير من يدعو ، كفاعله أجرا
وداع إلى خير أجيبوا له ، ومن ... إلى الشر يدعو لاتطيعوا له أمرا
دعواعنكم حب الفراغ وقدموا ... لأنفسكم خيراً تروه غداً ذخرا
عليكم بترك النوم، جدوا وشمروا ... فمن يبتغى عليا يجد ولا يكرا
ولا تسئموا ضجرا ففى الضجر آفة ... فمن يبتغى دراً يغوص له البحرا
ولا تطلبوا خسراً مدى الدهر إننى ... أعيذكم بالله أن تطلبوا خسرا
ولا تقربوا ملء البطون حياتكم ... فإن امتلاء البطن قد يجلب الشرا
ولا تجْزعوا إن حل عسر بفربنا ... سيجعل بعد العسر رفقاً بنا يسرا
ولا تبتغوا لهوا ومهما رأيتم ... مواشيكم عجفاء وقوتكم نزرا
لبيتين فى باغ العلوم تذكروا ... ففى المؤمن اليقظان قد تنفع الذكرى

إذا جاء شهرُ الصيفِ لا بدمن فتى ... تنقل خوفَ الجوع عن لوحه دَهرًا
ترى قاصرَ الهمّاتِ يشتاقُ أهْلَهُ ... وذُو الهممِ القصوى إذا يألف الصبرا

انتهى ، والله الموفق .

الثالثة عشرة : نقل المناوى عن الشيخ محيى الدين بن عربى ، لما جعل الله لنا الأرض ذلولا نمشى فى مناكبها ، فهى تحت أقدامنا نطؤها ، وهى غاية الذلة ؛ أمرنا أن نضع عليها أشرف ما عندنا وهو الوجه ، وأن نمرغه عليها جبرا لانكسارها بوطء الذليل عليها الذى هو العبد ، فاجتمع بالسجود وجه العبد من وجه الأرض فانجبر كسرها . وقد قال الله تعالى : « أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ » . فلذلك كان العبد فى تلك الحالة أقرب إلى الله من سائر أحوال الصلاة ، لأنه سعى فى حق الغير لا فى حق نفسه ، وهو جبر انكسار الأرض من ذلتها . اهـ .

الرابعة عشرة : ورد أن الله تعالى يباهى بالساجدين من عبيده ملائكته المقربين ، يقول : «يا ملائكتى أنا قربتكم ابتداء ، وجعلتكم من خواص ملائكتى وهذا عبدى جعلت بينه وبين القربة حجبا كثيرة ، ومواقع عظيمة ، من أغراض نفسية ، وشهوات جسمية ، وتدبر أهل ومال وأهوال ، فقطع كل ذلك وجاهد حتى سجد واقترب ، فكان من المقربين » .

وورد أيضا إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان ناحية يبكى ، ويقول : ياويلى أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار .

الكلام على الذكر ومزاياه :

ثم قال :

[واذْكُرْ بِقَلْبٍ حاضِرٍ مَجْمُوعٍ ... ومقلةٍ تَفِيضُ بِالدُّمُوعِ]

لما كان ذكر الله تعالى سلم الواصلين ، وسببا فى الترقى إلى مقامات العارفين

وذخيرة للفائزين ، وراحة المحبين ، وعنوان الولاية ، وعلامة صحة البداية ودلالة صفاء النهاية ، وأفضل ما أعطاه الله لعباده في الدنيا ، وأفضل ما أعطاهم في العقبى النظر إليه ، فذكر الله في الدنيا كالنظر إليه في الآخرة ، ولصاحبه كرامات نبه عليها في الحكم بقوله : « أكرمك كرامات ثلاثا : جعلكَ ذَاكِرًا لهُ ، ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذِكره عليك ؛ وجعلك مذكوراً به إذ حقق نسبته لديك ؛ وجعلك مذكوراً لديه عنده ، يتمم نعمته عليك » اهـ .

أمر الناظم بالتنزه في روضته السنية ، والاغتنام لسعادته الأبدية .

والمعنى : اذكر أيها العاقل ـ المحاول للحوق المراتب العلية ، والانخراط في سلك أهل الخصوصيات القدسية ـ ربك الذي خلقك وسواك ، وألهمك رشدك وهداك ، بحضور قلب وجمع همة ، ومراقبة الملاذ في كل ملمة ، مع تفيض مقلتك بالدموع ، وسكون عم الجوارح وخشوع ، فإن ذلك أرفع حالات الذاكرين ، وأبلغ أوصاف اللائذين برب العالمين .

وقد جاء في الحض عليه ما هو كثير من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وآثار زكية . قال تعالى : « ولَذِكرُ اللهِ أكبرُ » وقال تعالى : « يَأَيها الذينَ آمنُوا اذكرُوا اللهَ ذِكراً كثيراً » وقال تعالى : « فَإذا قضيتمُ الصلاةَ فاذكروا اللهَ قياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِكمْ » . وقال : « الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وجلتْ قلوبهمْ » . وقال : « الذينَ آمنوا وتطمئن قلوبهمْ بذِكرْ الله » .

وفي الخبر : أن جبريل عليه السلام قال : يامحمد إن الله يقول : أعطيت أمتك ما لم أعط أحدا . فقال صلى الله عليه وسلم : وما ذلك ياجبريل ؟ قال : قوله تعالى : « اذكروني أذكرْكمْ » .

قال ابن عباس : « قياماً وقعوداً » . معناه: بالليل والنهار . والبر والبحر، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والسر والعلانية ، وهو قوله تعالى : « واذكر ربك فى نفسك » ومازالت الصحابة يذكرون الله ، سراً وجهراً ، قياماً وقعوداً ، حتى فى حال الجهاد .

وفى « الدر المنثور » عن أبى عباس وسعيد بن جبير ، رضى الله عنهما ، قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « فاذكرونى ، يقولُ : اذكرونى يامعشرِ العبادِ بطاعتى ِ أذكرْكُم بمغفرتى » ، زاد أبو هند : « فمن ذكرنى ، وهو مطيع حقٌ على أن أذكره بمغفرتى ، ومن ذكرنى ، وهو لى عاصٍ حقٌ على أن أذكره بمقتٍ » .

وأخرج الطبرانى وأبو نعيم عن أبى هريرة عن النبى ، صلى الله عليه وسلم : « يقول الله يا ابن آدم إنك ما ذكرتنى شكرتنى ، وإذا مانسيتنى كفرتنى » .

وعن عبد الله بن يسار : « أن رجلا قال : يا رسول اللهِ ، إن شرائع اللهِ كثرتْ على فأخبرنى عن شىءٍ أتثبتُ به ، قال : « لا يزال لسانُكَ رطباً بذكرِ اللهِ » .

وعن معاذ بن جبل ، أنه قال : « إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم أن قلت: أىُّ الأعمال أحب إلى الله ؟ قال :أن تموت ولسانك رطب من ذكرِ اللهِ » .

وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى المخارق قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه سلم : « مررْتُ ليلة أسرى بى برجل مغيبٍ فى نورِ العرْشِ . قلت :من هذا ؟ ملك ؟ قيل : لا . قلت : نبى ؟ قيل . لا . قلت . من هو ؟ قال : هـذا رجل كان لسانه فى الدنيا رطباً من ذكرِ اللهِ ، وقلبه معلق بالمساجدِ ، ولم يستسب لوالديهِ » .

وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى ، عن عبد الله بن عمر عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يقول : « إنَّ لِكُلِّ شىْءٍ صقالة ، وصقالةُ القلوبِ ذكرُ اللهِ » .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وبخل بالمال أن ينفقه ، وجبن عن العدو أن يجاهده فليكثر ذكر الله » . اهـ .

وأخرج ابن أبى الدنيا وغيره عن ابن عباس ، أن النبى ، صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلب شاكر ، ولسان ذاكر ، وبدن على البكاء صابر ، وزوجة لا تبغيه خونا فى نفسها ولا فى ماله » .

وأخرج ابن حبان عن أبى سعيد الخدرى : أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليذكرن الله أقوام فى الدنيا على الفرش الممهدة يدخلهم الله الدرجات العلى » .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : « ياموسى إنى إذا أحببت عبداً من عبيدى جعلت فيه علامة . قال : يارب ماهى العلامة ؟ قال : ألهمته لذكرى » .

وفى الخبر : إن الله إذا أحب عبداً اصطفاه لذكره ، فإذا ذكره صار من أهل حضرته ، فإذا صار من أهل حضرته تجلى له فى كل يوم ثلاثمائة وستين مرة ، يعطيه فى كل تجلية خلعة من الكرامة والمحبة والقربة والألفة والخشية والسكينة والوقار والرضى والتسليم والمعرفة . وهو قوله تعالى : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيه أفضل ما أعطى السائلين » .

وفى وصية لقمان لابنه : أفضل الكلام ذكر الله ، وفضل ذكر الله على الكلام ، كفضل الله على الخلق .

وفى الحديث : « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال: ذكر الله » أورده صاحب الحصن ؛ وفيه : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه : مثل الحى والميت » .

وفى الحديث : لو أن رجلا فى حجره دراهم يتصدق بها ، وآخر يذكر الله لكان الذاكر أفضل » .

وقال عليه السلام ، فيما يحكيه عن ربه ، عز وجل : « أنا عند ظنّ عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « سبق المفردون قالوا : يارسول الله ، وما المفردون ؟ قال : المستهترون بذكر الله ، يضع الذّكر عنهم أثقالهم فيأتون خفافاً » .

وأخرج ابن أبى شيبة ، عن أبى جعفر ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « أشد الأعمال ثلاثة : ذكر الله على كل حال ، والإنصاف من نفسك ، والمواساة فى المال » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما عمل آدمى عملا ، أنجى له من عذاب الله ، من ذكر الله » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لن يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت عليهم ولم يذكروا الله تعالى فيها » .

وفى بعض الأخبار أن موسى عليه السلام ، قال : يا رب كيف لى أن أعلم من أحببت ممن أبغضت؟ قال : ياموسى ، إنى إذا أحببت عبدا جعلت فيه علامتين قال : يارب وما هما ؟ قال : ألهمه ذكرى كى أذكره فى ملكوت السماوات ، وأعصمه من محارمى وسخطى كى لا يحل عليه عذابى ونقمتى . يا موسى ، وإذا أبغضت عبدا جعلت فيه علامتين . قال : وماهما يارب ؟ قال : أنسيه ذكرى ، وأخلى بينه وبين نفسه لكى يقع فى محارمى وسخطى ، فيحل عليه عذابى ونقمتى .

وعن أنس بن مالك قال : ذكر الله علم الإيمان ، وبراءة من النفاق ، وحصن من الشيطان ، وحرز من النار .

وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى هريرة قال : إن أهل السماء ليرون بيوت أهل الذكر تضىء لهم ، كما يضىء الكوكب لأهل الأرض .

وقال ابن السماك كما فى « الحلية » : رأيت مسعراً فى المنام فقلت : ألست قد مت ؟ قال : بلى . قلت : فأى العمل وجدت أنفع ؟ قال : ذكر الله .

وعن بعض الصالحين أنه قال : خرجت مع جماعة من المسلمين فغزونا بلاد العدو فأسرت جارية من بنات الروم ؛ فلما رجعنا إلى بلادنا طلبتها من أمير الجيش فوهبها لى ، فأتيت بها إلى منزلى ، وعرضت عليها الإسلام وأسلمت وحسن إسلامها ، وعلمتها الشرائع فآمنت إيمانا صادقا ، فكانت تصوم النهار وتقوم الليل ، وتذكر الله بذكر لم يسمع السامعون بمثله ؛ فلما كان ذات يوم خرجت معى إلى السوق فقلت لها : اجلسى ها هنا حتى أعود إليك فتركتها وانصرفت ، فلما رجعت لم أجدها فى الموضع الذى تركتها فيه ، فانصرفت إلى

منزلى ، والغضب على وجهى . فقالت : يامولاى لأى شىء غضبت ؟ فقلت لها : تركتك فى مكان فلم أجدك فيه. فقالت لى: يامولاى تركتنى مع قوم لا يذكرون الله تعالى ، فخشيت أن يخسف بى ، وأنا معهم . فقلت لها : أو ما علمت أنه مذ بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، زال الخسف عن الناس ؟ فقالت : يامولاى ليس الخسف خسف المكان ، إنما الخسف خسف القلوب والإيمان . اهـ .

ويؤيد ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : جددوا إيمانكم ، قالوا : بم يارسول الله ؟ قال : بذكر الله . فدل الحديث بمنطوقه على أن الإيمان يزيد بكثرة الذكر وينقص بالإقلال منه .

وقال فتح الموصلى : القلب إذا منع الذكر مات .

وقال ثابت البنانى : إن أهل الذكر ليحاسبون ، وعليهم من الذنوب كأمثال الجبال ، فيقومون وليس عليهم ذنب واحد .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مامن صيد يصاد ولا شجرة تعضد الا لغفلتها عن ذكر الله » . وفى رواية : « ماصيد صيد ولا قطعت شجرة إلا لتضييع من التسبيح » .

وقال داوود الطائى : « كل نفس تخرج من الدنيا عطشانة إلا نفس الذاكرين » .

وقال أبو الدرداء: إن الذين ألسنتهم رطبة من ذكر الله يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك . قال الشعرانى : المراد بالرطبة عدم الغفلة ، فإن القلب اذا غفل يبس اللسان وخرج عن كونه رطبا .

قال بعض العارفين : القلب الغافل عن ذكر الله تكثر فيه الخواطر

الردية والوساوس والأوهام ، كالبيت المظلم إذا دخله الضوء فرت منه الحشرات ، ولا تعمره مادام مستنيرا . قال تعالى : «ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين» .

وقال على بن أبى طالب : عجبت لمن يكون مفتاح الجنة تحت لسانه ، فكيف يطبق شفتيه ؟ !

وقال العارف بالله سيدى أحمد بن يوسف المليانى : عليك بذكر الله تنجو من الأشرار ، فوالله ماوجدنا الأسرار إلا فى الأذكار . قيل : وما هى الأشرار؟ قال : النفس والهوى والشيطان وهم كلاب الله ، فإذا اشتغلت بمولاهم طردهم عنك برفق ، وإذا غفلت عن مولاك سلطهم عليك، وهم يأتون العبد من جهة البخل، والجهل يأتيه من قلة التعليم ، وقلة التعليم تأتيه من جهة الكبر ، والكبر يأتيه من جهة العجب ، والعجب يأتية من جهة الرياسة ، والرياسة تأتيه من جهة الطمع ، والطمع يأتيه من جهة الحرص ، والحرص من جهة حب الدنيا وحب الدنيا من جهة طول الأمل ، وطول الأمل من ظلمة القلب ، وظلمة القلب من قلة الذكر ، وقلة الذكر من كثرة الشهوة ، وكثرة الشهوة تأتيه من مصاحبة أهل اللهو ، ومصاحبة أهل اللهو تأتيه من جهة الحمق ، والحمق من قلة العقل . قال تعالى : «لهم قلوب لا يفقهون بها» إلى «الغافلون» انطمست بصائرهم لقوله تعالى : «فإنها لا تعمى الأبصار» (الآية) .

وقال أبو المواهب : إنما كان ذكر الله أكبر من الصلاة لأنها وإن كانت أشرف العبادات لا تجوز فى بعض الأوقات ، بخلاف الذكر فمطلوب الاستدامة عليه فى كل الحالات . اهـ .

وقال أبو المحاسن ، سيدى يوسف الفاسى : إن أقرب الطرق إلى الله وأحبها إليه دوام الذكر ، والذكر منشور الولاية ، ولابد منه فى البداية والنهاية ، وهو يثمر أحوالا شريفة ، ومقامات عالية حنيفة ، وعلوماً لطيفة؛ ونذيره:

إذا دخل القلب كدخول الماء فى الأسراب ، فإنه يخرج ما فيها من الحشرات والدواب ؛ فكذلك الذكر إذا صادم القلب ودخل سويداءه ، فإنه يخلصه من مساكنه صلصال النفس ، ويزيل عن ناظره الغشاوة واللبس . اهـ

وقد قالوا : الذكر منشور الولاية ، وهو محفوظ من غير أهله . قال تعالى: « إِنَّا نَحنُ نَزَّلنا الذِّكرَ » الآية . فإذا رأيت من أجرى الله لسانه على ذكره فاعلم أنه قد اصطفاه لخصوصيته . فحقيق أن ذكر الله هو مفتاح الجنة ، والغفلة هى الحرمان ، والحرمان فى النار .

وفى الحديث : « مَن أَحبَّ شَيئًا أَكثرَ مِنْ ذِكرِهِ ، وَمَا مِنْ ذَاكِر يَذْكرُ اللهَ إلاَّ حَرَّكَ مِنهُ ذِكرُهُ كل شَيء سَاكِن بِقدْرِ شغفِ الـكامِنِ » . مع أنه ليس المقصود الذكر بل المذكور .

ويقال : الذكر قوت الأرواح ، وخزانة الإمنماح . الذكر خفيف فى اللسان ، ثقيل فى الميزان . الذكر أخف الأعمال وأشرف الأحوال . الذكر لا ينقطع مدده ، ولا ينحصر أمده الذكر حضرة الرحمان ومطردة الشيطان . الذكر شعار الأنبياء ، وسر الأولياء . الذكر لا يوفق له إلا سعيد ، ولا يطرد عنه إلاَّ مَريد . ولا شك أن ما يلزم العباد من التكاليف والوظائف على اختلاف واجباتها ونوافلها ، ليس فيها أسهل ولا أعظم من ذكر الله ، وذلك لأنه ممكن للصحيح والمريض ، والضعيف والقوى ، والقائم والقاعد ، والراقد والماشى .

وقال بعضهم : سبحان الله ! ما أعظم إفادة ذكر الله ! وما أكثر الغافلين عنها ! صدق الله العظيم حيث يقول لنبيه : « وما أكثر النـاس ولو حرصت بمؤمنين » إلى « العالمين » .

واعلم أن كل عمل وقتته الشريعة ، وحجره الأنبياء والعارفون بالله ، وحدوه

بحصر كلى أو جزئى ، إلا ذكر الله فإنه مطلق عام مأمور به فى كل مكان ، وكل أوان ، وكل حالة ولو مذمومة ، لأنه إن لم يمكن باللسان ، فبالقلب ، وبالسر والجهر ، وفى الخلاء والملأ .

قال الله العظيم : « الذين يذكرون الله قياماً » (الآية) . وقال : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » . من غير تخصيص بوقت ولا زمان ولا مكان ، وكل عمل ينقطع بالموت إلا ذكر الله تعالى .

قال الإمام أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه : « الزم بابا واحداً يفتح لك أبواباً ، واخضع لسيد واحد تخضع لك الرقاب .

قال تعالى : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه » (الآية) .

واعلم أنه ليس بالأبواب تنال المفاتيح ، بل بالمفاتيح تنال الأبواب ، فإذا نلتها فتحت لك الأبواب . قال عليه السلام ، فيما يرويه عن ربه : « لا إله إلا الله حصنى ، فمن قالها دخل حصنى » . الحديث .

وحكى عن بعضهم : أنهم لقنوه عند الموت لا إله إلا الله ، فنظر إليهم وقال : لقنونى ، أو لا ، فإنى لا أدعها . وقرأ : « وألزمهم كلمة التقوى » . وفى الحديث : « يموت المرء على ما عاش عليه » .

فصل

وأفضل الذكر تلاوة القرآن .

قال النووى رحمه الله : اعلم أن المذهب المختار الذى عليه من يعتمد من العلماء : أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار . وقد تظاهرت الأدلة على ذلك اهـ .

وقال أيضاً فى « حلية الأبرار » مانصه : اعلم أن تلاوة القرآن هى أفضل الأذكار ، والمطلوب القراءة بالتدبر . اهـ .

وفى « الحصن » : وأفضل الذكر القرآن إلا فيما ورد بغيره . اهـ .

وفى الجامع الصغير : « أفضل العبادة قراءة القرآن » .

قال المناوى : لأن القارئ يناجى ربه ، ولأنه أصل العلوم وأمها وأهمها ، فالاشتغال بقراءته أفضل من الاشتغال بجميع الأذكار ، إلا ماورد فيه شىء مخصوص . اهـ

وكان السلف رضى الله عنهم لايعدلون بقراءة القرآن شيئاً ، كما فى « النشر » . قال : فقد روينا عن شقيق ، عن أبى وائل ، قال : قيل لعبد الله بن مسعود : إنك تقل الصوم ؟ قال : إذا صمت ضعفت عن القرآن ، وتلاوة القرآن أحب إلى . قال : وأسند الحافظ أبو العلاء ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أفضل العبادة قراءة القرآن » . قال : وروينا عن النعمان ابن بشير ، رضى الله عنهما . قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم « أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن » أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » .

وعن عبد الحميد بن عبد الرحمن الحمانى ، سألت سفيان الثورى عن الرجل يغزو أحب إليك أو يقرأ القرآن ؟ فقال : يقرأ القرآن ، لأن النبى ، صلى الله عليه وسلم قال : خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . اهـ .

وأخرج الترمذى والدارمى وغيرهما ، عن على ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن . قلت : فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم مابينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى

الهدى من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ؛ ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

وفى صحيح مسلم مرفوعا : « اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » .

وأخرج البيهقى وغيره مرفوعا : « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. فقيل : يا رسول الله فما جلاؤها ؟ قال : تلاوة القرآن ؛ وكثرة ذكر الله تعالى » .

وفى جامع الترمذى وَحسنه ؛ عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عزوجل : من شغله القرآن عن ذكرى وعن مسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . اهـ .

وفى الحديث : « من قرأ القرآن فأعربه ، فله بكل حرف خمسون حسنة ، لا أقول ألم حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف » . ذكره السيوطى . قال : والمراد بإعرابه فهم معانيه لا مقابل اللحن ، لأن القراءة باللحن ، لا تعد قراءة ولا يثاب عليها . اهـ .

وقال الثنائى فى شرح « الرسالة » : قد جاء : من قرأ القرآن على غير طهارة كان له بكل حرف عشر حسنات ومن قرأه على طهارة فى غير الصلاة كان له

بكل حرف خمسون حسنة . وإن قرأه فى الصلاة قاعدا كان له بكل حرف خمسون حسنة، وإن كان فى الصلاة قائما كان له بكل حرف مائة حسنة ، والقراءة فى المصحف أفضل من هذا كله .

وفى الجامع الكبير للسيوطى : « من قرأ القرآن فى صلاة قائماً ، كان له بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه قاعداً كان له بكل حرف خمسون حسنة . ومن قرأه فى غير صلاة كان له بكل حرف عشر حسنات، ومن استمع إلى كتاب الله عز وجل كان له بكل حرف حسنة » . الديلمى عن أنس .

وذكر ابن الجزري فى « النشر » حديث : « من استمع حرفاً من كتاب الله طاهرا ، كتب له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات ورفعت له عشر درجات » .

وذكر السيوطى ، فى مقدمة « من يؤتى أجره مرتين » : أن لمستمع القرآن مثل أجر القارىء مرتين . ولعل هـــذا الاختلاف باختلاف حال السامع ، والله أعلم .

وأسند فى « النشر » إلى عبدالله بن أحمد بن حنبل ، قال : سمعت أبى ، رحمه الله ، يقول : رأيت رب العزة فى المنام فقلت : يارب ما أفضل ماتقرب به المتقربون إليك ؟ قال : بكلامى يا أحمد . قلت : يارب بفهم أو بغير فهم . قال : بفهم أو بغير فهم . ا هـ .

وفى سنن الصالحين روى ابن لبابة عن العتبي عن سحنون : أنه رأى ابن القاسم فى النوم فقال : ما فعل بك ربك ؟ قال : وجدت عنده ماأحب . قال له: فأى أعمالك وجدت أفضل ؟ قال : تلاوة القرآن .

وفى ترجمة أبى بكر بن زرب القاضى من «المدارك» مانصه : ورئى فى المنام بعد وفاته ، وسئل عن حاله . فقال : ما وجدت شيئاً أضر من الاختلاف إلى أبواب الملوك ، وما وجدت شيئاً أنفع من تلاوة القرآن . ا هـ

وفى «سنن المهتدين» عن شيخ الشيوخ ابن اب ، أنه قال : خطر لى خاطر خير ، فأردت أن أجعل على نفسى وظيفة من ذكر أو تلاوة ، وترددت فى أى ذلك أفضل فأنشدت فى المنام :

إذَا الأحبابُ فاتهُمُ التلاَقِـى　　فمـا صِلة بأفضَلَ من كتابِى

فلما استيقظت علمت أن قراءة القرآن أفضل .

وذكر المنوى عن بعض الصوفية ، قال : كنت أ كثر القراءة ثم اشتغلت بكتابة الأحاديث والعلم ، فقلّت تلاوتى ، فنمت ليلة ، فرأيت كأن قائلا يقول:

إن كنتَ تَزْعُمُ حبِى　　فَلِم جفوْتَ كتابى

أمـا تدبرْتَ مافيـهِ　　مـنْ لذيذِ خطابى؟

فانتبهت فزعا وعدت إليه . ا هـ

وفى ترجمة أبى المواهب الشاذلى ، رضى الله عنه ، من « لوافح الأنوار » أنه كان يقول : رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : يا محمد ماهذه الغفلة ؟ وماهذه الرقدة ؟ وما هذا الإعراض ؟ مالك تركت تلاوة القرآن ؟ وما هذه الوريدات فى جنب تلاوة القرآن ؟ لا تفعل ذلك أصلا ، بل اتل كل يوم ولو جزئين لا أقل من ذلك كل يوم .

قال بعض أصحاب الشيخ : فـما ترك الشيخ تلاوة القرآن من ذلك اليوم ؟ وكان يردد بعض الآيات مراراً كثيرة ، يبكى وتنحدر دموعه على خديه ولحيته ، ويتأوه حتى لا يقدر أحد أن يتكلم بحضرته ، لما يرى من وجده وكثرة بكائه . ا هـ

وفى خزينة «الأسرار» عنه عليه السلام : «لو جمع ثواب جميع الصلوات ، ما يقابل ثواب حرف واحد من القرآن» .

وعن هارون بن معروف أنه قال : أقبلت على الحديث وتركت قراءة القرآن ، فرأيت فى المنام شخصا يقول : من قرأ القرآن وآثر الحديث على القرآن عذب ، فما أتى على إلا زمان قليل ، حتى ذهب بصرى .

وذكر ابن حجر الهيثمى فى « إتحاف الإسلام » عن ابن عبد الحكم ، أنه قال : كان الإمام مالك بن أنس إذا دخل رمضان ، نفر من قراءة الحديث ، ومجالسة أهل العلم ، وأقبل على قراءة القرآن فى المصحف .

وأخرج الطبرانى مرفوعا : « القرآن ألفُ ألفِ حرفٍ وسبعة وعشرونَ ألف حرف ، فمن قرأه صابراً محتسباً كان لهُ بكل حرف زوجة من الحور العين»

ولعله حسب مانسخ رسمه من القرآن أيضا لأن الموجود الآن لا يبلغ هذا العدد . وانظر « الإتقان » .

وأخرج البيهقى وصححه الحاكم عن عائشة مرفوعا : « عدد درج الجنة عددَ آيِ القرآن ، ومن دخل الجنة من أهل القرآن فليس فوقه درجة » .

وقد أجمعوا كما فى « الإتقان » على أن عدد آى القرآن ستة آلاف آية ، ثم اختلفوا فى الزائد . فقيل : ومائتان وأربع آيات . وقيل : وأربع عشرة آية ، وقيل غير ذلك .

كلام قديم لا يمل سماعه تنزّه عن قول وفعل ونية
به أشتفى من كل داء ، ونوره دواء لقلبى عند جهلى وحيرتى
فيارب متّعنى بسر حروفه ونوّر به سمعى وقلبى ومقلتى

وقد كنت اتفقت فى آيهِ وعدد حروفه ، على ماورد فى الأخبار ، أبياتا وهى هذه :

عددُ آى الذكرِ جاء فى الخبرْ ‏ من الألوف (و) ونقط (ديذرْ)
وابن عباس قال فيما قد روى ‏ من الألوف (و) كذا نقط (ذوى)
حروفه بنقط (شكز) تضبط ‏ من الألوف هكذا تقسط
سوره بنقط (قيد) والكلم ‏ سبع وتسعون ألوفا تنتظم
مع أربع من المئين وكذا ‏ تسع تضم لثمانين خذا
وفى حديث عائش قد ثبتا ‏ درج جنة كآيه أتى
من دخل الجنة من أهله لا ‏ يكون فوق منزل له علا
وفى حديث الديلمى أنه ‏ بقدرها حور تهيأ له
جعلنا الله لذاك أهلا ‏ ولختام الخير فضلا أولا
بجاه من قد ختم الرسالة ‏ صلى عليه الله ذو الجلالة

ثم إن من أجل آى القرآن كلمة التوحيد أعنى « لا إله إلا الله » فهى أفضل أنواع الذكر .

أخرج الترمذى والنسائى وابن ماجة ، وابن حبان والبيهقى عن جابر : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « أفضل الذِّكرِ : لا إله إلا اللهُ وأفضل الدعاء : الحمد لله » .

وأخرج الإمام مالك فى الموطأ : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد » .

وأخرج الترمذى وابن ماجة والحاكم وابن حبان فى صحيحيهما ، وقال الحاكم : صحيح ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : قال النبى ، صلى الله عليه وسلم : « إن الله سبحانه يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم

القيامة ، وينشر عليه تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مثل مدّ البصر ، ثم يقول أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : بلى إن لك عندى حسنة ، وأنت لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : احضر وزنك . فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ قال : فيقول : فإنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلاتُ ، وثقلتْ البطاقةُ ، ولا يثقلُ مع اسم الله شىء » .

وعن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : قال موسى عليه السلام : يارب علمنى شيئا أذكرك به . قال : ياموسى قل : لا إله إلا الله . قال موسى : يارب كل العباد يقولون : لا إله إلا الله . قال : ياموسى قل : لا إله إلا الله . قال : يارب إنى أشهد أن لا إله إلا أنت ، أنا أريد شيئا تخصنى به . قال : ياموسى لو أن السماوات السبع وعمارهن ، والأرضين السبع ومن فيهن ، وما بين ذلك : كل ذلك فى كفة ميزان ، ولا إله إلا الله فى كفة ، مالت بذلك كله : لا إله إلا الله » .

وفى بعض الأخبار أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، كان فى بعض أسفاره فمر بامرأة تخبز ، ومعها صبى لها ، فقالت : يا رسول الله بلغنى أنك تقول : إن الله سبحانه أرحم من الوالدة بولدها ؛ فهو كما قيل لى ؟ فقال ، صلى الله عليه وسلم : نعم . فقالت : إن الأم لا تلقى ولدها فى هذا التنور ، فبكى صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن الله تعالى لا يعذب إلا من أبى أن يقول : لا إله إلا الله » .

وأخرج الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » عن أيوب بن خالد ، قال : سمعت من غير واحد من أصحابنا أن العبد يوقف على الميزان يوم القيامة ،

فينظر فى الميزان ، وينظر فى صاحب الميزان ، فيقول صاحب الميزان : ياعبد الله أتفقد من عملك شيئا ؟ فيقول : نعم . فيقول : ماذا ؟ فيقول : لا إله إلا الله وحده لاشريك له . فيقول صاحب الميزان : هى أعظم من أن توضع فى الميزان.

وقال عليه الصلاة والسلام . « عليكم بلا إله إلا الله ، والاستغفار فأكثروا منهما ، فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، وهم يحسبون أنهم مهتدون » .

وقال عليه السلام : « لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى ، وشرد عن الله شرود البعير عن أهله ، فقيل : يا رسول الله من ذا الذى يأبى ؟ قال : من لم يقل : لا إله إلا الله ، فأكثروا من قولها ، قبل أن يحال بينكم وبينها ، فإنها كلمة التوحيد ، وكلمة التقوى ، والكلمة الطيبة ، ودعوة الحق والعروة الوثقى ، وثمن الجنة » .

وقال سهل بن عبد الله . ليس لمن يقول : لا إله إلا الله ثواب إلا النظر إلى الله تعالى ، والجنة ثواب الأعمال .

وعن سفيان بن عيينة : لاإله إلا الله ، بمنزلة الماء فى النبات ، فمن لم يكن معه : لا إله إلا الله ، فهو ميت ، ومن كانت معه فهو حى .

وأعلم أنه إذا أطلق الله ، على لسان عبده ذكرها ، ووجد فى نفسه خفة وارتياحا له ، فليكن على يقين من ورود فضل « لا إله إلا الله » ، وإقبال الله عليه .

فصل :

ومن أفضل الذكر أيضا . الصلاة والسلام على النبى ، صلى الله عليه وسلم. قال الساحلى ، رحمه الله : جاء فى بعض الآثار أن الله تعالى قال : « يامحمد

من أحبك فقد أحبنى ، ومن ذكرك فقد ذكرنى » وليست كيفية من كيفية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا وفيها اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته . ا هـ

وقال ابن عطاء الله ، فى « منهاج الإنابة » : من فاته كثرة الصلاة والصيام فليشغل نفسه بالصلاة على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فإنك لو فعلت فى عمرك كل طاعة ، وصلى عليك الله صلاة واحدة رجحت تلك الصلاة الواحدة على كل ما فعلت فى عمرك كله من جميع الطاعات؛ لأنك تصلى على حسب وسعك، وهو يصلى على حسب ربوبيته ؛ هذا إذا كانت الصلاة واحدة فكيف إذ صلى عليك عشرا بكل صلاة كما جاء فى الحديث ؟ ا هـ .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ياموسى . أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك ، ومن وسواس قلبك إلى قلبك ، ومن روحك إلى بدنك ، ومن نور بصرك إلى عينك ؟ قال : نعم يارب . قال : فأكثر من الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم .

وأسند القشيرى فى « رسالته » عن ابن عباس ، قال : أوحى الله إلى موسى عليه السلام : ياموسى إنى جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتى سمعت كلامى ، وعشرة آلاف لسان حتى أجبتنى ، وأحب ما تكون إلى وأقربه إذا أكثرت الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى البخارى فى « التاريخ » والترمذى وابن حبان عن ابن مسعود مرفوعا : « إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

وقال عليه السلام : « ليردن على الحوض يوم القيامة أقوام ما أعرفهم إلا بكثرة الصلاة على » .

وفي دالية الإمام البوصيري رحمه الله :

وتزود التقوى فإن لم تستطع ... فمن الصلاة على النبي محمد
صلى عليه الله . إن صلاة من ... صلى عليه ذخيرة لم تنفد

وقال آخر :

ألا أيها الراجي المثوبة والأجرا ... وتكفير ذنب سالف أثقل الظهرا
عليك بإكثار الصلاة مواظباً ... على أحمد الهادي شفيع الورى طرا
وأفضل خلق الله من نسل آدم ... وأزكاهم فرعاً وأشرفهم فخراً
فقد صح أن الله جل جلاله ... يصلي على من قالها مرة عشراً
فصلى عليه الله ما جنت الدجا ... وأطلعت الأفلاك في أفقها فجرا

وما ورد في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والترغيب فيها لا يحصى. وقد نص الأئمة أنها تقوم مقام شيخ التربية في تنوير الباطن ، كما ذكره السنوسي في شرح « صغرى الصغرى » والشيخ زروق وغيرهما .

قال السنوسي رحمه الله في الشرح المذكور : وقد رأيت لبعض أئمة التصوف أن من فقد شيوخ التربية فليكثر من الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم ، فإنه يصل بها إلى مقصده . اهـ .

وقال الشيخ زروق في « قواعده » عن شيخه أبي العباس الحضرمي ، أنه كتب له يوم وداعه : وعليك بدوام الذكر وكثرة الصلاة على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهي سلم ومعراج وسلوك إلى الله تعالى ، إذا لم يلق الطالب شيخا مرشدا ، فقد سمعت في سنة ست وأربعين وثمانمائة بالحرم الشريف رجلا صالحا ، روى لي ذلك عن رجل من أهل الصدق مع الله ، وكلاهما معروفان رأيتهما .

وقال الشيخ زروق : قلت : وذلك يرفع همة المتوجه ، وإن كان فى مقام التخليط لأنه نور كله ؛ يعنى : الذكر والصلاة عليه ، صلى الله عليه وسلم ، والنور من طبعه ينفى الظلمة ، فهى أعظم فائدة ، والحمد لله . اهـ

وسئل الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى اليمنى ، عن قراءة القرآن ، وعن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : الصلاة على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ هى قرآن القرآن وفرقان الفرقان ، أى أنها تنتج لصاحبها شهود الذات فى حقائق الصفات ، وحقائق الصفات فى معانى الذات . اهـ .

وقال العارف فى « حواشى الصغرى » : وطريق أئمتنا الصوفية مبنية على الصلاة على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فقد قال سيدنا الشاذلى ، رضى الله عنه : صلاة واحدة عليه صلى الله عليه وسلم ؛ تفرج كل هم وشدة فى الدنيا والآخرة . اهـ

وذكر الشعرانى فى كتابه « العهود المحمدية » عن الشيخ أبى العباس أحمد الزواوى ، أنه قال له مرة : طريقتنا أن نكثر من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم حتى يصير يجالسنا يقظة ، ونصحبه مثل الصحابة ، ونسأله عن أمور ديننا ؛ وعن الأحاديث التى ضعفها الحفاظ عندنا ، ونعمل بقوله صلى الله عليه وسلم فيها ؛ وما لم يقع لنا ذلك فلسنا من المكثرين للصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

ثم قال الشعرانى : واعلم يا أخى أن طريق الوصول إلى حضرة الله ، من طريق الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم من أقرب الطرق : فمن لم يخدمه صلى الله عليه وسلم ، الخدمة الخاصة ورام الدخول إلى حضرة الله فقد رام المحال ولا يمكنه حجاب الحضرة أن يدخل ، وذلك لجهله بالأدب مع الله تعالى ،

فحكمه حكم الفلاح إذا طلب الاجتماع بالسلطان بغير واسطة ، فافهم .

فعليك يا أخى بالإكثار من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كنت غير سالم من الخطايا ، فإن غلام السلطان أو عبده إذا سكر لا يتعرض له الوالى أبدا ، بخلاف من لم يكن غلاما له ، ويرى نفسه على خدام السلطان وعبيده وغيرهم ، ولا يدخل فى دائرة الوسائط ، فإن جماعة الوالى يضربونه ويعاقبونه ، فانظر حماية الوسائط ، وما رأينا أحدا قط تعرض لغلام الوالى إذا سكر أبدا إكراما للوالى ، فكذلك خدام النبى ، صلى الله عليه وسلم ، لا يتعرض لهم الزبانية بحول الله يوم القيامة ، إكراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد نفعت الحماية مع التقصير مالم تنفعه كثرة الأعمال الصالحة مع عدم الاستناد إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الاستناد الخاص .

وقد كان فى زمن شيخنا الشيخ نور الدين الشونى ، من هو أكثر منه علما وعملا ، ولكنه لم يكن يكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يكثر الشيخ ؛ فلم يكن ينهض له علمه وعمله إلى التقريب الذى كان فيه الشيخ ، فكانت حوائجه مقضية ، وطريقه ماشية ، وسائر العلماء والمجاذيب تحبه . ووالله ليس مقصود كل صادق ، من جمع الناس على ذكر الله ، إلا المحبة فى الله ، ولا جمعهم على الصلاة ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا المحبة فيه ، فافهم . والله ولى التوفيق .

هذا وقد قال الحافظ ابن حجر فى « الدر المنضود ، فى الصلاة على صاحب المقام المحمود » : إن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فى يوم الجمعة وليلتها أفضل من قراءة القرآن ماعدا سورة الكهف لورود الأحاديث النبوية بالأمر بقراءتها فى ذلك اليوم . ا هـ

ثم هاهنا تنبيهات مفيدة ، وفوائد نفيسة أكيدة .

التنبيه الأول : اعلم أن تلقين الذكر سنة ماضية ، وطريقة نبوية أحمدية » فقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام لقن أصحابه «لا إله إلا الله» جماعة وفرادى» كما أشار لذلك الشعرانى فى كتابه المسمى « مدارك السالكين إلى رسوم طريق العارفين » . قال رضى الله عنه : روى الإمام أحمد والطبرانى والبزار عن يعلى عن أبيه : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لقن لأصحابه كلمة : « لا إله إلا الله » جماعة وفرادى ، لما رواه شداد بن أوس ، وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه ، قال : كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم : فقال لنا : هل فيكم غريب ؟ يعنى : من أهل الكتاب ، فقلنا : لا يارسول الله ؛ فأمر بغلق الباب وقال لنا : ارفعوا أيديكم وقولوا : لا إله إلا الله » ، فرفعنا أيدينا وقلنا : لا إله إلا الله» ، ثم قال : اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة ، ووعدتنى عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد . ثم قال عليه السلام : أبشروا فإن الله قد غفر لكم » .

وأما تلقينه للأفراد ، فقد قال مولانا على ، كرم الله وجهه : « سألت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم عن أفضل الطرق إلى الله سبحانه وأسهلها على عباده . فقال لى : ذكر الله سراً وجهراً » . وفى رواية : «مداومة ذكر الله» قال : فقلت له : يارسول الله، كل الناس يذكرون الله إنما أريد أن تخصنى بشىء ، فقال لى: ياعلى: أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى : « لا إله إلا الله » ياعلى: لو أن السماوات السبع والأرضين السبع فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة ، لرجحت بهن « لا إله إلا الله » ، ياعلى ، لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول : لا إله إلا الله . فقلت له : كيف أذكرها يارسول الله؟ فقال لى . اجلس وضع يدك على ركبتيك وغمض عينيك ؛ ثم رفع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم صوته ، وهو مغمض عينيه ، وقال : لا إله إلا الله، ثلاث مرات ، وعلى يسمع ، ثم قال على : لا إله إلا الله ثلاث مرات ، وهو مغمض عينيه، ورسول الله ، صلى الله عليه وسلم يسمع ، فلقنها

له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأمره بتلقينها عنه إلى غيره؛ وقال له : ياعلى هكذا لقننى أخى جبريل عن رب العالمين جل جلاله ، و كذلك لقنها على لولده : الحسنِ السبطِ ، وهو لقنها للحسنِ البصرى ، وهو لقنها لحبيب العجمى ، وهو لقنها لداوود الطائى ، وهو لقنها لمعروف الكرخى ، وهو لقنها لسرى السقطى ، وهو للجنيد ، فهى كذلك باقية من قرن إلى قرن حتى الآن . فهذا سندهم فى تلقين الذكر . فيجب على كل مريد لهذه الطريقة أن لا يدخلها إلا بسند متصل بشيخ عن شيخ إلى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، من أى طريق من طرائق الصحابة لقوله عليه السلام : « أَصْحَابِى كَالنجُومِ بِأَيِّهِم اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ » . فكل منهم أخذ عنه ، صلى الله عليه وسلم ، على قدر إرثه ، وإرثه على قدر فتحه ، وفتحه على قدر نوره ، ونوره على قدر صفائه ، وصفاؤه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته على قدر ما أوجد له من حبه ؛ إلا أن أهل الباطن أحق بالإراثة وأقرب من غيرهم للنسبة ، ولم تزل نسبة الولاية تتوارث من قرن إلى قرن ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

وقال العارف بالله سيدى أحمد بن يوسف المليانى : لا يصل رتبة الولاية من كان عمله مع الجهل مقرونا ، ولا يصل درجة القرب من كان بدنياه مفتونا ، ولا تغنى الموعظة لمن كان برمح الحرمان مطعونا ، ولا تصح معرفة الولى إلا بعد معرفة الله ، لأنه لا يطلب الولى إلا من عرف الولاية ، ولا يعرفها إلا من صدق بالاختصاص ، وهو فتح من الله سبحانه ؛ ولذا قيل : التصديق بطريقتنا هذه ولاية ، والإيمان بها عناية . اهـ

الثانى : اعلم أن الجهر بالذكر والاجتماع له جائز ، ففى الحديث : « لا يَقعدُ قوم يذكرونَ اللهَ إلا حفتهمُ الملائكةُ ، وَغشيتهمُ الرحمةُ ، ونزلت عليهم السكينةُ ، وَذكرهمُ اللهُ فِيمنْ عِندَهُ » .

وكره مالك ذلك كما فى « شرح الفاكهانى على الأربعين » . وقال : إلا أن يكون كل واحد يذكر لنفسه على انفراده ، وحمل عليه الحديث . واعترض الشيخ زروق فى القواعد هذا الحمل بما حاصله : أن يكون الذكر سرا فعدم جوازه غير ظاهر . وإن كان جهرا وكل على ذكره ، فلا يخفى ما فيه من إساءة الأدب بالتخليط وغيره مما لا يسوغ فى حديث الناس ، فضلا عن ذكر الله فلزم جوازه ، بل ندبه بشرطه .

وأما قول ابن مسعود ، لقوم يذكرون الله . لقد جئتم ببدعة ظلما ، أو لقد فقتم أصحاب محمد علما ، فالجواب عنه : أنه لم يبلغه حديث الترغيب فيها ، أو أنه أنكر السيئة ونحوها ، وإلا فلا يصح إنكاره لهذا الوجه ، بعد صحة الحديث .

وفى « الجامع من المعيار » جواب طويل فى هذه المسألة ، وبه ختم المازونى كتابه « الدرر المكنونة » .

وقد ألف السيوطى تأليفا سماه : نتيجة الفكر فى الجهر بالذكر » .

وقال الإمام السنوسى ، رضى الله عنه ، فى كتابه « نصرة الفقير » ما نصه : وأما إنكاركم الاجتماع للذكر والمداولة والتزاور فى الله ، والإعلان بالذكر إن أشرفوا على منازل الإخوان ، واجتماعهم كذلك بإطعام الطعام وإفشاء السلام ؛ فذلك كله أمر مستحب ، وإن لم يثبت بذلك عمل السلف والجمع به ، فهنا أنوار استحسنها المتأخرون ، ولم يخص فى شىء من ذلك السلف الماضون اكتفاء برؤيته عليه السلام ، وأنه قال : « ما اجتمعَ قومٌ فى بَيتٍ منْ بيوتِ اللهِ ، يَتلونَ كتابَ اللهِ ويَتدارَسونهُ بَينهمْ إلاّ نَزلتْ عَليهمُ السكينةُ وَغشيتهمُ الرحمةُ ، وحفتهمُ الملائكةُ ، وذكرهمُ اللهُ فِيمنْ عِندَه » . رواه البخارى .

قال : وأما الإعلان بالذكر فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يجتمع مع أصحابه أدبار الصلوات الخمس للذكر يرفعون أصواتهم بذلك ، حتى قال عمر : كنا نعرف إذا انصرفنا من المكتوبة برفع الصوت بالذكر . وثبت أيضاً أنه ، صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « إذَا أَتيتُمْ دِيَارَكم فَأَعلِنُوا بالذكر » يؤخذ من هذا جواز الإعلان بالذكر ، إن أشرفوا على المنازل لأمرين : التأسي وتشويق السامع ، فاعرف ذلك ا هـ.

ومن « الدر المنثور » في قوله تعالى : « واصْبِرْ نَفسكَ مع الذِين يدْعون رَبهمْ » (الآية) — ما نصه :

أخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه ، عن عبد الرحمن بن سهل ، قال : نَزَلَتْ على رَسولِ الله ، صلى الله عليه وسلم ، وَهوَ في بَعضِ أبياتِه ، فَخرَجَ يَلتمسهُمْ فوَجدَ قوماً يَذكرون اللهَ ؛ منهم ثَائِرُ الرأسِ ، وجَافي الرِّجلِ ، وذُو الثوْبِ الوَاحِدِ ، فلما رآهمْ جَلسَ مَعهم ، وقال : الحَمْدُ لله الذِي جَعل في أمتِي مَنْ أَمَرنِي أنْ أصبرَ نَفسِي مَعهمْ » .

وأخرج الطبراني في « الصغير » ، وابن مردويه من طريق عمر بن ذر ، حدثني مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : مَرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعبدِالله ابنِ رَوَاحَةَ ، وهُوَ يذَكِّرُ أصحابَهُ فقال ، صلى الله عليه وسلم : أما إنكُمُ الملأُ الذِين أمَرنِي اللهُ أنْ أصبرَ نَفسِي مَعهم ، ثم تلا : « واصبرْ نفسكَ » (الآية) . أمَا إنهُ مَا جَلسَ عِدّتكُم إلا جلسَ معهم عدتهم ؛ يصعدُون إلى الرَّبِ ، وهوَ أعلمُ ، فَيقولُ للملائكة : رَبِّ عِبادك سَبحوكَ فسبحنا ، وكبرُوكَ فَكبرْنَا ، وحمدُوكَ فحمدْنَا ، فَيقوُلُ رَبناَ : يا مَلائكتي أُشهِدُكمْ أني قدْ غفرْتُ لَهمْ . فيقولون : فيهمْ فلاَنُ الخطاءُ . فيقولُ : همُ القوْمُ لا يَشقىَ جليسهُمْ » .

وأخرج أحمد فى « الزهد » عن ثابت ، قال : كان سَلمانُ فى عِصابةٍ يذْكرُونَ الله ، فمرَّ النبىُّ ، صلى اللهُ عليه وسلم ، فكفوا : فقال : ما كنتم تقولونَ ؟ قلنا : نذْكرُ اللهَ . قال : فإنى رأيتُ الرَّحمةَ تنزلُ عليكمُ فأحببتُ أنْ أُشاركَكم فيها . ثمَّ قالَ : الحمدُ للهِ الذى جعلَ فى أمتى مَنْ أُمِرْتُ أن أصبرَ نفسى مَعهمْ » .

وأخرج أحمد عن أنس ، عَنْ رَسولِ اللهِ ، صلى الله عليه وسلم ، قال: « ما منْ قَوْمٍ اجتمعوا يَذْكرُونَ اللهَ لا يُريدُونَ بذَلكَ إلاَّ وجهُهُ إلاَّ نَادَاهُمْ مُنادٍ منَ السماءِ أنْ قُومُوا مَغفوراً لَكمُ ، قدْ بدِّلتْ سَيئاتكم حسنات » . اهـ .

قال فى « المرآة » : وأما الاجتماع للقراءة والذكر والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم على لسان واحد جهرا ، فأمر جرى به عمل المقتدى بهم فى مشارق الأرض ومغاربها .

ومن أصول الاجتماع والذكر جماعةً ما أخرجه الشيخان ، واللفظ للبخارى عن أبى هريرة قال : قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الملائكةَ يطوفونَ فى الطرُقِ يلتمِسونَ أهلَ الذِّكرِ ، فإذا وجدُوا قوْماً يذْكرُونَ اللهَ تنادَوا : هلمُّوا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماءِ ، قال : فيسألهمُ ربهمْ وهوَ أعلم بهم : ما يقولُ عبادى ؟ قال : يقولونَ : يُسبحونَكَ ويُكبرونَكَ ويحمدُونكَ ويمجدُونَك . قال فيقولُ : هلْ رأونى ؟ فيقولوُن : لا ما رأوْكَ ، قالَ : فيقولُ : كيفَ لوْ رأوْنى ؟ قال: فيقولونَ : لوْ رأوكَ كانوا أشدَّ لكَ عبادة وأشدَّ تمجيدًا ، وأكثر لك تسبيحاً ، قال: فيقول : ما سألونى ؟ قال: يقولونَ : سألوكَ الجنة ، قال: فيقول : وهلْ رأوْها ؟ قال : فيقولوَن : لا واللهِ يارَبِّ ، فيقولُ : كيفَ

لَوْ رَأَوْها ؟ قَال : يَقولون : لَوْ أنهم رَأَوْها كانُوا أَشَدَّ عليها حرصاً وأَشدَّ لَهَا طلباً ، قَال : فيقول : وممَّ يتعوذُونَ ؟ قَال : يقولونَ : منَ النار . قَال : فَيقول : وهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَال : فيقولوَن : لا . قَال : فَيقول : فَكيفَ لَوْ رَأَوْها ؟ قَال : فَيقولونَ : لو رَأَوْها كانوا أَشدَّ منها فراراً ، وأَشدَّ لها مخافةَ ، قال : فيقُولُ : أشهدُكم أنى قَد غفرتُ لهُمْ ، قَالَ : فيقُولُ ملك من الملائكة : فيهم فُلان وليس منهم إنما جاء لحاجة ، قَالَ : هم القوم لا يَشقى جليسهم »

وأخرج البزار عن أنس ، أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم ، ثم بعثوا رائدهم إلى السماء إلى رب العزة تعالى فيقولون : ربنا أتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك ، ويتلون كتابك ، ويصلون على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ويسألونك لآخرتهم ودنياهم ، فيقول تعالى : غشوهم رحمتى فهم الجلساء لا يشقى جليسهم » .

وأخرج الترمذى وابن ماجة ، ومسلم ، واللفظ له ، عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ، أنهما شهدا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة » . الحديث .

وأخرج الشيخان والترمذى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » . الحديث .

وعن معاوية أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خرج على حلقة من أصحابه فقال : « ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا . قال : آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يُباهى بكم الملائكة » .

وعن أبي سعيد الخدرى ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : «يقول الله يوم القيامة سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم . فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر »

وأخرج أحمد عن أبيّ قال : كان عبد الله بن رواحة إذا لقى الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تعال نؤمن بربنا ساعة ، فقال ذات يوم لرجل ، فغضب الرجل ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى الإيمان ساعة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : «يرحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة».

وقال صلى الله عليه وسلم: « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس ، أحب إلى من أن أعتق رقبة من ولد إسماعيل ، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر حتى تغرب الشمس أحب إلى من أن أعتق رقبة من ولد إسماعيل » .

ومفهوم قوله صلى الله عليه وسلم : « اذكروا الله حتى يقولوا : مجنون » رفع الصوت بالذكر . والمبتدى لا يقطع عنه وسوسته إلا رفع الصوت بالذكر وأما المنتهى فالحال عنده سواء ، فمن ذكر الله سرا لا يقال له : مجنون ، وكذا لو أسمع نفسه ومن يليه . فأمر صلى الله عليه وسلم ، برفع الصوت فيه .

قال أبو يعقوب العجمى : إذا اجتمع الفقراء على الذكر فليجهروا بقدر طاقتهم ، ليصل التأثير إلى القلب سريعا ، وتنتفى الخواطر والهواجس والوساوس البشرية .

وقد اعترض بعض الفقهاء رفع الصوت بالذكر ، واستدل بقوله عليه السلام: «خير الذكر ماخفى » .

والجواب : أن الله تعالى قال لسيد الذاكرين : « واذكر ربك

فى نفسك»الآية. لأنه أعرف العارفين بالله ، وأما من لم يعرف ربه ولا نفسه فلا يليق به إلا مايقطع الوساوس، وينفى عنه الاستئناس بالناس. قال تعالى : « فاذكروا الله كذكركم آباءكم »الآية .

وفى الخبر : أن رجلا قال لجابر بن عبدالله ، وقد رآه يرفع صوته بالذكر لو خفض هذا قليلا ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « دعه فإنه أواه »

وكان عمر بن الخطاب يرفع صوته أيام منى بالذكر حتى ترد عليه الجبال . وكان إذا رأى أحدا يذكر الله سرا يقول له : نور : أى ارفع صوتك ليفر الشيطان عدوك ، فينور الله قلبك تنويرا موفورا .

وأخذ بعضهم الإجهار بالذكر من قوله تعالى : « يايحيى خذ الكتاب بقوة»، والقوة تعم جميع الجوارح الظاهرة والباطنة .

وقد سئل سيدى أحمد بن يوسف الملياني ، عن الذكر بالجهر ، فقال : القول فى الاجتماع على الذكر : نقل ابن الفاكهانى عن ابن عمر : أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فوجد بعض الناس يذكرون الله وآخرين يتفقهون فى الدين ، فقال صلى الله عليه وسلم « كلا المجلسين على خير » .

ومعلوم قطعا : أنهم لايجتمعون ويذكرون سرا بل جهراً ، وإلا فلا فائدة فى اجتماعهم .

وعن «الشفاء»لابن سبع : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « المساجد أوتاد ، جلساؤهم الملائكة إن غابوا تفقدوهم ،وإن مرضوا عادوهم ،وإن رأوهم رحبوا بهم ، وإن طلبوا حاجة أعانوهم فى قضائها ، فإذا جلسوا للذكر حفت بهم الملائكة إلى عنان السماء بأيديهم قراطيسُ من فضة وأقلام من الذهب يكتبون الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، والذكر الذى يذكرونَ، ويقولونَ لهم: اذكروا الله يرحمكم الله ،

فإذا استفتحوا الذكر فتحت لهم أبواب السماء ، ويستجاب لهم الدعاء ، ويطلع عليهم الحور العين ، ويقبل الله عليهم بوجهه الكريم مالم يخوضوا فى حديث غيره ، أو يتفرقوا . اهـ

وروى جعفر بن زياد ، عن أنس بن مالك ، أنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا وتنادى بقاع الأرض بعضها بعضا : أى جارتى ، هل مر بك اليوم ذاكر لله أو مصل ، على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ فنهم من قالت : لا ، ومنهم من قالت : نعم . فإذا قالت : نعم ، رأت لها فضلا بذلك عليها .

وقال عطاء بن يسار : حضور مجلس ذكر يكفر سبعين مجلساً من مجالس السوء . وقال : مجلس ذكر خير من ألف ألف ركعة تطوعا ، وعيادة ألف ألف مريض ، وشهادة ألف ألف جنازة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « غدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، قالوا : ومن لنا بِالغدوَةِ والروحةِ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : أيعجزُ أحدكم إذا صلى الصبح أو العصر أن يثبت فى مكانه يذكر الله وحده أو مع قوم ، حتى تطلع الشمس أو تغرب ؟ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يُؤتى بِأناسٍ يوم القيامةِ ليسوا مِنَ الأنبياء ولا مِنَ الشهداء فيغبطهمُ الأنبياء والشهداء لِمنزلتِهمْ مِنَ اللهِ ، فيجلسونَ على منابرِ مِنَ النور ؛ يفزع الناسُ ولا يَفزَعونَ ، قِيلَ : من هم يا رسولَ الله ؟ قال : أناس يجتمعون على ذكر الله من غير تقاضى أموال ، ولا تعطيف أرحام . ثم تلا صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » .

قال سيدى أحمد بن يوسف : وبدوام ذكر اللسان يوالى ذكر القلب ؛ وذكر الله باللسان سيف المريدين يقتلون به أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التى تريد أن تنزل بهم .

قال الغزالى : وليس كلُّ بدعة منهى عنها ، وإنما البدعة التى تطرد السنة الثابتة وتخرجها عن موضعها .

قال عز الدين بن عبد السلام : والبدع المندوبات مثل : إحداث نوافل الخيرات كالأحزاب بالإدارة ، والاجتماع على الذكر ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكل ماأحدثه الصوفية واستحسنه العلماء . اهـ

الثالث : قال الإمام السنوسى رضى الله عنه : وهذه الأذكار والاجتماعات التى يتعاهدها الصوفية بينهم ؛ هل يعاقبون عليها أو يثابون ؟ بل والله يثابون ، لأنهم يتزاورون فى الله ، ويجتمعون فى ذات الله ، ويتواصون على طاعة الله ، ويعلنون بذكر الله ، ويرقصون ويصيحون من حب الله . إياك ثم إياك ولحوم هذه الطائفة فإنها مسمومة . وآكلها يخاف عليه من سوء الخاتمة .

وأما الذكر فى الأسواق والمداشر والدوائر والأزقة ؛ فقال سيدى أحمد الملياني عن سيدى عبد الرحمن الثعالبى ، أنه روى بإسناده إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الرَّجلُ لايزالُ مُصلياً قانتاً مادامَ يذكرُ الله قائماً أو قاعداً بالأسواقِ أو فى الطُّرقِ » .

وعن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « ذاكرُ الله فى الغافلين كالمقاتل خلف الفارين . وَذَاكِر الله فى الغافلينَ كغصين أخضرَ فى شجرة يابسةِ ، وذاكر الله فى الغافِلينَ كمصباح فى بيتِ مظلم ، وَذَاكِرُ الله فى الغافلينَ يريه الله مقعدهُ فى الجنةً ، وذاكرُ الله

الله فى الغافلين ينظرُ إليه نظرةً لا يعذبهُ بها أبداً ، وذاكرُ الله فى السوق لهُ بكل شعرة نور يومَ القيامة ولهُ مثلُ ما فى السوقِ من الآدميينَ والأنعام حسنة » .

وقال السنوسى أيضاً : وأما إظهار ذلك فى السوق والطرق ، فبينهم وبين الله : « إن يك كاذباً فعليه كذبه . . إلخ » . فالتسليم يشهد لصاحبه بالإيمان ، والإنكار يشهد لصاحبه بالخسران .

وكان عمر أيام خلافته يركب على دابته ويدخل السوق لا لحاجة إلا لذكر الله . يذكر الغافلين .

وسئل شيخ الشيوخ سيدى عبدالقادر الفاسى،رضى الله عنه ونفعنا به ،عن رجل ثان يصيح بأعلى صوته فى المساجد والأزقة والأسواق ، فيقول : الله ،هل ذلك منه بدعة أم لا ؟ فأجاب : سلموا له فى أحواله ، فأمره إلى الله ، إن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم . فالله عالم بحاله وأحواله ، فإذا ذكر الله فى المساجد فلا بأس بذلك لقوله تعالى : « فى بيوت أذِنَ الله أن ترْفعَ ويذْكرَ فِيها اسمُه » . وإذا ذكر الله فى الأزقة والأسواق فلا بأس بذلك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « ذاكِرُ الله فى الغافلين كالمقاتل خلفَ الفارينَ » . وقوله عليه السلام : « ذاكِرُ الله فى الغافِلينَ كالشجرةِ الخضراءِ بينَ اليابسينَ » . اهـ

وأما الرقص والتصفيق ؛ فقد قال سيدى أحمد المليانى : قال مالك إمامنا هو إعانة للعبد على ما هو عليه ، فقال له السائل : عبد يذكر الله ويصفق ويرقص وذكر الله لا يكون إلا بالسكينة والوقار ؟ فقال له : نعم ، ولكن السكينة والوقار لا تكون إلا مع عدم الشوق ، أما صاحب الشوق فليس له حكم على الجوارح . قال : ومن نظر بنور البصيرة فليسكن دار السلام ، ومن سكن دار

السلام لا بد أن يلتمس شيئا من حقائق الإيمان . وقد وجدت في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا ثبت الوجدُ سقط التكليفُ . قيل، وما معناهُ يارسولَ الله ! قالَ : « مَعنىَ ، الوجد حَلاوةُ الذكر في قلبِ مَنْ ذَكرَهُ ».

وأما إسقاط التكليف في ساعة الذكر بالهز والرقص والتصفيق وما أشبه ذلك ، فلا اعتراض على فاعله ولا يلام ،إن كان على شوق ربانى ، وحرام إن كان عن هوى نفس كما يفعله السفهاء عند استماع المزامر .

وقال بعضهم : ينبغى لمن يذكر الله أن يهتز من قرنه إلى قدمه ، ولا يزال يضطرب مادام في ذكره ، فإذا سكت سكن لتلقى الوارد ، فإن أثر الذكر لا يخلو عن الموارد الرحمانية . وقيل : إن سد العينين مما يقوى على ذلك .

وقال العارف أبو يعقوب العجمى : من قال : الله ، ولم يهتز من فوق رأسه إلى قدميه ، فليس من الذاكرين ، وما قال الله ! فإن الهمة تعلو بقدر رفع الصوت ويكثر التأثير . اهـ .

وقال الشيخ زروق ، رضى الله عنه ، في شرح المباحث الأصلية : وأما الرقص والتصفيق وهز الرأس إن كان بغلبة ، فالمغلوب معذور ، وإن كان بغير غلبة وهو للإيهام فهو حرام ، لما دخله من الرياء والتصنع ، والتظاهر بما ليس له حقيقة عنده ، وإن كان مع بيان الحال بحيث يعلم الحاضرون أنه غير مغلوب ، وإنما أراد إراحة نفسه وهزها ونحوه ، فهو إلى الباطل أقرب ، وليس من الحق في شيء . اهـ

والأول : هو محمل رقص الحبشة في المسجد يوم عيد ، كما في الصحيح ، ومحمل رقص على وجعفر وزيد ، حين أثنى عليهم النبي ، صلى الله عليه وسلم ،

فقال للأول : أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، وقال للثانى : أشبهت خَلْقى وخُلُقى ، وللثالث : أنت منا ومولانا .

قال العلامة ابن زكرى ، فى شرح الحكم : وبقيت حالة رابعة وهى : أن يكون غير مغلوب ، وذلك بيِّن عند الحاضرين ، وليس مراده إراحة نفسه بل الفرح بالانتساب إلى الله ورسوله ، ويلحظ الحظ عندهما والقرب منهما ، كالشيخ الذى رؤى يرقص ، وهو يقرأ ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : قلت فى نفسى عبد مَنْ أنا ، وكلام مَنْ أقرأ ، وبيت من أنا قاصد ، وكان ذاهبا إلى مكة .

وفى معناه قول من قال :

ومما زادنى طرباً وتيهاً   وكدت بإخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك : يا عبادى   وأن صيرتَ أحمد لى نبيا

وكالمرأة التى ضربت الدف على رأسه ، صلى الله عليه وسلم ، برجوعه سالما من بعض غزواته ، وكان ذلك بإذنه ، قال : وهذا جائز ، والله أعلم . اهـ

فوائد :

الفائدة الأولى : ورد أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام بقى شبحا بلا روح مدة ، فلما أمر الله الروح بالدخول اعتاصت ، فأمر الملائكة أن يعملوا عليه حلقة من الذكر ، بأحسن الأصوات المطربة وأقواها ، المائلة لمن سمعها ، فحن الروح لحسنها ، ودخل فى جثته ، وهو هائم بذكر الله ولم يفق من وجده حتى وجد نفسه فى الجنة ، فمن هناك بقيت تحن لحضرة الذكر بالأصوات الحسان ، لبقية تلك النزعة فيها من هناك ، فمهما سمعت الأصوات الحسان مع ذكر الله حنت وطارت ، وقلقت واشتاقت ، وتواجدت بقدر استغراقها ، وما أودع الله فيها من تلك اللطيفة الربانية المأخوذة من حضرة الله .

ومن هنا أجاز الصوفية السماع والرقص لأنهم يتذكرون بذلك العهد القديم ، ولذلك يتواجدون ويرقصون ويصيحون : « إن الذى فرضَ عليكَ القرآنَ لرادكَ إلى معادٍ » .

وسئل أبو على الدقاق عن السماع فقال : كل ما يجمعك على الله فهو ذكر.

وقيل لأبى مدين : ما عندك فى السماع ؟ فقال : له أهل ، وهم أهل التوبة والإنابة ، قلوبهم ليس فيها شيء غير الله ، يجرى السماع فيهم الوجد والوجود ومحبة الملك المعبود ، إذا سمعوا طابوا ، وفى حضرة القدس غابوا ، لما طلّقوا الدنيا خَلَوا بالأخرى ، « وما جعل الله لرجلٍ من قلبينِ فى جوفهِ » .

وقيل : إن نبى الله موسى عليه السلام كان ذات يوم جالسا مع أصحابه ، وهو يعظهم ، فبرز منه شيء قليل من كلام أهل الحقائق ، فصعد واحد منهم وصاح صيحة عظيمة وسقط فى الأرض ، فعاتبه موسى عتابا شديدا ، فسمع هاتفا من قِبل الله ، وهو يقول : ياموسى بطيبى فاحوا ، وبحبى باحوا ، ولوجدى صاحوا ، فلا تنكر عليهم ما أقمتهم فيه ؛ أولئك أحبائى وأنا حبيبهم ، فشهد موسى على نفسه بالتوبة . اهـ

الثانية : قال أبو المواهب : ولا يترك الذكر لعدم حضور قلبه ؛ فقد قيل لأبى يزيد : إنا لنذكر الله والقلب غافل . فقال : أحمد الله على ما أجرى على لسانك من ذكره ، ولو أجرى مكانه غيبة أو نميمة ماذا تفعل ؟ . اهـ

وسئل أبو عثمان عن : ذكر الله باللسان والقلب غافل ؟ فأجاب : لا تتركه على أى حال .

ودواء هذه العلة خمسة أشياء :

الأولى : مجالسة أهل الذكر والبعد عن غيرهم .

الثانية : التضرع إلى الله ودوام ذكره فى الأسحار ، فإن الوسوسة فى ذلك الوقت أقل من غيره .

الثالثة : النظر فى كتب الصالحين وحكاياتهم .

الرابعة : إقلال الطعام والاختصار فى القوت والملبس .

الخامسة : مزج الذكر بالصلاة على النبى ، صلى الله عليه وسلم .

فإذا لزمت هذه الخمسة زالت الغفلة عن قلبك وفتح الله فى بصيرتك بابا ، تفهم منه وتدرى مالم تكن تدرى قبل . قال عليه السلام : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

قال : وقد رأينا رجلا من أهل الجزيرة الخضراء لا يذكر غير : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » . فكان هذا ذكره . فسألته عنه ، فقال : رأيت فى النوم عرش ربى ، وهذه الكلمات مكتوبة عليه .

وذكر الغزالى فى الإحياء : أن الإمام أحمد بن حنبل ، رأى الحق تعالى فى نومه نحو المائة مرة . فيقول له : بأجمل ما يتقرب إليك العبد يارب ؟ فيقول له : بذكرى يا أحمد . فيقول : يارب بفهم أو بغير فهم ، فيقول له : بفهم أو بغير فهم ، فانظر هذه الخصوصية ما أعظمها . ا هـ

وفى الحكم العطائية : لاتترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة ، إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة ، إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور ، إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور ، « وما ذلك على الله بعزيز » ا هـ

والمراد باليقظة ، كما قال الشيخ زروق : الانتباه لمعانى الذكر عند العمل

والتوجه له . والمراد بالحضور ارتسام معانى الذكر فى الخيال حتى يؤدى إلى تعظيم المذكور دائما . اهـ

الثالثة : قال الشيخ زروق ، فى شرحه على الحكم ، نقلا عن صاحب تاج العروس : من قصر عمره فليذكر بالأذكار الجامعة مثل : « سبحان الله وبحمده عدد خلقه » ، ونحو ذلك ، ليستدرك بذلك ما فات ، إذ قد صحّ أن له أعظم من ثواب مَنْ أفرد . وقد اختلف : هل يكتب له ثواب العدد المذكور بالتضعيف وهو الأولى بالكرم ؟ أو إنما يكتب له دون تضعيف ، وهو الظاهر فى الاعتبار ؟ وقد يقال : إن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فالذى يمنعه العجز والضر والفتور ، ليس كالذى يمنعه الشغل والعمل . اهـ

الرابعة : اعلم أن للسُّبْحة أصلا فى الشرع .

أخرج الديلمى فى مسند الفردوس ، أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « نِعْمَ المُذكِّرُ السُّبْحَة » .

وأخرج ابن أبى شيبة ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أنه رأى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يعقد السُّبْحَةُ بيده .

وأخرج الحاكم ، أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ، لا تغفلن فتنسين التوحيدِ ، واعقِدْن بالأناملِ ، فإنهُنَّ مسئولات ومستنطقات » .

فإن قيل : ليس فى هذا الحديث إلا الأمر بالعقد بالأنامل ، لا بالسبحة .
فالجواب : أن العقد بالأنامل إنما يتيسر فى الأذكار القليلة من المائة فدون .
أما أهل الأوراد الكثيرة والأذكار المتصلة ، فلو عدوا بأصابعهم لدخلهم الغلط ، واستولى عليهم الشغل بالأصابع .

وقال الساحلى : وقد صنف الجلال السيوطى ، فيما يتعلق بها تأليفا ، سماه « المنحة فى استعمال السبحة » ، وهى رسالة لطيفة استنبط لها أصلا من السنة . وذكر فيها أن جمعا من الصحابة ، منهم عائشة وأبو هريرة وأبو الدرداء كانت لهم السبحة ، وكذلك جمع من الأولياء كالجنيد والجيلانى ومعروف الكرخى ، وللمحدثين حديث مسلسل بمناولة السبحة منتهاه إلى الحسن البصرى .

وفى رائية الساحلى فى الذكر :

ولابد ياهذا من اعمال سبحة   تنظمها وترا فحافظ على الوتر

وإنما استحب أن تكون وترا : لحديث « إن الله وتر يحب الوتر » .

وحكمتها كما قال الشريف المقدسى : حفظ الأوراد ، وتذكير صاحبها عند الفترة . قال : فلو جعلت للخيلاء والرياء حرمت ، ولو نظمت فى خيط حرير لا للخيلاء فلا حرمة ، كما لابن الصلاح فى « فتاويه » ، وجزم به النووى فى شرح « التهذيب » .

الخامسة : اعلم أن كيفية الذكر على الوجه الأكمل أن يتوضأ الإنسان ، ويلبس ثيابا طاهرة ، ويقصد موضعا طاهرا كما يقصده للصلاة ، ويتحفظ على الخلوة من الخلق جهده ، ويقصد الأزمنة الفاضلة كما بعد الفجر إلى طلوع الشمس ، وما بعد العصر إلى غروبها ، وما بين العشاءين ، والسحر ، ويستقبل القبلة ، ويفتتح ورده أولا بالاستغفار مائة مرة . أو أقل أو أكثر ، ليغسل باطنه من أدران المعاصى ، ويتهيأ لتحليته ، بما يرد عليه بعد ذلك من أنوار بقية أوراده ، ثم ليتبع أثر ذلك صلاة على النبى . صلى الله عليه وسلم كذلك ، ليستنير بها باطنه ويتهيأ لحل ما يرد عليه بعد ذلك من سر التهليل ؛ وليقصد

بذلك كله امتثال أمر الله سبحانه وطلب رضاه ، والذى يعينه على إحضار قلبه وقصد القربة فى هذه الأذكار ، أن يجرى على قلبه أمر مولانا جل وعز ، بكل واحد منها ، ليستشعر قلبه هيبة الأمر بمعرفة من صدر منه .

وكيفية إجراء ذلك على القلب : أن يتعوذ أولا بالله من الشيطان الرجيم قاصدا التلاوة لقوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، ثم ليتلُ أثر التعوذ « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » إلى « رحيم » فإذا فرغ من تلاوة هذه الآية ، استشعر القلب عند ذلك خطاب مولاه ، وطلبه بفضله من العبد الذليل الحقير الاستغفار والالتجاء إليه ، فذاب عند ذلك من شدة الحياء من مولاه ، واحتقر نفسه إذ لم يرها أهلا لخطابه ، فبادر عند ذلك بلسانه وهو يرعد من شدة الهيبة والخجل ، قائلا : لبيك مولاى وسعديك ، والخير كله فى يديك ، وهذا عبدك الضعيف الذليل ، عليك معوله فى طهارة باطنه وظاهره يقول : بتوفيقك ، امتثالا لأمرك مستعينا بك : اللهم إنى أستغفرك يا مولاى وأتوب إليك من جميع الصغائر والكبائر ، وهواتف الخواطر ، أو نحو هذا من عبارات الاستغفار ، ويتم ورده منه ، فإذا أتمه حمد الله تعالى « ثلاثا أو سبعا » ، أو نحو ذلك ، مستحضرا قدر النعمة التى وفق لبدئها وتمامها حتى غسل من القلب أدرانه ، يقول فى هيئة ذلك : الحمد لله الذى هدانا للإيمان والإسلام ، وهدانا بسيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . ثم ليتعوذ ثانيا على نحو ما مر ، وليتلُ إثره قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبى » (الآية) . فعند ذلك يستشعر القلب عظيم فضل سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عند الله ، وأنه حاز عنده منزلة لا يمكن أن تلحق ، إذ المولى جل علاه على ما هو عليه من الجلال يخبر أنه يصلى عليه بنفسه ، وكذا ملائكته الكرام على ماهم عليه من الكثرة

والشرف يتوسلون إليه بالصلاة على حبيبه ومصطفاه ، فيفرح عند ذلك إذ تفضل عليه مولاه بإدخاله بهذا الخطاب الجسيم فى روضة التقرب إلى حبيبه ، فحينئذ يبادر بلسانه وهو يبتهج فرحا ، قائلا مجيبا لهذا الأمر الجليل : لبيك مولاى وسعديك والخير كله فى يديك ، وهاهو العبد الفقير الحقير راكن لمنيع جنابك ، متوسل إليك بأفضل أحبابك ، يقول بتوفيقك ممتثلا لأمرك : اللهم صل على سيدنا محمد . . إلخ ورده من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم مستحضرا فى جميعه صورته الشريفة التى ليس ثم فى المخلوقات مثلها ، مستشعرا عظيم حرمته ، ذاكرا عظيم شفقته ورحمته ورأفته ، ليتربى بذلك عظيم محبته فى قلبه ، وتشعشع أنوار حسن الاتباع فى ظاهره ولبه ، فإذا فرغ حمد الله أيضا على التوفيق لبدء ذلك وتمامه ، وأقل ذلك « ثلاث أو سبع » . ثم ليشرع إثر ذلك فى التعوذ على نحو مامر وليتل إثره قوله تعالى : «فاعلم أنه لا إله إلا الله» ثم ليجب أمر مولاه العزيز ، بقوله : لبيك مولاى وسعديك والخير كله فى يديك ، وهاهو العبد الفقير الحقير يوحدك بالتهليل ، منخلعا من شرك وتغيير وتبديل ، بقوله مخلصا من قلبه ذاكرا لربه : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى آخر دور سبحته من التهليل ؛ وليعد التعوذ وماممه فى أول كل دور منها ، وإن اجتزأ بالمرة الأولى فلا بأس ، وليحافظ على إحضار قلبه لمعنى التهليل ليفوز بثمراته ، ويستضىء قلبه بعظيم أنواره ، وتحصل له الحرية العظمى من رقه لشىء من الكائنات ، ويتحلى بالرتبة العليا والشرف الأبهى ؛ فإذا أتم ورده منها حمد الله أيضاً على أن وفقه لبدئه وتمامه ، وجعله من الذاكرين له المتعرضين لنفحاته ، وإياه أن يغفل عن ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ هو باب الله الأعظم ، الذى لا ينال كل خير دنيا وأخرى إلا بالتعلق به ، فمن غفل عن ذكره لم ينل مقصده وكان مرميا فى سجن القطيعة محروما من خير الدنيا والآخرة ، وقد قال بعض ، من طبع الله على قلبه ممن

يتعاطى التصوف وليس هو من أهله . مقالة قريبة من الكفر أو هى الكفر بعينه : إن الإكثار من ذكر النبى صلى الله عليه وسلم حجاب عن الله تعالى ، وقد سلك بعض الضالين مثل هذه العبارة ، فقال : إذا أفردت التهليل عن إثبات الرسالة كان أبلغ وأسرع فى تأثير معنى التوحيــد ، واحتج لضلاله وتسويل شيطانه ، بأن قال : للتهليل معنى ولإثبات الرسالة معنى ، وإذا اختلفت المعانى على الباطن ضعف التأثير وبعدت الثمرة . قال : وإنما يحتاج إلى وصل الذكرين عند الدخول فى الإسلام .

قال بعض الأئمة الراسخين ، رضى الله عنهم : وهذه المقالة والعياذ بالله تعالى من الفتن التى لا مورد لها غير النار ، ولا عقبى لها سوى دار البوار ، وما ذاك إلا مكر واستدراج إلى رفض الشريعة ، والانحلال من ربقتها ، وتعطيل رسومها . ولو علم هذا الضال ما تحت قوله : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأسرار التوحيدية والحكم التهليلية ، لانقشع عنه ذلك العمى فأصاب المرمى . اهـ

اللهم أعذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن بجاه سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم . اهـ باختصار ، وتغيير من شرح السنوسى للصغرى ، وبالله التوفيق .

قول الناظم : « واذكر . . . إلخ » أمر من الذكر وهو الطاعة والشكر والدعاء والتسبيح وقراءة القرآن ، وتمجيد الله وتهليله ، والثناء عليه بجميع محامده ، قاله أبو العباس .

والذكر أيضا الصلاة . وفى الحديث « كانتْ الأنبياءُ عليهمُ السلامُ إذَا حزَبَهمْ أمرفزعوا إلى الذكرُ ، أى الصلاةِ ، يَقومُونَ فيصلونَ » .

وباء « بقلب » المصاحبة . « وحاضر » : اسم فاعل حضر ضد غاب . « ومجموع » : اسم مفعول ضد متفرق نعتان لقلب ، أى مع قلب حاضر غير متفرق ، أى متعلق بغير المذكور ، ففيه إشارة إلى الأكمل فى حالة الذكر . «والمقلة» (بضم الميم) : شحمة العين التى تجمع البياض والسواد ، أو هى السواد والبياض الذى يدور كله فى العين ، أو هى الحدقة ، والحدقة السواد دون البياض ، أو هى العين كلها ، وسميت مقلة : لأنها ترمى بالنظر . « وتفيض » : مضارع فاض أى كثر حتى سال كالوادى . « والدموع » : جمع دمع ، والدمع ماء العين من حزن أو سرور ، ويجمع أيضا على أدمع ، والدمعة : القطرة منه : إن كانت من السرور فباردة أو من الحزن فحارة .

وفى الصحيح عن أبى هريرة مرفوعا : « سبعة يظلهمُ الله تعالى فى ظله يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّهُ : إمام عدل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبهُ معلق فى المساجد ، ورجلان تَحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دَعَته ذات منصبٍ وجمالٍ ، فقالَ : إنىّ أخافُ الله ، ورجل تَصدَّقَ بِصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلمْ شِمالهُ ماتنفقُ يمينهُ ، ورجل ذكر اللهَ خالياً ففاضَتْ عيناهُ » .

الشكر على النعم وما قيل فيه :

ولما كان شكر الله تعالى على آلائه مستوجبا المزيد من نعمائه ، كما أفصح عن ذلك الكتاب العزيز ، بأفصح خطاب وأدل تمييز نبه الناظم على ذلك ، بقوله :

[ولاَزِم الشُّكْرَ عَلَى الأَيَادِى   لتجتنى الظَّفَرَ بازْدِيَادِ]
[مِنْ رَبنا ، بِفضْلهِ الجزِيلِ   كما أتى فى مُحكم التَّنزيل]

والمعنى : لازم أيها العبد شكر مولاك ، على نعمه الكثيرة التى خولك وأولاك ، فإن نعمه لديك كثيرة لا تحصى ، ومننه عليك تجل عن الاستقصا ؛ كما قال تعالى ، وهو أصدق القائلين ، فى محكم كتابه الحكيم : « وإن تعُدّوا نعمة الله لا تُحْصوها ، إن الله لغفور رحيم » . وقال : « وأسبغ عليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً » ،لأن ملازمة الشكر على النعم يجتنى به الظفر بازديادها ، ويستلزم تكاثر فيضانها وترادف أنواعها . فضلا من الله وكرما ، وإحسانا منه لخلقه ونعماء كما دل على ذلك قوله ، جل علاه ، فى كتابه المجيد : « وإذ تأذَّن ربكم لئنْ شكرتم لأزيدنَّكم ، ولئنْ كفرتم إنّ عذابى لشديد » . ومعنى تأذن آذن . ولا بد فى تأذن من زيادة معنى ليس فى أفعل ، كأنه قيل وآذن ربكم إيذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبه . وقوله : « لئِنْ شكرتم » : أى نعمتى بالتوحيد والطاعة « لأزيدنّكم » . يعنى : نعمة إلى نعمة ، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم فإن الشكر قيد الموجود ، وصيد المفقود . وقيل : « لئِنْ شكرتم » بالطاعة « لأزيدنّكمْ » فى الثواب . وأصل الشكر : تصور النعمة وإظهارها . وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه ، وتوطين النفس على هذه الطريقة ، ثم قد يرتقى العبد عن تلك الحالة إلى أن يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات إلى النعمة . ولاشك أن منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته وأما الزيادة فى النعمة فهى على قسمين : روحانية وجسمانية .

فالأولى : هى أن . الشاكر يكون أبدا فى مطالعة أقسام نعمة الله ، وأنواع فضله وكرمه .

وأما الثانية :فلأن الاستقراء دل على أن كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله ، كان وصول نعم الله إليه أكثر . نسأل الله تعالى القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه وإحسانه ، ويفعل ذلك بأهلينا وأحبابنا .

ثم إنه تعالى لما ذكر ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه مقابله ، بقوله :

« ولئنْ كفرتمْ » . المراد بالكفر ها هنا كفران النعمة ، وهو جحودها ، لأنه مذكور فى مقابلة الشكر ، أى جحدتم النعمة بالكفر والمعصية لأعذبنكم دل عليه: « إن عذابى لشديد » . أى لمن كفر نعمتى ولا يشكرها ؛ ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرِّح بالوعد ويعرِّض بالوعيد . اهـ . باختصار من تفسير « الخطيب » مع زيادة من « الخازن » .

وفى الحكم العطائية : من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها . اهـ . وقال الشاعر :

من شكر النِّعْمَــةَ قــد صانها ... بقَيْدِ شكرٍ يا لَهُ من عِقَــالِ
ومن يغبْ فى زهْوِهِ غافلاً ... عن شُكْرها عرَّضها للزَّوالِ

وقال آخر :

الشُّكْرُ قيدٌ للنِّعَمْ ... مُسْتَوجبٌ دَفْعَ النِّقَمْ
وهو عــــلى ثلاثــةٍ ... قلبٌ، يدٌ ، فاعلَم ، وفمْ

وللشيخ الأمير المصرى ، رحمه الله :

يارَبِّ شُكْرُكَ نعمة ... وبه تَزِيدُ لنا النِّعَمْ
لا شُكر إلا منك فى ... تَمْجِيدِ نفسِكَ فى القِدَمْ

وقال بعضهم : النعم إذا شكرت قرت ، وإذا كفرت فرت .

وقال بعضهم :

إذا كنت فى نعمةٍ فارْعها ... فإنَّ الذنوبَ تُزيلُ النِّعَمْ
وحُطْها بطاعةِ ربِّ العبادِ ... فرب العبادِ سريعُ النِّقَمْ

فالسيد إذا رأى عبده قد قام بحق نعمته ، يمن عليه بأخرى ويراه أهلا لها ، وإلا سلبه منها وقطعها عنه . وفى الحكم : من لم يعرف قدر النعمة بوجودها عوقب بفقدانها . اهـ

ثم الشكر الحقيقي كما في عرف السادات الصوفية ، رضي الله عنهم : أن يصرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من سمع وغيره ، إلى ما خلق لأجله. وقوله : من سمع وغيره أي من الحواس الظاهرة والباطنة وجميع الجوارح . وقوله : إلى ماخلق لأجله ، أي لمعرفة الله تعالى وعبادته فقد قال تعالى : « وماخلقتُ الجِنّ والإنسَ إلا ليعبدون » .

والشكر بهذا المعنى لا يكون إلا لمن حفته العناية ؛ ولهذا وصف بالقلة في قوله تعالى : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » أي أن العامل بطاعتي ، المتوفر الدواعي بظاهره وباطنه ، من قلبه ولسانه ويديه ، على الشكر — بأن يصرف جميع ما أنعم الله تعالى به عليه فيما يرضيه — قليل ، ومع ذلك لا يوفى حقه لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية ، وكذلك قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر .

وقال ابن عباس : الشكور من يشكر على أحواله كلها . وقد سأل أبا القاسم الجنيد خاله سري السقطي عن الشكر ؟ قال : أن لا يعصى الله بنعمه فقال له السري : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة . ا هـ

وقيل لأبي حازم ، رضي الله عنه : ما شكر العينين ؟ قال : إذا رأيت بهما خيرا أعلنته ، وإذا رأيت بهما شرا سترته . قيل : فما شكر الأذنين ؟ قال : إذا سمعت بهما خيرا وعيته ، وإذا سمعت بهما شرا دفنته . قيل : فما شكرُ اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع حقا هو لله بهما . قيل : فما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله صبرا ، وأعلاه علما . قيل : فما شكر الفرج ؟ قال : كما قال تعالى : « والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » إلى « مَلُومِينَ » . قيل : فما شكر الرجلين ؟ قال : إن رأيت شيئا غبطته

استعملتهما عمله ، وإن رأيت شيئا مقته كففتهما عن عمله ، وأنت شاكر لله تعالى . ا هـ

وقال الهروى : قالت المشيخة من الصدر الأول : الشكر ثلاثة أقسام : شكر القلب ، وهو الاعتقاد بأن الله ولى النعم على الحقيقة . قال تعالى : « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ » . وشكر اللسان ؛ وهو إظهار النعمة باللسان مع الذكر الدائم لله . قال تعالى : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » . والحمد لله ، رأس الشكر ؛ كما أن كلمة الإخلاص وهى : « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ » رأس الإيمان . وشكر العمل ؛ وهو إذابة النفس بالطاعة ، قال تعالى : « اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » . ا هـ نقله فى « المشارق » .

وقال مجد الدين الفيروزبادى ، فى كتابه « بصائر التمييز فى لطائف الكتاب العزيز » ما نصه : والشكر على ثلاثة أضرب : شكر بالقلب ، وهو تصور النعمة ؛ وشكر باللسان ، وهو الثناء على المنعم ؛ وشكر بالجوارح ، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه .

وقال أيضا : الشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، وحبه له ، واعترافه بنعمته ، والثناء عليه بها ، وأن لا يستعملها فيما يكره ؛ هذه الخمسة هى أساس الشكر ، وبناؤه عليها ؛ فإن عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر ؛ وكل من تكلم فى الشكر فإن كلامه إليها يرجع ، وعليها يدور . فقيل مرة : إنه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وقيل : الثناء على المحسن بذكر إحسانه . وقيل : هو عكوف القلب على محبة المنعم ، والجوارح على طاعته ، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه وقيل : هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة . وما ألطف ما قال حمدون القصار : شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا . ويقربه قول الجنيد : الشكر ، أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة .

وقال أبو عثمان : الشكر معرفة العجز عن الشكر . وقيل : هو إضافة النعم إلى مولاها . وقال رويم : الشكر استفراغ الطاقة ، يعنى : فى الخدمة . وقال الشبلى : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . ومعناه : أن لا تحجبه رؤية النعمة ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها والكمال : أن يشهد النعمة والمنعم ، لأن شكره بحسب شهوده للنعمة ، وكلما كان أتم كان الشكر أكمل ، والله يحب من عبده أن يشهد نعمه ويعترف بها ، ويثنى عليه بها ويحبه عليها ، لا أن يفنى عنها ويغيب عن شهودها . وقيل : الشكر قيدُ النعم الموجودة ، وصيدُ النعم المفقودة . اهـ

وقد روى أن سيدنا داوود ، على نبينا وعليه الصلاة والسلامُ قال : إلهى : ابن آدم ليس فيه شعرة إلا وفوقها نعمة وتحتها نعمة فمن أين يكافئها ؟ فأوحى الله إليه : ياداوود ، إنى أعطى الكثير وأرضى باليسير ، وإن شكر ذلك أن تعلم أن مابك من نعمة فمنى .

وفى بعض الآثار والإسرائيليات أن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قال : يارب خلقت آدم بيديك ، ونفخت فيه من روحك ، وأسكنته جنتك ، وأسجدت له ملائكتك ، وعلمته أسماء كل شيء ، وفعلت وفعلت . فكيف يلحق شكرك ؟ فقال الله عز وجل : عرف أن ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك شكرا لى .

وفى لطائف المنن : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه : قلت يوما ، وأنا فى مغارة فى سياحتى : إلهى متى أكون عبدا شكورا ؟ فإذا النداء على يقال لى : إذا لم تر فى الوجود منعماً عليه غيرك فأنت إذاً عبد شكور ! فقلت : سيدى فكيف لا أرى منعماً عليه غيرى ، وقد أنعمت على الأنبياء ؟

وقد أنعمت على العلماء ! وقد أنعمت على الملوك ! فإذا النداء عليّ يقال لى : لولا الأنبياء لما اهتديت ! ولولا العلماء لما اقتديت ! ولولا الملوك لما أمنت ! فالكل نعمة منى عليك . اهـ

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه إليه : إنى بأرض ؛ ولقد كثرت فيها النعم ، ولقد أشفقت على قلبي ضعف الشكر . فكتب إليه عمر : إنى أراك أعلم بالله مما أراك ، إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة يحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لاتعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ، قال تعالى: « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ، وقالا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » وقال تعالى : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً » إلى « وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الذِى صَدَقَنَا وعده » وأى نعمة أعظم من دخول الجنة . اهـ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، من طرق ، عن ابن عباس ، قال : الحمد لله ، كلمة الشكر . إذا قال العبد : الحمد لله . قال الله : شكرنى عبدى .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عبد الرحمن الجبلى قال: الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تفعله لله شكر ، وأفضل الشكر الحمد .

وأخرج عبد الرزاق فى «جامعه» والبيهقى عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، أن رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم ، قال : « الحَمْدُ رَأسُ الشُكرِ ؛ ما شَكَرَ اللهَ عَبدٌ لا يَحْمَدُهُ » . أى : لأن الحمد باللسان وحده ، والشكر باللسان والقلب والجوارح، فهو إحدى شعبه ، ورأس الشىء بعضه .

وأخرج الخطيب ، من طريق ثابت ، عن أنس أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « التوحيدُ ثمنُ الجنةِ ، والحمدُ وَفاءُ كل نِعمةٍ » .

وأخرج البيهقى والحاكم ، عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ من نِعْمةٍ فقالَ : الحمد لله ، إلاّ أدّى شكرها ، فإن قالها الثانية جدد الله ثوابها ، فإن قالها الثالثة غفرَ الله له ذنوبه ».

وروى أن نوحا عليه السلام كان إذا لبس ثوبا ، أو أكل طعاما ، أو شرب ماء ؛ قال : الحمد لله ، فسمى عبداً مشكورا .

هذا ؛ ونعم الله على عبده ليس لها حد ، ولا يحصرها إحصاء ولا عد ، كما تقدمت الإشارة إليه ، قال تعالى : « وإنْ تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها » .

قال الخازن : يعنى ؛ أن نعم الله على العبد فيما خلق فيه من صحة البدن وعافية الجسم ، وإعطاء النظر الصحيح ، والعقل السليم ، والسمع الذى يفهم به الأشياء ، وبطش اليدين ، وسعى الرجلين ، إلى غير ذلك مما أنعم به عليه فى نفسه ، وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع مايحتاج إليه من أمر الدين والدنيا لا تحصى ، حتى لو رام أحد معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عن معرفتها وحصرها . فكيف بنعمه العظام التى لا يمكن الوصول إلى حصرها لجميع الخلق ؟ فذلك قوله تعالى : (وإنْ تعدوا نِعمةَ اللهِ لاتُحْصوها) يعنى : ولو اجتهدتم فى ذلك ، وأتعبتم نفوسكم ، لاتقدرون عليه . « إنّ الله لغفور» يعنى : لتقصيركم فى القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم . « رحيم » يعنى : بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصى . ا هـ

وقال تعالى : « وأسبغَ عليكمْ نِعمَهُ ظاهرةً وباطنةً » قال ابن عباس : النعمة الظاهرة، القرآن والإسلام ؛ والباطنة ، ماستر عليك من الذنوب ، ولم يعجل عليك بالنقمة .

وقال الضحاك : الظاهرة حسن الصورة وتسوية الأعضاء ؛ والباطنة المعرفة .

وقال مقاتل : الظاهرة تسوية الخلق والرزق والإسلام ؛ والباطنة ما ستر من الذنوب . وقال الربيع : الظاهرة الجوارح ، والباطنة القلب . وقال عطاء : الظاهرة تخفيف الشرائع ، والباطنة الشفاعة .

وقال مجاهد : الظاهرة ظهور الإسلام ، والنصر على الأعداء ؛ والباطنة الإمداد بالملائكة .

وقال سهل بن عبد الله : الظاهرة اتباع الرسول ، والباطنة محبته . وقيل : الظاهرة تمام الرزق ، والباطنة حسن الخلق . وقيل : الظاهرة الإمداد بالملائكة والباطنة إلقاء الرعب فى قلوب الكفار . وقيل : الظاهرة الإقرار باللسان ، والباطنة الاعتقاد بالقلب . وقيل : الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة ؛ والباطنة القلب والعقل والفهم ، وما أشبه ذلك .

ويروى فى دعاء موسى عليه السلام : إلهى دلنى على أخفى نعمتك على عبادك ، فقال : أخفى نعمتى عليهم النَفَس . ويروى : أن أيسر ما يعذبُ به أهلُ النار الأخذُ بالأنفاسِ .

وفى «القوت» : إن تحت كل شعرة فى جسم العبد نعمة ، وبكل عرق من جسمه نعمتان فى تحريكه وتسكينه ، وفى كل عظم أربع نعم ، وفى جسم الإنسان ثلاثمائة وستون مفصلا ، وفى كل طرفة نعمة ، وفى كل نفس نعمتان ، وفى كل دقيقة تأتى عليه من عمره نِعَمٌ لا تحصى . والأنفاس أربعة وعشرون ألف نفس فى اليوم والليلة . ويقال : إنه فى باطن الجسم من النعم سبعة أضعاف ما فى ظاهره ، وإن فى القلب من النعم أضعاف ما فى الجسم كله ، وإن نعم الإيمان بالله والعلم واليقين أضعاف نعم

الأجسام والقلوب . فهذه كلها نعم مضاعفة على نعم مترادفة لا يحصيها إلا من أنعم بها ، ولا يعلمها إلا من خلقها « ألاَ يعلمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللَّطيفُ الخبيرُ » .

ولهذا قال أكمل العارفين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم : « لا أحصى ثناءً عليكَ » . قال في « النهاية » : الإحصاء هنا بلوغ الواجب ، أى لا أبلغ الواجب في الثناء . اهـ

وتوفيق العبد لأن يقول : الحمد لله ، أو أحمد الله ، من جملة النعم المقتضية للشكر ، فيكون العبد عاجزاً عن استقصاء جميع النعم . اللهم لا أحصى ثناء عليك .

وكان الحسن ، رضى الله عنه ، يقول : يابن آدم متى تنفك من شكر النعم وأنت مرتهن بها ، كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك ، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة ، إلا لما هو أعظم منها .

ولمحمود الوراق :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة علىَّ ، له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العمر ؟

وقال غيره :

لكَ الحمد مولانا على كل نعمة ومن جملة النعماء قولى : لكَ الحمدُ
فلا حمدَ إلا أنْ تمنَّ بنعمة تعاليتَ ، لا يقوى على حمدكَ العبدُ

وقال آخر :

لك الحمد مولانا ، الذى أنت أهله على نعم ما كنتُ قط لها أهلا

حتى زدت تقصيرا تزدنى تفضلا   كأنى بالتقصير أستوجب الفضلا
كرمك يأبى يا كريم لسلب ما   وهبت امتنانا، ليس يمكن ذا أصلا

وقلت مخمسا لهذه الأبيات :

تبارك مولانا الذى جل قوله   ونعمته تترى لدينا وفضله
ومن جملة النعمى على العبد قوله :   لك الحمد مولانا، الذى أنت أهله
على نعم ما كنت قط لها أهلا

فكم رحمة أوليت منك تطولا   وكم نائبات قد دفعت تخولا
وما زلت فى التقصير أبدى تنقلا   متى زدت تقصيراً تزدنى فضلا
كأنى بالتقصير أستوجب الفضلا

وحاشاك ياذا الفضل والجود بعدما   تفضلت إحسانا وأوليت أنعما
تعاقب بالحرمانِ والسلب مجرما   كرمك يأبى يا كريم اسلب ما
وهبت امتنانا، ليس يمكن ذا أصلا

وقال منصور بن اسماعيل المصرى :

شكر الإله نعمة   موجبة لشكره
فكيف شكرى بره   وشكره من بره

وقال آخر :

إذا مس بالسراء عم سرورها   وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

فما منهما إلا له فيه نعمة تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وأنشد بعضهم على طريق الاعتراف إجمالا وتفصيلا :

كم لك من نعمة عليا ولم تزل محسنا إليه
غذوتنى فى الحشا جنينا وكنت لى قبل والديا
خلقتنى مسلما ولولا فضلك لم أعرف النبيا
أسجد حقا على جبينى نعم وخدى وناظريا

وقد قلت فى تخميس هذه الأبيات :

يا موليا فضله الوفيا ومسدلا حلمه العليا
ياسيدى دمت لى وليا كم لك من نعمة عليا
ولم تزل محسنا إليا

فكم عطاء عم البريا وكم نوال أرى لديا
عناية سقتها إليا غذوتنى فى الحشا جنينا
وكنت لى قبل والديا

أكملت خلقى وجدت طولا فحق شكرى فعلا وقولا
أجزلت ربى إلى نولا خلقتنى مسلماً ولولا
فضلك لم أعرف النبيا

حق قيامى مدى السنين وخدمتى مسبل الشؤون
لكننى عاجز لحينى أسجد حقا على جبينى
نعم وخدى وناظريا

ونحوه قول الناظم رحمه الله :

لك الحمد كل الحمد ياراحم الضعف ... ويادائم الإحسان والرفق واللطف
لك الحمد ثم الشكر دون نهاية ... على نعم جلت عن العد والوصف
صرفت من الأسواء مالا يطيقه ... مطيق، فأنت الله ذو الكرم الصرف
وجدت وأسديت الجميل تفضلا ... وزدت من الإنعام ضعفا على ضعف
لك الملك ياقهار والأمر كله ... إذا قلت: كن، كان المراد بلاخلف
إليك مددنا الكف كيما تمدنا ... بما نرتجى يا مالك البسط والكف
نعاف ودافع واحم يارب، واكفنا ... بحفظك ما نخشى فغيرك لا يكفى
وأبق علينا الستر فى كل حالة ... بفضلك فى الدنيا والأخرى بلا كشف
واعظم وأعزز ياعزيز جنابنا ... وحطنا من الخذلان والضيم والخسف
وزدنا من الخيرات فوق مرامنا ... بفضلك يامولى تعالى عن الكيف
وصلّ وسلم ثم بارك على الذى ... به نرتجى منك النجاة لدى الرجف
محمد المختار والغر آله ... وأصحابه الأسد العظام لدى الزحف

ولقد أصاب القائل وأجاد:

سبحان من لو سجدنا بالجباه له ... على شبا الشوك والمحمى من الإبر
لم نبلغ العشر من معشار نعمته ... ولا العشير ولا عشراً من العشر

وأعظم النعم على الإطلاق نعمة الإيمان والإسلام.

قال حجة الاسلام ، أبو حامد الغزالى ، رضى الله عنه : نعمة الإسلام هى الأولى ، والأخرى ، بأن لا تفتر ليلك ونهارك عن شكرها والحمد عليها ، فإن

كنت عاجزاً عن عرفان قدرها ، فاعلم بالحقيقة أنك لو خلقت من أول الدنيا ، وأخذت فى شكر نعمة الإسلام من أول الوقت إلى الأبد ، لما كنت تقوم بذلك ، ولما قضيت بعض الحق مما عليك . إلى أن قال : أما تسمع ، ويحك ، قوله تعالى لسيد المرسلين : « ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ » ، وقال للقوم : « بَلِ اللهُ يمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمانِ » . اهـ

وقد سمع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رجلا يقول : الحمدُ للهِ على نعمةِ الإيمان والإسلام فقال : « إنك لتحمدُ الله على نعمةٍ عظيمةٍ » . وورد : « لا كلمة أحبُّ إلى اللهِ تعالى وأبلغُ عنده فى الشكرِ من أن يقول العبدُ : الحمدُ لله الذى أنعم علينا وهدانا للإيمانِ والإسلامِ » .

وفى « الموطأ » عن نافع ، أنه سمع عبد الله بن عمر ، وهو على الصفا يدعو ويقول : اللهم إنك قلت : ادعونى أستجب لكم ، وإنك لا تخلف الميعاد ، وإنى أسألك كما هديتنى إلى الإسلام ، أن لا تنزعه منى حتى تتوفانى وأنا مسلم . اهـ

قال أبو عمر فيه التأسى بإبراهيم فى قوله : « واجنُبْنى وبنى أن نعبد الأصنام » . وبيوسف فى قوله : « توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » . ونبينا ، صلى الله عليه وسلم ، فى قوله : « وإذا أردت بالناسِ فتنةً فاقبضنى إليك غير مفتونٍ » .

قال إبراهيم النخعى : لا يأمن الفتنة والاستدراج إلا مفتون ، ولا نعمة أفضل من الإسلام فبه تزكو الأعمال . اهـ

وقال العارف الربانى ، مولانا عبد القادر الجيلانى ، رضى الله عنه . أخذت على ربى سبعين موثقا ألا يمكر بى ! قيل له : فكيف أنت بعد ذلك ؟ قالَ :

أتلو قوله تعالى : « فلا يأمنُ مكرَ الله إلا القوم الخاسرون » . ا هـ

مِنَ الدواهى خصوصاً خوفُ خاتِمةٍ قد خاف منها فُحُولُ العِلْم والعمل

قول الناظم « ولازم الشكر » أمر من الملازمة ، وهى العكوف والمواظبة . والشكر (بالضم) تقدمت أقاويل عدة فى تفسيره ، ومن ذلك ، قول صاحب « القاموس » الشكر (بالضم) : عرفان الإحسان ونشره ، ولا يكون إلا عن يد ، والحمد يكون عن يد ومن غير يد ، ومن الله المجازاة والثناء الجميل .

شكره وله شكرا وشكورا وشكرانا ، وشكرت الله ولله وبالله ، ونعمة الله ، وبها ، وتشكّر له بلاءه كشكره . وتشكرت له مثل شكرت له وفى حديث يعقوب عليه السلام : أنّه كان لا يأكُلُ شحوم الإبِلِ تشكُّراً لله عز وجل . والشكور الكثير الشكر . وفى التنزيل : « إنه كان عبداً شكوراً » وهو من أبنية المبالغة ، وهو الذى يجتهد فى شكر ربه بطاعته وأدائه ما وظف عليه من عبادته . وأما الشكور فى صفات الله عز وجل فمعناه : أنه يزكو عنده القليل من أعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء . وشكره لعباده مغفرته لهم . وقيل : معناه معطى الثواب الجزيل بالعمل القليل ، لاستحالة حقيقته فيه تعالى . وقيل معناه : الرضى ، والإثابة لازمة للرضى ، فهو مجاز فى الرضى ، ثم تجوز به إلى الإثابة . وقولهم : شكر الله سعيه ، بمعنى أثابه . ا هـ . بزيادة كثيرة من شرحه .

وفى « البصائر » له ما نصه : والشكر والثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف ، يقال : شكرته وشكرت له باللام أفصح . قال تعالى : «واشكروا لى» وقال جل ذكره : « أنِ اشكر لى ولوالديك » . ا هـ

وقال أيضا : وقيل الشكر مقلوب الكشر أى الكشف . وقيل : أصله من عين شَكْرَى أى ممتلئة ، والشكر على هذا الامتلاء من ذكر المنعم . ا هـ . إلى غير ذلك .

والأيادى جمع أيد ،وأيد جمع يد بمعنى النعمةالسابغة . وسميت النعمة يدا لأنها إنما تكون بالإعطاء ، والإعطاء إنالة باليد . واليد أيضا : الإحسان تصطنعه . ومنه قولهم للرجل : هو طويل اليد ، وطويل الباع ، إذا كان سمحا جوادا . وفى الحديث : « أسرعكنّ بى لُحُوقاً أطولكنّ يدا » . كنى بطول اليد عن العطاء والصدقة :

وفى حديث قبيصة : « ما رأيتُ أعطى للجزيلِ عن ظهرِ يدٍ من طلحةَ » . أى عن إنعام ابتداء من غير مكافأة . وقال ابن شميل : له على يد ، ولا يقولون : له عندى يد ، وأنشد :

له على أيادٍ لستُ أكفرُها   وإنما الكفر أن لا تشكرَ النِّعَم

وتجنى : مضارع جنى الثمرة ونحوها ، أى اجتناها وتناولها من شجرتها . والمراد بالاجتناء هنا استنتاج الظفر بالزيادة وتحصيله

والظفر بالتحريك : الفوز بالمطلوب . وقال الليث : الظفر الفوز بما طلبت ، والفلج على من خاصمت .

والأزدياد ، الزيادة ، وهو أبلغ منها فى المعنى لما فيه من زيادة المبنى .

« ومن ربنا » : متعلق به . « وبفضله » متعلق بمحذوف ، صفة لمصدر محذوف ، والتقدير . زيادة كائنة بمحض فضله ، أى تفضله وإحسانه .

والفضل ابتداء : الإحسان بلا علة . قاله المناوى فى « التوقيف » . وقال الراغب : كل عطية لا يلزم إعطاؤها لمن تعطى له ، يقال لها : فضل . نحو : « واسألو الله من فضلهِ » والجزيل : الكثير .

والكاف فى « كما أنى » تعليلية ، وما مصدرية ، وصلتها أنى ، وهو علة . لقوله : « ولازمْ لتجتنى » . . إلخ . والمعنى إنما قلت ولازم الشكر لتجتنى ، لإتيان ذلك فى محكم التنزيل ، فلم أقله من تلقائى .

والمحكم : المتقن اسم مفعول أحكم ، وإضافته لما بعده من إضافة الصفة للموصوف ، أى التنزيل المحكم والمراد به : النظم المعجز ، والإشارة به لقوله عز وجل : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

ولما كان التأنى مطلوبا فى كل الأمور ، ومرغبا فيه كما فى الخبر المأثور ؛ قال عليه السلام : « من تأنى أصاب أو كاد ، ومن عجل أخطأ أو كاد » .

وورد : « التأنى من الرحمان ، والعجلة من الشيطان » .

تأن ولا تعجل لأمر تريدُهُ   وكن راحمًا بالناس تبلى براحم

قد يدركُ المتأنى بعض حاجته   وقد يكونُ مع المستعجل الزلل

التوبة وما ورد فيها

وكان قد استثنى من ذلك أمور منها التوبة . نبه الناظم على طلب التعجيل بها بقوله :

[وافزعْ إلى المتابِ فوراً عندمَا   تجنى ولا تمهلْ به فتندما]
[إذْ كلُّ لحظةٍ تمُر يُحتملْ   فيها حِمامُك بِقصْر الأملْ]

والمعنى : تحصن أيها العاقل بحصن التوبة مما جنيته من الذنوب ، وتجرأت على اقترافه من قبائح الآثام والعيوب ، وعجل بذلك واجتنب الإمهال ، الموقع صاحبه فى الندم والإملال ، فإن فى كل نفس من أنفاسك ، وكل لحظة من لحظاتك ، يحتمل أن ينزل بك عرض الممات ، ويحل بواديك هادم اللذات .

اغتنم فى الفراغ فضل ركوع   فعسى أن يكون موتك بغتة

كم صحيح رأيت من غير سقم ... ذهبت نفسهُ الصحيحة فلتة

ما مضى فات والمؤملُ غيب ... ولك الساعةُ التى أنت فيها

لا تأمن الموت فى لحظ ولا نفس ... ولوتمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهامَ الموت راصدة ... لكلٍّ مدرع منها ومترس
ما بال دينك ترضى أن تدنسه ... وثوب دنياك مغسول من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك محجتها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

فقصر أيها العاقل أملك ، واجتنب ما يوجب غداً ألمك .

قال تاج الدين بن عطاء الله ، رضى الله عنه ، فى بعض رسائله :

إن خامر سرك شىء من ذنب أو عيب ، أو نظر إلى عمل صالح ، أو حال جميلة ؛ فبادر إلى التوبة والاستغفار من الجميع ، أما من الذنب أوالعيب فواجب شرعا ، وأما من العمل الصالح أو الحال الجميلة فالغيبة عنه ، واعتبر باستغفار الرسول ، صلى الله عليه وسلم بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر . هذا فى معصوم لم يقترف ذنبا قط ، فما ظنك بمن لا يخلو من ذنب أو عيب فى وقت من الأوقات ؟ اهـ .

وقال رضى الله عنه فى « تاج العروس » : من فعل المعاصى وتقلب فى المحارم لو انغمس فى سبعة أبحر لم تطهره حتى يعقد مع الله عقد التوبة . اهـ

وقال أيضا فى بعض رسائله : عليكم بتصحيح التوبة فإنه ينبنى عليها ما بعدها ، وتعود بركاتها على ما قبلها ، وما من مقام إلا وهو مفتقر إليها ،

ومازكت الأحوال ولا قبلت الأعمال إلا بتصحيح التوبة ، وعمومها يدل على خصوصها . ألم تسمع إلى قوله تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » ، فعم جميع المؤمنين فى الخطاب بالتوبة ، فدل ذلك على عظيم قدرها ، ولئن صحح الله لك مقام التوبة خير لك من أن يطلعك على سبعين ألف غيب ، ويفقدك إياها . ا هـ

وقال ابن حجر عن الراغب : وهى أبلغ ضروب الاعتذارات لأن المعتذر ، إما أن يقول : لم أفعل أو يقول : فعلت لأجل كذا ، أو يقول : فعلت ولكن أسأت وقد أقلعت وهو أعلى . ا هـ

وقال ابن عطاء الله أيضاً فى « تاج العروس » : فإن ظفرت بالتوبة فقد أحبك الله ؛ فالحق سبحانه لم يرض لك أن تكون محباً بل محبوبا ، وأين المحبوب من المحب ؟ إنما يغتبط بالشىء من عرف قدره . لو بذرت الياقوت بين الدواب لكان الشعير أحب إليها . انظر من أى الفريقين أنت إن تبت فأنت من المحبوبين ، وإن لم تتب فأنت من الظالمين . قال الله : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . إذا تاب العبد فرحت بهداره من الجنة ، وتفرح به السماء والأرض ، والرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وهى من الفضل العظيم ، يذنب العبد سبعين سنة فيتوب إلى الله فى نفس واحد ، فيمحو ما عمله فى تلك المدة : والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » . ا هـ

والتوبة (لغة) : الرجـوع يقـال : تاب وآب وأناب . وشرعا : لهم فى تفسيرها عبارات منها : أنها نفور النفس عن المعصية ، بحيث يحصل عن ذلك الندم على الماضى ، والعزم على الترك فى المستقبل ، والإقلاع فى الحين ، ورد المظالم . وهذا التفسير هو الذى أشار له فى «المرشد» بقوله : وهى الندم ، بشرط الإقلاع ، ونفى الإصرار ، وليتلاف ممكنا ، إلا أن ظاهر عبارته أن تلافى ما يمكن تلافيه شرط زائد على الإقلاع . وظاهر ما تقدم أن هذا الشرط آيل إلى شرط الإقلاع

وذلك ظاهر، فإن من وجب عليه حق يمكنه تلافيه فلم يفعل، لم يقلع، إذما من وقت وقت إلا وهو فيه عاص بترك التلافي، وذلك كالمغصوبات، فردها شرط في صحة التوبة، بخلاف التي هي في الذمة، فردها واجب، غير شرط، كما صرح به السنوسي في شرح «الجزائرى».

وعلى ما صار في الذمة: يحمل قول الشيخ زروق في «شرح الرسالة» عند قولها: « ومن التوبة رد المظالم ليس بشرط، وكذا اجتناب المحارم » ومثلهما تعميم القصد، أي في جميع الذنوب فهي ثلاثة فروض، تاركها عاص ولا تنتقض التوبة بتركها، وأما النية أن لا يعود فركن من أركانها لا تصح بدونه. اهـ

فالمراد بقولهم: فروض التوبة: الواجبات، والواجب قد يكون ركنا وهو النية أن لا يعود؛ وقد لا يكون ركنا كرد المظالم واجتناب المحارم.

وقال: علمت مما ذكرنا أن رد المظالم؛ منه ما هو شرط في الصحة كالمغصوبات الحاضرة، ومنه ما هو واجب غير شرط في الصحة كرد المغصوبات التي صارت في الذمة. وقد فهم مما تقدم أن للتوبة تعلقا بالماضي وهو الندم، وبالحال وهو الإقلاع عن الذنب، أي تركه وتجنبه فورا. ولكن هذا إنما يشترط في معصية اتصلت بالتوبة، فلو تاب اليوم من معصية صدرت منه بالأمس سقط هذا الشرط. وبالاستقبال وهو العزم على أن لا يعود إلى ذلك أبداً. وقد اختلف: إن عاد هل تصح توبته الأولى، فيكون ما وقع قبلها مغفوراً، أم لا، لأن نقضها دليل على عدم صحتها فتعود الآثام؟ والأول هو الموافق لما تقدم من مذهب أهل السنة، من أن « السيئة لا تحبط الحسنة ». ويؤيده حديث: « ما أصر من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة ». وحديث أبي سعيد مرفوعا: « قال إبليس عليه اللعنة: لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله تعالى: « وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني ».

ثم إن التوبة تنتظم من علم وحال وعمل كغيرها من مقامات اليقين .

فالعلم : أن يشرق فى القلب نور ، يدرك به أن المعاصى سموم قاتلة ، وأنها مبعدة عن رضوان الله ، موجبة لمقته بالعبد ، وسخطه عليه وعذابه الذى لاطاقة لأحد به ، مع أن أموره كلها بيده ، وحوائجه كلها عنده ، وأنه لامانع له من عذاب الله إن شاء عقابه على العصيان ، ولاغنى له عن رحمة الله وماعنده من عفو وإحسان « من ذا الذى يعصمكم من الله » (الآية) . « أمن هذا الذى هو جند لكم » (الآية) . « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله » . (الآية) .

والحال : ما ينشأ عن العلم بهذا من تغير القلب وتلهفه وتأسفه على ذلك وتمنى أن لايكون وقع فى شىء منه .

والعمل ماينشأ عن هذا الندم ، من الإقلاع عن الذنب ، والعزم على أن لايعود إليه أبداً . فإن العلم إذا حصل فى القلب تغير حاله ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح . وأصل هذا العلم التفكر فيما يحق فيه التفكر ، فلأجل أن الندم ثمرة العلم وأصل للعزم على عدم العود ، فله ارتباط بكل منهما . قال عليه السلام : « الندم توبة » فاقتصر عليه . وقد يكون وجه ذلك ومعناه : أن الندم معظم التوبة كقولهم : « الحج عرفة » إذ لولاه لم تصح بل ولاتوجد ، فإن لم يقدم على فعل لم يتوجه لتركه . ثم الندم على المعصية إنما يكون توبة شرعا ، إذا كان لكونها معصية ؛ فإن كان لأن المعصية أضرت ببدنه وماله ، أو لئلا يعير ، أو لغير ذلك من الأغراض الدنيوية ؛ فإن الندم لذلك لا يكون توبة .

وترددوا فى الندم لخوف النار وطمع الجنة ؛ هل يكون توبة ، وهو الظاهر ، أو لا ؟ . وكذا ترددوا فى الندم عليها لقبحها مع غرض آخر .

قال السعد : والحق أن جهة القبح لو كانت بحيث انفردت لتحقق الندم وإلا فلا . اهـ .

وعن سيدنا على كرم الله وجهه ، أنه سمع أعرابيا يقول : اللهم إنى أستغفرك

وأتوب إليك ، فقال : ياهذا . إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين - قال : وما التوبة ؟ قال : إن التوبة يجمعها ستة أشياء : على الماضى من الذنوب الندامة . وللفرائض الإعادة ، يعنى : القضاء صلاة أو صوما أو زكاة أو نحوها . ورد المظالم واستحلال الخصوم . وأن تعزم على أن لا تعود . وأن تذيب نفسك فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية . وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصى . ا هـ

وقال الشيخ الإمام سيدى عبد القادر الفاسى ، رضى الله عنه ، فى «عقيدته» ما نصه : وهى : أى التوبة الندم على المعصية من أجل أنها مبعدة عن رضوان الله : مقربة من سخطه ، ولا تتحقق إلا بالإقلاع عن المعصية ، والعزم على أن لا يعود أبدا ، ومبادرة قضاء ما ضيعه من حقوق الله وحقوق العباد . وأعظم شىء يعين عليها مجانبة خلاط السوء ، ولا سيما الذين اشترك معهم فى المعصية ، وموالاة أبناء الآخرة ، ممن تذكره بالله رؤيته ، وتنهض به حالته ومخالطته ، وهم أولياء الله الذين يَخشون ويُخشون . ا هـ

وقال العارف بالله سيدى محمد بن عباد ، رضى الله عنه ، فى « رسائله الصغرى » ما نصه : اعلم أن مقام التوبة هو أول المقامات وأساسها ، وعليها تنبنى أنواعها وأجناسها . وهى تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة فيدخل فى هذا حركات الظاهر والباطن ، فى العقود والأقوال والأفعال ، فعلى العبد أولا أن يعتقد بتوبته أداء حق مولاه ، ليرضى عليه ويتولاه ، وينيله فى جواره ما يتمناه ؛ ثم ينظر إلى حركات باطنه فينفى عنها اعتقاد المذاهب الباطلة ، والميل إلى زخارف العاجلة ؛ وإلى حركات ظاهره فيسلك بها سنن الاتباع ، ويصرفها عن مقتضى العادات والطباع ، فيثمر له ذلك أنواع الخيرات ، ومحاسن الآداب المرضيات ، من المسارعة إلى البر والتقوى وإيثار الآخرة

على الدنيا ، والتأنى والتثبت قبل الإقدام ، وحسن المراقبة للرقيب العلام ، واغتنام الأوقات ، ومراعاة الأنفاس ، وزم الجوارح وضبط الحواس ، والقيام على النفس فى كل همة ردية ، وتصحيح قصده بصدق النية وحسن الطوية ، والمبادرة إلى رد المظالم والتباعات ، وإصلاح ما ضيع من الفرائض الواجبات وترك الأشر والبطر ، والتباعد من مظان الخطر ، وخفض الجناح ولين الجانب ، وسلامة الصدر من الآفات والمعايب ، والموالاة والمعاداة فى الدين ، والشفقة والنصيحة لكافة المسلمين ، إلى غير ذلك من وظائف الدين وسنن المرسلين . وينتفى عنه أضدادها من وجوه الطغيان ، وكبائر الإثم والعدوان ، أعاذنا الله من ذلك . (انظر بقية كلامه رضى الله عنه ونفعنا به) .

وقد ورد فى الترغيب فيها والحض عليها ما هو كثير ، قال تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفسِهِ الرحمةَ أَنهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُم سُوءاً بِجهالة ثُمَّ تابَ مِنْ بَعدِهِ وأَصلحَ فإنهُ غَفورٌ رحِيمٌ » . وقال : « إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابينَ وَيُحبُّ المتَطهرِينَ » أى الذين كلما أذنبوا تابوا ، وكلما أحدثوا تطهروا . وقال : « فَمنْ تابَ مِنْ بَعدِ ظلمهِ وأَصلحَ فإن اللهَ يتوبُ عَليهِ » . وقال : « يَاأيُّها الذينَ آمنُوا تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبةً نَصُوحًا » أى صادقة ، بأن لا يعاد إلى الذنب ، ولا يراد العود إليه ، أى : ارجعوا إلى طاعة الله ناصحين أنفسكم مقبلين عليه . ففرض تعالى بهذه الآيات ونحوها على عباده التوبة ووعدهم عليها عظيم الأجر والمثوبة .

وأخرج البيهقى عن عائشة مرفوعا : « إنْ كنتِ أَلمتِ بذَنب فاستغفرِى اللهَ وَتوبى إليهِ ؛ فإن التوبةَ مِنَ الذنبِ الندمُ والاستغفارُ » .

وأخرج البخارى فى «الأدب المفرد»، عن ابن عمر مرفوعا: «توبوا إلى اللهِ فإنى أتوبُ إليه كل يومٍ مائةَ مرةٍ».

وأخرج القشيرى بسنده، عن أحمد بن زكرياء عن أبيه، مرفوعا: «التائب مِنَ الذنبِ كمنْ لا ذَنبَ له، وَإذا أحب الله عَبداً لم يضره ذَنب»، ثم تلا: «إنَّ اللهَ يحبُّ التّوابينَ ويحبُّ المتَطهرينَ» قيلَ: يا رسول الله. وما علامة التوبة؟ قال: الندامة».

وأخرج البخارى، عن عبد الله بن مسعود، مرفوعا: «لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا به مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، ووضعَ رَأسه فنامَ نومة فاستيقظَ وَقدْ ذَهبت راحلته حتى اشتد عليهِ الحرُّ والعطش أو ما شاء الله. قال: أرجع إلى مكانى، فرجعَ فنامَ نومة، ثم رفعَ رأسه فإذا راحلته عنده».

وأخرج ابن عساكر، عن أبى هريرة مرفوعا: «لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد، فمن تاب إلى الله توبة نصوحا، أنسى الله حافظيه وجوارحَهُ وبقاعَ الأرض كلها خطاياه وذنوبه».

وإطلاق الفرح فى هذين الحديثين فى حقه تعالى، مجاز عن رضاه وبسط رحمته، وإقباله تبارك وتعالى على عبده.

وأخرج مسلم عن أبى موسى الأشعرى، مرفوعا: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

والمراد بسط يد الفضل والإنعام لا يد الجارحة، فإنها محال لأنها من لوازم الأجسام.

وأخرج ابن عساكر ، عن أنس بن مالك ، مرفوعا : « إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه ، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض ، حتى يلقى الله تعالى وليس عليه من الله شاهد بذنب » .

وأخرج البيهقى فى « الشعب » عن ابن عباس مرفوعا : « التائبُ منَ الذنبِ كمن لاذنبَ لهُ ، والمستغفر من الذنب وهو مقيمٌ عليه كالمستهزىء بربه ومن آذَى مسلماً كان عليه من الذنوبِ مثلُ منابتِ النخلِ » .

وعن سيدنا على ، كرم الله وجهه ، مرفوعا : « مكتوبٌ حول العرشِ ، قبل أن يخلقَ اللهُ الخلقَ بأربعةِ آلافِ عامٍ ، « وإنى لغفَّارٌ لمن تابَ وآمنَ وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

وروى أن سيدنا داوود عليه السلام قال : إلهى ما أكرمك على عبادك ! فقال تعالى : يا داوود إنى لا أرد العصاة عن المعصية بالعذاب ، بل أردهم بالإحسان ليستحيوا منى فيتوبوا إلى ، ياداوود قل للمتلذذين بذكرى : هل وجدتم ربا أكرم منى ؟ وأوحى الله إلى داوود عليه السلام : ياداوود قل للعاصين يسمعونى ضجيج أصواتهم ، فإنى أحب أن أسمع ضجيج العاصين إذا تابوا إلى . ياداوود لن يتضرع المتضرعون إلى من هو أكرم منى ، ولا يسأل السائلون أعظم منى جودا ، وما من عبد يطيعنى ، إلا وأنا معطيه قبل أن يسألنى ، ومستجيب له قبل أن يدعونى ، وغافر له قبل أن يستغفرنى .

وعن سيدنا على كرم الله وجهه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، شيئا نفعنى الله به ما شاء الله ، وإذا حدثنى غيره حلفته فإذا حلف صدقته ، ولقد حدثنى أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، وصدق قال : قال رسولُ اللهُ ، صلى اللهُ عليه وسلم : « مامن عبدٍ يذنبُ ذنباً فيتوضأ فيُحْسِنُ الوضوءَ ، ويصلى ركعتين ويستغفر الله ، عز وجل ، إلا غفر اللهُ له » : ثم تلاَ

عليه السلام ، « ومن يعمل سوءاً أو يظلمْ نفسهُ » . (الآية) . وفي رواية ثم تلا : « والذين إذا فعلوا فاحشةً » . (الآية) . إلى غير ذلك مما ورد في الترغيب فيها ، والحض عليها .

وهي مقبولة ما لم تطلع الشمس من مغربها ، وما لم يغرْغِر المرءُ . قال تعالى: «يوم يأتي بعضُ آياتِ ربّك لا ينفعُ نفساً إيمانُها ، لم تكن آمنت من قبلُ ، أو كسبتْ في إيمانها خيراً » . وقال تعالى : « وليست التوبةُ للذين يعملون السّيئاتِ حتى إذا حضر أحدهم الموتُ قال : إني تُبْتُ الآن » .

وروى أحمد بن عبد الرحمن السلماني ، قال : اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهم : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إن الله يقبلُ التوبةَ منْ عبدِهِ قبل أن يموت بيومٍ » ، فقال الثاني : أأنت سمعتَ هذا من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم. قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم » . فقال الثالث : أأنت سمعت هذا من رسول اللهُ ، صلى اللهُ عليه وسلم ؟ قال : نعم قال : وأنا سمعته يقول : «إن الله يقبلُ توبةَ العبدِ قبل موتهِ بضحوةٍ أو قال : بضحية » . فقال الرابع : أأنت سمعت هذا من رسول اللهِ ، صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم : قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يغرْغِرْ » .

والتوبة واجبة كتابا وسنة وإجماعا . قال تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون » . وقال: « يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ، وقال عليه الصلاة والسلام «توبوا فإني أتوب في كلّ يوم سبعين مرة وفي رواية ، مائة مرة » .

والإجماع على أنها واجبة ، ولا خلاف بين أهل السنة في صحتها من بعض الذنوب ، ويطلب بالتوبة فيما بقي منها . والتوبة من جميع الذنوب ، هي التوبة النصوح .

وأخرج أهل السنة أيضا كما قال التفتازانى وغيره : أن التوبة من الذنوب المعلومة لا يشترط أن تكون تفصيلا ، ويكفى أن تكون إجمالا كالذنوب المجهولة ، خلافا لبعض المعتزلة ، وهى واجبة من سائر الذنوب كبيرها وصغيرها؛ كان الذنب حقا لله أو لآدمى أو غيرهما ؟

وقيل : الصغائر لا تفتقر إلى توبة ، ويؤخذ القولان من قول «الرسالة» : والتوبة فريضة من كل ذنب وقولها : « وغفر الصغائر ، باجتناب الكبائر » .

وقيل : إن كانت الصغيرة مرتبطة بالكبيرة كالقبلة والمباشرة وغيرهما من مقدمات الزنا غفرت باجتنابها ، وإن لم يكن للصغيرة ارتباط بالكبيرة لم تغفر باجتنابها . فهذه أقوال ثلاثة فى الصغائر .

وحكى إمام الحرمين : الاجماع على الأول . وقال الباقلانى فيه : إنه المشهور . ويدل للثانى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » . وتكفيرها باجتناب الكبائر على القول به : قطعى عند المحدثين والفقهاء ، وظنى عند الأصوليين ، حذرا من مساواتها للمباح فى نفى الإثم قطعا .

وقد فرضت محرمات ، وقد أجيب عن ذلك (انظر القلشانى على الرسالة) .

قال ابن عطاء الله فى « تاج العروس » : وأضر ما عليك محقرات الذنوب ، لأن الكبائر ربما استعظمتها فتبت منها ، واستحقرت الصغائر فلم تتب منها : فمثلك كمن وجد أسدا فخلصه الله منه ، فوجد بعده خمسين ذئبا فغلبوه . قال الله سبحانه : « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » . واذا أصررت على الصغيرة صارت كبيرة لأن السم يقتل مع صغره . والصغيرة كالشرارة من النار ، والشرارة قد تحرق بلدا . اهـ .

ومن ثم قول : لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار . وتصير كبيرة أيضا بالفرح بها وبالتحدث بها افتخارا ، وباستصغارها ، وبالمجاهرة بها بلا حياء ، وبصدورها من مقتدى به ، كما أشار إلى ذلك سيدنا العم ، رحمه الله بقوله :

صغيرة تكبر بالإصرار أو عدم استحيا أو استصغار

أو فرح بهـا أو افتخار أو كونها من قدوة ، ياقارى

ووجوبها على الفـور ، كما قال الناظم « فورا » ، وتأخيرها ذنب آخر تجب التوبة منه . ولتأخيرها أسباب :

الأول : استشعارك عدم صدق العزم ، وأنك تعود إلى الذنب ولا تثبت على التوبة ، وهو من غرور الشيطان ؛ فلا ينبغى أن يمنعك من التوبة ، فلعله أن يؤدى الـكذب إلى الصـدق ، وعسى أن تموت تائبا قبل أن تعود إلى الذنب .

وفى مناجاة يحيى بن معاذ الرازى : إلهى ، كيف أنساك وليس لى رب سواك ؟ إلهى ، إنى لا أقول لا أعود ، لأنى أعلم من نفسى نقض العهود ، إلهى ، إنى أقول لا أعود لعلى أن أموت قبل أن أعود .

الثانى : تأخير العقوبة وعدم المعاجلة بها فى الدنيا ، فيغتر بالمهلة ، ويحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة ، وذلك من المـكر الخفى ، وأمارات الاستدراج .

« وفى الحـكم : خف من وجود إحسانه إليك ، ودوام إساءتك معه ، أن يكون استدراجا لك » .

الثالث : طول الأمل فتقول : سوف أتوب وفى الأيام سعة ، وأنا شاب وسنى قليل ، وهذا أيضا من الاغترار .

الرابع : الجهل بقبح المعاصى وآفاتها ، وأنها تظلم القلب وتكسف نور الإيمان ، وتورث صاحبها الذل والهوان ، وأنها سموم قاتلة ، وأنها حجاب بين العبد وبين ربه ، وبريد الكفر ، وغير ذلك ، فإن المعاصى تورث العبد آفات ظاهرة وآفات باطنة .

ففى « تاج العروس » : ما أكثر احترازك على بدنك ، وما أرخص دينك عليك ! لو قيل لك : إن هذا الطعام مسموم لا متنعت منه . ثم حلف لك بالطلاق ، أنه ليس مسموما لتوقفت عنه . بل لو غسلت الإناء الذى فيه مرارا لنفرت نفسك منه ، فلم لا تكون كذلك فى دينك ؟ فقد تكون المعصية سببا فى توقف الرزق . وأكثر ما يخاف عليك من سوء الخاتمة بسبب إطفاء جمرة الإيمان بسواد العصيان ، والعسل المسموم يترك مع العلم بحلاوته لما فيه من وجود الأذى . الإيمان فى القلب كالشجرة الخضراء فإذا كثرت عليها المعاصى يبست وفرغ مددها . المعصية تورث ظهور الكدوره فى الأعضاء وجمود العين ، والكسل عن الطاعات ، وظهور كسب الشهوات ، وذهاب بهجة الطاعات ، إلى غير ذلك من الآثار الظاهرة ، والقساوة وضيق الصدر بالشهوات ، وفقدان حلاوة الطاعات ، وترادف الأغيار المانعة من بروق شوارق الأنوار ، إلى غير ذلك من الآثار الباطنة كترادف الارتياب ، ونسيان المآب ، وطول الحساب ، ونقض العهد ، وتحليل عقد الود ، والإيثار على المولى ، والطاعة للهوى ، وخلع جلباب الحياء ، ومبارزة الله تعالى بما لا يرضى ، مع تبدل الاسم ، كنت طائعا تسمى محسنا مقبلا ، فصرت عاصيا تسمى مسيئا معرضا ، كنت عند الله من الصالحين فصرت من المفسدين ، كنت عنده من المتقين فصرت عنده من الخائنين اهـ .

واعلم أن من شروط كمال التوبة ، الاستغفار ، وليس هو من شروط صحتها ولا من أركانها . وفى الحديث : «من أصاب ذنبا فندم عليه غفر له ذلك»

قبل أن يستغفر » قال الحليمي : وهذا يدل على أن الاستغفار ليس من أركان التوبة . ا هـ

قال الشيخ زروق : وحقيقته طلب الستر على الذنب ، وعدم المؤاخذة بها ، ثم إن كان مقرونا بالتوبة فهو أكمل الاستغفار ؛ وإن لم يكن مقرونا بهما ، ولكنه مع الندم والانكسار فهو استغفار حقيقة ؛ وإن لم يكن معه واحد منهما فهو استغفار الكاذبين ، وهو الذى قالت ربعة العدوية ، رضى الله عنها : إنه يحتاج إلى استغفار كثير ، والله أعلم .

يفهم منه : أن الاستغفار مع التوبة كامل ، ومع الانكسار صحيح ، وبدونهما باطل . ثم الاستغفار إما أن يكون مع التوبة وهو الكمال كما علمت ، وإما أن يكون مع الانكسار مع الغفلة عن العود للذنب وعدم العود إليه ، وإما أن يكون مع اعتقاد العودة إليه ؛ والظاهر أنه تلاعب لا استغفار ، وإما أن يكون باللسان فقط مع غفلة القلب .

قال السبكى فى « الحلبيات » : وفيه نفع لأنه خير من السكوت ولأنه يعتاد قول الخير .

وفى « الإحياء » : حركة اللسان بالاستغفار عن غفلة ، خير من حركته فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام ، بل خير من السكوت ؛ وإنما هو نقصان بالإضافة لعمل القلب . ا هـ

وسيد الاستغفار كما فى صحيح البخارى وغيره ، عن شداد بن أوس مرفوعا « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبوءُ لك بنعمتك علىّ ، وأبوءُ

بذنبي فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » . قال عليه السلام : « من قالها فى النهار موقناً بها فمات من يومه ، قبل أن يمسيَ فهو من أهل الجنة ؛ ومن قالها من الليل موقناً بها فمات ، قبل أن يصبح ، فهو من أهل الجنة » .

وروى معروف الكرخى ، رضى الله عنه ، بسنده عن أنس بن مالك ، « أن رجلا أتى النبى ، صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله دُلَّنى على عمل يُدْخلنى الجنة . قال : لا تغضب . قال : فإنى لا أطيق ذلك يا رسول الله . قال: فاستغفر الله كل يوم بعد صلاة العصرِ سبعين مرةً ، يغفر الله لك ذنوب سبعين عاماً . قال : فإن لم يأت علىّ ذنوب سبعين عاماً . قال : يغفر لأمِّك . قال : فإن ماتت أمى ولم يأتِ عليها ذنوبُ سبعين عاماً . قال : يغفرْ لأقاربكَ » . حديث صحيح . اهـ

ومن شروط كمال « التوبة » أيضا : مفارقة موضع المعصية ، ويشهد لذلك ، حديث الذى قتل تسعة وتسعين نفسا ، المخرج فى « الصحيح » ؛ وما يشير إلى ذلكَ أيضا ، الأمر بالإسراع بالخروج من ديار ثمود ، فإن التوبة طهارة من الذنب ، ولا بد فى الطهارة من طهارة القلب والجوارح ، ومن طهارة موضع التوبة ، كموضع الصلاة والثوب والبدن .

ثم إنه يستعان على التوبة بأمور : منها مجانبة قرناء السوء ، فإن مجانبتهم مفتاح كل خير . ومنها اللجأ إلى الله تعالى ، والتعلق بأوليائه .

قال فى «تاج العروس» : فإن كانت الذنوب منفتحة فى وجهك ، فاستغث بالله والجأ إليه ، واحث التراب على رأسك ، وقل اللهم انقلنى من ذل المعصية إلى عز الطاعة . وزر ضرائح الأولياء والصالحين . اهـ

وقال أيضا : لا تظن أن الدواء حلواء تأكلها ، إن لم تهجم عليه هجما ، لم يحصل لك الشفاء ، فاهجم على التوبة ، ولا تغلبك حلاوة المعصية ، واستعذ بالله ، فإنه ينجيك منها . اهـ

ومنها الفكرة : ويستعان على الفكرة بالخلوة ، ويستعان على الخلوة بمعرفة آفات الجلوة .

قال فى تاج العروس : فإن أردت التوبة فينبغى لك أن لا تخلو من التفكر بطول عمرك ، فتفكر فيما صنعت فى نهارك ، فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها ، وإن وجدت معصية فوبخ نفسك عليها ، واستغفر الله وتب إليه ، فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك ، ولا توبخها وأنت أشر فرح ، بل وبخها وأنت مجد صادق مظهر للعبوسة ، حزين القلب منكسر ذليل ، فإن فعلت ذلك ، أبدلك الله بالحزن فرحا ، وبالذل عزا ، وبالظلمة نورا ، وبالحجاب رفعة . ا هـ

قول الناظم : « وأفزع » أمر من الفزع بمعنى اللجأ . ومنه ما فى حديث الكسوف : « فافزعوا إلى الصلاةِ » أى الجئوا . واللجأ : اللواذ والاحتصان . والمتاب : التوبة والفور: التعجيل . وهو فى كلام الناظم : نعت لمصدر محذوف ، على حذف مضاف ، أى فزع ذا فور . « وعند» : ظرف المكان والزمان وهى هنا للزمان ، « وما » . مصدرية ، « وتنجى » : صلتها أى وقت جنايتك . « والجناية » : الذنب. «والجرم» ، ما يفعله الإنسان مما يوجب عليه العقاب أو القصاص فى الدنيا أو الآخرة ، وفى حديث : «لا يجنى جانٍ إلا على نفسه» معناه : لا يطالب بجناية غيره من أقاربه وأباعده ، فإذا جنى أحدهم جناية لا يطالب بها الآخر . « وتمهل » : مضارع أمهل : إذا نظر وأخر ولم يعجل . « وتندم » مضارع ندم ، أى أسف وحزن . قال الراغب : الندامة :التحسر من تغير رأى فى أمر فائت . وقال غيره : غم يصحب الإنسان يتمنى أن ما وقع منه لم يقع . « وإذ» تعليلية ، أى إنما أمرتك بالتعجيل وعدم الإمهال لأن كل إلخ... و«اللحظة»: المرة من اللحظ . يقولون : جلست عنده لحظة ، أى كلحظة العين ، واللحظ

(بالفتح) : لحاظ العين وجمعه ألحاظ ، يقال : فتنته بلحاظها وألحاظها ، وجمع اللحاظ اللحظ كسحاب وسحب .

والمراد فى كلام الناظم : الأنفـــــاس والأزمان المتوالية . « ويحتمل » : مضارع احتمل بمعنى أمكن ، أى يمكن فيها حمامك أى نزول حمامك ، فهو على حذف مضاف . ولكن لا بد من بناء يحتمل للمجهول ليسلم كلام الناظم من عيب السناد ، وهو اختلاف حركة ما قبل الروى . « والحمام » : الموت . قال :

أخلاّىَ لو غيرُ الحِمامِ أصابكم   عتبتُ ولكن ما على الموتِ معتبُ

« وقصر » : أمر من التقصير ضد التطويل . و « الأمل » (محركا) قال المناوى فى « التوفيق » : توقع حصول الشىء ، وأكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله ، فمن عزم على سفر إلى بلد بعيد ، يقول : أملت ولا يقول : طمعت إلا أن قرب منها فإن الطمع ليس إلا فى القريب والرجاء بين الأمل والطمع ، فإن الراجى قد يخاف أن لا يحصل مأموله فليس يستعمل بمعنى الخوف . ويقال لما فى القلب مما ينال من الخير : أمل ، ومن الخوف : إيحاش ، ولما لا يكون لصاحبه ولا عليه : خطر ، ومن الشر وما لا خير فيه : وسواس . اهـ

وقال سيدنا على ، رضى الله عنه : أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ، أما اتباع الهوى فيضل عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل .

وكان أبو الدرداء ، رضى الله عنه ، يؤم الناس برمضان بدمشق ، ففرغ من بعض القيام ، ثم أقبل على الناس بوجهه فقال : ياأهل دمشق ألا تستحيون مما تصنعون ؟ تبنون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا

تدركون كالذين من قبلكم بنوا شديدا ، وجمعوا كثيرا ، وأملوا بعيدا ؛ فأصبحت بيوتهم قبورا ، وجمعهم بورا ، وآمالهم غرورا .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه أنه قال : أربعة من ظلمة القلب بطن شبعان من غير مبالاة ، وصحبة الظالمين ، ومفارقة الصالحين ، ونسيان الذنوب الماضية ، وطول الأمل . وأربعة تنور القلب : بطن جائع ، وصحبة الصالحين ، وحفظ الذنوب الماضية ، وقصر الأمل .

وأخرج القاضى أبو نصر الموصلى عن أنس بن مالك ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال فى بعض خطبه أو مواعظه : « أما رأيتم المأخوذين على الغرة المزعجين بعد الطمأنينة ، الذين أقاموا على الشبهات ، وجنحوا إلى الشهوات حتى أتتهم رسل ربهم ، فلا ما كانوا أملوا أدركوا ، ولا إلى ما فاتهم رجعوا ، ندموا على ما عملوا ، وندموا على ما خلفوا ، فلم يغن الندم ، وقد جف القلم .

تنبيهات :

الأول : تقدم أنه قد استثنى من طلب التأنى فى الأمور أشياء يتعين فيها التعجيل ، منها التوبة ، ومنها قرى الضيف ، فينبغى إن نزل به ضيف أن يبادر له بقراه ، إذ ربما يكون به جوع لا يقدر على الصبر إلى أن يهيىء له طعام ضيافته سيما إذا كان مسافرا . والقرى : أول طعام يقدم للضيف . وأهم القرى عند المسافر قرى دوابه ، كما أشار لذلك سيدنا العم ، رحمه الله بقوله :

وأفضلُ القرى لدَى المسافرِ ... قرى دَوَابه بلا تأخُّرِ

وقد ذكروا أن آداب الضيافة عشرة وأهمها : تعجيل قراه ، وقرى دوابه وقد نظمها بعضهم بقوله :

حقُّ الضيافة عشر منْ أحاطَ بها ... وهى ألاّ يكونَ الضيفُ قد نجسه

الرحبُ أولهُ والضحكُ آخرهُ ... إنّ الضيافة يُطفى نورَها العبسا
اقعدْ تحدّثْ كَمَا تؤنسهُ ... إنّ الضيفَ إذا حدثتهُ أنسا
ابدأ بما خفّ من شىء يليق به ... قبل الطعامِ إذا كان العشا احتبسا
اشو له منْ شريف اللحم أطيبه ... لا تكرم الضيف حتى تعلفَ الفرسا
إن استضافك شيخٌ مفنّدٌ هرم ... فتت له الخبز لا تترك له اليبسا
واشعل له الضَّوءَ والمصباحَ مكرمة ... وأغلقَ عليه وسدّ البابَ واحترسا
هيىء لمضجعه مهداً يوسده ... قبل المنام إذا ما الليل قدْ غلسا

واستدرك بعض الأفاضل أدبا آخر ، وهو تبيين محل قضاء الحاجة له قبل سؤاله إياه ، لأنه من الضروريات التى لا محيد عنها ؛ وذيل ذلك بقوله :

وزدْ علىَ العشر تبيينَ الخلاء له ... فذى ضرورة ليل يسيِّما الغلسا

ثم إن أفضل القرى لمن كان ذا همة عالية ، ونفس شريفة نامية ، ذات اشتياق لتحصيل العلوم ، وراغبة فى نيل المعانى والفهوم ؛ مذاكرة العلم وذكر مسائله ، والتنزه فى رياض محاسنه ، واقتطاف نوائله ، كما ذكره السكاكى فى « المفتاح » وأشار إليه سيدنا العم شيخ الجماعة رحمه الله بقوله :

وأطيب القِرَى لدى الإنسانِ ... لكنه بالمعنى لا العيانِ
كلامنا المفيد وهو أحلى ... لديه ، بل أشهى له وأعْلَى
ذَكرَ ذا السَّكاكى فى «المفتاح» ... سحّتْ عليه رحْمة الفتاح

وتقدم فى حديث عائشة ، رضى الله عنها : أن مكارم الأخلاق عشرة ومن جملتها : قرى الضيف ، وتقدمت لنا نثرا ونظما لدى قول الناظم : «واتلك معفيا بحسن الخلق » على أن بشاشة المرء وطلاقة وجهه فى الضيف أفضل من تقديم قراه ، كما قيل :

بشاشة وجه المرء خير من القرى ... فكيف إذا يأتى به ، وهو يضحك؟

والجمهور على أن الضيافة مستحبة من مكارم الأخلاق ، وأوجبها «الليثُ» احتجاجا بحديث الصحيح ، عن عقبة بن عامر أنه قال : قلنا يا رسولَ اللهِ : إنك تبعثُنا فننزلُ بقوم فلا يقرونا فماذا ترى ؟ فقال ، صلى الله عليه وسلم : «إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيفِ فاقبلوا ، فإن لم تفعلوا فخذوا منهم حق الضيفِ الذي ينبغي لهم» . وحمله الجمهور على المضطر . وأوجبها الإمام أحمد ، على أهل البادية دون أهل القرى ، لوجود الفنادق والطعام في السوق .

ومنها ، أي المستثنيات : تجهيز الميت ، فالمطلوب الإسراع به وتعجيله كما ورد في الأحاديث .

قال في «المدخل» : ويجهز الميت على الفور لأن من إكرام الميت الاستعجال لدفنه . اهـ

وقال الإمام الشعراني في «العهود المحمدية» ما نصه : أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى اللهُ عليه وسلمُ ، أن نسرع بالجنازة تعجيلا للدفن ، وإكراما للميت ، ومسارعة لنعيم البرزخ بناء على ما نعتقد من فضل الله تعالى ومغفرته ورحمته الميت .

وروى الشيخان وغيرهما مرفوعا : «أسْرِعوا بالجنازة فإن تكن صالحةً فخير تُقَدِّمونها إليه ، وإن تكن سوى ذلك فشرٌ تضعونه عن رِقابِكم» .

وروى أبو داوود والنسائي : أن أبا بكرة لَحِق بجنازة عثمان بن أبي العاص ، وهم يمشون مشيا خفيفا . فقال بأعلى صوته : «لقد رأيتُنا ، ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نَرْمِلُ رملاً» .

وروى أبو داوود والترمذي ، عن ابن مسعود ، قال : سألنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم عن المشي مع الجنازة فقال : «مادون الخببِ إن تكن خيراً

تعجل إليه ، وإن يكن غير ذلك فبعداً لأهلِ النارِ » . والخبب : ضرب من العدو ، وقيل : هو كالرمل ، والله تعالى أعلم . ا هـ

وروى البخارى : إذا وضعت الجنازة ، واحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدّمونى قدّمونى ، وإن كانت غير صالحة قالت : ياويلها ! أين تذهبون بها ؟ فيسمع صوتها كل شىء إلا الإنسان ولو سمعه لصعِقَ .

قال العلماء رضى الله عنهم : والمراد بالإسراع بالجنازة ، ما يعم غسلها وتكفينها ، وحملها والمشى معها مشيا دون الخبب ، فإنه يكره الإسراع الذى يشق على ضعفة من يتبعها .

وكان إبراهيم النخعى ، رضى الله عنه ، يقول : يمشون بها قليلا قليلاسجية العادة ، ولا يدبون بها دبيب اليهود والنصارى .

وكان الصحابة رضى الله عنهم يكرهون الإبطاء ويحبون العجلة .

وقد روى أبو داوود أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، دخل على أبى طلحة يعوده ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنى لأرى أبا طلحة حدث عليه الموت ، فإذا تُوُفى عجّلوا به ، فإنه لا ينبغى لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهرانىْ أهله » .

وعن عبد الله بن عتبة الغلام ، قال : عدت رجلا مريضاً ، فلما قعدت عنده قلت له : كيف تجدك ؟ فأنشدنى :

خرجت من الدنيا وقامت قيامتى ... غداة أقــل الحاملون جنازتى

وعجل أهلى حفر قبرى وصيروا ... خروجى وتعجيلى إليه كرامتى

كأنهم لم يعرفوا قطُّ صحبتى ... غداة أتى يومى علىّ وساعتى

لكن استثنوا من طلب تعجيل تجهيز الميت أشخاصا منهم الغرِق خوف غمر الماء قلبه ، ثم يفيق فيؤخر حتى يظهر موته أو تغيره ، وكذلك الصعِق ، ومن يموت فجأة ، ومن به مرض السكتة ، ومن مات تحت الهدم .

ومنها : تزويج البكر فيعجل به خوف طروء ما يكره . وفى الحديث : « إذا جاءكم من ترضون دينهُ وأمانتهُ فانكحوه » .

وقال العارف الربانى ، سيدى عبد الوهاب الشعرانى ، فى كتابه « البحر المورود فى المواثيق والعهود » ، مانصه : أخذ علينا العهود إذا بلغت كريمتنا أن نبادر بتزويجها ، ولا نقيد تزويجها على أحد معين ، ولا على نظام فيه تعنت ، فربما نفرت النفوس من تزويجها بسبب ذلك ، بل نزوجها لكل مسلم يأتيها بالرغيف ولو جافا ، فإن الزمان قد ضاق عن التبسطات فى الدنيا من وجه حل . فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك . ا هـ

ومنها : الصلاة ، فيطلب المبادرة بها عند دخول وقتها على تفصيل بينه الفقهاء ، وأشار إليه فى « المختصر » بقوله : والأفضل لفَذّ تقديمها مطلقا ، وعلى جماعة آخرة . وللجماعة تقديم غير الظهر وتأخيرها لربع القامة ، ويزاد لشدة الحر ، وفيها ندب تأخير العشاء قليلا . ا هـ

وفى الحديث: «أولُ الوقتِ رضوان الله، وآخر الوقت عفو الله» رواه الترمذى والدار قطنى . زاد الدار قطنى : ووسطه رحمة الله .

وعن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أنه لما سمع هذا الحديث قال : رضوان الله أحبُّ إلينا من عفوه .

وقال الشافعى رضوان الله يكون للمحسنين ، والعفو يشبه أن يكون للمقصرين . ا هـ

وَهبكَ وَجدتَ العفوَ عن كل زلةٍ فأينَ مَقام العفو منْ مقعدِ الرضى
وَمَا دنس تبقى زَوَال سَوادِه كثوبٍ جديدٍ لم يزلْ قطُّ أنيقا

ومنها : الجهاد ، إذا فجأ العدو فلا يستأنى به ، ولا يقدم قبله دعاء للإسلام ولا طلب جزية .

ومنها : قضاء الدين إذا حل أجله لتبرأ الذمة منه . وفى الحديث الصحيح: « مطل الغنى ظلم » .

ومنها : تعجيل الأوبة من السفر لما فى الصحيح ، من قوله عليه السلام « السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه ، فإذا قضى أحدكم نهمته فليعجل إلى أهله » .

ومنها : رمى جمرة العقبة يوم النحر . قال فى « المختصر » عطفا على المستحبات : ورمية العقبة حين وصوله .

ومنها : إخراج الزكاة ، فيطلب تعجيلها حين حلول حولها ، أو وصول إبان وجودها ، إذ وقتها كوقت الصلاة ، فكما لا يجوز إخراج الصلاة عن وقتها ، فكذلك الزكاة لا يجوز تأخيرها عن وقت وجوبها .

وإلى هذه المستثنيات أشار بعضهم بقوله :

وتوبة تجهيزُ ميت وَقِرا أسرعْ بها لِوَقتها بِلا امترا
إنكاحُ بِكرٍ وقضاءُ دين، صلاةُ تعجيلُ أوبَةٍ ورمى وَزكاةُ
استثنيتْ مِن عَجلةِ الشيطانِ فَهوَ إذاً مِنْ مِنةِ الرَّحمانِ

الثانى : ذكر العلامة الطرنباطى فى « حواشيه على الألفية » فى باب أفعال المقاربة : « أنَّ مَنْ تأنى أصابَ أوْ كادَ » إلخ ، حديث . وصرح أيضاً ، بأنه حديث ، العلامة سيدى محمد بن عبد المجيد بن كيران أخو الشيخ الطيب فى تويلف له فى « الاكتفاء » ، وقال : إنه يحتمل أن يكون من الاكتفاء بحذف كلمة، أى كاد يصيبه أو كاد يخطىء ، أو بحذف أكثر من كلمة أى كاد أن يصيب ، وكاد أن يخطىء . اهـ . وقد أخرجه الطبرانى عن عقبة بن عامر والله أعلم .

الكلام عن الموت وذكره

ثم قال :

[وَاعنَ بِذكرِ الموتِ والفكرةِ فِي مَا بعدَهُ مِنْ كلِّ هولٍ يقتفى]

لما كان أقوى باعث على التوبة من الذنوب ، وأعظم داع إلى مراقبة عالم الخفايا ، والمطلع على الغيوب ، تذكر الموت وغمراته وما يتبعه من أهوال يوم القيامة وحسراته ؛ نبه الناظم على ذلك بقوله : « واعنَ . . إلخ » . والمعنى : اعتن أيها العاقل ، المريد الظفر بحوز مقام التوبة العلى ، والانخراط فى سلك نظامها الجلى ، بالتفكر فى الموت الملاق لك لا محالة ، والحال فى وادٍ يلك من دون ريب ولا استحالة ، وتأمل فيما يتبعه من عظيم السكرات ، وشديد الغمرات ، والزم التفكر فيما بعده من الأهوال الشديدة ، وما يقتفيه من المعضلات المديدة ، إذ ليس عندنا غائب يُنتظر مجيئه حقا إلا هو ، ولا يعلم وقتَ هجومه إلا الله الذى لا إله إلا هو ، وهو هادم اللذات ومفرق الجماعات ، وميتم البنين والبنات .

عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أنّ رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم ، رأى أناسا يضحكون فقال : « أَمَا إنَّكمْ لوْ ذكرْتم هادِمَ اللَّذاتِ لَشغلكمُ عما أرَى » ثم قال : « أكثرُوا مِن ذكر هادِمِ اللّذاتِ ، وإنّما القبر رَوضةٌ مِنْ رِياضِ الجنةِ ، أو حفرةٌ مِنْ حُفرِ النارِ » .

وعن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : « أتيتُ رسولَ الله صَلى الله عليه وسلم ، عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصارِ : يا رسول الله من أكيس الناسِ ؟ قال : أكثرهم الموتِ ذِكراً ، وأحسنهم له استعداداً ، أولئكَ الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرم الآخرة » .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : « سمعت رسول الله ، صلى الله عليه

وسلم ، يوماً يصف ثواب المجاهدين ، وما أعد الله لهم من الأجر والفضل في الجنة ، فقلت : يا رسول الله أيكون لغير المجاهدين من أمتك مثل أجرهم ؟ فقال : نعم من يذكر الموت في كل يوم عشرين مرة » .

وروى الإمام أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي والقشيري عن ابن مسعود : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا : يا نبي الله ، إنا لنستحيي من الله ، ولله الحمد . قال : ليس كذلك ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى : ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ؛ فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

وروى الديلمي مرفوعا : « ذكر الأنبياء من العبادة ، وذكر الصالحين كفارة ، وذكر الموت صدقة ، وذكر القبر يقربكم من الجنة » .

وروى البيهقي عن الضحاك ، قال : قيل : يا رسول الله من أزهد الناس ؟ قال : « أزهد الناس من لم ينس القبر والبلى ؛ وترك أفضل زينة الدنيا ، وآثر ما يبقى على ما يفنى ، ولم يعد غداً من أيامه ، وعدّ نفسه في الموتى » .

وروى الشيرازي في « الألقاب » ، والحاكم ، والبيهقي في « الشعب » عن جابر : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس » .

وروى ابن أبي الدنيا والبيهقي ، عن زيد السلمي قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا آنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم ، فقال : أتتكم

المنية راتبة لازمة ؛ إما بشقاوة ، وإما بسعادة » . أى فالزموا العمل الصالح ، فإنه علامة السعادة .

ومر سيدنا على رضى الله عنه ، على مقابر بالكوفة فقال : « السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة ، أنتم لنا سلف ، ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لاحقون ؛ اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل ليوم الحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله تعالى . ثم قال : يا أهل القبور . أما الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ؛ وهذا ما عندنا فما عندكم ؟ ثم التفت إلى أصحابه ، وقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى » .

وقال إبراهيم بن عبد الله بن الحسن فى بعض خطبه : أيها الناس كل كلام فى غير ذكر فهو لغو ، وكل صمت فى غير فكر فهو سهو ، والدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والموت متوسط بينهما ، ونحن فى أضغاث أحلام .

وقال الحسن : واعجبا لأقوام أمروا بالزاد ، ونودى فيهم بالرحيل ، وحبس أولهم لآخرهم ، وهم قعود يلعبون . فيا من ركن إلى الدنيا ، بإقامة وثبات : احذر أسد الموت فإن له وثبات ، كيف تركن إلى اللذات وقد جاء فى طلبك الممات ؟ واعتبر بمصارع الهالكين ، ففيهم لذى التفكر عظات ، فأين آدم أبو الأولين والآخرين ؟ وأين نوح شيخ المرسلين ؟ وأين إدريس رفيع رب العالمين ؟ وأين ابراهيم خليل الرحمان ؟ وأين موسى الكليم من بين سائر النبيين ؟ وأين عيسى روح الله وكلمته ، رأس الزاهدين وإمام السائحين ؟ وأين محمد خاتم النبيين ؟ وأين أصحابه الأبرار ؟ وأين التابعون الأحرار ؟ وأين الأمم الماضية ؟ وأين أرباب القصور العالية ؟ وأين الملوك السالفة ؟ وأين القرون الخالفة ؟ وأين

أهل المدن والحصون ؟ وأين أرباب المعانى والفنون ؟ وأين الذين نصبت على مفارقهم التيجان ؟ وأين الذين قهروا الأبطال والشجعان ؟ وأين الذين دانت لهم المشارق والمغارب ؟ وأين الذين تمتعوا باللذات والمشارب ؟ أين الذين تاهوا على الخلائق كبرا وغيا ؟ اين الذين راحوا فى الحلل بكرة وعشيا ؟ أين الذين اغتروا بالأجناد ؟ أين أصحاب الوزراء والقواد ؟ أين أصحاب السطوة والأعوان ؟ أين أصحاب الإمرة والسلطان ؟ أين أصحاب الأعمال والولايات ؟ أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات ؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر ؟ أين الذين عمروا القصور والدساكر ، أين الذين أعطوا النصر فى مواطن الحروب والمواقف ؟ أين الذين أمنُوا بسطوتهم كل خائف ؟ أين الذين ملئوا ما بين الخافقين فخرا وعزا ؟ أين الذين فرشوا القصور حريرا وبزا ؟ أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزا ؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ أين الذين جمعوا الأموال ولم يغنهم ما جمعوا ؟ أين الذين قطعوا أيامهم فى الشهوات وما شبعوا ؟ أين الذين غرتهم الدنيا؟ خُذِلوا والله بالشهوات وخدعوا. أين الذين نصبت لهم الأسباب شباك الغفلة حتى وقعوا ؟ نزل بهم مفرق الأحباب فذلوا لسطوته وخضعوا ، أزعجهم من بين الأهل والأحباب وقد فجعوا ، شربوا كأس الأسف والندامة وتجرعوا ، مزقت الديدان أوصالهم فتقطعوا ، وحصدوا — والله — من أعمالهم مازرعوا ، عاث الدود فى أجسامهم ، واتخذ مقيلا فى أبدانهم ، فسالت العيون على الخدود ، وامتلأت تلك الأفواه بالدود ، وتساقطت الأعضاء وتمزقت الجلود ، وتناثرت اللحوم وتقطعت البطون ، سلمهم الأحباب والأولياء ، وهجرهم الإخوان والأصفياء ، ونسيهم الأقرباء والأبعداء . فكيف يغتر الإنسان وهو عالم بأن الله تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ولم يكن له محيد؟ فياويح الجاهلين الغافلين أعمارهم تنهب ، وأيامهم تذهب ، وآثارهم تكتب ، أصم عن النصائح ، أم عمى والأمر واضح ؟ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون

حديثا ؟ فياغافلا عن الموت ، وقد هدم ركن عمره المشيد ، إلى متى أنت فى نوم غفلتك لا تبدأ ولا تعيد ؟ أما هيجك الوعد ؟ أما أنذرك الوعيد ؟ أما سمعت قول ربك العزيز الحميد: «وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد ؟».

فى صحيح البخارى ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان بين يديه علبة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بها وجهه ، ويقول : « لا إله إلا الله . إن للموت لسكرات » ، ثم نصب يده فجعل يقول : « فى الرفيق الأعلى حتى قبض » اهـ .

وهذا تنبيه وإرشاد للأمة ، ووعظ لها ، وإيقاظ من الغفلة ، وليتسلى به صلى الله عليه وسلم . وسكرات الموت بحسب كل شخص بما فعل فى دار الدنيا . وسميت : سكرات لأنها تذهل العقول عند ظهورها فيبقى الإنسان كالسكران ؛ وذلك أن أعمال العبد تظهر له عند الموت صفاتها فى الحسن والقبح . يريد جزاء العمل : فالمغتاب تقرض شفاهه بمقاريض من نار ، والسامع للغيبة يسلك فى أذنيه نار جهنم ، والظالم تتفرق روحه بكل مظلوم ، وآكل الحرام يقدم له الزقوم ، وكذلك إلى آخر أعمال العبد ؛ كل ذلك يظهر عند سكرات الموت ، فالميت يجوزها سكرة بعد سكرة ، فعند ذلك تقبض روحه .

وروى أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، دخل على مريض فقال : « إنى لأعلم ما يلقى ، ما فيه عرق إلا هو يألم بالموت » .

وروى أبو بكر بن أبى شيبة فى مسنده ، عن جابر ، رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « تحدثوا عن بنى إسرائيل وَلا حرَج ، فإنه كانت فيهم أعاجيب ، ثم أنشأ يحدث، قال : خرَجت طائفة فأتوا مقبرةً من مقابرهم ، فقالوا : لو صلينا ركعتين ودعونا الله يخرج لنا بعض الأموات فيخبرنا عن الموت . قال : ففعلوا . فبينما هم كذلك إذا أطلع رجل رأسه من قبر بلاشى

بين عينيه أثر السجود فقال : ياهؤلاء ما أردتم إلى ؟ فوالله لقد مت منذ مائة سنة ، فما سكنت عنى حرارة الموت حتى الآن ، فادعوا الله أن يعيدنى كما كنت » .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لكعب الأحبار : يا كعب حدثنا عن الموت : فقال كعب : ياأمير المؤمنين كأنه غصن شوك أدخل فى جوف رجل ، فأخذت كل شوكة بعرق ، ثم أخذها رجل شديد الجذب ، فيجذبها جذبة شديدة ، فقطع منها ما قطع وأبقى ماأبقى .

وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما ، أنه قال : كان أبى رحمه الله تعالى كثيرا ما يقول : إنى لأعجب من الرجل نزل به الموت ، ومعه عقله ولسانه ، كيف لا يحدث عن الموت به ويصفه ؟ قال : فلما نزل به الموت قلت له : يا أبت كنت تقول كذا وكذا ؛ قال يابنى : الموت أعظم من أن يوصف ولكن سأصف لك منه شيئا ، والله لكأن على كتفى جبال رضوى وتهامة ، ولكأن روحى تخرج من ثقب إبرة ، ولكأن فى جوفى شوك القتاد ، ولكأن السماء أطبقت على الأرض وأنا بينهما .

وروى عن عيسى عليه السلام : أن بنى إسرائيل أتوا إلى قبر سام بن نوح فقالوا له : ياروح الله ادع الله أن يحيى لنا صاحب هذا القبر ، حتى نسمع منه حديث الموت ، فجاء عيسى عليه السلام إلى قبره ، فصلى ركعتين فدعا الله تعالى أن يحيى سام بن نوح ، فأحياه لله تعالى ، فقام وإذا رأسه ولحيته قد ابيضتا ، فقال له : ماهذا الشيب ، فإنه لم يكن فى زمانك ؟ قال : سمعت النداء فظننت أن القيامة قد قامت فشاب رأسى ولحيتى من الهيبة . فقال له : مذ كم أنت ميت ؟ قال منذ أربعة آلاف سنة ، وماذهبت مرارة الموت عنى .

لكن فى « تكميل الديباج » عن سيدى يحيى السراج قال : رأيت جابر ابن عبدالله فى النوم . فقلت : بالله حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من سلم على فى يوم مائة مرة مات ، ولم يذق طعم الموت » . اهـ

ودخل بعضهم على مريض ، فقال : كيف وجدت مرارة الموت ؟ قال : لم أجد شيئا لأنى سمعت العلماء يقولون : من أكثر الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أمنه الله من مرارة الموت .

قلت : وأصل ذلك حديث : « من أكثر الصلاة على ، كان ملك الموت أرفق به من والديه » . أو كما ورد . وأعظم الأهوال بعد الموت هول فتنة القبر : أعنى فتنة سؤال منكر ونكير .

وهى أشد فتنة يلقاها .·. العبد ، طوبى للذى يوقاها .

قال تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . قال أهل التفسير : فى الحياة الدنيا عند خروج الروح ؛ وفى الآخرة عند مساءلة منكر ونكير .

وفى حديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا أقبر أحدكم ـ أو الإنسان ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : النكير ، وللآخر : المنكر ، فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ، يعنى محمدا رسول الله ، فهو قائل ما كان يقول ؛ فإن كان مؤمنا ، قال لهما : عبدالله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فيقولان : إنا كنا لنعلم أنك تقول مثل ذلك ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً ، فى سبعين ذراعاً ، وينور له فى قبره ، ثم يقال : نم ، فيقول : دعونى أرجع إلى أهلى فأخبرهم .

فيقال : نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله ؛ حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً قال : لا أدرى ، كنت أسمع الناس يقولون شيئاً ، وكنت أقوله ، فيقولان: إنا كنا نعلم أنك تقول ذلك ، ثم يقال للأرض التى عليه : فتلتئم حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال فيها معذباً ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » .

وفى حديث عطاء بن يسار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه : « ياعمر كيف أنت إذا اتخذ لك من الأرض ثلاثة أذرع وشبر ، فى عرض ذراع وشبر . ثم مال إليك أهلك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ، ثم حملوك حتى يغيبوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ، ثم انصرفوا عنك وأتاك سائلا القبر : منكر ونكير ، أصواتهما مثل الرعد القاصف ، أبصارهما مثل البرق الخاطف ، قد سدلا شعورهما وتلتلاك وتوهلاك ، وقالا من ربك ؟ وما دينك ؟ قال : يا نبى الله يكون معى قلبى الذى هو معى اليوم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم . قال : إذا أكفيهما » .

وفى حديث المنهال بن عمرو ، والبراء بن عازب ، رضى الله عنهما ، قالا : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار وانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد فجلس النبى صلى الله عليه وسلم ، وجلسنا حوله فكأن على رؤسنا الطير من هيبته ، وفى يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه وقال : « أستعيذ بالله من عذاب القبر ، مرتين أو ثلاثاً » ، ثم قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، نزلت عليه ملائكة بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، ومعهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجىء ملك

الموتِ حتى يجلس عند رأسهِ ، فيقول : أيتها النفس المطمئنة الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من الإناء ، فيأخذونها ولا يدعونها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن والحنوط فيخرج منها نفحة أطيب من ريح المسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الريح الطيبة ؟ فيقولون هذا فلان بن فلان بأحسن أسمائه ، ثم ينتهون إلى سماء الدنيا ، فيستفتحون لها فيفتح لهم فيستقبلوها ويشيعوها ، من كل سماء إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهوا إلى السماء الثالثة ، فيقولُ الله عز وجل : اكتبوا كتابهُ فى عليين وأعيدوه إلى الأرض : « منها خلقنا كم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، فيعاد الروح إلى جسده ويأتيه ملكان فيقولان له : ماربك ومادينك ؟ فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ؛ فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وجاءنا بالحق ؛ فيقولان له : وما علمك بذلك ؟ فيقول : قرأت القرآن كتاب الله تعالى ، وآمنت به وصدقته ، فينادى مناد من السماء : صدق عبدى فافرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، فيأتيه ريحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مدَّ بصره ؛ ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح ، فيقول له : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ قال : أنا عملك الصالح ، فيقول رب أقم الساعة . قال ، صلى الله عليه وسلم : وإن العبد الكافر إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، أنزل الله عليه ملائكة سود الوجوه معهم المسوحُ فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجىء ملك الموت يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط الله وغضبه ، فتفرق فى أعضائه كلها فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول فتنقطع منه العروق

والعصب ، فيأخذونها فيجعلونها فى تلك المسوح ، ويخرج منها ريح أنتن من جيفة ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الريح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه ، حتى ينتهون بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون فلا يفتح لهم » . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « لا تفتح لهم أبواب السماء » فيقول الله سبحانه : « اكتبوا كتابه فى سجين ، ثم تطرح روحه طرحاً . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ، يعنى : تردّى . فيعاد إليه روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ؛ فيقولان له : ما دينك فيقول: هاه هاه لا أدرى ، فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى . فينادى المنادى فيقول : كذب عبدى ، فافرشوا له فرشاً من النار ، وألبسوه من النار ، وافتحوا له باباً من النار ، فيدخل عليه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الثياب قبيح الوجه نتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوءك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول : من أنت؟ فيقول أنا عملك السوء . فيقول : رب لا تقم الساعة » .

وفى حديث عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما : « أن المؤمن إذا وضع فى قبر يوسع عليه قبر سبعون ذراعاً عرضه ، وسبعون ذراعاً طوله ، وتنثر عليه الرياحين ويستر بالحرير من الجنة ، فإن كان معه شىء من القرآن كفاه نوره . وإن لم يكن معه شىء من القرآن ، جعل له نور مثل نور الشمس فى قبره ، ويكون مثله كمثل العروس تنام ولا يوقظها إلا أحب أهلها ، فتقوم من النوم كأنها لم تشبع منه . وأن الكافر إذا وضع فى قبره ، يضيق عليه حتى تدخل أضلاعه فى جوفه وترسل عليه حيات كأمثال البخت فيأكلن لحمه حتى لا يذرن على عظمه

لحما ، ويرسل عليه شياطين صم بكم عمى ويقال : وهو الشيطان الرجيم ، ومعهم فطاطيس من حديد فيضربونه بها ، حتى لا يسمعون صوته ولا ينظرون فلا يرحمونه ، وتعرض عليه النار بكرة وعشيا .

وروى أبو نعيم عن جابر مرفوعا « أن ابن آدم لفى غفلة عما خلقه الله له : إن الله تعالى إذا أراد خلق عبد ، قال للملك : اكتب رزقه وأثره وأجله وشقيا أو سعيداً ، ثم يرتفع ذلك الملك فيبعث الله اليه ملكاً آخر ، فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين كاتبين يكتبان حسناته وسيئاته ، حتى إذا جاء ملك الموت ليقبض روحه ، كان معه حتى يدخل حفرته وترد الروح إلى جسده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان ، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات وصار ما كتباه كتاباً معقوداً فى عنقه ثم حضرا معه ، واحد سابق والآخر شهيد ، فذلك قوله تعالى : « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرت اليوم جديد » .

وفى حديث أبى سعيد الخدرى وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهما أنهما كانا يقولان فى قوله تعالى : « فإن له معيشة ضنكاً » : هو عذاب القبر .

وعن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، قال : كان الناس فى شك من عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة : « ألها كم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » فتعلمون الأول : إشارة إلى عذاب القبر وتعلمون الثانى : إشارة إلى عذاب الآخرة .

قال العلماء رضى الله عنهم : وتختلف أحوال العصاة فى العذاب باختلاف معاصيهم كثرةً وقلةً ، وكبراً وصغراً .

وروى ابن أبى شيبه مرفوعا : « أكثر عذاب القبر من البول » .

وروى الشيخان : أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال : إنهما

ليعذبان وما يعذبان فى كبير : بلى إنه كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول : » وفى رواية لمسلم : « لا يستنزه من البول ».

وقد علمت مما تقدم أن عذاب القبر ونعيمه حق ، كما صرحت به الأحاديث الصحيحة ولكن الله تعالى ، يأخذ بأبصار الخلائق وأسماعهم من الإنس والجن ، عن رؤية عذاب القبر ونعيمه لحكمة إلهية ، ومن شك فى ذلك فهو ملحد .

وإيضاح ذلك : أن أحوال أهل المقابر على خلاف أحوال أهل الدنيا ، فلا يقاس أحوال البرزخ ، و بعده ـ من أحوال الآخره ـ على أحوال أهل الدنيا . ولولا خبر الصادق الصدوق عن ذلك ماعرفنا شيئا من أحوال أهل القبور ، ولاعرفنا المنعم والمعذب .

وقد أجمع أهل الكشف على أن الميت يحس بضغطة القبر ، ويحس باختلاف أضلاعه ، ولو كان فى بطون السباع والطيور ، أو كان قد حرق وذرى فى الريح ، فتحس كل ذرة بالألم ، ولو كانت متفرقة .

قالوا: والطفل فى ضغطة القبر وعذابه كالبالغ ، كما تقتضيه ظواهر الأحاديث ، ولذلك كان الصحابة إذا صلوا على الطفل ، يدعون له بأن الله تعالى يعيذه من عذاب القبر .

فإن قيل : لم سمى فتانا القبر : منكراً ونكيراً .

فالجواب : أنهما سميا بذلك لأن خلقهما لا يشبه خلق الآدميين ولا خلق البهائم ، ولا خلق الهوام ، بل هما خلق بديع كما دلت عليه الأحاديث لا يأنس بها أحد من الناظرين ، ولكن الله تعالى يخلق عندهما اللطف والرحمة والستر

للمؤمن ، فضلا منه تعالى ، فيتشكلان لكل إنسان بشاكلة عمله وعمله واعتقاده .

فإن قيل : كيف يخاطب الملكان جميع الموتى فى جميع أقطار الأرض فى وقت واحد ؟

الجواب : أن الله تعالى جعل جسمهما كبيرا مثل جسم ملك الموت فتكون الدنيا كلها بين يديهما كالإناء الذى يؤكل منه ، فإذا تكلما بكلام وصل إلى كل واحد من الموتى فى سائر الأقطار ، فيتخيل أن الخطاب له : من منعم ومعذب فيدخل فى أذن كل واحد من ذلك الكلام ما يناسب حاله : من لطف وشدة ، ونعيم وعذاب .

هذا وقد ورد فى الأحاديث أمور تنجى العبد من عذاب القبر ؛ وقد تقدم لنا ذلك لدى قول الناظم : « وكيف يلهو وهو فى كل حال » . . إلخ .

ومن أعظم الأهوال المقتضية لذلك هول يوم القيامة وعقباته وشدائده وحسراته ، فياله من يوم هائل شديد ، وموقف عظيم مديد ، يوم تكور فيه الشمس ، وتنكدر النجوم ، وتمور السماء فوق الخلائق مورا ، وتنفطر انفطارا وتشقق بالغمام المنزل عليهم من فوقهم ، وتكشط السماوات ، وتنزل الملائكة تنزيلا .

روى الإمام مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها ، : أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً . قلت : يارسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وروى فى الآثار : أن الله تعالى يحشر الأمم من الجن والإنس عراة أذلاء، وقد نزع الملك من ملوك أهل الأرض ، ولزمهم الذل والصغار ، بعد عزهم وتجبرهم على عباد الله فى أرضه . ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها ، بعد توحشها من الخلائق وانفرادها فى البرارى والقفار ، ذليلة خاضعة من هول ذلك اليوم ، مع أنها ليس عليها خطيئة ، ولا وقعت فى ريبة ، ثم وقفت من وراء الخلق كلهم ذليلة منكسرة لخالقها . ثم أقبلت الشياطين بعد عتوها خاضعة ذليلة للعرض على الديان ، فإذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها تناثرت نجوم السماء من فوقها ، وطمست الشمس والقمر ، فأظلمت عليهم الدنيا ، وصارت سماء الدنيا فوقهم ، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم ، والخلق كلهم ينظر إلى تلك الأهوال؛ وبينما هم كذلك إذ انشقت السماء بغلظها فوق رؤوسهم ، وهى مسيرة خمسمائة عام حتى يقطع سمكها ، فيا شدة هول صوت انشقاقها فى أسماع الخلائق ، ثم تمزقت وانفطرت من هول ذلك اليوم ، ثم ذابت حتى صارت كالفضة المذابة ، كما أشار إليه قوله تعالى : فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » . وقوله تعالى « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، أى كالصوف المنفوش، وهو أضعف الصوف . ثم هبطت الملائكة من حافاتها إلى الأرض بالتقديس لربها ؛ فتفزع الخلائق من شدة عظم أجسامهم وهول أصواتهم ، ومخافة من أن يكونوا أمروا بأخذ الخلائق إلى النـــار ، ثم يأخذون مصافهم محدقين بالخلائق ، منكسين رؤوسهم لعظم هول ذلك اليوم ، ذليلين خاضعين لربهم ، وكذلك ملائكة السماء الثانية وما بعدها إلى السماء السابعة ، قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء التى بعدها فى العـدد وكبر الأجسام والأصوات ، فإذا حضروا كلهم الموقف واجتمع أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع زاد حر الشمس مقدار حرها عشر سنين ، ثم أدنيت من الخلائق قاب قوس

أو قوسين ، ولا ظل فى ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمان ، فمن الناس من يكون فى ظل العرش ، ومنهم من يكون فى ضحى الشمس ، أى حرها ، قد صهرته ويشتـــد منها كربه وأقلقته مع شدة ازدحام الأمم وتضايقها ، ودفع بعضها بعضا ؛ وانقطاع الأعناق من شدة العطش ؛ قد اجتمع عليهم فى ذلك الموقف حر الشمس ووهج أنفاسهم وتزاحم أجسامهم ، وفاض العرق منهم على وجه الأرض ثم على أقدامهم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاء ، فمنهم من يبلغ العرق منكبيه ، ومنهم من يبلغ إلى حقويه ، ومنهم من يبلغ شحمة أذنيه ، ومنهم من قد ألجمه العرق وكاد أن يغيب فيه .

قال الإمام الغزالى ، فى كتاب « كشف علوم الآخرة » : إن الخلائق إذا اجتمعوا فى صعيد واحد من الأولين والآخرين ؛ أمر الله تعالى بملائكة سماء الدنيا فأحدقت من وراء الخلائق حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم عشر مرات ؛ ثم أمر بملائكة السماء الثانية أن يحدقوا بهم ، فإذا هم مثلهم عشرين مرة ؛ ثم أمر بملائكة السماء الثالثة أن يحدقوا بهم ، فإذا هم مثل السماء الثانية ثلاثين مرة ؛ ثم أمر بملائكة السماء الرابعة أن يحدقوا بهم كذلك حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم أربعين مرة ؛ ثم أمر بملائكة السماء الخامسة . فإذا هم مثل ملائكة الرابعة خمسين مرة ؛ ثم بملائكة السماء السادسة ، فإذا هم مثل ملائكة السماء الخامسة ستين مرة ؛ ثم بملائكة السماء السابعة ، فإذا هم مثل السادسة سبعين مرة ، حلقة واحدة على جميع من تقدم من خلق السماوات والأرض ، وتزاحمت الخلائق فتدافعوا على بعضهم بعضا ، حتى يكون فوق القدم ألف قدم ، حتى يخوض الناس فى العرق .

وفى الحديث : « لو أرسلت السفن فى عرق الخلائق فى ذلك اليوم لجرت » . كما جاءت به الأخبار .

قال : وربما يكون العرق على بعض المتقين يسيرا كالقاعد فى الحمام ، وربما

يكون عليه بلة كالعطشان إذا شرب الماء . وكان بعض التابعين ، رضى الله عنه ، يقول : تدنو الشمس يوم القيامة من الخلائق حتى لو مد أحد يده لنالها ، ويضاعف حرها على قوم مقدار سبعين مرة من حرها الآن أيام الصيف . وكان بعض السلف الصالح ، يقول : لوطلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض . وذابت الجبال ، ونشفت الأنهار ، وصار الملوك فى الصغار والذل كالذر ، من دوسهم بأقدام الناس . قال وفى ذلك اليوم ؛ من كان من السعداء ومات له أولاد أطفال يخرجون له بكيزان من كيزان الجنة فيسقونه ماء باردا عذبا صافيا .

وقد رأى بعض الصالحين فى منامه : أن القيامة قد قامت ، وكأنه فى الموقف عطشان والصبيان الصغار يسقون الناس . قال: فقلت لهم: ناولونى شربة . فقال لى واحد منهم : ألك فينا ولد ؟ فقلت : لا . قال : ليس لك عندنا نصيب فى هذا الماء . قال : وأما أهل الصدقات فيكونون فى ذلك اليوم تحت ظل صدقاتهم ، لا يحسون بحر ذلك اليوم ، فلا يزالون كذلك ألف عام ، حتى إذا سمعوا نقر الناقور ، وجلت قلوب الخلائق ، وخشعت أبصارهم لعظيم نقرته ، وظنوا نزول العذاب بهم ، فبينما هم كذلك إذ برز لهم العرش العظيم تحمله ثمانية أملاك ، كما ذكر الله تعالى فى كتابه ، قدر كل ملك مسيرة عشرين ألف سنة ، ولهم زجل عظيم بالتسبيح لا تطيق العقول سماعه ، حتى يستقر العرش فى الأرض البيضاء التى خلقها الله تعالى ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، لاستقرار العرش فيها إذا جاء . وفى ذلك الوقت تطرق الناس رؤوسهم وتشفق البرايا كلهم من الأهوال ، وترعب أجساد الأنبياء ، ويكثر خوف العلماء العاملين ، وتفزع الأولياء والصديقون والشهداء والصالحون من عذاب الله ؛ فبينما هم كذلك إذ غشيهم نور حتى يغلب على نور الشمس التى كانوا فى حرها ،

فلا يزالون يموجون بعضهم فى بعض ألف عام . هذا والجليل جلاله لا ينظر إليهم ولا يكلمهم كلمة واحدة ، فحينئذ يذهبون إلى آدم عليه الصلاة والسلام ثم إلى نبى بعد نبى يشفع لهم ويعتذر كل واحد عن عدم تقدمه للشفاعة ، فلا يزالون كذلك ألف عام ، حتى ينتهى الأمر إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها ! أنا لها !

وكان عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، يقول : تزدحم الخلائق يوم القيامة كازدحام النشاب فى الجعبة ، والسعيد فى ذلك اليوم هو من يجد لقدمه موضعا يضعه عليه ، فإذا دعى الخلائق إلى الميزان كادت عقولهم تطير من الخوف ، فمن ثقلت موازينه نادى مناد : ألا إن فلان ابن فلان ثقلت موازينه ، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ؛ ومن خفت موازينه نادى مناد : ألا إن فلان ابن شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ، أى كسعادة من ثقلت موازينه ، فإن المسلمين والمؤمنين من سائر الأمم فى الجنان متفاوتون فى المراتب والمنازل ، وأما الكفار فلا تقام لهم موازين مطلقا .

وفى حديث مسلم مرفوعا : إن العرق يوم القيامة ليذهب فى الأرض سبعين باعا ، وإنه يبلغ إلى أفواه الناس » أى « حتى يلجمهم » . كما فى رواية أخرى .

وعن ابن عباس فى قوله تعالى : « يوم يقوم الناس لرب العالمين » قال : يقومون فى العرق فى ذلك اليوم ألف عام .

قال العلماء رضى الله عنهم : وإذا عرق الخلائق فى ذلك اليوم من شدة حر الشمس ، كان كل واحد غارقا فى عرقه لا يتعداه إلى من هو بجانبه ، كما لا يمشى أحد فى نور أحد يوم القيامة إنما نور كل إنسان على قدر نفسه . وهذا

من القدرة التى تكون فى زمن الآيات يوم القيامة . ونظير ذلك ما يقع فى الدنيا ، يكون المؤمن يمشى فى نور إيمانه ، والكافر بجانبه فى ظلمة كفره لا يناله من نور الإيمان شىء ، وكذلك البصير يمشى مع الأعمى ملاصقا له لا يناله من نور بصره شىء ، فافهم

فإن قيل : فمن أين يحصل ذلك العرق على كل من عرق فى ذلك اليوم ؟

والجواب : أنه يحصل عليه من عدم إخراجه فى دار الدنيا فى مرضاة الله عز وجل ، من جهاد ، وحج وصيام وقيام ، وتردد فى قضاء حوائج المسلمين ، وحفر الآبار والقبور لمصالح العباد ، ونحو ذلك ، فإذا كان يوم القيامة استخرجه الله منه فى مواقف القيامة ، بواسطة ما يقع له من الحياء والخجل ، أو من الخوف والوجل .

وكان الإمام الغزالى يقول : من سلم من الجهل والغرور ، علم أن تعب العرق وتحمل مصائب الدنيا أهون أمرا ، وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار يوم القيامة .

وروى الحافظ عبد الرحمن بن منده مرفوعا : « إن الله تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع : ياعبادى أنا الله لا إله إلا أنا ، أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين . ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، أحضروا حجتكم ويسروا جوابا ، فإنكم اليوم مسئولون محاسبون . ياملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

وروى مسلم مرفوعا : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » .

وروى البخاري مرفوعا : «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أومال فليتحلل منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم؛ إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فتحمل عليه» .

وروى مسلم مرفوعا : « أتدرون مـن المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع . قال : إن المفلس من أمتى : من يأتى يوم القيامة ، بصلاة وزكاة وصيام ؛ ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ؛ فيعطى هذا من حسناته ، وهـذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل انقضاء ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار ».

وفى الحديث : « يحشر الله العباد ــ وأومأ عليه السلام بيده إلى الشام ــ فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ومن قرب : أنا الملك الديان فلا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ؛ ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى اللطمة ، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، ولأحد من أهل الجنة عليه مظلمة حتى اللطمة ؛ فقالوا : يا رسول الله إنما نأتى الله حفاة عراة ، فقال : بالحسنات والسيئات » .

وكان الربيع بن خيثم ، رضى الله عنه يقول : إن أهل الدين يوم القيامة أشد تقاضيا له منكم فى الدنيا ، يحبس أحدكم لهم حتى يأخذوا منه حقوقهم ، فيقول المديون : يارب ألست ترانى عريانا حافيا ؟ فيقول تعالى : خذوا من حسناته بقدر الذى لكم ، فإن لم تكن له حسنات ، قال : زيدوا عليه من سيئاتكم .

وفى الحديث : « يقول الله ، عز وجل ، للملائكة : خذوا من أعمال المديون الصالحة ، وأعطوا لكل إنسان بقدر مظلمته ، فإن كان المديون وليا لله ، عز وجل ، وفضل من حسناته مثقال حبة من خردل ، ضاعفها الحق تعالى له ، حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن

تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما
الملائكة: يارب قد فنيت حسناته ، وبقى عليه مطالبون
الملائكة : خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيئاته ،
إلى النار » .

وفى الحديث أيضا : «إنه ليكون للوالدين على ولدهما دين ، فإذا كان يوم القيامة يتعلقان به ، فيقول : أنا ولدكما فيودان ويتمنيان لو كان أكثر من ذلك » .

وكان الإمام الغزالى ، رضى الله عنه ، يقول : كم من متعلق بأخيه يوم القيامة يقول : يارب قد ذكرنى فى غيبتى بما يسوءنى ! وكم من يقول : يارب قد جاورنى فأساء جوارى وآذانى بلسانه وآذى أولادى بشم رائحة طعامه ولم يطعمهم منه شيئا ! وكم ممن يتعلق بأخيه ، يقول : قدعاملتنى فغششتنى وأخفيت عنى عيب متاعك حين بعتنى ! وكم ممن يتعلق بأخيه ويقول : إنك رأيتنى فى اليوم الفلانى محتاجا ، وأنت غنى ، فلم تعطنى حاجتى ! وكم ممن يتعلق بأخيه يقول : يارب قد استحقرنى ورأى نفسه خيرا منى ! وكم ممن يقول لأخيه : قد رأيتنى مظلوما وكنت قادرا على رفع الظلم فلم تفعل ؟ فلا يزال المظلومون يتعلقون بمن ظلمهم من إخوانهم ، والظالم بين أيديهم ذليل خاضع من هول ذلك اليوم مبهوت متحير من كثرة أرباب الحقوق عليه ، محبوس عن دخول الجنة حتى يقتصفوا كلهم منه ، وهنالك ينادى المنادى : «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب » .

وقال القشيرى ، رحمه الله ، فى «شرحه للاسم المقسط الجامع» : إنه لو كان على العبد دانق وله عمل سبعين نبيا ، ما دخل الجنة حتى يؤدى ذلك الدانق ! وذكر أنه يعطى لصاحب الدانق فى دانقه يوم القيامة سبعمائة صلاة مقبولة فلا يرضيه ذلك .

وكان الإمام الغزالى ، رحمه الله ، يقول : لو تأمل العبد الصائم القائم فى عبادته طول الليل والنهار ، ورآها بعين الإنصاف دون عين الاغترار ، لوجد ثوابها كلها قد لا يرضى به واحد يوم القيامة ، فى مرور غيبته على خاطره ، إذا حكّمه الله تعالى فيه ، لا سيما الأعداء والحاسدون .

وكان ، رحمه الله تعالى ، يقول : ربما يأتى العبد القائم الصائم فى عبادته طول الليل والنهار ، العالم العامل ، يوم القيامة ، فلا يجد فى صحيفته حسنة واحدة ، فيقول : يارب أين ثواب أعمالى ؟ فيقال له : نقلت إلى صحائف خصمائك كل يوم بيومه ؛ وربما يأتى العبد يوم القيامة فيعطى صحيفته فيجدها كلها سيئات ، فيقول : يارب إنى لا أعلم أنى وقعت فى هذه السيئات ! فيقال له : هذه سيئات خصومك الذين وقعت فى أعراضهم واحتقرتهم ، ورأيت نفسك أفضل منهم وظلمتهم فى المعاملة والمبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة ، وسائر أصناف المعاملات .

فإن قيل : كيف توضع سيئات العبد على ظهر من لم يعملها ، وقد قال تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

فالجواب : إن الله تعالى هو صاحب الأحكام الشرعية ، فله أن يضعها حيث شاء ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » فإياك والاعتراض على شىء من أحكام الله التى حكم بها .

وجاء فى الصحيح : « إن الله تعالى يصلح بين عباده فى الآخرة ، ويرضى عنهم خصماءهم » كما ورد أن الله تعالى يقول ، لمن شدد فى استقصاء حقه ، ولم يبق للظالم حسنة : « ارفع بصرك وانظر ، فينظر ، فإذا قصر من ذهب وبساتين ، فيقول : يارب لمن هذا ؟ فيقول الحق ، جلّ وعلا : لمن أعطى ثمنه ! فيقول :

ومن يقدر على ذلك ؟ فيقول له الحق تعالى : أنت اقال: يقول : بماذا ؟ فيقول : بعفوك عن أخيك . قال : يارب فإنى قد عفوت عنه ! فيقول : خذ بيد أخيك وأدخله الجنة » .

قال العلماء ، رضى الله عنهم : ويجب حمل هذا على من لم يرد الله أن يعذبه وأراد أن يعفو عنه ، ويرضى عنه خصماءه ؛ جمعا بين الأحاديث ، والله أعلم .

وروى الترمذى مرفوعا : « أول مايسأل عنه العبد يوم القيامة : أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد » ؟

وروى أبو نعيم مرفوعا : « ما من عبد خطا خطوة إلا يسأل عنها يوم القيامة » .

وفى حديث مسلم مرفوعا : « لا يزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره ، فيم أفناه ؟ وعن جسده ، فيم أبلاه ؟ وعن عمله ، ما عمل به ؟ وعن ماله ، من أين اكتسبه ؟ زاد فى رواية : وفيم أنفقه ؟ » .

وروى عن عمر ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا كان يوم القيامة يأتى الله بعبد من عبيده فيوقفه بين يديه ويسأله عن جاهه كما يسأله عن علمه وعمله » .

وفى حديث مسلم مرفوعا : يدنى الله تعالى المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ، أى ستره وكرمه وملاطفته ، فيقرره بذنوبه ؛ فيقول : أتعرف ذنب كذا فى يوم كذا ؟ فيقول : أعرف . فيقول الله عز وجل : أنا سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسناته . وأما الكافر والمنافق فينادى عليهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » .

وكان على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، يقول : إذا كان يوم القيامة يختلى الله عزّ وجلّ ، بعبده المؤمن فيوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ثم يغفر له ، لا يطلع على ذلك ملكا مقرباً ، ولا نبيا مرسلا ، ويستر عليه من ذنوبه مايكره أن يوقف عليه ، ثم يقول لسيئاته : كونى حسنات » . ويقول على ، رضى الله عنه : سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى مسلم ، عن عبد الله بن مسعود ، مرفوعا : « ماستر الله على عبدٍ ذنوباً فى الدنيا إلا سترها عليه فى الآخرة » . وفيه عنه أيضا ، مرفوعا : « من ستر على مسلم عورته فى الدنيا ، ستر الله عورته يوم القيامة » .

وروى خيثمة بن سليمان فى مسنده ، عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال نواة دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال نواة دخل النار . فقيل : يارسول الله ، فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » .

وكان ابن مسعود ، رضى الله عنه يقول : يحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم يقرأ : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » . ثم يقول : إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح . قال : ومن استوت حسناته وسيئاته فأولئك أصحاب الأعراف .

وفى التنزيل : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً » (الآية) . وقال تعالى : « فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » .

وقال العلماء ، رضى الله عنهم : وإنما توزن الأعمال إذا انقضى الحساب ؛ لأن الوزن للجزاء ؛ فلذلك كان بعد المحاسبة ، لأن المحاسبة لتقدير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها . وقد انعقد إجماع أهل السنة على أن وزن الأعمال حق ، وأوجبوا الإيمان بذلك ؛ خلافا للمعتزلة حيث أنكروا ذلك محتجين بأن الأعمال أعراض ، والأعراض يستحيل وزنها عندهم ، إذ لاتقوم بأنفسها ، ولو تأملوا فى الآيات والأخبار لجزموا بأن الميزان حق ، ووزن الأعمال حق .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : توزن الحسنات والسيئات فى ميزان له كفتان ولسان .

وفى الحديث : « إن كفة الحسنات تكون من نور ، وكفة السيئات تكون من ظلام » .

وأخرج الحكيم الترمذى فى « نوادر الأصول » : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الجنة توضع عن يمين العرش ، والنار عن يسار العرش ، وكفة الحسنات عن يمين العرش ، وكفة السيئات عن يسار العرش ، فتكون الجنة مقابلة الحسنات ، والنار مقابلة السيئات » .

وذكر الإمام القشيرى فى « تفسيره » : أنه إذا خفت حسنات المؤمن يوم القيامة ، يخرج له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بطاقة كالأنملة فيلقيها فى كفة الميزان اليمنى التى فيها حسناته فترجح الحسنات ، فيقول ذلك العبد المؤمن للنبى ، صلى الله عليه وسلم : بأبى أنت وأمى ما أحسن وجهك ! وما أحسن خلقك ! فمن أنت ؟ فيقول : أنا نبيك محمد ، وهذه صلاتك التى كنت تصليها على ، قد وفيتك إياها أحوج ما تكون إليها .

وفى الحديث : « أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قضى لأخيه المؤمن حاجة كنت عند ميزانه ، فإن رجح ، وإلا شفعت فيه » .

وفى حديث الحسن بن على ، رضى الله عنهما ، : « قال لى جدى ، صلى الله عليه وسلم : يابنى ، عليك بالقناعة تكن من أغنى الناس ؛ وأدِّ الفرائض تكن من أعبد الناس ، يا بُنى إن فى الجنة شجرة ، يقال لها : شجرة البلوى يؤتى بأهل البلايا فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، فيصب عليهم الأجر صبًّا . وقرأ صلى الله عليه وسلم : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ذكره ابن الجوزى .

وكان حذيفة ، رضى الله عنه ، يقول : صاحب الميزان الموكل به يوم القيامة ، هو جبريل عليه السلام ، فمن رجح ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق كلهم : ألا إن فلانا سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، وإن خفت نادى : ألا إن فلانا شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا .

وفى حديث معاذ مرفوعا : « إن المؤمن لا تسكن روعته ، ولا يأمن اضطرابه ، حتى يخلف الجسر وراء ظهره » أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » .

فصل

عبور الصراط وأهواله :

ومن أعظم أهوال يوم القيامة هول العبور على الصراط ، إذ هو حق ، ومما يجب اعتقاده ، كما فى الحديث ، وهو قنطرة على متن جهنم .

قال عز من قائل : « وإن منكم إلا واردها » . وورودها المرور على الصراط ، كما رجحه النووى ، وتشهد له أحاديث .

أخرج الإمام أحمد والترمذى والحاكم ، وصححه ، والبيهقى ، عن ابن مسعود فى قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « يرد الناس كلهم النار ، ثم يصدون عنها بأعمالهم ، فأولهم كلمح البرق ، ثم كالريح ، ثم كجرى الفرس ، ثم كالراكب فى رحله ، ثم كشد الرجل ثم كمشيه » .

وأخرج الإمام أحمد أيضا ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « لجهنم جسر أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، عليه كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله ، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم سلم ! فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ! ومكور فى النار على وجهه » .

وأخرج ابن ماجه ، عن أبى سعيد : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : « يوضع الصراط بين ظهرانى جهنم ، عليه حسك كحسك السعدان ، ثم يستجيز الناس ، فناج مسلم ، ومخدوش به ، ثم ناج ومحتبس به ، ومنكوس فيها » .

وأخرج الطبرانى والبيهقى ، بسند صحيح ، عن ابن مسعود ، قال : يوضع الصراط على سواء جهنم ، مثل حد السيف المرهف ، مدحضة مزلة ، عليه كلاليب من نار تخطف أهلها ، فتمسك بهواديها ؛ ويستبقون عليه بأعمالهم ، فمنهم من شده كالبرق ، فذلك الذى لا ينشب أن ينجو ، ومنهم من شده كالريح ، ومنهم من شده كالفرس الجواد ، ومنهم من شده كالهرولة ، ثم كرمل الرجل ، ثم كمشى الرجل ؛ وآخر من يدخل الجنة رجل قد لوحته النار ، فيقول الله له : سل وتمن . فيقول : يارب أتسخر بى ، وأنت رب العالمين ؟ فيقول : لا أسخر منك ، ولكنى على ما أشاء قدير ، فسل وتمن . فإذا فرغ ، قال : لك ما سألت ومثله معه » .

وأخرج البيهقى ، عن أنس ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « على جهنم جسر مجسور أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، أعلاه نحو الجنة ،

دحض مزلة ، بجنبتيه كلاليب وحسك؛ النار يحبس الله بها من يشاء من عباده ؛ الزالون والزالات يومئذ كثير ؛ والملائكة بجانبيه قيام ينادون : اللهم سلم سلم ، فمن جاء بحق جاز ؛ ويعطون النور يومئذ على قدر إيمانهم وأعمالهم : فمنهم من يمضي عليه كمر الفرس السابقة ، ومنهم من يشد عليه شدا ، ومنهم من يهرول ، ومنهم من يعطى نوره إلى موضع قدميه ، ومنهم من يحبو حبوا ، وتأخذ النار منهم بذنوب أصابوها » .

وأخرج ابن شاهين في « السنة » بسند ضعيف ، عن أبي أمامة : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من الله ، فإني لا أملك لكم من الله شيئا . قالت عائشة : يارسول الله ويكون يوم لا تغني عنا من الله شيئاً ؟ قال : نعم ، في ثلاثة مواطن : عند الميزان ؛ وعند النور والظلمة ، من شاء أتم نوره ومن شاء تركه في ظلمة ؛ وعند الصراط ، من شاء سلمه وأجازه إياه ، ومن شاء كبكبه في النار . قالت عائشة : يا رسول الله ، قد علمنا الموازين ، وقد علمنا النور والظلمة ، فما الصراط ؟ قال : طريق بين الجنة والنار ، وهو مثل حد الموسى ، والملائكة حافون يميناً وشمالا ، يخطفونهم بالكلاليب مثل شوك السعدان ، وهم يقولون : رب سلم سلم ، وأفئدتهم هواء ، من شاء سلمه ، ومن شاء كبكبه » .

وأخرج ابن عساكر ، عن الفضيل بن عياض قال : بلغنا أن الصراط مسيرة خمس عشرة آلاف سنة ، خمسة آلاف صعود ، وخمسة آلاف هبوط ، وخمسة آلاف مستوى ؛ أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، على متن جهنم ، لا يجوز عليه إلا ضامر مهزول من خشية الله .

وأخرج الإمام مسلم ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يقول الله عز وجل ، إذا جمع الناس يوم القيامة : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ،

ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، ومن كان يعبد المسيح الشيطان المسيح ؛ وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ؛ فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم فى صورته التى يعرفون . فيقول : أنا ربكم . فيقولون : أنت ربنا فيتبعمونه ، ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم ؛ فأكون أنا وأمتى أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلم . وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان . هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بعمله ، ومنهم المجازى حتى ينجو ، حتى إذا فرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار ، من كان لا يشرك بالله شيئا ، ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ، ممن يقول : لا إله إلا الله . فيعرفونه فى النار بأثر السجود ، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماءُ الحياة فينبتون منه كما تنبت الحبة فى حميل السيل » . (الحديث) .

وقال الإمام الغزالى ، فى كتاب « كشف علوم الآخرة » : إنه إذا لم يبق فى الموقف إلا المؤمنون والمسلمون ، والمحسنون والعارفون والصديقون ، والشهداء والصالحون والمرسلون ، ليس فيهم مرتاب ولا منافق ولا زنديق ، فيقول الله تعالى : ياأهل الموقف . من ربكم ؟ فيقولون : الله . فيقول : تعرفونه؟ فيقولون : نعم . فيتجلى لهم ملك عن يسار العرش ، لو جعلت البحار السبعة فى نقرة إبهامه لما ظهرت ، فيقول لهم : أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله

منك ، فيتجلى لهم ملك آخر عن يمين العرش ، لو جعلت البحار الأربعة عشر في نقرة إبهامه لما ظهرت ، فيقول لهم : أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيتجلى لهم الرب سبحانه وتعالى ، في الصورة التي كانوا يعرفونه فيها ، وهي صورة اعتقادهم في الحق ، في دار الدنيا ، يتصور لهم كما قاله بعض المحققين : لا حقيقة الذات المقدس عن الجهات والأقطار ؛ فيسجدون له جميعهم ، فيقول تعالى : أهلا بكم ، ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة فيتبعونه ، فيمر بهم على الصراط أفواجا أفواجا : المرسلون ، ثم النبيون ، ثم الصديقون ، ثم المحسنون ، ثم الشهداء ، ثم المؤمنون العارفون ؛ ويبقى المسلمون : فمنهم المكبوب على وجهه ، ومنهم المحبوس في الأعراف ، ومنهم قوم قصروا عن تمام الإيمان ؛ فمنهم من يجوز على الصراط في مقدار مائة عام ، ومنهم يجوزه في مقدار ألف عام ، ومع ذلك كله لم تحرق النار من رأى ربه عيانا ، لا يضام في رؤيته ، أي لا يشك فيها .

وفي الحديث الصحيح : «أنه يحبس على الصراط كل من تكلم في عرض أخيه بما لا يعلم ، ويقال له : اثبت هنا ما قلته في حق أخيك ، فإن لم يثبته تزل قدمه في النار» . فمثل نفسك يا أخي وأنت على الصراط ، وجهنم من تحتك سوداء مظلمة ، وشرر سعيرها يتطاير على المارين على الصراط ، أو على من يمشي تارة ويزحف أخرى ، والناس يتهافتون وترتعد فرائصهم ويقعون أمثال الذر ، ولا تكاد ترى ماشيا ولا زاحفا إلا قليلا ؛ هذا وقد عظمت الأهوال واشتدت الأحوال ، والعصاة يتساقطون عن اليمين وعن الشمال ، والزبانية يتلقونهم بالسلاسل والأغلال ، وتناديهم الملائكة : أما نُهيتم عن كسب الأوزار ؟ أما خوفكم نبيكم من عذاب النار ؟ أما أنذركم كل الإنذار ؟ أما جاءكم النبي المختار ؟ ففكر يا أخي فيما يحل بك من الفزع إذا رأيت الصراط ودقته ، وهو منصوب على جهنم ، وهي سوداء مظلمة وشررها يتطاير

على العباد ، ولها زفير وشهيق ، وغيظ على كل من عصى الله ، عز وجل ، ولو مرة فى عمره ، ومات ولم يقبل الله له توبة ؛ هذا وأوزارك على ظهرك قد أثقلتك وعجزت أن تمشى بها على الأرض ، فكيف تقدر أن تمشى بها على الصراط مع تزلزله وارتعاده بأهله حتى تكاد مفاصلهم تنحل من بعضها فمن له ركب تحمله هناك ، وكيف بك يا أخى إذا وضعت إحدى قدميك على الصراط فارتعد بك . وأنت واقف على رجل واحدة لا تقدر أن تضع الأخرى من شدة دقته وانتفاضه بأهله ، والخلائق يتساقطون فى النار كالذر ؟ ومنهم من يزل فتمسكه الخطاطيف وتأكل جوانبه النار فلا يزال كذلك مقدار سنين عديدة ، حتى تدركه الشفاعة ، ويتذكره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ فالعاقل من أكثر الصلاة والتسليم عليه فى دار الدنيا ، وجعل له وردا فى كل يوم وليلة ، فى الصلاة على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلعله ، صلى الله عليه وسلم يتذكره فيدركه فى تلك الشدائد ، ووالله لو أن الشخص جعل على نفسه فى اليوم والليلة مائة ألف صلاة ، لتخفيف هول ذلك اليوم كان ذلك قليلا فى مقابلة شفاعته ، صلى الله عليه وسلم ، فيمن أخذته كلاليب الصراط .

وكان أبو الفرج بن الجوزى ، رحمه الله تعالى ، يقول فى مجلس وعظه : كيف بكم أيها الإخوان إذا أخذتكم خطاطيف الصراط وكلاليبه ، وجعلتكم معلقين منكسين الرءوس ، أرجلكم للصراط ووجوهكم للنار ؟ فياله من حال ما أشده ! ومن طريق ما أصعبه ! ومن منظر ما أفظعه ! وما أهوله ! فأكثروا من الاستغفار بقية أعماركم ، فلعل الله تعالى يقبل استغفاركم ، فيخفف عنكم تلك الشدائد والأهوال . اهـ

هذا وأخرج الطبرانى وابن حبان والخرائطى فى « مكارم الأخلاق » عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان وصلة لأخيه المسلم

إلى ذى سلطان فى مبلغ بر أو تيسير عسير ، أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام » .

وأخرج الأصفهانى عن ابن عمر : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : «من مشى مع أخيه فى حاجة حتّى يقضيها ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام » .

وأخرج سعيد بن منصور والطبرانى ، والبزار وحسَّنه ، عن أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « المساجِدُ بُيُوتُ المتقينَ ، وَقد ضَمِنَ اللهُ لِمَنْ كانَتْ المساجِدُ بيُوتَهُمْ بِالرَّوح والرَّاحةِ ، والجواز على الصراط إلى رضوان الله » .

وأخرج أبو نعيم عن وهب ، قال : قال داوود : يارب من أسرَع مرّاً على الصراط ؟ قال . الذين يرضون بحكمى ، وألسنتهم رطبة من ذكرى .

وأخرج الطبرانى ، عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ بينَ أيدينا عقبة كئوداً لا يصعدها إلاّ المخفونَ ، فقال رجل : يارسول الله . أمن المخفين أنا أم من المثقلين ؟ قال : عندكم طعام يوم ؟ قال : نعم. وطعام غد؟ قال : نعم وطعام بعد غد ؟ قال : لا . قال : لو كان عندكم طعامُ ثلاث كنت من المثقلين » .

وأخرج ابن المبارك وابن أبى الدنيا ، عن سعيد بن أبى هلال ، قال : بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر ، وعلى بعض مثل الوادى الواسع ، بحسب كثرة أعمالهم الصالحة .

وكان عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه يقول : تجوزون على الصراط بعفو الله ، وتدخلون الجنة برحمة الله ، وتقتسمون المنازل بأعمالكم .

وفى الحديث: « إذا عصف الصراط بأمتى، نادوا : وامحمداهُ اوامحمداه! فأبادرُ من شدّةِ إشفاقى عليهم ، وجبريل آخِذُ بحجزتى ،فأنادى رافعاصوتى : رب ـ

أمتى ! أمتى لا أسألك اليوم نفسى ولا فاطمة ابنتى ! والملائكة عن يمين الصراط ويساره ينادون : رب سلم ! سلم ! » .

وروى الترمذى ، عن أنس قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يشفع لى يوم القيامة قال : أنا فاعل إن شاء الله تعالى . قلت : فأين أطلبك؟ قال : أولُ ما تطلُبنى على الصراط . قلتُ : فإذا لم ألقك هناك ؟ قال : فاطلبنى عند الميزان . قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : فأطلبنى عنْد الحوض فإنى لا أخطىءُ هذه الثلاثَ مَوَاطِنَ » .

وروى الترمذى فى « نوادر الأصول » عن عبدالرحمن بن سَمُرَة ، رضى الله عنه ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم ، ونحن فى مسجد المدينة قال : إنى رأيت البارحة عجباً ! رأيتُ رجلا من أمتى ، جاءهُ مَلكٌ ليقبضَ رُوحَهُ فجَاءه بره بوالديه فردَّه عنهُ . ورأيتُ رجلا من أمتى قدْ بسط عليه عذاب القبر فجاءهُ وُضوءُهُ فاستنقذَهُ من ذلك ، ورأيتُ رجلا من أمتى ، قد احتوشتهُ الشياطين فجاءَه ذِكر الله فخلصه من بينهم ، وفى رواية من أيديهمْ ، ورأيت رجلا من أمتى يلهثُ عطشاً ، كلما وردَ حوضاً مُنع منه فجاءَهُ صيامُهُ فسقاهُ وأرواهُ ، ورأيتُ رجلا من أمتى ، قد احتوشتهُ ملائكة العذاب فجاءته صلاته فخلصته من أيديهم ؛ ورأيت رجلا من أمتى ، والنبيون حلقاً حلقاً كلما دنا من حلقة طردوه ؛ فجاءه اغتساله من الجنابة فأجلسه إلى جنبى ؛ ورأيت رجلا من أمتى ، بين يديه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن شماله ظلمة ، فبينما هو متحير فيها إذ جاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور ؛ ورأيت رجلا من أمتى ، يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم ، فقالت : يا معشر المؤمنين ، كلموه فكلموه ؛ ورأيت رجلا من أمتى ، يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت ستراً على وجهه ، وظلا على رأسه ؛ ورأيت رجلا من أمتى ، قد أخذته

الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ؛ ورأيت رجلا من أمتى ، جاثياً على ركبتيه، بينه وبين ربه حجاب ، فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده وأدخله على ربه ؛ ورأيت رجلا من أمتى ، قد خف ميزانه فجاءه إفراطه فثقلت ميزانه ؛ ورأيت رجلا من أمتى ، قائماً على شفير جهنم فجاءه خوفه من الله ، فاستنقذه من ذلك ومضى ؛ ورأيت رجلا من أمتى ، قد هوى للنار فجاءته دموعه التى كان يبكيها من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار ؛ ورأيت رجلا من أمتى ، قائماً على الصراط، يزحف أحياناً ، ويحبو أحياناً ، ويتعلق أحياناً ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » .

وفى الحديث : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل من أمتى على الصراط يمشى تارة ، ويعثر تارة ، ويزحف تارة ، إذ جاءته صلاته على فأخذت بيده حتى جوزته على الصراط » وفى رواية أخرى : « بينما رجل من أمتى عند الميزان ، قد خفت ميزانه ، إذ جاءته بطاقة من الله عز وجل ، ففتحها فإذا فيها صلاته علىّ فثقلت بها ميزانه ودخل الجنة » .

تنبيه :

اعلم رحمك الله أن فى الآخرة صراطين : أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب ، أو يلتقطه عنق النار الذى يخرج منها ، فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر الذى ذكرناه ، ولا يخلص منه إلا المؤمنون ، الذين علم الله تعالى منهم ، أن القصاص لا يستنفد حسناتهم حبسوا على صراط آخر خاص بهم، ولا يرجع إلى النار أحد من هؤلاء إن شاء الله ، لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على ظهر جهنم ، الذى يسقط فيه من أوبقه ذنبه ، وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه .

وروى البخارى : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا ، أذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى فى الجنة بمنزله كان فى دار الدنيا » .

قال القرطبى : ومعنى يخلص المؤمنون من النار أنهم يخلصون من الصراط المضروب على النار ، فإذا أرادوا دخول الجنة تلقاهم رضوان وأصحابه ، وقالوا لهم : « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

نسأل الله تعالى أن يلطف بنا فى تلك الشدائد ، ويجرينا على المألوف منه من جميل العوائد ، ويشفع فينا خيارنا ، ويعتق من النار رقابنا ، فإنه الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم .

وقول الناظم : «واعن»: أمر من العناية وهى الاهتمام والاعتناء . «والذكر»: المراد به فى كلام الناظم : حضور الشىء القلب ، لأن الذكر يراد به تارة ذكر اللسان ، وتارة ذكر القلب ، وهو المراد هنا ويقابله النسيان . « والموت » : ضد الحياة . والفكرة (بكسر الفاء) : التفكر والتأمل . « والهول » : الفزع والخوف . والهول : المخافة من الأمر ، وجمعه أهوال . والمراد به فى النظم ما يتبع الموت من الأمور العظام . « ويقتفى » : مضارع اقتفى بمعنى تبع .

القول فى الإكثار من الحمد والدعاء

ثم قال :

[وَادْأَبْ دُءُوبَ مَنْ رأى كلَّ نفَس خاتِمةً ، وازداد جداً واحترَسْ]
[وأكثر الدعاء باضطرارِ لربِّنا فى الجهرِ والإسرارِ]
[فهـو المجيبُ دعوَةَ المُضطَّر والمتفَضِّلْ عـلى المُعْتَرِّ]

وهذا تحريض من الناظم ، رحمه الله ، على الجد والاجتهاد فى الأعمال الصالحة ، والمساعى الناجحة ، وارشاد منه إلى الاعتماد على المولى ، والالتجأ إليه فى السر والنجوى .

والمعنى : جد أيها العاقل واجتهد فيما يقربك إلى الله فى كل أحوالك ، وتحقق بالانحياش إليه ومراقبته فى جميع أعمالك ، وليكن اجتهادك فيما يرضى الله ويقربك إليه ، كاجتهاد من يشاهد فى كل نفس نزول عرض الموت عليه ، فازداد بسبب مشاهدته المذكورة جدا واجتهادا ، فى ارتكاب مايوجب فى الأخرى سروره ، وتحفظ عما يضره ويعاقب عليه هنالك ، فيا سعادته حيث سلك فى تلك المسالك ! وأكثر الدعاء لربك سرا وجهرا ، باضطرار وتملق بين يديه ، فى نيل نعيم الأخرى ، وأن يمن عليك بالختم بالحسنى ، الذى هو الغاية القصوى ، والغرض الأسمى ، فهو سبحانه المجيب دعوة من اضطر إليه ، والمتفضل على من تردد على بابه واعتمد عليه .

قال تعالى ، وهو أصدق القائلين : « ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » . وقال « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . وقال : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » . وقد دعت الأكابر من الأنبياء ربهم ، سبحانه وتعالى ، ولم ينظروا إلى السوابق ؛ فبهداهم اقتده .

وأخرج الشيخان والترمذى وابن ماجه « واللفظ لمسلم » مرفوعا : « إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا دعانى » .

وروى أبو داود : مرفوعا ، والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وصححه ، واللفظ للترمذى ، وقال : حسن صحيح : « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ قوله تعالى : « وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » أى صاغرين .

وروى الترمذى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وصححه ، مرفوعا : « ليس شىء ، أكرم على الله من الدعاء » .

وروى الترمذى وابن أبى الدنيا ، مرفوعا « اسألوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل » .

وروى الترمذى أيضاً وأبو داوود وابن ماجة وغيرهم ، عن سلمان ، مرفوعا: « إن الله حيى كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين » .

وروى الحاكم عن أنس ، مرفوعا : « إن الله رحيم كريم يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيهما خيراً » .

وروى أبو يعلى عن جابر ، مرفوعا : « ألا أدلكم على ما ينجيكم من عدوكم ويدر أرزاقكم ؟ تدعون الله فى ليلكم ونهاركم فإن الدعاء سلاح المؤمن » .

وروى الترمذى والحاكم عن أبى هريرة ، مرفوعا : « من أراد أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء فى الرخاء » .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، مرفوعا : « ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل ؛ فى مسألة إلا أعطاه إياها ، إما أن يعجلها ، وإما أن يدخرها له » .

وروى الترمذى والحاكم ، واللفظ له ، عن عبادة بن الصامت ، مرفوعا : « ما على الأرض من مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، فقال رجل من القوم : إذن نكثر ؟ قال : الله أكثر » . أى إجابة .

وروى الحاكم أيضا عن جابر ، مرفوعا : « يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه ، فيقول : عبدى . إنى أمرتك أن تدعونى ووعدتك أن أستجيب لك ، فهل كنت تدعونى ؟ فيقول : نعم يارب فيقول : أما إنك لم

تدعنى بدعوة إلا استجبت لك . أليس دعوتنى يوم كذا وكذا ، لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟ فيقول : نعم يارب، فيقول : إنى عجلتها لك فى الدنيا . ودعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك ، فلم تر فرجا . قال : نعم يارب . فيقول : إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا يدعُ الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له : إما أن يكون عجل له فى الدنيا ، وإما أن يكون ادخره له فى الآخرة . قال: فيقول المؤمن فى ذلك المقام : ياليته لم يكن عجل له شىء من دعائه » .

وروى الترمذى ، وقال : حسن غريب ، عن أنس ، مرفوعا : قال الله عز وجل : يابن آدم إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك، على ما كان منك ولا أبالى يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى : يابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة !» وقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده . إن العبد ليدعو الله وهو عليه غضبان ، فيعرض عنه ثم يدعوه ، فيقول للملائكة : أبى عبدى أن يدعو غيرى وقد استحييت منه يدعونى وأعرض عنه ! أشهدكم أنى قد استجبت له » .

لكن لإجابة الدعاء شروط كما أن للدعاء آدابا .

أما شروط الإجابة : فمنها حفظ الفرج من الزنا ، ومنها حفظ اللسان من النطق بالخنا ، وفى الحديث القدسى : « أدعونى بلسان لم تعصونى به » .

ومنها حفظ البطن من أكل الحرام ، وفى الحديث : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وان الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » . وقال : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات

ما رزقناكم ، ثم ذكر صلى الله عليه وسلم : الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب! ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب له ؟ ، رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة .

وعن سعد بن أبي وقاص ، أنه سأل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن يجعل الله دعوته مستجابة . فقال له : طيب مطعمك يستجب لك ، قال : ففعلت ذلك فوجدته كما قال .

ومنها حياة القلب . قيل لإبراهيم بن أدهم ، رضي الله عنه : ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ فقال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء :

الأول : عرفتم الله فلم تؤدوا حقه .

الثاني : زعمتم أنكم تحبون رسول الله وتركتم سنته .

الثالث : قرأتم القرآن فلم تعملوا به .

الرابع : أكلتم نعم الله ولم تؤدوا شكرها .

الخامس : قلتم : إن الشيطان عدو لكم ووافقتموه .

السادس : قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها .

السابع : قلتم : إن النار حق ولم تهربوا منها .

الثامن : قلتم : إن الموت حق ولم تستعدوا له .

التاسع : انتبهتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس فنسيتم عيوبكم .

العاشر : دفنتم موتاكم فلم تعتبروا بهم .

ومنها اجتناب المعاصي جملة . فقد قال سيدنا علي كرم الله وجهه : العجب ممن يدعو ويستبطىء الإجابة وقد سد طرقها بالمعاصي !

وأما آداب الدعاء فهي كثيرة :

قال الحافظ ابن الجزري : وآكدها تجنب الحرام مأكلا ومشربا وملبسا، والإخلاص لله وتقديم عمل صالح ، والوضوء واستقبال االقبلة ، والصلاة والجثو على الركب ، والثناء على الله تعالى ، والصلاة على نبيه أولا وآخراً ، وبسط يديه ورفعها حول منكبيه وكشفهما ، مع التأدب والخشوع والمسكنة والخضوع ، وأن يسأل الله بأسمائه الحسنى ، والأدعية المأثورة ، ويتوسل إلى الله بأنبيائه والصالحين بخفض صوت واعتراف بالذنب ، ويبدأ بنفسه ولا يخص نفسه إن كان إماما ، ويسأل بعزم ورغبة وجد واجتهاد ، ويحضر قلبه ، ويحسن رجاءه ، ويكرر الدعاء ويلح فيه ولا يدعو بإثم ولا قطيعة ، ولا بأمر قد فرغ منه ولا بمستحيل ولا بتحجير ،ويسأل حاجته كلها ، ويؤمن الداعى والمستمع ، ويمسح وجهه بيديه ، ولا يستعجل فيقول : دعوت فلم يستجب لى . (باختصار ، بحذف رموزه)

وهذه الآداب منها ما يبلغ أن يكون ركنا ، وأن يكون شرطا ، وأن يكون غير ذلك ، من مأمور ومنهى وغيرهما .

قال فى تهذيب الأذكار : ومعنى إخلاص الدعاء لله أن يخلص السؤال عما يشوبه من الحظوظ ، وإفراده فى القصد ، والقطع بأنه المعطى لا غيره . اهـ

ثم الإخلاص شرط لكل عمل ، وفرض على كل مؤمن ، أن يقصد بعمله وجه الله الكريم . قال تعالى : « فادعوه مخلصين له الدين » . وقال تعالى : « وما أمروا إلى ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، والنصوص الدالة على هذا متظافرة .

وأما الوضوء قبل الدعاء ، ففى البخارى « باب الوضوء عند الدعاء » ؛ ثم ذكر حديث أبى موسى الأشعرى لما أصيب أبو عامر الأشعرى فى أوطاس . قال لأبى موسى : أقرئ النبى صلى الله عليه وسلم ، السلام ، وقل له يستغفر لى . قال أبو موسى : فلما أخبرته ، صلى الله عليه سلم ، دعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه » (الحديث) .

وأما استقبال القبلة . فقد وردت فيه أحاديث صحيحة من فعله ، صلى الله عليه وسلم .

وأما الصلاة ، فيحتمل أن المراد تقديم الصلاة على الدعاء ، فيكون أخص بعد أعم بالنسبة لقوله : تقديم عمل صالح ، ويحتمل أن المراد إيقاع الدعاء فى نفس الصلاة وهو الظاهر . ويؤيده حديث : « أقربُ مايكون العبد من ربِّه وَهو ساجدٌ فأكثرُوا فيه الدُّعاءَ » . وفى رواية : « فاجتهدوا فيه » « فَقَمِنٌ أنْ يستجاب لكم » .

وأما الجثو على الركب ؛ فقد روى أبو عوانه والبغوى والطبرانى فى « الأوسط » عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : قال : شكا قوم إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم قحط المطر ، فقال : « اجثوا على الركب ، وقولوا : يارب يارب » ، ورفع السبابة إلى السماء ، ففعلوا فسقوا ، حتى أحبوا أنْ يكشفَ عنهمْ » .

وأما الثناء على الله ، والصلاة على نبيه أولا وآخرا ؛ فقد قال تعالى ، فى وصف دعاء الأنبياء عليهم السلام : « ربنا إنكَ تعلم مانخفى ومَا نعلنُ » إلى قوله : « يوم يقومُ الحسابُ » . « الذى خلقنى فهو يهدين والذى هُوَ يطعمنى ويسقين ، وإذا مَرِضْتُ فهوَ يشفين » إلى « بقلبٍ سليم » « رب قد آتيتنى

من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث » إلى « الصالحين » إلى غير ذلك « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

روى الإمام أحمد ، والحاكم وصححه ، عن سلمة بن الأكوع ، قال : « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستفتح دعاء إلا استفتحه بسبحان ربى الأعلى الوهاب » وفى حديث الترمذى وأبى داوود ، عن فضالة بن عبيد مرفوعا : « إذا صلى أحدكم » أى دعا . فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يدعو بما يشاء » . وقال عليه السلام لسلمان : « إذا دعوت الله فقدم بين يديك ثناء ، فقال : وكيف ؟ فقال : تقرأ الفاتحة ثلاث مرات » .

وعن أبى سليمان الدارانى : إذا سألت الله حاجة فابدأ بالصلاة على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ثم ادع بما شئت ، ثم اختم بالصلاة ، فإن الله سبحانه ، بكرمه يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما .

ومن الختم بالثناء : « وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » . « وأدخلنا فى رحمتك وأنتَ أرحمُ الراحمين . « رب اغفر وارحم وأنت خيرُ الراحمين » .

وأما بسط اليدين ؛ فقد رواه الترمذى وغيره . قال العلقمى : وكيفية ذلك أن يجعل بطن الكف إلى الوجه ، وظهره إلى الأرض ، هذا هو السنة . نعم إن اشتد أمر كرفع بلاء أو قحط أو غلاء أو نحو ذلك ، جعل ظهورهما إلى السماء وهو المراد بقوله : « يدعوننا رغباً ورهباً » . قال العلماء : الرغب بسط الأيدى وظهورها إلى الأرض ، والرهب بسطها وظهورها إلى السماء . اهـ

وعن ابن عباس : كان عليه السلام إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما على وجهه » . ذكره فى « الإحياء » . وعلى هذا جرى عمل المغاربة ، وأما المشارقة فعلى التفريج .

قال بعض الحنفية : والأفضل : إن بسطهما وبينهما فرجة وإن قلت .

وأما رفعهما حذو المنكبين ؛ فقد رواه البخارى وغيره ، وقد ثبت رفعهما فى مائة حديث ، أفردها السيوطى بجزء .

وفى حديث سلمان ، مرفوعا : « مارفع قوم أكفهم إلى الله يسألونه شيئا ، إلا كان حقا على الله أن يضع فى أيديهم الذى يسألونه » . رواه الطبرانى .

هذا وفى « جامع العتبية » قال مالك : رأيت عامر بن عبد الله بن الزبير يرفع يديه ، وهو جالس بعد الصلاة يدعو : فقيل له : أترى بذلك بأسا ؟ قال : لا أرى بذلك بأسا . ولا يرفعهما جداً .

ابن رشد : أجازه مالك فى هذه الرواية لرفع اليدين فى الدعاء ، عند خاتمة الصلاة ، نحو قوله فى المدونة . لأنه أجاز فيها رفع اليدين ، فى مواضع الدعاء ، لأن خاتمة الصلاة من مواضع الدعاء التى ترفع الأيدى فيها . اهـ

وفى « المعيار » عن الإكمال : تعليم النبى صلى الله عليه وسلم لهم . الدعاء أدبار الصلوات وحضهم عليه ، يدل على عظيم موقع الدعاء وفضله ، وأن من مواطنه المرغب فيها إثر الصلوات .

وأما كشفهما ؛ فقد رواه الحاكم . قال الخطابى : من الآداب أن تكون اليدان فى حال رفعهما مكشوفتين غير مغطاتين . اهـ

وانظر ما يفعله بعض الناس من كشف الرأس . هل له أصل أولا ؟ نعم فيه إظهار الذلة وهيئة الخشوع المطلوبين .

وأما الأدعية المأثورة فلما فيها من الاقتفاء لأثر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم أن الخير كله فى اتباع الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، واقتفاء أثره ، قال تعالى : « واتبعوه لعلكم تهتدون » وقال : « لقد كان لكم فى رسول الله

أسوة حسنة » . وقال : « قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله » . ومنها الواردة فى كتاب الله عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

وأما التوسل إلى الله بأنبيائه والصالحين ؛ فقد روى البخارى ، عن أنس : أن عمر كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب . فقال : «اللهم إنا كنا نَتوَسَّلُ إليكَ بِنبيِّكَ فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال : فيسقون . ا هـ

ومقصوده ، رضى الله عنه ، إنما هو أن يتقدم العباس بنفسه ويباشر الدعاء وهذا لا يتصور حصوله إلا من الحاضر . أما التوسل برسول الله ،صلى الله عليه وسلم ، فلا نسلم أن سيدنا عمر تركه بعد موته عليه السلام ، وحاشاه من ذلك فليس فيه تشبث لبعض المبتدعة الضلال على منع التوسل به ،صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وهو قول شنيع ، ورأى سخيف ، يلزم عليه محظور كبير ، نسأل الله السلامة .

وأما خفض الصوت ؛ فقد نقل ابن عطية عن الحسن ، أنه قال : لقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يكون سرا فيكون جهرا أبدا » ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ولا يسمع لهم صوت ، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم . وقد سمع مجاهد رجلا يرفع صوته بالدعاء فرماه بالحصا . وقال ابن جريج : الصياح فى الدعاء مكروه بدعة .

وأما الاعتراف بالذنب ؛ ففى البخارى وغيره ، فى حديث عائشة : أن النبى صلى الله عليه وسلم، قال لها ، فى « قصة الإفك » : «... فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله عليه » .

وأما عدم تخصيص نفسه بالدعاء ، إن كان إماما ؛ ففى حديث ثوبان «

مرفوعا : « لا يحل لامرىء مسلم أن ينظر فى جوف بيت امرىءٍ حتى يستأذن فإن نظر فقد خان ؛ ولا يؤم قوماً فيخص نفسه بدعوة دونهم ؛ فإن فعل فقد خانهم » . رواه أبو داوود والترمذى .

وأما تكرير الدعاء : ففى مسلم عن ابن مسعود : « كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثا ، وإذا سأل ، سأل ثلاثاً » . وفى حديث ابن مسعود أيضاً : « كان عليه السلام يعجبه أن يدعو ثلاثاً ، ويستغفر ثلاثا » . رواه أبو داوود والنسائى .

وأما الإلحاح فيه ، فعن عائشة ، مرفوعا : « أن الله يحب الملحين فى الدعاء » . رواه الحكيم الترمذى والطبرانى . وروى : أن الله يقول : ياجبريل قد قضيت حاجته ، وأجبت دعوته ، ولكن أحبسها عنه فإنى أحب صوته » .

وأما ترك الدعاء بالإثم والقطيعة ؛ فلما أخرجه ابن أبى شيبة ، والبخارى فى « الأدب المفرد » والحاكم عن أبى سعيد ، مرفوعا : مامن مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاهُ الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلهـــا . قالوا : إذن نكثر ؟ قال : الله أكثر » . أى أكثر فضلا .

وأما ترك الدعاء بأمر قد فرغ منه ، ففى حديث ابن مسعود : « أن أم حبيبة ، قالت : اللهم أمتعنى بزوجى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأبى أبى سفيان ، وبأخى معاوية : فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة وأرزاق مقسومة ! ولن يعجل شيئاً قبل حله ، أو يؤخر شيئاً عن حله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب فى النار أو عذاب فى القبر ، كان خيراً أو أفضل » . ورواه مسلم والنسائى .

وأما ترك الدعاء بالمستحيل ، فلأن الدعاء بذلك من الاعتداء المنهى عنه . قال تعالى : « ولا تعتدوا إنه لايحب المعتدين » . وفى البخارى عن ابن عباس : « لايحب المعتدين فى الدعاء وغيره » . قال القسطلانى : كالذى يسأل درجة الأنبياء ، أو على من لا يستحقه ، أو الذى يرفع صوته عند الدعاء . اهـ .

وقال السيوطى فى « الفتاوى » : والراجح فى الاعتداء تجاوز المأمور به ، واختراع دعوة لاأصل لها فى الشرع ، ويؤيده ما أخرجه ابن ماجه ، والحاكم وصححه ، عن أبى معاوية : أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة . فقال : إنى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الدعاء » . فهذا تفسير صحابى . اهـ

وأما عدم التحجير فيه ، فلما فى الصحيح عن أبى هريرة : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى صلاة وقمنا معه ؛ فقال أعرابى ، وهو فى الصلاة : اللهم ارحمنى ومحمداً ولاترحم معنا أحداً : فلما سلم النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال للأعرابى : لقد حجرت واسعاً » . يريد : رحمة الله .

وأما سؤال حاجته كلها ، فلما فى الترمذى وابن حبان ، عن أنس ، مرفوعا : « ليسأل أحدكم ربه فى حاجته كلها ، حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع » . نعم . قال القشيرى فى « التحبير » : ومن الناس من تسمو هممهم فلا يطلبون منه تعالى الحوائج الخسيسة . ويحكى عن الشبلى ، رضى الله عنه ، أنه أرسل إلى ابن يزدنيال : أن ابعث إلينا شيئا من دنياك . فكتب إليه ابن يزدنيال : سل دنياك من مولاك . فكتب إليه الشبلى : دنياى حقيرة ، وأنت حقير ، وإنما أطلب الحقير من الحقير ، ولاأطلب من مولاى غير مولاى . اهـ

وأما تأمين الداعى والمستمع ، فلما رواه الحاكم ، عن حبيب بن مسلم الفهرى ، وكان مجاب الدعوة . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لايجتمع ملأ فيدعو بعضهم ويؤمن بعض إلا أجابهم الله تعالى » .

وأما مسح الوجه باليدين بعد الفراغ منه ؛ فلما فى حديث الترمذى وصححه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه » . وفى أبى داود مرفوعا : « سلوا الله ببطون أكفكم فإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم » . قال المواق : وبالمسح باليدين عقب الدعاء أخذ أكثر المتأخرين . اهـ

وقال الونشريسى :وبجواز مسح الوجه باليدين عند ختم الدعاء : قال ابن لب وابن علاق وابن سراج وابن عرفة والبرزلى والغبرينى والسيد أبو يحيى الشريف وأبو القاسم العقبانى ، وعليه أدركت عمل أئمة فاس . اهـ

قال المنوى : وفائدته أى الرفع والمسح ، لتعود البركة عليه ، ويسرى ذلك إلى الباطن ، فحكمته كما ورد فى حديث : « الإفاضة عليه مما أعطاه الله تعالى تفاؤلا ، لتحقيق الإجابة ، وأن كفيه قد ملئتا خيراً » ، فأفاض منه عليه » . ففعل ذلك سنة كما جرى عليه فى « التحقيق » تمسكا بعدة أخبار ، وهى وإن ضعفت أسانيدها تقوّت بالإجماع . فقوله فى « المجموع » : لايندب . وسبقه إليه ابن عبد السلام ، وقال : لايفعله إلا جاهل ؛ فى حيز المنع . اهـ

ولمالك فى « العتبية » « والمجموعة » مثل ما لابن عبد السلام . قال ابن رشد : إنما أنكره لأنه رآه بدعة ،إذ لم يأت بذلك أمر عنه صلى الله عليه وسلم، ولا عمل سلف . اهـ

قال المواق فى « سنن المهتدين » بعد ذكر ما فى المسألة مانصه : فقد تبين لما حصلناه فى مسألة المسح عقب الدعاء ، أنه مختلف فيه ، وأن الراجح ما وافق الخبر الصحيح ، وهو استعماله . اهـ

ولشيخ الجماعة عمنا العلامة ، رحمه الله :

والمسحُ باليدِ على الوجهِ طُلِبْ   إثْرَ الفواتحِ لذاكَ فانْتُدِبْ
وهو مما جاء عنِ الرسولِ   وخُلفائهِ خيرِ العُدولِ

وفيه تعريض لقول القائل :

والمرءُ باليدِ على الوجهِ كُرِهْ   إثرَ الدُّعاءِ والفواتحِ انْتَبِهْ
نُقِلْ عَنْ إمامِنا ابنُ عَرَفَة   بِدْعتهُ فلا تكن مُخَالِفَهْ
وقال قومٌ : قد يُورِثُ العمى   ولمْ يَقُلْ بالمَسْحِ مَنْ تَقَدَّمَا

لكن ينبغى للمرء أن لا يمر بيديه على عينه لما قيل : إن ذلك يورث العمى. قال الشيخ أبو عبد الله سيدى محمد بن عبد السلام بنانى : لأن الداعى إذا دعا وبسط يديه ، فقد تلقى بهما نور الدعاء وفاتحة الكتاب ، فإذا مسح بهما على وجهه ، فربما انطفأ نور بصره بنور الدعاء المتلقى بيده . قال : فكان الشيخ أبو على اليوسى ، رحمه الله ، يمسح يديه إثر الدعاء على صدره ليعود ذلك النور إلى قلبه . وكان الشيخ أبو عبد الله سيدى محمد بن عبد القادر الفاسى يمسح بأطراف يديه على جبهته ولا يمرهما على عينيه . وكان الشيخ سيدى العربى بردلة ، يمسح يديه تحت عينيه .

تتمات

الأولى : فى « المعيار » من جواب لابن عرفة ، رحمه الله ، مانصه : مضى عمل من يقتدى به فى العلم والدين من الأئمة ، على الدعاء إثر الذكر الوارد ،

الإثر تمام الفريضة » ، وما سمعت من ينكره إلا جاهل غير مقتدى
الله بعض الأندلسيين : فإنه لما أنهى إليه ذلك ألف جزءا فى الر
وخرج عبد الرازق ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم : « إنه سئل « ،
أسمع ؟ قال : شطر الليل الأخير وأدبار المكتوبة » وصححه عبد الحق وابن القطان ، وذكر الإمام الراوية المحدث أبو الربيع فى كتاب «مصباح الظلام» ، عن النبى عليه السلام ، أنه قال : « من كانت له إلى الله حاجة ، فليسألها دبر صلاة مكتوبة » .

والله حسيب أقوام ظهر بعضهم ولا يعلم لهم شيخ ، ولا لديهم العلم الذى يفهم به كلام العرب والكتاب والسنة ، يفتون فى دين الله بغير نصوص السنة .
وفى « المعيار » أيضا : من جواب لكبير طلبة ابن عرفه الشيخ أبى مهدى الغبرينى : الصواب جواز الدعاء بعد الصلاة على الهيئة المعهودة ، إذا لم يعتقد كونه من سنن الصلاة أو فضائلها أو واجباتها ، وكذلك الأذكار بعدها على الهيئة المعهودة كقراءة الأسماء الحسنى ، ثم الصلاة على النبى ، صلى الله عليه وسلم مرارا ، ثم الرضى عن الصحابة ، رضى الله عنهم ، وغير ذلك من الأذكار بلسان واحد . اهـ

وفيه أيضا ، من جواب للعلامة قاضى الجماعة بغرناطة مانصه : وتقرر أولا أنه لم يرد فى الملة نهى عن الدعاء دبر الصلاة ، على ماجرت به العادة اليوم من الاجتماع ؛ بل جاء فيه الترغيب على الجملة ، فذكر أدلة كثيرة ، ثم قال : فتحصل بعد ذلك من المجموع أن عمل الأئمة لم يزل منذ الأزمنة المتقادمة مستمرا فى مساجد الجماعات ، وهى مساجد الجوامع ، وفى مساجد القبائل ، وهى مساجد الأرباض والروابط ؛ على الجهر بالدعاء بعد الفراغ من الصلوات على الهيئة المتعارفة الآن ، من تشريك الحاضرين وتأمين المستمعين ، وبسط الأيدى ومدها عند السؤال ، والتضرع والابتهال ، فى غير منازع ؛ وتبين بما تقرر أن المنكر

الآن لذلك كله ، والمخالف فى عمله ، هو من الانحراف عن الجادة بالمنزلة التى لا يغيب غلطها على الناظر ببديهة عقله . اهـ المراد منه .

الثانية : قال ابن عطاء الله ، رحمه الله : للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات ، فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار فى السماء ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه نجح ؛ فأركانه : حضور القلب ، والرقة والاستكانة والخشوع ، وتعلق القلب بالله ، وقطعه عن الأسباب ؛ وأجنحته : الصدق وقول الأسحار ؛ وأسبابه : الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم . اهـ .

الثالثة : المقصود من الدعاء الخضوع ، وإظهار الفاقة والفقر والتوكل لله ؛ وإلا فهو تعالى عالم بما يحتاج إليه العبد ، وقد قسم الله له ما يصير فى الأزل ؛ فأحب أوصاف العبد إلى الله تعالى ، افتقاره إليه ؛ وأشرف أحوال المؤمن ، ما يرده إليه ويقبل به عليه . كما قال فى «الحكم» : خيرُ أوقاتك وقتٌ تشهد فيه وجود فاقتك ، وترد إلى وجود ذلتك .

وفى الخبر : إن الله يحب كل قلب حزين . وفى التورية : إذا أحب الله عبدا نصب فى قلبه نائحة ، وإذا أبغضه نصب فى قلبه مزمارا .

وكان ، صلى الله عليه وسلم ، متواصل الأحزان ، دائم الفكرة . فعلى العبد أن يلازم الطلب ولا ييأس، لما فى ذلك من الاستسلام وإظهار الافتقار ، حتى قال بعض السلف : لأنا أشد خشية أن أحرم الدعاء من أن أحرم الإجابة .

وفى حديث ابن عمر ، عند الترمذى مرفوعا : «من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة» .

وينسب لأبى بكر الصديق ، رضى الله عنه :

لوْ لمْ تُرِدْ نَيلَ ما أرْجو وأطْلبُهُ ... مِنْ فضلِ جُودكَ ، ما علمتَنى الطلبا

وفى « الحكم » : لا يكن تأخر أمد الإعطاء مع الإلحاح فى الدعاء ، موجبا ليأسك ، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك ، لا فيما تختار لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد ، لا فى الوقت الذى تريد . اهـ

الرابعة : فى « الحلية » للحافظ أبى نعيم ، عن ثابت بن الهيثم قال : سمعت معروفا الكرخى يقول : من قال فى كل يوم عشر مرات : اللهم أصلح أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد ، كتب من الأبدال . اهـ

وأخرج الخطيب ، عن أبى هريرة ، مرفوعا : « ما من دعاء أحب إلى الله تعالى ، من أن يقول العبد : اللهم ارحم أمة محمد رحمة عامة » . لكن فى « الحلية » ، عن أنس ، مرفوعا : « يأتى على الناس زمان يدعو فيه المؤمن للعامة ، فيقول الله : ادع لخاصة نفسك أستجب لك ، أما العامة فإنى عليهم ساخط » .

وفى « الجامع الصغير » : « مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم ، وقبل أن تستغفروا فلا يغفر لكم » .

وقول الناظم « وادأب » : أمر من الدءوب ، وهو الجد والتعب ، فدءوب : مفعول مطلق مبين للنوع ، « ويرى » مضارع رأى القلبية ، أى يعلم « ويشاهد » ، ومفعولاها : « كل وخاتمة » . « والنفَس » (بالتحريك) : واحد الأنفاس ، وهو خروج الريح من الأنف والفم ؛ وعدد أنفاس الإنسان من طلوع الشمس إلى غروبها . أربعة وعشرون ألف ، وهو مكلف فى جميعها : افعل ، لا تفعل . « والخاتمة » : التمام والآخر ، أراد بها الناظم : الموت . « وازداد » : قال فى « العناية » يرد فى كلامهم متعديا ولازما باتفاق أهل اللغة ، وقد استعمله الناظم متعديا . قالوا : وهو أبلغ من الزيادة ، كالاكتساب والكسب ، فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

«والجد» (بكسر الجيم) الاجتهاد فى الأمر . ومضارعه ، بالوجهين : الكسر والضم . وأما الجد (بفتح الجيم) فهو والد الأب ، وبضمها : البئر الخراب :

الجـد والدُ الأبِ والجـد ضـد اللعبِ
والجـد عنـدَ العربِ البئرُ ذاتَ الخربِ

«والاحتراس» : التحفظ . «والدعاء» : الرغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير ، والابتهال إليه بالسؤال . «والاضطرار» : الاحتياج إلى الشيء . ومراد الناظم به : التذلل والالتجاء والافتقار ، وباؤه : المصاحبة . أى ، مع اضطرار ، أى : تذلل والتجاء وافتقار . « والجهر» : الإعلان . « والإسرار» الإخفاء . ومراد الناظم ، والله أعلم بالجهر : والدعاء فى الملأ ، والإسرار الدعاء فى الخلاء أى : مع خفض الصوت فيهما ، فلا ينافى ما تقدم من طلبية إسرار الدعاء .

«والمجيب» : من أسمائه تعالى ، ومعناه : الذى يقابل الدعاء والسؤال بالعطاء والقبول . « والدعوة» : الدعاء . «والمضطر» : اسم فاعل اضطر ، وهو مما يستوى فيه اسم الفاعل والمفعول لسكان الإدغام . «والمتفضل» ، اسم فاعل تفضل عليه ، إذا تطول وأحسن ، وأناله من فضله . « والمعتر» : السائل ، وهو أحد التفاسير فى قوله تعالى : « فإذا وَجبت جنوبها ، فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر» . والله أعلم .

الخاتمة والابتهال

ثم قال :

[ويسألُ اللطفَ بكل حال والختمَ بالحسنى لدَى ارتحالِ]
[وَيرغبُ الرّحمانَ ذَا الجلالِ فى العفوِ عنه : أحمدُ الهلالِى]
[مستشفعاً بالمصطفى الشفيعِ محمد ذِى المنصبِ الرّفيعِ]
[صلى عليهِ اللهُ طولَ الأبدِ مسلماً أزكى سَلامٍ سرمدِ]
[وَآلهِ وَصحبهِ الأبرارِ والتابعين العبـدِ الأحرارِ]

لما تم مرادالناظم ، رحمه الله ، من بذل النصح النافع الأعم ، وإرشادالخلق لما فيه الصلاح الأتم ، تخلص هنا للدعاء لنفسه بالختم بالحسنى ، والسؤال من ربه اللطف ، ورغبته فى العفو عما جنى ، وتشفع لله فى نيل ذلك بسيد الأنام ، وعطف بعده بالصلاة عليه والسلام ، وعلى آله الأطهار ، وصحابته والتابعين الأبرار . وبعبارة : لما حض الناظم فى الأبيات قبل ، على الإكثار من الدعاء والاضطرار للمولى ، جل علاه ، فى الجهر والإسرار ، بادر إلى العمل بذلك ، والإرشاد إلى ما يسأله العاقل من الجليل المالك ؛ فإن أولى ما يعتنى العاقل بسؤاله من مولاه ، ويطلبه من خالقه فى سره ونجواه ، اللطف به وبالمسلمين فى كل الأحوال ، والختم بالسعادة عند الارتحال ، والعفو عن الخطايا والذنوب ، وعدم المؤاخذة بقبائح الجرائم والعيوب . والمعنى : ويطلب «اللطف» أى الرفق والتوفيق لما فيه الصلاح فى كل حال من الأحوال ، «والختم بالحسنى» أى كلمة التوحيد مع فهم معناها ، والجزم به عند الموت والانتقال ، لأن من كانت كلمة التوحيد خاتمته ظفر بالسعادة الأبدية ، وارتقى بفضل الله للدرجات العلية ، وفى الحديث : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة . وفيه : «من مات» وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » .

ويسأل أيضاً ويتضرع إلى «الرحمن» ، أى المنعم المتفضل على خلقه بضروب الإحسان ، وأنواع التفضلات والامتنان ، «ذا الجلال» ، أى العظمة والكبرياء ، التى تنزه عن الشركاء فيها والنظراء ؛ «فى العفو» ، أى الصفح عنه وترك عقوبته على ماجناه من الخطيئات ، واقترفه من قبيح الزلات والسيئات ، العبد الفقير الراجى عفو ربه وإحسانه المتوالى أحمد بن عبد العزيز الهلالى ، فى حال كونه «مستشفعا بالمصطفى» ، أى المختار من الخيرة سيدنا محمد سيد الأنقياء البررة ، الشفيع فى العصاة والمذنبين ، وإمام الأنبياء والمرسلين ، صاحب المنصب الرفيع

والقـــدر العظيم ، والجاه العالى والشرف الفخيم ، زاده الله إجـلالا وتعظيما
وتشريفا ورفعة وتـكريما ، باقيا ذلك مؤيداً مستمرا ، ما بقيت الدنيا واستمر
نعيم الأخرى ، فى حال كونه زائدا له أشرف التأمين والإكرام ، وطيب التحية
والإعظام ، مسرمداً ذلك مستمرا باقيا ، مابقى النهار لليل تاليا ، ورحم الله آله
الأطهار ، وصحابته القـادة الأبرار . والتابعين لهم بإحسان إلى يوم القرار .
العبيد منهم والأحرار . وقول الناظم : «ويسأل» «ويرغب» يتنازعان فى الفاعل
وهو أحمد الهلالى أعمل فيه أحدهما . وأعمل الآخر فى ضميره المستتر . وعدل
من أسأل وأرغب (بهمزة التكلم) إلى « يسأل ويرغب » (بياء الغيبة) قصداً
إلى إظهار الفاعل . ليحصل العلم بمؤلف الـكتاب . والذى هو من أهم الأمور
وآكدها عند ذوى الألباب . فإن التأليف الذى لم يعرف مؤلفه كولد
لم يعرف له أب ، ولا له أصل إليه ينسب ، ولأن جهل القائل ربما أدى إلى
التهاون بالمقول . وهو مؤد لعدم الانتفاع المقصود للمصنفين والمأمول ، بخلاف
ما إذا عرف المؤلف ، وأنه فلان المشهور بالتضلع فى العلوم ، مع معرفة ثقته
وأمانته وتقدمه فى الفنون والفهوم . فإن ذلك يكون باعثا على الاعتناء بقراءة
تأليفه وترتيله ، والإقبال على التشاغل بفهمه وتحصيله ، والنظر فيه بعين الرضا
الذى هو من أقوى أسباب الانتفاع ، والانتفاع به هو المقصود الأعظم منه بلا
نزاع ؛ فيـكون تعريف المؤلفين بأنفسهم من باب الحرص على النفع وهداية
البرية . ولـكل امرىء مانوى ، وإنما الأعمال بالنية؛ مع مافى ذلك من إظهار
نعمة الله عليهم ، والتحدث بها الذى هو ضرب من الشـكر . وفى الحديث :
« إن الله إذا أنعم على عبد أحب أن يظهر أثر نعمته عليه » . وفيه « ليس منا
من لم يتعاظم بالعلم » . قال الأجهورى : ومعناه ليس منا من يعتقد أن الله
جعله عظيما بالعلم ، حيث جعله محـلا له ، وموصوفا به فيعرف قدر ما منّ

به عليه من نعمة العلم . ويشكره على ذلك . قال : وليس المراد بتعاظمه احتقار غيره فإنه منهى عنه . اهـ

والفرق بين من يقصد بكلامه الافتخار، وبين من يقصد به التحدث بالنعمة ما ذكره العلامة أبو محمد سيدى عبد السلام القادرى فى تأليفه : « أداء الحقوق فى أداء الفروق » ، ونصه :

والفرق بين مظهر للفخر وذاكر لنعمى لأجل الشكر
أن افتخاره للاستمالة وطلب العز والاستطالة
والشكر إظهار لفضل الله ونعم ليس لها تناهى
ونعت قلب المرء للوقوف ببابه ، لدائم العكوف

قال سيدى على الخواص ، رضى الله عنه : التحدث بالنعم . من غير أغراض نفسانية ، خاص بالأكابر ، بخلاف غيرهم ، فربما دخل الرياء على أحدهم . ثم قال : اذا علم العبد كشفا ويقينا أنه عبد مستحق للعقوبة ، وأن جميع ما عنده من الكمالات من فضل سيده عارية عنده ، جاز له التحدث بالنعم لأنه لا يرى لها فخراً على أحد خلق من الله . اهـ

قال الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى : وهذا مشهدى الآن بحمد الله ، فإنه والله ثم والله ، أرى نفسى قد استحقت الخسف منذ سنين ، لولا فضل الله على ولا أرى أحدا على وجه الأرض أكثر اقتحاما للمعاصى منى ، ولا أقل منى ، ولو أن أحدا أقام الأدلة على ضد ذلك ما صغيت ، وكثيرا ما أشهد أن ما يقع على مصر وقراها من البلاء ، إنما هو بسبب ذنوبى وحدى ، وأن ذنوب غيرى كلها مغفورة ، فيصير جسمى ذائبا ، كالذى شرب رطلا من السم . وهذا أمر لا يذوقه إلا أهل هذا المقام ؛ وأرى أنى لو عبدت الله بعبادة الثقلين إلى يوم الدين ، لا أرى

أنى قمت بذرة من شكره تعالى . كيف وهو خالق لذاتي وأفعالها ، فما بقى شكر العبد إلا بالاعتراف بالنعم لاغير . اهـ

وقد ألف السيوطى: كتاب «نزول الرحمة فى التحدث بالنعمة» ، وحاصله: إن كان لإظهار فضل الله وإحسانه فاز ، وكذا إن لم ينصف أو نوزع أو عورض أو كان بين قوم لا يعرفون مقامه .

ورد أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، لما ولى الخلافة خطب فقال : «أما بعد أيها الناس فإنى وليت عليكم واست بخيركم» . فجرى على قاعدة التواضع وهضم النفس . ثم بلغه عن بعض الناس كلام : فخطب فقال : «ألست أحق الناس ؟ ألست أول من أسلم ؟ ألست صاحب كذا ؟ ألست صاحب كذا؟» أخرجه الترمذى وابن حبان فى صحيحه .

ومن جملة فوائد تعريف المؤلفين بأنفسهم الإشارة إلى طلب الاعتناء بمعرفة الشيوخ ، ونسبة فوائدهم إليهم والثناء عليهم ، والقيام بحقوقهم ، والإحسان إليهم فهم آباء الدين ، وأعلى مرتبة وفضلا من آباء الطين ، إذ لولا العلم لم يعبد ذو الجلال والإكرام ، ولولاه لم يعرف الحلال من الحرام :

ثم أبُو الإفادَة اعلمْ وَاسْمع أفضلُ مِنْ أبِى الولادَةِ فَع

مَنْ علم الناسَ كانَ خيرَ أب ذَاكَ أبو الرُّوح لا أبُو النطفِ

فتجب خدمتهم ، واستعمال الآداب اللائقة معهم ، ومكافأتهم لمن قدر وفى الحديث : «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوهُ ، فإنْ لمْ تجدوا ماتكافئوه بهُ فادعُوا لهُ حتى ترَوا أنكم قدْ كافأتموهُ» وإجلالهم وخدمتهم ، هو فى الحقيقة خدمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم أنصار دينه ، وحماة شريعته وخلفاؤه ونوابه .

قال أبو معاوية الضرير : أكلت مع هارون الرشيد يوماً ، ثم صب على رجل ، لا أعرفه أى لكونه ضريرا . فقال الرشيد : تدرى من يصب عليك . قلت : لا ، قال أنا إجلالا للعلم قلت : جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين ، فما أكرمت إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : صدقت إنما صببت على كفك لأنها اعتنت بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . اهـ

وروى معاذ ، مرفوعا : « من وقر عالماً فقد وقَّرَ رَبَّهُ » . وروى أيضا : « بجلوا المشايخ فإنَّ تبجيلهُم من تعظيم الله » . وروى أيضا : « من عظم عالما ، فإنما عظم الله ورسوله ، ومن تهاون بعالم فإنما ذلك استخفافٌ بالله ورسوله » . وروى أيضا : « من خدم عالماً سبعةَ أيام فقدْ خدَمَ الله سبعة آلافِ سنةٍ ، وأعطاهُ اللهُ بكلِّ يوم أجر ألف شهيدٍ » . وروى الإمام أحمد (بسند حسن) والطبرانى ، عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » . وروى البيهقى ، عن أبى أمامة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله وأوصيه بجماعة المسلمين أن يرحم صغيرهم ويوقر عالمهم وأن لا يضربهم فيـــذلهم ، وأن لا يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم » . اهـ

وفى « الإحياء » أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت وقال : إنا هكذا أمرنا أن نصنع بالعلماء والكبراء منا اهـ

وروى أبو عمرو بن عبد البر ، عن الشعبى : أنه قال : صلى زيد ابن ثابت على جنازة ثم قربت له بغلته ليركبها ، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه .

فقال له زيد : خل عنك يابن عم رسول الله . فقال له ابن عباس : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء . زاد بعضهم : فكافأ زيد ، ابن عباس على ذلك بتقبيل يده ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

ويقال أربعة لا يأنف منها الشريف : قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته لضيفه ، وقيامه على فرسه وإن كان له عبيد ، وخدمته للعالم ليأخذ من علمه . اه

إذا تمهد هذا فنقول : الناظم ، رحمه الله ، هو الفقيه القدوة الإمام ، العالم العلامة الهمام ،ذو التحرير والإتقان العجيب ، والإدراك والفهم المصيب ، رئيس العلماء الأكابر ، وفخر الأواخر على من مضى فى الزمان الغابر ، من له المناقب الشهيرة ، والكرامات العديدة الغزيرة ، واسطة عقد اليواقيت واللآلى ، أبى العباس سيدى أحمد بن عبد العزيز الهلالى ، أفاض الله علينا من بركته العامة، وعمنا بطيب نفحاته التامة ، ومن مآثره ، رحمه الله ، ماذكر عن الشيخ التاودى بن سودة ، أنه دخل على أمير وقته سيدى محمد بن عبد الله . فقال له : من أعلم فى هذا الزمان ؟ قال له : الأحمدان :الهلالى والورزانى ، فقال له الأمير : أما الهلالى ، فنعم ؛ وأما الورزانى ، فما أظنه عاقلا ، فضلا عن أن يصل لدرجة الهلالى .

ومنها ماذكر عن الشيخ سيدى محمد بن الحسن بنانى : أنه قال : سبحان الله ما رأينا أحداً فى عصرنا ، من هو أحفظ للعلوم وأتقن لها من الهلالى .

ومنها ماذكر عن بعض علماء شنكيط : أنه قال لبعض علماء فاس ، وقد قال له : وصفت الهلالى بما لو يوصف به عالم : يا أهل فاس قد فاتكم من العلم بقدر مافاتكم من معرفة الهلالى ، فخجلوا وانصرفوا .

ومنها : ماذكر من أنه وعد زوجته أن يحج بها فتركها إلى يوم عرفة ، فجعل يده فى يدها وأدخلها بدار وجدت فيها أطعمة كثيرة تصنع وبسط مفروشة، فقالت : لمن هذا ؟ قالوا : سيدى الهلالى يأتينا فى كل سنة فى هذا اليوم ، وقد

أخبرنا أنه يأتينا بزوجته فى هذه السنة . قالت : وما هذه البلدة ؟ قالوا : مكة شرفها الله . قالت : أنا زوجته فرحب بها النساء ، وإذا بالشيخ سيدى أحمد داخل فلقيته ، وخرجوا بعدما أكلوا الطعام لأداء المناسك محرمين من مكة قاصدين الوقوف بعرفة ، فأدوا ما وجب ، ورجع بعد ثلاثة أيام من منى .

ومنها : أنه كان يأتى إليه طالب لأخذ العلم فيعترضه واد ، واشتد البرد على الطالب بسبب المرور فيه ، فشكا للشيخ فكتب له حجابا فعلقه عليه ، فصار يمشى فوق الماء ؛ فتعجب الطالب وفتح الحجاب ليتعلم ذلك فوجد صورة الإخلاص ، ثم طواه ووصل الوادى فمشى فيه على عادته فزلت رجله ، فرجع وأخبر الشيخ ؛ فقال له : « قل هو الله أحد » فى صدور الرجال .

ومنها : ما ذكر أنه قال له رجل من المتصوفة : بأى أرض تموت ؟ فقال له : بسجلماسة . قال المتصوف له : أليس الله يقول « وما تدرى نفس بأى أرض تموت ؟ » وهذه إحدى الخمس التى لا يعلمها إلا الله ؟ قال : نعم ، ولكن من أطلعه الله على ذلك فهو مطلع ، كما أنك تموت بأرض كذا ، فوقع الأمر كما ذكر .

ومنها : أنه كان جالسا يوما مع سيدى أحمد الحبيب اللمطى . فقال له : سيدى أحمد الحبيب : فى مجلسنا هذا من هو أفضل منا ؟ فقال له الهلالى : ومن يكون أفضل منك ؟ ، فقال له : أنت يا أحمد الهلالى الياقوتة الخضراء .

وله رضى الله عنه تآليف : منها : هذه النصيحة الجليلة ، التى هى بأجمع النصائح وأنفعها ومهماتها كفيلة . ومنها : إضاءة الأدموس من اصطلاح صاحب القاموس ؛ وفتح القدوس فى شرح خطبة القاموس . ومنها : شرح القادرية فى علم المنطق . ومنها : تقاييد الخلاصة . ومنها : نور البصر فى شرح المختصر ، أوصله إلى قول المصنف : وحكمه كمقيده . ومنها : قصيدة أسماء الله الحسنى التى أولها .

« إذا نابنى خطب وضاق به صدرى ». ومنها : قصيدة «لك الحمد كل الحمد يا راحم الضعف » . ومنها : قصيدة : « أشكو إلى ربى المهيمن » . ومنها : قصيدة

يا سيدى يا رسول الله خذ بيدى   واشفع بفضلك لى يا سيد البشر

ومنها : الياقوتة الفريدة فى التوحيد . ومنها غير ذلك .

وقد أدرك ، رضى الله عنه ، القطبانية قبل موته بثلاثة أيام ، كما نص على هذا كله بعض الأفاضل فى تأليف له فى التعريف به .

«ويسأل» : مضارع سأل الشىء أى استعطاه وطلبه. «واللطف» (لغة) : الرفق، يقال : لطف الله بعباده ، من باب نصر لطفا بالضم ، أى رفق بهم ، فهو لطيف. « الله لطيف بعباده » ، ومعناه (فى عرف المتكلمين) : التوفيق لما به صلاح العبد فى العاقبة ؛ ولا مانع من إرادة المعنيين فى كلام الناظم ، كما هو ظاهر .

قال العارف بالله ، أبو العباس ، سيدى أحمد زروق ، رضى الله عنه : قال بعض المشايخ : اللطف إخفاء الأمور فى صور أضدادها ، نحو ما أخفى ليوسف، عليه السلام ، من أمانة الملك ، فى إلباس ثوب الرق ، حتى قال: إن ربى لطيف لما يشاء . ا هـ . (ومراده بالبعض الإمام الحرالى) .

ومن ذلك : لطفه بالذى كان فى شجرة معتصما بها من الأسد ، ومعه زق عسل ، فزقه عود منها . فسال العسل على الأسد ، فاجتمع عليه النحل والذباب حتى مات ، فنجاه الله منه بذلك ؛ وبالذى كان تحت جدار فبال عليه كلب من فوقه فنهض لغسل ثيابه فسقط الجدار .

لا تكرهِ المكروهَ عند حلولهِ   إنَّ العواقبَ لم تزلْ متباينةْ

كمْ نعمةٍ لا تستقلّ بشكرها   للهِ فى طىِّ المصائبِ كامنةْ

قال بعضهم : من لطفه بك أن أعطاك فوق الكفاية ، وكلفك دون الطاقة .

وإذا دعوته لباك ، وإذا قصدته أعطاك ، وإذا أحببته أدناك ، وإذا أطعته كافاك ، وإذا عصيته عافاك ، وإذا أعرضت عنه دعاك . اه

ومن أسمائه تعالى : اللطيف ، أى العليم بخفيات الأمور ودقائقها ، فيرجع إلى صفة العلم التى هى من صفات المعانى ، وقيل : هو الميسر لكل عسير ، الجابر لكل كسير ، قيل : هو من وفق للعمل فى الابتداء ، وأحسن بالقبول فى الانتهاء . وقيل : الذى لطفت أفعاله وحسنت ، وقيل : هو من رأى فستر ، وأعطى فوفر ، وأنعم فأجزل . وقيل : المحسن الموصل للمنافع برفق ، من أبواب ضيقه بعيدة عن العقول والأوهام . وقيل : الخفى عن الإدراك . وقيل : هو خالق اللطف ، يلطف بعباده من حيث لا يعلمون .

قال سيدى زروق : من عرف أنه اللطيف ، بمعنى العالم بالخفيات ، يحذر أن يطلع عليه فيما هو فيه ، ويثق به فى علمه وحاله ؛ وبمعنى المتفضل بالإرفاق والأرزاق ، والدفع والجلب، ينحاش إليه ولا يعول إلا عليه ؛ وبمعنى الخفى عن الإدراك ، عظمه وأجله ، على قدر تمكن ذلك من قلبه . اه

وباء « بكل » ظرفية . « والحال » : الوقت الذى أنت فيه ، وصفة الإنسان الذى عليها من خير أو شر .

وقال الراغب : « الحال » : ما يختص به الإنسان من الأمور المتغيرة فى نفسه وبدنه وقنيته ، وجمعه أحوال . وأحوال الدهر أيضا : صروفه ونوائبه وتقلباته .

وهاهنا فوائد جليلة :

الأولى : اعلم أن هذا الاسم الشريف خاصيته دفع الآلام ، ومن ذكره كل يوم مائة وتسعة وعشرين مرة أو مائة وثلاثا وثلاثين مرة ، وسع الله عليه ما ضاق ، وكان ملطوفا به فى أموره سيما عقب الصلاة .

الثانية : قال فى الحكم العطائية : من ظن انفكاك لطفه عن قدره ، فذاك لقصور نظره . قال العارف بالله تعالى ، أبو العباس سيدى أحمد بن عجيبة فى شرحه عليها ما نصه :

قلت : من أعظم إحسان الله وبره كون لطفه لا ينفك عن قدره ، فما نزل القدر إلا سبقه اللطف وصحبه ؛ وبهذا حكم العقل والنقل : أما العقل فما من مصيبة تنزل بالعبد إلا وفى قدرة الله ما هو أعظم منها ، وقد وجد ذلك ؛ فإذا نزل بك أيها الإنسان مصيبة فاذكر من هو أعظم منك بلاء ، فكم من إنسان يتقطع بالأوجاع ! وكم من إنسان مبتلى بالجذام والبرص والجنون والعمى اوكم من إنسان مطروح فى الفنادق لا يجد من يبر به إلا من ابتلاه ! وكم من إنسان أعمى أو مقعد أو محموم إلى ما لا يتناهى . نسأل الله عافيته الدائمة فى الدارين .

وأما من جهة النقل فقد ورد فى ثواب الأمراض والأوجاع أحاديث كثيرة وآيات قرآنية فى مدح الصابرين، منها قوله تعالى : «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقوله : « وبشر الصابرين » (الآية) « إن الله مع الصابرين » إلى غير ذلك ؛ وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها ، وحتى الهم يهمه إلا كفر الله به سيئاته » وورد فى الحمى أحاديث كثيرة « وإن حمى ساعة تكفر سنة » ، إلى غير ذلك .

وقد ذكر الشيخ ابن عباد رضى الله عنه منها جملة شافية فليطالعه من أراد تكثير الأجور ، والرضى بالمقدور . اهـ

الثالثة : فى ذكر لطيف الإمام ابن حجر «رحمه الله» وهو أن تذكر الاسم « اللطيف » بالتعريف أربعا وأربعين وأربعمائة وأربعة آلاف فى موضع خال ،

بعد صلاة ركعتين الأولى بالفاتحة ، وألم نشرح والثانية بالفاتحة وإذا جاء نصر الله ، والإخلاص ، ثم تسلم ، وتستغفر الله عشرا ، وتصلى على النبى صلى الله عليه وسلم عشرا ، ثم تقول : اللطيف أربعا ، ثم تقرأ الإخلاص والموذتين ثم تقول : اللطيف أربعين مرة ، وتقرأ بعد كل عشر منها ماذكر ، ثم تقرأه أربعمائة ، وتقرأ بعد كل مائة ما ذكر ، ثم تقوله : أربعة آلاف ، وتقرأ بعد كل ألف ما ذكر ، ثم تذكر : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » خمسائة ، وتقرأ بعد كل مائة الإخلاص ، ثم تصلى على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، خمسمائة ، وتقرأ بعد كل مائة الإخلاص ، ثم تسأل الله ما أردت . ا هـ

قال بعض العارفين : من كانت له حاجة أو نزلت به شدة ، فليقرأ أربعة آلاف من اللطيف بصيغة يا لطيف ، وليقرأه بمحل خال ، ويزجره على رأس كل ألف بهذا الزجر ، وهو : اللهم إنك لست بغائب تنتظر ، ولا بعاجز تنتصر ، ولا ببعيد يأتيك الخبر . قلت ، وقولك الحق : « أقرب من حبل الوريد ولمح البصر » .

الرابعة : فى ذكر عدد اللطيف الكبير والوسط والصغير . أما اللطيف الكبير فعدده سبع وثمانون وأربعمائة وستة عشر ألفا ومائة ألف ، يبدأ قارئه بالأقل . ومن شروطه الخاصة به الخلوة ، وألا يتكلم ولو بالإشارة ، ويذكر عند إرادة الشروع فيه ألفا من الصلاة على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ويهدى ثوابها له ، بنية إجابة اللطيف . وأما الوسط فعدده أحد وأربعون وستمائة وستة عشر ألفا . وأما الصغير فعدده تسع وعشرون ومائة . وقد أشار بعضهم إلى رمز عدد اللطيف الكبير بقوله :

إذَا كنتَ فِى سجنٍ وَهم وَكربةٍ فقلْ يا لَطيفُ عدَّ (فزْت) لكَ اتولا
وزِدْ عدَّ (قاف) من ألوفٍ وستةٍ وعشرةِ آلافٍ بها العدُّ كملاَ
بِها يَذْهبُ اللهُ البـلاءَ وأهلهُ ويخرج من السجنِ الذِى قدْ تمطلاَ

وإذا فرغ من اللطيف ، يقرأ هذا الدعاء كما نص عليه بعض الفضلاء : اللهم الطف بى فإنك بى بصير ، ولا تعذبنى فإنك على قدير ، ودبر لى فإنى لا أحسن التدبير ، وخذ بيدى إليك ودانى بك عليك ، ولا تحجبنى عنك ، ولا تقطعنى بقواطع الذنوب ؛ يا من العسير عليه يسير ، يسر على عبدك فلان ، ويسمى نفسه ، أو من شاء استعماله له ، كل عسير ، أشكر إليك مالا يخفى عليك يا لطيف (أربعا) وائتنى بالفرج من عندك ، كما فرجت على نبيك سيدنا يوسف الصديق . اللهم لا فرج إلا فرجك ، ففرج عنا كل شدة وكربة ؛ يا من بيده مفاتيح الفرج ، اكفنا شر كل من يريد ضرنا من الإنس والجن ، وادفعه عنا بيدك القوية إنك على كل شيء قدير ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين .

الخامسة : حكى اليافعى : أن بعض الملوك غضب على بعض الفقراء ، فبنى له قبة وجعله فيها ، وسد عليه بابها ، ومنعه الطعام والشراب ؛ فلما كان بعد ثلاثة أيام ، وجد الفقير خارج القبة فرحا مسروراً ، فأخبر الملك بذلك ، فقال : ائتونى به ، فلما أحضر بين يديه ، قال الملك : بالذى نجاك من هذه الشدة ما كان سبب خلاصك ؟ فقال الفقير : دعاء دعوت به ، قال الملك : وما هو ؟ قال : اللهم إنى أسألك يا لطيف يا لطيف يا لطيف ؛ يا من وسع لطفه أهل السماوات والأرض ، أسألك أن تلطف بى من خفى لطفك الخفى الخفى الخفى ، الذى إذا لطفت به لأحد من خلقك بقى ، إنك قلت ، وقولك الحق : « اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ ، وَهوَ القوِىُّ العزِيزُ » .

السادسة : ذكر الغزالى ، رحمه الله ، أن رجلا حبس مدة طويلة ، وكان دأبه ما قال يوسف عليه السلام : « إنَّ رَبى لَطيفٌ لِمَا يَشاءُ إنهُ هُوَ العليمُ الحكيمُ » . فجاءه شاب فى بعض الليالى ، فقال له : قم فاخرج من سجنك .

فقال له : كيف أخرج والأبواب دونى مغلقة ؟ قال : قم ويحك ، فقام فخرج وما استقبله باب إلا فتح بإذن الله ، ومشى معه حتى أخرجه من البلدة ، ثم قال : « إنَّ ربى لطيفٌ لما يشاءُ » .

السابعة : قال بعض العارفين : من قرأ قوله تعالى : « اللهُ لطيفٌ بعبادِهِ يرزقُ مَنْ يشاءُ وَهوَ القويُّ العزيزُ » في كل يوم تسع مرات ، لطف الله به فى أموره وسيق له الرزق الحسن ، وكذلك من أكثر ذكر اللطيف اهـ .

الثامنة : عن بعض الصالحين ، رضى الله عنهم : أنه حصل له عطش شديد فى بعض المفاوز ، قال : حتى خفت التلف فقعدت مستعدا للموت ، فغلبتنى عينى وأنا جالس ، فقال قائل : قل يا لطيفا بخلقه ، يا عليما بخلقه ، يا خبيرا بخلقه ، الطف بى يا لطيف يا عليم يا خبير ، (ثلاث مرات) وهذه تحفة الأبد فإذا لحقتك ضائقة ، أو نزلت بك نازلة ، فقلها تكفى وتشفى ، فقلت من أنت ؟ قال : أنا الخضر . ذكره الشيخ الإمام سيدى أحمد الشرجى فى كتابه « الفوائد فى الصلات والعوائد » . قال : وسمعت بعض الصالحين يدعو بهذا الدعاء : يا لطيف يا عليم يا خبير ، الطف بنا فيما جرت به المقادير ، ويكرر ذلك كثيراً ، فدعوت به فوجدت له تأثيرا حسنا ، والحمد لله كثيرا . قلت : ومن أوراد الإمام الشافعى ، رحمه الله ، كما تلقيته من سيدنا الوالد ، أطال الله عمره : اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير ، كل يوم عشرين مرة . وله سر عجيب . ثم قال فى « الفوائد » : ووجدت هذا الدعاء بخط بعض العلماء ، وذكر له فضلا كثيرا ، وهو : يا لطيف فوق كل لطيف الطف بى فى جميع أمورى كلها ، كما تحب وأحب ، ورضنى فى دنياى وآخرتى ١ هـ

التاسعة : ذكر بعض العلماء الأعلام ، رضى الله عنهم : أن بعض الناس وقع فى أمر عظيم ضاق به ذرعه ، وعدم الحيلة فيه ، فوجده شخص لا يعرفه ،

فقال له : مالى أراك حزينا ؟ فذكر له ماهو فيه ، فعلمه هذه الأبيات ، وقال له: كررها فإن الفرج يأتيك من الله تعالى ، فكررها ساعة ففرج الله تعالى عنه بوجه لم يكن على خاطره ، وزال همه وغمه ، وهى هذه :

وكم لِلهِ مِنْ لطفٍ خفى يَدِقُّ خفاهُ عَنْ فهم الذَّكِىِّ
وكمْ يُسرٍ أتى مِنْ بعدِ عُسر ففرجَ كربة القلبِ الشجىِّ
وكمْ أمر تساءُ بِه صباحاً وتأتيكَ المسرةُ بالعشى
إذا ضاقتْ بِكَ الأسبابُ يوماً فثقْ بِالواحدِ الفَرْدِ العلى
تشفعْ بالنبى فكل عبْد يغاثُ إذا توسلَ بالنبى
وقُلْ يارَب بِالهادِى أغثنا فقد افلحَ مَنْ توسلَ بالنبى
ولا تيأسْ إذا ما نابَ خطب فكم لله مِنْ وَعد وَفى

ومن الأبيات المجربة لحصول اللطف والفرج ، إذا كررت عند نزول الشدائد :

يالطيفَ الصنع يامنْ كلما دَهَمَ الأمْرُ جلاَ مادَهَمَا
ياغياثَ المستغيثينَ ، ويا ماضىَ الحكم إذا ما حكما
نفسْ الأمرَ علينا مسرعة إنما الأمرُ علينا عظما
واستجبْ مِنا دُعانا كرماً يا كريماً أنت رب الكرَمَا
وسألنا اللطفَ مِنك عاجلا ياحليما أنتَ رب الحلما

العاشرة : من القصائد الجليلة التى تقرأ ، عند نزول الشدائد ، بقصد تفريجها وحصول اللطف معها ، هذه القصيدة المعزوة للناظم ، رحمه الله :

لطفُ اللطيفِ بخلقه لا يختفى بجميله نكفى الهموم فنكتفى

هُو حسبنا كم حادث ضقنا به ذرعًا ففرج كربهُ لطف خفى
لا ملجأ إلا إلى المولى فمن ناداهُ ملهوفًا، للطف، يلطف
يا ربنا بالمصطفى وبآله وبصحبه وبكل عبد مقتف
بالذات بالأوصاف بالأسماء بـ الاسم الكريم عظيم الأسماء الوفى
عجل بعافية ولطف شامل تُجلَى به عنا الخطوبُ وتنتفى
وبرحمة معها أمان دائم تخبو به نارُ الحُرُوبِ وتنطفى
وبرأفة عن عاجل، بدوائها تبرا القلوبُ من الحقُودِ وتشتفى
لنا اضطررنا يا لطيفُ لعاجل من لُطفك المعهودِ المستضعفِ
إنا ظمئنا يا مغيثُ لوابل من غيثك المشهودِ عند المعتفى
ما إنْ لنا منْ حيلة فى دفع ما قد حل منْ خطب عظيم مجحف
إلا الالجا لحماك . فيك رجاؤنا وبك استعذنا من عدُو متلف
يا ربنا هذا الدعاءُ ونرتجى نيل الإجابة منك عن قرب يفى
ثم الصلاة على النبى وآله وعلى الصحاب وكل تال منصف
ما أقبلت من لطف ربى نسمة تهدى الأمان إلى القلوب الرجف

واعتنى الناظم بسؤال الخاتمة الحسنى لأنها أهم الأمور عند العاقل، وأولاها عند أرباب البصائر والأماثل.

قال بعضهم : من أهم الأمور عند ذوى النهى خوف سوء الخاتمة إذ لا يرجى بعدها خير، بخلاف سائر المعاصى فإن صاحبها يرجو التوبة ؛ فإن لم يتب يرجو المغفرة ؛ وإن لم يغفر له لا يخلد فى النار . اهـ

لذلك ما قطع أكباد العارفين بالله ؛ إلا خوف سوء الخاتمة . عند الانتقال إلى الدار الدائمة .

من الدواهى خصوصاً خوفُ خاتمة　　　قد خاف منها فحول العلم والعمل

إذ الختم أمر مغيب . كما قيل :

وأضمر أن لست بخير من أحد　　　فالختم غيب، ليس يدرى من سعد

وقد كان أبو يزيد البسطامى ، إذا توضأ وقعت الزلزلة على أعضائه ، إلى أن يقوم إلى الصلاة يكبر ، فيسكت عند ذلك ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : إنى أخاف أن تدركنى الشقاوة فأتخطى إلى كنائس اليهود والنصارى و بيعهم .

وعن حمزة بن عبدالله قال : شهدت أبا بكر الشاشى عند موته فقلت له : كيف حالك ؟ قال : كسفينة تدور على الغرق . فلا أدرى أأنجو بالسلامة ، وتأتى الملائكة بالبشارة « أن لا تخافوا ولا تحزنوا » ؟ أم تغرق السفينة ، وتأتى الملائكة تقول : « لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً »؟. أى : بعداً بعداً .

وفى صحيح البخارى : عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق المصدوق قال : « إن أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع . برزقه وأجله . وشقى ، أو سعيد . فوالله إن أحدكم ، أو الرجل، يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » .

وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، قال : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل

النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل ، بعمل أهل النار ، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة » .

وروى البخارى ، مرفوعا : « إن العبد ليعمل بعمل أهل النار ، وإنه من أهل الجنة ، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار ، وإنما الأعمال بالخواتيم » .

ولهذا كان عليه السلام، يحلف : « لا ومقلب القلوب ». قالت عائشة : فقلت: يا رسول الله نراك تحلف وتقول : لا ومقلب القلوب ؛ فهل تخشى ؟ فقال : « يا عائشة ، وما يؤمننى ، وقلوب العباد ، بين إصبعين من أصابع الجبار ، إذا أراد أن يقلب قلب عبد قلبه » . رواه البخارى .

فنسأل الله من فضله أن يرزقنا حسن الخاتمة ، فكم من نفس مكر بها ، بعد أن كانت صائمة قائمة .

عن عبد الله بن أحمد المؤذن ، رحمه الله ، قال : كنت أطوف حول الكعبة ، وإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : اللهم أخرجنى من الدنيا مسلما ، لا يزيد على ذلك شيئا ، فقلت له : ألا تزيد على هذا الدعاء شيئا ؟ فقال : لو علمت قصتى ! فقلت له : وما قصتك ؟ قال : كان لى أخوان ، وكان الأكبر منهما مؤذنا ، أذن أربعين سنة احتسابا ، فلما حضره الموت ، دعا بالمصحف فظننا أنه يتبرك به ، ويقرأ منه شيئا ، فأخذه بيده ، وأشهد على نفسه من حضر ، أنه برىء مما فيه ثم تحول إلى دين النصرانية ، فمات نصرانيا ؛ فلما دفن أذن الآخر ثلاثين سنة ، فلما حضره الموت فعل كما فعل الأخ الأكبر ، فمات على دين النصرانية . نعوذ بالله من مكر الله ، وإنى أخاف على نفسى أن أصير مثلهما ، فأنا أدعو الله تعالى أن يحفظ على دينى ، قال فقلت : ما كان ذنبهما ؟ قال : كان يتبعان عورات النساء ، وينظران إلى الشباب .

وعن سفيان الثورى ، رضى الله عنه : أنه خرج إلى مكة حاجا ، فكان يبكى من أول الليل إلى آخره فى المحمل . فقال له شيبان الراعى : ياسفيان لم بكاؤك ؟ إن كان لأجل المعصية فلا تعصه . فقال سفيان : أما الذنوب فما خطرت ببالى قط ، صغيرها ولا كبيرها ، وليس بكائى يا شيبان من أجل المعصية ، ولكن من خوف الخاتمة ، لأنى رأيت شيخا كبيرا كتبنا عنه العلم ، وعلم الناس أربعين سنة ، وجاور البيت الحرام سنين ، وكانت تلتمس بركته ، ويستسقى به الغيث ؛ فلما مات تحول وجهه عن القبلة ومات إلى الشرق كافرا ، فما أخاف إلا من سوء الخاتمة . فقال له : إن ذلك من شؤم المعصية والإصرار على الذنوب ، فلا تعص ربك طرفة عين .

ويروى أن أخوين كان أحدهما عابدا ، والآخر مسرفا على نفسه ، وكان العابد يتمنى أن يرى إبليس فى محرابه ، فتمثل له يوما وقال : يا أسفا عليك ضيعت من عمرك أربعين سنة ، فى حصر نفسك ، وإتعاب بدنك ، وقد بقى من عمرك مثل ما مضى ، فأطلق نفسك فى شهواتها وتلذذ ، ثم تب بعد ذلك ، وعد إلى العبادة ، فإن الله غفور رحيم . فقال العابد : أنزل إلى أخى فى أسفل الدار فأوافقه على الهوى واللذات عشرين سنة ، ثم أتوب وأعبد الله فى العشرين التى تبقى من عمرى ، فنزل . وقال أخوه المسرف على نفسه : قد أفنيت عمرى فى المعصية وأخى العابد يدخل الجنة ، وأنا أدخل النار ، والله لأتوبن وأصعد إلى أخى ، وأوافقه فى العبادة ما بقى من عمرى ؛ فلعل الله يغفر لى ! فطلع على نية التوبة ، ونزل أخوه على نية المعصية ، فزلت رجله فوقع على أخيه فماتا جميعا فى السلم ! فحشر العابد على نية المعصية ، وحشر المسرف على نية التوبة .

وحكى أن مؤذنا أذن فى منارة أربعين سنة ، فصعد يوما وأذن حتى بلغ حى على الفلاح ، فوقع بصره على امرأة نصرانية ، فذهب عقله وقلبه ، فترك الأذان

وذهب إليها فخطبها . فقالت : مهرى ثقيل عليك . فقال : وما هو ؟ فقالت : تدخل فى دينى ، وتترك الإسلام ، فكفر بالله ودخل فى دينها . فقالت له : إن أبى فى أسفل الدار ، انزل إليه واخطبنى منه . فنزل فزلت رجله وسقط ومات كافرا ، ولم يقض شهوته منها . نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

والقضايا فى هذا المعنى كثيرة لكن من لطف الله تعالى بعباده ورحمته بهم ، أن جعل انقلاب الناس من الشر إلى الخير أكثر من العكس ، كما هو مشاهد بالعيان ، فلله الحمد والشكر فى السر والإعلان .

قال العارف الربانى ، سيدى عبدالوهاب الشعرانى ، فى «اختصار التذكرة» مانصه : قال العلماء ، رضى الله عنهم : سوء الخاتمة لا يكون إلا لمن كان مصرا على المعاصى فى الباطن ، وله إقدام على الكبائر ، مخادعة لله عز وجل ؛ أما من كان على قدم الاستقامة فى الظاهر ، ولم يصر على معصية فى الباطن فما سمعنا ولا علمنا أن مثل هذا يختم له بسوء أبدا ، ولله الحمد على ذلك . بخلاف من غلب عليه حب المعاصى ، والوقوع فيها ، من غير توبة ، فربما نزل عليه الموت قبل التوبة فيصدمه الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله تعالى ، فيظهر شقاؤه للناس عند موته . وقد يكون العبد مستقيما طول عمره ، ثم يغير ويبدل إذا قرب أجله ويخرج عن طريق الاستقامة ، فيكون ذلك سببا لسوء خاتمته ، وشؤم عاقبته ، كما وقع لابليس ؛ فقد ورد أنه عبد الله مع الملائكة ثمانين ألف سنة ، وكذلك بلعام بن باعوراء ، الذى أعطاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض واتباعه هواه ، وكذلك برصيصا العابد الذى روى أن الله تعالى ، قال فى حقه : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر » . وملخص قصته : أنه كان إذا لمس مصابا بالجنون أو بالصرع برئ ؛ فحصل لابنة الملك خبل بعقلها ، فأرسلوها إليه لتبيت تحت صومعته فى البرية ، فأتاه إبليس وقال له : ازن بها ، فإنها غائبة عن حسها ، فلما فعل ذلك ، قال له

لإبليس : يخاف أن تكون شعرت بذلك فتهتك بين الناس ، فاذبحها وادفنها في ذلك الكوم الرمل ، فإذا جاء جماعة الملك لطلبها . فقل لهم : إنها برئت وذهبت ، فإنهم يصدقونك ، ففعل ما أشار به عليه إبليس ؛ ثم إن إبليس ذهب إلى الملك في صورة عابد ، وقال له : إن برصيصا قد فسق في ابنتك ، وخشي أن تكون شعرت بذلك ، فتعلمكم إذا أفاقت ، فقتلها ودفنها في كوم الرمل قريبا من صومعته ؛ وسيقول لكم : إنها برئت وذهبت إليكم فلا تصدقوه ، فأرسل الملك جماعته ، فرأى ما قاله صحيحا ، فأمر بصلب برصيصا ، فأتاه إبليس وهو مصلوب ، وقال له : اسجد لي بجبهتك ، وأنا أخلصك كما أوقعتك ، فأومأ له بالسجود فكفر ، وذهب إبليس ولم يخلصه ، ومات على كفره . اهـ

هذا وقد قال الإمام الشعراني أيضا ، في كتابه المسمى « الدلالة على الله » عن أبي العباس الخضر عليه السلام أنه قال : سألت أربعة وعشرين ألف نبي عن استعمال شيء ، يأمن العبد به من سلب الإيمان عند الموت ، فلم يجبني أحد منهم ، حتى اجتمعت بمحمد ، صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن ذلك ؟ فقال : حتى أسأل جبريل عليه السلام عن ذلك ، فسأله فقال : حتى أسأل رب العزة عن ذلك؟ فقال الله عز وجل : « من واظب على آية الكرسي ، وآمن الرسول ، إلى آخر السورة . « وشهد الله » إلى قوله : « الإسلام » . « وقل اللهم مالك الملك » إلى قوله : « بغير حساب » وسورة الإخلاص ، والمعوذتين ، والفاتحة ؛ عقب كل صلاة ، أمن من سلب الإيمان . اهـ

وقول الناظم : « والختم » ، معطوف على اللطف : وهو مصدر ختم الشيء ختما : بلغ آخره . والحسنى (بالضم) : الظفر والشهادة ، والباء للمصاحبة ، أي : أطلبه جل وعلا ، أن يكون آخر أجزاء عمري مصحوبا بالشهادة . والحسنى أيضا : ضد السوءى . وأيضا : النظر إلى الله . وأيضا الجنة . وقد جاء في تفسير

قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » أن الحسنى هى الجنة ، والزيادة النظر إلى الله . « ولدى » : ظرف مكان بمعنى عند ، وقد تستعمل فى الزمان . «والارتحال» الانتقال. «والإشخاص» الإزعاج «ويرغب» مضارع رغب إلى الله رغباً ورغبة : ابتهل وتضرع . وفى حديث الدعاء : رغبة ورهبة إليك «فالرحمان» على إسقاط إلى الجارة كما لا يخفى . وهو فى الأصل صفة مشبهة مشتقة من مصدر رحم بعد جعله لازما أو نقله إلى فعل بضم العين . لأن الصفة المشبهة لا تشتق من المتعدى . وقول بعضهم : كيف يشتق والاشتقاق يقتضى الحدوث ليس بشىء لأن المشتق هو اللفظ . وكل لفظ حادث . فالرحمن مأخوذ من الرحمة أو المرحمة أو الرحم إذ الثلاثة بمعنى واحد، وهى فى الأصل : رقة القلب . التى هى كيفية نفسانية . وقال الراغب : الرحمة رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة . وتارة فى الإحسان المجرد عن الرقة . نحو: رحم الله فلانا . وإذا وصف به البارى فليس يراد به إلا الإحسان المجرد ، دون الرقة . وعلى هذا روى : أن الرحمة من الله إنعام وإفضال . ومن الآدميين رقة وتعطف . وعلى هذا قوله ، صلى الله عليه وسلم ذاكرا عن ربه أنه لما خلق الرحم قال : « أنا الرحمان وأنت الرحم شققت اسمك من اسمى فمن وصلك وصلته . ومن قطعك قطعته» فذلك إشارة إلى ماتقدم . وهو أن الرحمة منطوية على معنيين الرقة والإحسان . فركز تعالى فى طبائع الناس الرقة وتفرد بالإحسان فصار كما أن لفظ الرحم من الرحمة . فمعناه الموجود فى الناس من المعنى الموجود لله فتناسب معناهما تناسب لفظيهما . ا هـ

وقال القلاشانى : الرحمة على قسمين : امتنانية ووجوبية ؛ فالامتنانية : هى الرحمة المفضية للنعم السابقة على العمل ، وهى التى وسعت كل شىء ، وأملا

الوجوبية فهى الموعودة للمتقين والمحسنين فى قوله تعالى : « فسأكتبها للذين يتقون » وفى قوله : « إن رحمت الله قريب من المحسنين » قال : وهى داخلة فى الامتنانية لأن الوعد بها على العمل محض المنة .

وفى تفسير الإمام أبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى : الرحمة إرادة الله الخير بأهله ، وهى على هذا صفة ذات . وقيل : ترك العقوبة لمن يستحق العقوبة ، وإسداء الخير إلى من لا يستحق ، وعلى هذا صفة فعل . اﻫ

فائدتان :

الأولى : قال بعض العارفين : حظ العبد من الرحمان الرحيم ، أن يتلبس بشىء من الرحمة فيكون ذا رحمة على عباد الله تعالى وقد ورد عن عبد الله ابن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الراحمون يرحمهم الرحمان ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وقد ذكر فى بعض التفاسير : أن إبراهيم عليه السلام كان يعرج فى كل ليلة إلى السماء ، وذلك قوله : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » فعرج به ذات ليلة ، فاطلع على مذنب متلبس بفاحشة ، فقال : اللهم أهلكه يأكل رزقك ويمشى على أرضك ، ويخالف أمرك ، أو كما قال فأهلكه الله تعالى ، ثم اطلع على مذنب آخر ، فقال : « اللهم أهلكه » . فنودى يا إبراهيم كف عن عبادى رويدا رويدا ، فإنى طالما رأيتهم عاصين . ثم رأى ماذكره الله فى كتابه العزيز فى قوله : « إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى » ؟ فلما كشف عن كاهله لامتثال أمر ربه ، وتله للجبين ، وأخذ المدية باليمين قال : اللهم إنك تعلم أن هذا ولدى ، وثمرة فؤادى ، وأحب الناس إلى ، فسمع قائلا

يقول : يا إبراهيم أما تذكر الليلة التى سألتنى فيها إهلاك عبدى ؟ أو ما تعلم أنى رحيم بعبادى ، كما أنت شفيق بولدك ، فكما سألتنى إهلاك عبدى سألتك ذبح ولدك ، واحدة بواحدة ، والبادى أظلم .

الثانية : خاصية هذا الاسم الشريف ، صرف المكروه عن ذاكره وحامله ، ومن ذكره مائة مرة بعد كل صلاة فى جمعية أو خلوة ، أخرج الله من قلبه الغفلة والنسيان .

وقال السهروردى : من كتب « يا رحمان كل شىء وراحمه » بزعفران ومسك ، ودفنه فى بيت من أخلاقه ضيقة . فإن طباعه تتبدد ، ويظهر فيه الحياء والرحمة ، ومن داومه كل يوم مائة مرة كان له العطف والسكينة ، والله أعلم .

تنبيه :

المراد بحظ العبد من الأسماء ؛ القيام بها على نحو ما يليق به وهو المسمى بالتخلق فى عبارة بعضهم . اهـ

قول الناظم « ذا الجلال » : الجلال : العظمة والكبرياء . قال الراغب : الجلالة : عظم القدر ، والجلال : التناهى فى ذلك . وخص بوصف الله تعالى . فقيل : ذو الجلال والإكرام ؛ ولم يستعمل فى غيره . والجليل : العظيم القدر وليس خاصا به . ووصفه تعالى بذلك . إما لخلقه الأشياء العظيمة المستدل بها عليه ، أو لأنه يجل عن الإحاطة به ، . أو لأنه يجل أن يدرك بالحواس اهـ

« والعفو » : الصفح عن الجانى وترك عقوبة المستحق . يقال : عفا عنه ، وعفا له ذنبه وعن ذنبه : تركه ولم يعاقبه . وهو أبلغ من المغفرة فإنها مشتقة من الغفر وهو الستر . والعفو إزالة الأثر ، ومنه : عفت الديار . ولأن الغفران يشعر بالستر . والعفو بالمحو والمحو أبلغ من الستر .

ومن أسمائه تعالى ، « العفوُ » : وهو ترك المؤاخذة على ارتكاب الذنب » وقيل : الذى يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصى ، وقيل : الذى يعطى الكثير ويهب الجزيل ، مأخوذ من قولهم : عفا حال فلان أى كثر ، ومنه : « حتى عفوا » . أى : كثروا وحظ العبد من الاسم الشريف ، أن يعفو عن كل من ظلمه ، ولا يقطع بره عن أحد ، بسبب ماحصل منه ، قال الله تعالى : « وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ؟ » فإنه متى فعل ذلك » فالله تعالى أولى أن يفعل به ذلك ، لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

فائدتان :

الأولى : خاصية هـذا الاسم الشريف أن من أكثر من ذكره فتح له باب الرضى : وقال السهروردى : من داوم على هـذا الذكر الجليل وهو : يا كريم العفو ، ذا العدل ، قد ملأ كل شىء عدله » . من ولاة الأمر انتشر عدله ، وكذا عامه إن كان عالما . ا هـ

الثانية : فى ابن ماجة عن عائشة ، رضى الله عنها . قالت : « قلت يارسول الله . إن وافقت ليلة القدر . فبم أدعو ؟ قال : قولى : اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنى » . وروى الإمام أحمد فى مسنده . عن أنس بن مالك ، قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يارسول الله . أى الدعاء أفضل ؟ فقال : أن تسأل ربك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » . ثم أتاه من الغد ، فقال : يارسول الله أى الدعاء أفضل ؟ فقال : « أن تسأل ربك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » : ثم أتاه الثالث . فقال : يارسول الله . أى الدعاء أفضل ؟ فقال : « أن تسأل ربك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، فإنك إذا أعطيتها فى الآخرة فقد أفلحت » . ا هـ

وقد تواتر عنه ، صلى الله عليه وسلم ، من نحو خمسين طريقا : « اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » .

« ومستشفعا » : حال من أحمد ، وهو اسم فاعل استشفع : إذا طلب الشفاعة وسألها . والمراد هنا : متوسلا إلى الله تعالى فى نيل ما طلب بالمصطفى ، فإن من توسل به ، صلى الله عليه وسلم ، ظفر بمرغوبه لا محالة ، ونال مراده فى قريب بلا سآمة ولا ملالة . كيف وقد قال عليه الصلاة والسلام : « توسلوا بجاهى ، فإن جاهى عند الله عظيم » . والاتفاق على نقله يقوم مقام صحبته فلا عبرة بمنكره .

« والمصطفى » : المختار ، اسم مفعول من الاصطفاء ، وهو الاختيار . قال الراغب الأصفهانى : تناول صفو الشىء كما أن الاختيار تناول خيره . ومنه : محمد ، صلى الله عليه وسلم ، مصطفاه : أى مختاره ، واصطفى الله عبده : قد يكون بإيجاده إياه صافيا عن الشوب الموجود فى غيره ، وقد يكون باختياره وحكمه . ومن الأول : « إن الله اصطفى آدم ونوحا » . وقوله : « وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » . واصطفيت كذا على كذا : اخترته . ومنه قوله تعالى : « أصطفى البنات على البنين ؟ » . اهـ .

ولا خفاء أنه ، صلى الله عليه وسلم ، المختار من خيرة خلق الله ، كما يشهد له حديث الطبرانى مرفوعا : « إن الله اختار خلقه ، فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختار منهم بنى هاشم ، ثم اختار بنى هاشم فاختارنى منهم ، فلم أزل خياراً من خيار » .

تنبيه

ما يوجد فى عبارة بعض المصنفين بل غالبهم من قولهم مثلا : والصلاة والسلام على محمد خير البرية ، أو خير الخلق ، أو نحو ذلك ، فالمراد : من له فضل معتبر منهم ، لا مطلقهم ؛ لأن تفضيل الكامل على الناقص نقص .

ألا ترى لو فضل شخص السلطان على الزبال لاستوجب منه العقوبة والتنقيص ، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله :

إذَا أنتَ فضلتَ امرأً ذَا نباهةٍ على ناقص كانَ المديح من النقصِ
ألمْ ترَ أنَّ السيفَ ينقصُ قدْرُهُ إذَا قِيلَ هذاالسيفُ خير من العصى؟

« والشفيع » كأمير : صاحب الشفاعة نعت لما قبله. ومعلوم أنه ، صلى الله عليه وسلم ، ذو شفاعات أعظمها وأكبرها الشفاعة لإراحة الناس من الموقف . وقد أخرج حديثها أئمة الصحيح ، وحديثها من الأحاديث المتواترة . كما قال الشيخ الإمام الحجة الهمام ، أبو عبد الله سيدى التاودى بن سودة ، رضى الله عنه :

مِمَّا تواترَ حديثُ : منْ كذبْ ومنْ بَنى لِلهِ بيتاً واحتسبْ
ورؤية ، شفاعة ، والحـــوْض ومسحُ خفينِ ، وهـذِى بعضُ

« ومحمد » : بدل أو عطف بيان مما قبله على قاعدة إعراب المعرفة المقدم عليها نعتها ، والأولى أنه خبر لمبتدإ محذوف ، أى وهو سيدنا محمد ، لأن المقام المدح ، والمطلوب فيه تكثير الجمل . « والمنصب » (لغة) : الحسب والمقام ، ويستعار للشرف ، ومنه منصب الولايات السلطانية والشرعية وجمعه المناصب . وفى « شفاء الغليل » : المنصب فى كلام المولدين ما يتولاه الرجل من العمل كأنه محل لنصبه ، ثم قال : قال الشهاب : وإنما هو فى الكلام الفصيح بمعنى الأصل والحسب والشرف ، ولم يستعملوه بهذا المعنى لكن القياس لا يأباه . وفى المصباح : يقال لفلان منصب كمسجد ، أى علو ورفعة . وامرأة ذات منصب قيل : ذات حسب وجمال . وقيل : ذات جمال لأنه وحده رفعة لها . « والرفيع » : العالى ، وجملة : « صلى اللهُ عليه » خبرية لفظا إنشائية طلبية معنى . وأردف الناظم ذكر اسمه ، صلى الله عليه وسلم ، بالصلاة عليه

لقوله عليـه السلام : « البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم يصل على » .
وختم بها كما بدأ، رجاء بركتها فى البدء والختام ، وطمعا فى قبول ماوسطه بين الصلاتين من الـكلام ، ورغبة فى استجابة دعائه وتلبية تضرعه ونداثه .

وقد روى الترمذى ، عن سيدنا عمر ، رضى الله عنه قال : بلغنى أن الدعاء موقوف بين السماء والأرض فلا يصعد شىء منه ، حتى يصلى على النبى ، صلى الله عليه وسلم .

وروى الديلمى وغيره ، عن سيدنا على ، رضى الله عنه ، مرفوعا : « كل دعاء محجوب حتى يصلى على محمد » . ولبعضهم فى المعنى :

إذا أملت من مولاك قربا ⁂ فجدد ذكر خير الأنبياء
وصل عليه أول كل قول ⁂ وآخره بصبح والمساء

وقال آخر :

أيا من أتى ذنبا وقارف زلة ⁂ ومن يرتجى الحسنى من الله والقربى
تعاهد صلاة الله فى كل ساعة ⁂ على خير مبعوث وأكرم من نبا
ومن لم يـكن يعقل فإن دعاءه ⁂ يجد قبل أن يلقى إلى ربه حجبا

واغتناما لـما ورد فيها من الفضل والصواب ، وجاء فيها من الأحاديث والآثار التى لا تحصى بكتاب . «وطول» (بضم الطاء) مصدر طال أى امتد منصوب على المفعولية المطلقة بعامل محذوف ، نعت لمصدر محذوف . والتقدير : صلى الله عليه صلاة ممتدة طول الأبد ، «ومستمرة» ، أى امتدادا ا واستمرارا . ويحتمل أنه منصوب على الظرفية «لصلى» لاكتسابه إياها من المضاف إليه وهو الظاهر فيـكون إشارة من الناظم لتأييد الصلاة عليه ، صلى الله عليه وسـلم ، والله أعلم. «والأبد» (محركا) : الدهر الطويل الذى ليس بمحدود ، وجمعه آباد وأبود . وقال الراغب فى « المفردات » : الأبد بالتحريك : عبارة عن مدة

الزمان الممتد الذى لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان . وذلك أنه يقال : زمان كذا ولا : أبد يقال كذا ، وكان حقه أن لا يثنى ولا يجمع إذ لا يتصور حصول أبد آخر يضم إليه فيثنى . ولكن قد قيل : آباد وذلك على حسب تخصيصه ببعض مايتناوله كتخصيص اسم الجنس فى بعضه ثم يثنى ويجمع . على أنه ذكر بعض الناس : أن آباد مولد ليس من كلام العرب العرباء . اهـ

ومعلوم أن صلاة الله على نبيه ، كما قاله القشيرى : زيادة تشريف وتكريم وعلى من دونه رحمة . « ومسلما » حال من فاعل صلى وهو اسم فاعل سلم . « وأذكى »: مفعوله وهو اسم تفضيل من الزكاء وهو النمو والزيادة، و«سلام»: مضاف إليه . و«سرمد» : نعت لسلام ، والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع .

ومعلوم أن السلام (لغة) : الأمان وأن سلام الله على نبيه ، كما قال السنوسى : زيادة تأمين، وطيب تحية وإعظام . وهذا هو الذى يومىء إليه الناظم إذ معناه : مؤمنا له أزيد تأمين وأنماه . وأطيبه وأشرفه وأولاه «والأبرار» نعت لما قبله وهو جمع بر ويجمع على بررة . والبر الصادق والكثير البر : أى الخير والإحسان والأبرار كثيرا مايخص بالأولياء والزهاد والعباد . وفى الحديث : « الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها، وفجارها أمراء فجارها» . قال ابن الأثير هذا على جهة الإخبار عنهم لا على طريق الحكم فيهم « والتابعين » : جمع تابع اسم فاعل تبع الشىء سار فى أثره . واهتدى بهديه واتبع سنته . واقتفى طريقته، والمراد بهم التابعيون ومن بعدهم إلى قيام الساعة ممـا اهتدى بهدى الصحابة . واستن بسنتهم . يدل له إبداله منهم قوله : « العبد والأحرار » ففيه العطف بالواو المحذوفة . « والتابعيون» جمع تابعى وهو (عرفا) : من اجتمع بالصحابى اجتماعا متعارفا .

قال ابن حجر : هذا هو المشهور ، خلافا لمن اشترط فى التابعى طول الملازمة. أو صحة السماع أو التمييز . « والعبد» : جمع عبد يطلق على الإنسان حرا

كان أو رقيقا . ويطلق على المملوك . قال ابن حزم : العبد : يطلق على الذكر والأنثى . والمراد عند الناظم : جمع العبد بمعنى المملوك ، بدليل عطف الأحرار عليه . وكما يجمع العبد ، على عبد بضمتين كما فى النظم يجمع أيضا على عبيد وأعبد وعباد وعبدان وعبدان وعبدان وعبدان ومعبدة ومعابد وعبداء وعبدى وعبد ومعبوداء وعبدون وجمع أعبد أعابد . كذا فى القاموس . وزاد ابن القطاع : من جموعه عبداء وعبدة ومعبودا ، وأعبدة وأعباد وعبود وعبد وعباد وعباد وعبدة ، وزاد آخر : عبيدون ، وآخر : عبودة ، فهذه سبع وعشرون . وقد جمع ابن مالك ، رحمه الله ، أحد عشر منها فى قوله :

عباد عبيد ، جمع عبد وأعبد   أعابد معبوداء معبدة عبد
كذلك عبدان وعبدان أثبتا   كذاك العبدا وامدد إن شئت أن تمد

وذيل نظمه المذكور بتسع جموع أخر ؛ الأمام جلال الدين السيوطى ، رحمه الله فقال :

وقد زيد أعباد عبود عبدة   وخفف بفتح والعبدان أن تشد
وأعبدة عبدون ثمت بعدها   عبيدون معبودا بقصر فخذ تشد

وقد ذيلت النظامين مما ببقية الجموع المذكورة فقلت :

وقد زيد أيضا عبد ومعابد   كذلك عباد وعبد وزد عبد
كذا عبداء ضف لها وعبودة   فهذه سبع ضف لعشرين إن تعد

وقد جمع بعض الفضلاء ثلاثا وعشرين منها فى قوله:

جموع عبد عبود وأعبد عبد   أعابد عبد عبدون عبـــدان
عبد عبدا ومعبودا ومدهما   عبدة عبدا عباد عبـــدان
عبيد أعبـدة عبـاد معبـدة   معابد وعبيـدون العبـدان

قال بعض الشيوخ : وللنظر مجال فى بعض هذه الألفاظ ، هل هى جموع لعبد أو جموع لبعض جموعه كأعابد ومعابد ؟ وينظر فى عبدون ، فإن الظاهر أنه جمع لعبيد ، والعبيد جمع لعبد ، فيبقى النظر فى جمعه جمع مذكر سالم ، فإن هذا غير معروف فى العربية . جمع تكسير يجمع جمع سلامة ، والعبدون كأنه اعتبر فيه معنى الوصفية التى هى الأصل فيه عند سيبويه وغيره .

«والأحرار» : جمع حر (بضم الحاء) ، خلاف العبد ، والحر أيضا : خيار كل شىء ، وأيضا : كل شىء فاخر من شعر وغيره ، وأيضا : الفعل الحسن ، وأيضا : الصقر : وهو طائر قريب من البازى قصير الذنب عظيم المنكبين والرأس ، وهو مما يلحق بالمستثنيات التى تقتل فى الحل والحرم لإذايتها . وله معان أخر : أنظر القاموس وشرحه . والأول هو المراد فى النظم . ومما يناسب المعنى الثانى ، ما قاله بعض الأئمة الأعلام ، لو صحت الصلاة بغير الفاتحة ، لصحت بقول القائل :

أَتمنى عَلى الزَّمانِ مُحالاً ‏ ‏ أنْ تَرَى مقلتاىَ طلعةَ حرِّ

ومنه أيضاً : قول أبى إسحاق الشيرازى :

سألتُ الناس عن خِلٍّ وَفِىٍّ ‏ ‏ فقالوا : مَا إلَى هَذَا سَبيلُ

تَمسكْ إنْ ظفرْتَ بِوُدِ حر ‏ ‏ فإن الحـر فِى الدنيا قَليـلُ

وبالمعنى الأخير يجاب عن قول الشيخ البلقينى ملغزا :

يا عالماً ، إفضـــاله ‏ ‏ قدْ شَاع أرْضاً وَسَمَا

مَاذَا تَقولُ فِى امرِىءٍ ‏ ‏ يَقتلُ حـراً محرِماً

عَمداً بِلا جرْم وَلا ‏ ‏ يَغرمُ فِيهِ دِرْهما ؟

والله تعالى العليم بالخفيات ، والمحيط بما أضمرته النيات . وهذا آخر

ما يسره المولى الكريم من الشرح على هذه النصيحة ، ووصلت إلى جمعه وتنقيحه القريحة ، ووافق الفراغ منه ضحوة يوم الخميس سابع جمادى الآخرة سنة عشرين وثلاثمائة وألف .

والحمد لله أولا وآخراً ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الأطهار ، وصحابته الأخيار ، والتابعين لهم بإحسان مأمورا وآمرا .

اللهم يامن له الاسم الأعظم وهو أعظم . يامن تقدم على القدم وهو أقدم ، يامن ليس له حد يعلم ، وهو أعلم ! نسألك بكل اسم هو لك وما جرى به في اللوح المحفوظ القلم : أن تكفينا شر من خلقت وما خلقت ، من علمت منهم وما لم أعلم ، وأن تختم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأوليائك ، وتجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك . اللهم يامن أظهر الجميل ، وستر القبيح ! يامن لم يؤاخذ بالجريرة ، ولم يهتك الستر ! ياعظيم العفو ياحسن التجاوز ! ياواسع المغفرة ياباسط اليدين بالرحمة : ياسامع كل شكوى ومنتهى كل نجوى ! يا كريم الصفح ! ياعظيم المن ! يامبدىء النعم قبل استحقاقها ! ياربّاه ، ياسيداه ، ياأملاه ، ياغاية رغبتاه ! أسألك أن لاتشوه خلقتنا بالنار ، واغفر لنا ولوالدينا ولأشياخنا ولجميع المسلمين ، وضع بفضلك وكرمك على هذا الشرح القبول ، واجعله وسيلة لبلوغ المسئول ، والظفر بالمأمول : فأنت الولى الحميد ، الفعال لما تريد، وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

تقريظ هذا الكتاب

الحمد لله ؛ قرظ هذا الشرح الجليل الشريف المثيل العلامة النبيه الفقيه النزيه سلسل الملوك الفخام ، ونجل السلاطين العظام ، مولاى الطاهر بن أمير المؤمنين مولانا الحسن ، حفظه الله ، بما نصه :

الحمد لله الرحيم الرحمن ، وصلى الله على منبع العلوم والعرفان ، سيدنا محمد سيد ولد عدنان ، وآله وصحبه الذين شيدوا معالم الشريعة والحقيقة ، حتى برزتا للعيان . أما بعد فإن الفقيه البارع المحقق ، العلامة المدقق ، الرئيس فى المعقول والمنقول ، ذا الفصل والقول ، سلالة الأشراف والعلماء ، ونخبة الأذكياء الفطناء المحرز قصب السبق فى مضمار البراعة ، أوحد زمانه فى الفصاحة والبلاغة ، الشريف الحسنى : سيدى عبد الصمد ابن خاتمة المحققين ، وعلم العلماء العاملين ، الدر المكنون سيدى وشيخى ، سيدى التهامى كنون ، أطال الله بقاءهما ، وأدام على بركاتهما لما وضع هذا الشرح الجليل ، والرقيم العديم المثيل ، سألته من مخترعه ذى الفهم الصائب ، والذهن الثاقب ، فسمح لى به ، فوجدته وحيداً فى بابه ، والدهر ضنين أن يسمح بمثاله ، ويكفى ويشفى عن جميع المواعظ ، ولا يستغنى عنه واعظ ، مع ما ضم فيه من العلوم العقلية والنقلية ، والطريقة والحقيقة . فلله دره شارحا ، على عقد در نوره لائحا ، ومحصوله : أن هذا السيد الجليل يكفيه حل مقفل غوامض هذه الأرجوزة ؛ التى للعالم المحقق ؛ أبى العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالى ؛ وتنسيق شرح كلام مثل هذا الوالى ، لاسيما وقد أجاد وأفاد ؛ وأبدا وأعاد ، وحلاها بحلى ووشاح ، حتى ظهر جمالها بالإصباح ، ورونقها فى الخدر بدرر بهية وخلعة عزيزة سنية ، واستهل نصحها فى كل ناد ، وبدا هلالها لكل العباد . والسلامان على سيدنا محمد خاتم الأنبياء ، وعلى آله وأصحابه الأتقياء .

فى فاتح ذى القعدة عام ١٣٢٦ هـ .

كتبه عبــد ربه المعترف بذنبه ، خديم العلماء : الطاهر ابن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن ، وفقه الله وكان له ظهيراً .

* * *

الحمد لله ، وقرظه أيضــاً الشريف المنيف ، الفقيه النزيه الغطريف ، الخليفة الأرشد الوجيه الأمجد ، مولانا العباس بن أمير المؤمنين مولانا الحسن ، شكر الله سعيه وحفظ جلالته ورأيه ، ما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمــد خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه ، وكل من اهتدى بمناره إلى يوم الدين . وبعد ، فقد اطلعنا على جُلّ هذا الشرح السـافر عن كثير من وجوه الحقائق ، على منظومة العالم المحقق ، سيدى أحمد بن عبد العزيز الهلالى ، لشيخنا الفقيه العلامة الشريف الحسنى ، سـيدى عبد الصمد بن الفقيه عالم العلماء ، وإمام المحدثين سيدى التهامي كنّون .

وشكرنا الشارح على قصده الجميل ، لتمهيد مناهج التحصيل ، فنعم الشرح يستعين به المعلم ومن يتعلم ، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعله عملا ليس مضاعاً بعزة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

فى ٧ ذى القعدة عام ١٣٢٨ هـ

كاتبه عبد ربه العباس بن الحسن بن محمد : الله وليه ومولاه .

* * *

الحمد لله ، وقرظه أيضاً : الشريف الأجل العلامة المحقق الأفضل ذو السعي الناجح ، والإنابة إلى مولاه والرأى الصالح ، مولاه على بن أمير المؤمنين مولانا الحسن ، دام عزه ومجده ، وسؤدده وجده ، بما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام الأتمان على قطب الوجود ، وأصل كل فيض ومدد وجود ، سيدنا ومولانا وروح سرّنا النبي الكامل ، والمفتاح الخاتم ، سيدنا ومولانا محمد ، وآله الأطهار ، وصحابته الأماجد الأخيار ، وكل من انتمى إلى شرعه بصدق الاضطرار .

أما بعد ، فقد وقف العبد الفانى ، المخطئ المسيء الجانى ، أسير كسبه ورهين هواه ، على بن الحسن ، الراجى غفران ذنبه ، والصفح عن هفواته ، من سيده جل شأنه وتعالت أسماؤه ، غاية مناه ، على ما سطرته أنامل الشريف التقى الناسك العابد ، الزاهد الورع المتبتل إلى مولاه سرًّا وجهرًا ، المنعم عليه بما استأثر به من بين أبناء جنسه ، فكان ذلك آية سعادته واجتبائه ، العلامة النحرير المحقق النبيل ، الفقيه النفاعة ، أخينا فى الله ، وابن شيخنا وعمدتنا ، سيدى عبد الصمد ، فله والله من اسمه نصيب ، صمد إلى مولاه بصدق التوجه ؛ فوجدت ذلك المسطور قد حوى من التحقيق أعلاه ، وأبدى من دقائق معانى تلك القصيدة ، التى هى للمحقق الولى الكامل ، والبحر الخضم فى المعقول والمنقول ، الفاضل العلامة الهلالى ، مالا يدركه إلا من حباه ربه ، جل شأنه وأولاه ،

فيا له من شرح اقتض بكارة هذه المخدرة ، التى كان لها كفؤا فأصدقها من فهوماته وتحريراته ، مهر الكشف والبيان ، والجمع للفوائد والنكت الحسان ، مع ما رصعه بجواهر الأحاديث النبوية ، والأنقال المحررة المرضية ، فهو ـ والله ـ يتيمة فى بابه ، يكفى عن كل ما يتشوف إليه فى بابه ، لكونه حاز من النواة لبها ، وأخذ الأزمة كلها . فقد ، اطرد فيه مثل : « الصيد كله فى جوف الفرا » . فكان بدؤه شافيا ، وختمه كافيا وافيا بلا امتراء . والسلام .

فى ١٣ شعبان عام ١٣٢٨ هـ .

كتبه أسير ذنبه العاصى المخطئ الجانى : على بن الحسن ، كان الله له بمنه . وجاه نبيه عليه الصلاة والسلام .

* * *

الحمد لله الذى نور صدور العلماء ، وجعلهم فى الأرض مصابيح كالنجوم فى السماء ، يقتدى بهم فى ظلمات الجهل ، ويدلون العباد على ما ينفعهم يوم الفصل ؛ والصلاة والسلام على أفضل من نطق بالضاد الفصيحة ، القائل فيما رويناه فى الصحيحين : « الدين النصيحة » ، وعلى آله السالكين طرقه الصحيحة .

أما بعد : فلما كان من أفضل أعمال البر وأولاها ، وأجلها قدرا عند الله وأعلاها ، نصيحة الخلق لله ، حتى حرص عليها مولانا رسول الله . وقد انتدب لذلك الأعلام ، رغبة فيما عند الملك العلام . وكان ممن أرسل جواد قلمه فى هذا الميدان ، وجمع

من سبائك البيان والتبيان ، ما ينظره فى هذا من له عينان ، الفقيه العلامة المشارك النورانى ، الدراكة الأنبل عزيز الثانى ، سلالة الإجادة ، ورضيع التحقيق والرواية والإفادة ، من شفى القلوب من الكمد ، النحرير اللوذعى ، سيدى عبد الصمد نجل شيخنا العلامة المحدث المرحوم ، حامل راية التحقيق فى المنطوق والمفهوم ، سيدى التهامى بن المدنى كنون ، عاملنى الله وإياه بالقبول والرضا ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، فإذا هو كتاب جليل ، بجمع الفرائد والفوائد كفيل ، جعله الله خالصا لوجهه الكريم ، ومن الأعمال التى لا تنقطع بالموت ، بفضله العميم ، ونفع به وبأمثاله ، إنه على ما يشاء قدير ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين .

وكتبه الفقير المخطئ عبد السلام بن محمد بن عبد المعطى العمرانى الحسنى ، غفر الله ذنوبه ، وملأ بحبه ذنوبه .

• • •

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

الحمد لله ، ألهم أهل السعادة لنفع العباد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام أهل الفضل والرشاد ، وعلى آله وكل من والاه فى كل ناد . أما بعد ، فقد أطلعنى أخونا فى الله وأجل أحبابنا من أجله ، الفقيه العلامة الدراكة الفهامة ، الجامع بين علمى الظاهر والباطن ، أبو الفيض سيدى عبد الصمد ، نجل المرحوم بكرم الله تعالى ، شيخنا العلامة الجامع ، ذى القلب الخاشع ، والنور الساطع ،

سيدى محمد التهامى كنون ، رعاه الله ؛ على هـذا الشرح النفيس الجليل ، ذى الفضل الكامل والنفع العميم الكفيل ، فألفيته فريداً فى بابه ، جامعاً مانعاً ، نافعاً لكل واقف عليه ، لا سيما من كان من خاصة أحبابه ؛ جزى الله مؤلفه بكمال رضاه والقبول ، ويسر له طبعه ليعم النفع به بجاه النبى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله ما هبت نسمات الفتح على أهـل الوصول ، آمين والحمد لله رب العالمين .

أمر بكتبه من مبيضته وختمه ببنانه فى عشرى صفر الخير ، عام اثنين وأربعين وثلاثمائة وألف ، خديم العلم والنسبة ، عُبَيْد ربه تبارك وتعالى ، الشيخ فتح الله البنانى ..

الله له بمنه وكرمه .

﴿ كلمة مصحح الكتاب ﴾

بحمد الله تبارك وتعالى وعونه تم طبع هذا السفر الجليل ،
الحاوى لفرائد العلوم النافعة ، الجامع لفنون من الفوائد الرائدة ،
التى تسعد المؤمن العامل بها فى دنياه وآخرته .
وهى مما أفاض الله تبارك وتعالى به على عبده ،
سليل أهل التقوى ، مصابيح الهداية وأئمة الإسلام ،
وارث آبائه وأجداده الخيرة الأعلام ،
سيدى : عبد الصمد بن كنون رحمه الله تعالى ؛
وأعظم له الأجر والمثوبة ، آمين .
وقد أنعم علىّ بالقيام على خدمة هذا الكنز الثمين ،
والبحر الزاخر بشتى المعارف العلوية ،
إبان طبعه بمطبعة الكيلانى بالقاهرة ،
لصاحبها السيد : رشاد كامل كيلانى ، بارك الله له ؛
وذلك بتصحيح تجاربه الطباعية ، وضبط عبارته ،
وإثبات نصه المبارك ..
وأرجو أن أكون قد أديت هذا الواجب المحبب إلىّ ،
بأمانة وصدق نية ، قدر الطاقة ، وأن يغفر الله تبارك وتعالى لى
بفضله وإحسانه ، ما عسى أن يكون قد وقع من خطأ
غير متعمد ، أو نسيان طارئ لا يبرأ منه إنسان ،
إلا بحول من الله وقوة ، فإنه جل شأنه العلىّ العظيم .

هذا ، وكنت رغبت إلى سيدى الأخ الأمثل ،
والأستاذ الأفضل الشيخ عبد الله كنون ،
أدام الله به النفع للإسلام والمسلمين ، أن يزودنى
بموجز عن حياة والده سيدنا العارف بالله ، رحمه الله ،
ليكون مسك الختام ، لهذا الكتاب القيم ،
فبعث إلىّ حفظه الله تعالى بما نصه :

« ... فهو رحمه الله تعالى : العالم الربانى الفقيه المحدث الناسك الورع السيد عبد الصمد بن الشيخ سيدى التهامى كنون ، ينتهى نسبه إلى السيد محمد كنون بن القاسم بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ، فهو إدريسى حسنى . وقد ازداد عام ١٢٩٠ ﻫ بمدينة فاس ، وتلقى العلم عن والده وغيره من مشيخة جامع القرويين ، واشتغل بالتدريس فيه وتخرج على يده مئات من طلبة العلم ، وعرف بالنسك والتقوى ، وكان هو وأخوه العالم العامل سيدى محمد ، يعرفان بحمامتى القرويين للزومهما الدرس فيها ، وعدم افتراقهما ، وقيامهما على ساق الجد فى نشر العلم ونصح العباد .

وقد لزم رحمه الله سلوكه هذا بعد انتقاله لسكنى مدينة طنجة ، فنفع الله به خلقاً كثيراً من طلبة العلم ، وعامة الناس الطالبين للهداية ، والسالكين طريق الحق .

وله رحمه الله عدة مؤلفات منها : « شرح العمل الفاسي في علم الفقه » مطبوع بمصر ، ومنها « شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدّين » مطبوع أولا بفاس وثانيا بمصر ، وكتب أخرى كثيرة ما تزال مخطوطة ومنها هذا الكتاب القيم « شرح نصيحة الهلالي » الذي يطبع لأول مرة ، والمرجو أن ينفع الله تبارك وتعالى به كما نفع بمؤلفه في حياته .

وكانت وفاته رحمه الله بعد أن صلى العصر جماعة مع زمرة من أخص أحبابه ، وهو يقرأ المسبعات ، بعد قراءة الباقيات الصالحات ، يوم السبت ثاني ذي القعدة عام اثنين وخمسين وثلاثمائة وألف عن ٦٣ عاما بمدينة طنجة ، ودفن يوم الأحد غده زوالا ، وكانت جنازته حافلة » . اهـ

وكان الفراغ منه في العشرين من صفر الخير سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف هجرية ، المقابل الخامس والعشرين من مارس سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف ميلادية .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين ، وآله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين ، آمين .

أحمد زكي عطية

﴿ فهرس الموضوعات ﴾

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٦٨٠ / ١٩٧٣

مطبعة الكيلاني
المدير المسئول : رشاد كامل كيلاني
٢٢ شارع غيط العدة - باب الخلق
ت ٩١٨٥٩٨